تحرير

جامع السعادات

الشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي «قدس سره»

رضا مختاري

شبكة الفكر
alfeker.net

تحرير جامع السعادات

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

هاتف: ٠٣/٩٤٦١٦١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٤٧١٥١٠
http://www.Dar-Alamira.com
e-mail:info@dar-alamira.com

تحرير جامع السّعادات

في موجبات النجاة

المؤلف

المولى محمد مهدى النراقي ﷺ (م ۱۲۰۹)

رضا مختاري

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

المقدمة ١٥

الفصل الأوّل: حياة العلّامة المولى محمد مهدي النراقي ﷺ ١٧

الفصل الثاني: علم الأخلاق و جامع السعادات ٢٧

الفصل الثالث: تحرير جامع السعادات ٣٧

تحرير جامع السعادات في موجبات النجاة

الباب الأوّل: في المقدّمات

الفصلُ الأوّلُ: انقسام حقيقةِ الإنسانِ وحالاته بالاعتبار ٧

الفصلُ الثاني: بيان التذاذ النفس وتألّمها ٨

الفصلُ الثالثُ: فضائل الأخلاق ورذائلها ٩

الفصلُ الرابعُ: حَجْب الأخلاق الذميمة عن المعارف ١١

الفصلُ الخامسُ: تأثيرُ المِزاجِ على الأخلاقِ ١٥

الفصلُ السادسُ: تأثيرُ التربيةِ على الأخلاقِ ١٧

الفصلُ السابعُ: شرفُ علمِ الأخلاق لشرفِ موضوعهِ وغايتهِ ١٩

الفصلُ الثامنُ: النفس وأسماؤها باختلاف الاعتبارات ٢١

الفصلُ التاسعُ: حقيقة الخير والسعادة ٢٤

الفصلُ العاشرُ: شرائطُ حصولِ السعادةِ ٢٥

الفصلُ الحادي عشرَ: تقسيم اللذّات والآلام ٢٦

الباب الثاني: في أقسام الأخلاق

الفصل الأوّل: أجناسُ الفضائلِ الأربعةُ والأقوالُ في حقيقةِ العدالة ٣٣
الفصل الثاني: تحقيقُ الوسطِ والأطراف ٣٦
الفصلُ الثالثُ: أجناسُ الرذائل الثمانية ٣٧
الفصلُ الرابعُ: الفرقُ بينَ الفضيلةِ والرذيلةِ ٤٠
الفصلُ الخامسُ: طريقُ حفظِ اعتدالِ الفضائلِ ٤٧
الفصلُ السادسُ: طريقُ معرفةِ الأمراضِ النفسانيّةِ وأسبابُها ٥٠
الفصلُ السابعُ: المعالَجاتُ الكُلّيّةُ لِمرضِ النفسِ ٥١

الباب الثالث: فيما يتعلّق بالقوّة العاقلة من الرذائل والفضائل وكيفيّة العِلاج

جِنْسا رذائل القوّة العاقلة ٥٥
الجنس الأوّل: الْـجَـرْبزَةُ ٥٥
الجنس الثاني: الجهلُ البسيطُ ٥٦
وصلٌ: ضِدُّ هذين الجنسين: الحكمة ٥٧
أنواعُ الرذائلِ والفضائلُ والنتائجُ والآثار ٥٩
النوع الأوّل: الجهلُ المركّبُ ٥٩
النوع الثاني: الشكّ والحيرَةُ ٦٠
وصل: ضدّ الجهل المركّب والحيرة والشكّ: اليقين ٦١
الأمر الأوّل: علامات صاحب اليقين ٦٢
الأمر الثاني: مراتبُ اليقينِ ٦٥
النوع الثالث: الشِـرْك ٦٧
النوع الرابع: الخواطرُ النفسانيّة والوساوسُ الشيطانيّة ٦٨
البحث الأوّل: أقسامُ الخواطرِ ومنها الإلهام ٦٨
البحث الثاني: المطارَدة بين جُنْدَ الملائكةِ وجند الشياطينِ ٧٠
البحث الثالث: تَسْويلاتُ الشيطانِ وَوَساوِسُهُ ٧١
البحث الرابع: عـلاجُ الوَساوِسِ ٧٢
البحث الخامس: ما يَتِمّ به علاجُ الوَسواسِ ٧٤
البحث السادس: ما يتوقّف عليه قطعُ الوَساوِسِ ٧٥

وصـل: ضدّ الوسوسة: الخاطر المحمود والتفكّر ٧٨
الأمر الأوّل: مجاري التفكّر في المخلوقاتِ ٧٩
الأمر الثاني: التفكّر النافع ٨١
النوع الخامس: المكر والحيل ٨٥

الباب الرابع: فيما يتعلّق بالقوّة الغضبيّة من الرذائل والفضائل وكيفيّة العِلاج

جنسا رذائل القوّة الغضبيّة ٨٩
الجنس الأوّل: التهَوُّرُ ٨٩
الجنس الثاني: الجُبْنُ ٩٠
وصلٌ: ضدّ هذين الجنسين: الشجاعةُ ٩١
أنواعُ الرذائلِ والفضائلُ والنتائجُ والآثارُ ٩٢
النوع الأوّل: الخوفُ ٩٢
البحث الأوّل: الخوفُ المحمودُ وأقسامُه ودرجاتُه ٩٣
البحث الثاني: بِمَ يتحقّقُ الخوفُ؟ ٩٤
البحث الثالث: الخوفُ من الله أفضلُ الفضائلِ ٩٦
البحث الرابع: الخوفُ إذا جاوزَ حدَّه كان مذموماً ٩٨
البحث الخامس: طرقُ تحصيلِ الخوفِ الممدوحِ ٩٩
البحث السادس: خَوفُ سوءِ الخاتمةِ وأسبابُهُ ١٠٠
البحث السابع: الفرقُ بينَ الاطمئنانِ والأمنِ من مَكْرِ الله تعالى ١٠٢
البحث الثامن: التلازُمُ بين الخوفِ والرجاءِ ١٠٢
البحث التاسع: مواقعُ الخوفِ والرجاءِ وترجيحُ أحدِهما على الآخر ١٠٩
البحث العاشر: العملُ على الرجاءِ أعلىٰ منه على الخوفِ ١١٠
البحث الحادي عشر: مداواةُ الناس بالخوفِ أو الرجاءِ على اختلافِ أمراضِهم ١١١
النوع الثاني: صِغَر النفسِ ١١٢
وصلٌ: ضدّ صِغَر النفس: كِبَرُ النفسِ وصَلابتُها ١١٣
النوع الثالث: دناءَةُ الهِمّة ١١٥
النوع الرابع: عدمُ الغَيْرةِ والحميّة ١١٦
وصـل: ضدّ عدم الغَيْرة: الغَيْرَةُ والحميّة ١١٧

النوع الخامس: العَجَلَةُ ١١٩
وصـل: ضدّ العجلة: الأناةُ والتوقّفُ والوَقارُ والسكينَةُ ١٢٠
النوع السادس: سوءُ الظَنِّ بالخالِقِ والمخلُوقِ ١٢١
وصـل: ضدّ سوء الظنّ: حُسْنُ الظَنِّ ١٢٥
النوع السابع: الغَضَبُ ١٢٦
البحث الأوّل: الإفراطُ والتفريطُ والاعتدالُ في قوّةِ الغَضَبِ ١٢٧
البحث الثاني: ذَمّ الغَضَب ١٢٧
البحث الثالث: إمكان إزالة الغضب وطرقُ علاجِه ١٢٩
وصلٌ: ضدّ الغضب: الحِلم وكَظْم الغَيْظ ١٣٤
النوع الثامن: الانتقام ١٣٦
وصـل: ضدّ الانتقام: العفو ١٣٨
النوع التاسع: العُنْفُ ١٣٩
وصـل: ضدّ العنف: الرفق ١٤٠
النوع العاشر: سوءُ الخُلُق بالمعنى الأخصّ ١٤٢
النوع الحادي عشر: الحِقْدُ ١٤٤
النوع الثاني عشر: العداوةُ الظاهرةُ ١٤٦
النوع الثالث عشر: الضربُ والفُحشُ واللعنُ والطَعْنُ ١٤٧
النوع الرابع عشر: العُجْبُ ١٥٢
البحث الأوّل: ذمّ العُجْبِ ١٥٣
البحث الثاني: آفاتُ العُجْبِ ١٥٤
البحث الثالث: علاجُ العُجْبِ إجمالاً وتفصيلاً ١٥٤
وصـل: ضدّ العجب: انكسارُ النَفْسِ ١٦٣
النوع الخامس عشر: الكِـبْـرُ ١٦٤
البحث الأوّل: ذمُّ الكِبْر ١٦٥
البحث الثاني: التكبُّر على الله وعلى الناسِ ١٦٦
البحث الثالث: درجاتُ الكِبْر ١٦٧
البحث الرابع: العلاج العلمي للكبر ١٦٧
البحث الخامس: العلاجُ العملي للكِبْر ١٦٩

وصـل: ضدّ الكبر: التواضُعُ ١٧٣
النوع السادسَ عشرَ: الافتخارُ ١٧٥
النوع السابعَ عشرَ: البَغْي ١٧٦
النوع الثامنَ عشرَ: تزكيةُ النَفْسِ ١٧٧
النوع التاسعَ عشرَ: العصبيّةُ ١٧٨
النوع العشرون: كتمانُ الحقِّ ١٧٩
وصـل: ضدّ العصبيّة وكتمانِ الحقّ:الإنصافُ والاستقامةُ على الحقِّ ١٨٠
النوع الحادي والعشرون: القَساوة ١٨١

الباب الخامس: فيما يتعلّق بالقُوّةِ الشَهَويّةِ من الرذائِلِ والفضائِلِ وكيفيةِ العِلاجِ

جنسا رذائِلِ القوّة الشهويّةِ ١٨٥
الجنس الأوّل: الشَرَهُ ١٨٥
الجنس الثاني: الخمود ١٩١
وصلٌ: ضدّ هذين الجنسين: العفّة ١٩٣
أنواعُ الرذائلِ والفضائلُ والنتائج والآثار ١٩٥
النوع الأوّل: حبُّ الدنيا ١٩٥
البحث الأوّل: الدنيا المذمومةُ هي الهوى ١٩٨
البحث الثاني: ذمُّ الدنيا ١٩٩
البحث الثالث: خَسائِسُ صفاتِ الدنيا ٢٠٢
البحث الرابع: عاقبةُ حبِّ الدنيا وبغضِها ٢٠٤
البحث الخامس: ذمّ المالِ ٢٠٧
البحث السادس: الجمعُ بين ذمِّ المالِ ومدحِهِ ٢٠٨
البحث السابع: غوائِلُ المالِ وفَوائِدهُ ٢٠٩
البحث الثامن: الأُمورُ المُنْجِيَةُ من غوائِلِ المالِ ٢١١
وصـل: ضدّ حبّ الدنيا: الزُهدُ ٢١٣
الأمر الأوّل: مدحُ الزهدِ ٢١٤
الأمر الثاني: اعتباراتُ الزهدِ ودَرَجاتُه ٢١٧
الأمر الثالث: الزُهدُ الحقيقيّ ٢٢١

النوع الثاني: الغِنى ٢٢٢
وصلٌ: ضدّ الغنى: الفقر ٢٢٣
الأمر الأوّل: مَراتِبُ الفَقرِ ومَدحُه ٢٢٣
الأمر الثاني: المُوازَنَةُ بينَ الفَقرِ والغِنى ٢٢٥
الأمر الثالث: ما ينبغي للفقيرِ ٢٢٧
الأمر الرابع: وظيفةُ الفقراءِ ٢٢٩
الأمر الخامس: مواردُ قَبولِ العطاءِ ورَدِّهِ ٢٢٩
الأمر السادس: لا يجوزُ السؤالُ من غيرِ حاجةٍ ٢٣٠
النوع الثالث: الحِرصُ ٢٣٤
وصـل: ضدّ الحرص: القناعةُ ٢٣٧
النوع الرابع: الطمعُ ٢٣٩
وصـلٌ: ضدّ الطمع: الاستغناءُ عن الناسِ ٢٤٠
النوع الخامس: البخلُ ٢٤١
وصـل: ضدّ البخل: السخاءُ ٢٤٤
الأمر الأوّل: فضيلةُ إعلانِ الصدقةِ الواجبةِ ٢٤٧
الأمر الثاني: ذمُّ المَنِّ والأذى في الصدقةِ ٢٤٨
الأمر الثالث: ماينبغي للمعطي ٢٤٩
الأمر الرابع: ما ينبغي للفقراء في أخذِ الصدقةِ ٢٥٢
الأمر الخامس: ما ينبغي في الإنفاقِ على العيالِ ٢٥٣
الأمر السادس: الإنفاقات المستحبّةُ الداخلةُ تحت السخاءِ ٢٥٣
الأمر السابع: الفرقُ بين الإنفاقِ والبِرِّ والمعروفِ ٢٥٧
النوع السادس: طلبُ الحرام ٢٥٨
البحث الأوّل: عِزّةُ تحصيلِ الحلالِ ٢٥٩
البحث الثاني: أنواعُ الأموالِ ٢٦٠
البحث الثالث: الفرقُ بين الرشوةِ والهديّةِ ٢٦١
وصـل: ضدّ طلب الحرام: الورعُ عن الحرامِ ٢٦٤
الأمر الأوّل: مدح الورع ٢٦٤
الأمر الثاني: درجاتُ الوَرَعِ ٢٦٦

النوع السابع: الغَدْرُ والخيانةُ ٢٦٨
وصـل: ضدّ الخيانة: الأمانة ٢٦٩
النوع الثامن: الخَوْضُ في الباطِل ٢٧٠
النوع التاسع: التكلُّمُ بما لا يَعْني أو بالفُضولِ ٢٧١
البحث الأوّل: حدُّ التكلُّمِ بما لا يَعني ٢٧٢
البحث الثاني: علاجُ الخوضِ فيما لا يعني ٢٧٤
وصـل: ضدُّ التكلّمِ: الصمتُ ٢٧٥

الباب السادس
فيما يتعلَّق بالقُوى الثلاثِ أو باثنتينِ منها من الرذائل والفضائل وكيفيّة العِلاج

أنواعُ الرذائلِ والفضائلُ والنتائجُ والآثارُ ٢٧٩
النوع الأوّل: الحسدُ ٢٧٩
البحث الأوّل: ذمّ الحسدِ ٢٧٩
البحث الثاني: المنافسةُ والغِبطةُ ٢٨٢
البحث الثالث: بواعثُ الحسدِ ٢٨٤
البحث الرابع: لا تحاسُدَ بينَ علماءِ الآخرةِ والعارِفين ٢٨٦
البحث الخامس: علاجُ الحسدِ ٢٨٨
وصـل: ضدّ الحسد: النصيحة ٢٩١
النوع الثاني: الإيذاءُ والإهانةُ والاحتقارُ ٢٩٤
وصـل: ضدّ الإيذاء: كفُّ الأذى عن المسلمينَ ٢٩٦
النوع الثالث: إخافةُ المؤمنِ وإدخالُ الكَربِ في قلبِه ٣٠١
وصـل: ضدّ إخافة المؤمن: إدخالُ السرورِ في قلبِ المؤمنِ ٣٠٢
النوع الرابع: ترك إعانةِ المسلمين ٣٠٣
وصـل: ضدّ ترك إعانة المسلمين: قضاءُ حوائج المسلمينَ ٣٠٤
النوع الخامس: المداهنةُ في الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ ٣٠٥
وصـل: ضدّ المداهنة: السعيُ في الأمرِ بالمعروفِ ٣٠٨
الأمر الأوّل: عدمُ اشتراطِ العدالةِ فيه ٣٠٩
الأمر الثاني: مراتِبُ الأمرِ بالمعروفِ ٣١٠

الأمر الثالث: ما ينبغي في الآمرِ بالمعروفِ والناهي عن المنكرِ ٣١١
الأمر الرابع: أنواعُ المنكراتِ ٣١١
النوع السادس: الهِجرَةُ والتَباعُدُ ٣١٤
وصـل: ضدّ التباعد: التزاوُرُ والتآلُفُ ٣١٥
النوع السابع: قطعُ الرَحِمِ ٣١٧
وصـلٌ: ضدُّ قطيعةِ الرحمِ: صلةُ الرحِمِ ٣١٨
النوع الثامن: عقوقُ الوالِدَينِ ٣٢٠
وصـل: ضدّ العقوق: بِرُّ الوالِدَينِ ٣٢١
النوع التاسع: طلبُ العثراتِ وتَـجَـسُّـسُ العيوبِ ٣٢٦
وصـل: ضدّ طلب العثرات: سترُ العيوبِ ٣٢٧
النوع العاشر: إفشاءُ السرِّ وإذاعتُه ٣٢٨
وصـلٌ: ضدّ إفشاء السرّ: كِتمانُ السرِّ ٣٢٩
النوع الحادي عشر: الإفسادُ بينَ الناسِ ٣٣٢
وصلٌ: ضدّ الإفساد: الإصلاح بين الناس ٣٣٣
النوع الثاني عشر: الشماتةُ ٣٣٤
النوع الثالث عشر: المِراءُ والجدالُ والخصومةُ ٣٣٦
وصـلٌ: ضدّ المراء: طيبُ الكلامِ ٣٣٩
النوع الرابع عشر: السخريةُ والاستهزاءُ ٣٤٠
النوع الخامس عشر: المزاح ٣٤٣
النوع السادس عشر: الغِيبةُ ٣٤٥
البحث الأوّل: لا تنحصرُ الغيبةُ باللسانِ ٣٤٦
البحث الثاني: بَواعِثُ الغيبةِ ٣٤٩
البحث الثالث: ذمُّ الغيبةِ ٣٥٠
البحث الرابع: علاجُ الغيبةِ ٣٥٢
البحث الخامس: مُسَوِّغاتُ الغيبةِ ٣٥٣
البحث السادس: كفّارةُ الغيبةِ ٣٥٥
وصـل: ضدّ الغِيبة: المدحُ ٣٥٧
النوع السابع عشر: الكذب ٣٦٠

البحث الأوّل: ذمُّ الكذبِ ٣٦١
البحث الثاني: مُسَوِّغاتُ الكذبِ ٣٦٢
وصلٌ: ضدّ الكذب: الصدقُ ٣٧٠
النوع الثامن عشر: حبُّ الجاهِ والشهرةِ ٣٧٨
البحث الأوّل: ذمُّ حبِّ الجاهِ والشُهرةِ ٣٧٩
البحث الثاني: الجاهُ أحبُّ من المالِ ٣٨٠
البحث الثالث: لابدَّ للإنسانِ من جاهٍ ٣٨١
البحث الرابع: الكمال الحقيقيُّ في العلمِ والقدرةِ والمالِ والجاهِ ٣٨٢
البحث الخامس: علاجُ حبِّ الجاهِ ٣٨٦
وصلٌ: ضدّ حبّ الجاه: حُبُّ الخُمولِ ٣٨٨
النوع التاسع عشر: حبُّ المدحِ وكراهةُ الذمِّ ٣٨٩
البحث الأوّل: مراتبُ حبِّ المدحِ وكراهةِ الذمِّ ٣٩٠
البحث الثاني: أسبابُ حبِّ المدحِ ٣٩٠
البحث الثالث: علاجُ المدحِ وكراهةُ الذمِّ ٣٩١
وصلٌ: ضدُّ حبِّ المدحِ: إمّا كراهة المدح وحبُّ الذمّ، أو مساواتهما ٣٩٣
النوع العشرون: الرياءُ ٣٩٤
البحث الأوّل: ذمُّ الرياءِ ٣٩٥
البحث الثاني: أقسامُ الرياءِ ٣٩٧
البحث الثالث: السرورُ بالاطّلاعِ على العبادةِ ٣٩٩
البحث الرابع: متعلّقاتُ الرياءِ ٤٠١
البحث الخامس: بواعثُ الرياءِ ٤٠٢
البحث السادس: كيف يُفسِدُ الرياءُ العملَ ٤٠٣
البحث السابع: شوائبُ الرياءِ مبطلةٌ للعمل ٤٠٤
البحث الثامن: علاجُ الرياءِ ٤٠٦
وصلٌ: ضدّ الرياء: الإخلاصُ ٤١٠
الأمر الأوّل: مدحُ الإخلاصِ ٤١٠
الأمر الثاني: آفاتُ الإخلاصِ ٤١٢
النوع الحادي والعشرون: النفاق ٤١٤

النوع الثاني والعشرون: الغُـرورُ ٤١٦
البحث الأوّل: ذمُّ الغُـرورِ ٤١٧
البحث الثاني: طوائفُ المغرورين ٤١٧
وصلٌ: ضدّ الغُرور: الفَطانة والعلم والزُهد ٤٢٦
النوع الثالث والعشرون: طول الأمل ٤٢٧
وصلٌ: ضدّ طول الأمل: قِـصَـرُ الأملِ ٤٢٨
الأمر الأوّل: ذكرُ الموتِ مقصّرٌ للأملِ ٤٢٨
الأمر الثاني: العَـجَـبُ ممّن يَنْسى الموتَ ٤٢٩
الأمر الثالث: الموتُ أعظمُ الدواهي ٤٢٩
الأمر الرابع: المبادَرةُ إلى الحسناتِ ٤٣٠
النوع الرابع والعشرون: الوقاحة ٤٣١
النوع الخامس والعشرون: الإصرارُ علىٰ المعصيةِ ٤٣٢
وصلٌ: ضدّ الإصرار: التوبةُ والمحاسبة والمراقبة ٤٣٣
الأمر الأوّل: وجوبُ التوبةِ ٤٣٥
الأمر الثاني: عمومُ وجوبِ التوبةِ ٤٣٨
الأمر الثالث: لابدّ من العمل بعدَ التوبةِ ٤٣٩
الأمر الرابع: فضيلةُ التوبةِ ٤٤٠
الأمر الخامس: قبولُ التوبةِ ٤٤١
الأمر السادس: طُرُقُ التوبةِ عن المعاصي ٤٤٢
الأمر السابع: تكفيرُ الصغائرِ ومعنى الكبائرِ ٤٤٣
الأمر الثامن: الصغائرُ قد تكونُ كبائرَ ٤٤٤
الأمر التاسع: شُروطُ كمالِ التوبةِ ٤٤٧
الأمر العاشر: مراتبُ التوبةِ ٤٤٨
الأمر الحادي عشر: علاجُ الإصرارِ على الذنوبِ ٤٥٠
الأمر الثاني عشر: الإنابة ٤٥١
الأمر الثالث عشر: المحاسبةُ والمراقبةُ ٤٥١
الأمر الرابع عشر: مقاماتُ مرابطةِ العقلِ للنفسِ ٤٥٣
النوع السادس والعشرون: الغَفْلَةُ ٤٥٩

وصـل: ضدّ الغفلة: النيّة والإرادة ٤٦١

الأمر الأوّل: تأثيرُ النيّةِ على الأعمالِ ٤٦١

الأمر الثاني: النيّةُ روحُ الأعمالِ وحقيقتها ٤٦٣

الأمر الثالث: عبادةُ الأحرار والأُجراءِ والعبيدِ ٤٦٥

الأمر الرابع: نيّةُ المؤمن خيرٌ من العملِ ٤٦٧

النوع السابع والعشرون: الكَـراهة وعدم الرغبة ٤٧٠

وصلٌ: ضدُّ الكراهةِ وعدمِ الرغبة: الحبُّ والشوقُ ٤٧٢

الأمر الأوّل: أفضلُ مراتبِ الشوقِ ٤٧٣

الأمر الثاني: أقسامُ الحبِّ بحسبِ مبادئِه ٤٧٣

الأمر الثالث: لا محبوبَ حقيقةً إلّا اللهُ تعالى ٤٧٩

الأمر الرابع: ردّ المنكرين لحبِّ الله تعالى ٤٨٠

الأمر الخامس: الطريقُ إلى الرؤيةِ واللقاءِ ٤٨٣

الأمر السادس: تفاوتُ المؤمنين في محبّة اللهِ تعالى ٤٨٤

الأمر السابع: علائمُ محبّةِ اللهِ تعالى ٤٨٥

الأمر الثامن: حبُّ اللهِ لعبدهِ ٤٨٨

الأمر التاسع: الحبُّ في الله والبغضُ في الله ٤٨٨

النوع الثامن والعشرون: السخطُ ٤٩٣

وصلٌ: ضدّ السخطِ: الرضى ٤٩٦

الأمر الأوّل: فضيلةُ الرضى ٤٩٦

الأمر الثاني: رضى الله تعالىٰ ٤٩٨

الأمر الثالث: هل يناقضُ الدعاءُ ونحوُه الرضى ٤٩٩

الأمر الرابع: طريقُ تحصيلِ الرضى ٤٩٩

النوع التاسع والعشرون: عدمُ الاعتمادِ على الله تعالى ٥٠١

وصـلٌ: ضدُّ عدم الاعتماد: التوكّلُ ٥٠٢

الأمر الأوّل: فضيلةُ التوكُّلِ ٥٠٣

الأمر الثاني: درجاتُ التوكّلِ ٥٠٤

الأمر الثالث: السعي لا ينافي التوكُّلَ ٥٠٦

الأمر الرابع: الأسبابُ التي لا ينافي السعيُ إليها التوكّلَ ٥٠٧

الأمر الخامس: اعقلْ وتوكّلْ ٥٠٧
الأمر السادس: طريقُ تحصيلِ التوكُّلِ ٥٠٨
النوع الثلاثون: الكفرانُ ٥١٠
وصلٌ: ضدُّ الكفرانِ: الشُّكر ٥١١
الأمر الأوّل: فضيلةُ الشكرِ ٥١٤
الأمر الثاني: الشكرُ نعمةٌ يجبُ شكرُها ٥١٥
الأمر الثالث: المدركُ لتمييزِ محابِّ الله عن مكارهِه ٥١٦
الأمر الرابع: الأسبابُ الصارفةُ للشكرِ ٥٢٠
الأمر الخامس: طريقُ تحصيلِ الشكرِ ٥٢٢
الأمر السادس: الصحّةُ خيرٌ من السقَم ٥٢٣
النوع الحادي والثلاثون: الْـجَـزَع ٥٢٤
وصلٌ: ضدّ الجزع: الصبـر ٥٢٥
الأمر الأوّل: مراتبُ الصبرِ ٥٢٦
الأمر الثاني: أقسام الصبر ٥٢٧
الأمر الثالث: فضيلةُ الصبـر ٥٢٨
الأمر الرابع: الصبرُ على السرّاء ٥٣٠
الأمر الخامس: اختلافُ مراتبِ الصبرِ في الثوابِ ٥٣٣
الأمر السادس: طريقُ تحصيلِ الصبرِ ٥٣٣
الأمر السابع: التلازمُ بين الصبرِ والشكرِ ٥٣٤
الأمر الثامن: القانونُ الكلّيّ في معرفةِ الفضائلِ ودرجاتُ الصبر والشكر ٥٣٤

الخاتمة: الطهارة

المقدّمة: فضل الطهارة ومراتبها ٥٣٧
المقصد الأوّل: الآداب الباطنة لطهارة الخبث ٥٤٠
المقصد الثاني: ما ينبغي للمؤمن في الطهارةِ ٥٤٢

المقدّمة

الفصل الأوّل: حياة العلّامة المولى محمد مهدي النراقي ﷺ

الفصل الثاني: علم الأخلاق و جامع السعادات.

الفصل الثالث: تحرير جامع السعادات.

الفصل الأول:

حياة العلامّة المولى محمد مهدي النراقيؒ

١ . الولادة و الدراسة

ولد العالم الكامل و المتخلّق بالأخلاق الإلهيّة المولى محمد مهدي النراقي في مدينة نراق ـ التي كانت قرية بعيدة آنذاك ـ في حدود سنة ١١٤٦ هـق.

قصد المولى محمد مهدي مدينة كاشان لأجل الدراسة، و نزل في أحد مدارسها الدينية متحمّلاً الفقر و شظف المعيشة، و لم يكن آنئذٍ معروفاً و مشاراً إليه بالبنان. و ليس لدينا معلومات كافية حول هذه الحقبة الزمنية من حياته. والذي نعرفه عن حياته في كاشان أنّه تتلمذ على أحد أساتذته و هو المولى محمد جعفر بيدگلي و تعلّم على يديه آداب اللغة العربية[١].

إنّ ذكريات المؤلّف عن دراسته في تلك الفترة توضّح لنا مدى الفقر و الحاجة الشديدة التي عاشها النراقي، و تشير إلى أنّه ابتدأ برحلة تهذيب النفس و اكتساب فضائل الأخلاق منذ أن شرع بالدراسة:

> إنّ أحد الكسبة الذي كان حانوته في طريق المدرسة بكاشان التي كان يسكنها هذا الطالب النراقي، إنّ هذا الكاسب المؤمن لاحظ على هذا الطالب أنّه رثّ الثياب، وكان معجباً به، إذكان يشتري منه بعض الحاجيات كسائر الطلاب، فرأى أنّ يكسيه تقرباً إلى الله، فهيأ له ملبوساً يليق بشأنه، وقدمه له عند ما اجتاز عليه، فقبله بإلحاح. ولكن هذا

---

١. گلشن مراد، ص ٣٩٣.

الطالب الأبي في اليوم الثاني رجع إلى رفيقه الكاسب وأرجع له هذا الملبوس قائلاً: إنّي لما لبسته لاحظت على نفسي ضعة لا أُطيقها، لاسيما حينما اجتاز عليك، فلم أجد نفسي تتحمل هذا الشعور المؤلم، وألقاه عليه ومضى معتزاً بكرامته.[۱]

وكانت إصفهان في ذلك المقطع الزمني حاضرة من حواضر العلم، حيث تجمّع فيها كبار العلماء و فطاحلهم، فكانت ـ في الحقيقة ـ دار العلم في إيران، و لأجل الاستمرار في الدراسة و التعلّم سافر إلى إصفهان ليستفيد و يتعلّم من كبار علماء تلك المدينة في مختلف صنوف العلم و المعرفة، و منها الفقه، الأصول، الحديث، التفسير، الطبّ، الكلام و الرياضيات.

هذا العشق و العلاقة و الرغبة الأكيدة في التعلّم كان يلازمه في نفس الوقت ضنك و فقر شديدين، بلغ به الفقر إلى حدٍّ لا يستطيع معه تهيئة مصباح للمطالعة، ممّا يضطرّه أحياناً من الاستفاده من الشمعة الموضوعة في بيت الخلاء[۲].

و منذ زمن بعيد كانت هناك مجموعة من اليهود و النصارى يقطنون إصفهان، فاغتنم العلّامة النراقي هذه الفرصة ليتعلّم أوّلاً اللغتين: العبرية و اللاتينية و ليطّلع على ما حوته كتبهم العلميّة و الدينية ثانياً[۳].

ثمّ توجّه بعد ذلك إلى كاشان لأداء وظيفته الشرعية في تعليم الناس و هدايتهم و إمامة الجماعة، و بعد مدّة من الزمن دفعه شوقه للعتبات المقدّسة أن يولّي وجهه شطر العراق، و يتتلمذ على كبار علماء النجف و كربلاء. و بعد دراسته في النجف و كربلاء رجع إلى كاشان ليقيم فيها إقامة دائمة، و ليشمّر عن ساعدي الجدّ في التدريس و التأليف و نشر العلوم المختلفة، و بفضله و بركته اكتست كاشان حلّة جديدة و صار لها رونق آخر، حيث أصبحت مهوى أفئدة العلماء و محطّ رحالهم.

۲. كمالاته

يقول الأُستاذ آية الله حسن‌زاده الآملي (دام ظلّه) حول الفضائل الأخلاقية و الكمالات النفسانية للنراقي ما ترجمته:

---

۱. مقدمة جامع السعادات، ج ۱، ص «ط» و «ى».

۲. الروضة البهية.

۳. مقدّمة شرح الإلهيات من كتاب الشفاء، ص ۲۱.

إنّه طود العلم و أُستاذ الكلّ في الكلّ... العلّامة المولى محمد مهدي ابن أبي ذرّ النراقي ﷺ، كان واحداً من نوابغ الدهر و جامعاً لفنون العلوم، وفي كلّ فنّ كان رجل ذلك الفنّ ودائرة المعارف الناطقة والمكتبة السيّارة والمتحرّكة. ولا ريب في أنّه كان يُعدّ من الطراز الأول من علماء الإسلام في تبحّره و مهارته في جميع العلوم العقلية والنقلية وحتّى الأدبية و الرياضيات العالية. ويعتبر واحداً من نوادر الدهر في اتّصافه بالفضائل الأخلاقية والملكات الرحمانية، صاحب التصانيف الغزيرة والتآليف الانيقة في مختلف العلوم.

و يقول الأُستاذ العلّامة الطباطبائي ﷺ: «كان النراقيّان ـ كلاهما ـ من أكابر علماء الإسلام غير المعروفَيْن».

و في الحقيقة إنّما يُعرف الشخص بما يتركه من آثار و دلائل، فكلّ أثر من تلك الآثار يعكس شخصيّة المؤلّف من خلال ما يتركه من بصمات عليه. و هكذا العلّامة المولى مهدي النراقي يجب أن يُعرف من خلال تراثه العلمي.

و للأسف فإنّه لم يُعرف هذا العالم الإسلامي الكبير إلّا من خلال كتاب مشكلات العلوم و جامع السعادات مع وجود كلّ هذه المصنّفات القيّمة و الثمينة، التي تحكي عن عمق و عظمة تحقيقاته العلمية و الفكرية.

و على وزن مؤلّفات و مصنّفات العلّامة النراقي الأول ينبغي الحديث عن بعض الأبعاد في شخصيّته العلمية و العملية، فهو عالم ذو فنون، ففي فنّ الرياضيات يُعدّ الشخص الثاني بعد المحقّق نصير الدين الطوسي الذي قام بتحرير أكر ثاوذوسيوس و أُصول أُقليدس، و له حواشٍ على تحرير المجسطي للمحقّق نصير الدين، و صنّف كتباً و رسائل في العلوم الرياضية ذات أهميّة بالغة. و في مقام الكمالات الإنسانية وصل إلى حدّ يخاطبه مثل السيد بحر العلوم بخطاب يدلّ على سموّ هذه الشخصيّة و رفعتها[1].

و قال المرحوم المولى حبيب الله الكاشاني ما ترجمته:

الذي عرج إلى أعلى المراقي، الحاج ملّا مهدي بن أبي ذرّ بن الحاج محمد النراقي، العالم العيْلَم و المحقّق المدقّق و أُستاذ الكلّ في الكلّ، و الجامع لكلّ العلوم العقلية، و الماهر الحاذق في العلوم الشرعية.

كاشف الأسرار و الدقائق التي لم يمكن الاطّلاع عليها قبله، و مبيّن قواعد الحقائق التي

---

١. أنيس الموحّدين، ص ١١ـ ٢٥، المقدّمة.

لم يأتوا بجزء يسير منها، و إذا قيل له: إنّه بحر العلوم لم يكن كلام القائل مجازياً، بل بحقيقة الأمر قال، و إذا قيل له: إنّه علّامة فلا يستحقّ القائل الملامة.

و لقّبه بعض الفضلاء بخاتم الحكماء و المجتهدين، و هذا اللقب هو في محلّه فإنّه أهل لذلك.

أمّا الحكايات المذكورة عن المشاقّ و المصاعب التي واجهها عند الدراسة و تحمّله للفقر و الفاقة و الصبر على حوادث الدهر و نوائب الزمان و رياضاته الروحية و عباداته، فهي مشهورة[1].

قال الفقيه الباحث السيد جواد العاملي في إجازته لابن المولى محمد مهدي النراقي:

ابن أعلم العلماء و أفضل الفضلاء، وحيد زمانه و فريد أوانه، المولى محمد مهدي النراقي وفّقه الله للعروج إلى معارج العلماء و الوصول إلى أقصى مدارج العرفاء»[2].

۳. أساتذته

ذكر أصحاب التراجم و السير سبعة أشخاص كأساتذة للعلّامة النراقي، و صرّح البعض بأنّ أساتذته منحصرون بهؤلاء السبعة[3].

بينما لم يصل إلينا من بين أساتذته في كاشان إلّا اسماً واحداً من أسماء هؤلاء الأساتذة. و من جانب آخر فقد عَدَّ ولدُه المولى أحمد ـ و أيضاً السيد حسن الزنوزي في رياض الجنّة ـ الميرزا نصير بأنّه واحداً من أساتذة المولى محمد مهدي في إصفهان، بينما لم يذكر هذا الاسم من بين الأشخاص السبعة الذين ذكرهم المولى أحمد في كتاب الكواكب السبعة بعنوان أساتذة المترجَم له.

و الظاهر أنّ منشأ ذلك أنّهم لم يعرفوا إلّا هؤلاء السبعة أساتذةً له، و هذه هي عبارة المولى أحمد في إجازته لأخيه المولى محمد مهدي:

ثم الوالد الأُستاذ يروي عن مشايخه الكرام السبعة، الذين هم في عصرهم في البلاد بمنزلة الكواكب السبعة في السبع الشداد[4].

فالمولى أحمد في هذه الإجازة كان في مقام تعداد مشايخ إجازة والده، و مراده أنّ مشايخ

---

۱. لباب الألقاب، ص ۹۲.
۲. نفس المصدر السابق.
۳. مقدّمة جامع السعادات، صفحة «د».
٤. مقدّمة عوائد الأيام، ص ۷۰ـ۷۳.

إجازة والده كانوا سبعة، و شيخ الإجازة غير الأُستاذ، على الرغم من أنّه يمكن أن يكون شيخ الإجازة و الأُستاذ متّحدَين، أي يكون شخص شيخاً للإجازة و أُستاذاً في آنٍ واحد.

و أمّا ما عثرنا عليه من أسماء هؤلاء الأساتذة و حسب تتبّعنا، فهم كما يلي:

١. المولى محمد جعفر بيدگلي. كان يسكن مدينة كاشان، و يُعدّ من أبرز أساتذة النراقي، و قد أشار إليه النراقي في إجازاته بكلمات تنمّ عن عظمته و جلالة قدره.

٢. المولى إسماعيل بن محمد حسين الخواجوئي. من أبرز علماء القرن الثاني عشر في إصفهان، و كان من أئمة الفقه و الفلسفة. ترك العديد من المؤلّفات و التصانيف، و يعدّ من الأفراد القلائل الذين امتازوا بالتقوى و الزهد في عصره. توفّي الخواجوئي سنة ١١٧٣ و دفن في المقبرة المعروفة بـ«تخت فولاد إصفهان».

وأصحاب التراجم يكتبون عند شرح حياة النراقي عن تتلمذه و تعلّمه على يد هذا الأُستاذ ثلاثين سنة[١]. وليس هذا الكلام صحيحاً، لأنّ النراقي كان عند وفاة أستاذه في سنّ ٢٧ سنة، و بالنظر إلى أنّه و قبل سفره الى إصفهان كان قد تلقّى آداب اللغة العربية[٢]، فكيف تسنّى له التتلمذ على الخواجوئي. مدّة ثلاثين سنة؟ و إذا فرضنا أنّ فترة الطفولة و أيام الدراسة كانت خمس عشرة سنة على الأقل، كانت مدّة دراسته في إصفهان اثنتي عشرة سنة[٣]. و عليه فمن المستبعد أن يكون نابغة مثل النراقي قد درس و تتلمذ على أُستاذه مدّة ثلاثين سنة بحيث تستغرق تلك الفترة أيام شبابه.

و يظهر أنّ منشأ هذا الكلام هو قول السيد محمد شفيع الجابلقي (م ١٢٨٠ق) فإنّه في طبقة تلامذة تلامذة النراقي وكتب ما يلي: «قرأ على العالم الكامل، علّامة زمانه، ملّاإسماعيل الخواجوئي في ثلاثين سنة، على ما سمعت»[٤].

و عبارة «على ما سمعت» تحكي تردّد الخواجوئي و توضّح أنّ هذه الدعوى لا أساس لها في الواقع.

٣. الشيخ محمد بن محمد زمان الكاشاني. ولد الشيخ محمد في كاشان و اختار إصفهان

---

١. لباب الألقاب، ص ٩٢؛ الفوائد الرضوية، ص ٦٦٩؛ مقدمة جامع السعادات، ص «ب»؛ قصص العلماء، ص ١٣٢؛ مجموعة المقالات، ص ١٨٩؛ ريحانة الأدب، ج ٦، ص ١٦٤؛ فلاسفة الشيعة، ص ٥٠٩.

٢. گلشن مراد، ص ٣٩٣.

٣. ر. ك: نشر دانش، السنة الخامسة، العدد ١، ص ٧٣.

٤. مقدّمة كتاب الروضة البهية.

سكناً له، و يعدّ من أبرز أساتذة الفلسفة، و قد تتلمذ النراقي في الفلسفة على يديه. توفّي بعد سنة ١١٦٦ و دفن جثمانه في النجف الأشرف.

٤. الشيخ محمد مهدي الهرندي. هو أيضاً من أساتذة الفلسفة في إصفهان، و اشتهر بتأليف و نشر العلوم الإسلامية. توفّي سنة ١١٨٠ و دفن في المسجد الجامع بإصفهان.

٥. الميرزا نصير. و الظاهر أنّه نصير الحكماء، جدّ فرصت الشيرازي الذي كان من حكماء و مدرّسي إصفهان في القرن الثاني عشر[١].

و على الرغم من عدم ذكر بعض المترجمين لاسم هذا الأُستاذ، إلّا أنّ المولى أحمد النراقي في ترجمته المختصرة لوالده ذكر الميرزا نصير بعنوان أحد أساتذة والده في إصفهان في نهاية النسخة الخطّية لكتاب لؤلؤة البحرين[٢].

ويظهر من عبارة المولى أحمد النراقي أنّ مشايخ والده هم سبعة فقط، و أنّ الميرزا نصير ليس منهم. و منه يتّضح أنّ الميرزا نصير كان أُستاذ درس النراقي فقط. توفّي الميرزا نصير في سنة ١١٩١[٣].

٦. الآقا محمد باقر الوحيد البهبهاني. و كان على رأس الأُصوليين الذي تصدّوا للتيّار الأخباري آنذاك، وقد تربّى عليه عدد كبير من الطلبة، من أمثال السيد بحر العلوم، الشيخ جعفر كاشف الغطاء، السيد علي الطباطبائي صاحب الرياض، الميرزا القمي و المولى محمد مهدي النراقي (قدّست أسرارهم). توفّي الوحيد البهبهاني سنة ١٢٠٥ في كربلاء و دفن هناك[٤].

٠٧ الشيخ يوسف بن أحمد البحراني. كان من أبرز علماء عصره، و كان يرأس المدرسة الأخبارية، و قد استفاد منه النراقي و أخذ عنه الحديث. ومن أشهر كتبه موسوعة الحدائق الناضرة و الذي بسببها عرف و اشتهر بصاحب الحدائق. توفّي الشيخ يوسف سنة ١١٨٦ و دفن جثمانه إلى جوار حضرة الإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام.

٠٨ الشيخ محمد مهدي الفتوني. توفّي سنة ١١٨٣. و قد أشار السيد بحر العلوم في

---

١. مكارم الآثار، ج ٢، ص ٣٦٣.

٢. مقدّمة عوائد الأيام، ص ٦٧.

٣. ورد في گلشن مراد، ص ٣٩٢ شرح مختصر لحياة الميرزا نصير، يظهر منه أنّ اختصاصه الأصلي كان في الطبّ.

٤. ذكر العلّامة المظفر في مقدّمته على جامع السعادات، صفحة «ب» أنّ وفاة النراقي كانت سنة ١٢٠٩، أي بعد سنة من رحيل الوحيد البهبهاني. و عليه فإنّ وفاة الوحيد البهبهاني كانت سنة ١٢٠٨. و هذا غير صحيح لأنّه من المسلّم أنّ وفاة البهبهاني كانت سنة ١٢٠٥. ر.ك: وحيد بهبهاني، ص ٢٥٤.

إجازاته بمنزلة الفتوني و مقامه، حيث قال: «إنّي لا أعرف من استنبط جميع أبواب الفقه في هذا العصر إلّا الشيخ أبا صالح المهدي الفتوني»[١].

٤. النزاع مع الأخباريّين

من الأُمور التي وقعت في القرن الثاني عشر ـ في العتبات المقدّسة في العراق، بل في أكثر المدن الشيعية مثل إصفهان و شيراز و خراسان ـ حدثان مهمّان كان لهما أثر كبير في نشوء عدد من التيّارات الفكرية و العقائدية عند الشيعة، فقد نشأت حركة التصوّف، كما نشأ التيّار الأخباري خصوصاً في هذا القرن، و هذان التيّاران تركا ظِلالاً واضحة على التفكير و الدرس و البحث، إلى الحدّ الذي أفرط فيه كثيرٌ من الطلّاب العلوم الدينية في كربلاء، التي كانت من أكبر الحواضر العلمية لدى الشيعة و أبرزها[٢].

و عند ما بلغت الحركة الأخبارية أوجها، استطاع الوحيد البهبهاني بما لديه من القدرة العلمية و ما تمتّع به من قدرة على الكتابة و البيان، من التصدّي للأخباريّين و إبطال أدلّتهم، فقد أوجد تحوّلاً كبيراً في علم الأُصول و بعث فيه الحياة من جديد بعد أن أصابه الخمود و الركود، فاستطاع أن يبتكر الأساليب الجديدة في مقام استنباط الأحكام الشرعية، و يقيم الأدلّة المحكمة على صحة ما يذهب إليه، و قد تخرّج من مدرسة الوحيد البهبهاني عدد غير يسير من فطاحل العلماء.

و في هذا الوسط يخرج النراقي حاملاً لراية الجهاد العلمي من خلال التأليف و التدريس، فقد ألّف في كربلاء رسالة الإجماع سنة ١١٧٨، و قد اشتمل هذا الكتاب على الأدلّة على حجّية الإجماع، تناول فيه آراء كبار علماء الإمامية و نظرياتهم، و هي الرسالة التي كانت مورد قبول و اعتماد الجميع، بحيث لم يعترض عليها حتّى المخالفين.

٥. التأليفات

ترك العلّامة النراقي عدداً كبيراً من المؤلّفات في شتّى صنوف العلم و المعرفة، و قدطبع البعض منها بحيث لم يتسنّ حتّى للقائمين و المشرفين على مؤتمر النراقيين تحقيق و نشر

---

١. الذريعة، ج ٢٤، ص ٤٢.

٢. انظر: فلاسفهٔ شيعه، ص ٥١٠ ـ ٥١١.

كلّ آثار النراقي. إنّ آثاره تدلّ على سعة علمه و إحاطته و طول باعه، و الآثار هي[١]:

أ) الفقه

١. لوامع الأحكام في فقه شريعة الأحكام. ٢. معتمد الشيعة في أحكام الشريعة. ٣. أنيس التجّار. ٤. أنيس الحجّاج. ٥. المناسك المكية في مسائل الحجّ. ٦. التحفة الرضوية في المسائل الدينية. ٧. صلاة الجمعة. ٨. زينة العباد. ٩. تلخيص الفتاوي و المسائل، مجردة عن المدارك و الدلائل.

ب) أُصول الفقه

١٠. جامعة الأُصول. ١١. رسالة الإجماع. ١٢. أنيس المجتهدين. ١٣. أصالة الاحتياط. ١٤. تجريد الأُصول. ١٥. جامع الأفكار.

ج) الفلسفة والكلام

١٦. جامع الأفكار و ناقد الأنظار[٢]. ١٧. الشهاب الثاقب. ١٨. اللمعة الإلهية في الحكمة المتعالية. ١٩. شرح الإلهيات من كتاب الشفاء. ٢٠. اللمعات العرشية في الحكمة الإلهية. ٢١. قرّة العيون. ٢٢. الكلمات الوجيزة. ٢٣.أنيس الحكماء. ٢٤. أنيس الموحّدين.

د) الرياضيات والهيأة

٢٥. توضيح الأشكال في شرح تحرير أقليدس. ٢٦. تحرير أُكرثا و ذوسيوس. ٢٧. علم عقود الأنامل. ٢٨. رسالة في الحساب. ٢٩. المستقصى. ٣٠. محصّل الهيأة. ٣١. حاشية

---

١. يقوم بعض المستنسخين أحياناً باقتطاع جزء من كتاب ثمّ يضعون له عنواناً مستقلاً ثمّ يبقى ذلك الجزء و كأنّه كتاب مستقلّ. و أحياناً يكون للكتاب عنوانان، لذا ينبغي للمحقّقين أن يدرسوا و يدقّقوا جميع آثار النراقي.

٢. كتب النراقي في نهاية هذا الكتاب: «و وقع إتمامه في أوّل يوم من شهر ربيع الأوّل من سنة ١١٩٣ و قد كان ذلك عند تراكم الهموم و الأحزان و تفاقم الغموم و الأشجان، و فرط الملال و ضيق البال، من هجوم المصائب و المحن و تواتر النوائب و الفتن، من ابتلائنا أوّلاً في بلدة كاشان (حماها الله عن طوارق الحدثان) بالزلازل الهائلة المفزعة و الرجفات المزعزعة المزعجة، وانهدام جميع الأبنية و المساكن و جلّ البيوت و المواطن، و هلاك كثير من الأصدقاء و الأحباب و ذهاب غير واحد من الأحبّة و الأصحاب، ثمّ ابتلائنا بالأمراض الشديدة الغريبة و الأسقام الوبائية العجيبة، بعد ارتحالنا ـ لعدم السكنى و غيره من اختلال الأُمور ـ إلى بعض القرى، واحتراق فؤادي بذهاب بعض أولادي الذي تقرّ به عيني في ظلمات الأحزان و الهموم و يُسكّن الله قلبي عند اضطرابه من هجوم الأشجان والغموم؛ ثمّ وقوعنا في الداهية العظمى و الفتنة الكبرى أعني موت السلطان، و وقوع الاضطراب و الوحشة بين أهل إيران. فأحمد الله على السراء و الضرّاء و الشدّة و الرخاء و العافية و البلاء، و نسأله أن يكونَ ذلك آخر الرزايا و المصائب، و خاتمة البلايا و النوائب، و أنْ يُصْلِحَ جميعَ أُمور المسلمين بمحمّد وآله سادات الخلق أجميعن».

على شرح المجسطي. ٣٢. معراج السماء.

هـ) الأخلاق

٣٣. جامع السعادات في موجبات النجاة. ٣٤. جامع المواعظ.

و) الآثار الأخرى

٣٥. محرق القلوب في مصائب أهل البيت عليهم السلام. ٣٦. مشكلات العلوم، في مختلف العلوم. ٣٧. نخبة البيان في علم المعاني و البيان. ٣٨. ديوان الأشعار الموسوم بطائر قدسي.

٦. أولاده

١. المولى أحمد. ولد في سنة ١١٨٥، امتاز بحسن التأليف و دقّة النظر، كما هو الحال في والده. و في أكثر تأليفاته كان يحذو حذو والده، فقد ألّف والده كتاب معتمد الشيعة و ألّف هو كتاب مستند الشيعة، و ألّف والده كتاب جامع السعادات في الأخلاق و ألّف هو معراج السعادة، و ألّف والده مشكلات العلوم و ألّف هو الخزائن. و يعدّ المولى أحمد النراقي من كبار العلماء و ترك الكثير من المصنّفات، و مضافاً إلى ما تقدّم ذكره فإنّ له آثار علمية قيّمة، من قبيل عوائد الأيّام، تنقيح الفصول في شرح تجريد الأُصول، مناهج الأحكام، عين الأُصول، أساس الأحكام، مفتاح الأحكام، سيف الأُمّة و برهان الملّة، وسيلة النجاة. توفّي سنة ١٢٤٥ في النجف الأشرف و دفن في جوار قبر والده.

٢. المولى أبو الحسن.

٣. المولى أبو ذرّ.

٤. الميرزا أبو القاسم. كان تلميذ أخيه المولى أحمد، تولّى مسؤولية إدارة الحوزة العلمية بعد وفاة أخيه المولى أحمد. توفّي عند ما كان راجعاً من مكة سنة ١٢٦٥ في منطقة «مدائن صالح».

٥. المولى محمد مهدي. ولد بعد رحيل والده بأربعين يوماً، و لهذا السبب سمّي باسم والده، درس عند أخيه المولى أحمد، و تصدّى لإدارة شؤون الحوزة العلمية في كاشان بعد وفاة أخيه أبي القاسم. لقّب بـ«المولى محمد مهدي الثاني». من آثاره كتاب تنقيح الأُصول و المقاصد العليّة. توفّي سنة ١٢٦٨ و دفن جثمانه إلى جوار علي بن بابويه القمي في مدينة قم.

٧. الوفاة

رحل هذا العالم الجليل بعد عمر امتاز بالجدّ و الاجتهاد في سنة ١٢٠٩ في كاشان، و نقل جثمانه إلى النجف الأشرف، حيث دفن إلى جوار قبر أميرالمؤمنين علي عليه السلام. و كتب بعض المترجمين للنراقي أنّه توفّي في النجف[١]، و هذا الأمر اشتباه قطعاً؛ و ذلك لأنّه:

ألف) لقد كتب ابنه المولى أحمد بخطّ يده في آخر النسخة الخطّية للؤلؤة البحرين عن محلّ وفاته مايلي: «تولّد (طاب ثراه) في نراق و توفّي في كاشان»[٢].

ب) كتب المولى أحمد في إجازته لأخيه حول رحلة والدهم مايلي:

> قدارتحل (طاب ثراه) إلى جوار الله سبحانه في أوّل ليلة السبت ثامن شهر شعبان المعظّم من شهور ألف ومائتين وتسع من الهجرة النبوية وحمل جسده الشريف إلى النجف الأشرف[٣].

ج) و صرّح أيضاً معاصره السيد حسن الزنوزي بأنّ جنازته نقلت إلى النجف الأشرف، قال:

> توفّي في أوائل ساعات ليلة السبت ثامن عشر شعبان من سنة ألف و مائتين و تسع، و نقل إلى المشهد الغروي و دفن بها عند الرواق[٤].

---

١. عوائد الأيام، ص ٦٦؛ شرح الإلهيات، ص ٢٤، المقدمة.

٢. عوائد الأيام، ص ٦٦؛ شرح الإلهيات، ص ٢٤، المقدمة.

٣. عوائد الأيام، ص ٧٠، المقدّمة.

٤. شرح الإلهيات، ص ٢٦. و يظهر أنّ كلمة «عشر» هي تصحيف لكلمة «شهر» في كلام الزنوزي، لأنّ عبارة المولى أحمد في إجازته لأخيه هكذا: «ثامن شهر شعبان» و بناءاً على ذلك فإنّ رحلة النراقي كانت في ثامن شهر شعبان لا في الثامن عشر منه.

الفصل الثاني:

علم الأخلاق و جامع السعادات

١. أهمّيّة و قيمة الأخلاق

إنّ قسماً كبيراً من تعاليم القرآن الكريم و الرسول الأعظمﷺ و الأئمة المعصومينعليهم السلام تؤكّد على أهمّيّة الأخلاق و تهذيب النفس و تزكيتها، يقول الإمام الصادقعليه السلام: «إنْ أُجِّلْتَ في عمرك يومين فاجعل أحدهما لأدبك لتستعين به على يوم موتك»[1]. و هكذا يطلعنا الإمام موسى الكاظمعليه السلام على أنّ صلاح القلب و فساده مرتبط بالعلم و يقول: «أَلْزَمُ العلم لك ما دلَّكَ على صلاح قلبك و أظهر لك فساده»[2]. و نقل الإمام الرضاعليه السلام عن جدّه رسول اللهﷺ قوله: «عليكم بمكارم الأخلاق فإنّ الله عزّ وجلّ بعثني بها»[3].

٢. الكتب الأخلاقية و أساليبها

لم يغفل علماء الإسلام عن الأبحاث و الدراسات الأخلاقية، فمن بين المجامع الروائية يبرز لنا كتاب الكافي، الذي يعدّ من أوّل الكتب في هذا المجال. أمّا ظهور الآثار و المصنّفات الأخلاقية على شكل مستقلّ عن المجامع الروائية فكان مقارناً و متزامناً مع ظهور النهضة في مجال ترجمة آثار الفلسفة اليونانية.

---

١. الكافي، ج ٨ ص ١٥٠، ح ١٣٢.

٢. مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ١٦٦؛ أبواب جهاد النفس، الباب ١٠١، ح ١.

٣. مستدرك الوسائل، ج ١١، ص ١٩١؛ ابواب جهاد النفس، الباب ٦، ح ١٥.

فقد ألّف أبو الحسن العامري النيسابوري (م ٣٨١) كتاباً مستقلاً باسم السعادة و الإسعاد. و كان أكثر ذلك الكتاب مقتبساً من المصنّفات الأخلاقية لأفلاطون و أرسطو.

كما سار بهذا الاتجاه أبوعلي أحمد بن يعقوب الرازي المعروف بابن مسكويه (م ٤٣١) ـ الذي عبّر عنه المحقّق اللاهيجي[1] أنّه في الحكمة العملية بمنزلة أبوعلي بن سينا ـ فقد صنّف في علم الأخلاق كتاب تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراق في موضوع السعادة، حيث استفاد من الآثار و المصنّفات الأخلاقية لأرسطو و شروحها[2]. و في عقيدته أنّ الأخلاق تصدر من النفس، و لذا ينبغي التوجّه إلى النفس و معرفة قواها، ثمّ يُصار إلى معرفة الفضائل و الرذائل. و حينئذ ـ و بالنظر إلى نظرية أرسطو في الاعتدال و الوسطية ـ فإنّه يرى أنّ تحصيل الاعتدال هو الطريق الوحيد الذي يتيسّر للعقل الإنساني و يربط بين السعادة و الفضيلة.

و في هذه الحقبة الزمانية كان المتكلّمون ينظرون إلى المباحث الأخلاقية من زاوية عقلية، و قالوا بالحسن و القبح العقليين، و اعتبروا حكم العقل ملاكاً سواء كان في معرفة الأحكام العقلية أو في معرفة استحقاق العذاب على الأفعال غير المرضية.

و في القرن الرابع الهجري اهتمّ إخوان الصفا بالجانب الأخلاقي بموازة اهتمامهم بالفكر العقلي و الفلسفي، و مزجوا بين النظر العقلي و الذوق العرفاني[3].

و سلك العرفاء و المتصوّفة المسلمون أيضاً في مجال المباحث الأخلاقية و معرفة المهلكات و المنجيات التي تشتمل على المعاني الأخلاقية طريقاً خاصّاً يعتمد على السلوك العملي و الرياضات و تطهير النفس.

و يعدّ أبوحامد محمد الغزالي (٤٥٠ـ ٥٠٥) من هذه الفئة، و من أهمّ كتبه في هذا المجال كتاب إحياء علوم الدين باللغة العربية، و كتاب كيمياى سعادت باللغة الفارسية، الذي هو خلاصة لكتاب إحياء علوم الدين. واعتمد الغزالي أساساً على الدين، وكان له رأي خاص بإزاء الآراء الأخلاقية للفلاسفة، نظير أفلاطون وأرسطو، و هو يرى ـ بخلاف المعتزلة ـ أنّ الأعمال بحدّ ذاتها ليست قبيحة أو جميلة، و أنّ الخير هو ما أمر الله تعالى به و الشرّ هو

---

١. گوهر مراد، ص ٤٨٩.

٢. انظر: تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراق، ص ٥٣، ١١٠، ١٤٨، ١٤٩ و....

٣. علم اخلاق اسلامى، مقدمة، ص ٢٣ بتصرّف و تلخيص يسير.

مانهى عنه سبحانه، و من هذه الجهة فهو يواكب ـ غالباً ـ عقيدة الأشاعرة. و قد جعل كتابه إحياء علوم الدين قائماً على أربع أُسس أصلية، و كلّ أساس يشمل عشرة كتب، فالرُبع الأول من الكتاب هو ربع العبادات، والثاني ربع العادات، والثالث ربع المهلكات والرابع ربع المنجيات.

و قد أشار الغزالي بشكل مجمل إلى الفضائل الأربع ـ التي ذكرها أرسطو، الحكمة، العفّة، الشجاعة و العدالة ـ في الكتاب الثاني من رُبع المهلكات، و قال في آخرها: و ما ذكرنا في الكتاب الثاني هو إشارة كلّية إلى طريق تهذيب الأخلاق و معالجة أمراض القلوب. و في أغلب الموارد يشير إلى الاعتدال.

و بيّن المحقّق نصير الدين الطوسي (٥٩٧ ـ ٦٧٢) ـ الذي يعدّ من مفاخر أهل العلم الذي ذاع صيته في العالم الإسلامي في مجال الحكمة و أكثر علوم عصره، وكان أُستاذاً و متبحّراً في تلك العلوم ـ منهجين أخلاقيين: أحدهما أخلاق ناصري الذي يطابق مشارب الحكماء، و الآخر أوصاف الأشراف الذي يوافق ذوق العرفاء. و قد كتب الطوسي في مقدمة أوصاف الأشراف ما ترجمته:

إنّ محرّر هذه الرسالة ... و بعد تحريره الكتاب الموسوم بـأخلاق ناصري المشتمل على الأخلاق الكريمة و السياسات المرضيّة على طريقة الحكماء، كان يفكّر في وضع مختصر في بيان سِيَر الأولياء و مسلك أهل الدين على قاعدة سالكي الطريق و طالبي الحقيقة، مبتنٍ على القوانين العقلية و السمعية، و منبئ عن الدقائق النظرية و العملية، الذي يكون بمثابة لبّ تلك الصناعة و خلاصة ذلك الفنّ، و يجعله على هذا الترتيب.

إنّ المأخذ و المصدر الرئيسي الذي اعتمده الطوسي في كتاب أخلاق ناصري هو كتاب ابن مسكويه تهذيب الأخلاق و الفرق بينهما أنّ أخلاق ناصري باللغة الفارسية و ذاك بالعربية، مضافاً إلى أنّ المحقّق الطوسي أضاف قسمين هما: تدبير المنزل و سياسة المدن.

و الطوسي في أوّل الكتاب ـ الذي اشتمل على المسائل الفلسفية الضروية من أجل تسهيل فهم المطالب ـ قد لخّص ذلك بأُسلوب جميل و رائع. و هذا الكتاب صار دائماً مورد الاهتمام، و من الكتب الأخلاقية المشهورة و المعتبرة.

و من الآثار الأخلاقية الأُخرى و المشهورة المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء للمولى محسن المعروف بالفيض الكاشاني (م ١٠٩١). و الواقع أنّ المحجّة هو تنقيح و

تهذيب لكتاب الغزالي مع نقل روايات الشيعة، و في هذا الكتاب أحيا المؤلّف كتاب آداب الشيعة و أخلاق الإمامة بدلاً من كتاب آداب السماع و الوجد[1].

و في هذا المجال لا ينبغي الإغفال عن الدور المهمّ جدّاً لسلسلة الكتب الأخلاقية التي اعتمدت الآيات و الروايات و المواعظ، و التي كانت دائماً محلّ اهتمام عوامّ الناس و علمائهم، نظير:

١. مكارم الأخلاق. تأليف أبونصر حسين بن فضل الطبرسي، المتوفّى في القرن السادس.

٢. تنبيه الخواطر المعروف بمجموعة ورّام. تأليف أبوالحسين ورّام بن أبي فراس (م ٦٠٥).

٣ و ٤. محاسبة النفس و كشف المحجّة لثمرة المهجة، هذان الكتابان للسيد ابن طاوس (م ٦٦٤).

٥. إرشاد القلوب. تأليف أبومحمد حسين بن محمد الديلمي، المتوفّى في القرن الثامن.

٦. عدّة الداعي. تأليف ابن فهد الحلّي (م ٨٤١).

٧. محاسبة النفس. تأليف تقي الدين إبراهيم بن علي العاملي الكفعمي (م ٩٠٥).

٨ و ٩ و ١٠. منية المريد و كشف الريبة و التنبيهات العليّة، و هذه الكتب الثلاث للشهيد الثاني (٩٦٥).

٣. جامع السعادات و أُسلوبه

يعتبر هذا الكتاب واحداً من الكتب النفيسة و المعدودة التي يعتمد عليها في الدراسات الأخلاقية الحوزوية.

إنّ الكتب الأخلاقية المعروفة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة اتجاهات:

١. ما كان منها عقلياً و فلسفياً صرفاً، من قبيل السعادة و الإسعاد، تهذيب الأخلاق و اخلاق ناصري.

٢. ما كان يغلب فيها الجانب الديني، من قبيل إحياء العلوم، كيمياى سعادت و المحجّة البيضاء.

٣. ما كان قد اجتنب عن أساليب الحكماء و العرفاء و المتصوفة، و اعتمد على النقل

---

١. المحجّة البيضاء، ج ١، ص ١ ـ ٤.

المختصر على نصوص الكتاب و السنة، مثل مكارم الأخلاق و إرشاد القلوب.

و كتاب جامع السعادات يشبه القسم الأوّل في تنظيم المطالب من حيث النهج الخاصّ الذي انتهجه، و من حيث المحتوى و التفريعات في بعض الفصول مثل أسرار العبادات، شابه القسمين الأخيرين و استلهم منهما، و استفاد من الآيات و الرويات الكثيرة.

تكلّم المؤلّف في البداية عن نفس الإنسان و قواه و غرائزه، و نسب كلّ فضيلة من الفضائل أو رذيلة من الرذائل إلى واحدة من قوى النفس أو الغرائض، ثمّ يقوم بالتعريف بالفضائل والرذائل واحدة تلو الأخرى، ثمّ يبيّن الموضوع و يؤيّده بالآيات والرويات، ليخلص في النهاية إلى بيان طريقة علاج كلّ رذيلة بحسب الطرق المتّبعة عند الحكماء.

و مضافاً لما تقدّم لم يغفل الموعظة و النصيحة، و أحياناً يجذب القارئ بكلامه المؤثر نحو تهذيب أخلاقه و تصحيح سلوكه.

كان يصرّ على التوسّط و الاعتدال في العلم و العمل و الميول الفكرية، و ينهىٰ عن النظر من زاوية واحدة، سواء كان بالاتّباع الأعمى للحكماء أو المقدّسين أو الاتجاهات المفرطة أو بالعكس؛ أو كان بسبب التعصّب في مجال العرفان و الحكمة الإشراقية أو الأُصول و الفقه[1].

و يشير العلّامة النراقي إلى بعض ابتكاراته و إبداعاته فيقول:

و لذلك لم نتابع القوم في التفريق بين الرذائل و الفضائل و ذكر كلّ منهما على حدة. ثمّ بيان الأنواع و اللوازم على ما ذكره أكثر القوم، لا يخلو عن الاختلال: إمّا في التعريف والتفسير، أو في الفرق و التمييز، أو في الإدخال تحت ما جعلوه نوعاً له، أو غير ذلك من وجوه الاختلال، فنحن لانتّبعهم في ذلك[2].

لقد أخذ المحقّق النراقي أكثر موادّ المطالب من الكتب الأخلاقية، من قبيل المحجّة البيضاء، بل قد ينقل أحياناً ذات العبارة. و لكنّه عند ما يشعر بوجود لغز محيّر فإنّه يقف عنده و يمنع من الانحراف.

إنّه يعتقد بضرورة وجود الحاكم العادل و توفير الأمن و المعيشة لكي يتمكّن الإنسان من

---

١. جامع السعادات، ج ١، ص ٨٣

٢. جامع السعادات، ج ١، ص ٦٦.

بناء نفسه ويتوجّه نحو المعنويات، وإلّا فلا يمكن تحصيل تلك المعنويات، وقد كتب النراقي:

المناط كلّ المناط في تحصيل الكمالات وإخراج النفوس من الجهالات، هو عدالة السلطان، واعتناؤه باعلاء الكلمة، وسعيه في ترويج أحكام الدين والملّة، ولذا ورد في الآثار: «أنّ السلطان إذاكان عادلاًكان شريكاً في ثواب كل طاعة تصدر عن كل رعية، وإن كان جائراً كان سهيماً في معاصيهم». وقال سيّد الرسل صلى الله عليه وآله: «أقرب الناس يوم القيامة إلى الله تعالى الملك العادل وابعدهم عنه الملك الظالم».[1]

٤. آراء فطاحل العلماء حول جامع السعادات

قال العالم الربّاني و أستاذ الأخلاق المشهور المولى أحمد النراقي (أعلى الله مقامه) في وصفه لـجامع السعادات ما ترجمته:

بحكم العقل و النصوص المنقولة المستفيضة ينبغي على كلّ فرد من سالكي منهج الرشاد و الطالبين طريق الإرشاد أن يسعى أولاً لإزالة رَيْن و كدر الرذائل من مرآة قلبه، و بعد ذلك يتوجّه و بعزم و إصرار إلى التجمّل و التزيّن بحلل الفضائل، لأنّه لا تتيسّر التحلية من دون التخلية، و لا تنعكس صورة آثار الحبيب على النفس الخبيثة.

و من الظاهر و الواضح و الثابت و المبيّن أنّ دفع الصفات السيئة و اكتساب الملكات الحسنة، متوقّفة على معرفتها و أُصول و أسباب كلّ واحدة منها. و كيفيّة العلاج المقرّر لها. و الذي يتكفّل ببيان هذه المطالب العلمية يعبّر عنه بعلم الأخلاق و الحِكمة الخلقية. و أفضل الكتب في نوعها في هذا الفنّ الشريف ـ من حيث التنظيم و الترتيب و حُسن التركيب و لياقة التعبير و التحقيق الرائق، و الاشتمال على الآيات و الأخبار الواردة في الشريعة و الاحتواء على مقالات أرباب العرفان و أساتذة الحكمة ـ هو التأليف و التصنيف الموسوم بجامع السعادات، الذي ألّفه العالم العامل و العارف الواصل و الحكيم الكامل و الفقيه الفاضل، والد هذه الذرّة اليسيرة ...[2].

أمّا آية الله محمد رضا المظفّر رحمه الله فيصوّر لنا إبداعات النراقي و تفنّنه في هندسة و طرح المطالب فيقول:

---

١. جامع السعادات، ج ١، ص ٨٦

٢. معراج السعادة، ص ٤.

... فجاء في استقصائه وإلحاقه كلّ فضيلة ورذيلة بالقوة التي تتعلق بها، بما لم يجيء به غيره ولم يسبقه إليه أحد فيما نعلم، وهو نفسه ادّعى ذلك فقال: «إنّ إحصاء الفضائل والرذائل وضبطهما، وإدخال البعض في البعض، والإشارة إلى القوة الموجبة لها على ما فصّلناه، ممّا لم يتعرّض له علماء الاخلاق».[1]

وهذه أهمّ ناحية فنيّة في الكتاب، وفتح جديد في تحقيق منشأ حدوث خلق الفضيلة والرذيلة، لو اتّفق لغيره أن يترسم خُطاه، ويتمّ ما فتحه من هذا الباب من التحقيق، لتقدم على يديه علم الأخلاق تقدّماً كبيراً. وعلى أساس تحقيقه هذا أسقط فضيلة العدالة من حسابه، فلم يجعلها جنساً مقابلاً لأجناس الفضائل الثلاث الأُخرى، وهي الحكمة والعفة والشجاعة، باعتبار أنّ العدالة جامعة لجميع الكمالات بأسرها، لا أنّها في مقابلها.

... إنّ هذا التقسيم من المؤلف، وإرجاع الفضائل والرذائل إلى أسبابها، و جعل مواضيع الأبحاث هي تلك القوى، وإحصاء أنواع الأخلاق بنوعيها ولوازمها، كلّ ذلك مستجد، وهي طريقة علمية امتاز بها الكتاب.[2]

٥. طبعات و ترجمة جامع السعادات

فرغ العلّامة النراقي من تأليف هذا الأثر النفيس سنة ١١٩٦ هـق، و بقي هذا الكتاب ١٢٠ سنة تقريباً بعد تأليفه على شكله المخطوط، إلى أن تمّ طبعه و لأوّل مرّة سنة ١٣١٢ في طهران برعاية و إشراف الحاج محمد تقي الكاشاني، و لمّا لم تكن لهذه الطبعة فهارس فقد قام العلّامة آقا بزرك الطهراني سنة ١٣٢٠ بصياغة فهارس لهذا الكتاب و أسماه لامع المقالات فهرس جامع السعادات. و لكنّه ـ حسب قول الأُستاذ المظفّر ـ أنّ هذه الطبعة كثيرة الأخطاء، و قال في مقدّمته على جامع السعادات:

ولا ننسى أن نذكر أنّ النسخة المطبوعة في إيران على الحجر، فيها من التحريف والتصحيف مايذهب بالاطمئنان إليها و يشوّهُ المقصود و المعنى. ومن الغريب أن نجد التحريف حتّى في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة. أمّا تذكير المؤنث و تأنيث المذكّر، و تشويه الإملاء والتبويب؛ فهذه أُمور حدّث عنها ولا حرج. ويكفى أن تقارن

---

١. جامع السعادات، ج ١، ص ٧١.

٢. مقدمة جامع السعادات، ج ١، ص «ر» و «ش».

صفحة واحدة منها بمطبوعنا، لتعرف أيّ مجهود بذل للتصحيح والإخراج وتجد العناية على كلّ سطر منه، بل كلّ كلمة.[1]

ولهذه الأسباب فقد عقد العلّامة المظفّر العزم ـ و بمساعدة العالم المتفاني السيد محمد كلانتر رحمه الله سنة ١٣٦٨ هق ـ على تصحيح الكتاب و نشره في ثلاثة مجلّدات ـ مع المقدّمة ـ في النجف الأشرف. و بعد هذه الطبعة النجفية فقد طبع مِراراً في العراق و إيران بطريقة الأوفست من تلك الطبعة. و مع ما بذله هذان العالمان الجليلان و من جهود مباركه و جديرة بالثناء و الأشادة، لكن تبقى هناك نواقص في تصحيحهم و أخطاء يمكن ملاحظتها، مضافاً إلى عدم تخريج و توثيق المنقولات، لذا كانت الحاجة قائمة لتصحيح كتاب جامع السعادات مجدّداً.

و قد تَرجم السيد جلال الدين المجتبوي هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية و اختصره من ثلاث مجلّدات إلى مجلّد واحد. و نشر في طهران في مؤسسة نشر الحكمة.

---

١. مقدمة جامع السعادات، ص «ت».

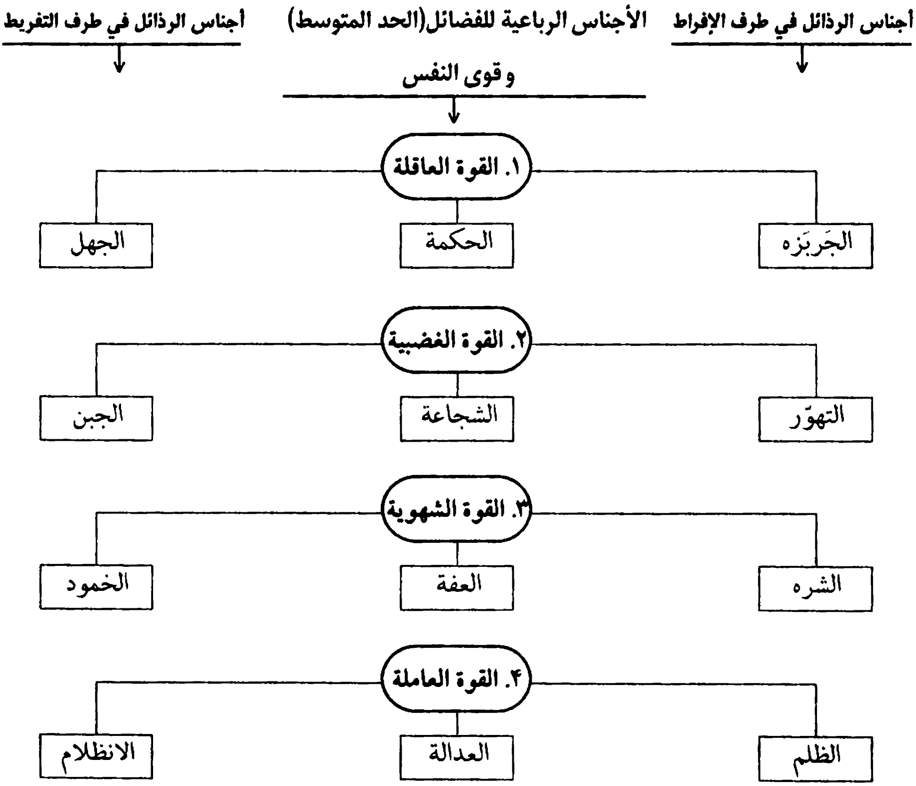

الأبواب الستّة في تحرير جامع السعادات

١. الباب الأول: المقدمات

٢. الباب الثاني: أقسام الأخلاق

٣. الباب الثالث: رذائل و فضائل القوة العاقلة.

٤. الباب الرابع: رذائل و فضائل القوة الغضبية.

٥. الباب الخامس: رذائل و فضائل القوة الشهوية.

٦. الباب السادس: رذائل و فضائل قوتين أو ثلاث قوى.

الفصل الثالث

تحرير جامع السعادات

١. خلفيّة تحرير و تلخيص الآثار العلمية

إنّ تلخيص و تحرير آثار و مصنّفات العلماء الكبار يعتبر سنّة من السنن العلمية الممدوحة، والتي كان لها سابقة تاريخية فيالحضارة الإسلامية، و قد شكّلت الكتب ـ التي اشتملت على عناوين مثل تلخيص، الخلاصة، ملخّص، مختصر، مختار، انتخاب، لباب، لبّ، مهذّب، تهذيب، تحرير، مقتطفات، منتخب ـ قسماً كبيراً معتدّاً به في التراث الإسلامي المدوّن.

و من الأُمور التي ينبغي أن يُلتفت إليها أنّ مَن يقومون بتحرير تلك الكتب ليسوا من الناس العاديين، بل كانوا نجوماً لامعة في سماء العلم و الأدب، فهذا ـ مثلاً ـ الشيخ الطوسي يلخّص كتاب أُستاذه السيد المرتضى الشافي و العلّامة الحلّي (م ٧٢٦ ق) ـ من أعاظم الشخصيات العلمية فيالعالم الإسلامي، و الذي له آراء في كثير من العلوم خصوصاً في الفقه و الكلام ـ يلخّص كتابَ الشيخ الطوسي مصباح المتهجّد و يسمّى الخلاصة منهاج الصلاح في مختصر المصباح. و يضيف إليه كتابه الصغير ـ الذائع الصيت ـ الباب الحادي عشر بعنوان تكملة لذلك الكتاب.

و أحياناً يقوم بعض العلماء بأنفسهم بتلخيص نفس آثارهم، كما قام المحقق الحلّي بتلخيص كتابه المشهور و المهمّ شرائع الإسلام و أسمى الخلاصة المختصر النافع و كذا الشهيد الثاني قد لخّص بعض آثاره بنفسه.

و مضافاً إلى التلخيص فإنّ هناك نوعاً آخر هو إعادة صياغة الكتب و يُدعى «التحرير» و كان متداولاً آنذاك، حيث يعمد فيه المحرّر إلى التصرّف في العبارات و تقديم و تأخير الفصول والأبواب، و أحياناً يضيف إلى ذلك أشياء أُخر، مثل تحرير المجسطي لِبطليموس، تحرير أُصول أُقليدس، تحرير أُكرمانالاؤوس، تحرير أُكر ثاوذوسيوس، و كلّ هذه من آثار الفيلسوف الإسلامي المعروف المحقق نصير الدين الطوسي، كما قام السيد أبوالقاسم الموسوي الخوانساري النجفي بتحرير كتاب الطوسي تحرير أُصول أُقليدس و أسماه تحرير التحرير.

و لو تصفّحنا مجلّدات الذريعة لآقا بزرك الطهراني لوجدنا الكثير من ذيول العناوين، بل مئات النماذج التي ذكرها بعنوان تحرير أو خلاصة أو منتخب و ما شاكل ذلك.

٢. عملنا

إنّ جامع السعادات و رغم ما فيه إيجابيات إلّا أنّ سعته و عدم انسجام أبوابه و فصوله تحول بينه و بين جعله منهجاً دراسيّاً، و هذه الحقيقة قد صرّح بها العلّامة محمد حسن القزويني (م ١٢٤٠) المعاصر للنراقي، فقد طلب النراقي من القزويني أن ينظر إليه نظرة الناقد الخبير، ثمّ يقوم بانتخاب المطالب و تلخيصها كما يُفهم من كلامه أدناه، يقول:

> ... أمّا بعد، فيقول العبد المذنب الجهول بنفسه الظلوم، خادم طلبة العلوم، فقير عفو ربّه الحيّ القيّوم، محمّد حسن بن المرحوم الحاج معصوم القزويني أصلاً و الحائري موطناً:
>
> إنّ الغرض الأصلي من بعث المصطفين من عالم الأكوان إلى بني نوع الإنسان، رفع الحجب الظلمانية عن النفوس البشريّة الحائلة بينها و بين المعارف الحقيقيّة، و وصولها إلى كمالاتها التي هي [الـ]سعادة الأبديّة، واتّصالها بالمبادئ العليّة واستغراقها في بحار الأنوار الإلهيّة. ولا يمكن ذلك إلّا بتطهير القلب عن أوساخ الطبيعة و أنجاسها، و تزكية النفس عن ذمائم الأخلاق و أرجاسها، و تحلّيها بشرائف الصفات و فضائل الملكات.
>
> وقد بذل الحكماء الإلهيّون السلفُ جَهدَهم في تهذيب مقاصدها و توضيح مواردها، و اشتملت الشريعة المطهّرة النبويّة أيضاً على تبيين مسالكها و تنقيح مداركها و الحثّ على تحصيلها و البحث عن إجمالها و تفصيلها.
>
> ثمّ بالغ المتأخّرون من علمائنا الكرام في كشف نقاب الإجمال و الإبهام عن وجه المرام

في هذا المقام، و تقريب مطالبه إلى الأفهام في كتبهم و رسائلهم نظماً و نثراً، بأطوار مختلفة الأُسلوب و النظام.

و منها ما ألّفه بعض فضلاء عصرنا الأعلام، وسمّاه بجامع السعادات، و التمَس منّي مع بضاعتي المزجاة أن أنظر فيه بعين النقد و الانتخاب، و تمييز القشر من اللباب، و التبر من التراب، و الباطل من الصواب. فنظرتُ فيه مع قصور الباع، و فقد الاطّلاع، و فقدان ما يحتاج إليه من الكتب و سائر الأسباب، و ضيق المجال، و وفور الاشتغال، و كثرة الهموم المقتضية لتوزّع البال و تراكم البلبال.

فإذا هو أكثرها نفعاً و أحسنها جمعاً لأحاديث أهل بيت العصمة، و دقائق أفكار أساطين الحكمة، إلّا أنّه غير خال عن التطويل و الإطناب، والحشو المملّ الخارج عن المعيار اللائق بحال المتعلّمين و الطلاب، و عار عن النظام و الأُسلوب المعتبر في وضع الكتاب، ومشتمل على الخلط والخبط في جملة من الفصول و الأبواب... .[1]

و قد تركّز عملنا في هذا الكتاب على مايلي:

١. حذف المطالب الزائدة و غير الضرورية، من قبيل:

أ) حذف المطالب الفلسفية أو الممزوجة بالاصطلاحات الفلسفية و العرفانية، مثل ج ١، ص ٦١ ـ ٧٢.

ب) حذف بعض المباحث التي بُحثت في سائر العلوم، مثل معرفة الله ج ١، ص ١٢٨ ـ ١٤١.

ج) المطالب التي لا أهمية لها و لا تأثير، أو التي هي من سنخ قصص إحياء العلوم؛ مثل ج ٣، ذيل ص ٣٠٦.

٢. في المواضع التي تكثر فيها الروايات و تتشابه، نكتفي بأخذ البعض منها.

٣. تصحيح الأخطاء المطبعية و أخطاء التصحيح في الطبعة التي عنى بتصحيحها المظفّر و كلانتر رحمهما الله، مع الاستفادة من المصادر و النسخة الخطيّة لكتاب جامع السعادات، و المتعلّقة بمركز الأبحاث و الدراسات الاسلامية تحت رقم ٣٨.

٤. وضع الحركات الإعرابية على الكلمات لتسهيل فهم المعنى و القراءة الصحيحة.

٥. تخريج و توثيق الروايات و الأقوال المنقولة.

٦. وضع عناوين كثيرة للمباحث التي ليس لها عناوين مناسبة.

---

١. كشف الغطاء، ص ١٨ ـ ١٩.

٧. نقل قسم من المباحث من محلّها إلى محلّ آخر مراعاةً للانسجام و الترتيب المنطقي لتلك المباحث.

٨. تنظيم و ترتيب العناوين الأصلية و الفرعية للأبواب و الفصول، فمثلاً قام العلّامة النراقي بتنظيم كتاب جامع السعادات على ثلاث أبواب: الباب الأول من صفحة ٤ إلى صفحة ٤٨ في المجلّد الأول؛ الباب الثاني من صفحة ٤٩ إلى صفحة ٨٩ في المجلّد الأول؛ الباب الثالث، من صفحة ٩١ إلى صفحة ٣٧٠، أي إلى آخر المجلّد الأول و كذلك كلّ المجلّد الثاني في ٤١٣ صفحة، و كذلك كلّ المجلد الثالث في ٤٠٤ صفحة. و من الواضح أنّ هذا التبويب غير منتظم، و لهذا فقد قمنا بترتيب تحرير جامع السعادات في ستّة أبواب و خاتمة، و وضعنا كلّ الرذائل تحت عنوان «نوع» و الفضائل تحت عنوان «وصل». و أيضاً وضعنا للمباحث التي تحت مجموعة «نوع» عنوانَ «بحث»، و للمباحث التي تحت مجموعة «وصل» عنوانَ «أمر».

و يجدر بالذكر أنّنا لم نتصرّف و نقلنا عين عبارات المؤلّف، إلّا في بعض الموارد اليسيرة التي قطعنا بخطئها أو التي رأينا فيها ضرورة إضافة كلمة أو كلمتين ليحصل الربط التامّ في كلام المؤلّف عند قيامنا بحذف نصّ من النصوص.

يرى الناسُ دُهناً في قواريرَ صافياً ... و لم يدر مايجري على رأس سِمْسِمِ

وفي الختام نقدّم شكرنا وثناءنا إلى كلّ من شارَكَنا في تحقيق وإخراج الكتاب خصوصاً الفاضل المحترم الشيخ علي المختارى لمساعدته في تحرير الكتاب، و المحقّق الشيخ محمد حسين المولوي لمساعدته في تعريب هذه المقدّمة، والفاضل المكرّم السيد حسن الفاطمي لمساعدته في ترجمة المولى النراقي‌ﷺ والإخوة المحقّقين محسن الصادقي وأسعد الطيّب ولطيف فرادي ومحسن النوروزي (وفّقهم الله سبحانه لما يحبّ ويرضى).

قم المقدّسة مركز «متون» (مركز تدوين و نشر متون درسى حوزه)

رضا المختاري مدير نشر دانش حوزه (نشر علم الحوزة)

شعبان المعظّم ١٤٢٤

تحرير

جامع السعادات في موجبات النجاة

المؤلف

المولى محمد مهدى النراقي (م ١٢٠٩)

المحرّر

الشيخ علي المختاري

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمدُ لله الذي خلقَ الإنسانَ، وجعلَه أفضلَ أنواع الأكوانِ، وصيّرهُ نسخةً لما أوجدَهُ من عوالم الإمكان. أظهَر فيه عجائبَ قُدْرَتِه القاهِرةِ، وأبرزَ فيه غَرائِبَ عظمته الباهرةِ، وأودعَ فيه حقائقَ الملكِ والملكوتِ، وركّبَ فيه دواعيَ الخيرِ والشرور، عَجَنَه من الموادّ المتخالفة، وجمَعَ فيه القُوى والأوصافَ المتناقضةَ، ثمّ ندَبه إلى تهذيبها بالتقويم والتعديل، وحثَّه على تحسينها بعد ما سَهَّلَ له السبيلَ. والصلاةُ على نبيّنا الذي أُوتي جوامعَ الحكم[1]، وبُعِثَ لتَتْميم محاسنِ الأخلاقِ والشِيَم[2]، وعلى آله مصابيحِ الظُلَمِ، ومفاتيح أبوابِ السعادةِ والكرمِ (صلّى الله عليه وعليهم وسلّم).

أمّا بعد، فإنّه لا ريبَ في أنّ الغايةَ من وَضْع النواميس والأديان، وبعْثَةِ المصطَفَيْنَ من عُظماءِ الإنسان، هو سَوْقُ الناسِ من مَراتعِ البهائمِ والشياطينِ، وإيصالهم إلى رَوضاتِ العِلّيّين، ولا يتيسّر ذلك إلّا بالتخلّي عن ذَمائمِ الأخلاقِ ورَذائلها، والتحلّي بشرائفِ الصفات وفضائلها. فيجبُ على كلّ عاقلٍ أنْ يأخذَ أُهْبَتَهُ، ويَبذُلَ هِمّتَهُ في تطهير قلبِهِ عن أوساخ الطبيعةِ وأرجاسِها، وتغسيلِ نفسهِ عن أقذارِ الجِسميّة وأنجاسها قبل أن يَتيهَ في بَيْداءِ الشِقاقِ، ويَهوي في مَهاوي الضَلالةِ والهلاك، ويَصرِفَ جِدَّهُ ويجتهدَ جَهْدَهُ في استخلاص نفسِه من لُصوص القُوى الأمّارةِ ما دامَ الاختيارُ بيده، إذْ لا تنفَعه الندامةُ والحسرةُ في غَدِه.

---

١. إشارةٌ إلى الحديث النبوي: «أُعْطيتُ جوامِعَ الكَلِم» (بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٨، باب الشفاعة، ح ١٧؛ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٥٧٣، ح ٦٦١١).

٢. إشارة إلى الحديث النبوي: «بُعِثتُ لأُتَمِّمَ محاسِنَ الأخلاق» (إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١٥٧).

ثمّ لاريبَ في أنّ التزكيةَ موقوفةٌ على معرفةِ مُهلكاتِ الصِفاتِ ومُنجياتها، والعلمِ بأسبابها ومعالجاتِها، وهذه هي الحكمة الحقّة التي مدحَ اللهُ أهلَها، ولم يُرَخِّصْ لأحدٍ جَهْلَها، وهي الموجبة للحياةِ الحقيقيّةِ، والسعادةِ السَرمَديّةِ، والتاركُ لها على شفاجُرفِ الهَلَكاتِ.

وقد كان السَلَفُ من الحكماءِ يبالغونَ في نشرها وتدوينها، وجمعِها وتبيينِها، على ما أدّتْ إليه قُوّةُ أنظارِهم، وأدركوهُ بقرائحهم وأفكارهم، ولمّا جاءتِ الشريعةُ النبويّةُ (على صادعِها ألفُ صلاةٍ وتحيّةٍ)[1] حَثّتْ على تحسين الأخلاق وتهذيبها، وبيّنتْ دقائقَها وتفصيلَها، بحيثُ اضْمَحَلّ في جَنْبِها ما قرّرَه أساطينُ الحكمةِ والعِرفانِ، وغيرُهم من أهل الملل والأديان. إلّا أنّه لمّا كانَ ما وَردَ منها منتشراً في مواردَ مختلفةٍ، ومتفرّقاً في مواضِعَ متعدّدَةٍ، تَعَسّر أنْ يُحيطَ به الجُلّ، فلابدّ مِنْ ضَبْطِه في موضعٍ واحدٍ ليَسهُلَ تناوُلُه للكلّ.

فجمعت في هذا الكتاب خلاصةَ ما وردَ من الشريعة الحقّةِ، مع زُبدةِ ما أوردَه أهلُ العرفانِ والحكمةِ على نهجٍ تَقَرُّ بِهِ أعينُ الطالبينَ، وتُسَرُّ به أفئدةُ الراغبينَ.

ونذكرُ أوّلاً بعضَ المقدّماتِ النافعةِ في المطلوبِ، ثمّ نُشيرُ إلى أقسامِ الأخلاقِ ومبادئها من القُوى، ونَضبِطُها بأجناسها وأنواعها ونتائجِها وثمراتِها، ثمّ إلى المعالجةِ الكلّيّة لذمائمِ الأخلاقِ والجزئيّة لكلّ خُلقٍ مذموم ممّا له اسمٌ مشهورٌ، وما ينشأ عنه من الأفعال المذمومةِ، وفي تِلْوِهِ نذكرُ ضدَّهُ المحمودَ، وما يَدُلُّ على فضلِه عقلاً ونقلاً؛ لأنّ العلمَ بفضيلةِ كلّ خلقٍ والمداومةَ على آثاره أقوى علاجٍ لإزالةِ ضدّهِ. ولا نُتابعُ القومَ مِن تقديمِ الرذائل بأسْرِها على الفضائل، بل نذكرُ أوّلاً ما يَتعلّقُ بالقُوّةِ العقليّةِ من الفضائلِ والرذائلِ على النحوِ المذكورِ، ثمّ ما يَتعلّقُ بالغضَبيّةِ، ثمّ ما يَتعلّقُ بالشَهويّةِ، ثمّ ما يَتعلّقُ باثنتينِ منها أو ثلاثٍ؛ لأنّ ذلك أدخلُ في ضَبطِ الأخلاق، ومعرفةِ أضدادِها، والعلمِ بمبادئِها وأجناسها، وهو من أهمّ الأُمورِ لطالبي هذا الفنّ. ورتّبناهُ على ستّة أبوابٍ وخاتمةٍ.

---

١. إشارة إلى الآية الكريمة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ الحجر (١٥): ٩٤.

الباب الأوّل

في المقدّمات

وفيه فصول:

الفصل الأوّل: انقسام حقيقةِ الإنسان وحالاته بالاعتبار

الفصل الثاني: بيان التذاذ النفسِ وتألّمها

الفصل الثالث: فضائل الأخلاق ورذائلها

الفصل الرابع: حَجب الأخلاق الذميمة عن المعارف

الفصل الخامس: تأثير المزاج على الأخلاق

الفصل السادس: تأثير التربية على الأخلاق

الفصل السابع: شرفُ علمِ الأخلاق

الفصل الثامن: النفس وأسماؤها باختلاف الاعتبارات

الفصل التاسع: حقيقة الخير والسعادة

الفصل العاشر: شرائط حصولِ السعادة

الفصل الحادي عشر: تقسيم اللذّات والآلام

الفصلُ الأوّلُ

انقسام حقيقةِ الإنسانِ وحالاتِه بالاعتبار

اعلم أنّ الانسانَ منقسمٌ إلى سرٍّ وعَلَنٍ ورُوحٍ وبَدَنٍ، ولكلٍّ منهما مُنافياتٌ وملائماتٌ، وآلامٌ ولذّاتٌ، ومهلكاتٌ ومنجياتٌ.

ومنافياتُ البدنِ وآلامُه هي الأمراضُ الجسمانيّةُ، وملائماته هي الصحّةُ واللذّاتُ الجسمانيّة. والمتكفّلُ لبيان تفاصيل هذه الأمراض ومعالَجاتها هو علمُ الطبّ. ومنافياتُ الروح وآلامُه هي رَذائلُ الأخلاق التي تُهلكُه وتُشْقِيه، وصحّتُه رُجوعُه إلى فضائِلها التي تُسعِدُهُ وتُنْجِيه وتُوصلُه إلى مجاوَرة أهلِ اللهِ ومقرَّبِيه. والمتكفِّلُ لبيانِ هذه الرذائلِ ومُعالجاتِها هو «علم الأخلاق».

ثمّ إنّ البدنَ ماديّ فانٍ، والروحَ مجرّدٌ باقٍ، فإن اتّصفَ بشرائفِ الصفاتِ كان في البَهجَة والسعادة أبداً، وإن اتّصفَ برذائِلها كان في العذاب والشقاوة مُخلّداً.

الفصلُ الثاني
بيان التذاذ النفس و تألّمها

إذا عرفتَ تجرُّدَ النفسِ وبقاءَها أبداً، فاعلَم أنّها إمّا مُلْتذّةٌ متنعِّمةٌ دائماً أو مُعذَّبةٌ متألمة كذلك، والتِذاذُها يتوقّفُ على كمالها الذي يَخصُّها. ولمّا كانت لها قوّتان: نظريّةٌ وعمليّةٌ، فكمالُ القوّةِ النظريّة الإحاطةُ بحقائقِ الموجوداتِ بمراتبها، والاطّلاعُ على الجزئيّات غيرِ المتناهية بإدراك كلّيّاتِها، والترقّي منه إلى معرفة المطلوب الحقيقي وغايةِ الكلّ، حتّى يصِلَ إلى مقام التوحيد، ويتخلّصَ عن وساوسِ الشيطان، ويطمئنَّ قلبُه بنور العرفان. وهذا الكمال هو الحكمةُ النظريّةُ.

وكمالُ القوّةِ العمليّةِ التخلّي عن الصفاتِ الرَّديّةِ والتحلّي بالأخلاقِ المرضيَّةِ؛ ثمّ الترقّي إلى تطهيرِ السِّرِّ وتخليتِه عمّا سِوى الله سبحانه. وهذه هي الحكمة العمليّة التي يشتملُ هذا الكتاب على بيانِها.

وكمالُ القوّةِ النظريّة بمنزلةِ الصورةِ، وكمال القوّةِ العمليّةِ بمنزلة المادّةِ، فلا يتمّ أحدهما بدون الآخر.

الفصلُ الثالثُ

فضائل الأخلاق ورذائلها

فضائلُ الأخلاقِ من المنجياتِ المُوصِلةِ إلى السعادةِ الأبديّةِ، ورذائلُها من المهلكاتِ الموجبةِ للشقاوةِ السرمدِيَّةِ، فالتخلّي عن الثانية والتحلّي بالأُولى من أهمّ الواجبات، والوصولُ إلى الحياة الحقيقيّة بدونها من المُحالاتِ، فيجبُ على كلّ عاقلٍ أنْ يجتهدَ في اكتساب فضائلِ الأخلاقِ التي هي الأوساط[1] المثبَتَةُ من صاحب الشريعة، والاجتناب عن رذائلها التي هي الأطرافُ، ولو قَصّرَ أدركه الهلاكُ الأبديّ: ﴿وَمَنْ كانَ فِى هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[2].

ثمّ ما لم تحصُل التخليةُ لم تحصُل التحليةُ ولم تستعِدَّ النفسُ للفيوضاتِ القدسيّةِ، كما أنّ المِرآةَ ما لم تذهب الكُدُوراتُ عنها لم تستعِدَّ لارتسامِ الصُوَرِ فيها، فالمواظَبَةُ على الطاعاتِ الظاهرةِ لا تنفَعُ ما لم تَتَطَهَّر النفسُ من الصفاتِ المذمومةِ كالكِبْرِ والحسدِ والرياءِ، وطلبِ الرياسةِ والعُلى، وإرادةِ السوءِ للأقرانِ والشُرَكاءِ، وطلبِ الشُهرَةِ في البلادِ وفي العبادِ. وأيّ فائدةٍ في تزيين الظواهرِ مع إهمالِ البواطنِ!

ثمّ إذا تخلّت النفسُ عن مساوِئ الأخلاقِ وتحلّتْ بمعاليها على الترتيب العلمي استعدّتْ

---

١. إشارة إلى أنّ الفضيلة وسطٌ بين رذيلتين، وسيأتي شرحها في الفصل الثاني من الباب الثاني.

٢. الإسراء (١٧): ٧٢.

لقبولِ الفيضِ من ربّ الأرباب، ولم يبقَ لشدّة القُرب بينهما حجابٌ. وحينئذ يصير الإنسان فائزاً بالرُتبة العُليا، والسعادةِ القُصوى، قابلاً للخلافة الإلهيّةِ، والرئاسة المعنويّة. فيصِلُ إلى اللذّات الحقيقيّة، والابتهاجات العقليّة التي ما رأتْها عيونُ الأعيان، ولم تتصوّرْها عَوالي الأذهان.

الفصلُ الرابعُ
حَجْب الأخلاق الذميمة عن المعارف

الأخلاقُ المذمومةُ هي الحُجُبُ المانعةُ عن المعارفِ الإلهيّةِ والنَفَحاتِ القدسيّة؛ إذ هي بمنزلة الغِطاء للنفوس فما لم يرتفعْ عنها لم تتّضحْ لها جَلِيّةُ الحال اتّضاحاً، كيف والقلوبُ كالأواني فإذا كانتْ مملوءةً بالماءِ لا يدخُلُها الهواءُ، فالقلوبُ المشغولةُ بغيرِ الله لا تدخلُها معرفةُ الله وحبُّه وأُنْسُهُ. وإلى ذلك أشارَ النبيّ ﷺ بقوله: «لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوتِ السماواتِ والأرض»[1]. فبِقَدْرِ ما تتطهّرُ القلوبُ عن هذه الخبائثِ تتحاذى شطرَ الحقِّ الأوّلِ[2] وتلألأُ فيها حقائقُهُ كما أشار إليه النبيّ ﷺ: «إنّ لربّكم في أيّام دهرِكُمْ نفحاتٍ ألا فتعرّضُوا لها»[3]؛ فإنّ التعرّض لها إنّما هو بتطهير القلوب عن الكدورات الحاصلة عن الأخلاق الرديئة. فكلّ إقبال على طاعة وإعراضٍ عن سيّئةٍ يوجِبُ جلاءً ونوراً للقلب يستعدّ به لإفاضة علم يقيني، ولذا قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[4]. وقال النبيّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ وَرّثَهُ اللهُ علمَ ما لم يَعلمْ»[5]. فالقلبُ إذا صفا عن

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٣، ص ٣٣٢، باب ذكر إبليس وقصصه، ذيل الحديث ١٧٧.
٢. المراد من «الحقّ الأوّل» هو الله (تبارك وتعالى) فكما أنّ الحقّ صفة له كذلك الأوّل، فهو صفةٌ بعد صفة.
٣. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٢١، باب الاقتصاد في العبادة، ذيل الحديث ٣٠.
٤. العنكبوت (٢٩): ٦٩.
٥. بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ١٢٨، باب علم أمير المؤمنين عليه السلام ذيل الحديث ٢.

الكُدُوراتِ الطبيعيّةِ بالكليّةِ يظهرُ له من المزايا الإلهيّةِ والإفـاضاتِ الرحمـانيّة مـا لا يمكـنُ لأعاظم العلماء، كما قال سيّدُ الرسلِ: «إنّ لي مع الله حالاتٍ لا يحتملُها ملَكٌ مقرّبٌ ولا نبيٌّ مُرسَلٌ»[١].

وكُلُّ سالِكٍ إلى الله إنّما يَعرِفُ من الألطافِ الإلهيّةِ والنفحاتِ الغيبيّةِ ما ظَهرَ لهُ على قدْرِ استعداده، وأمّا ما فوقَهُ فلا يُحيطُ بحقيقتِه علماً، لكنْ قد يُصدِّقُ به إيماناً بالغيب كما أنّا نـؤمنُ بالنبوّة وخواصّها ونُصدّقُ بوجودهما ولا نعرفُ حقيقتَهما، كما لا يعرفُ الطفلُ حالَ المـميّزِ، والمميّزُ من العوام حالَ العلماءِ، والعلماءُ حالَ الأنبياءِ والأولياءِ.

فالرحمةُ الإلهيّةُ بحكم العنايةِ الأزليّة مبذولةٌ على الكلّ غير مضنونٍ بها على أحدٍ، لكـنْ حصولُها موقوفٌ على تَصْقيل مرآةِ القلب وتصفيتِها عن الخبائثِ الطبيعيّةِ، ومع تراكُم صَدَئِها الحاصل منها لا يمكنُ أنْ يتجلّى فيها شيء من الحقائقِ، فلا تُحجَبُ الأنوارُ العلميّةُ والأسرارُ الربوبيّةُ عن قلبٍ من القلوب لبخلٍ من جهةِ المنعم (تعالى شأنه عن ذلك)، بل الاحتجابُ إنّما هو من جهةِ القَلبِ لكُدُورَتِه وخُبْثِهِ واشتغالِه بما يُضادّ ذلك.

ثمّ ما يظهرُ للقلب من العلوم لطهارتِه وصفاءِ جوهرِهِ هو العـلمُ الحـقيقيّ النـورانيّ الذي لا يقبلُ الشكّ وله غَايةُ الظهورِ والانجلاءِ لاستفادته من الأنوار الإلهيّةِ والإلهـاماتِ الحـقّة الربّانيّةِ، وهو المرادُ بقوله عليه السلام: «إنّما هو نورٌ يقذفُه اللهُ في قلبِ من يشاء»[٢] وإليه أشارَ مولانا أميرُ المؤمنين عليه السلام بقوله:

إنّ من أحبِّ عبادِ الله إليه عبداً أعانه اللهُ على نفسِهِ فاستشعرَ الحـزن وتجـلببَ الخوفَ، فزَهَر مصباحُ الهُدى في قلبِهِ... قد خلعَ سرابيلَ الشهواتِ، وتخـلّى مـن الهُمومِ، إلّا همّاً واحداً انفرد به، فخرج من صفة العمى ومشارَكة أهـل الهـوى، وصار من مفاتيح أبوابِ الهـدى ومغاليقِ أبواب الردى، قد أبصرَ طريقَهُ وسلكَ

---

١. بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣٦٠، باب إثبات المعراج، ذيل الحديث ٦٦، مع اختلاف في الألفاظ.

٢. منية المريد، ص ١٤٨ ـ ١٤٩: «عن الصادق عليه السلام: ليس العِلمُ بِكَثْرة التعـلُّم إنّما هو نورٌ يقع في قلب من يُريد الله أنْ يهديَه ...»؛ بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦، باب آداب طلب العلم وأحكامه. وورد في إتحاف السادة المتّقين، ج ١، ص ٢٩٠ هكذا: «كما قيل: العلم نور يقذفه الله تعالى في قلوب أوليائه».

سبيلَه وعرفَ منارَه، وقطعَ غِمارَه[١]، واستمسك من العُرى بأوثقها ومن الجبال بأمتَنِها، فهو من اليقين على مثل ضَوء الشمس[٢].

وقال عليه السلام في وصف الراسخين من العلماء:

هجمَ بهم العلمُ على حقيقة البصيرةِ، وباشروا رُوحَ اليقين، واستلانوا ما استوعَرهُ المترفون، وأنِسُوا بما استوحشَ منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلقةٌ بالمحلِّ الأعلى[٣].

وبالجملة ما لم تحصل للقلبِ التزكيةُ لم يحصلْ له هذا القسمُ من المعرفة؛ إذ العلمُ الحقيقيُّ عبادةُ القلبِ، وكما لا تصحّ الصلاةُ التي هي عبادةُ الظاهرِ إلّا بعد تطهيره من النجاسةِ الظاهرة فكذلك لا تصحّ عبادةُ الباطن إلّا بعد تطهيرِه من النجاسةِ الباطنة التي هي رذائلُ الأخلاقِ وخبائثُ الصفاتِ، كيف وفيضانُ أنوارِ العلومِ على القلوبِ إنّما هو بواسطةِ الملائكةِ وقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «لا تدخُلُ الملائكةُ بيتاً فيه كلبٌ»[٤]. فإذا كان بيتُ القلبِ مشحوناً بالصفاتِ الخبيثةِ التي هي كلابٌ نابحةٌ لم تدخلْ فيه الملائكةُ المقدّسة.

فقوله صلى الله عليه وآله: «بُنيَ الدينُ على النظافة»[٥] يتناولُ زوالَ النجاستين. وما وردَ منْ أنّ «الطهور نصفُ الإيمان[٦]» المرادُ به طهارةُ الباطنِ عن خبائثِ الأخلاقِ، وكان النصفُ الآخرُ تحليتَهُ بشرائفِ الصفاتِ وعمارَتَهُ بوظائفِ الطاعاتِ.

وبما ذُكِرَ ظهرَ أنَّ العلمَ الذي يَحصُلُ من طريق المجادَلاتِ الكلاميّةِ والاستدلالاتِ الفكريّةِ، من دون تصقيلٍ لجوهرِ النفسِ، لايخلو عن الكُدْرَةِ والظُلْمةِ، ولا يستحِقُّ اسمَ اليقينِ الحقيقيّ الذي يحصُلُ للنفوسِ الصافيةِ، فما يظُنُّه كثيرٌ من أهل التعلّقِ بقاذوراتِ الدنيا أنّهم على

---

١. غمرة الشيء: شدّته ومزدحمه، جمعه غمرات وغمار وغمر، ومنه غمرات الموت أي مكارهه وشدائده.

٢. نهج البلاغة، ص ١١٨، الخطبة ٨٧.

٣. نهج البلاغة، ص ٤٩٧، الخطبة ١٤٧.

٤. كنز العمّال، ج ١٥، ص ٣٩٥، ح ٤١٥٣٢.

٥. كنز العمّال، ج ٩، ص ٢٧٧، ح ٢٦٠٠٢ وفيه: «بُني الإسلام على النظافة».

٦. بحار الأنوار، ج ٨٠، ص ٢٣٧، باب علل الوضوء، ح ١١.

حقيقةِ اليقينِ في معرفةِ الله سبحانه خلافُ الواقع؛ لأنّ اليقينَ الحقيقيّ يلزمُهُ نورٌ وبهجةٌ وسُرورٌ، وعدمُ الالتفاتِ إلى ما سوى اللهِ، والاستغراقُ في أبْحُرِ عظمةِ اللهِ، وليس شيءٌ من ذلك حاصلاً لهم، فما ظنّوهُ يقيناً إمّا تصديقٌ مَشُوبٌ بالشُبْهة، أو اعتقادٌ جازمٌ لم تَحصُلْ له نورانيّةٌ وجَلاءٌ وظهورٌ وضياءٌ، لِكُدْرَةِ قلوبِهم الحاصلةِ من خبائثِ الصفاتِ.

والسرّ في ذلك أنّ منشأَ العلم ومناطَهُ هو التجرّدُ كما بُيّنَ في مَقامه، فكلّما تزدادُ النفسُ تجرّداً تزدادُ إيماناً ويقيناً، ولا ريبَ في أنّه ما لم ترتفِعْ عنها أستارُ السيّئاتِ وحُجبُ الخطيئاتِ لم يَحصُلْ لها التجرّدُ الذي هو مَناطُ حقيقةِ اليقينِ، فلابُدَّ من المجاهدةِ العظيمةِ في التزكيةِ والتحليةِ حتّى تنفتحَ أبوابُ الهدايةِ وتتّضِحَ سُبلُ المعرفةِ كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1].

تنبيهٌ: الدنيا والآخرةُ متضادّتانِ، وكلّ ما يُقَرّبُ العبدَ إلى إحداهما يُبعِّدُه عن الأُخرى وبالعكس، كما دلّتْ عليه البراهينُ الحِكْميّةُ والشواهدُ الذوقيّةُ والأدلّةُ السمعيّةُ، فكُلّ مَلَكَةٍ أو حركةٍ أو قولٍ أو فعلٍ يُقَرّبُ العبدَ إلى دارِ الطبيعةِ والغُرورِ يُبَعِّدُهُ عن عالم البهجةِ والسُرورِ، وبالعكسِ. فأسْوَأُ الناس حالاً مَنْ لم يعرِفْ حقيقةَ الدنيا والآخرةِ وتضادَّهما، ولَم يَخَفْ سُوءَ العاقِبَةِ، وأفنى عمرَهُ في طلبِ الدنيا وإصلاح أمرِ المعاشِ، وقَصَرَ سَعيَه على جَرِّ المنفعةِ لبدنِه من نَيل شَهوةٍ أو بُلوغِ لَذّةٍ أو اكتِسابِ تَرَفُّعٍ ورئاسةٍ أو جَمعِ المالِ من غيرِ تصوُّرٍ لما يصلُ إليه من فائدته، كما هو عادةُ أكثر أبناءِ الدنيا، ولم يعرِفْ غيرَ هذهِ الأُمورِ من المعارفِ الحقيقيّةِ والفضائلِ الخُلُقيّةِ والأعمالِ الصالحةِ المقرّبَةِ إلى عالم البقاء، فكأنّهُ يَعلمُ خُلودَهُ في الدنيا، ولا يرجو بعدَ الموتِ ثوابَ عملٍ، ولا جزاءَ فعلٍ، ولا يعتقِدُ بما يرجوهُ المؤمنونَ ويؤمّلُهُ المتّقونَ من الخيرِ الدائم، واللذّاتِ المخالفةِ لِهذهِ اللذّات الفانيةِ التي يشارِكُ فيها السِباعَ والبهائمَ، فإذا أدركَهُ الموتُ ماتَ على حَسْرَةٍ وندامةٍ آيساً من رحمةِ الله قائلاً: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾[2]. أعاذنا اللهُ تعالى من سوءِ الخاتمةِ ووفّقَنا لتحصيلِ السعادةِ الدائمةِ.

---

١. العنكبوت (٢٩): ٦٩.

٢. الزمر (٣٩): ٥٦.

الفصلُ الخامسُ

تأثيرُ المِزاجِ على الأخلاقِ

للمزاجِ مَدْخَليّةٌ تامّةٌ في الصفاتِ: فبعضُ الأمزجةِ في أَصْلِ الخِلْقَةِ مُسْتَعِدٌّ لبعضِ الأخلاقِ، وبعضُها مُقْتَضٍ لخلافهِ، فإنّا نقطعُ بأنّ بعضَ الأشخاصِ بحسبِ جِبِلَّتِهِ، لو خُلّيَ عن الأسباب الخارجيّة، بحيثُ يغضبُ ويخافُ ويَحزَنُ بأدنى سببٍ، ويضحكُ بأدنى تعجُّبٍ، وبعضُهم بخلافِ ذلك. وقد يكونُ اعتدالُ القُوى فِطريّاً بحيثُ يبلُغ الإنسانُ كاملَ العقلِ فاضلَ الأَخلاقِ غالبةً قوّتُه العاقلةُ على قوّتَي الغضبِ والشهوةِ، كما في الأنبياءِ والأئمةِ عليهم السلام. وقد يكون مجاوزتُها عن الوسطِ كذلك بحيثُ يبلُغُ ناقِصُ العقلِ رديّ الصفاتِ مغلوبةً عاقلتُه تحتَ سلطانِ الغضبِ والشهوةِ، كما في بعض الناسِ.

إلّا أنَّ الحقَّ ـ كما يأتي ـ إمكان زوالِها بالمعالجاتِ المقرّرةِ في علمِ الأخلاقِ، فيجبُ السعيُ في إزالةِ نقائِصها وتحصيلِ فضائلِها. وبقاءُ النفسِ على النقصانِ إمّا لعدم صرفها إلى طلب المقصودِ لملابَسةِ العوائِق والموانع، أو مُزاوَلةِ النقيضِ لتمكّنِ مُوجبه، أو لكثرةِ اشتغالها بالشواغلِ المحسوسةِ، أو لضعف القوّة العاقلةِ. فإنْ لم تدركْها العنايةُ الإلهيّةِ فلا يزالُ يَتزايدُ النقصانُ ويبعدُ عن الكمالِ الذي خُلِق لأجله، إلى أنْ يُدركَها الهلاكُ الأبديُّ والشقاوةُ السرمديّةُ، نعوذُ بالله من ذلك. وإنْ أدرَكَتْهُ الرحمةُ الأزليّةُ، فيصرفُ همَّه في إزالة النقائصِ، واكتسابِ الفضائلِ، فلا يزالُ يتصاعدُ من مَرتبةٍ من الكمال إلى فوقها، حتّى يصيرَ من أهلِ

مُشاهَدةِ الجلالِ والجمالِ، ويتشرّفَ بجوارِ الربّ المتعالِ، ويصلَ إلى السرور الحقيقيّ الذي لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، وإلى قُرَّةِ الأعينِ التي يشيرُ إليها في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1].

١. السجدة (٣٢): ١٧.

الفصلُ السادسُ

تأثيرُ التربيةِ على الأخلاقِ

الخُلقُ عبارةٌ عن ملَكةٍ للنفسِ مقتضيةٍ لصدورِ الأفعالِ بسهولةٍ من دون احتياجٍ إلى فكرٍ ورَوِيّةٍ. والملكةُ: كيفيّةٌ نفسانيّةٌ بطيئةُ الزوال، وبالقيدِ الأخيرِ خرجت الحالُ لأنّها كيفيّةٌ نفسانيّةٌ سريعةُ الزوالِ. وسبب وجودِ الخلقِ إمّا المزاجُ كما مرّ، أو العادةُ بأنْ يفعلَ فِعلاً بالرويّة أو التكلّفُ، ويصبر عليه إلى أن يَصيرَ مَلَكةً له ويَصدُرَ عنه بسُهولةٍ وإنْ كانَ مخالِفاً لمقتضى المِزاج.

فالحقُّ قبولُ بعضِ الأخلاق ـ بل أكثرها بالنسبةِ إلى الأكثرِ ـ التبديل؛ للحسّ والعيانِ، ولبطلان السياسات والشرائعِ لولاهُ، ولإمكانِ تغيرِّ خُلُقِ البهائم إذ ينتقلُ الصيدُ من التوحُّشِ إلى الأُنس، والفرسُ من الجماح إلى الانقيادِ، والكلبُ من الهراشِ إلى التأدّبِ، فكيفَ لا يمكنُ في حقّ الإنسانِ؟ وعدمُ قبولِ بعضِها بالنسبةِ إلى البعضِ له للمشاهدَةِ والتجرُبةِ، وهذا البعضُ ممّا لا يكونُ متعلّقَ التكليفِ كالأخلاقِ المتعلّقةِ بالقوّة العقليّةِ من الذكاءِ والحفظ وحُسْنِ التعقّلِ وغيرها. والتصفّحُ يُعطي اختلافَ الأشخاصِ والأخلاقِ في الإزالةِ والاتّصافِ بالضدِّ بالإمكان والتعذّرِ والسهولةِ والتعسُّرِ وبالتقليلِ والرفع بالمرّةِ، ولذا لو تصفّحْتَ أشخاصَ العالَمِ لم تَجِدْ شخصين متشابهين في جميع الأخلاقِ، كما تجد اثنين متماثلين في الصُورةِ. ويشيرُ إلى

ذلك قولُه ﷺ: «اعمَلوا فكلٌّ مُيسّرٌ لما خُلِقَ له»[١].

ثمّ المرادُ من التغيير ليس رفعَ الغضبِ والشهوةِ مثلاً وإماطتَها بالكلّيّةِ؛ فإنّ ذلك محالٌ لأنّهما مخلوقتان لفائدةٍ ضروريّةٍ في الجِبلّةِ، إذ لو انقطعَ الغضبُ عن الإنسان بالكلّيّة لم يَدفعْ عن نفسهِ ما يُهلكُهُ ويُؤذيه وامتنعَ جهادُ الكفّار، ولو انعدمت عنه شهوةُ الطعام لم تبقَ حياتُه، بل المرادُ ردُّهما من الإفراط والتفريطِ إلى الوسط. فالمطلوبُ في صفةِ الغضبِ خلوُّ النفسِ عن الجُبْنِ والتهوّرِ، والاتّصافِ بحسّ الحميّة، وهو أنْ يحصلَ إذا استحسنَ حصولَهُ شرعاً وعقلاً، ولا يحصلُ إذا استحسنَ عدَمَهُ كذلك. وكذا الحالُ في صفةِ الشهوةِ.

ولا ريبَ في أنّ ردّ بعض المـوجوداتِ الناقصةِ من القُوى وغيرِها ـ إذا وُجِدَتْ فيه قـوّةُ الكمال ـ إلى كمالِه ممكنٌ إذا كان له شرطٌ يرتبطُ باختيار العبدِ. فكما أنّ النواةَ يمكنُ أنْ تصيرَ نخلاً بالتربية؛ لوجود قوّةِ النخليّةِ فيها، وتوقّفُ فعليّتِها على شرطِ التربيةِ التي بـيدِ العـبدِ، فكذلك يمكنُ تعديلُ قُوّتي الغضبِ والشهوةِ بالرياضةِ والمجاهدَةِ، لوجودِ قُوّةِ التعديلِ فيهما، وتوقُّفِ فِعْليّتِهما على شرطٍ ارتبط باختيارِ العبدِ أعني الرياضةَ والمجاهدةَ، وإن لم يُمكـنْ لنـا قلعُهما بالكلّيّة.

ثمّ شرائطُ الردّ تختلفُ بالنسبةِ إلى الأشخاصِ والأخلاقِ؛ ولذا ترى أنّ التبديلَ يخـتلفُ باختلافِ مراتب السياسات والتأديب، فيمكنُ أنْ لا يرتفعَ مذمومُ خُلُقٍ بمرتبةٍ من التأديبِ، ويرتفعَ بمرتبةٍ منه فوقَها، والأسهلُ قبولاً لكلّ خُلُقٍ الأطفالُ لخلوّ نفوسِهم عـن الأضداد المانعةِ من القَبولِ، فيجبُ على الآباء تاديبُهم بالآداب الجميلةِ، وصَونُهم عن ارتكابِ الأعمالِ القبيحةِ؛ حتّى تعتادَ نفوسهُم بتركِ الرذائلِ وارتكابِ الفضائلِ.

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١١٩، باب طينة المؤمن، ذيل الحديث ٢٤.

الفصلُ السابعُ
شرفُ علمِ الأخلاق لشرفِ موضوعِه وغايتِه

لمّا عرفتَ أنّ الحياةَ الحقيقيّةَ للإنسان تَتَوقّفُ على تهذيبِ الأخلاقِ الممكنِ بالمعالجاتِ المُقرَّرَةِ في هذه الصناعة، تعرفُ أنّها أشرفُ العلومِ وأنفعُها؛ لأنّ شرفَ كلّ علمٍ إنّما هو بشرفِ موضوعِه أو غايتِه، فشرفُ صناعةِ الطبِّ على صناعة الدِباغةِ بقَدْرِ شرفِ بدنِ الإنسانِ وإصلاحِه على جلودِ البهائم.

وموضوعُ هذا العلم هو النَفسُ الناطِقَةُ التي هي حقيقةُ الإنسانِ ولُبّهُ، وهو أشرفُ الأنواعِ، وغايتُهُ إكمالُها وإيصالُها من أوّلِ أُفُقِ الإنسانِ إلى آخرِه، ولكونه ذا عُرضٍ عريض متّصلاً أوّلُه بأُفُق البهائم وآخرُهُ بأُفقِ الملائكةِ، لا يَكادُ أنْ يُوجَدَ التفاوتُ الذي بين أشخاصِ هذا النوعِ في أفرادِ سائرِ الأنواعِ، فإنّ فيه أخَسَّ الموجوداتِ ومنه أشرفَ الكائناتِ كما قيل:

وَلَمْ أرَ أمثالَ الرجالِ تفاوَتَتْ لَدى المجْدِ حتّى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

وبالفارسية:

ای نقد اصل وفرع ندانم چه گوهری کز آسمان بلندتر واز خاک کمتری

وإلى ذلك التفاوتِ يُشيرُ قولُ سيّدِ الرسلِ صلى الله عليه وآله: «إنّي وُزِنْتُ بأُمّتي فرَجَحْتُ بهم»[1]

---

1. بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠، باب منشئه ورضاعِه، ح ٢٠ و ج ٤٩، ص ١٩٥، باب ما كان يتقرّب به المأمون إلى الرضا عليه السلام، ح ٢.

ولا ريبَ في أنّ هذا التفاوتَ لأجلِ الاختلافِ في الأخلاقِ والصفاتِ، لاشتراكِ الكلّ في الجسميّةِ ولواحقِها.

وهذا العلمُ هو الباعثُ للوصولِ إلى أعلى مراتبِها، وبه تتمُّ الإنسانيةُ وتعرُجُ من حَضيضِ البَهيميّةِ إلى ذُرى الرُّتَبِ المَلَكيّةِ، وأيُّ صناعةٍ أشرفُ ممّا يُوصلُ أخَسّ الموجوداتِ إلى أشرفِها، ولذلك كان السلفُ من الحكماءِ لا يُطلِقونَ العلمَ حقيقة إلّا عليه، ويُسمّونه بالإكسيرِ الأعظمِ، وكان أوّلَ تعاليمِهم، ويبالغونَ في تدوينه وتعليمهِ، والبحثِ عن إجمالِه وتفصيلِه، ويعتقدونَ أنّ المتعلّمَ ما لم يُهذِّبْ أخلاقَه لا تنفعُهُ سائرُ العلوم.

وكما أنّ البدَنَ الذي ليس بالنقيّ كلّما غَذَوْتَهُ فقد زِدْتَهُ شرّاً، فكذلكَ النفسُ التي ليستْ نقيّةً عن ذمائمِ الأخلاقِ لا يزيدُها تعلُّمُ العلوم إلّا فساداً، ولذاترى أكثرَ المتشبّهينَ بِزِيِّ العلماءِ أسْوأَ حالاً من العوامّ مائلينَ عن وظائف الايمان والإسلام؛ إمّا لشدّةِ حِرْصِهِمْ على جمعِ المال، غافلينَ عن حقيقةِ المآلِ، أو لغلبةِ حُبِّهم الجاهَ والمَنْصِبَ، ظنّاً منهم أنّه ترويجٌ للدين والمذهبِ، أو لوقوعِهم في الضلالةِ والحَيْرةِ لكثرةِ الشكّ والشُبْهةِ، أو لشوقهم إلى المراء والجدال في أنْدِيةِ الرجال، إظهاراً لتفوّقِهم على الأقرانِ والأمثالِ، أو لإطلاق ألسنتِهم على الآباء المعنويّة من أكابر العلماءِ وأعاظمِ الحكماءِ، ولِعدم تعبّدهم برسوم الشرع والملّةِ. فكأنّهم لم يعلموا أنّ العلمَ بِدُونِ العملِ ضَلالٌ، ولم يتفطّنوا قولَ نبيّهم ﷺ: «قَصَمَ ظَهري رَجلانِ، عالمٌ مُتَهَتِّكٌ، وجاهلٌ متنسّك»[١] ولم يتذكّروا قوله ﷺ: «البلاهَةُ أدنى إلى الإخلاصِ من فطانةٍ بتراءَ».[٢] وكلّ ذلك ليس إلّا لعدمِ سَعيِهم في تهذيبِ الأخلاقِ وتحسينِها وعدمِ الامتثالِ لقوله سبحانه ﴿وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[٣].

---

١. منية المريد، ص ١٨١.

٢. التحفة السنيّة، ص ٤٩.

٣. البقرة (٢): ١٨٩.

الفصلُ الثامنُ

النفس وأسماؤها باختلاف الاعتبارات

النفسُ جوهرٌ ملكوتي يَستَخدِمِ البدنَ في حاجاته ، وهو حقيقة الإنسان وذاتُه ، والأعضاء والقُوى آلاتُه التي يَتوقّفُ فعلُه عليها ، وله أسماءٌ مختلفةٌ بحسب اختلاف الاعتبارات ، فيسمّى «رُوحاً» لتوقّف حياةِ البدن عليه، و «عقلاً» لإدراكه المعقولاتِ ، و «قلباً» لتقلّبه في الخواطرِ ، وقد تُستَعمَلُ هذه الألفاظ في معانٍ أُخرى تعرف بالقرائن . وله قُوى أربع : قُوّةٌ عقليّة مَلَكيّةٌ ، وقوّة غضَبيّة سَبُعيّةٌ ، وقوّةٌ شَهويّةٌ بهيميّةٌ ، وقوّةٌ وهميّةٌ شيطانيّةٌ .

الأُولى : شأنُها إدراكُ حقائقِ الأُمورِ ، والتمييزُ بين الخيرات والشرورِ ، والأمرُ بـالأفعالِ الجميلةِ ، والنهيُ عن الصفاتِ الذميمةِ .

الثانية : موجبةٌ لصدور أفعالِ السباع من الغضب والبغضاء ، والتَوَثُّبِ على الناسِ بأنواع الأذى .

الثالثة : لا يصدرُ عنها إلّا أفعالُ البهائم من عبوديّة الفرجِ والبطنِ .

الرابعة : شأنُها استنباط وجوهِ المكر والحيل ، والتوصُّل إلى الأغراض بالتلبيس والخُدع .

وقد يمَثّلُ اجتماعُ هذه القُوى في الإنسان براكبٍ بهيمةٍ طالبٍ للصيد يكون معه كلبٌ وعينٌ من قُطّاع الطريق ، فالراكبُ هو العقلُ ، والبهيمةُ هي الشهوةُ ، والكلبُ هو الغضبُ ، والعينُ هو القوّةُ الوهميّةُ التي هي من جواسيسِ الشيطانِ ، فإنْ كان الكلّ تحتَ سياسةِ الراكبِ ، فعَلَ ما

يصلحُ للكلِّ ونالَ ما بصدَدِه، وإنْ كانت الغلبةُ والحكْمُ للبهيمةِ أو الكلب هَلَكَ الراكبُ بذَهابه معهما فيما لا يصلحُ له من التلالِ والوهادِ، واقتحامهِ في موارد الهلكاتِ، وإنْ كان الكلُّ تحتَ نهي العينِ وأمرِه وافتتنوا بخُدَعهِ ومَكرِه أضلّهم بتَلبيسهِ عن سواءِ السبيل حتّى يُوصِلَهم إلى أيدي السارقين.

وكذلك لو كانت القُوى بِأسرِها تحتَ إشارةِ العقلِ وقَهرَها وغَلبَ عليها، وَقَعَتْ لانقيادِها له المسُالَمَةُ والممازَجَةُ بين الكلّ، وصارَ الجميعُ كالواحدِ فتصلُح النفسُ وقُواها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[1]. ولو لم يغلبِ العقلُ حصلَ التدافُعُ والتجاذُبُ بينه وبين سائر القُوى، ويَتزايدُ ذلك إلى أنْ يؤدّيَ إلى انحلالِ الآلةِ والقُوّةِ. ولو يصيرُ العقلُ مغلوباً فتهلكُ النفسُ وقواها ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[2].

والملائكةُ وإنْ كانوا مخصوصين بالجنّة الروحانيّة ولوازِمها من الإشراقاتِ العلميّة، وتوابِعها من اللذّاتِ العقليّة، إلّا أنّه ليس لهم جهةٌ جسمانيّة ولوازمُها بخلاف الإنسانِ فإنّه محيطٌ بجميع المراتبِ المختلفةِ، وسائرٌ في الأطوارِ المتباينةِ من الجماديّةِ والنباتيّةِ والحيوانيّةِ والملَكيّة، وله الترَقّي عن جميع تلك المراتبِ فيتجاوز عن أُفُقِ الملائكةِ، فهو النسخةُ الجامعةُ لحقائقِ المُلكِ والملكوتِ، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

إنّ الله خصّ المَلَكَ بالعقلِ دون الشهوةِ والغضبِ، وخصّ الحيواناتِ بهما دونَهُ وشرّفَ الإنسانَ بإعطاءِ الجميعِ، فإنِ انقادتْ شهوتُهُ وغضبُهُ لعقلهِ صارَ أفضلَ من الملائكةِ لوصولِهِ إلى هذه المرتبةِ مع وجودِ المُنازِعِ، والملائكةُ ليس لهم مزاحِمٌ[3].

* * *

واعلم أنّ الإنسانَ ذو جَنْبةٍ رُوحانيّةٍ يناسبُ بها الأرواحَ الطيّبةَ والملائكةَ المقدّسين، وذو

---

١. الشمس (٩١): ٩.

٢. الشمس (٩١): ١٠.

٣. بحار الأنوار، ج ٦٠، ص ٢٩٩، باب فضل الإنسان و...، ح ٥.

جَنْبةٍ جِسمانيّة يشابهُ بها السباعَ والأنعامَ، فبالجزء الجسماني أُقيم في هذا العالم الحسّيّ مدّةً قصيرةً، وبالجزءِ الروحاني ينتقل إلى العالم العُلويّ ويقيمُ فيه أبداً في مصاحبةِ الأرواح القدسيّة، بشرط أنْ يتحرّك بقواه نحوَ كمالاتِها الخاصّةِ، حتّى يغلبَ الجزءُ الروحاني على الجسماني، وينفُضَ عن نفسه كُدُوراتِ الطبيعةِ، وتظهرَ فيه آثارُ الروحانياتِ من العلمِ بحقائقِ الأشياءِ والأُنسِ بالله تعالى والحبِّ له والتحلّي بفضائلِ الصفات ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1].

---

١. السجدة (٣٢): ١٧.

الفصلُ التاسعُ

حقيقة الخير والسعادة

اعلم أنّ الغايةَ في تهذيبِ النفس عن الرذائلِ وتكميلها بالفضائل هي الوصولُ إلى الخيرِ والسعادةِ، وحقيقةُ الخيرِ والسعادةِ ليستْ إلّا المعارف الحقّة والأخلاق الطيّبة، والأمرُ وإنْ كان كذلك من حيث إنّ حقيقتَها ما يكون مطلوباً لذاته، وباقياً مع النفس أبداً وهما كذلك، إلّا أنّه لا ريبَ في أنّ ما يترتّب عليهما من حبّ الله وأُنسهِ، والابتهاجات العقلانيّةِ واللذّاتِ الروحانيّةِ مغايرٌ لهما من حيث الاعتبارِ، وإنْ لم يَنْفَكَّ عنهما، ومطلوبيّتُه لذاتِه أشدُّ وأقوى، فهو باسم الخيرِ والسعادةِ أولى وأحرى، وإن كان الجميعُ خيراً وسعادةً.

وبذلك يحصلُ الجمع بين أقوالِ أربابِ النَظَرِ والاستدلالِ، وأصحابِ الكشفِ والحالِ، وإخوانِ الظاهرِ من أهلِ المقالِ، حيثُ ذهبتِ الفرقةُ الأُولى إلى أنّ حقيقةَ السعادةِ هي العقلُ والعلمُ، والثانيةُ إلى أنّها العشقُ، والثالثةُ إلى أنّها الزهدُ وتركُ الدنيا.

الفصلُ العاشرُ
شرائطُ حصولِ السعادةِ

لا تحصُلُ السعادةُ إلّا بإصلاح جميع الصفاتِ والقُوى دائماً، فلا تحصُلُ بإصلاح بعضها دونَ بعضٍ ووقتاً دونَ وقتٍ، كما أنّ الصحّةَ الجسميّةَ وتدبيرَ المنزلِ وسياسةَ المُدُنِ لا تحصلُ إلّا بإصلاح جميعِ الأعضاءِ والأشخاصِ والطوائفِ في جميع الأوقاتِ. فالسعيدُ المطلقُ من أصلحَ جميعَ صفاتهِ وأفعالهِ على وجهِ الثُبوتِ والدَوامِ بحيثُ لا يُغيّرُهُ تَغيُّرُ الأحوالِ والأزمانِ، فلا يزولُ صبرُه بحدوثِ المصائبِ والفتنِ، ولا شكرُهُ بورودِ النوائبِ والمِحَنِ، ولا يقينُهُ بكَثْرةِ الشُبهاتِ، ولا رِضاهُ بأعظم النكباتِ، ولا إحسانُه بالإساءةِ، ولا صداقتهُ بالعداوة. وبالجملةِ لا يَحصلُ التفاوتُ في حالهِ، ولو وردَ عليه ما وردَ على أيّوبَ النبيّ عليه السلام[1]. وقد ظهرَ ممّا ذُكِرَ أنّ من يَجزَعُ بورودِ المصائبِ الدُنيويّةِ، ويَضطَرِبُ من الكُدُوراتِ الطبيعيّةِ، ويُدخِلُ نفسَهُ في مَعْرِضِ شَماتةِ الأعداء وترحّم الأحبّاء، خارج عن زُمْرَةِ السُعداءِ؛ لضَعفِ غَريزَته وغلبة الجُبنِ على طبيعتِه، وعدم ميله بَعْدُ إلى الابتهاجاتِ التي تَدفَعُ عنِ النفس أمثالَ ذلك. ومِثْلُه لو تكلّفَ الصبرَ والرِضا وتَشَبّهَ ظاهراً بالسُعداءِ لكانَ في الباطن مُتألّماً مُضطرباً وهذا ليس سعادةً؛ لأنّ السعادةَ الواقعيّةَ إنّما هي صَيرورةُ الأخلاقِ الفَاضلَةِ مَلكاتٍ راسخةً بحيثُ لا تُغيّرُها المغيّراتُ ظاهراً وباطِناً. بلّغنا اللهُ وجميعَ الطالبين إلى هذا المقامِ الشريفِ.

---

١. ورد ذكره في سورة الأنبياء (٢١): ٨٣، انظر مجمع البيان، ج ٧، ص ١٠٦ ذيل الآية الشريفة.

الفصلُ الحادي عشرَ
تقسيم اللذّات والآلام

لمّا عرفْتَ أنّ القُوى في الإنسان أربعٌ : قوّةٌ نظريّةٌ عقليّةٌ ، وقوّةٌ وَهْميّةٌ خَياليّةٌ ، وقوّةٌ سبُعيّةٌ غَضَبيّة ، وقوّةٌ بَهيمِيّةٌ شَهَويّةٌ ـ فاعلم أنّه بإزاء كلٍّ واحدةٍ منها لذّةٌ وألمٌ ؛ لأنّ اللذّةَ إدراكُ المُلائِم ، والألمَ إدراكُ غيرِ الملائِمِ ، فلِكُلٍّ منَ الغرائزِ المُدْرِكَةِ لَذّةٌ هي نَيلُه مُقتَضى طبعهِ الذي خُلِقَ لأَجْلِهِ ، وألَمٌ هو إدراكُه خلافَ مقتضى طبعه .

فغَريزةُ العقل لمّا خُلِقَتْ لمعرفةِ حقائقِ الأُمور فَلَذّتُها في المعرفةِ والعلمِ وأَلَمُها في الجَهْلِ ، وغريزةُ الغَضبِ لمّا خُلِقتْ للتشفّي والانتقام فَلَذّتُها في الغَلَبَة التي يَقْتَضيها طبعُها وألَمُها في عَدَمِها ، وغَريزةُ الشهوةِ لمّا خُلِقَتْ لتحصيلِ الغِذاء الذي به قوامُ البدنِ فَلَذّتُها في نَيلِ الغِذاء وألَمها في عدم نَيْلِهِ ، وهكذا في غيرِها ، فاللذّاتُ والآلامُ أيضاً على أربعةِ أقسامٍ : العقليّةُ والخَياليّةُ والغَضَبيّةُ والبَهيميّةُ .

وهذه اللذّات والآلامُ تَصِل إلى النفس وهي الملتذّةُ والمتألّمةُ حقيقةً إلّا أنّ كلّاً منها يصل إليها بواسطة القوّة التي تتعلّق بها . والفرقُ بين الكلِّ ظاهرٌ .

ثمّ أقوى اللذّاتِ هي العقليّةُ لكونِها فِعليّةً ذاتيّةً غيرَ زائلةٍ باختلافِ الأحوالِ ، وغيرُها مِنَ اللذّاتِ الحسّيّةِ انفعاليةٌ عَرَضيّةٌ منفعلةٌ زائلةٌ ، وهيَ في مبدأ الحالِ مَرْغُوبةٌ عند الطبيعَةِ ، وتَتَزايدُ بتزايُدِ القوّةِ الحيوانيّةِ وتَضْعُفُ بِضَعْفِها إلى أنْ تنتفي بالمرّةِ ، ويظهرُ قُبْحُها عند العقلِ .

وأمّا العقليّةُ فهي في البدايةِ منتفيةٌ، لأنّ إدراكَها لا يحصلُ إلّا للنفوسِ الزكيّةِ المتحلّيةِ بالأخلاقِ المرضيّةِ، وبعدَ حصولِها يظهرُ حُسْنُها وشَرفُها وتتزايدُ بتزايُدِ القوّةِ العقليّةِ إلى أنْ تنتهي إلى أقصى المراتب، ولا يكونُ لها نقصٌ ولا زوالٌ.

والعجبُ ممّنْ ظنّ انحصارَ اللذّةِ في الحسّيّةِ وجعلَها غايةَ كمال الإنسان وسعادَتَهُ القُصوى. والمتشرّعونَ منهم قَصَروا اللذّاتِ الآخِرةِ على الجنّةِ والحورِ والغلمانِ وأمثالِها، وآلامَها على النار والعقاربِ والحيّاتِ وأشباهِها؛ وجعلوا الوُصولَ إلى الأُولى والخلاصَ عن الثانية غايةً لزُهْدِهم وعِبادَتِهم. وكأنّهم لم يَعلَمُوا أنّ هذه عبادةُ الأُجَراءِ والعبيدِ[١] فتركوا قليلَ المشتَبِهاتِ ليَصِلوا إلى كثيرِها. وليتَ شِعري أنّ ذلك كيفَ يدلّ على الكمالِ الحقيقيّ والقُربِ من الله سبحانَه، ولا أدري أنّ الباكي خوفاً من النار وشوقاً إلى اللذّاتِ الجسميّةِ المطلوبةِ للنفسِ البَهيميّةِ كيف يُعَدُّ من أهلِ التقَرُّبِ إلى الله سبحانه ويستحقُّ التعظيمَ ويُوصَفُ بعلوّ الرتبةِ! وكأنّهم لم يُدرِكوا الابتهاجاتِ الروحانيّةَ، ولا لذّةَ المعرفةِ بالله وحبَّهُ وأُنسَهُ، ولم يَسمعوا قولَ سيّد الموحّدين[٢]: «إلهي ما عَبَدْتُكَ خَوفاً من نارِك، ولا طمعاً في جَنّتِكَ، ولكنْ وجَدْتُكَ أهلاً للعبادةِ فَعَبدْتُكَ»[٣].

وبالجملة لا ريبَ في أنّ الإنسانَ في اللذّةِ الجسميّةِ يشارِكُ الخنافسَ والديدانَ والهَمَجَ من الحيوان، وإنّما يشابهُ الملائكةَ في البصيرَةِ الباطنةِ والأخلاقِ الفاضلةِ، وكيف يَرتضي العاقلُ أنْ يَجعَلَ النفسَ الناطقةَ الشريفةَ خادمةً للنفسِ البهيميّة الخسيسَةِ؟

وممّا يدلّ على قبح اللذّات الحيوانيّةِ أنّ أهلَها يكتمونَها ويُخفون ارتكابَها ويَستحْيُون عن إظهارِها، وإذا وُصِفُوا بذلك تتغيّرُ وجوهُهُم، كما هو ظاهرٌ مِن وصفِ الرجلِ بكثرةِ الأكلِ، مع أنّ الجميلَ على الإطلاق يَحْسُنُ إذاعتُه، وصاحبُهُ يحبُّ أنْ يُظهِرَهُ ويُوصَفُ به، هذا مع أنّ

---

١. إشارة إلى ما روي عن الصادق عليه السلام: «إنّ العبّادَ ثلاثة: قوم عَبدوا اللهَ (عزّ وجلّ) خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقومٌ عبَدوا اللهَ تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأُجراء، وقومٌ عبدوا اللهَ (عزّ وجلّ) حُبّاً له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضلُ العبادة» (الكافي، ج ٢، ص ٨٤، ح ٥).

٢. المعنيّ به هو أمير المؤمنين عليه السلام.

٣. بحار الأنوار، ج ٤١، ص ١٤، باب عبادته وخوفه، ح ٤.

البديهةَ حاكمةٌ بأنّ هذهِ اللذّاتِ ليستْ لذّاتٍ حقيقيّةً، بل هي دفعُ آلامٍ حادثةٍ للبدن، فإنّ ما يتخيّلُ لذّةً عند الأكل إنّما هو راحةٌ من ألم الجوع، ولذا لا يلتذّ الشبعانُ من الأكلِ، ومعلومٌ أنّ الراحةَ من الألم ليس كمالاً وخيراً، إذ الكمالُ الحقيقيُّ والخيرُ المطلقُ ما يكونُ كمالاً وخيراً أبداً.

إيقاظٌ: لمّا عرفتَ أنّ الإنسانَ في اللذّةِ العقليّة يشارِكُ الملائكةَ، وفي غيرها من الحسّيّةِ المتعلّقةِ بالقُوى الثلاث ـ أعني السبُعيّةَ والبهيميّةَ والشيطانيّةَ ـ يشارِكُ السباعَ والبهائمَ والشياطينَ، فاعلم أنّ من غلبتْ عليه إحدى اللذّاتِ الأربعِ كانتْ مشاركتُهُ لما يُنسَبُ إليه أكثرَ، حتّى إذا صارتْ الغلبةُ تامّةً كان هو هو.

فانظرْ يا حبيبي أين تضعُ نفسَكَ، فإنّ الغلبةَ لو كانتْ لقوّتِكَ الشهويّةِ حتّى يكونَ أكثرَ همِّكَ إلى الشهواتِ الحيوانيّةِ كالأكلِ والشُربِ وسائرِ النزواتِ البهيميّةِ، كنتَ واحداً من البهائمِ. وإنْ كانتْ لقوّتِكَ الغضبيّةِ حتّى يكونَ جُلُّ مَيلِكَ إلى المناصِبِ والرئاساتِ الرديّةِ، وإيذاءِ الناسِ بالضربِ والشتمِ، وباقي الحركات السَبُعيّةِ، نزلتَ منزلةَ السباعِ. وإن كانتْ لقوّتِكَ الشيطانيةِ حتّى يكونَ غالبُ سعيِكَ في استنباطِ وجوهِ المَكْرِ والحِيَلِ للوصولِ إلى مقتضياتِ قُوّتَي الشهوةِ والغَضبِ بأنواعِ الخداعِ والتلبيساتِ الوهميّةِ دخلتَ في حِزبِ الأبالسةِ. وإنْ كانتْ لقوّتِكَ العقليّةِ حتّى يكونَ جَدُّكَ مقصوراً على أخذِ المعارف الإلهيّةِ واقتناءِ الفضائلِ الخُلُقيّةِ عَرَجْتَ إلى أُفقِ الملائكة المقدّسين.

فمن كان عاقلاً غيرَ عدوٍّ لنفسه وجبَ عليه أن يصرفَ جُلَّ همِّهِ في تحصيل السعادةِ العلميّةِ والعمليّةِ، وإزالةِ النقائصِ الكامنةِ في نفسه، وليقتَصِرْ على الأُمورِ الشهوانيّةِ واللذّاتِ الجسمانيّةِ بقَدْرِ الضرورة، بأنْ يكتفي من الغِذاءِ بما يَحفَظُ اعتدالَ مِزاجِهِ وقِوامَ حياتِه، ولا يكونُ قصدُهُ منه الالتذاذَ بل سدّ الضرورة ودفعَ الألم، ولا يُضيِّعُ وقتَه في تحصيل أزيدَ من ذلك، فإن تجاوزَ عنه فبقَدْرِ ما يَحفَظُ رُتْبَتَهُ ولا يوجبُ مهانتَهُ وذِلّتَهُ، ومن اللباس بقَدْرِ ما يَستُرُ العورَةَ ويَدفَعُ الحرَّ والبردَ، فإنْ تجاوزَ عن ذلك فبقَدْرِ مالا يؤدّي إلى حقارَتِهِ ولا يُوجبُ السقوطَ بين أقرانِه وأهل طبقتِهِ. وليحذَرْ عن الانهماكِ في مقتضياتِ قوّتي الشهوةِ والغضبِ؛ لأنّه يوجبُ الشقاوةَ الدائمةَ والهلاكةَ السرمديّةَ.

فاللهَ اللهَ في نفوسِكم ـ معاشرَ الإخوانِ ـ أدرِكوها قبلَ أنْ تغرَقوا في بحارِ المسالِكِ. وتَنبّهوا عن نومِ الغفلةِ قبلَ أنْ تَنْسَدَّ عليكم السُبُلُ والمسالِكُ. وبادِرُوا إلى تحصيلِ السعاداتِ قبلَ أنْ تَسْتَحْكِمَ فيكم الملكاتُ المُهلكةُ، والعاداتُ المُفْسِدةُ. فإنّ إزالةَ الرذائلِ بعدَ استحكامِها في غايةِ الصعوبةِ، والمجاهَدةَ مع أحزابِ الشياطينِ بعدَ الكِبَرِ قلّما يُفيدُ الأثرَ، والغلبةَ على النفسِ الأمّارَةِ بعد ضعف الهَرَمِ في غاية الإشكال، إلّا أنّه في أيّ حالٍ لا ينبغي أن تيأسوا من رَوْحِ الله[١]. فاجتَهدوا بِقَدْرِ القوّةِ والاستطاعةِ، فإنّه خيرٌ من التمادي في الباطل، فلعلّ اللهَ يُدرِكُكُم بعظيمِ رحمتِهِ.

تنبيه: إنّ الفائتَ لايُتَدارَكُ، ولا تَظُنَّنّ أنّ ما يفوتُ عن النفسِ من الصفاءِ والبَهْجَةِ لأَجْلِ ما يَعْتَرِيها من الكُدْرَةِ الحاصلَةِ من مَعْصِيةٍ من المعاصِي يمكنُ تدارُكُه، فإنّ ذلك مُحالٌ؛ إذْ غايةُ الأمرِ أنْ تُتْبَعَ تلكَ المعصيةُ بحسنةٍ تَمحُو آثارَها، وتُعيدُ النفسَ إلى ما كانتْ عليه قبلَ تلكَ المعصيةِ، فلا تزدادُ بتلكَ الحسنةِ إشراقاً وسعادةً. ولو جاءَ بها من دون سيّئةٍ لزادَ بها نورُ القلبِ وبهجتُهُ، وحَصَلَتْ له درجةٌ في الجنّةِ. ولمّا تقدّمَتِ السيّئةُ سقطتْ هذهِ الفائدةُ وانحصرَتْ فائدتُها في مجرّدِ عَوْدِ القلبِ إلى ما كانَ عليه قبلَها، وهذا نقصانٌ لا حيلةَ لجَبْرِهِ. ومثالُ ذلك أنّ المِرآةَ التي تَدَنّسَتْ بالخَبَثِ والصَدَإ إذا مُسِحَتْ بالمِصْقَلَةِ وإنْ زالَ بها هذا الخَبَثُ إلّا أنّها لا تَزيدُ به جَلاءً وصَفاءً، بخلاف ما إذا لم تَتَدَنّسْ أَصْلاً، فإنّ التَصْقِيلَ يَزيدُها صَفاءً وجَلاءً، وإلى ما ذُكِرَ أشارَ النبيّ ﷺ بقوله: «من قارَفَ ذَنْباً فارَقَهُ عَقْلٌ لم يَعُدْ إليه أبداً»[٢].

---

١. اقتباس من الآية الشريفة: ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ ٱللهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ يوسف (١٢): ٨٧.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ١٦٠.

الباب الثاني

في أقسام الأخلاق
وتفصيل القول فيها

وفيه فصول:

الفصل الأوّل: أجناس الفضائل الأربعة والأقوال في حقيقة العدالة
الفصل الثاني: تحقيق الوسط والأطراف
الفصل الثالث: أجناس الرذائلِ الثمانيةُ
الفصل الرابع: الفرق بين الفضيلة والرذيلة
الفصل الخامس: طريقُ حفظِ اعتدال الفضائل
الفصل السادس: طريقُ معرفة الأمراض النفسانيّة وأسبابُها
الفصل السابع: المعالجات الكليّة لمرض النفس

الفصل الأوّل

أجناسُ الفضائلِ الأربعةُ والأقوالُ في حقيقةِ العدالة

قد تبيّن في العلم الطبيعي أنّ للنفس الناطقة قوّتين:

أُولاهما: قوّةُ الإدراكِ ولها شعبتان:

أ) العقلُ النظري: وهو مبدأُ التأثّرِ عن المبادئ العاليةِ بقبولِ الصورِ العلميّةِ.

ب) العقلُ العملي: وهو مبدأُ تحريكِ البدنِ في الأعمالِ الجزئيةِ بالرويّةِ[1].

ثانيتهما: قوّةُ التحريكِ، ولها شعبتان:

أ) قوّةُ الغضبِ: وهي مبدأُ دفعِ غيرِ الملائمِ على وجهِ الغلبةِ.

ب) قوّةُ الشهوة: وهي مبدأُ جلبِ الملائمِ.

ثمّ إذا كانت القُوّةُ الأُولى غالبةً على سائر القُوى ولم تنفعلْ عنها، بل كانت هي مقهورةً عنها مطيعةً لها فيما تأمُرها به وتنهاها عنه، كان تَصرُّفُ كلٍّ منها على وجهِ الاعتدالِ، وانتظمتْ أُمورُ النشأةِ الإنسانيةِ، وحَصَلَ تسالمُ القُوى الأربعِ وتمازُجُها، فتهذّبَ كلُّ واحدٍ منها، ويَحصُلُ له ما يخصُّه من الفضيلة؛ فيحصلُ من تهذيب العاقلةِ العلمُ وتتبعُهُ الحكمةُ، ومن تهذيبِ العاملةِ العدالةُ، ومن تهذيبِ الغَضبيّةِ الحلمُ وتَتْبَعُهُ الشَجاعةُ، ومن تهذيبِ الشَهويّةِ

---

١. جاء في هامش جامع السعادات، ج ١، ص ٥٠: «إذا كان العقلُ العملي مبدأً لتحريك البدن فهو قوّة تحريكٍ لا قوّة إدراكٍ، وفي الحقيقة أنّ غرضَهم من العقل العملي هو إدراك ما ينبغي أنْ يُعْمَل».

العفّةُ وتتبعُه السخاوةُ، وعلى هذا تكونُ العدالةُ كمالاً للقوّةِ العمليّةِ.

طريقٌ آخَر: قيل: إنّ النفسَ لما كانت ذاتَ قُوى أربعٍ: العاقلةُ والعاملةُ والشهويّةُ والغضبيّةُ، فإن كانت حركاتُها على وجهِ الاعتدالِ، وكانت الثلاثُ الأخيرة مطيعةً للأُولى، واقتصرتْ من الأفعال على ما تَعيّنَ لَها، حصلتْ أوّلاً فضائلُ ثلاثٌ هي: الحكمةُ والعفّةُ والشجاعةُ. ثمّ يحصلُ من حصولها المترتّبِ على تسالمِ القُوى الأربعِ وانقهارِ الثلاثِ تحتَ الأُولى حالةٌ متشابهةٌ هي كمالُ القُوى الأربعِ وتمامُها، وهي العَدالة. وعلى هذا لا تكونُ العدالةُ كمالاً للقوّة العمليّة فقط، بل تكون كمالاً للقُوى بأَسرِها.

وعلى الطريقين تكونُ أجناسُ الفضائلِ أربعاً:

الحكمة: وهي معرفةُ حقائقِ الموجوداتِ على ما هي عليه، والموجودات إنْ لم يكنْ وجودُها بقدرتنا واختيارِنا فالعلمُ المتعلّقُ بها هو الحكمةُ النظريّةُ، وإنْ كان وجودُها بقدرتِنا واختيارِنا فالعلمُ المتعلِّقُ بها هو الحكمةُ العمليّةُ.

والعفّةُ: هي انقياد القوّةِ الشهوّيةِ للعاقِلة فيما تأمرُها به وتنهاها عنه؛ حتّى تكتسبَ الحريّةَ، وتتخلّصَ عن أسرِ عُبوديّة الهوى.

والشَجاعة: وهي إطاعةُ القوّةِ الغضبيّةِ للعاقلة في الإقدامِ على الأُمور الهائلة، وعدم اضطرابها بالخوض فيما يقتضيه رأيُها حتّى يكونَ فعلُها ممدوحاً وصبرُها محموداً. وتفسيرُ هذه الفضائلِ الثلاثِ لا يتفاوتُ بالنظر إلى الطريقين.

وأمّا العدالةُ: فتفسيرُها على الطريق الأوّل: هو انقيادُ العقلِ العملي للقوّةِ العاقلةِ وتَبعيّتهُ لها في جميع تصرُّفاتِهِ، أو ضبطُه الغضبَ والشهوةَ تحتَ إشارةِ العقلِ والشرعِ الذي يحكم العقلُ أيضاً بوجوبِ إطاعتِه، أو سياسةُ قُوّتَي الغضبِ والشهوةِ وحملُها على مُقتضى الحكمةِ، وضبطُهما في الاسترسالِ والانقباضِ على حسب مقتضاه.

وتفسيرُها على الطريقِ الثاني هو ائتلافُ جميعِ القُوى واتّفاقُها على امتثالها للعاقلةِ، بحيث يرتَفِعُ التَخالُفُ والتجاذُبُ، وتَحصلُ لكلٍّ منها فضيلتُهُ المختصّةُ به. ولا ريبَ في أنّ اتّفاقَ جميعِ القُوى وائتلافَها هو كمالٌ لجميعها لا للقوّة العمليّةِ فقط.

تكملة: الحقُّ أنّ حقيقةَ العدالةِ هوالتفسيرُ الأوّلُ المذكورُ في الطريق الأوّلِ، أعني انقيادَ العقلِ العمليّ للقوّةِ العاقِلَةِ، وسائرُ التفاسيرِ المذكورةِ في الطريقين لازِمةٌ له؛ إذ الانقيادُ المذكورُ يلزمُهُ اتّفاقُ القُوى وقوّةُ الاستعلاءِ والسياسةُ للعقلِ العملي على قوّتَي الغضبِ والشهوةِ، أو نفس سياستِه إيّاهما وضبطهما تحت إشارةِ العقلِ النظريِ، وأمثال ذلك. وعلى هذه التفاسيرِ اللازمةِ للأوّلِ يلزمُ أن تكونَ العدالةُ جامعةً لجميع الفضائلِ، ويتحقّقُ معناها في كلّ فضيلةٍ حتّى تكونَ فرداً لها.

وإذا عرفت ذلك فاعلمْ أنّا نذكر أوّلاً ما يتعلّقُ بالعاقلةِ من الرذائلِ والفضائلِ، ثمّ ما يتعلّقُ بالغَضَبيّةِ منهما، ثمّ ما يتعلّقُ بالشَهويّةِ منهما، ثمّ ما يتعلّقُ بهما أو الثلاث.

ثمّ اعلم أنّ كُلَّ واحدٍ من العقلِ العمليّ والعقلِ النظري رئيسٌ مطلقٌ من وجهٍ.

أمّا الأوّلُ: فمن حيث إنَّ استعمالَ جميع القُوى ـ حتّى العاقلة ـ على النحو الأصلح موكولٌ إليه.

وأمّا الثاني: فمن حيث إنّ السعادةَ القُصوى وغايةَ الغاياتِ ـ أعني التحلّي بحقائقِ الموجوداتِ ـ مستنِدةٌ إليه، وأيضاً إدراكُ ما هو الخيرُ والصلاحُ من شأنِه، فهو المرشدُ والدليلُ للعقلِ العملي في تصرّفاتِه. والحقُّ أنّ مطلقَ الإدراكِ والإرشادِ إنّما هو من العقلِ النظريّ، فهو بمنزلةِ المُشيرِ الناصح، والعقلُ العمليّ بمنزلةِ المنفّذِ المُمضي لإشاراتِه، وما تنفذُ فيه الإشارةُ، فهو قوّةُ الغضبِ والشهوةِ.

الفصل الثاني

تحقيقُ الوسطِ والأطراف

لا ريبَ في أنّه بإزاء كلِّ فضيلةٍ رذيلةٌ هي ضدّها، ولمّا عرفتَ أنّ أجناسَ الفضائلِ أربعةٌ فأجناسُ الرذائلِ أيضاً في بادئ النظرِ أربعةٌ: **الجهلُ**: وهو ضدُّ الحكمةِ. **والجُبْنُ**: وهو ضدُّ الشجاعةِ. **والشَرَهُ**: وهو ضدّ العفّةِ. **والجوْرُ**: وهو ضدُّ العدالةِ. وعند التحقيق يَظهَرُ أنّ لكلّ فضيلةٍ حدّاً معيّناً، والتجاوزُ عنه بالإفراط أو التفريطِ يؤدّي إلى الرذيلة، فالفضائلُ بمنزلةِ الأوساطِ، والرذائلُ بمثابةِ الأطرافِ، والوسطُ واحدٌ معيّنٌ لا يقبلُ التعدّدَ، والأطرافُ غير متناهيةٍ عدداً. فالفضيلةُ بمثابة مركز الدائرةِ، والرذائلُ بمثابة سائرِ النقاطِ المفروضَةِ من المركزِ إلى المحيطِ، فإنَّ المركزَ نقطةٌ معيّنةٌ، مع كونهِ أبعدَ النقاطِ من المحيطِ، وسائرَ النقاطِ المفروضَةِ من جوانبِهِ غير متناهيةٍ مع أنّ كلّاً منها أقربُ منه ـ من طرفٍ ـ إليه. فعلى هذا يكونُ بإزاء كُلِّ فضيلةٍ رذائلُ غيرُ متناهيةٍ، لأنّ الوَسَطَ محدودٌ مُعَيَّنٌ، والأطرافَ غيرُ محدودةٍ، وتكونُ الفضيلةُ في غايةِ البُعدِ عن الرذيلةِ التي هي نهايةُ الرذائلِ، ويكونُ كُلُّ منها أقربَ منها إلى النهايةِ. ومجرّدُ الانحرافِ عن الفضيلةِ من أيِّ طرفٍ اتّفق يوجِبُ الوقوعَ في رذيلةٍ. والثباتُ على الفضيلةِ والاستقامةِ في سلوكِ طريقها بمنزلةِ الحركةِ على الخطّ المستقيم، وارتكابُ الرذيلةِ كالانحرافِ عنهُ. ولا ريبَ في أنّ الخطَّ المستقيمَ هو أقصَرُ الخطوطِ الواصلةِ بين النقطتين، وهو لا يكونُ إلّا واحداً، وأمّا الخطوطُ المُنْحَنِيَةُ بينَهما فغيرُ متناهيةٍ.

الفصلُ الثالثُ
أجناسُ الرذائل الثمانيةُ

اِعلم أنّه بازاء كُلِّ فضيلةٍ رذائلُ غيرُ متناهيةٍ من طَرفي الإفراط والتفريط، وليس لكلٍّ منها اسمٌ معيّن، ولا يمكن عَدّ الجميع، وليس علىٰ صاحب الصِناعة حَصْرُ مِثْلِها؛ لأنّ وظيفتَه بيانُ الأُصول والقوانينِ الكليّة، لا إحصاء الأعداد الجزئيّة.

والقانونُ اللازمُ بيانُه هو أنّ الانحرافَ عن الوسط إمّا إلىٰ طرف الإفراط أو إلىٰ طرف التفريط، فيكون بإزاء كلِّ فضيلةٍ جنسانِ من الرذيلة. ولمّا كانتْ أجناسُ الفضائل أربعةً فتكون أجناسُ الرذائل ثمانيةً:

اثنانِ بإزاء الحكمة: الـجَـرْبزَة والبَلَه. والأوّل في طرف الإفراط، وهو استعمالُ الفكر فيما لا ينبغي أو في الزائد عمّا ينبغي. والثاني في طرف التفريط، وهو تعطيل القوّة الفكريّة وعدمُ استعمالها فيما ينبغي أو في أقلّ منه، والأولى أنْ يُعبَّرَ عنهما بالسفسطة أي الحكمة الـمموَّهة والجهل أي البسيط منه.

واثنان بإزاء الشَجاعة: التهوّر والجبن. والأوّل في طرفِ الإفراط، وهو الإقدام علىٰ ما ينبغي الحذرُ عنه. والثاني في طرف التفريط، وهو الحذرُ عمّا ينبغي الإقدام عليه.

واثنان بإزاء العفّة: الشَرَهُ والـخُمود. والأوّل في طرف الإفراط، وهو الانهماك في اللذّات الشهويّةِ علىٰ ما لا يحسن شرعاً وعقلاً. والثاني في طرف التفريط، وهو سكونُ النفس عن

طلب ماهو ضروريٌّ للبدن.

واثنان بإزاء العَدالة: الظلم والانظلام. والأوّل في طرف الإفراط، وهو التصرُّف في حقوق الناس وأموالِهِم بدون حقٍّ. والثاني في طرف التفريط، وهو تمكينُ الظالم مِن الظلم عليه وانقيادهُ له فيما يريده من الجبر والتعدّي علىٰ سبيل المذلّة. هكذا قيل.

والحقُّ أنّ العَدالةَ مع ملاحظةِ ما لا ينفكُّ عنها مِنْ لازمها، لها طرفٌ واحدٌ يُسمّىٰ جوراً وظلماً، وهو يَشْمُلُ جميعَ ذمائم الصفاتِ، ولا يختصّ بالتصرّف في حقوق الناس وأموالِهِم بدون جهةٍ شرعيّةٍ، لأنّ العَدالة بهذا المعنىٰ عبارةٌ عن ضبط العقل العمليّ جميعَ القوىٰ تحت إشارة العقل النظريّ، فهو جامع للكمالات بأسْرها، فالظلم الذي هو مقابله جامعٌ للنقائص بأسرها؛ إذ حقيقة الظلم وضعُ الشيء في غير موضعه، وهو يَتَناوَلُ جميعَ ذمائم الصفاتِ والأفعالِ.

هذا هو بيان الطرفينِ لِكُلٍّ مِنَ الأجناس الأربعة للفضيلة.

ثمّ لِكلٍّ واحدٍ مِن أجناس الرذائل والفضائل أنواعٌ ولوازمُ مِن الأخلاق والأفعال، ذكرها علماءُ الأخلاق في كُتبُهم، وقد ذكروا للعَدالة أيضاً أنواعاً، ومعلومٌ أنّ تخصيصَ بعض الصِفات بالاندراج تحتَها ممّا لا وجهَ له، إذ جميع الرذائل والفضائل لا يخرُجُ عن التعلّق بالقُوى الثلاث، أعني العاقلةَ والغضبيّة والشهويّة، وإنْ كان لِلقوّة العمليّة مدخليّةٌ في الجميع من حيث التوسّط. فنحن نُدْخِل الجميعَ تحت أجناسِ القوى الثلاث من غيرِ اندراجِ شيءٍ منها تحتَ العدالة. وقد عرفتَ أنّ بعضَها متعلّقٌ بالعاقلة فقط، وبعضَها بالغضبيّة فقط، وبعضَها بالشهويّة فقط، وبعضها بالاثنتينِ منها أو الثلاثِ معاً، فنحن نذكر ذلك في أبوابٍ أربعةٍ.

ونذكر أوّلاً الرذيلةَ، ثمّ نُشيرُ إلىٰ ضدِّها من الفضيلة إنْ كان له اسمٌ، ثمّ نذكُرُ معالجَةَ كُلِّ رذيلةٍ مِن الأجناس والأنواع والنتائج، ونُذَيّلُها بذكر ضدِّها مِن الفضيلة، ونذكر أوّلاً جنْسيَ الرذيلة لكلِّ قوّة، ونذيّلُها بضدّهما الذي هو جنس فضيلتها، ثمّ نَذكُرُ الأنواعَ والنتائج علىٰ النحو المذكور، أي نَذْكرُ أوّلاً الرذيلة بأحكامها، ثمّ نُشيرُ إلىٰ ضدِّها وما ورد في مدحه، ترغيباً للطالبين علىٰ أخذِه والاجتنابِ عن ضدِّه، ولذلك لم نُتابع القومَ في التفريق بين الرذائل

والفضائل وذكر كلٍّ منها علىٰ حِدَةٍ.

ثمّ اعلم أنّ بيانَ الأنواع واللوازم علىٰ ماذكَرَ أكثرَه القومُ لا يَخْلُو عن الاختلال: إمّا في التعريف والتفسير، أو في الفرق والتمييز، أو في الإدخال تحتَ ما جعلوه نوعاً له، أو غير ذلك من وجوه الاختلال، فنحن لا نَتْبِعُهم في ذلك، ونُبَيِّنُها إدخالاً وتمييزاً وتعريفاً علىٰ ما يَقْتَضيه النظرُ الصحيح.

تنبيه: اعلمْ أنّ إحصاءَ الفضائل والرذائل وضَبْطَها، وإدخالَ البعض في البعض، والإشارة إلى القوّة الموجبةِ لها علىٰ ما فصّلْناه، ممّا لم يَتَعَرَّضْ له علماءُ الأخلاق، بل إنّما تعرّضوا لبعضها، وتَظْهرُ مِنْ كلامهم في بعض المواضعِ المخالَفةُ في الإدخال.

والسرُّ فيه أنّ كثيراً من الصفات لها جِهاتٌ مختلفةٌ كلٌّ منها يُناسِب قُوّةً كما أشَرْنا إليه، فالاختلاف في الإدخال لأجل اختلافِ الاعتبار للجهاتِ، وقد عَرَفْتَ أنَّ ما له جهاتٌ مختلفة تَتَعلّق بالقوى المتعدِّدة نحن نَجعلُ مبدأه الجميعَ ونَعُدُّهُ مِن رذائله أو فضائله، ولا نَخُصُّه بواحدة منها. ثمّ إنّ بعضَ الصفات ربّما كان ببعض الاعتباراتِ محموداً معدوداً مِن الفضائل، وببعضِ الاعتبارات معدوداً مِن الرذائل، وذلك كالمحبّة والخوفِ والرجاء؛ فإنّ الحبَّ إنْ كان متعلِّقاً بالدنيا ومتعلّقاتِها كان مذموماً مِن الرذائل، وإنْ كان متعلّقاً بالله وأوليائه كان محموداً معدوداً من الفضائل. والخوف إنْ كان ممّا لا يُخافُ منه عقلاً كان مِنْ رذائل قوّة الغضب، وإنْ كان مِن المعاصي أو مِنْ عظمة الله كان مِنْ فضائلها. والرجاء إنْ لم يكنْ في موقعه كان من الرذائل، وإنْ كان في موقعه كان من الفضائل، وقِسْ عليها غيرَها ممّا له الاعتباراتُ المختلفةُ.

الفصلُ الرابعُ

الفرقُ بينَ الفضيلةِ والرذيلةِ

قد دَرَيْتَ إجمالاً أنّ الفضائلَ المذكورةَ ملكاتٌ مخصوصةٌ، لها آثارٌ معلومةٌ، وربّما صدَرَ عن بعضِ الناسِ أفعالٌ شبيهةٌ بالفضائلِ، وليستْ بها، فلابدّ من بيان الفرقِ بينَهما لِئلّا يَشتَبهَ على الغافلِ فَيَضِلَّ ويُضِلّ، فنقولُ:

قد عرفتَ أنَّ **فضيلةَ الحكمةِ** عبارةٌ عن العلمِ بأعيانِ الموجوداتِ على ما هي عليه، وهو لا يَنفكّ عن اليقينِ والطمأنينةِ، فمجرّدُ أخذِ بعضِ المسائلِ وتقريرِها على وجهٍ لائقٍ من دونِ وثوقِ النفسِ واطمئنانِها ليستْ حكمةً، والآخذُ بمثلِهِ ليس حكيماً، إذ حقيقةُ الحكمةِ لا تنفَكُّ عن الإذعانِ القَطعيّ واليقينيّ وهما مفقودانِ فيه، فَمَثَلُه كَمَثَلِ الأطفالِ في التشبُّهِ بالرجال، أو بعضِ الحيواناتِ في محاكاة ما للإنسان من الأقوالِ والأفعالِ.

وأمّا **فضيلةُ العفّةِ**، فقد عرفتَ أنّها عبارةٌ عن ملكةِ انقيادِ القوّةِ الشهويّةِ للعقلِ، حتّى يكونَ تصَرُّفُها مقصوراً على أمره ونهيِهِ، فيُقدِمُ على ما فيه المصلحةُ ويَنْزَجِرُ عمّا يَتَضَمَّنُ المفسدَةَ بتَجْوِيزِهِ، ولا يخالفُهُ في أوامِره ونواهيهِ. وينبغي أن يكونَ الباعثُ للاتّصافِ بتلك الملكةِ وصُدُورِ آثارِها مجرّدَ كونِها فضيلةً وكمالاً للنفسِ وحصولَ السَعادةِ الحقيقيّةِ بها، ولا شيءَ آخَرَ من دفعِ ضرٍّ أو جَلْبِ نفعٍ، أو اضطرارٍ وإلجاءٍ. فالإعراضُ عن اللذّاتِ الدنيويّةِ لتحصيلِ الأزيدِ من جنْسها ليسَ عفّةً، كما هو شأنُ بعضِ تاركي الدنيا للدنيا، وكذا

الحالُ في تركِها لخمُودِ القوّةِ وقُصورِها وضعفِ الآلةِ وفُتُورِها، أو لحصُولِ النفرة من كثرةِ تعاطيها، أو للحذَرِ من حدوثِ الأمراضِ والأسْقامِ، أو إطلاع الناس وتوبيخِهم، أو لعدمِ دركِ تلك اللّذاتِ كما هو شأنُ بعضِ أهالي الجبالِ والبوادي، إلى غير ذلك.

وأمّا **فضيلةُ الشجاعةِ**، فقد عرفتَ أنّها مَلَكَةُ انقيادِ القوّةِ الغَضَبيّةِ للعقلِ حتّى يكونَ تصرُّفُها بحسبِ أمرهِ ونهيه، ولا يكونُ للاتّصاف بها وصُدُورِ آثارِها داعٍ سوى كونِها كمالاً وفضيلةً. فالإقدامُ على الأُمورِ الهائلةِ، والخوضُ في الحروبِ العظيمةِ، وعدمُ المبالاةِ مِنَ الضربِ والقطعِ والقتلِ؛ لتحصيلِ الجاهِ والمالِ، أو الظفَرِ بامرأةٍ ذاتِ جمالٍ، أو للحذَرِ من السلطان ومثله، أو للشُّهرَةِ بين أبناءِ جنْسِه، ليستْ صادرةً عن ملكةِ الشجاعةِ، بل مَنْشَؤُها إمّا رذِيلَةُ الشَرَهِ أو الجُبْنِ، كما هو شَأْنُ عساكرِ الجائرين، وقاطعي الطرق والسارقين. فمن كانَ أكثرَ خوضاً في الأهوال، وأشدَّ جُرْأةً على الأبطال للوصولِ إلى شيءٍ من تلك الأغراضِ، فهو أكثرُ جُبناً وحِرصاً، لا أكثرَ شجاعةً ونجدةً.

وقِسْ على ذلكَ الوقوعَ في المهالكِ والأهوالِ تَعصُّباً عنِ الأرقابِ والأتباعِ، وربّما كانَ باعثُهُ تكرُّرَ ذلكَ منهُ مع حصولِ الغَلَبَةِ، فاغترَّ بذاكَ ولم يبالِ بالإقدامِ اتّكالاً على العادةِ الجاريةِ. ومَثَلُهُ مَثَلُ رجلٍ ذي سلاحٍ لم يبالِ بالمحارَبةِ مع طفلٍ أعزلَ، فإنّ عدمَ الحذرِ عنه ليسَ لشَجاعتهِ، بل لعَجْزِ الطفلِ. ومنْ هذا القبيلِ ما يصدُرُ عن بعضِ الحيواناتِ منَ الصَوْلَةِ والإقدامِ، فإنّه ليس صادراً عن ملكةِ الشجاعةِ، بل عن طبيعةِ القوّةِ والغلبةِ.

وبالجملةِ، الشجاعُ الواقعيّ من كانتْ أفعالُه صادرةً عن إشارةِ العقلِ ولَمْ يكنْ له باعثٌ سوى كونِها جميلةً حسَنةً، فربّما كان الحذرُ عن بعضِ الأهوالِ من مقتضياتِ العقلِ فلا ينافي الشجاعةَ، وربّما لم يكنِ الخوضُ في بعض الأخطارِ من موجباتِه فينافيها. ولذا قيل: عدمُ الفزع مع شدّةِ الزلازلِ وتواتُرِ الصواعقِ من علائم الجنونِ دونَ الشجاعةِ، وإيقاعُ النفسِ في الهلكاتِ بلا داعٍ عقليّ أو شَرعيّ كتعرُّضِهِ للسباع المؤذيةِ، أو إلقاءِ نفسِه من المواضِع الشاهقَةِ، أو في البحارِ والشُطُوطِ الغامِرَةِ من دون علمٍ بالسِباحَةِ من إماراتِ القِحَةِ والحماقةِ.

ثمّ الشجاعُ الحقيقيُّ مَنْ كانَ حَذَرُهُ من العارِ والفضيحةِ أكثرَ مِنْ خَوفِهِ من الموتِ والهلاكِ،

فمَنْ لا يبالي بذهابِ شَرَفِه وفضيحةِ أهلِهِ وحَرَمِهِ، فهو من أهل الجنونِ والحماقةِ، ولا يستحقُّ اسمَ العقلِ والشجاعةِ، كيف والموتُ عندَ الشجاعِ مع بقاءِ الفضيلةِ أحسَنُ من الحياةِ بِدونِها، ولذا يختارُ الموتَ الجميلَ على الحياةِ القبيحةِ. على أنّ الشَجاعةَ في المبادئ ربّما كانتْ مؤذيةً، وإنّما تَظْهرُ لذّتُها في العاقبةِ لاسيّما إذا حصلتْ بها الحمايةُ عن الدينِ والملّةِ والذبّ عن العقائدِ الحقّةِ، فإنّ الشجاعَ لحبّهِ الجميلِ وثباتِهِ على الرأي الصحيح إذا عَلِمَ أنّ عُمرَهُ في مَعْرِضِ الزوالِ والدُثُورِ، وأثرَ الفعلِ الجميلِ يبقى على مَرّ الدُهورِ، يختارُ الجميلَ الباقي على الرذيلِ الفاني، فيُحامي عن دينه وشريعتِهِ، ولا يبالي بما يحذَرُ عنهُ غيرُه من أبناءِ طَبيعَتِهِ، لعِلْمِهِ بأنّ الجبانَ المُقَصّرَ في حمايةِ الدين، ومُقاوَمةِ جنودِ الشياطين إنْ بقي أيّاماً معدودةً، فمَعَ تكدُّرِها بالذُلِّ والصَغارِ تكونُ زائلةً، ولا تَرضى نفسُهُ بالحِرمانِ عن السعادةِ الباقيةِ، ولذا قال فخرُ الشجعانِ وسيّدُ ولدِ عدنانَ (عليه صلوات الله الملكِ الرحمن) لأصحابه: «أيّها الناس إنّكم إنْ لم تُقْتَلُوا تموتُوا، والذي نفسُ ابنِ أبي طالبٍ بيدهِ لألفُ ضربةٍ بالسيفِ على الرأسِ أهونُ من مِيتَةٍ على الفراشِ»[١].

وبالجملة، كلّ فعلٍ يصدُرُ عن الشجاعِ في أيّ وقتٍ يكونُ مُقْتَضىً للعقلِ مناسباً لهذا الوقتِ واقِعاً في موقعِه، وله قُوّة التَحمُّلِ على المصائبِ، وملكةُ الصبرِ على الشدائدِ والنوائبِ، ولا يضطربُ من شدائد الأُمورِ، ويستخفُّ بما يستعظمُهُ الجمهورُ، وإذا غَضِبَ كان غضبُهُ بمقتضى العقلِ، وكان انتقامُه مقصوراً على ما يُستَحْسَنُ عقلاً وشرعاً، ولا يتعدّى إلى ما لا يَنبغي. وليس مطلق الانتقامِ مذموماً، فربّما كان في بعض المواضع مستَحْسَناً عند العقلِ والشرعِ، وقد صرّحَ الحكماءُ بأنّ عدمَ الانتقامِ مِمّنْ يَستحِقّهُ يُحدِثُ في النفس ذُبولاً لا يرتفعُ إلّا بالانتقامِ، وربّما أدّى هذا الذبولُ إلى بعضِ الرذائلِ المُهلِكَةِ.

وأمّا **العدالةُ** فقد عرفتَ أنّها عبارةٌ عن انقيادِ القُوّةِ العمليّةِ للعاقلةِ، أو امتزاجُ القُوى وتسالُمُها وانقهارُ الجميعِ تحتَ العاقلةِ، بحيثُ يرتفعُ بينها التنازُعُ والتجاذُبُ، ولا يَغلِبُ بعضُها

---

١. نهج البلاغة، ص ١٨٠، الخطبة ١٢٣؛ بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ١١ ـ ١٢، الباب الأوّل من أبواب الجهاد، ح ٢٢.

على بعضٍ، ولا يُقدِمُ على شيءٍ غيرِ ما تَقسُطُ له العاقلةُ. وإنّما يتمُّ ذلك إذا حصلتْ للإنسانِ مَلَكَةٌ راسخةٌ تصدُرُ لأجلِها جميعُ الأفعالِ على نهجِ الاعتدالِ بسهولةٍ، ولا يكونُ له غايةٌ في ذلك سوى كونِها فضيلةً وكمالاً، فمن يتكلّفُ أعمالَ العُدولِ رياءً وسُمْعةً، أو لجلْبِ القُلوبِ أو تَحصيلِ الجاهِ والمالِ، ليس عادلاً.

وقِسْ على ذلك جميعَ أنواعِ الفضائلِ المندرِجَةِ تحتَ الأجناسِ المذكورةِ؛ فإنَّ بإزاءِ كُلٍّ منها رذيلةً شبيهةً بها، فينبغي لطالبِ السعادةِ أنْ يعرِفَها ويجتَنِبَ عنها. مثلاً السَخاءُ عبارةٌ عن مَلَكَةِ سهولةِ بذلِ المالِ على المستحِقّ، مع كونِ الغايةِ الباعثةِ له عليه مجرّدَ كونهِ فضيلةً وكمالاً، دونَ الأغراضِ الأُخَرَ. فبَذْلُ المالِ لتحصيلِ الأزيدِ، أو لدفعِ الضَرَرِ، أونيلِ الجاهِ، أو للوصولِ إلى شيءٍ من اللذّاتِ الحيوانيّةِ ليس سَخاءً. وكذا بذلُهُ لغيرِ المستحقِّ، والإسرافُ في إنفاقِهِ؛ فإنّ المبذِّرَ جاهلٌ بِعِظَمِ قَدْرِ المالِ، والاحتياجِ إليه في مواقعَ لولاهُ لأدّى إلى تضييعِ الأهلِ والعيالِ، والعجزِ عن كَسْبِ المعارفِ وفضائلِ الأعمالِ، وله دَخلٌ عظيمٌ في ترويجِ أحكامِ الملّةِ ونَشْرِ الفضيلةِ والحكمةِ.

وربّما كان مَنْشأُ التبذيرِ عدمَ العلمِ بصعوبةِ تحصيلِ الحلالِ منه، وهذا يكون في الأغلبِ لمن يظفَرُ بمالٍ بَغْتَةً من ميراثٍ أو غيرِهِ مِمّا لا يحتاجُ إلى كَدٍّ وعملٍ، فإنّ مثلَه غافلٌ عن صُعوبةِ كسبِ الحلالِ منه، إذِ المكاسِبُ الطيّبةُ قليلةٌ جدّاً، وارتكابُها للأحرارِ مشكلٌ، ولذا ترى أفاضِلَ الأحرارِ ناقِصي الحظوظِ منه شاكّين عن بَخْتِهم، وأضدادَهمْ على خلافِ ذلك؛ لعدمِ مبالاتِهم من تحصيله بأيّ نحوٍ كان. وقد قال بعضُ الحكماءِ: «إنّ تَحصيلَ المالِ بمنزلةِ نَقْلِ الحجرِ إلى قُلّةِ الجبلِ، وإنفاقَه كإطلاقِهِ».

إيقاظ: قد ظهر ممّا ذُكِرَ أنّ الكمالَ كُلَّ الكمالِ لكلِّ شخصٍ هو العدلُ والتوسُّطُ في جميعِ صفاتِه وأفعالِه الباطنةِ والظاهرَةِ، سواء كانتْ مختصّةً بذاتِه أو متوسّطَةً بينه وبينَ أبناءِ نوعِه. ولا تحصلُ النجاةُ والسعادةُ إلّا بالاستقامةِ على وسطِ الأشياءِ المتخالفَةِ، والتثبُّتِ على مركزِ الأطرافِ المتباعِدَةِ، فكنْ يا حبيبي جامِعاً للكمالاتِ، متوسّطاً بين مراتبِ السعاداتِ، ومَركزاً لدائرةِ نَيلِ الإفاضاتِ.

فكنْ أوّلاً متوسّطاً بين العلم والعملِ جامعاً بينهما بقَدْرِ الإمكانِ، ولا تكتفِ بأحدِهما حتّى لا تكونَ واحداً من الرجُلَينِ القاصِمَينِ[١] لظَهْرِ فخرِ الثقلينِ عليه السلام.

وكنْ في العملِ متوسِّطاً بين حفظ الظاهرِ والباطنِ، فلا تكنْ في باطِنكَ خبيثاً وظاهرِكَ نقيّاً، حتّى تكونَ كَشَوْهاءَ مُلبَّسَةٍ بزيّ حوراءَ مُدَلَّسَة بأنواعِ التدليساتِ، ولا بالعكس لتكونَ مثلَ دُرّةٍ مُلوّثَةٍ بأقسامِ القاذوراتِ، بل ينبغي أنْ يكونَ ظاهرُكَ مرآةً لباطنِكَ، حتّى يظهَر من محاسِنِكَ بقدرِ ما اقتَضتْهُ ملكاتُكَ الفاضلةُ الباطنةُ.

وكنْ في جميع ملكاتِك الباطنةِ وأفعالِك الظاهرةِ متوسّطاً بين الإفراطِ والتفريطِ على ما يقرعُ سَمعَكَ في هذا الكتابِ.

وكنْ في العلومِ الشرعيّةِ متوسّطاً بين الأُصولِ والفروعِ، فلا تكنْ أخباريّاً تاركاً للقواعدِ القطعيّةِ، ولا أُصوليّاً عاملاً بقياساتٍ عاميّةٍ. وقِسْ على ذلك جميعَ أُمورِكَ الباطنةِ والظاهرةِ، واعملْ به حتّى يُرشِدَكَ إلى طريقِ السَدادِ، ويُوَفِّقَكَ لاكتسابِ زادِ المعادِ.

دفع إشكال: إن قيل: قد تَلَخّصَ ممّا ذُكرَ: أنّ الفضيلةَ في جميعِ الأخلاقِ والصفاتِ إنّما هي المساواةُ من غير زيادةٍ ونقصانٍ، مع أنّه قد ثبتَ أنَّ التفضّلَ محمودٌ، وهو زيادةٌ، فلا يدخُلُ تحتَ العدالةِ الراجعةِ إلى المساواةِ.

قلنا: التفضّلُ احتياطٌ يَقعُ لتحصيلِ القطعِ بعدمِ الوُقوعِ في النقصانِ، وليس الوسَطُ في طرفينِ من الأخلاقِ على نهجٍ واحدٍ؛ فإنّ الزيادةَ في السخاءِ إذا لم تُؤَدِّ إلى الإسرافِ أحسنُ من النقصانِ عنه وأشبهُ بالمحافظةِ على شرائطِه، فالتفضّلُ إنّما يصدرُ عن فضيلةِ العدالةِ؛ لأنّها مبالغةٌ فيها ولا يُخْرِجُها عن حقيقتِها، إذ المُتَفَضِّلُ من يُعطي المُستحِقَّ أزيدَ ممّا يَستحِقّهُ، وهذه الزيادةُ ليستْ مذمومةً، بل هي العدالةُ مع الاحتياطِ فيها؛ ولذا قيلَ: «إنّ المتفضّلَ أفضَلُ من العادلِ». والمذمومُ أنْ يُعطي غيرَ المستحِقِّ أو يتركَ المساواةِ بين المستحقّين؛ لأنّه أنْفَقَ فيما

---

١. في بحار الأنوار، ج ٢، ص ١١١، باب ذمّ علماء السوء، ح ٢٥: «وقال أمير المؤمنين عليه السلام: قصم ظهري عالمٌ متهتّك، وجاهلٌ متنسّك، فالجاهل يغشّ الناس بتنسُّكِه، والعالم يغرُّهم بتهتُّكه». وفي غرر الحكم، ج ٦، ص ٩٨، الحديث ٩٦٦٥: «ما قصم ظهري إلّا رجلان: عالمٌ متهتّك وجاهلٌ متنسّك، هذا يُنَفِّرُ عن حقّه بهتكِه، وهذا يدعو إلى باطله بنُسُكِه».

لا ينبغي أو على ما لا ينبغي، وصاحبُه لا يُسمّى متفضّلاً بل مُضَيِّعاً. ولكونِ التفضُّلِ احتياطاً إنّما يحسنُ من الرجلِ بالنسبةِ إلى صاحبِهِ في المعاملةِ التي بينهما، ولو كانَ بين جماعةٍ ولم يكنْ له نصيبٌ في ما يحكم فيه لم يَسَعْهُ إلّا العدلُ المحضُ ولم يجزْ له التفضيلُ.

تتميم: قد تلخّصَ أنّ حقيقةَ العدالةِ أو لازمَها أنْ يُغَلِّبَ العقلُ الذي هو خليفةُ اللهِ على جميعِ القُوى؛ حتّى يستعملَ كلّاً منها فيما يقتضي رأيهُ، فلا يَفسدُ نظامُ العالمِ الإنسانيِّ. فإنّ الواجبَ سبحانَه لمّا ركّبَ الإنسانَ بحكمتِهِ الحقّةِ ومصلحتِهِ التامّةِ من القُوى الكثيرةِ المتضادّةِ، فهي إذا تهايجَتْ وتغالَبَتْ ولم يقهرْها قاهرُ خيرٍ، حدثت فيه بهيجانِها واضطرابِها أنواعُ الشرِّ، وجذبته كلُّ واحدةٍ منها إلى ما يقتضيه ويشتهيه، كما هو الشأن في كلّ مركّبٍ.

ثمّ كلُّ شخصٍ ما لم يُعَدِّلْ قواهُ وصفاتِه لم يتمكّنْ من إجراء أحكامِ العدالةِ بين شُركائِهِ في المنزلِ والبلدِ، إذِ العاجزُ عن إصلاحِ نفسِه كيفَ يقدرُ على إصلاحِ غيرِه؟ فإنّ السِراجَ الذي لا يُضيءُ قريبَهُ كيف يُضيءُ بعيدَه؟ فَمَنْ عَدَّلَ قُواه وصفاتِه أوّلاً واجتنَبَ الإفراطَ والتفريطَ واستقرّ على جادّةِ الوسطِ، كان مستعدّاً لسُلُوكِ هذه الطريقةِ بين أبناءِ نوعِه، وهو خليفةُ اللهِ في أرضِهِ. وإذا كان مثلُه حاكماً بين الناس وكان زِمامُ مصالِحِهم في قَبضَةِ اقتدارِه، تنوّرَتِ البلادُ بأهلِها، وصَلحَتْ أُمورُ العبادِ بأسْرِها، ودامتْ بركاتُ السماءِ والأرضِ.

وغيرُ خَفِيٍّ أنّ أشرف وجوهِ العدالاتِ وأهمَّها وأفضلَ صُنوفِ السياساتِ وأعمَّها هو عدالةُ السلطانِ، إذ غيرُها من العدالاتِ مرتبطةٌ بها ولولاهُ لم يتمكّنْ أحدٌ من رعايةِ العدالةِ. كيفَ وتهذيبُ الأخلاقِ وتدبيرُ المنزلِ يتوقّفُ على فراغِ البالِ وانتظامِ الأحوالِ، ومعَ جَورِ السلطانِ أمواجُ الفتنِ متلاطمةٌ، وأفواجُ المحنِ مُتراكِمةٌ، وعوائقُ الزمانِ متزاحمةٌ، وبوائقُ الحدثانِ متصادمةٌ، وطالبو الكمالِ كالحَيارى في الصحارى لا يجدون إلى منازِلِه سبيلاً ولا إلى جَداوِلِه مُرشداً ودليلاً، وَعَرصاتُ العلمِ والعَمَلِ دارسةُ الآثارِ، ومنازِلُهما مظلمةُ الأرجاءِ والأقطارِ. فلا يوجَدُ ما هو المِلاكُ في تحصيلِ السعاداتِ، أعني تَفرّغَ الخاطرِ والاطمئنانَ وانتظامَ أمرِ المعاشِ الضروري لأفرادِ الإنسانِ.

ولذا لو تصفّحْتَ في أمثالِ زمانِنا زوايا المُدنِ والبلادِ، واطّلَعْتَ على بواطنِ فِرَقِ العبادِ،

لم تجدْ من الأُلوفِ واحداً تمكّنَ من إصلاحِ نفسهِ ويكونُ يومُه خيراً من أمْسِهِ، بل لا تجدُ ديّناً إلّا وهو باكٍ على فقدِ الإسلام وأهلِهِ، ولا طالباً إلّا وهو لعدمِ المُكْنَةِ باقٍ على جَهلِهِ، ولَعَمْري إنّ هذا الزمانَ هو الزمانُ الذي أخبرَ عنهُ سَيّدُ الأنامِ وعترتُهُ الأبرارُ الكرامُ (عليه وعليهم أفضلُ الصلاةِ والسلامِ) من أنّه: «لا يبقى من الإسلام إلّا اسمُه، ولا من القرآن إلّا رسمُه»[١].

وبالجملة، المناطُ كلّ المناط في تحصيلِ الكمالاتِ وإخراجِ النفوسِ من الجهالاتِ هو عدالةُ السطانِ، واعتناؤهُ بإعلاءِ الكلمةِ، وسعيُهُ في ترويج أحكام الدين والملّةِ، ولذا وردَ في الآثار: «أنّ السُلطانَ إذا كان عادلاً كان شريكاً في ثوابِ كُلِّ طاعة تصدرُ عن كلّ رَعِيّةٍ، وإنْ كان جائراً كان سهيماً في معاصِيهم».

ثمّ الفضيلةُ إنْ كانتْ حاصلةً لزمَ السعيُ في حفظِها وإبقائِها، وإنْ لم تكنْ حاصلةً بل كان ضدُّها حاصلاً وجبَ تحصيلُها بإزالةِ الضدِّ. ولذا كانَ فنُّ الأخلاقِ على قسمين: أحدُهما راجعُ إلى حِفْظِ الفضائلِ، وثانيهما نافعٌ في دفع الرذائلِ، فيكونُ شبيهاً بعلم الطبِّ، من حيثُ انقسامِه إلى قسمين: أحدُهما في حفظ الصحّةِ، وثانيهما في دفع المرضِ. ولذا يُسمّى طبّاً روحانياً، كما أنّ الطبّ المتعارفَ يُسمّى طبّاً جِسمانيّاً. ومن هنا كتبَ جالينوس إلى روح الله عليه السلام: «من طبيب الأبدان إلى طبيبِ النُفُوسِ». فكما أنّ لكلٍّ مِنْ حِفْظِ الصحّةِ ودفعِ المرضِ في الطبِّ الجِسماني علاجاً خاصّاً، فكذلك لكلٍّ مِنْ حِفْظِ الفضائلِ وإزالةِ الرذائلِ في الطبّ الروحاني معالَجاتٌ معيّنةٌ، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

١. بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٠٩، باب ذمّ علماء السوء، ح ١٤.

الفصلُ الخامسُ
طريقُ حفظِ اعتدالِ الفضائلِ

حفظُ اعتدالِها يكون بأُمورٍ:

منها: اختيارُ مُصاحبةِ الأخْيارِ، والمعاشَرَةُ مع أُولي الفضائلِ الخُلُقيّة، واستماعُ كيفيّةِ سُلوكِهم مع الخالقِ والخليقَةِ، والاجتنابُ عن مجالسةِ الأشرارِ وذوي الأخلاقِ السيّئةِ، والاحترازُ عن استماعِ قِصَصِهم وحكاياتِهم وما صدرَ عنهم من الأفعالِ ومُزَخْرفاتِهم، فإنّ المصاحبةَ مع كلِّ أحدٍ أقوى باعثٍ على الاتّصافِ بأوصافهِ، فإنّ الطبعَ يَسْتَرِقُّ من الطبْعِ كُلّاً من الخيرِ والشرِّ.

والسرُّ: أنّ النفسَ الإنسانيّةَ ذاتُ قُوىً بعضُها يدعو إلى الخيراتِ والفضائلِ، وبعضُها يقتضي الشُرورَ والرذائلَ، وكلّما حصلَ لأحدِهما أدنى باعثٍ لِما تَقتضيه جِبِلّتُهُ مالَ إليه وغَلبَ على صاحبِهِ، ولكون دواعي الشرّ من القُوى أكثرَ من بواعثِ الخيرِ منها، يكون الميلُ إلى الشرّ أسرعَ وأسهلَ بالنسبة إلى الميلِ إلى الخيرِ، ولذا قيلَ: «إنّ تحصيلَ الفضائلِ بمنزلةِ الصعودِ إلى الأعالي، وكَسْبَ الرذائلِ بمثابةِ النزولِ منها». وإلى ذلك يشيرُ قولُه ﷺ: «حُفَّتِ الجنّةُ بالمكارهِ وحُفَّتِ النارُ بالشهواتِ»[1].

ومنها: إعمالُ القُوى في شرائفِ الصفاتِ، والمواظبةُ على الأفعالِ التي هي آثارُ فضائلِ

---

١. نهج البلاغة، ص ٢٥١، الخطبة ١٧٦، عن النبيّ الأكرم ﷺ.

المَلَكاتِ، وحملُ النفسِ على الأعمالِ التي يقتضيها الخُلُقُ الذي يريدُ حفظَهُ. فالحافظُ لِمَلَكَةِ الجودِ يجبُ أن يُواظِبَ على إنفاقِ المالِ وبذلِهِ على المستحقّينَ، ويَقهَرَ نفسَه عند وجدانِ مَيلِها إلى الإمساكِ. والحافظُ لِمَلَكَةِ الشجاعةِ يجبُ ألّا يَترُكَ الإقدامَ في الأخْطارِ والأهوالِ بشَرْطِ إشارةِ العقلِ، ويغضبُ على نفسِه عند وِجدانِ الجُبْنِ منها. وهكذا الحالُ في سائر الصفاتِ. وهذا بمثابةِ الرياضةِ الجسمانيّةِ في حِفْظِ الصحّةِ البدنيّةِ.

ومنها: أنْ يُقدِّمَ التروّيَ على كُلِّ ما يفعلُهُ، لئلّا تصدُرَ عنه غَفْلَةٌ خلافَ ما تقتضيه الفضيلةُ. ولو صَدَرَ عنهُ أحياناً خِلافُ مقتضاها، فليؤدِّبْ نفسَهُ بارتكابِ ما يضادُّهُ ويَشُقُّ عليها عقوبةً، بعد تعييرِها وتوبيخِها، كما إذا أكلَ ما يضرّهُ من المطاعمِ فلْيؤدّبْها بالصوم، وإذا صدَر عنه غضبٌ مذمومٌ في واقعةٍ فليؤدّبْها بإيقاعِها في مِثْلِها مع الصبرِ عليها، أو في مَعرِضِ إهانةِ السفهاءِ حتّى يكسِرَ جاهَهُ، أو يؤدِّبها بارتكابِ ما يشقُّ عليها من النذرِ والصدقةِ وغيرِ ذلك.

وينبغي ألّا يترُكَ الجِدَّ والسعيَ في التحصيلِ والحفظِ وإنْ بَلَغَ الغايةَ؛ لأنَّ التعطيلَ يؤدّي إلى الكسالةِ، وهي تؤدّي إلى انقطاعِ فيوضاتِ عالمِ القُدْسِ، فتنسلخُ الصورةُ الإنسانيّةُ ويحصلُ الهلاكُ الأبديُّ. والسعيُ يوجبُ ازديادَ تجرّدِ النفسِ وصفائِها والأُنسُ بالحقِّ والإِلفُ للصدقِ، فيتنفّرُ عن الكذبِ والباطلِ، ويتصاعدُ في مدارج الكمالاتِ ومراتبِ السعاداتِ، حتّى تنكشفَ له الأسرارُ الإلهيّةِ والغوامِضُ الربّانيّةُ، ويتشبّهَ بالروحانياتِ القادسةِ، وينخرطَ في سلكِ الملائكةِ المقدّسةِ.

ويجب أنْ يكونَ سعيُه في أُمورِ الدنيا بقَدْرِ الضرورةِ، ويُحرِّمَ على نفسه تحصيلَ الزائدِ، لأنّه لا شقاوةَ أشدُّ من صرفِ الجوهرِ الباقي النوراني في تحصيلِ الخَزَفِ الفاني الظلماني الذي يفوتُ عنه وينتقلُ إلى أعدائه من الوُرّاثِ وغيرِهم.

ومنها: أنْ يحترِزَ عمّا يُهيّجُ الشهوةَ والغضبَ رؤيةً وسماعاً وتخيّلاً، ومَنْ هيّجَهما كمَنْ هيّجَ كلباً عقوراً أو فرساً شموساً، ثمّ يضطرُّ إلى تدبيرِ الخلاصِ عنه. وإذا تحرّكتا بالطبعِ فليقتصرْ في تسكينِهما بما يسدّ الخَلّةَ ولا ينافي حفظ الصحّةِ، وهو القَدْرُ الذي جوّزه العقلُ والشريعةُ.

ومنها: أنْ يَسْتَقْصِيَ في طلبِ خفايا عيوبِ نفسه، وإذا عثرَ على شيءٍ منها اجتهد في إزالتِهِ. ولمّا كانتِ النفسُ عاشقةً لصفاتِها وأفعالِها، فكثيراً ما يخفى عليها بعضُ عيوبِها. فيلزمُ على كلّ طالب للصحّةِ وحافظ لها أنْ يختارَ بعضَ أصدقائِه ليتفحّصَ عن عيوبهِ ويخبِرَهُ بما اطَّلعَ عليه، وإذا أخبرَهُ بشيءٍ منها فليفرحْ ولْيُبادرْ إلى إزالتهِ حتّى يثقَ صديقُه بقوله، ويعلمَ أنّ إهداءَ شيءٍ من عُيوبه إليه أحسنُ عندَه من كلّ ما يحبُّه ويهواه[١]. ورُبّما كان العدوُّ في هذا البابِ أنفعَ من الصديقِ؛ لأنّ الصديقَ ربّما يسترُ العيبَ ولا يظهرُهُ، والعدوُّ مصِرٌّ على إظهارِه، بل ربّما يتجاوزُ إلى البهتانِ، فإذا أظهرَ الأعداءُ عيوبَهُ فلْيشكرِ الله على ذلك ولْيُبادِرْ إلى رفعِها وَقَمْعِها.

وممّا يَنفعُ في المقام أنْ يجعلَ صورَ الناسِ مَرايا لعيوبِه ويتفقّدَ عيوبَهُمْ، وإذا عثَر على عيبٍ منهم تأمّلَ في قُبحهِ، ويعلمَ أنّ هذا العيبَ إذا صدَر عنه يكونُ قبيحاً ويُدرِكُ غيرُه هذا القبحَ، فلْيَجْتَهِدْ في إزالتهِ. ويَنبغي أنْ يحاسبَ نفسَهُ في آخرِ كلّ يومٍ وليلةٍ، ويتفحّصَ عن جميع ما صَدَرَ من الأفعالِ فيها، فإنْ لم يصدُرْ عنه شيءٌ من القبائحِ والذمائمِ فلْيحمدِ اللهَ على حُسنِ تأييده، وإنْ صَدَرَ عنهُ شيءٌ من ذلك فلْيعاتِبْ نَفسَهُ ويَتُبْ، ويجتهدْ في ألّا يصدرَ عنه بعدَ ذلك مثلُه.

تنبيه: أنّ للطبِّ الروحاني أُسْوَةً بالطبّ الجسماني. والقانونُ في معالجةِ الأمراضِ الجسمانيّةِ أنْ يَعرفَ جنسَ المرضِ أوّلاً، ثمّ الأسبابَ والعلاماتِ، ثمّ يُبيِّنَ كيفيّةَ العلاجِ. والعلاجُ فيهِ إمّا كلّيٌّ يتناولُ جميعَ الأمراضِ، أو جزئيٌّ يختصُّ بمرضٍ دون مرضٍ، فكذلكَ الحالُ في الطبِّ الروحاني.

---

١. إشارة إلى حديث الإمام الصادق عليه السلام: «أحبُّ إخواني إليّ مَنْ أهدى إليّ عيوبي» (تحف العقول، ص٣٣٦).

الفصلُ السادسُ

طريقُ معرفةِ الأمراضِ النفسانيّةِ وأسبابُها

الأمراضُ النفسانيّةُ هي انحرافاتُ الأخلاقِ عن الاعتدالِ. وطريقُ معرفَتِها: أنّكَ قد عرفتَ أنّ القُوى الإنسانيّةَ محصورةٌ في أنواعٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: قوّة التمييزِ. **وثانيها**: قُوّةُ الغضبِ، ويُعَبَّرُ عنها بقُوّةِ الدفعِ. **وثالثُها**: قوّةُ الشهوةِ، ويعبَّرُ عنها بقُوَّةِ الجَذْبِ.

وانحرافُ كلٍّ منها: إمّا في الكمّيّة أو في الكيفيّةِ. والانحرافُ في الكمّيّةِ: إمّا للزيادةِ من الاعتدالِ، أو للنقصانِ عنهُ. والانحرافُ في الكيفيّة إنّما يكونُ بِرداءَتِها. فأمراضُ كلِّ قُوّةٍ: إمّا بحسبِ الإفراطِ أو التفريطِ، أو بحسبِ رداءَةِ الكيفيّةِ. فأجناسُ الرذائل بحسب الكمّيّة ثمانية: لِكُلِّ فضيلةٍ ضدّانِ كُلٌّ منهما ضِدٌّ للآخر، وبحسب الكيفيّة أربعةٌ، ويَحصُلُ مِنْ تركيبها وامتزاجِها أنواعٌ وأصنافٌ لا تُعَدُّ كثرةً.

ثمّ اعلَمْ أنّ أسبابَ الانحرافِ في الأخلاقِ: إمّا نفسيّةٌ حاصلةٌ في النفسِ في بَدء فِطرتِها، أو حادثةٌ من مزاولتِها للأعمالِ الرديّةِ، أو جسميّة وهي الأمراضُ الموجِبَةُ لبعضِ الملَكاتِ الرديّة. والسرُّ في ذلك أنّ النفسَ لمّا كانتْ مُتعلِّقةً بالبدنِ علاقةً ارتباطيّةً، فيتأثّرُ كلٌّ منهما بتأثُّرِ الآخرِ، وكلُّ كيفيّةٍ تحدُثُ في أحدهما تسري في الآخرِ، كما أنّ غضبَ النفسِ أو تعشُّقَها يُوجِبُ اضطرابَ البدنِ وارتعاشَهُ، وتأثُّرَ البدنِ بالأمراضِ ـ لا سيّما إذا حدثتْ في الأعضاء الرئيسيّةِ ـ يوجبُ النقصَ في إدراكِ النفسِ وفسادَ تخيُّلِها.

الفصلُ السابعُ
المعالَجاتُ الكُليّةُ لِمرضِ النفسِ

سَبَبُ الانحِرافِ إنْ كان مَرضاً جِسمانيّاً فيجبُ أن يُبادَرَ إلى إزالتِهِ بالمعالجاتِ الطبّيةِ، وإنْ كانَ نفسانيّاً فالمعالجةُ الكلّيّةُ هنا كالمعالجةِ الكلّيّةِ في الطبّ الجسماني. والمعالَجةُ الكلّيّةُ فيه أنْ يُعالَجَ المرضُ أوّلاً بالغِذاءِ الذي هو ضدُّ المرضِ طبعاً، كأنْ يُعالَجَ المرضُ البارِدُ بالغِذاءِ الحارِّ، فإنْ لم ينفعْ فبالدواءِ، وإنْ لم ينجَعْ فبالسُّموماتِ، وإنْ لم يحصَلْ بها البُرْءُ فبالكَيّ أو القطع، وهو آخِرُ العلاج[1].

فالقانونُ الكلّيّ في المعالجةِ هنا أيضاً كذلكَ، وهو أنْ يُبادِرَ بعدَ معرفةِ الانحرافِ إلى تحصيلِ الفضيلةِ التي هي ضِدُّهُ، والمواظَبةِ على الأفعالِ التي هي آثارُها، وهذا بمنزلةِ الغذاءِ المضادّ للمرضِ. فكما أنّ حُصولَ الحرارةِ في المزاجِ يدفعُ البرودَةَ الحادثةَ فيه، فكذا كلّ فضيلَةٍ تحدُثُ في النفسِ تُزيلُ الرذيلةَ التي هي ضِدُّها.

فإنْ لم ينفعْ فلْيُوبّخِ النفسَ ويُعَيِّرْها على هذهِ الرذيلةِ فِكراً أو قَولاً أو عملاً، ويعاتِبْها ويُخاطِبْها بلسانِ الحالِ والمقالِ: أيّتُها النفسُ الأمّارَةُ قدْ هلكتِ وتَعرّضْتِ لسخطِ اللهِ

---

١. اقتباس من كلام أميرالمؤمنين عليه السلام: «وإذَا لَمْ أجِدْ بُدّاً فَآخِر الدواءِ الكَيُّ» (نهج البلاغة، ص ٢٤٣، الخطبة ١٦٨) ويقول الحافظ الشيرازي:

به صوت بلبل و قُمْرى اگر ننوشى مى — علاجِ كَىّ كنمت «آخر الدواء الكَيّ»

وَغَضَبِهِ، وعنْ قريبٍ تُعذَّبينَ في النارِ مع الشياطينِ والأشرارِ.

فإنْ لم يؤثِّرْ ذلك فليرتكبْ آثارَ الرذيلةِ التي هي ضِدُّ هذهِ الرذيلةِ، بشرطِ محافَظَةِ التعديلِ، فصاحبُ الجُبْنِ مثلاً يعملُ أعمالَ المتهوِّرِينَ، فيخُوضُ في المخاوفِ والأهوالِ، ويُلقي نفسَهُ في مواردِ الحذَرِ والأخطارِ. وصاحبُ البُخْلِ يُكثِرُ من بذلِ الأموالِ، بشرطِ أنْ يَكُفَّ إذا قَرُبَ زوالُ الجُبْنِ والبخلِ لِئلّا يَقَعَ في التهوُّرِ والإسرافِ وهذا بمنزلةِ المداواةِ بالسمّ.

فإنْ لم ينفعْ ذلك لقوّةِ استحكام المَرَضِ فليُعَذِّبِ النفسَ بأنواعِ التكاليفِ الشاقّةِ والرياضاتِ المُتعِبَةِ المُضعِفَةِ للقوّةِ الباعثةِ على هذه الرذيلةِ، وهذا بمثابة الكَيِّ والقطعِ، وهو آخرُ العلاجِ.

تنبيه: لمّا عرفْتَ المعالجةَ الكُلّيّةَ الشامِلَةَ لجميعِ الرذائلِ بأجناسِها وأنواعِها وأصنافِها، فَلْنَشْتَغِلِ الآنَ ببيانِ مُعالجةِ كلٍّ منَ الرذائلِ بخصوصِه. وهاهنا نذكرُ معالجةَ كُلِّ رذيلةٍ بخُصوصِها، ونُذَيِّلُهُ بذكرِ ما يضادّها مِنَ الفضيلةِ، وما وَردَ في مَدحِها عقلاً ونقلاً؛ لأنَّ العلمَ بمعرفةِ كلِّ فضيلةٍ وحَسَنةٍ أعونُ شيءٍ على إزالةِ ما يضادّها مِنَ الرذيلةِ. وربّما كانتْ جملةٌ من الرذائلِ المختلفةِ في الاسم مشتركةً في المعالجةِ، وربّما كان للرذائلِ أو الفضائلِ المتعدِّدَةِ ضدٌّ واحدٌ منها، فنحنُ نُشيرُ إلى ذلك، ونشيرُ أيضاً في تِلْوِ كُلِّ رذيلةٍ وفضيلةٍ إلى ما يَتَوَلَّدُ منها من أفعالِ الجوارحِ مع معالجتِهِ إنْ كان له ذلك، فهنا أربعةُ أبوابٍ.

الباب الثالث

فيما يتعلَّق بالقوّة العاقلة

من الرذائل والفضائل وكيفيّة العِلاج

جنسا رذائل القوّة العاقلة

الجنس الأوّل: الجربزة

الجنس الثاني: الجهل البسيط

وصلٌ: ضدّ هذين الجنسين: الحكمة

أنواعُ الرذائلِ والفضائلُ والنتائجُ والآثار المتعلّقة بالقوّة العاقلة

النوع الأوّل: الجهل المركّب

النوع الثاني: الشكّ والحيرة

وصلٌ: ضدّ الجهل المركّب والحيرة والشكّ: اليقين

النوع الثالث: الشرك

النوع الرابع: الخواطر النفسانيّة والوساوس الشيطانيّة

وصلٌ: ضدّ الوسوسة: الخاطر المحمود والتفكّر

النوع الخامس: المكر والحيل

جِنْسا رذائل القوّة العاقلة

الجنس الأوّل: الْـجَـرْبزَةُ

وهي الموجبة للخروج في الفكر عن الحدّ اللائق وعدمِ استقامة الذهن عـلىٰ شيءٍ، بـل لا يَزال يَستخرج أُموراً دقيقةً غيرَ مطابقةٍ للواقع وَيـتَجاوزُ عن الحقِّ ولا يَـسْـتـَقِرُّ عـليه، وربّما أدّىٰ في العقليّاتِ إلى الإلحاد وفَسـاد الاعـتقاد، بـل إلىٰ نـفي حـقائق الأشـياء رأسـاً كالسوفَسْطائيّة، وفي الشرعيات إلى الوَسواس.

وعلاجه، بعد تذكّر قبحهِ وإيجابه للهلاك، أنْ يُكـلِّفَ نفسَه على الاستقامة على مـقتضى الأدلّة المعتبَرةِ عند أُولي الأفهامِ المستقيمة، ولا يَتَجاوَزُ عن مُـعْـتـَقَداتِ أهل الحقِّ المعروفينَ بالتحقيق واستقامة القريحة، ولا يَزال يُكلِّفُ نفسَه علىٰ ذلك حتّىٰ يعتادَ القيامَ على الوسـط. وربّما كان للاشتغالِ بالتعليمات نفعٌ في ذلك.

الجنس الثاني: الجهلُ البسيطُ

وقد عرفتَ أنّه من باب التفريط، وهو خلوُّ النفسِ عن العلم مِنْ دون اعتقادٍ بكونها عالمةً. وهو في البداية غيرُ مذمومٍ؛ لتوقّف التعلُّم عليه، إذ ما لم تَـعتقِدْ النـفسُ جـهلَها بـالمعارف لم تَنْتَهِضْ لتحصيلها. وأمّا الثَباتُ عليه فهو مِن المهْلِكاتِ العظيمة.

والطريق في إزالته أُمورٌ:

الأوّل: أنْ يَتذكَّرَ ما يَدُلُّ على قُبحه ونَقصه عقلاً، وهو أنْ يَعْلَمَ أنّ الجـاهلَ ليس إنسـاناً بالحقيقة، وإنّما يُطْلَقُ عليه الإنسانُ مَجازاً؛ إذ فضلُ الإنسان عن سائر الحيوانات إنّما هو بالعلم؛ لمشاركَـتِها معه في سائر الأُمور مِن الجسميّة والقوى الغضبيّة والشهويّة والصوتِ وغيرِ ذلك؛ فلولا علمُه بحقائق الأشياء وخواصِّها لَكان حيواناً بالحقيقة، ولذا ترىٰ أنَّ مَنْ كان في محـلِّ مُحاوَراتِ العلماء وكان جاهلاً بأقوالهم لم يكنْ فرقٌ بينَه وبينَ البهائم بالنسبة إليهم. وأيُّ هلاكٍ أعظمُ مِن الخروج عن حدود الإنسانيّة والدخول في حدّ البهيميّة.

الثاني: أنْ يَتَذَكَّرَ ما ورد في الشريعة مِن الذمِّ عليه.

الثالث: أنْ يَتذكَّرَ ما يَدُلُّ علىٰ فضيلة العلم عقلاً ونقلاً.

وإذا وَقَفَ علىٰ جميع ذلك فَـلْـيَـتَـيَـقَّـظْ عن سِنة الغفلة، ويَصْرِف في إزالته الهمّة، ويَجْتهد في تحصيل العلم عن أهاليه، ويَصْرِف فيه أيّامَه ولَياليه.

وصلٌ

ضِدُّ هذين الجنسين: الحكمة

قد علمتَ أنّ ضدَّ الجنسين هو الحكمة، أعني العلم بحقائق الأشياء. فلنَذْكرْ أوّلاً بعضَ ما يَدُلُّ علىٰ شَرافته عقلاً ونقلاً؛ ترغيباً للطالبين على السعي في تحصيله وإزالة الجهل عن نفوسهم، فنقول:

لا ريبَ في أنّ العلمَ أفضلُ الفضائل الكماليّة وأشرفُ النعوت الجماليّة، بل هو أجَلّ الصفاتِ الربوبيّة وأجْمَلُ السِمات الأُلوهيّة، وهو الموصِلُ إلىٰ جِوار ربِّ العالمينَ والدخولِ في أُفق الملائكة المقرّبينَ، وهو المؤدّي إلىٰ دار المقامة التي لا تَزولُ ومحلِّ الكرامة التي لا تَحُول. وقد تَطابَقَ العقلُ والبرهانُ وإجماع أرباب الأديان على أنّ السعادةَ الأبديّة والقُربَ مِن الله سبحانه لا يَتَيَسّرانِ بدونه، وأيُّ شيء أفضلُ ممّا هو ذريعةٌ إليها. وأيضاً قد ثبت أنّ العلمَ والتجرُّدَ متلازمان، فكلّما تزدادُ النفسُ عِلماً تَزْدادُ تجرُّداً، ولا ريبَ في أنّ التجرُّدَ أشرفُ الكمالاتِ المتصوَّرةِ للإنسان، إذ به يَحصل التشبُّهُ بالملإ الأعلىٰ وأهلِ القربِ مِن الله تعالىٰ.

ومِنْ جملة العلوم معرفةُ الله التي هي السبب الكلّيُّ لإيجاد العالَم العِلْويِّ والسِفْليِّ، علىٰ أنّ العلم لذيذٌ في نفسه محبوبٌ في ذاته، وما يَحصلُ منه مِن اللّذّة والابتهاج قَلَّما يَحصل من غيره. والسرّ فيه أنّ إدراكَ الأشياء والإحاطةَ بها نوعُ تملُّكٍ وتصرُّفٍ لها؛ إذ تَتَقرَّرُ في ذاتِ المدرِك حقائقُها وصُوَرُها.

ثمّ مِن فوائد العلم في الدنيا العزُّ والاعتبارُ عند الأخيار والأشرار، ونفوذُ الحكم علىٰ الملوك وأرباب الاقتدار؛ فإنّ طِباع الأنامِ من الخاصّ والعامِّ مجبولةٌ علىٰ تعظيم أهل العلم وتَوْقيرهم ووجوب إطاعتهم واحترامهم، بل جميع الحيواناتِ من البهائم والسِباع مطيعةٌ للإنسان مُسخَّرَةٌ له، لاختصاصه بقوّة الإدراك ومزيد التمييز. ولو تصَفَّحْتَ آحادَ الناس لم تجدْ أحداً له تَفَوُّقٌ وزيادةٌ علىٰ غيره في جاهٍ أو مالٍ أو غير ذلك إلّا وهو راجعٌ إلىٰ اختصاصه بمزيد تمييز وإدراك، ولو كان من باب المكْر والحِيَل.

هذا وما يَدُلُّ علىٰ شرافة العلم من الآيات والأخبار أكثرُ مِنْ أنْ تُحْصىٰ[١].

واللازمُ لِكلِّ متعلّمٍ أنْ يُطَهِّرَ نفسَه أوّلاً مِنْ رذائل الأخلاق وذمائم الأوصاف بأسْرها؛ إذ ما لم يُجَرِّدْ لَوْحَ نفسه عن النقوش الرديئة لم تُشرِقْ عليه لمَعَاتُ أنوارِ العلم والحكمة.

ثمّ اعلم أنّ العلم كلَّه وإنْ كان كمالاً للنفس وسعادةً، إلّا أنّ فنونَه متفاوتةٌ في الشَرافة والجمال ووجوبِ التحصيل وعدمِه؛ فإنّ بعضَها كالطِبّ والهَنْدَسَة والعروض ممّا تَرْجِع جُلُّ فائدته إلى الدنيا، ولا يَحْصلُ بها مزيدُ بَهْجةٍ وسعادةٍ في العقبىٰ، ولذا عُدَّتْ مِن علوم الدنيا دون الآخرة، ولا يجب تحصيلُها، وربّما وجب تحصيلُ بعضِها كفايةً.

وما هو علم الآخرة الواجبُ تحصيلُه، وأشرفُ العلوم وأحسنُها هو العلمُ الإلهيُّ المعرِّفُ لأُصول الدينِ، وعلمُ الأخلاقِ المعرِّفُ لمُنجياتِ النفس ومُهْلكاتها، وعلمُ الفقه المعرِّف لكَيفيةِ العبادات والمعاملاتِ. والعلومُ التي هي مقدِّماتٌ لهذه الثلاثة كالعربيّة والمنطق وغيرِهما يَتّصِفُ بالحسن ووجوب التحصيل من باب المقدّمة.

أنواعُ الرذائلِ والفضائلُ والنتائجُ والآثار المتعلّقة بالقوّة العاقِلةِ

النوع الأوّل: الجهلُ المركّبُ

وهو خُلُوُّ النفسِ عَنِ العلمِ وإذعانُها بما هو خِلافُ الواقعِ، مع اعتقادِ كونِها عالمةً بما هو الحقُّ؛ فصاحِبُهُ لا يَعلمُ، ولا يَعلمُ أنّه لا يَعلمُ، ولذا سُمّيَ مُرَكّباً. وهو أشَدُّ الرذائلِ وأصعَبُها، وإزالتُهُ في غاية الصُعوبَةِ، كما هو ظاهرٌ مِنْ حالِ بعضِ الطلبةِ. وقد اعترفَ أطبّاءُ النفوسِ بالعَجْز عن مُعالجتِهِ كما اعترفَ أطبّاءُ الأبدانِ بالعَجْز عن مُعالجَةِ بعضِ الأمراضِ المزْمِنَةِ، ولذا قال عيسى عليه السلام: «إنّي لا أعْجِزُ عن معالجةِ الأكْمَهِ والأبْرَصِ، وأعْجِزُ عن معالجَةِ الأحْمَقِ»[1]. والسِرُّ فيه: أنّهُ مع قُصُورِ النفسِ بهذا الاعتقادِ الفاسِدِ لا يَتَنَبّهُ على نُقْصانِها، فلا يَتَحَرّكُ للطَلَبِ، فيَبقى في الضَلالَةِ والرَدَى ما دامَ باقياً في دارِ الدنيا.

ثمّ المَنْشَأُ لهُ إن كان اعوجاجَ السليقةِ فأنْفَعُ العلاجِ له تحريضُ صاحِبِهِ على تَعَلُّمِ العلومِ الرياضيّةِ من الهندسةِ والحسابِ؛ فإنّها موجِبَةٌ لاستِقامَةِ الذِهنِ لإلْفه لأجْلِها بالیقينيّاتِ فيتنبّهُ على خَلَلِ اعتقادِها، فيصيرُ جَهْلُها بسيطاً، فينتهضُ للطلبِ. وإن كان خطأً في الاستدلال، فليوازِنْ استدلاله باستدلالاتِ أهلِ التحقيقِ والمشهورينَ باستقامَةِ القَريحَةِ ويَعرِضْ أدلّةَ المطلوبِ على القواعِدِ الميزانيّةِ باحتياطٍ تامٍّ واستقصاءٍ بليغٍ، حتّى يظهرَ خطؤهُ وإن كان وجودَ مانع من عصبيّةٍ أو تقليدٍ أو غير ذلك فلْيجتَهِدْ في إزالتِهِ.

---

١. بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤، باب مواعظ عيسى عليه السلام، ح ٣٦.

النوع الثاني: الشكّ والحيرَةُ

وهو من بابِ رداءةِ الكيفيّةِ، وهو عَجْزُ النفسِ عن تحقيقِ الحقّ وإبطالِ الباطِلِ في المطالبِ الخفيّةِ، والغالبُ حُصولُه من تعارُضِ الأَدِلّةِ. ولا ريبَ أَنّه ممّا يُهلِكُ النفسَ ويُفسِدُها، إذِ الشكُّ ينافي اليقينَ الذي لا يتحقّقُ الإيمانُ بدونِه. قال أميرالمؤمنين عليه السلام في بعضِ خُطَبِه: «لا تَرتابوا فتشكّوا ولا تشكّوا فتَكْفُروا»، وكأنّ الارتيابَ في كلامه عليه السلام مبدأُ الشكّ. وقال الباقرُ عليه السلام: «لا يَنْفَعُ مع الشكِّ والجُحُودِ عملٌ»[1]. وسُئِلَ الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[2]. قال: «بشكٍّ»[3]. ثُمّ علاجُه أنْ يتذكّرَ أوّلاً قضيّةً بديهيّةً، هي: أنّ النقيضينِ لا يجتمعانِ ولا يرتفعانِ، ومنه يعلم إجمالاً أنّ أحدَ الشُقوقِ العقليّةِ المتصوَّرَةِ في المطلوبِ ثابتٌ في الواقعِ ونفسِ الأمرِ والبواقي باطلةٌ، ثمّ يتصفّحُ المقدّماتِ المناسِبةِ للمطلوبِ ويَعرِضُها على الأَقيسةِ المنطقيّةِ باستقصاءٍ بليغٍ واحتياطٍ تامٍّ في كلِّ طرفٍ، حتّى يَقِفَ على موضعِ الخطأ ويجزِمَ بحقّيةِ أحدِ الشقوقِ وبطلانِ الآخرِ. ولو كانَ ممّنْ لا يقتدرُ على ذلك، فالعلاجُ في حقّه أن يواظِبَ على العبادَةِ وقراءةِ القرآنِ، ويشتغلَ بمطالعةِ الأحاديثِ وسماعِها من أهلِها، ويجالسَ الصلحاءَ والمتّقِينَ وأصحابَ الورعِ وأهلَ اليقينِ، لتكتسِبَ نفسُهُ بذلك نورانيّةً يَدفَعُ بها ظُلمةَ شكِّهِ.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٢٤، باب الشك في الدين، ح ١.

٢. الأنعام (٦): ٨٢.

٣. بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ١٥٣، الباب ٣١، ح ٨.

وصل

ضدّ الجهل المركّب والحيرة والشكّ: اليقين

ضِدُّ الجهلِ المركّبِ والحيرَةِ والشكِّ هو اليقينُ، وأوّلُ مراتِبِه اعتقادٌ ثابتٌ جازمٌ مطابقٌ للواقعِ غيرُ زائلٍ بشُبْهةٍ وإنْ قَوِيَتْ. فالاعتقادُ الذي لا يطابقُ الواقعَ ليسَ يقينيّاً وإنْ جزَمَ به صاحبُهُ واعتقدَ مطابَقَتَهُ للواقع، بل هو ـ كما أُشيرَ إليه ـ جهلٌ مركّبٌ ينشأُ عن اعوجاجِ القريحةِ، أو خطإٍ في الاستدلالِ، أو حُصولِ مانعٍ من إفاضةِ الحقِّ كتقليدٍ أو عصبيّةٍ أو غيرِ ذلكَ. فاليقينُ من حيثُ اعتبارِ الجزمِ فيه يكونُ ضِدَّ الحيرةِ والشكِّ، ومن حيثُ اعتبارِ المطابَقَةِ للواقعِ فيه يكونُ ضِدّاً للجهل المركّبِ. ثمّ العلمُ إنْ لم تُعْتَبَرْ فيه المطابقةُ للواقعِ ففرقُهُ عن اليقينِ ظاهرٌ، وإلّا فيتساويانِ ويتشاركان في المراتبِ المُثْبَتَةِ لليقينِ.

هذا ومُتَعلّقُ اليقينِ إمّا أجزاءُ الإيمانِ ولوازمُه، من وجودِ الواجبِ وصفاتهِ الكماليّةِ وسائرِ المباحثِ الإلهيّةِ من النبوّةِ وأحوالِ النشأةِ الآخِرةِ، أو غيرِها من حقائقِ الأشياءِ التي لا يتمّ الإيمان بدونِها. ولا ريبَ في أنَّ مُطلقَ اليقينِ أقوى أسبابِ السعادةِ، وإنْ كان اليقينُ في المباحثِ الإلهيّةِ أدخلَ في تكميلِ النفسِ وتحصيلِ السعادةِ الأُخرويّةِ، لتَوَقُّفِ الإيمان عليه، بل هو أصلُهُ وركنُهُ، وغيرُهُ من المراتبِ فرعُهُ وغُصْنُهُ، والنجاةُ في الآخرةِ لا تحصلُ إلّا به، والفاقدُ له خارجٌ عن زُمرَةِ المؤمنينَ داخلٌ في حزبِ الكافرينَ.

وبالجملةِ، اليقينُ أشرَفُ الفضائلِ الخُلُقيّةِ وأهمُّها، وأفضلُ الكمالاتِ النفسيّةِ وأعظمُها،

وهو الكبريتُ الأحمرُ الذي لا يَظفَرُ به إلّا أوحَدِيٌّ مِنْ أعاظمِ العرفاءِ أو ألمعيٌّ من أكابرِ الحكماءِ. ومَنْ وَصَل إليه فازَ بالرُتْبةِ القُصوى والسعادةِ العظمى. قال سيّد الرسلِ ﷺ: «أقلُّ ما أُوتيتُمْ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ، ومن أُوتي حظَّهُ منهما لم يبالِ ما فاتَهُ من صيامِ النهارِ وقيامِ الليلِ»[١]، وقال ﷺ: «اليقينُ الإيمانُ كلّه»[٢] وقال الصادق عليه السلام: «إنّ الله تعالى بعدلِه وقسطِهِ جَعلَ الرَوحَ والراحةَ في اليقينِ والرضا، وجَعلَ الهمّ والحزنَ في الشكّ والسخطِ»[٣].

وهاهنا أمران:

الأمر الأوّل: علامات صاحب اليقين

منها: ألّا يَلْتَفِتَ في أُمورِه إلى غيرِ الله سبحانَه، ولا يكونَ اتّكالُه في مقاصدِه إلّا عليه، ولا ثِقتُهُ في مطالبِه إلّا به، فَيَتَبرّأ عن كلّ حولٍ وقوّةٍ سوى حولِ اللهِ وقوّتِهِ، ولا يَرى لنفسِه ولا لأبناءِ جِنْسِهِ قُدرَةً على شيءٍ ولا مَنْشَئِيّةً لأثرٍ. ويعلمُ أنّ ما يردُ عليه منه تعالى وما قُدِّرَ لهُ وعليهِ من الخيرِ والشرِّ سيساقُ إليه، فتستوي عندَهُ حالةُ الوجودِ والعَدَمِ، والزيادةِ والنقصانِ، والمدحِ والذمِّ، والفقْرِ والغِنى، والصحّةِ والمرضِ، والعزِّ والذلِّ، ولم يكنْ له خوفٌ ورجاءٌ إلّا منهُ تعالى. والسرُّ فيه: أنّه يرى الأشياءَ كلَّها من عينٍ واحدةٍ، هو مسبّبُ الأسبابِ، ولا يلتفتُ إلى الوسائطِ بل يراها مُسخَّرَةً تحتَ حُكمِه.

وقال عليه السلام: «ليسَ شيءٌ إلّا ولهُ حَدٌّ» قيل: فما حَدُّ التوكُّلِ؟ قال: «اليقينُ»، قيلَ: فما حدّ اليقينِ؟ قال: «ألّا تخافَ مع الله شيئاً»[٤]. وعنه عليه السلام: «من صحّةِ يقينِ المرءِ المسلم ألّا يُرْضِيَ النـاسَ بسخَطِ اللهِ، ولا يلومَهُم على ما لمْ يؤتِه اللهُ، فإنّ الرزقَ لا يسوقُهُ حِرْصُ حريصٍ، ولا تَردُّهُ كراهيةُ كارهٍ، ولو أنّ أحدَكم فرَّ مِنْ رزقِهِ كما يَفِرُّ من الموتِ لأدركَهُ رزقُه كما يُدرِكُه الموتُ»[٥].

---

١. بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ١٣٧، باب فضل التعزّي والصبر عند المصائب والمكاره، ح ٢٢.

٢. كنز العمّال، ج ٣، ص ٤٣٧، ح ٧٣٣١.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٥٧، باب فضل اليقين، ح ٢.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٥٧، باب فضل اليقين، ح ١.

٥. الكافي، ج ٢، ص ٥٧، باب فضل اليقين، ح ٢.

ومنها: أنْ يكونَ في جميعِ الأحوالِ خاضِعاً لله سبحانَه، خاشِعاً منهُ، قائماً بوظائفِ خِدمتِهِ في السرّ والعَلَنِ، مواظِباً على امتثالِ ما أعطتْهُ الشريعةُ من الفرائضِ والسُننِ، مُتوَجّهاً بشَراشِره إليه، متخَضّعاً متذَلّلاً بينَ يَديهِ، مُعْرِضاً عن جميعِ ما عداه، مُفْرِغاً قلبَهُ عمّا سواهُ، مُنْصَرِفاً بِفِكْرِه إلى جنابِ قُدْسِهِ، مُسْتَغْرِقاً في لُجّةِ حُبِّهِ وأُنْسِه.

والسِّرّ أنّ صاحبَ اليقينِ عارفٌ بالله وعظمتِه وقُدْرَتِه، وبأنّ الله تعالى مشاهدٌ لأعمالِه وأفعالِه، مُطّلِعٌ على خفايا ضميرِه وهواجِسِ خاطرِهِ، وأنّ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[1]. فيكونُ دائماً في مَقامِ الشُهودِ لديهِ والحضورِ بينَ يَديهِ، فلا يَنْفَكُّ لحظةً عن الحياءِ والخجلِ والاشتغالِ بوظائفِ الأدَبِ والخِدْمَةِ، ويكونُ سعيُهُ في تَخْلِيَةِ باطنِهِ عن الرذائلِ وتَحْلِيتِه بالفضائلِ لِعينِ الله الكالِئَةِ أشدَّ من تَزْيينِ ظاهِرِهِ لأبناءِ نَوْعِه.

وبالجملة، مَنْ كان يقينُهُ بمشاهَدَتِهِ تَعالى لأعمالِه الباطنةِ والظاهِرَةِ وبالجزاءِ والحسابِ أشدَّ، يكونُ أبداً في مقامِ امتثالِ أوامرِه واجتنابِ نواهيهِ.

ومَنْ كان يقينُهُ بما فَعَلَ اللهُ في حقّهِ من إعطاءِ ضُروبِ النِعَمِ والإحسانِ أكثرَ، يكونُ دائماً في مقامِ الانفعالِ والخَجَلِ والشكرِ لمُنْعِمِهِ الحقيقيّ.

ومَنْ كان يَقينُهُ كبيراً بما يُعطيه المؤمنينَ في الدارِ الآخرةِ من البهجَةِ والسُرورِ وما أعدّهُ لِخُلّصِ عبيدِه ممّا لا عَينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلبِ أحَدٍ[2]، يكون دائماً في مقامِ الطمعِ والرجاءِ.

ومَنْ كان يَقينُهُ كاملاً باستنادِ جميعِ الأُمورِ إليه سبحانَه، وبأنّ صدورَ ما يصدرُ في العالمِ إنّما يكونُ بالحكمَةِ والمصلحةِ والعنايةِ الأزليّةِ الراجعةِ إلى نظامِ الخيرِ، يكونُ أبداً في مقامِ الصبرِ والتسليمِ والرضىٰ بالقضاءِ من دون عروضِ تغيُّرٍ وتفاوتٍ في حالِه.

وَمنْ كان يَقينُهُ قويّاً بكونِ الموتِ داهيةً من الدواهي العُظمى وما بعده أشدُّ وأدْهى، يكون أبداً محزوناً مهموماً.

---

١. الزلزلة (٩٩): ٨ـ٩.

٢. بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٩١، باب الجنّة ونعيمها، ح ١٦٧: «وفي الوحي القديم: أعددتُ لِعبادي ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر».

ومَن يَقينُهُ كان بخساسةِ الدنيا وفنائِها أكبر، لا يركنُ إليها. قال الصادق عليه السلام في «الكنز» الذي قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾[١]:

بسمِ اللهِ الرحمن الرحيم: عجبتُ لمن أيقَنَ بالموتِ كيفَ يفرحُ، وعجبتُ لِمنْ أيقنَ بالقَدَرِ كيفَ يحزَنُ، وعجبتُ لمنْ أيقَنَ بالدنيا وَتقلُّبِها بأهلِها كيف يركنُ إليها![٢].

ومَنْ كان يَقينُهُ بعظَمَةِ الله الباهرةِ وقوّتِهِ القاهرةِ تامّاً، يكونُ دائماً في مقامِ الهَيْبَةِ والدَهْشَةِ. وقد وردَ: أنَّ سيّدَ الرسلِ صلّى الله عليه وآله كان من شدّةِ خُضوعِه وخُشوعِه لله تعالى وخَشْيَتِهِ منه تعالى بحيثُ إذا كان يمشي يُظَنُّ أنـّه يَسقُطُ على الأرضِ[٣].

ومَنْ كان يَقينُهُ ثابتاً بكمالات الله تعالى غير المتناهيةِ وكونِه فوقَ التمامِ، يكونُ دائماً في مَقام الشوقِ والوَلَهِ والحبِّ. **وحكاياتُ** أصحابِ اليقينِ من الأنبياءِ والمرسلينَ والأولياءِ والكامِلينَ في الخوفِ والشوقِ وما يَعتَريهم من الاضطرابِ والتغيُّرِ والتلوُّنِ وأمثالَ ذلك في الصلاةِ وغيرِها **مشهورةٌ**، وفي كتبِ التواريخ والسِيَرِ مسطورةٌ. وكذا ما يأخذُهم من الوَلَهِ والاستغْراقِ والابتهاجِ والانبساطِ بالله سبحانه. **وحكايةُ** حصول تَكَرُّرِ الغشياتِ لمولانا أميرِ المؤمنين عليه السلام في أوقاتِ الخلواتِ والمناجاةِ[٤] وغَفلتِه عن نفسِهِ في الصلواتِ[٥] **ممّا تواتَر** عند الخاصّةِ والعامّةِ.

وكيف يُتَصوّرُ لصاحبِ اليقينِ الواقعي بالله وبعظمتِهِ وجلالِهِ، وباطّلاعه تعالى على دقائقِ أحوالِه، أنْ يَعْصِيَهُ في حضورِه ولا يحصلَ له الانفعالُ والخشيةُ والدهشةُ وحضُورُ القلبِ والتوجُّهُ التامّ إليه عندَ القيامِ لديه والمُثُولِ بين يَديه، مع أنّا نرى أنّ الحاضرَ عندَ منْ لهُ أدنى شَوكةٍ مجازيّةٍ من الملوكِ والأُمراءِ مع رذالَتِه وخَساسَتِهِ أوّلاً وآخِراً يَحصُلُ له منَ الانفعالِ

---

١. الكهف (١٨): ٨٢.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٥٩، باب فضل اليقين، ح ٩.
٣. راجع: شمائل النبي، ص ٢٥، ٨٥ـ٨٦.
٤. أمالي الصدوق، ص ٧٢ـ٧٣، المجلس ١٨، ح ٩.
٥. راجع شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١١٠؛ مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ١٢٠، ١٢٤؛ المحجة البيضاء، ج ١، ص ٣٩٧.

والدهشةِ والتوجُّـهِ إليه بحيث يَغْفَلُ عن ذاته.

ومنها: أنْ يكونَ مُستجابَ الدعواتِ، بل له الكراماتُ وخَرْقُ العاداتِ. والسرُّ فيه أنّ النفسَ كلّما ازدادتْ يَقيناً ازدادتْ تَجرّداً، فتحصُلُ لها ملكةُ التصرُّفِ في مواردِ الكائناتِ. قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام:

اليقين يُوصِلُ العبدَ إلى كلّ حالٍ سَنِيٍّ ومَقامٍ عجيبٍ. وكذلك أخبرَ رسول الله صلى الله عليه وآله عن عظم شأن اليقين حين ذُكر عنده أنّ عيسى بن مريم عليه السلام كان يمشي على الماء، فقال: لو زاد يَقينُهُ لمشى في الهواء[1].

فهذا الخبرُ دلّ على أنّ الكراماتِ تزدادُ بازديادِ اليقينِ، وأنّ الأنبياءَ مع جلالةِ محلّهم من الله متفاوتون في قوّة اليقينِ وضعفِهِ.

الأمر الثاني: مراتبُ اليقينِ

وقد ظهرَ ممّا ذُكِرَ أنّ اليقينَ جامعٌ جميعَ الفضائلِ ولا يَنفكّ عن شيءٍ منها، ثمّ له مراتبُ:

أوّلُها: علمُ اليقينِ: وهو اعتقادٌ ثابتٌ جازمٌ مطابقٌ للواقعِ، وهو يحصلُ من الاستدلالِ باللوازمِ والملزوماتِ، ومثالُه اليقينُ بوجودِ النارِ من مشاهدةِ الدخانِ.

وثانيها: عينُ اليقينِ: وهو مشاهدةُ المطلوبِ ورؤيتُهُ بعينِ البصيرةِ والباطنِ، وهو أقوى في الوُضُوحِ والجَلاءِ من المشاهدةِ بالبَصرِ، وإلى هذهِ المرتبةِ أشارَ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام بقوله: «لم أعبدْ ربّاً لم أرَه»[2] بعد سؤال ذِعْلِب اليماني عنه عليه السلام: أرأيتَ ربّك؟. وهو إنّما يحصلُ من الرياضةِ والتصفيةِ وحُصولِ التجرّدِ التامّ للنفسِ، ومثالُه اليقينُ بوجودِ النارِ عند رُؤيتِها عياناً.

وثالثها: حقّ اليقينِ، وهو أنْ يحصلَ ربطٌ حقيقيٌّ بين العاقل والمعقول، بحيث يرى العاقلُ ذاته رَشحةً من المعقول ومرتبطاً به غير منفكٍّ عنه، ويشاهد دائماً ببصيرته الباطنة فَيَضان

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٧٩، باب اليقين والصبر على الشدائد، ح ٤٥.

٢. بحار الأنوار، ج ٤، ص ٥٢، باب نفي الرؤية... ح ٢٨.

الأنوارِ والآثار منه إليه، ومثالُه اليقينُ بوجودِ النار بالدخول فيها من غيرِ احتراقٍ. وهذا إنّما يكونُ لكُمَّلِ العارفينَ بالله المستغرِقينَ في لُجّةِ حُبّهِ وأُنسِهِ، المشاهدينَ ذواتهم، بل سائر الموجوداتِ من رَشحاتِ فَيضِهِ الأقْدَسِ، وهم الصدّيقونَ الذين قَصَرُوا أبصارَهُم الباطِنَةَ على ملاحظةِ جَمالِه ومشاهدةِ أنوارِ جلالِهِ.

وحُصولُ هذه المرتَبةِ يتوقّفُ على مجاهداتٍ شاقّةٍ ورياضاتٍ قويّةٍ، وتركِ رسومِ العاداتِ وقطعِ أُصولِ الشهواتِ، وقَلْعِ الخواطرِ النفسانيّةِ وقمعِ الهواجسِ الشيطانيّةِ، والطهارةِ عن أدناسِ جِيفةِ الطبيعةِ، والتنزّه عن زَخارِفِ الدنيا الدنيّةِ، وبدون ذلك لا يحصلُ هذا النوعُ من اليقينِ والمشاهدةِ:

وكيفَ تَرى ليلى بعينٍ تَرى بها سواها وما طَهَّرْتَها بالمدامعِ [1]

ثمّ لا ريبَ في أنّ اليقينَ الحقيقيّ النورانيّ المُبرّأ [2] عن ظُلماتِ الأوهامِ والشكوكِ ولو كانَ من المرتبة الأُولى لا يحصلُ من مجرّدِ الفكرِ والاستدلالِ، بل يتوقّفُ حُصولُه على الرياضةِ والمجاهدَةِ وصَقْلِ النفسِ وتَصفيتِها عن كُدُوراتِ ذَمائمِ الأخلاقِ وصدئها؛ ليحصلَ لها التجرّدُ التامُّ فتُحاذي شطرَ العقلِ الفعّالِ، فتتّضِحَ فيها جَلِيّةُ الحقِّ حقّ الاتّضاحِ.

وقد أشار سيّد الرسل ﷺ إلى صدئها بقوله ﷺ: «لولا أنَّ الشياطينَ يَحومونَ على قلوبِ بني آدمَ لنظروا إلى ملكوتِ السماواتِ والأرضِ» [3]. فلو ارتفعتْ عن النفس حُجبُ السيّئات والتعصُّبِ وحاذتْ شطرَ الحقّ الأوّلِ لَتَجلّتْ لها صورةُ عالمِ المُلكِ والشهادةِ بأسرِهِ.

---

١. وبعده:

وتَلْتَذّ منها بالسماع وقد سرىٰ حديثُ سِواها في خُروق المسامِعِ

وينسب البيتان إلى مجنون. وقال الحافظ الشيرازي:

غسل در اشك زدم كاهل طريقت گويند پاك شد اوّل و پس ديده بر آن پاك انداز

❊

نواى بلبلت اى گل كجا پسند افتد كه گوش هوش به مرغان هرزه‌گو دارى

٢. المبرّأ: الخالي.

٣. بحار الأنوار، ج ٦٣، ص ٣٣٢، باب ذكر إبليس وقصصه، ذيل الحديث ١٧٧.

النوع الثالث: الشِـرْك

وهو أنْ يرى في الوجودِ مؤثّراً غيرَ الله سبحانه، فإنْ عَبَدَ هذا الغيرَ ـ سواءٌ كانَ صَـنماً أو كوكباً أو إنساناً أو شيطاناً ـ كان شِرْكَ عبادةٍ، وإنْ لم يعبدْهُ ولكنْ لاعتقادِ كونهِ مَنْشَأَ أثرٍ أطاعَهُ فيما لا يُرضي اللهَ فهو شِركُ طاعةٍ، والأوّلُ يُسمّى بالشركِ الجَلي، والثـاني يُسـمّى بـالشرْكِ الخَفي، وإليه الإشارَةُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إِلّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[1].

وكونُ الشركِ أعظمَ الكبائرِ الموبِقَةِ وموجباً لخُلُودِ النارِ ممّا لا ريبَ فيه، وقد انعقدَ عليه إجماعُ الأُمّةِ، والآياتُ والأخبارُ الواردةُ به خارجةٌ عن حدِّ الإحصاءِ.

ثمّ للشركِ مراتبُ تظهرُ في بحثِ ضدّهِ الذي هو التوحيدُ، والشِركُ وإن كـان شـعبةً مـن الجهلِ، كما أنّ التوحيدَ الذي هو ضدُّهُ من أفرادِ اليقينِ والعلمِ، فِذكرُهما على حِدَةٍ لم يكنْ لازِماً هنا، إلّا أنّه لمّا كانَ المتعارَفُ ذكرَ التوحيدِ في كتبِ الأخلاقِ، فنحنُ أيضاً ذكَرْنا له عنواناً على حِدَةٍ تأسّياً بها، وأشرنا إلى لَمْعَةٍ يسيرةٍ منهُ، إذِ الاستقصاءُ فيه والخوضُ في غَمراتهِ ممّا ليس في وُسْعِنا ولا يليقُ هنا، فإنّ التوحيدَ هو البحرُ الخِضَمّ الذي لا ساحِلَ له.

---

١. يوسف (١٢): ١٠٦.

النوع الرابع: الخواطرُ النفسانيّة والوساوسُ الشيطانيّة

اعلم أنَّ الخاطِرَ: ما يَعْرِضُ في القلبِ من الأفكار؛ فإنْ كان مَذْمُوماً داعياً إلى الشرّ سُمِّيَ وَسوسةً، وإنْ كان محموداً داعياً إلى الخير سُمّيَ إلهاماً.

ثمّ لمّا كانَ الخاطرُ أمراً حادِثاً فلابدّ لهُ من سببٍ، فإن كانَ سَبَبُهُ شيطاناً فهو الوسوسةُ، وإن كانَ مَلَكاً فهو الإلهامُ. وما يَستَعِدُّ به القلبُ لقبولِ الوسوسةِ يُسمّى إغواءً وخِذْلاناً، وما يَتهيّأُ به لقبولِ الإلهامِ يُسَمّى لُطفاً وتوفيقاً.

وفيه بحوث:

البحث الأوّل: أقسامُ الخواطرِ ومنها الإلهام

الخاطِرُ ينقسمُ إلى:

ما يختلجُ بالبالِ من دونِ أن يكونَ مبدأً للفعلِ، وهو الأماني الكاذبةُ والأفكارُ الفاسِدةُ.

وإلى محرّكِ الإرادةِ والعزمِ على الفعلِ، إذ كُلُّ فعلٍ مسبوقٌ بالخاطرِ أوّلاً، فمبدأُ الأفعالِ الخواطرُ، وهي تُحرِّكُ الرغبةَ، والرغبةُ العزمَ، والعزمُ النيّةَ، والنيّةُ تَبعثُ الأعضاءَ على الفعلِ.

والثاني كما عرفْتَ إنْ كانَ مبدأً للخيرِ يكونُ إلهاماً ومحموداً، وإن كان مبدأً للشرّ يكونُ وَسواساً ومَذْموماً. **والأوّلُ** له أنواعٌ كثيرةٌ:

منها: ما يَرْجِعُ إلى التمنّي، سواءٌ كانَ حصولُ ما يتمنّاهُ مُمكِناً أو مُحالاً، وسواءٌ كان المتمنَّى

حسناً محموداً أو قبيحاً مذموماً، وسواءٌ كانَ عدمُه مُسْتَنِداً إلى قضاء الله وقَدَرِه أو إلى تقصيرِهِ وسوءِ تدبيرِه، فيخطُرُ بباله أنّه ياليتَ لم يفعلْ كذا أو فعلَ كذا.

ومنها: ما يرجِعُ إلى تذكُّرِ الأحوالِ الغالبةِ، إمّا بدونِ اختيارِه، أو مع اختيارِ ما بأنْ يَتَصوَّرَ ما لَهُ من النفائسِ الفانيةِ فَيَسْتَرُّ به، أو يتخيّلَ فقدَهُ فيحزَنَ لأجلِه، أو يَتفكّرَ في ما اعتراهُ من العِللِ والأسقامِ واختلالِ أمرِ المعاشِ وسوءِ الانتظامِ، أو يذهبَ وَهْمُهُ إلى حسابِ المعاملينَ أو جوابِ المعاندينَ، وتصويرِ إهلاكِ الأعداءِ بالأنواعِ المختلفةِ من دون تأثيرٍ وفائدةٍ.

ومنها: ما يرجِعُ إلىٰ التطيُّرِ، وربّما بلغَ حدّاً يَتَخيّلُ كثيراً من الأُمورِ الاتّفاقيّةِ الدالّةِ علىٰ وُقوعِ مكروهٍ بنفسهِ أو بما يتعلّقُ به، ويضطربُ بذلك، وإنْ لم تكنْ مشهورةً بذلك عند الناسِ، وربّما حدثتْ في القوّة الوهميّةِ خباثةٌ وشيطنةٌ تذهبُ غالباً إلىٰ ما يُؤذيهِ ويَكرَهُهُ ولا تذهبُ إلىٰ ما يُريدهُ ويسرّهُ، فيَتخيّلُ ذهابَ أموالِه وأولادِه وابتلاءَهُ بالأمراض والأسْقامِ ووُصولَ المكروهِ من الغيرِ ومغلوبيّتَهُ من عدُوِّهِ، وربّما حصلَ لِنفسِهِ نوعُ إذعانٍ لهذهِ التخيُّلاتِ لمغلوبيّةِ العاقلةِ للواهِمَةِ. فيعتريهِ نوعُ اضطرابٍ وانكسارٍ، وقلّما تذهبُ مثلُ هذهِ القوّةِ الوهميّةِ فيما يشاؤه ويريدُهُ من تخيُّلِ الغلبةِ وحصولِ التوسعةِ في الأموالِ والأولادِ، بحيثُ يحصلُ لنفسهِ نوعُ إذعانٍ لها، فتنبسطُ وتهتزُّ. وهذا شرّ الوَساوِسِ وأرْدَؤُها، وربّما كان المنشأُ لبعضِها نوعَ اختلالٍ في الدماغ. وجميعُ الأنواع المذكورةِ بأقسامِها مُفْسِدَةٌ للنفسِ تُحدثُ فيها نوعَ ذُبولٍ وانكسارٍ وتصدّها عمّا خُلِقَتْ لأجلِه.

ومنها: ما يرجِعُ إلى التفاؤُلِ، وهذا ليس مذموماً، وقد وردَ من رسول الله ﷺ، أنّه يحبُّ التفاؤُلَ، وكثيراً ما يتفاءَلُ ببعضِ الأُمورِ[1].

ومنها: الوَسواسُ في العقائدِ، بحيثُ لا يؤدّي إلى الشكّ المزيلِ لليقينِ، فإنّه قادحٌ في الإيمان كما تقدّمَ. ومرادُنا بالوَسْوَسَةِ وحديثِ النفسِ في العقائدِ هنا ما لا يضرُّ بالإيمانِ ولا يُؤاخَذُ به.

---

١. راجع: بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٤٠، باب الهجرة ومباديها، ذيل الحديث ٦.

البحث الثاني: المطارَدة بين جُنْد الملائكةِ وجند الشياطينِ

قد عرفتَ أنّ الوَسواسَ أثرُ الشيطانِ الخنّاسِ، والإلهامَ عَملُ الملائكةِ الكرامِ، ولا ريبَ في أنّ كُلَّ نفسٍ في بدءِ فِطْرَتِها قابلةٌ لأثرِ كلٍّ منهما على التساوي، وإنّما يترجّحُ أحدُهما بمتابعةِ الهوى أو ملازمة الورعِ والتقوى: فإذا مالتِ النفسُ إلى مقتضى شهوةٍ أو غضبٍ وجدَ الشيطانُ مجالاً فيدخلُ بالوَسْوَسَةِ، وإذا انصرفتْ إلى ذكر الله ضاقَ مجالُهُ وارتَحَلَ فيدخلُ المَلَكُ بالإلهام، فلا يزالُ التطارُدُ بين جُنْدَي الملائكةِ والشياطينِ في معركةِ النفسِ ـ لهيولانيَّةِ وجودِها وقابليّتها للأمرين بتوسّطِ قوّتيها العقليّة والوهميّةِ ـ إلى أنْ يغلِبَ أحدُ الجندَينِ ويُسَخِّرَ مملكةَ النفسِ ويستوطِنَ فيها، وحينئذٍ يكونُ اجتيازُ الثاني على سبيلِ الاختلاسِ.

وحصولُ الغلبةِ إنّما هو بغَلَبَةِ الهوى أو التقوى، فإنْ غلبَ عليها الهوى وخاضَتْ فيه صارَتْ مَرعى الشيطانِ ومَرْتَعَهُ وكانتْ من حزبِهِ، وإنْ غلبَ عليها الورعُ والتقوى صارتْ مستقرَّ المَلَكِ ومَهبطَهُ ودخلتْ في جُنْدِهِ. قال رسول الله ﷺ:

خلقَ اللهُ الإنسَ ثلاثةَ أصنافٍ: صنفٌ كالبهائمِ. قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾[1]، وصِنْفٌ أجسادُهُمْ أجسادُ بني آدمَ وأرواحهمُ أرواحُ الشياطينِ، وصِنْفٌ كالملائكةِ في ظِلِّ الله يومَ لا ظِلَّ إلّا ظِلُّه[2].

ولا ريبَ في أنَّ أكثرَ القلوبِ قد فتحها جنود الشياطينِ وَمَلَكُوها، ويتصرّفونَ فيها بضروبِ الوَساوِسِ الداعيةِ إلى إيثارِ العاجِلَةِ واطّراحِ الآجِلَةِ. والسرُّ فيه أنّ سَلْطَنَةَ الشيطانِ ساريةٌ في لحمِ الإنسانِ ودمِه ومحيطةٌ بمَجامعِ قلبه وبدنِه، كما أنّ الشهواتِ ممتزِجَةٌ بجميعِ ذلك، ومنْ هنا قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الشيطانَ ليجري من بني آدمَ مَجْرى الدم»[3]، وقال الله سبحانه ـ حكايةً عن لسانِ اللعين ـ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ

---

١. الأعراف (٧): ١٧٩.

٢. بحار الأنوار، ج ٦٣، ص ٢٩٢، باب ذكر إبليس وصفته، ح ١٧٧.

٣. بحار الأنوار، ج ٦٣، ص ٣٣٢، باب ذكر إبليس وصفته، ذيل الحديث ١٧٧.

أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾[١].

فالخلاصُ من أيدي الشياطينِ يحتاجُ إلى مجاهَدةٍ عظيمةٍ ورياضةٍ شاقّةٍ، فمْن لَمْ يَقُمْ في مَقامِ المجاهَدةِ كانتْ نفسُهُ هدفاً لسهامِ وَساوِسِهم وداخلةً في أحْزابِهم.

البحث الثالث: تَسْويلاتُ الشيطانِ وَوَساوِسُهُ

لمّا كانتْ طرقُ الباطلِ كثيرةً وطريقُ الحقِّ واحدةً، فالأبوابُ المفتوحةُ للشيطانِ إلى القلبِ كثيرةٌ، وبابُ الملائكةِ واحدةٌ، ولذا رُوي أنّ النبيَّ ﷺ خطّ يوماً لأصحابِهِ خطّاً وقال: «هذا سبيل الله»، ثمّ خطّ خُطوطاً عن يمينه وشمالِهِ فقال: «هذهِ سُبلٌ على كُلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه»، ثمّ تلا قولَهُ سبحانهَ: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[٢].

ثمّ لِسهولةِ ميلِ النفسِ إلى الباطلِ وعُسْرِ انقيادِها للحقِّ تكونُ الطُرُقُ المؤدّيةُ إلى الباطلِ التي هي أبوابُ الشيطانِ جليةً ظاهرةً، فكانتْ أبوابُ الشيطانِ مفتوحةً أبداً، والطرقُ المؤدّية إلى الحقِّ التي هي بابُ الملائكةِ خفيّةً، فكانَ بابُ الملائكةِ مَسْدوداً دائماً. فما أصْعَبَ على المسكينِ ابنِ آدمَ أنْ يسُدَّ هذهِ الأبوابَ الكثيرةَ الظاهرةَ المفتوحةَ ويفتحَ باباً واحداً خفيّاً مسدوداً.

على أنّ اللعينَ رُبّما يُلَبّسُ بين طريقي الحقّ والباطلِ ويعرِضُ الشرَّ في موضعِ الخيرِ، بحيثُ يُظَنُّ أنّه لَمّةُ الملَكِ وإلهامُه[٣]، لا وَسْوَسَةُ الشيطانِ وإغواؤه، فيهلكُ ويضلُّ من حيثُ لا يعلمُ، كما يُلقي في قلبِ العالِمِ أنّ الناسَ لكثرةِ غفلتِهم أشرفُوا على الهلاكِ، وهمْ منَ الجهلِ

---

١. الأعراف (٧): ١٦ ـ ١٧.

٢. سنن الدارمي، ج ١، ص ٧٨، الباب ٢٣ في كراهية أخذ الرأي، ح ٧٨.

٣. إشارةٌ إلى الحديث النبوي: «في القلب لـمّتان: لـمّةٌ من الملَك: إيعاد بالخير وتصديق بالحقّ، فمن وجد ذلك فليَعلَم أنّه مِن الله سبحانه وليَحمد الله ولـمّةٌ من العدوّ: إيعادٌ بالشرّ وتكذيبٌ بالحقّ ونهيٌ عن الخير فمن وجد ذلك فليستعِذ بالله مِن الشيطان الرجيم»، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ...﴾ (إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٢٣).

موتى، ومنَ الغفلةِ هَلْكى، أما لَكَ رحمةٌ على عبادِ الله؟ أما تُريدُ الثوابَ والسعادةَ في العُقْبى؟ فما بكَ لا تُنبّهُهُمْ عن رَقْدَةِ الغَفلاتِ بوعْظِكَ، ولا تُنقذُهم من الهلاكِ الأبديّ بنُصحِكَ؟ وقد منَّ الله عليكَ بقلبٍ بصيرٍ وعلمٍ كثيرٍ ولسانٍ ذَلِقٍ ولهجَةٍ مقبولةٍ! فكيفَ تُخفي نِعَمَ الله تعالى ولا تُظهرُها. فلا يزالُ يُوسْوِسُهُ بأمثالِ ذلك ويُثبتُها في لوحِ نفسهِ، إلى أنْ يُسخِّرَهُ بلطائفِ الحِيَلِ ويشتغلُ بالوعظِ، فيدعوه إلى التزيُّنِ والتصنُّعِ والتحسُّنِ بتحسينِ اللفظِ، والسرورِ بتملّقِ الجماعةِ، والفرحِ بمدحِهم إيّاهُ، والانبساطِ بتواضُعِهم لديه وانكسارِهم بينَ يديهِ، ولا يَزالُ في أثناء الوعظِ يُقَرّرُ في قلبِه شوائبَ الرياءِ وقبولَ العامّة، ولذّةَ الجاهِ وحُبَّ الرئاسةِ، والتعزُّزَ بالعلم والفصاحةِ، والنظرَ إلى الخلقِ بعينِ الحقارَةِ، فيهدي الناسَ ويُضِلُّ نفسَهُ، ويَعمُرُ يومَهُ ويُخرِّبُ أمسه، ويُخالِفُ اللهَ ويظنُّ أنّه في طاعتِهِ، ويعصيهِ وَيحسبُ أنّه في عبادتِه، فيدخُلُ في جملةِ من قال الله فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[١].

البحث الرابع: علاجُ الوَساوِسِ

الوَساوِسُ إنْ كانتْ بواعثَ الشُرورِ والمعاصي، فالعلاجُ في دفعها أنْ يَتذكّرَ سوءَ عاقبةِ العصيانِ ووَخامَةَ خاتمتِهِ في الدنيا والآخِرةِ، ويتذكّرَ عظيمَ حقِّ الله وجَسيمَ ثوابهِ وعقابهِ، ويَتذكّرَ أنّ الصبرَ عمّا تدعو إليه هذهِ الوَساوِسُ أسهلُ من الصبر على نارٍ لو قُذِفَتْ شرارةٌ منها إلى الأرضِ أحرقتْ نبتَها وجَمادَها، فإذا تَذكّرَ هذه الأُمورَ وعرفَ حقيقتَها بنورِ المعرفةِ والإيمانِ، حبسَ عنه الشيطانَ وقطعَ عنهُ وَسواسَهُ، إذ لا يمكنُ أنْ ينكرَ عليه هذه الأُمورَ الحقّةَ، إذ يقينُهُ الحاصلُ من قواطع البرهانِ، يمنعُه من ذلك ويخيّبهُ، بحيثُ يرجعُ هارباً خائباً. فإنّ التهابَ نيرانِ البراهينِ بمنزلةِ رُجومِ الشياطينِ، فإذا قوبِلَتْ بها وَساوِسُهم فرّتْ فِرارَ الحُمُرِ من الأسدِ[٢].

---

١. الكهف (١٨): ١٠٣ ـ ١٠٤.

٢. إشارة إلى الآيتين ٥٠ ـ ٥١ من سورة المدّثّر (٧٤): ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾.

وإنْ كانتْ مختلِجَةً بالبال بلا إرادةٍ واختيارٍ، من دونِ أنْ تكونَ مبادئَ الأفعالِ، فَـقَطْعُها بالكُلّيّةِ في غايةِ الصُعوبةِ والإشكالِ، وقد اعترفَ أطبّاءُ النفوسِ بأنّها الداءُ العُضالُ ويتعسّرُ دفعُه بالمرّةِ، وربّما قيلَ بتعذّرهِ، ولكنِ الحقُّ إمكانُه، لقولِ النبيّ ﷺ: «مَنْ صلّى رَكعتينِ لم تتحدّثْ نفسُهُ فيهما بشيءٍ غُفِرَ له ما تقدّمَ مِنْ ذنْبِهِ وما تأخّر»[1]، ولولا إمكانه لم يُتصوّرْ ذلك.

فلا يتخلّصُ منه أحدٌ إلّا من أصبحَ وهمومُهُ همٌّ واحدٌ، فيكونُ قلبُهُ مشتغِلاً بالله وحدَه، فلا يجدُ الملعونُ مجالاً فيه، ومثلُه من المخلَصِينَ الداخلينَ في الاستثناءِ[2] عن سَلْطَنَةِ هذا اللعينِ، فلا تظنَّنَّ أنّه يخلو عنه قلبٌ فارغٌ، بل هو سيّال يجري من ابنِ آدمَ مجرى الدمِ، وسيلانُهُ مثلُ الهواءِ في القَدَحِ، فإنّك إنْ أردْتَ أن تُخلي القدحَ عن الهواءِ من غيرِ أن تشغَلَهُ بمثْلِ الماءِ فقد طمِعْتَ في غيرِ مَطْمَعٍ، بل بِقَدْرِ ما يدخُلُ فيه الماءُ يخلو من الهواءِ، فكذلك القلبُ إذا كان مشغولاً بفكرٍ مهمٍّ في الدين يمكنُ أنْ يخلوَ من جَوَلانِ هذا اللعينِ، وأمّا لو غَفَلَ عن اللهِ ولو في لحظةٍ، فليسَ له في تلكَ اللحظةِ قرينٌ إلّا الشيطان، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطـٰناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[3].

وقال رسولُ الله ﷺ: «إنّ اللهَ يبغضُ الشابَّ الفارغَ»[4]، لأنّ الشابَّ إذا تعطّلَ عن عملٍ مُباحٍ يشغلُ باطنَهُ لابدّ أن يَدخُلَ في قلبِهِ الشيطانُ ويعيشَ فيه ويبيّضَ ويفرّخَ[5].

فظهرَ أنّ وَسواسَ الخنّاسِ لا يزال يجاذبُ قلبَ كلِّ إنسانٍ من جانبٍ إلى جانبٍ، ولا علاجَ له إلّا قطعُ العلائقِ كلِّها ظاهراً وباطناً، وجعلُ الهموم همّاً واحداً هو الله. وهذا أيضاً غيرُ كافٍ ما لم يكنْ له مجالٌ في الفكرِ وسيرٌ في الباطنِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ وعجائبِ صُنعِ اللهِ، فإنَّ استيلاءَ ذلكَ على القلبِ واشتغالَهُ به يَدفعُ مجاذبةَ الشيطانِ وَوَسْواسَهُ. وإنْ

---

١. بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ٢٤٩، باب آداب الصلاة، ح ٤١.

٢. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الحجر (١٥): ٣٩.

٣. الزخرف (٤٣): ٣٦.

٤. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٧٥.

٥. روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، ص ٥٣، الخطبة ٧: «اتّخذوا الشيطانَ لأمرهم ملاكاً، واتّخذهم له أشراكاً، فباض وفرّخ في صدورهم...».

لم يكنْ لهُ سيرٌ بالباطنِ فلا يُنْجيه إلّا الأورادُ المتواصِلَةُ المترتّبَةُ في كلِّ لحظةٍ من الصلواتِ والأذكارِ والأدعيةِ والقراءةِ. ويَحتاجُ مع ذلك إلى تكليفِ القلبِ الحضورَ؛ إذ الأورادُ الظاهِرَةُ لا تَستغرِقُ القلبَ، بل التفكّرُ بالباطن هو الذي يستغرقُه، وإذا فعلَ كلَّ ذلك لم يَسلمْ له من الأوقاتِ إلّا بعضُها، إذ لا يخلو في بعضها عن حوادثَ تتجدَّدُ وتَشغَلُه عن الفكرِ والذكرِ، كمرضٍ أو خوفٍ أو إيذاءٍ وطُغيانٍ، ولو مِنْ مُخالَطَةِ بعضٍ من لا يُستغنَى عنه في الاستعانةِ في بعضِ أسبابِ المعيشةِ.

البحث الخامس: ما يَتِمّ به علاجُ الوَسواسِ

لو أمكنَ العلاجُ في القطعِ الكلّي للوَساوِسِ فإنّما يَتِمُّ بأُمورٍ ثلاثةٍ:

الأوّل: سدُّ الأبوابِ العظيمةِ للشيطانِ في القلبِ، وهي: الشهوةُ، والغضبُ، والحرصُ، والحسدُ، والعداوةُ، والعُجبُ، والحقدُ، والكبرُ، والطمعُ، والبخلُ، والخِفّةُ، والجبنُ، وحُبُّ الحُطامِ الدنيوي الدائرِ، والشوقُ إلى التزيُّنِ بالثيابِ الفاخِرَةِ، والعجلةُ في الأمرِ، وخوفُ الفاقةِ والفقرِ، والتعصّبُ لغيرِ الحقِّ، وسوءُ الظنّ بالخالقِ والخَلْقِ، وغير ذلك من رؤوسِ ذمائمِ الصفاتِ ورذائلِ الملكاتِ، فإنّها أبوابٌ عظيمةٌ للشيطانِ، فإذا وجدَ بعضها مفتوحاً يدخل منه في القلبِ بالوَساوِس المتعلّقَةِ به، وإذا سُدّتْ لم يكنْ له إليه سبيلٌ إلّا على طريقِ الاختلاسِ والاجتيازِ.

الثاني: عمارةُ القلبِ بأضدادِها من فضائلِ الأخلاقِ وشَرائفِ الأوصافِ، والملازَمَةُ للورَعِ والتقوى، والمواظَبَةُ على عبادةِ ربّه الأعلى.

الثالثُ: كَثْرةُ الذكرِ بالقلبِ واللسانِ. فإذا قُلِعَتْ عن القلبِ أُصولُ ذمائمِ الصفاتِ المذكورةِ التي هي بمنزلةِ الأبوابِ العظيمةِ للشيطانِ، وزالتْ عنه وجوهُ سَلْطَنَتِه وتصرّفاته، سوى خطراته واجتيازاتِه، والذكرُ يمنعُها ويقطعُ تَسَلُّطَهُ وتصرُّفَهُ بالكلّيّةِ. ولو لم يسدّ أبوابَه أوّلاً لم ينفعْ مجردُّ الذكرِ اللساني في إزالتِها، إذْ حقيقةُ الذكرِ لا تتمكّنُ في القلب إلّا بعد تخليتهِ عن الرذائلِ وتَحْلِيَتِهِ بالفضائلِ، ولولا هما لَم يظهر على القلب سُلْطانُه، بل كان مجرّدَ حديثِ نفسٍ

لا يندفعُ به كيدُ الشيطانِ وتَسلُّطُه، فإنّ مَثَلَ الشيطانِ مثَلُ كلبٍ جائعٍ، ومثَلَ هذه الصِفاتِ المذمومةِ مثَلُ لحمٍ أو خبزٍ أو غيرِهما من مشتَهياتِ الكلبِ؛ ومثَلَ الذكرِ مَثَلُ قولكَ له: إخسأ. فالذكرُ إنّما ينفعُ للقلبِ إذاكان مُطَهّراً عن شوائبِ الهوى ومُنَوّراً بأنوارِ الورعِ والتقوى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[2].

ولو كانَ مجرّدُ الذكرِ مُطرِداً للشيطان لكان كلُّ أحدٍ حاضِرَ القلبِ في الصلاة، ولم يَخطُرْ ببالِهِ فيها الوَساوِسُ الباطلةُ والهواجسُ الفاسدةُ، إذ منتهى كلّ ذكرٍ وعبادةٍ إنّما هو في الصلاةِ. مع أنّ مَنْ راقبَ قلْبَهُ يجدْ أنّ خُطُورَ الخواطرِ في صلاتِه أكثرُ من سائرِ الأوقاتِ، وربّما لا يَتذَكّرُ ما نَسيَهُ من فُضولِ الدنيا إلّا في صلاتِه، بل يزدحِمُ عندها جنودُ الشياطينِ على قلبِهِ ويصيرُ مِضْماراً لجوَلانِهم، ويَقلِبونَه شِمالاً ويميناً بحيثُ لا يجدُ فيه إيماناً ولا يَقيناً، ويجاذبونَه إلى الأسواقِ وحسابِ المعامِلينَ وجوابِ المعاندينَ، ويمرّونَ به في أوديةِ الدنيا ومهالِكِها. ومع ذلك كلِّهِ لا تَظُنَّنَّ أنّ الذكرَ لا ينفعُ في القُلوبِ الغافلةِ أصلاً. فإنّ الأمرَ ليس كذلكَ؛ إذ للذكرِ عندَ أهلِه مراتبُ كلّها تنفعُ الذاكرينَ إلّا أنّ لُبّهُ ورُوحَهُ والغرضَ الأصلي من ذلك المرتبةُ الأخيرةُ:

الأُولى: اللسانيّ فقط.

الثانية: اللسانيّ والقلبيّ، مع عدمِ تمكّنِه من القلبِ، بحيث احتاجَ القلبُ إلى مراقبتِه حتّى يحضرَ مع الذكرِ، ولو خُلّيَ وطبعَه استرسلَ في أودية الخواطرِ.

الثالثة: القلبيّ الذي تمكّنَ من القلب واستولى عليه، بحيث لم يمكن صرفُه عنه بسهولةٍ، بل يحتاج ذلك إلى سَعْيٍ وتكلّفٍ، كما احتيجَ في الثانية إليهما في قراره معه ودوامِه عليه.

البحث السادس: ما يتوقّف عليه قطعُ الوَساوِسِ

السرُّ في توقُّفِ قطعِ الوَساوِس بالكلّيّةِ على التَصفيَةِ والتخْلِيَةِ أوّلاً، ثمّ المواظبةِ على

---

١. الأعراف (٧): ٢٠١.

٢. ق (٥٠): ٣٦.

ذكرِ الله، أنّ بعد حُصولِ هذهِ الأُمورِ للنفسِ تحصُلُ لِقوّتِها العاقلةِ مَلَكَةُ الاستيلاءِ والاستعلاءِ على القُوى الشهويّةِ والغضَبيّةِ والوَهميّةِ، فلا تتأثّرُ عنها وتُؤثّرُ فيها على وَفقِ المصلحةِ، فتَتمكّنُ من ضبطِ الواهِمَةِ والمتخيّلةِ بحيثُ لو أرادتْ صرفَهما عن الوَساوِسِ لأمكَنَها ذلك، ولم تَتَمكّنِ القُوّتان من الذهابِ في أوديةِ الخواطرِ بدونِ رأيها. وإذا حصلتْ للنفسِ هذه المَلَكَةُ وَتوَجَّهتْ إلى ضبطِهما كلّما أرادتا الخروجَ عن الانقيادِ والذهابِ في أوديةِ الوَساوِس، وتكَرّرَ منها هذا الضبطُ، حصلَ لهما ثباتُ الانقيادِ بحيثُ لم يحدثْ فيهما خاطرُ سوءٍ مُطلقاً، بل لم يَخْطرْ فيهما إلّا خواطرُ الخيرِ من خزائنِ الغيبِ، وحينئذٍ تَستقرُّ النفسُ على مقام الاطمئنان، وتَنسَدُّ عنها أبوابُ الشيطانِ، وَتنفتحُ فيها أبوابُ الملائكةِ، ويصيرُ مُستقرَّها ومُستودَعَها، فتُضاءُ بشروقِ الأنوارِ القدسيّةِ من مِشكاةِ الربوبيّةِ، ويَشمُلُها خِطابُ ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[١]. ومثلُ هذهِ النفسِ أحسنُ النفوسِ وأشرفُها.

وتقابِلُها النفسُ المنكوسَةُ المملوءةُ من الخبائثِ الملوّثَةِ بأنواعِ الذمائمِ والرذائلِ، وهي التي انفتحتْ فيها أبوابُ الشيطان، ولا يَخطُرُ فيها خاطرُ خيرٍ أبداً، وتكونُ دائماً مَحلَّ الوَساوِسِ الشيطانيّةِ، ومثلُها لا يَرْجِعُ إلى الخير أبداً. وعلامتُها عدمُ تأثُّرِها من النصائحِ والمواعظِ، ولو أُسْمِعَتِ الحقَّ عَمِيَتْ عن الفَهمِ وصَمَّتْ عن السمعِ، وإلى مثلها أُشيرَ بقوله سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[٢].

وبقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾[٣].

وبقوله سبحانه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٤].

وبقوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٥].

---

١. الفجر (٨٩): ٢٧ـ٢٨.
٢. الفرقان (٢٥): ٤٣.
٣. البقرة (٢): ٧.
٤. الفرقان (٢٥): ٤٤.
٥. يس (٣٦): ١٠.

وبقوله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١].

وبين هاتين النفْسَينِ نفْسٌ متوسطةٌ في السعادةِ والشقاوَةِ، ولها مراتبُ مختلفةٌ في اتّصافِها بالفضائلِ والرذائلِ.

ثمّ النفْسُ الأُولى في غاية النُدْرَةِ، وهي نفوسُ الكُمَّلِ من المؤمنينَ الموحّدينَ، والثانيةُ في نهايةِ الكَثْرَةِ وهي نفوسُ الكفّار بأسرِهم، والثالثةُ نفوسُ أكثرِ المسلمينَ، ولها مراتبُ شتّى ودرجاتٌ لا تُحصى، ولها عَرْضٌ عريضٌ، فيتّصل أحدُ طَرفيهِ بالنفْسِ الأُولى، وآخرُهما بالثانيةِ.

---

١. يس (٣٦): ٧.

وصـل
ضدّ الوسوسة: الخاطر المحمود والتفكّر

قد عرفتَ أنّ ضِدَّ الوَسوَسةِ الخاطرُ المحمودُ المستحسَنُ شرعاً وعقلاً؛ لأنّ القلبَ إذا كان مشغولاً بشيءٍ لا يمكنُ أنْ يَشغَلَهُ شيءٌ آخرُ، فإذا كان مشغولاً بشيءٍ من الخواطرِ المحمودةِ لا سبيلَ للخواطرِ المذمومةِ إليه، وربّما كان للغفلةِ التي هي ضدُّ النيّةِ تَقابُلٌ لكلٍّ من الوَسوَسَةِ والخاطرِ المحمودِ، إذ عند الغفلةِ لا يتحقّقُ شيءٌ منهما، إلّا أنّ خُلُوَّ القلبِ عن كلّ نيّةٍ وخاطرٍ بحيث يكونُ ساذِجاً في غاية النُدرَةِ، على أنّ الظاهرَ أنّ مرادَهم من الغفلةِ خلوُّ الذهنِ من القصدِ الباعثِ وإنْ كان مشغولاً بالوَساوسِ الباطلةِ، كما يأتي تحقيقُه.

وإذا عرفتَ ذلك فاعلم: أنّه من معالجاتِ مرضِ الوَسواسِ معرفةُ شرافَةِ ضدّه الذي هو الخاطرُ المحمودُ، لتبعثَهُ على المواظبةِ عليه الموجبةِ لدفعِ الوساوس.

أمّا بيانُ شَرافَةِ التفكّر وبعضِ مجاريه من أفعالِ الله تعالى والإشارةِ إلى كيفيّةِ التفكُّرِ فيها وفيما يُقرّبُ العبدَ إلى الله تعالى وفيما يُبعِدُهُ عنه، فلْنُشِرْ إلى مجمَلٍ منه هنا لتعلُّقِهِ بالقُوّةِ النظريّةِ، فنقول:

التفكّرُ: هو سيرُ الباطنِ من المبادِئ إلى المقاصدِ، والمبادئُ: هي آياتُ الآفاقِ والأنفُسِ، والمقصدُ: هو الوُصولُ إلى معرفةِ مُوجِدها ومُبدِعِها، والعلمُ بقُدرَتِه القاهرَةِ وعظمَتِه الباهرةِ. ولا يمكنُ لأحدٍ أنْ يَتَرَقّى من حَضيضِ النُقصانِ إلى أوْجِ الكمالِ إلّا بهذا السيرِ، وهو مفتاحُ

الأسرارِ ومشكاةُ الأنوارِ، ومنشأُ الاعتبارِ ومبدأُ الاستبصارِ، وشبكةُ المعارفِ الحقيقيّةِ ومَصْيَدَةُ الحقائقِ اليقينيّةِ، وهو أجنحةُ النفسِ للطيرانِ إلى وَكْرِها القُدسيّ، ومطيّةُ الروحِ للمُسافَرَةِ إلى وطنِها الأصلي، وبه تنكشفُ ظلمةُ الجهلِ وأستارُهُ وتنجلي أنوارُ العلمِ وأسرارُهُ، ولذا وردَ عليه الحثّ والمدحُ في الآياتِ والأخبارِ كقوله سبحانه: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٣]. وقول رسول الله ﷺ: «التفكّرُ حياةُ قلبِ البصيرِ»[٤]، وقوله ﷺ: «أفضلُ العبادةِ إدمانُ التفكّرِ في الله وفي قدرتِه»[٥]. ومرادهُ من التفكّرِ في الله التفكّرُ في قُدرَتِهِ وصُنْعِهِ وفي عجائب أفعالِهِ ومخلوقاتِهِ وغرائبِ آثارِهِ ومُبدعاتِه، لاالتفكّرُ في ذاتِه، لكونِه ممنوعاً عنهُ في الأخبار[٦]، ومُعَلّلاً بأنّه يُورثُ الحيرةَ والدهشةَ واضطرابَ العقلِ، وقد وردَ: «إيّاكُم والتفكّرَ في الله، ولكن إذا أردتُم أنْ تنظُروا إلى عظمتِه فانظُروا إلى عظيمِ خَلْقِه»[٧]، وقال الرضا عليه السلام: «ليسَ العبادةُ كَثْرةً في الصلاةِ والصومِ، إنّما العبادةُ التَفكّرُ في أمرِ الله عزّ وجلّ»[٨].

وهنا أمران:

الأمر الأوّل: مجاري التفكّر في المخلوقاتِ

الموجوداتُ بأَسْرِها مَجاري التفكّرِ ومَطارحُ النظرِ، إذْ كلُّ ما في الوجودِ سوى واجبِ الوجودِ فهو من رشحاتِ وُجودِه وآثارِ فيضهِ وجُودِهِ، وكُلُّ موجودٍ ومخلوقٍ من جَوْهَرٍ أو

---

١. الروم (٣٠): ٨.
٢. الحشر (٥٩): ٢.
٣. الذاريات (٥١): ٢٠ ـ ٢١. وراجع: الأعراف (٧): ١٨٥؛ العنكبوت (٢٩): ٢٠؛ آل عمران (٣): ١٩٠ ـ ١٩١.
٤. بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ١٧، باب فضل القرآن وإعجازه، ح ١٧.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٥٥، باب التفكّر، ح ٣.
٦. الكافي، ج ١، ص ٩٢ ـ ٩٣، باب النهي عن الكلام في الكيفيّة، ح ١ ـ ٨.
٧. الكافي، ج ١، ص ٩٣، باب النهي عن الكلام في الكيفيّة، ح ٧.
٨. الكافي، ج ٢، ص ٥٥، باب التفكّر، ح ٤.

عَرَضٍ مجرّدٍ أو ماديّ فَلَكي أو عُنْصُرِيّ، بَسيطٍ أو مركّبٍ، فعلُ الله وصُنعُهُ. وما مِنْ ذرّةٍ مِنْ ذرّاتِ العالم إلّا وفيها ضُروبٌ من عجائب حكمتِهِ وغرائبِ عظمتِهِ، بحيثُ لو تَشَمَّرَ عقلاءُ الأقطارِ وحكماءُ الأمصارِ مَدى الأعصارِ لاستنباطِها، انقضتْ أعمارُهم دونَ الوقوفِ على عُشرِ عَشيرِها وقليلٍ من كثيرِها.

ثمّ إنّ الموجوداتِ المخلوقَة مُنقَسِمَةٌ إلى ما لا يُعرفُ أصلُه فلا يمكننا التفكّرُ فيه. وإلى ما يُعْرَفُ أصْلُه ومُجملُه من دونِ معرفَةِ تفاصيلِه فيُمكِنُنا التفكّرُ في تفصيلِهِ؛ لتزدادَ لنا معرفةٌ وبصيرةٌ بخالقه. إلى ما لا يُدرَكُ بحسِّ البصرِ ويُسمّى بـ«الملكوت»، كالملائكةِ والجنّ والشياطينِ وعوالمِ العقولِ والنفوسِ المجرّدةِ، ولها أجناسٌ وطبقاتٌ لا يُحيطُ بها إلّا مُوجِدُها. وإلى ما يُدرَكُ به، وله أجناسٌ.

فانظرْ ـ يا أخي ـ إنْ كنتَ من أهل اليقظةِ إلى قُدرةِ ربِّكَ العظيم وهذه النطفةُ التي قد تصيرُ بحيثُ تظهرُ منها خَوارقُ العاداتِ وغرائبُ المعجزاتِ في عالَمِ الأرضِ، وقد يَتعدّى إلى عالَمِ الأفلاكِ، فيشقّ القمرَ ويردّ الشمسَ.

وليتَ شعري أنّ الناسَ كيف يتعجّبونَ من صَيرورَةِ الميّتِ حيّاً، مع أنّ جُثّتَهُ كانتْ موجودةً وإنّما أُفيضَ عليه مجرّدُ حسٍّ وحركةٍ، ولا يَتعجّبونَ من بلوغِ قطرةِ ماءٍ قَذِرَةٍ إلى المراتبِ التي عرفتَها، وليس المنشأ لذلك إلّا كثْرةُ مُشاهدَتِهم وتكرُّرُ ملاحظتِهم له، مع أنّ هذا لا يدفعُ العجبَ والغرابةَ لو نَظَروا بعينِ العِبرةِ والبصيرَةِ، إذ منشؤُهما إمّا عِظَمُ الصُنعِ وحُسْنِ الإبداعِ، فهما في بُلوغِ النُطفةِ إلى المراتبِ المذكورةِ أقوى وأشدُّ من إحياءِ ميتٍ، أو دلالة هذا الصُنع والفعل على صانعٍ حكيمٍ وفاعلٍ عليمٍ. فلا ريبَ أيضاً في أنّ دلالةَ الأوّلِ على ذلك أشدُّ من دلالة الثاني عليه، إذ كلُّ مَنْ رُزِقَ أدنى حظٍّ من البصيرةِ يعلمُ أنّ بلوغَ قطرةِ ماءٍ قذرةٍ إلى المراتبِ المذكورةِ ليس إلّا من قُدرَةِ قادرٍ حكيمٍ وصنعِ صانعٍ عليمٍ.

وإذ عرفتَ نُبَذاً من عجائبِ نفسِكَ وبَدَنِكَ، فقِسْ عليه عجائبَ الأرضِ التي هي مقرُّكَ: بوهادِها وتِلالِها، وسهلِها وجبالِها، وأشجارِها وأزهارِها، وأنهارِها وبحارِها، وبَراريها وعمّارِها، ومُدُنِها وأمصارِها، ومعادِنِها وجمادِها، وحيوانِها ونباتِها، فإنّ كلَّ ما نظرتَ إليه

منها لو تأمّلْتَهُ لَوَجدْتَهُ مُشتمِلاً على غرائبِ حكمٍ لا تُعَدُّ، وعجائبِ مصالحَ لا تُحَدُّ، ولرأيـتَهُ آيةً باهِرَةً على عَظَمةِ مُبدِعهِ، وحُجّةً قاطعةً على جَلالَةِ مُوجِدِهِ.

الأمر الثاني: التفكّر النافع

قد دَريتَ إجمالاً أنّ التفكُّرَ النافعَ محصورٌ بين التفكُّرِ في صفاتِ اللـه وعـجائبِ أفـعالِه، والتفكُّرِ في ما يُقرِّبُ العبدَ إلى الله ليفعلَهُ وفيما يُبعِدُهُ عنه ليتركَهُ. وغيرُ ذلك من الأفكارِ ليس نافعاً ولا متعلِّقاً بالدين. مثال ذلك: أنّ حا ل السائرِ إلى الله الطالبِ للقائهِ كـحالِ العـاشقِ المستَهْتَرِ، فكما أنّ تفكُّرَهُ لا يتجاوزُ عن التفكُّرِ في معشوقِهِ وجمالِهِ وفي صفاتِه وأفـعالِه وفي أفعالِ نفسِهِ التي تُقرِّبُهُ منه وتُحبِّبُهُ إليه ليتّصِفَ بها، أو التي تُبعِدُهُ عنه وتُسقِطُهُ عن عينِهِ ليتنزّهَ عنها، ولو تَفكّرَ في غيرِ ذلك كان ناقصَ العِشقِ. كذلك المحبُّ الخالِصُ لله ينبغي أنْ يحصُرَ فِكرَهُ في الله وفي صفاتِه وأفعالِه وفيما يُقرِّبُه منه ويُحبِّبُهُ إليه أو يُبْعِدُهُ عنه، ولو تَفكّرَ في غيرِ ذلك كان كاذِباً فيما يدّعيهِ من الشوقِ والحبِّ.

ثمّ التفكّرُ في ذاتِ الله بل في بعضِ صفاته ممّا لا يجوزُ، وقد مَنَعَتْهُ الشريعةُ الحقّةُ الإلهيّة، والحكمةُ المتعاليةُ الحقيقيّةُ؛ لأنّ ذاتَه أجلُّ من أن تكونَ مَرْقىً لأقدامِ الأفهامِ، أو مَرْمَىً لسهامِ الأوهامِ، فطرحُ النظرِ إليه يُورِثُ اختلاطَ الذهنِ والحَـيْرَةِ، وجـولانُ الفكـرِ فـيه يـوجِبُ اضطرابَ العقلِ والدهشةِ.

ولمّا كان التفكُّرُ في ذاته تعالى مذموماً، فانحصرَ التفكُّرُ الـممدوحُ في التـفكُّرِ في عـجائبِ صُنعِه وبدائعِ خَلْقِه، وفي ما يُقرِّبُ العبدَ إلى الله من الفضائلِ الخُلُقيَّةِ والطاعاتِ العُـضويّة، وما يُبعِّدُهُ عنه من الملكاتِ الباطنةِ والمعاصي الظاهرةِ. وهذه الملكاتُ والأفعالُ هي المـعبّرُ عنها بالمُنجياتِ والمهلكاتِ والطاعاتِ والسيّئاتِ التي تُذْكَرُ في هذا الكتابِ وفي غيره من كتبِ الأخلاقِ.

والمرادُ بالتفكّر فيها هاهنا أن يَتَفَكّرَ العبدُ في كلّ يـومٍ وليـلةٍ في وقتٍ واحـدٍ أو أوقـاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ في أخلاقهِ الباطنةِ وأعمالِهِ الظاهرةِ، ويَتَفَحّصَ عن حالِ قلبِهِ وأعضائهِ. فإنْ وَجَـدَ

قلْبَهُ مستقيماً على جادّةِ العدالةِ مُتّصِفاً بجميعِ الفضائلِ الخُلقيّةِ ومُجْتَنِباً عن الرذائلِ الباطنةِ، ووجدَ أعضاءَهُ ملازمةً للطاعاتِ والعباداتِ المتعلّقةِ بها تاركةً للمعاصي المنسوبة إليها، فلْيشكرِ الله على عظيمِ توفيقهِ. وإنْ وجدَ في قلبِهِ شيئاً من الرذائلِ أو رآه خالياً عن بعضِ الفضائلِ، فلْيبادرْ إلى العلاجِ بالقوانينِ المقرّرَةِ، بعد التفكّرِ في سوءِ خاتِمَتِه وأدائه إلى مقتِ الله وهلاكه، وكذلك إنْ عثرَ بالتفكّرِ على صدورِ معصيةٍ أو تركِ طاعةٍ منه فلْيتداركْهُ بالندم والتوبةِ وقضاءِ تلك الطاعةِ.

ولا ريبَ في أنّ هذا القسمَ من التفكّرِ له مجالٌ متّسعٌ، والقدرُ الضروري منه يستغرقُ اليوم بليلته، والاستقصاء فيه خارج عن حيطةِ شهرٍ وسنةٍ، إذ اللازمُ منه أنْ يَتفكّر في كلّ يومٍ وليلةٍ في كلّ واحدٍ من الملكاتِ المهلكةِ من البُخْلِ، والكِبْرِ، والعُجبِ، والرياءِ، والحقدِ، والحسدِ، والجبنِ، وشِدَّةِ الغضَبِ والحِرصِ والطمعِ وشَرَهِ الطعامِ، وحُبِّ المالِ، وحُبِّ الجاهِ، والنِفاقِ، وسوءِ الظنِّ، والغفلةِ، والغرورِ وغيرِ ذلك. ويَنظرَ بنورِ الفِكرَةِ والبصيرةِ في زوايا قلبه، ويتفقّدَ منها هذه الصفاتِ، فإنْ وجدَها بظنّه خاليةً عنها، فلْيتفكَّرْ في كيفيّةِ امتحان القلبِ والاستشهادِ بالعلاماتِ الدالّةِ على البراءةِ اليقينيّةِ، فإنّ النفْسَ قد تُلبِسُ الأمرَ على صاحبِها، فإنِ ادّعَتِ البراءةَ من الكِبْرِ، فينبغي أن يمتحنَ بحملِ قِرْبَةِ ماءٍ أو حُزْمةِ حَطَبٍ في السوقِ، فإنِ ادّعتِ البراءةَ من الغضبِ فليجرِّبْ إيقاعِها في مَعْرِضِ إهانة السُفهاءِ. وهكذا فلْيمتحنْها في غيرهما من الصفاتِ بالامتحاناتِ التي كان الأوّلون والسلفُ الصالحون يجرّبون بها أنفُسَهم، حتّى يطمئنَّ بانقطاع أُصولِها وفروعِها من قلبه.

ولو وَجَدَ بالامتحانِ أو تصريحِ المشاهدةِ والعيانِ شيئاً منها في قلبه، فلْيتَفكَّرْ في كيفيّةِ الخلاصِ من المعالجةِ بالضِدِّ أو بالموعظةِ والنصيحةِ والتوبيخِ والملامةِ، أو مُلازَمَةِ أُولي الأخلاقِ الفاضلةِ ومجالَسةِ أصحابِ الورعِ والتقوى، أو بالرياضةِ والمجاهَدةِ وغيرِ ذلك. فإنْ نفعَ شيءٌ منها في الإزالةِ بالسهولةِ فلْيحمدِ اللهَ على ذلك، وإلاّ فلْيواظِبْ على هذهِ المعالجاتِ ويُكَرِّرْها حتّى يوفّقَهُ الله للخلاصِ بمقتضى وعْدِهِ.

ثمّ يَتفكّرُ في كلِّ واحدٍ من الفضائلِ المُنْجِيةِ كاليقينِ، والتوكُّلِ، والصبرِ على البلاءِ،

والرضىٰ بالقضاءِ، والشكرِ على النعماءِ، واعتدالِ الخوفِ والرجـاءِ، والشـجاعةِ والسـخاءِ، والزهدِ والورعِ، والإخلاصِ في العملِ، وسترِ العيوبِ، والندمِ على الذنوبِ، وحُسْنِ الخُلُقِ مع الخَلْقِ، وحُبِّ الله والخشوعِ له وغيرِ ذلك. فإنْ وجدَ قلبهُ متَّصِفاً بـالجميع فـلْيُجَـرِّبْـهُ بالعاملات حتّى يطمئِنَّ من تلبيسِ النفسِ ـكما علِمتَ طريقَه ـوإنْ وجدَ قلبَهُ خالياً من شيءٍ منها فلْيتفكّرْ في طريق تحصيلِه ـكما أُشير إليه ـثمّ يتَوجَّهُ إلىٰ كلِّ واحدٍ من أعضائهِ ويَتَفكّرُ في المعاصي المتعلّقةِ به، مثل أنْ يَنظرَ في لسانهِ ويَتفكّرَ في أنّه هل صدرَ منه شيءٌ من الغيبةِ، أو الكذبِ، أو الفُحشِ، أو فُضولِ الكلام، أو النميمةِ، أو الثناءِ على النفسِ، أو غيرِ ذلكَ. ثمّ ينظرَ في سمعِهِ، وَيتفكّرَ في أنّه هل سمِعَ شيئاً من ذلكَ. ثمّ ينظرَ في بطنِهِ هل عصى الله بأكْلِ حرامٍ أو شُبهةٍ، أو كثرةٍ مانعةٍ عن صفاءِ النفسِ وغيرِ ذلك. وهكذا يفعلُ في كلِّ عضوٍ عضوٍ.

ثمّ يَتَفكّرُ في الطاعاتِ المتعلّقَةِ بكلِّ واحدٍ منها وفيما خُلِقَ هذا العضوُ لأجلهِ من الفرائضِ والنوافلِ، فإنْ وَجَدَ ـبعد التفكّرِ ـعدمَ صدورِ شيءٍ من المعاصي عن شيءٍ منها، وإتـيانَها بالطاعاتِ المفروضةِ عليها بأسرِها وبالنوافـلِ المـرغّبةِ إليهـا بِـقَدْرِ اليسرِ والاسـتطاعةِ، فلْيحمدِالله على ذلك. وإنْ عَثَرَ على صدورِ شيءٍ من المعاصي أو تَرْكِ شيءٍ من الفرائـضِ، فلْيتفكَّرْ أوّلاً في الأسبابِ الباعثَةِ على ذلك، من الاشتغالِ بفضولِ الدنيا أو مصاحبةِ أقـرانِ السوءِ أو غيرِ ذلك، فلْيُبادِرْ إلى قطعِ السَبَبِ، ثمّ التدارُك بالتوبةِ والندمِ، لئلّا يكونَ غَدُهُ مثلَ يومِهِ[١].

وهذا القَدْرُ من التفكُّرِ في كلّ يومٍ وليلةٍ لازمٌ لكلِّ دَيِّنٍ مُعْتَقِدٍ بالنشأةِ الآخِرَةِ، وقد كـان ذلك عادَةً ودَيدَناً لِسَلفِنا المتّقينَ في صبيحةِ كلِّ يومٍ أو عشيّةِ كلّ ليلةٍ، بل كانتْ لهم جـريدَةٌ يكتبونَ فيها رؤوسَ المُهلِكاتِ والمُنجِياتِ ويَعرِضُونَ في كلّ يومٍ وليلةٍ صفاتِهم عليها، ومهما اطمأنّوا بقطعِ رذيلةٍ أو الاتّصافِ بفضيلةٍ يَخُطّونَ عليها في الجريدة، ويَدَعُونَ الفِكرَ فيها، ثمّ يُقبلونَ على البواقي، وهكذا يفعلونَ حتّى يَخُطّوا على الجميع. ومن كان أقلَّ مَرْتَبَةً منهم مـن الصُلَحاءِ ربّما يُثْبِتونَ في جريدتِهم بعضَ المعاصي الظاهرةِ، من أكلِ الحرامِ، والشُبهةِ، وإطلاقِ

١. أُنظر بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٣٢٧، باب من استوى يوماه....، ح ٥.

اللسانِ، والكذبِ، والغيبةِ والمراءِ، والنميمةِ، والمُداهَنَةِ مع الخَلْقِ بتركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ وغيرِ ذلك، ويفعلونَ مثل ما مَرّ.

وبالجملة، كان إخوانُنا السالفون وسَلفُنا الصالحون، لا يَنفكّون عن هذا النوع من التفكّرِ، ويرونَهُ من لوازمِ الإيمانِ بالحسابِ، فأُفٍّ علينا حيث تركنا التأسّي بهم والقُدوةَ.

ثمّ هذا النوع من التفكّر إنّما هو تَفكّرُ العلماءِ والصالحينَ، وأمّا تَفكُّرُ الصدّيقينَ فأجَلُّ من ذلك، لأنّهم مُستغرقُون في لُجّةِ الحبّ والأُنسِ، مُنقَطِعونَ بشراشرِهم إلى جنابِ القُدسِ، ففِكْرُهم مقصورٌ على جلالِ الله وجمالِهِ وقلبُهم مستهتَرٌ به، بحيث فَنِيَ عن نفسِهِ ونسيَ صفاتِهِ وأحوالَه. فحالُهم أبداً كحالِ العشّاقِ المستهتَرينَ عند لقاءِ المعشوقِ.

ولا تُظنَّنَّ أنّ هذا التفكّرَ ـ بل أدنى مراتبِ التلذّذِ بالتفكّرِ في عظمةِ الله وجلالِهِ ـ ممكنُ الحصولِ بدونِ الانفكاكِ عن جميع الرذائلِ المُهلِكةِ والاتّصافِ بجميع الفضائلِ المنجيةِ، فإنّ حالَ المتفكّرِ في جلالِ الله وعظمتِه مع اتِّصافِه بالأخلاقِ الرذيلة، كحالِ العاشقِ الذي خلا بمحبوبِهِ، وكان تحتَ ثيابِه حيّاتٌ وعقاربُ تلدغُهُ مرّةً بعد أُخرى، فتَمنعُه عن لذّةِ المشاهدَةِ والأُنسِ. ولا يَتِمُّ ابتهاجُهُ إلّا بإخراجِها من ثيابِهِ. ولا ريبَ أنّ المَلَكاتِ الرذيلةِ كلّها كالحيّاتِ والعقاربِ مؤذياتٌ ومُشَوِّشاتٌ، ومنْ كان له أدنى معرفةٍ وتوجّهٍ إلى مناجاةِ ربّه وكان في نفسِهِ شيءٌ منها، يجدْ أنّه كيفَ يُشَوِّشُهُ ويصدّهُ عن الابتهاجِ، ثمّ إنّ لدغَ هذهِ الصفاتِ لا يظهرُ ظهوراً بيّناً للمنهمكينَ في علائقِ الطبيعةِ، وبعد مفارَقةِ النفس البدنَ يشتدُّ ألَمُ لدغِها بحيثُ يَزيدُ على ألَمَ لدغِ الحيّاتِ والعقاربِ بمراتبَ شتّى.

النوع الخامس: المكر والحيل

اعلمْ أنّ المكرَ، والحيلةَ، والخُدْعةَ، والنُكْرَ، والدهاءَ، ألفاظٌ مترادِفةٌ، وهي في اللغة قد تُطلَقُ على شدّةِ الفَطانةِ.

وللمكرِ مراتبُ شتّى ودرجاتٌ لا تُحصى من حيثُ الظهورِ والخفاءِ، فربّما لم يكنْ فيه كثيرُ دِقّةٍ وخَفاءٍ فيشعُرُ به من له أدنى شعورٍ، وربّما كان في غايةِ الغموضِ والخَفاءِ بحيثُ لم يتَفطّنْ به الأذكياءُ. ومن حيث المواردِ والمواضعِ كالباعثِ لظهورِ المحبّةِ والصداقةِ واطمئنانِ عاقلٍ. ثمّ التهجّمُ عليه بالإيذاء والمكروهِ، والباعثِ لظهورِ الأمانةِ والديانةِ، وتسليمِ الناسِ أموالَهم ونفائسَهم إليه على سبيلِ الوديعةِ أو المشارَكةِ أو المُعامَلَةِ، ثمّ أخذَها وسَرَقَها على نحوٍ آخرَ من وجوهِ المكْرِ. وكالباعثِ لظهورِ وَرَعِهِ وعدالتِه واتّخاذِ الناسِ إيّاه إماماً أو أميراً فيُفْسِدُ عليهم باطناً دينهم ودنياهم. وَقِسْ على ذلك غيرَه من المواردِ والمواضعِ.

ثمّ المكْرُ مِنَ المهلكاتِ العظيمةِ؛ لأنّه أظهرُ صفاتِ الشيطانِ. والمتَّصِفُ به أعظمُ جُنودِهِ، ومعصيتُهُ أشدُّ من مَعْصيةِ إصابةِ المكروهِ إلى الغيرِ في العلانيةِ، إذ المطَّلِعُ بإرادةِ الغيرِ إيذاءَه يحتاطُ ويُحافِظُ نفسَه عنه فربّما دفعَ أذيّتَهُ، وأمّا الغافلُ فليس في مَقامِ الاحتياطِ، لظنّه أنّ هذا المكّارَ المحيلَ محبٌّ وناصحٌ له، فيصلُ إليه ضرُّه وكيدُه في لباسِ الصداقةِ والمحبّةِ. فمن أحضرَ طعاماً مسموماً عند الغيرِ مُريداً إهلاكَهُ فهو أخبثُ نفساً وأشدُّ معصيةً ممّن شهرَ سيفَهُ علانيةً مُريداً قتلَهُ، إذ الثاني أظهرَ ما في بطنِه وأعلَمَ هذا الغيرَ بإرادتِه، فيجزمُ بأنّه عدوٌّ محاربٌ له

فيتعرّضُ لصرفِ شرّهِ ومنعِ ضرّهِ، فربّما تمكّنَ من دفعهِ. وأمّا الأوّلُ فظاهِرُهُ في مقامِ الإحسانِ وباطِنُهُ في مَقامِ الإيذاءِ والعُدوانِ، والغافلُ المسكينُ لا خبرَ له عن خَباثةِ باطِنِهِ فيقطعُ بأنّهُ يُحسنُ إليه، فلا يكونُ معه في مقامِ الدفعِ والاحتياطِ بل في مقامِ المحبّةِ والوِدادِ. فيقتلُه وهو يعلمُ أنّه يُحسنُ إليه، وَيُهلِكُه وهو في مَقامِ الخجلِ منه.

وبالجملة، هذه الرذيلةُ أخبَثُ الرذائلِ وأشدُّها معصيةً؛ ولذلك قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ليس منّا مَنْ ماكرَ مسلماً»[١]. وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «لولا أنّ المكرَ والخديعةَ في النارِ لكنتُ أمْكَرُ الناس»[٢] وكان عليه السلام كثيراً ما يتنفّسُ الصُعَداءَ ويقول:

واويلاهُ، يَمكُرونَ بي ويَعلمونَ أنّي بِمكرِهم عالمٌ وأعرَفُ منهم بوجوهِ المَكرِ، ولكنّي أعلمُ أنّ المَكْرَ والخديعةَ في النارِ فأصْبِرُ على مكرِهم ولا أرْتَكِبُ مثل ما ارتكبوا[٣].

وطريقُ علاجِه ـ بعد اليقظةِ ـ أنْ يتأمّلَ في سوءِ خاتِمَتِهِ وَوَخامَةِ عاقبتِهِ، وفي تأديته إلى النارِ ومجاورَةِ الشياطينِ والأشرارِ، ويَتذكّرَ أنّ وبالَ كلّ مَكْرٍ وحيلةٍ يرجِعُ في الدنيا إلى صاحبِهِ، كما نطقتْ به الآياتُ والأخبارُ وشهِدَتْ به التجربةُ والاعتبارُ. ثمّ يَتذكّرُ فوائدَ ضدّ المكرِ ومحامِدِه، أعني استنباطَ ما يُوجِبُ النصيحةَ والخيريّةَ للمسلمينَ وموافقةَ ظاهرِهِ لباطِنِهِ في أفعالِهِ وأقوالِه.

وبعد ذلكَ لو كان عاقلاً مشفِقاً على نفسِهِ لاجتنَبَ عنه كلَّ الاجتنابِ، ويَنْبغي أنْ يقدّمَ التَرَوّيَ في كلّ فعلٍ يصدرُ عنه لئلّا يكونَ له فيه مكرٌ وحيلةٌ، وإذا عثرَ على فعلٍ يَتضَمّنُهُ فليتركْهُ معاتِباً لنفسِه، وإذا تكرّرَ عند ذلك تزولُ عن نفسِهِ أُصولُ المكرِ وفروعُهُ بالكُلّيّةِ بعونِ الله وتوفيقه.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٧، باب المكر والغدر والخديعة، ح ٣.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٦، باب المكر والغدر والخديعة، ح ١.

٣. راجع: نهج السعادة، ج ٢، ص ٣١٧ ـ ٣١٨، الخطبة ٢٤٥ و٢٤٦.

الباب الرابع

فيما يتعلّق بالقوّة الغضبيّة

من الرذائل والفضائل وكيفيّة العِلاج

جنسا رذائل القوّة الغضبيّة

أنواعُ الرذائل والفضائل والنتائج والآثارُ المتعلّقة بالقوّة الغضبيّة

جنسا رذائل القوّة الغضبيّة

الجنس الأوّل : التَهَوُّرُ

وهو من طرفِ الإفراط أي الإقدامُ علىٰ ما لا ينبغي والخوضُ في ما يَمنَعُهُ العقلُ والشرعُ من المهالِكِ والمخاوِفِ. ولا ريبَ في أنّه من المُهلكاتِ في الدنيا والآخرة. ويدُلُّ على ذمِّه كلُّ ما وردَ في وجوبِ محافظةِ النفسِ وفي المنعِ عن إلقائها في المهالكِ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1] وغيرُ ذلك من الآياتِ والأخبارِ.

والحقُّ أنّ من لا يحافِظُ نفسَه عمّا يحكُمُ العقلُ بلزومِ المحافظةِ عنه فهو غيرُ خالٍ عن شائبةٍ من الجُنونِ، وكيف يستحقُّ اسمَ العقلِ مَنْ ألقى نفسَهُ من الجبالِ الشاهِقَةِ ولمْ يبالِ بالسيوفِ الشاهِرَةِ، أو أوقعَ نفسَه في الشطوطِ الغامِرَةِ الجارِيةِ ولم يحذرْ من السباعِ الضارِية. كيف وَمْن ألقى نفسَه فيما يَظنُّ به العَطبَ فهلكَ، كان قاتلَ نفسِهِ بحكم الشريعةِ، وهو يوجبُ الهلاكَ الأبديّ.

وعلاجه ـ بعد تذكّرِ مفاسدِه في الدنيا والآخرة ـ أن يُقَدِّمَ التروِّيَ في كلّ فعلٍ يُريدُ الخوضَ فيه، فإن جوّزَه العقلُ والشرعُ ولم يَحكما بالحذرِ عنه ارتكبه، وإلّا تَرَكَهُ ولم يقدمْ عليه. وربّما احتاجَ في معالجتِهِ أنْ يُلزِمَ نفسَهُ الحذرَ والاجتنابَ عن بعضِ ما يحكُمُ العقلُ بعدمِ الحذرِ عنه، حتّى يقعَ في طرفِ التفريطِ، وإذا عَلِمَ من نفسِه زوالَ التهوُّرِ تركَهُ وأخذَ بالوسطِ الذي هو الشجاعةُ.

---

١. البقرة (٢): ١٩٥.

الجنس الثاني: الجُبْنُ

وهو سُكونُ النفسِ عن الحركةِ إلى الانتقامِ -أو غيره- مع كونها أولى. والغضبُ إفراطٌ في تلك الحركةِ. فلهُ ضدّيّةٌ للغضبِ باعتبارٍ، وللتهوُّرِ باعتبارٍ آخرَ، وعلى الاعتبارين هو في طَرَفِ التفريطِ مِنَ المُهلِكاتِ العظيمةِ، ويلزمُه من الأعراض الذميمةِ: مهانةُ النفسِ، والذلّةُ، وسوءُ العيشِ، وطمَعُ الناسِ فيما يملِكهُ، وقِلّةُ ثباتِه في الأُمُورِ، والكسلُ، وحبُّ الراحةِ. وهو يوجِبُ الحرمانَ عن السعاداتِ بأسرِها وتمكينَ الظالمينَ من الظلمِ عليه، وتحمّلَه للفضائحِ في نفسِه وأهلِه، واستماعَ القبائحِ من الشتْمِ والقَذْفِ، وعدمَ مبالاتِه بما يُوجِبُ الفضيحةَ والعارَ، وتعطيلَ مقاصِدِه ومهمّاتِه؛ ولذلك وردَ في ذمّه من الشريعة ما ورد قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يكونَ بخيلاً ولا جباناً»[1]، وقال ﷺ: «اللهمّ إنّي أعوذُ بك من البُخلِ، وأعوذُ بك من الجُبنِ، وأعوذُ بكَ أن أُرَدَّ إلى أرذلِ العمرِ»[2].

وعلاجُه -بعد تنبيهِ نفسِه على نقصانِها وهلاكِها- أنْ يُحرّكَ الدواعيَ الغضبيّةَ فيما يحصُلُ به الجبنُ، فإنّ القوّةَ الغضبيّةَ موجودةٌ في كلّ أحدٍ، ولكنّها تضعفُ وتنقصُ في بعض الناسِ فيحدثُ فيهم الجبنُ، وإذا حُرِّكتْ وهُيِّجَتْ على التواترِ تَقوى وتَزيدُ، كما أنّ النارَ الضعيفةَ تَتوقّدُ وتَلتهبُ بالتحريكِ المتواترِ.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٠٢، باب البخل، ح ١٢، وفيه: «لا يكون المؤمن جباناً ولا حريصاً ولا شحياً».

٢. سنن النسائي، ج ٨، ص ٢٥٦، باب الاستعاذة من البُخل.

وصلٌ

ضدّ هذين الجنسين: الشجاعةُ

قد عرفتَ أنّ ضدَّ هذينِ الجنسين هو الشجاعةُ، فتذكّرْ مدحَها وشرافَتها، وكلِّفْ نفسَك المواظبةَ على آثارِها ولوازِمِها، حتّىٰ يصيرَ ما تكلّفْتَهُ طبعاً ومَلَكَةً؛ فترتفعَ عنكَ آثارُ الضدّين بالكلّيّةِ. وقد عرفتَ أنّ الشجاعةَ طاعةُ قوّةِ الغضبِ للعاقلةِ في الإقدامِ على الأُمورِ الهائلةِ وعدمِ اضطرابِها بالخوضِ في ما يقتضيه رأيُها. ولا رَيبَ في أنّها أشرَفُ الملكاتِ النفسيّةِ وأفضلُ الصفاتِ الكماليّةِ، والفاقدُ لها بريءٌ عن الفحليّةِ والرجوليّةِ، وقد وصفَ اللهُ خيارَ الصحابةِ بها في قوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾[1] وأمر الله نبيّه بها بقوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[2]. إذ الشدّةُ والغِلْظَةُ من لوازِمِها وآثارِها، والأخبارُ مصرِّحةٌ باتّصافِ المؤمنِ بها، قال أميرُالمؤمنين عليه السلام في وَصْفِ المؤمنِ: «نفسُه أصلَبُ من الصَلدِ»[3]. وقال الصادق عليه السلام: «المؤمنُ أصلَبُ من الجبلِ إذ الجبلُ يُسْتفَلُّ[4] منه والمؤمن لا يُستفَلُّ من دينِه»[5].

---

١. الفتح (٤٨): ٢٩.

٢. التوبة (٩): ٧٣.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٢٢٧، باب المؤمن وعلاماته وصفاته، ح ١.

٤. استفلّ الشيء: أُخذ منه أدنى جزء كعشره.

٥. الكافي، ج ٢، ص ٢٤١، باب المؤمن وعلاماته وصفاته، ح ٣٧.

أنواعُ الرذائلِ والفضائلُ والنتائجُ والآثارُ المتعلّقة بالقوّة الغضبيّةِ

النوع الأوّل: الخوفُ

وهو تألـمُّ القلبِ واحتراقُه بسببِ توقُّعِ مكروهٍ في الاستقبالِ مشكوكِ الوُقوعِ، فلو عُلمَ أو ظُنَّ حصولُهُ سُمِّيَ توقّعُهُ انتظارَ مكروهٍ، وكان تألُّمه أشدَّ من الخوفِ، وكـلامُنا في كـليهما. وفَرقُه عن الجبنِ ـ على ما قرّرناه من حدِّهما ـ ظاهرٌ، فإنَّ الجُـبنَ هـو سُكـونُ النـفسِ عـمّا يُسْتَحْسَنُ شرعاً وعقلاً من الحركة إلى الانتقامِ أو شيءٍ آخرَ، وهذا السكونُ قد يَتَحقّقُ من غيرِ حُدوثِ التألُّمِ الذي هو الخَوفُ، مثلاً من لا يجترِئُ على الدُخولِ في السفينةِ أو النـومِ في البيتِ وحدَهُ أو التعرُّضِ لدفعِ من يَظلمُه ويتعرّضُ له يمكنُ اتِّصافُه بالسُكونِ المذكورِ مع عدمِ تألُّمٍ له بالفعلِ، فمثلُه جبانٌ وليس بخائفٍ. ومن كان له ملكةُ الحركةِ إلى الانتقامِ وغيره مـن الأفعالِ التي يجوّزُها الشرعُ والعقلُ رُبّما حصلَ له التألّمُ المذكورُ مـن تـوقُّعِ حـدوثِ بـعضِ المكارهِ، كما إذا أمرَ السلطانُ بقتلِهِ، فمثلُه خائفٌ وليسَ بجبانٍ.

ثمّ الخوفُ على صِنْفين:

أحدُهما: مذمومٌ بجميعِ أقسامهِ، وهو الذي لم يكنْ من الله ولا من صفاتِه المقتضيةِ للهيبةِ والرُعبِ، وَلا من مَعاصي العبدِ وجِناياتِه، بل يكونُ لغيرِ ذلكَ من الأُمورِ التي يأتي تفصيلُها.

وهذا النوعُ من رذائلِ قوّةِ الغضب من طرفِ التفريطِ، ومن نتائجِ الجُبنِ.

وثانيهما: محمودٌ وهو الذي يكونُ من الله ومن عظمتِه ومنْ خطإِ العبدِ وجِنايتِهِ، وهو من

فضائل القوّةِ الغضبيّةِ، إذ العاقلةُ تأمُر به وتُحسِّنهُ. فهو حاصلٌ من انقيادِها لها.

ولْنُفصِّلِ القولَ في أقسامِ الصنفَينِ، وبيانِ العلاجِ في إزالةِ أقسامِ الأوّلِ وتحصيلِ الثاني في ضمن بحوث:

البحث الأوّل: الخوفُ المحمودُ وأقسامُه ودرجاتُه

الأوّلُ: أنْ يكونَ من الله سبحانه ومنْ عظمتِهِ وكبرياتِهِ، وهذا هو المسمّى بالخشيةِ والرهبةِ في عُرفِ أربابِ القلوبِ.

الثاني: من جنايةِ العبدِ باقترافه المعاصي.

الثالث: أن يكونَ منهما جميعاً. وكلّما ازدادتِ المعرفةُ بجلالِ الله وعظمتِه وتعاليهِ، وبعيوبِ نفسهِ وجناياتهِ، ازدادَ الخوفُ، إذ إدراكُ القُدرَةِ القاهرةِ والعظمةِ الباهرةِ والقوّةِ القويّة والعزّةِ الشديدةِ يوجبُ الاضطرابَ والدهشةَ. ولا ريبَ في أنّ عظمةَ الله وقدرتَه وسائرَ صفاتِه الجلاليّةِ والجماليةِ غيرُ متناهيةٍ شدّةً وقُوّةً، ويظهرُ منها على كلّ نفسٍ ما تطيقُهُ وتستعدّ له. وإدراكُ هذه الغايةِ أيضاً يختلفُ باختلافِ علوّ المداركِ، فمن كانَ في الدركِ أقوى وأقْدَمَ كان بربّهِ أعرفَ، ومَنْ كانَ به أعرفَ كان منهُ أخوفَ، ولذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1]. وقد قَرَعَ سمعَكَ حكاياتُ خوفِ زُمْرة المرسلينَ وَمنْ بعدِهِم من فِرَقِ الأولياء والعارفينَ، وعروضُ الغشياتِ المتواترةِ في كلّ ليلةٍ لمولانا أميرِ المؤمنين عليه السلام[2].

وهذا مقتضى كمالِ المعرفةِ الموجبِ لشدّةِ الخوفِ، إذ كمالُ المعرفةِ يوجبُ احتراقَ القلبِ، فيفيضُ أثرُ الحُرقَةِ من القلبِ إلى البدنِ بالنحولِ والاصْفِرارِ والغَشْيةِ والبُكاءِ، وإلى الجوارحِ بِكَفِّها عن المعاصي وتقييدِها بالطاعاتِ تلافياً لما فرّطَ في جنبِ الله ولم يجتهدْ في تركِ المعاصي وكسبِ الطاعاتِ، فليسَ علىٰ شيء من الخوفِ. ولذا قيلَ: ليس الخائفُ من يبكي ويمسحُ عينيهِ، بل من يتركُ ما يخافُ أنْ يعاقَبُ عليه.

---

١. فاطر (٣٥): ٢٨.

٢. أمالي الصدوق، ص ٧٢ ـ ٧٣، المجلس ١٨، ح ٩.

فقوّة المجاهدَةِ والمحاسبةِ بحسبِ شدّةِ الخوفِ الذي هو حُرقةُ القلبِ وتألـّمُه، وهو بحَسَبِ قوةِ المعرفةِ بجلالِ الله وعظمتِه وسائرِ صفاتِه وأفعالِه، وبعيوبِ النفسِ وما بينَ يـديها مـن الأخطارِ والأهوالِ.

وأقلُّ درجاتِ الخوفِ ممّا يظهرُ أثرُه في الأعمالِ أنْ يَكُفَّ عن المحظوراتِ، ويُسمَّى الكفُّ عنها وَرَعاً، فإنْ زادتْ قُوَّتُه كَفّ عن الشُبهاتِ، ويُسمّى ذلك تقوى، إذ التقوى أن يَتْرُكَ مـا يريبُهُ إلى ما لا يريبُه[1]، وقد يَحملُه علىٰ ترك ما لا بأسَ به مخافةَ ما به بأسٌ، وهو الصدقُ في التقوى. فإذا انضمّ إليه التَجرُّدُ للخدمةِ، وصارَ ممّنْ لا يَبني ما لا يَسكنُه، ولا يجمعُ ما لا يأكُلُه، ولا يلتفِتُ إلىٰ دنيا يَعلمُ أنّه يُفارقُها، ولا يصرفُ إلىٰ غيرِ الله نَفَساً من أنفاسِه، فهو الصدقُ، ويسمّى صاحبُهُ صدّيقاً. فيدخلُ في الصدقِ التقوى، وفي التقوى الورعُ، وفي الورعِ العِـفّةُ، لأنّها عبارةٌ عن الامتناعِ من مقتضى الشهواتِ.

فإذنْ يؤثّر الخوفُ في الجوارحِ بالكفِّ والإقدامِ.

البحث الثاني: بِمَ يتحقّقُ الخوفُ؟

اِعلم أنّ الخوفَ لا يتحقّقُ إلّا بانتظارِ مكروهٍ، والمكروهُ إمّا أنْ يكونَ مكـروهاً في ذاتـه كالنارِ، أو مكروهاً لإفضائِه إلىٰ المكروهِ في ذاتِه كـالمعاصي المُـفْضِيَةِ إلى المكـروهِ لذاتـهِ في الآخِرةِ. ولابدَّ لكلِّ خائفٍ أنْ يتمثّلَ في نفسِه مكروهاً من أحدِ القِسمين، ويُقوّيَ انتظارَه في قلبه حتّىٰ يتألّمَ قلبُه بسببِ استشعارِه ذلكَ المكروهَ. ويختلفُ مقامُ الخائفينَ فـيما يـغلِبُ عـلىٰ قُلوبِهم من المكروهات المحظورةِ:

فالذين يغلِبُ علىٰ قلوبِهم خوفُ المكروهِ لذاتِه، فإمّا أنْ يكونَ خوفُهم من سكراتِ الموتِ وشدّتِه وسؤالِ النكيرين وغلظتِه، أو عذابِ القبرِ ووحدَتِه وهَوْلِ المطّلَعِ ووحشَتِه، أو مـن الموقفِ بين يدي الله وهَيْبتِه والحياءِ من كشفِ سريرتِه، أو من الحسـابِ ودِقّـتِه والصراطِ وحِدَّتِه، أو من النارِ وأهوالِها والجحيمِ وأغلالِها، أو الحرمانِ من دارِ النعيمِ وعدمِ وصولِه إلى

١. راجع: بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥٩، باب التوقّف عند الشبهات، ح ٧.

الملكِ المُقيمِ، أو من نقصانِ درجاتِه في العلّيّين وعدمِ مجاورتِه المقرّبينَ، أو من الله سبحانَه بأنْ يخافَ جلالَه وعظمتَهُ والبعدَ والحجابَ منه ويرجو القُربَ منه.

وهذا أعلاها رتبةً، وهو خوفُ أربابِ القلوبِ العارفينَ من صفاتِه ما يقتضي الهيبةَ والخوفَ، والعالمِينَ بلذّةِ الوصالِ وألمِ البعدِ والفراقِ، والمطّلعينَ على سرّ قوله: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾[1]، وقوله: ﴿ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾[2]. وقيلَ: ذلك خوفُ العابدينَ والزاهدينَ وكافّةِ العاملينَ.

وأمّا الذين غلبَ علىٰ قلوبهم خوفُ المكروهِ لغيرِهِ، فإمّا يكونُ خوفُهم من الموتِ قبل التَوبَةِ، أو نقضِها قبل انقضاءِ المدّةِ، أو من ضعفِ القوّةِ عن الوفاءِ بتمامِ حقوقِ الله، أو تخليتِهِ مع حسناتِه التي اتّكلَ عليها وتعزّزَ بها في عبادِ الله، أو من الميلِ عن الاستقامةِ، أو إلى اتّباعِ الشهواتِ المألوفةِ استيلاءً للعادةِ، أو تبديلِ رِقّةِ القلبِ إلى القساوَةِ، أو تبعاتِ الناسِ عنده من الغشّ والعَداوةِ، أو من الاشتغالِ عن الله بغيرِهِ، أو حُدوثِ ما يحدُثُ في بقيّةِ عمرِهِ، أو من البَطَرِ والاستدراجِ بتواتُرِ النِعمِ، أو انكشافِ غوائلِ طاعتِهِ حتّىٰ يبدُوَ له من اللهِ ما لم يعلمْ، أو من الاغْتِرارِ بالدنيا وزخارفِها الفانيةِ، أو تعجيلِ العقوبةِ بالدنيا وافتضاحِه بالعلانيةِ، أو من اطّلاعِ الله علىٰ سريرتِه وهو عنه غافلٌ، وتوجُّهِهِ إلىٰ غيرِه وهو إليه ناظرٌ، أو من الختمِ له عندَ الموتِ بسوءِ الخاتمةِ، أو ممّا سبقَ له في الأزَلِ من السابقةِ.

وهذه كلّها مخاوفُ العارفينَ، ولكلّ واحدٍ منها خُصوصُ فائدةٍ هو الحذَرُ عمّا يُفْضي إلى الخوفِ. فالخائف من تَبعات الناسِ يجتهدُ في براءةِ ذمّته عنها، ومن استيلاءِ العادةِ يواظبُ على فِطامِ نفسِه عنها، ومن اطّلاعِ الله علىٰ سريرتِه يشتغلُ بتطهيرِ قلبِهِ عن الوَساوِسِ. وهكذا في بقيّةِ الأقسامِ.

وأغلبُ هذه المخاوفِ على المتّقينَ خوفُ سوءِ الخاتِمَةِ، وهو الذي قطعَ قلوبَ العارفينَ، إذ الأمرُ فيه مُخْطِرٌ.

---

١. آل عمران (٣): ٢٨.

٢. آل عمران (٣): ١٠٢.

البحث الثالث: الخوفُ من الله أفضلُ الفضائلِ

الخوفُ منزلٌ من منازِلِ الدينِ ومقامٌ من مقاماتِ الموقنينَ، وهو أفضَلُ الفضائلِ النفسانيّةِ، إذ فضيلةُ الشيءِ بقَدْرِ إعانتهِ على السعادةِ، ولا سعادةَ كسعادةِ لقاءِ الله والقربِ منه، ولا وصولَ إليها إلّا بتحصيلِ محبّتِهِ والأُنسِ به. ولا يحصُلُ ذلك إلّا بالمعرفةِ، ولا تحصُلُ المعرفةُ إلّا بدوامِ الفِكْرِ، ولا يحصُلُ الأُنسُ إلّا بالمحبّةِ ودوامِ الذكرِ، ولا تتيسّرُ المواظَبَةُ على الفكْرِ والذكرِ إلّا بانقلاعِ حُبّ الدنيا من القلبِ، ولا ينقَلِعُ ذلك إلّا بِقَمْعِ لذّاتِها وشهواتِها. وأقوى ما تنقَمِعُ به الشهوَةُ هو نارُ الخوفِ، فالخوفُ هو النارُ المحرِقَةُ للشهواتِ. فإذنْ فضيلتُهُ بقَدْرِ ما يحرِقُ من الشهواتِ ويَكُفُّ من المعاصي ويحُثُّ على الطاعاتِ، ويختلفُ ذلك باختلافِ درجاتِ الخوفِ، كما مرّ.

والآياتُ والأخبارُ الدالّةُ عليه أكثرُ من أنْ تُحصَى، وقد جَمَعَ اللهُ للخائفينَ العِلْمَ والهُدى والرحمةَ والرِضوانَ، وهي مَجامعُ مَقاماتِ أهلِ الجِنانِ، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾[١]، وقال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[٢]، وقال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[٣].

وكثيرٌ من الآياتِ مصرّحةٌ بكونِ الخوفِ من لوازمِ الإيمانِ، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٥].

ومَدحَ الله تعالى الخائفينَ بالتذكُّرِ في قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾[٦]. ووَعَدَهم الجنّةَ وجنّتينِ، بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٧]،

---

١. فاطر (٣٥): ٢٨.
٢. الأعراف (٧): ١٥٤.
٣. البيّنة (٩٨): ٨.
٤. الأنفال (٨): ٢.
٥. آل عمران (٣): ١٧٥.
٦. الأعلىٰ (٨٧): ١٠.
٧. النازعات (٧٩): ٤٠ـ ٤١.

وقوله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[١]. وقال رسول الله ﷺ: «رأسُ الحكمةِ مخافةُ اللهِ»[٢]، وقال ﷺ: «مَنْ خافَ اللهَ أخافَ اللهُ منه كلَّ شيءٍ، ومَنْ لم يَخَفِ اللهَ أخافَهُ اللهُ من كلِّ شيءٍ»[٣]، وقال لابن مسعود: «إنْ أردتَ أن تلقاني فأكْثِرْ من الخوفِ بعدي»[٤]، وقال ﷺ: «أتمُّكُم عقلاً أشدُّكم للّهِ خوفاً»[٥]. وعن ليث بن أبي سليم قال:

سمعتُ رجلاً من الأنصارِ يقول: بينما رسولُ الله مستظلٌّ بظلِّ شجرةٍ في يومٍ شديدِ الحرِّ، إذْ جاءَ رجلٌ فنزَعَ ثيابَهُ، ثمّ جعلَ يَتمرّغُ في الرمضاءِ، يكوي ظهرَهُ مرةً، وبَطنَهُ مرّةً، وجَبْهَتَهُ مرّةً، ويقول: يا نفسُ ذوقي، فما عندَاللهِ أعظمُ ممّا صنعتُ بكِ. ورسولُ الله ينظرُ إليه ما يصنعُ. ثمّ إنّ الرجلَ لبس ثيابَهُ، ثمّ أقبلَ، فأومى إليه النبيّ ﷺ بيده ودَعاهُ، فقال له: يا عبدَالله! رأيتُكَ صنعْتَ شيئاً ما رأيتُ أحداً منَ الناسِ صنَعَهُ، فما حَمَلَكَ علىٰ ما صنعتَ؟ فقالَ الرجلُ: حملني علىٰ ذلك مخافةُ اللهِ، فقلتُ لنفسي: يانفُس ذوقي، فما عندَالله أعظمُ ممّا صنعْتُ بكِ. فقال النبي ﷺ: لقد خِفْتَ ربَّكَ حقَّ مخافتِهِ، وإنَّ ربّك ليباهي بكَ أهلَ السماءِ. ثمّ قال لأصحابه: يا معشرَ مَنْ حضرَ! ادنُوا من صاحبِكم حتّىٰ يَدعوَ لكم، فَدَنَوا منه فدعا لهم، وقال: اللهمّ اجمعْ أمرَنا على الهدى، واجعَلِ التقوى زادَنا، والجنَّة مآبَنا[٦].

وقال الله تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾[٧]. وقال الصادق عليه السلام:

المؤمنُ بين مخافَتَينِ: ذنبٍ قد مضى ما يدري ما صنعَ اللهُ فيه، وعُمرٍ قدْ بقيَ

---

١. الرحمن (٥٥): ٤٦.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٦١ الخوف.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٦٨، باب الخوف والرجاء، ح ٣.

٤. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٦١.

٥. راجع: بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٣٣، باب الإخلاص ومعنى قربه تعالى، ذيل الحديث ٦؛ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٢٢، في تفسير سورة الملك (٦٧): ٢.

٦. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣٧٨، باب الخوف والرجاء، ح ٢٣.

٧. المائدة (٥): ٤٤.

لا يَدري ما يَكتَسِبُ فيه من المهالِكِ، فهو لا يُصبحُ إلّا خائِفاً ولا يُصْلِحُهُ إلّا الخوفُ[١].

ثمّ الأخبارُ الواردة في فضلِ العلمِ والتقوى والورعِ والبكاءِ والرجاءِ تدُلّ على فضلِ الخوفِ، لأنّ جملَةَ ذلك مُتعلِّقَةٌ به تَعلُّقَ السببِ أو تَعلُّقَ المسبَّبِ، إذ العلمُ سببُ الخوفِ، والتقوى والورعُ يحصلانِ منه ويترتّبانِ عليه والبكاءُ ثمرتُهُ ولازِمُهُ، والرجاءُ يلازمُهُ ويصاحبُهُ، إذْ كلُّ منْ رجا محبوباً فلابدّ أنْ يخافَ فوتَهُ. وممّا يدُلُّ على فضيلتِهِ ما ثبتَ بالتواتُرِ من كثرةِ خوفِ الملائكةِ والأنبياءِ وأئمّةِ الهدى عليهم السلام وكخوفِ جبرائيلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، وحَمَلَةِ العرشِ، وغيرِهِمْ منَ الملائكةِ المهيّمينَ والمسلّمينَ، وكخوفِ نبيّنا، وإبراهيمَ، وموسى، وعيسى، وداودَ، ويحيى وغيرِهم. وخوفِ أميرِ المؤمنين وسيّدِ الساجدينَ وسائرِ الأئمّةِ الطاهرينَ عليهم السلام. وحكايةُ خوفِ كلٍّ منهم في كتبِ المحدّثين مذكورةٌ وفي زُبُرِهم مسطورةٌ، فلْيَرْجِعْ إليها من أرادَ، ومن الله العِصمةُ والسَدادُ.

البحث الرابع: الخوفُ إذا جاوزَ حدَّه كان مذموماً

اعلَمْ أنّ الخوفَ ممدوحٌ إلىٰ حدٍّ، فإنْ جاوَزَه كانَ مذموماً. وبيان ذلك: أنّ الخوفَ سوطُ اللهِ الذي يسوقُ به العبادَ إلى المواظبةِ على العلم والعملِ، لينالُوا بها رُتْبَةَ القربِ إليه تعالىٰ ولذّةَ المحبّةِ والأُنسِ به. وكما أنّ السوطَ الذي تُساقُ به البهيمةُ ويُؤَدَّبُ به الصبيُّ، له حَدٌّ في الاعتدالِ. لو قَصُرَ عنه لم يكنْ نافعاً في السَوْقِ والتأديب، ولو تجاوَزَ عنه في المقدارِ أو الكيفيّةِ أو المبالغَةِ في الضربِ كانَ مذموماً لأدائه إلىٰ إهلاكِ الدابّةِ والصبيّ. فكذلكَ الخوفُ الذي هو سوطُ الله لسَوقِ عبادِه له حَدٌّ في الاعتدالِ والوسطِ، وهو ما يُوصِلُ إلى المطلوب، فإنْ كانَ قاصِراً عنه كان قليلَ الجدوى، وكان كقضيبٍ ضعيفٍ تُضرَبُ به دابّةٌ قويّةٌ، فلا يَسوقُها إلى المقصدِ.

ومثلُ هذا الخوفِ يجري مجرى رِقّةِ النساءِ عند سماعِ شيءٍ مُحزِنٍ يورِثُ فيهنّ البكاءَ،

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٧١، باب الخوف والرجاء، ح ١٢.

وبمجرّدِ انقطاعِه يرجِعْنَ إلىٰ حالهنّ الأُولىٰ، أو مجرى خوفِ بعضِ الناسِ عند مشاهَدةِ سببٍ هائلٍ، وإذا غابَ ذلك السببُ عن الحسّ رَجَعَ القلبُ إلى الغَفْلَة. فهذا خوفٌ قاصرٌ قليلُ الجدوى، فالخوفُ الذي لا يؤثّر في الجوارحِ بكفِّها عن المعاصي وتقييدِها بالطاعاتِ حديثُ نفسٍ وحركةُ خاطرٍ لا يستحِقُّ أنْ يُسمّى خوفاً، ولو كان مفْرِطاً ربّما جاوزَ إلى القُنوطِ وهو ضَلالٌ. ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا ٱلضَّالُّونَ﴾[1]، أو إلى اليأس وهو كفرٌ ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[2].

ولا ريبَ في أنّ الخوفَ المجاوزَ إلى اليأسِ والقنوطِ يَمنعُ من العملِ؛ لرفعِها نشاطَ الخاطرِ الباعثِ على الفعلِ، وإيجابِها كسالةَ الأعضاءِ المانِعةِ من العملِ. ومِثْلُ هذا الخوف مَحْضُ الفسادِ والنقصانِ وعينُ القُصورِ والخسرانِ، ولا رُجحانَ له في نظرِ العقلِ والشرعِ مُطلقاً.

وكان بعضُ مشايخِ العرفاءِ يقولُ للمرتاضين من مريديه الملازمين للجوع أيّاماً كثيرةً: «احفظوا عقولَكُم، فإنّه لم يكنْ للّه تعالىٰ وليٌّ ناقصُ العقلِ».

البحث الخامس: طرقُ تحصيلِ الخوفِ الممدوحِ

لتحصيلِ الخوفِ الممدوحِ وَجَلْبِهِ طُرُقٌ:

الأوّل: أنْ يجتَهِدَ في تحصيلِ اليقينِ: أي قوّةُ الإيمانِ بالله، واليومِ الآخِرِ، والجنّةِ، والنارِ، والحسابِ، والعِقابِ. ولا ريبَ في كونِهِ مُهيّجاً للخوفِ من النارِ والرجاءِ للجنّةِ. ثمّ الخوفُ والرجاءُ يُؤَدّيانِ إلىٰ الصبرِ على المكارِهِ والمشاقِّ، وهو إلى المجاهدَةِ والتجرُّدِ لذكرِ الله تعالىٰ والفكرِ فيه على الدوام، ويُقَوّي دوامَ الذكرِ على الأُنس، ودوامَ الفكرِ علىٰ كمالِ المعرفةِ، ويؤدّي الأُنسُ وكمالُ المعرفةِ إلىٰ المحبّةِ، ويتبعُها الرضىٰ والتوكُّلُ وسائرُ المقاماتِ. وهذا هو الترتيبُ في سُلوكِ منازِلِ الدينِ، فليسَ بعد أصلِ اليقينِ مقامٌ سوى الخوفِ والرجاءِ، ولا بعدَهما مقامٌ سوى الصبرِ، ولا بعدَهُ سوى المجاهدَةِ والتجرُّدِ للّه ظاهراً وباطِناً، ولا بعدَهُ سوى

---

١. الحجر (١٥): ٥٦.

٢. يوسف (١٢): ٨٧.

الهدايةِ والمعرفةِ، ولا بعدَهما سوى الأُنسِ والمحبّةِ. ومن ضرورةِ المحبّةِ الرضىٰ بفعلِ المحبوبِ والثقةِ بعِنايَتِهِ، وهو التوكُّلُ. فاليقينُ هو سببُ الخوفِ، فيجبُ تحصيلُ السببِ ليؤدّيَ إلى المسبّبِ.

الثاني: مُلازمةُ التفكُّرِ في أحوالِ القيامةِ، وأصنافِ العذابِ في الآخرةِ، واستماعِ المواعظِ المُنذِرَةِ، والنظرِ إلى الخائفينَ ومُجالَستِهِم، ومُشاهَدةِ أحوالِهِم واستماعِ حكاياتِهِم. وهذا مِمّا يَستَجلِبُ الخوفَ من عذابِه تعالىٰ، وهو خوفُ عُمومِ الخلقِ، وهو يَحصُلُ بمُجَرَّدِ أصلِ الإيمانِ بالجنّةِ والنارِ، وكونِهما جزاءين على الطاعةِ والمعصيةِ، وإنّما يضعفُ للغفلةِ أو ضعفِ الإيمانِ، وتزولُ الغفلةُ والضعفُ بما ذكر.

وأمّا الخوفُ منَ اللهِ بأنْ يخافَ البُعْدَ والحِجابَ ويرجوَ القُربَ والوِصالَ، وهو خوفُ أربابِ القلوبِ، العارفينَ من صفاتِه ما يقتضي الخوفَ والهيبةَ، المطّلِعينَ علىٰ سرِّ قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[1]، وقوله: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[2]. فالعلاجُ في تحصيله الارتقاءُ إلى ذِرْوَةِ المعرفةِ، إذ هذا الخوفُ ثمرةُ المعرفةِ بالله وبصفاتِ جلالِه وجمالِه، ومَنْ لم يمكنْهُ ذلك فلا يتركْ سماعَ الأخبارِ والآثارِ وملاحظةَ أحوالِ الخائفين من هَيْبَتِه وجلالِه، كالأنبياءِ والأولياءِ وزمرةِ العرفاءِ، فإنّه لا يخلو عن تأثيرٍ.

البحث السادس: خَوفُ سوءِ الخاتمةِ وأسبابُهُ

قد أُشيرَ إلى أنّ أعظمَ المخاوفِ خوفُ سوءِ الخاتِمةِ، ولهُ أسبابٌ مختلِفةٌ ترجعُ إلى ثلاثةٍ:

الأوّل: وهو الأعظمُ، وهو أن يغلِبَ على القلبِ عند سَكَراتِ الموتِ وظهورِ أهوالِه، إمّا الجحودُ أو الشكُّ، فتُقْبَضُ الروحُ في تلك الحالةِ، وتصيرُ عقدةُ الجحودِ أو الشكِّ حجاباً بينه وبين الله تعالىٰ، وذلك يقتضي البعدَ الدائمَ، والحرمانَ اللازمَ، وخسرانَ الأبدِ، والعذابَ المخلَّدَ.

---

١. آل عمران (٣): ٢٨.

٢. آل عمران (٣): ١٠٢.

ثمّ هذا الجحودُ أو الشكّ إمّا يتعلّقُ ببعضِ العقائدِ الأُصوليّةِ، كالتوحيدِ وعلمهِ تعالىٰ أو غيرِ ذلك من صفاتِهِ الكماليّةِ. أو بضروريّاتِ أمرِ الآخرةِ والنبوّةِ. وكلّ واحدٍ من ذلك كافٍ في الهلاكِ وزُهوقِ النفسِ على الزندَقةِ، أو يتعلّقُ بجميعها.

وبالجملة، إنِ اتّفقَ زُهُوقَ رُوحهِ في هذه الخَطْرَةِ قبلَ أنْ يُنيبَ ويعودَ إلىٰ أصلِ الايمان، فقد خُتِمَ له بالسوءِ وخرجتْ رُوحُه على الشركِ، أعاذنا الله منه، وثبّتَنا على الاعتقادِ الحقِّ لديه، وهم المقصودون من قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِنَ ٱللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[1]، ومن قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[2].

الثاني: ضَعفُ الايمانِ في الأصلِ، ومهما ضَعُفَ الايمانُ ضَعُفَ حبُّ الله وقَويَ حُبُّ الدنيا في القلبِ، واستولى عليه بحيثُ لا يبقى في القلبِ موضعٌ لحبّ الله إلّا من حيثُ حديثِ النفسِ، فلا يظهرُ لهُ أثرٌ في مخالفةِ النفسِ والشيطانِ، فيورثُ ذلك الانهماكَ في اتّباعِ الشهواتِ، حتّىٰ يُظْلِمَ القلبُ ويَسْوَدَّ، وتتراكَمَ ظُلْمَةُ الذنوبِ عليه، ولا يزالُ يَطْفَأُ ما فيه من نور الايمانِ حتّىٰ يَنْطِفِئَ بالكلّيّةِ، فإذا جاءتْ سَكْرَةُ الموتِ ازدادَ حبُّ اللهِ ضُعفاً، وربّما عُدِمَ بالمرّةِ؛ لما يَستشعِرُ من فراقِ محبوبهِ الغالبِ على قلبِهِ ـ وهو الدنيا ـ فيتألّمُ ويرى ذلك من الله، فيختلجُ ضميرُهُ بإنكارِ ما قدّرَهُ اللهُ من الموتِ، وربّما يحدثُ في باطنِهِ بُغضُ اللهِ بدل الحبِّ؛ لما يرى أنّ موتَهُ مِنَ الله. وإلىٰ هذا القسمِ منْ سوءِ الخاتمة أُشيرَ في الكتابِ الالهي بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللهُ بِأَمْرِهِ﴾[3].

والثالث: كَثْرَةُ المعاصي وَغَلَبَةُ الشهواتِ، وإن قَوِيَ الايمانُ. وبيانُ ذلك: أنّ مُقارَفَةَ المعاصي سببُها غلبةُ الشهواتِ ورُسوخُها في القلبِ بكَثْرَةِ الإلفِ والعادةِ، وجميع ما أَلِفَهُ الإنسانُ في عُمْرِهِ يعودُ ذكرُهُ في قلبِهِ عند موتِهِ، فإنْ كانَ أكثرُ ميله إلى الطاعاتِ كان أكثرُ

---

١. الزمر (٣٩): ٤٧.

٢. الكهف (١٨): ١٠٣ ـ ١٠٤.

٣. التوبة (٩): ٢٤.

ما يحضرُهُ عندَ الموتِ طاعةَ الله، وإنْ كان أكثرُ مَيلِهِ إلى المعاصي غلبَ ذكرُها على قلبِهِ عندَهُ، وإن كان أكثرُ شُغْلِه السُخْرِيَةَ والاستهزاءَ والمِزاحَ وأمثالَ ذلك كان الغالبُ عند الموتِ ذلك، وهكذا الحالُ في جميع الأشغالِ والأعمالِ الغالبةِ في عمرِه، فإنّها تَغلِبُ على قلبِهِ عند موتِه، فربّما تُقبَضُ روحُه عند غَلَبَةِ شَهْوَةٍ من شهواتِ الدنيا ومعصيةٍ من المعاصي، فَيَعتَقِدُ بها قلبه، ويصيرُ محجوباً عن الله تعالىٰ وهو المرادُ بالختمِ على السوءِ.

البحث السابع: الفرقُ بينَ الاطمئنانِ والأمنِ من مَكْرِ الله تعالى

ضِدُّ الخوفِ المذمومِ هو اطمئنانُ القلبِ في الأُمورِ المذكورةِ، ولا ريبَ في كونه فضيلةً وكمالاً، إذ قُوَّةُ القلبِ وعدمُ اضطرابِه ممّا يحكمُ العقلُ بعدم الحذَرِ عنه صفةُ كمالٍ، ونقيضُهُ نقصٌ ورذيلةٌ.

وأمّا الخوفُ الممدوحُ، فضِدّهُ الأمنُ من مكرِ الله، وهو منَ المهلكاتِ، وقد وردَ به الذمُّ في الآياتِ والأخبارِ، قال الله سبحانه: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1]. وقد ثبتَ أنّ الملائكةَ والأنبياءَ كانوا خائفين من مكرِهِ، كما روي:

أنّه لمّا ظهرَ على إبليسَ ما ظهرَ، طفِقَ جبرئيلُ وميكائيلُ يبكيانِ، فأوحى اللهُ إليهما: ما لَكُما تبكيان؟ فقالا: يا ربِّ! لا نأمنُ مكرَك. فقال الله: هكذا كونا. لا تأمنا مكري[2].

وبالجملةِ، ينبغي للمؤمنِ ألّا يأمنَ مِنْ مَكْرِ رَبِّهِ، كما لم يَأْمَنْ منه الملائكةُ والأنبياءُ، وإذا لم يأمَنْ منه كان خائفاً منه دائماً.

البحث الثامن: التلازُمُ بين الخوفِ والرجاءِ

الرجاءُ ارتياحُ القلبِ لانتظارِ المحبوبِ، وهو يلازِمُ الخوفَ، إذِ الخوفُ عبارةٌ عن التألُّمِ من توقُّعِ مكروهٍ ممكنِ الحصولِ، وما يمكنُ حُصُولُه يمكنُ عدمُ حصولِه أيضاً، وما كانَ حصولُه

---

١. الأعراف (٧): ٩٩.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٨١.

مكروهاً كان عدمُ حُصولِه محبوباً. فكما أنّه يتألّمُ بتوقُّع حصولِه يرتاحُ لتوقُّعِ عدمِ حصولِه أيضاً. فالخوفُ عن شيءٍ وجوداً يلزمُهُ الرَّجاءُ عدماً، وعنه عدماً يلزمُهُ الرجاءُ وجوداً. وَقِسْ عليه استلزامَ الرجاء للخوفِ، فهما متلازمانِ، وإنْ أمكنَ غلبةُ أحدِهما نَظَراً إلى كَثرةِ حُصولِ أسبابِه. وإنْ تيقَّنَ الحصولَ أو عدمَه لم يكنْ انتظارُهما خوفاً ورجاءً، بل سُمِّي انتظارَ مكروهٍ أو انتظارَ محبوبٍ.

ثمّ كما أنّ الخوفَ من متعلّقاتِ قوّةِ الغضبِ، وأنّ الممدوحَ منه من فضائِلها؛ لكونِه مقتضى العقلِ والشرعِ، وباعثاً للعملِ من حيثُ الرهبةِ، فكذا الرجاءُ متعلّقٌ بها ومن فضائِلها؛ لكونه مقتضاهما وباعِثاً للعملِ من حيثُ الرغبةِ إلّا أنّ الخوفَ لِتَرَتُّبه علىٰ ضعفِ القلبِ يكون أقربَ إلىٰ طرفِ التفريطِ، والرجاءَ لِتَرَتُّبه علىٰ قُوَّتِه يكونُ أقربَ إلىٰ طرفِ الإفراطِ، إنْ كان كلاهما ممدوحَين. ثمّ لابدَّ أنْ يحصلَ أكثرُ أسبابِ حُصولِ المحبوبِ حتّى يصدُقَ اسمُ الرجاءِ علىٰ انتظارِه، كتوقُّعِ الحصادِ ممّنْ ألقى بَذْراً جيّداً في أرض طيّبة يَصِلُها الماءُ. وأمّا انتظارُ ما لمْ يحصلْ شيءٌ من أسبابِه فيُسمّى غُروراً وحَمَاقةً، كتوقُّعِ من ألقى بذْراً في أرض سَبْخَةٍ لا يَصِلُها الماءُ. وانتظارُ ما كانت أسبابُهُ مشكوكةً يُسمّى تمنّياً، كما إذا صَلُحَتِ الأرضُ ولا ماءَ.

وتفصيلُ ذلك: أنّ «الدنيا مَزْرَعَةُ الآخرةِ»[١] والقلبَ كالأرضِ، والإيمانَ كالبذرِ، والطاعاتِ هي الماءُ الذي تُسْقَى به الأرضُ، وتَطهيرَ القلبِ من المعاصي والأخلاقِ الذميمةِ بمنزلةِ تَنقيةِ الأرضِ من الشوكِ والأحجارِ والنباتاتِ الخبيثةِ، ويومَ القيامةِ هو وقتُ الحصادِ. فينبغي أنْ يُقاسَ رجاءُ العبدِ المغفرةَ برجاءِ صاحب الزرعِ التَنْمِيةَ، وكما أنّ من ألقى البذرَ في أرضٍ طيّبةٍ، وساقَ إليها الماءَ في وقته، ونقّاها من الشوكِ والأحجارِ، وبذلَ جهدَه في قلعِ النباتاتِ الخبيثةِ المُفْسِدَةِ للزرعِ، ثمّ جلس ينتظرُ كرمَ الله ولُطفَهُ مؤمِّلاً أنْ يحصلَ له وقتَ الحصادِ مائةُ قفيزٍ مثلاً، سمّي انتظارُه رجاءً ممدوحاً. فكذلك العبدُ إذا طهّر أرضَ قلبِه عن شوكِ الأخلاقِ الرديّة، وبثّ فيه بَذْرَ الإيمانِ بماءِ الطاعاتِ، ثمّ انتظرَ من فضلِ الله تثبيتَهُ إلى

١. اعلم أنّ الشهيد الثاني رحمه الله ألّف رسالةً مفردةً في شرح هذا الحديث، وهذه الرسالة طُبِعتْ في الجزء الثاني من رسائل الشهيد الثاني.

الموتِ وحُسْنَ الخاتمةِ المُفْضِيةِ إلى المغفِرَةِ، كان انتظارُهُ رجاءً حقيقيّاً محموداً في نفسِه.

وكما أنّ من تغافلَ عن الزراعةِ واختارَ الراحةَ طولَ السنةِ، أو ألقى البذرَ في أرضٍ سَبْخَةٍ مرتفعةٍ لا يَنْصَبُّ إليها ماءٌ، ولم يشتَغِلْ بِتعهُّدِ البذرِ وإصلاحِ الأرضِ من النباتات المُفْسِدَةِ للزرعِ، ثمّ جلسَ منتظراً إلىٰ أنْ ينبُتَ له زرعٌ يَحصُدُه، سمّي انتظارُه حُمقاً وغُروراً. كذلك من لم يُلقِ بَذْرَ الإيمانِ في أرضِ قلبه، أو ألقاهُ فيه مع كونه مشحوناً برذائلِ الأخلاقِ منهمِكاً في خَسائسِ الشهواتِ واللذّاتِ، ولم يَسُقْ إليها ماءَ الطاعاتِ، ثمّ انتظرَ المغفرةَ كان انتظارُه حُمْقاً وغُروراً. وكما أنّ من بثَّ البذر في أرض طيّبةٍ لا ماءَ لها، وجلس ينتظرُ مياهَ الأمطارِ حيثُ لا تغلبُ الأمطارُ، وإنْ لم يمتنِعْ أيضاً، سمّي انتظارُه تمنّياً. كذلك من ألقى بَذْرَ الإيمانِ في أرضِ قلبِه، ولكنّه لم يَسُقْ إليه ماءَ الطاعاتِ، وانتظرَ المغفرةَ بلُطْفِه وفضلِه، كان انتظارُه تمنّياً.

فإذنْ، اسمُ الرجاءِ إنّما يَصدُقُ على انتظارِ محبوبٍ تمهّدتْ جميعُ أسبابِه الداخلةِ تحتَ اختيارِ العبدِ، ولم يبقَ إلّا ما ليسَ يدخلُ تحتَ اختيارِه، وهو فضلُ الله تعالىٰ بصَرْفِ القواطعِ والمفسداتِ. فالأحاديثُ الوارِدةُ في الترغيبِ على الرجاءِ وفي سعةِ عفو الله وجزيلِ رحمتِهِ ووفورِ مَغْفِرتِه، إنّما هي مخصوصةٌ بمن يرجو الرحمةَ والغفرانَ بالعملِ الخالص المعَدِّ لحصولِها، وتركِ الانهماكِ في المعاصي المُفوّتِ لهذا الاستعدادِ. فاحذرْ أن يغرّكَ الشيطانُ ويُثبِّطَكَ عن العملِ ويُقنِّعَكَ بمحضِ الرجاءِ والأملِ، وانظرْ إلىٰ حالِ الأنبياءِ والأولياءِ واجتهادِهم في الطاعاتِ وصَرْفِهم العُمْرَ في العباداتِ ليلاً ونهاراً، أما كانوا يرجونَ عفوَالله ورحمتَهُ؟ بلى واللهِ! إنّهم كانوا أعلمَ بسعةِ رحمةِ الله وأرجى لها منكَ ومِنْ كلّ أحدٍ، ولكنْ علموا أنّ رجاءَ الرحمةِ من دون العملِ غُرورٌ محْضٌ وسَفَهٌ بحْتٌ، فصرفوا في العباداتِ أعمارَهم وقَصروا على الطاعاتِ ليلَهم ونهارَهم.

ونحنُ نشيرُ أوّلاً إلىٰ بعضِ ما وردَ في الرجاءِ من الآياتِ والأخبارِ، ثمّ نُوردُ نُبَذاً ممّا يَدلُّ علىٰ أنّه لا معنى للرجاءِ بدون العملِ، ليُعلَمَ أنّ إطلاقَ الأوّلِ محمولٌ على الثاني.

أمّا الأوّل: ـ أعني الظواهرُ الواردةُ في الرجاءِ ـ فأكثرُ من أنْ تُحصى، وهي علىٰ أقسام:

الأوّلُ: ما وردَ في النهي عن القُنوطِ واليأسِ من رحمةِ اللهِ كقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَـا عِـبَادِيَ

﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[١]، وقول علي عليه السلام لرجلٍ أخرجَهُ الخوفُ إلى القنوطِ لكثْرةِ ذنوبه: «أيا هذا! يَأْسُك من رحمةِ اللهِ أعظمُ من ذُنوبِك»[٢].

الثاني: ما وردَ في الترغيبِ على خُصوصِ الرجاءِ وكونِه سببَ النجاةِ، كما في قوله صلى الله عليه وآله:

قال الله تعالىٰ: لا يتّكِلِ العاملونَ على أعمالِهم التي يَعملونَها لثوابي، فإنّهم لو اجتهدوا وأتعَبوا أنفسَهُمْ أعمارَهم في عبادتي، كانوا مقصّرينَ غيرَ بالغينَ في عبادتِهم كُنْهَ عبادتي، فيما يطلبونَ عندي من كرامتي، والنعيمِ في جنّاتي، ورفيعِ الدرجاتِ العُلى في جِواري. ولكن برحمتي فلْيثِقُوا، وإلى حُسنِ الظنِّ بي فَلْيَطْمَئنّوا، وفضلي فلْيَرجُوا، فإنّ رحمتي عند ذلك تُدرِكُهُم، ومَنّي يُبلّغُهم رضواني، ومغفرتي تُلبِسُهم عفوي، فإنّي أنا اللهُ الرحمنُ الرحيمُ وبذلكَ تَسَمّيتُ[٣].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال:

وجَدْنا في كتابِ عليّ عليه السلام أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال ـ وهو على مِنْبَرِهِ ـ: والذي لا إلهَ إلّا هوَ، ما أُعطي مؤمنٌ قطُّ خيرَ الدنيا والآخرة إلّا بحُسْنِ ظنّهِ باللهِ ورجائِه لهُ، وحُسنِ خُلُقِه، والكفِّ عن اغتيابِ المؤمنينَ. والذي لا إلهَ إلّا هو، لا يُعذِّبُ اللهُ مؤمِناً بعد التوبةِ والاستغفارِ إلّا بسوءِ ظنّهِ بالله وتقصيرِه من رجائه، وسوءِ خُلُقِه واغتيابِه للمؤمنينَ. والذي لا إلهَ إلّا هو، لا يَحْسُنُ ظنُّ عبدٍ مؤمنٍ بالله إلّا كانَ اللهُ عندَ ظنِّ عبدِهِ المؤمنِ؛ لأنّ اللهَ كريمٌ بيدهِ الخيراتُ، يستحي أنْ يكونَ عبدُه المؤمنُ قد أحسنَ به الظنَّ ثمّ يُخْلِفُ ظنَّه ورجاءَه، فأحسِنوا بالله الظنَّ وارغبوا إليه[٤].

الثالثُ: ما وردَ في استغفارِ الملائكةِ والأنبياءِ للمؤمنينَ كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ

---

١. الزمر (٣٩): ٥٣.
٢. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٤٥.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٧١، باب حُسن الظنّ بالله عزّوجلّ، ح ١.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٧١ ـ ٧٢، باب حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ، ح ٢.

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[١].

وقوله ﷺ:

حياتي خيرٌ لكم، وموتي خيرٌ لكم، أمّا حياتي فأسنُّ لكم السُنَنَ وأُشرّعُ لكم الشرائعَ، وأمّا موتي فإنّ أعمالَكم تُعرضُ عليّ، فما رأيتُ منها حَسَناً حمدتُ الله عليه، وما رأيتُ منها سيّئاً استغفرتُ اللهَ لكم[٢].

الرابعُ: ما وردَ في تأجيلِ المذنبِ إلىٰ أنْ يستغفرَ، كقول الباقر عليه السلام: «إنّ العبدَ إذا أذنبَ أُجّلَ من غُدوةٍ إلى الليلِ، فإنِ استغفرَ لم يُكتَبْ عليه»[٣]. وقول الصادق عليه السلام:

من عَمِلَ سيّئةً أُجّلَ فيها سبْعَ ساعاتٍ من النهارِ، فإنْ قال: أستغفرُ اللهَ الذي لا إلهَ إلّا هو الحيُّ القيّومُ وأتوبُ إليه، ثلاثَ مرّاتٍ، لم تُكتَبْ عليه[٤].

الخامسُ: ما وردَ في شفاعةِ النبيّ ﷺ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾[٥].

وقوله ﷺ: «ادّخرتُ شفاعتي لأهلِ الكبائرِ من أُمّتي»[٦]، وكذا ما وردَ في شفاعةِ الأئمّةِ والمؤمنين[٧].

السادسُ: ما وردَ من البشاراتِ للشيعةِ ومن عدم خلودِهم في النارِ[٨]، ومِنْ أنّ حبَّ النبيّ ﷺ والعترةِ الطاهرةِ يُنْجيهم مِنَ العذابِ[٩].

السابعُ: ما دلّ على أنّ النارَ إنّما أعدّها الله لأعدائِه من الكافرينَ، وإنّما يخوّفُ بها أولياءَه،

---

١. الشورى (٤٢): ٥.
٢. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٤٨، باب دواء الرجاء.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٤٣٧، باب الاستغفار من الذنب، ح ١.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٤٣٧، باب الاستغفار من الذنب، ح ٢.
٥. الضحى (٩٣): ٥.
٦. سنن ابن ماجة، ج ٢، ص ١٤٤١، ح ٤٣١٠.
٧. راجع: بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٩، باب الشفاعة.
٨. راجع: بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٥١، باب من يخلد في النار.
٩. راجع: بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٩٨، باب الصفح عن الشيعة.

كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾[١]، وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[٢]، وقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَا إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[٣].

الثامنُ: ما وردَ في سَعَةِ عفوِ الله ومغفرتِه ووفُورِ رأفتِه ورحمَتِه، كقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[٤]. وقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده، الله أرحمُ بِعبدهِ المؤمنِ من الوالدةِ الشفيقةِ بولدِها»[٥] وما وردَ من «أنّه سبحانَه ليغفرَنّ يومَ القيامةِ مغفرةً ما خطرتْ قطُّ علىٰ قَلْبِ أحدٍ، حتّىٰ أنّ إبليسَ يَتطاولُ لها رجاءَ أنْ تُصيبَهُ»[٦] والآياتُ والأخبارُ الواردةُ في هذا المعنىٰ متجاوِزةٌ عن حَدِّ التواتُرِ.

التاسعُ: ما دلّ علىٰ أنّ ابتلاءَ المؤمنِ في الدنيا بالبلايا والأمراض كفّارةٌ لذنوبه، كقوله ﷺ: «والحمّى من فيحِ جهنّمَ، وهي حظّ المؤمنِ من النار»[٧].

العاشرُ: ما ورَدَ[٨] في أنّ الإيمانَ لا يضُرُّ معه عملٌ، كما أنّ الكُفْرَ لا ينفعُ معه عملٌ.

الحادي عشرَ: ما وردَ في الترغيب على حسنِ الظنّ بالله، كقوله ﷺ: «لا يموتنّ أحدُكم إلّا وهو يحسنُ الظنّ بالله»[٩] وقوله ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، فلْيظُنَّ بي ما شاء»[١٠]، وقول الرضا عليه السلام: «أحْسنِ الظنَّ بالله، فإنّ الله عزّوجلّ يقول: أنا عندَ ظنِّ عبدي لي، إنْ خيراً فخيرٌ وإنْ شرّاً فشرٌّ»[١١].

١. الزمر (٣٩): ١٦.
٢. آل عمران (٣): ١٣١.
٣. الليل (٩٢): ١٥ ـ ١٦.
٤. الرعد (١٣): ٦.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٢٦٤.
٦. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٢٦٤.
٧. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٤٨.
٨. الكافي، ج ٢، ص ٦٤٣ ـ ٦٤٤، باب أنّ الإيمان لا يضرّ معه سيّئة، ح ٤.
٩. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.
١٠. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.
١١. الكافي، ج ٢، ص ٧٢، باب حسن الظنّ بالله، ح ٣.

الثاني عشرَ: ما دلّ على أنّ الكفّارَ أو النُصّابَ يكونون يومَ القيامةِ فِداءً للمؤمنينَ أو الشيعةِ، كما روي أنه ﷺ قال:

أُمّتي أُمّةٌ مرحومةٌ لا عذابَ عليها في الآخرةِ، وعُجِّلَ عِقابُها في الدنيا بالزلازلِ والفتنِ، فإذا كان يومُ القيامةِ دُفعَ إلىٰ كلّ رجلٍ مِنْ أُمّتي رجلٌ من أهلِ الكتابِ، فقيلَ: هذا فداؤك من النارِ[١].

وأمّا الثاني: ـ أعني ما يدلّ علىٰ أنّ رجاءَ المغفرةِ والعفوِ والرحمةِ إنّما هو بعدَ العملِ ـ فأكثرُ من أنْ يُحصى، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ أُولَـٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللهِ﴾[٢]. وقولِ النبيِّ ﷺ: «الكَيِّسُ من دانَ نفسَه وعمِلَ لما بعدَ الموتِ، والأحمقُ من أتْبَعَ نفسَه هواها وتمنّى على الله الجنّة»[٣]. وما روي عن الصادق عليه السلام أنّه قيل له:

قومٌ يعملونَ بالمعاصي ويقولونَ: نرجو، فلا يزالون كذلك حتّىٰ يأتيَهم الموتُ، فقال: «هؤلاءِ قومٌ يترجّحونَ في الأماني، كذبوا ليسوا براجينَ، إنّ مَنْ رجا شيئاً طلبَهُ، ومَنْ خافَ من شيءٍ هربَ منه»[٤].

وعن عليّ بن محمّد، قال:

قلتُ له عليه السلام: إنّ قوماً من مواليك يلمّون بالمعاصي ويقولون نرجو، فقال: «كذبوا، ليسوا لنا بموالٍ، أُولئك قومٌ ترجّحتْ بهم الأماني، من رجا شيئاً عمِلَ له، ومن خاف شيئاً هربَ منه[٥].

وعنه قال: «لا يكونُ المؤمنُ مؤمِناً حتّىٰ يكونَ خائفاً راجياً، ولا يكونُ خائفاً راجياً حتّىٰ يكونَ عاملاً لما يخافُ ويرجو»[٦].

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.
٢. البقرة (٢): ٢١٨.
٣. كنز العمّال، ج ٣، ص ٣٧٩، ح ٧٠٣٦.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٦٨، باب الخوف والرجاء، ح ٥.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٦٨ ـ ٦٩، باب الخوف والرجاء، ح ٦.
٦. الكافي، ج ٢، ص ٧١، باب الخوف والرجاء، ح ١١.

البحث التاسع: مواقعُ الخوفِ والرجاءِ وترجيحُ أحدِهما على الآخر

قد عَرَفْتَ أنّ الخوفَ والرجاءَ محمودانِ، لكَونِهما باعثينِ على العملِ، ودواءين تُداوَى بهما أمراضُ القلوبِ، ففضلُ كلٍّ منهما إنّما هو بِحسبِ ما يترَتّبُ عليه من فائدةِ العملِ ومعالجةِ المرضِ.

وهذا يختلفُ باختلافِ الأشخاصِ: فمَنْ كانَ تأثيرُ الخوفِ في بعثهِ على العمل أكثرَ من تأثيرِ الرجاءِ فيه، فالخوفُ له أصلَحُ من الرجاءِ. ومَنْ كان بالعكسِ فبالعكسِ. ومن غلبَ عليه مرضُ الأمنِ من مكرِ الله والاغترارِ به، فالخوفُ له أصلحُ. ومن غَلَبَ عليه اليأسُ والقنوطُ، فالرجاءُ له أصلحُ. ومن انهمَكَ في المعاصي، فالخوفُ له أصلحُ. ومن تَرَكَ ظاهرَ الإثمِ وباطنَهُ وَخفيَّه وجَليّه، فالأصلحُ له أن يعتدِلَ خوفُه ورجاؤه.

والوجهُ في ذلك أنّ كلّ ما يُرادُ به المقصودُ، ففضلُه إنّما يظهرُ بالإضافةِ إلىٰ مقصودهِ لا إلىٰ نفسِه، فلو فُرِضَ تساويهما في البعثِ علىٰ العملِ ولم يغلِبْ شيءٌ من المذكوراتِ، فالأصلحُ اعتدالُهما، كما قال أميرُ المؤمنين عليه السلام لبعض ولده: «يا بنيّ! خَفِ اللهَ خوفاً ترى أنّك إن أتيتَهُ بحسناتِ أهلِ الأرضِ لم يَتقبَّلْها منك، وارجُ اللهَ رجاءً كأنّكَ لو أتيتَهُ بسيّئاتِ أهلِ الأرضِ غفرها لك»[١]. وقال الباقر عليه السلام: «ليسَ مِنْ عبدٍ مؤمنٍ إلّا وفي قلبه نوران: نورُ خِيفَةٍ، ونورُ رجاءٍ، لو وُزِنَ هذا لم يَزِدْ علىٰ هذا»[٢]، وقد جمعَ الله سبحانَه بينهما في وصفِ مَن أثنى عليهم فقال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[٣] وقال: ﴿يَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾[٤].

وقد ظهرَ ممّا ذُكِرَ: أنّ الرجاءَ أصلَحُ وأفضلُ في موضعين:

أحدِهما: في حقِّ مَنْ تفترُ نفسُه عن فضائلِ الأعمالِ ويقتصِرُ على الفرائضِ، وكانَ الرجاءُ باعثاً له على التشميرِ والنشاطِ للطاعاتِ، ومثلهُ ينبغي أنْ يُرَجِّيَ نفسَه نِعمَ الله تعالىٰ وما

---

١. الكافي، ج٢، ص ٦٧، باب الخوف والرجاء، ح ١.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٦٧، باب الخوف والرجاء، ح ١ وص ٧١، باب الخوف والرجاء، ح ١٣.
٣. السجدة (٣٢): ١٧.
٤. الأنبياء (٢١): ٩٠.

وعدَالله به الصالحينَ في العلّيين، حتّى ينبعثَ من رجائِه نشاطُ العُبّادِ.

وثانيهما: في حقّ العاصي المنهَمِكِ إذا خطرَ له خاطرُ التوبةِ، فيُقَنِّطُهُ الشيطانُ من رحمةِ الله، ويقولُ له: كيفَ تُقبلُ التوبةُ من مثلكَ؟ فعندَ هذا يجبُ عليه أنْ يقمَع قُنوطَهُ بالرجاءِ ويتذكّرَ ما وردَ فيه، كقوله تعالى: ﴿لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾[١]، وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ﴾[٢]، ويتوبُ ويتوقّعُ المغفرةَ مع التوبةِ لا بدونها، إذ لو توقّعَ المغفرةَ مع الإصرارِ كان مغروراً. والرجاءُ الأوّلُ يَقمَعُ الفتورَ المانعَ من النشاطِ والتشميرِ، والثاني يقطَعُ القُنوطَ المانعَ من التوبةِ.

البحث العاشر: العملُ على الرجاءِ أعلىٰ منه على الخوفِ

العملُ على الرجاءِ أعلىٰ منه على الخوفِ، لأنّ أقربَ العبادِ أحبُّهم إليهِ، والحبَّ يُغلَبُ بالرجاءِ. واعتبِر ذلك بملِكين يُخدَمُ أحدُهما خوفاً من عقابِه والآخرُ رجاءً لعطائِه، ولذلك عيّرَ اللهُ أقواماً يظنّون السوءَ بالله، قال: ﴿وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾[٣]، وقال: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً﴾[٤]. ووردَ في الرجاء:

أنّ اللهَ تعالىٰ أوحى إلىٰ داودَ: أحِبَّني، وأحِبَّ من يُحبُّني، وحبِّبني إلىٰ خلقي. فقال: يا ربِّ! كيفَ أُحبِّبُكَ إلىٰ خلقِكَ؟ قال: اذكرني بالحَسنِ الجميلِ، واذكرْ آلائي وإحساني، وذكّرْهم ذلك، فإنّهم لا يعرفونَ منّي إلّا الجميلَ[٥].

هذا مع أنّ الرجاءَ أفضلُ منَ الخوفِ للعبدِ بالنظرِ إلىٰ مطلعِهما، إذِ الرجاءُ مستقى مِن بحرِ الرحمةِ والخوفُ مستقى مِن بحرِ الغضبِ، ومنْ لاحظَ مِنْ صفاتِ اللهِ ما يقتضي اللُّطْفَ والرحمةَ كانت المحبّةُ عليه أغلبَ، وليس وراءَ المحبّةِ مقامٌ. وأمّا الخوفُ فمستندُه الالتفاتُ إلىٰ الصفاتِ التي تقتَضي الغضبَ، فلا تمازجُهُ المحبّةُ كممازَجَتِها للرجاءِ.

---

١. الزمر (٣٩): ٥٣.

٢. طه (٢٠): ٨٢.

٣. فصّلت (٤١): ٢٣.

٤. الفتح (٤٨): ١٢.

٥. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٢٥٤.

البحث الحادي عشر: مداواةُ الناس بالخوفِ أو الرجاءِ على اختلافِ أمراضِهم

قد عرفتَ أنّ المحتاجَ إلىٰ تحصيل دواءِ الرجاءِ مَنْ غلبَ عليه اليأسُ فتَرَكَ العبادةَ، أو غَلَبَ عليه الخوفُ فأسرفَ فيها حتّى أضرّ بنفسِه وأهلِه. وأمّا المنهمكونَ في طغيانِ الذنوبِ والمغرورونَ بما هم فيه من الفسادِ والخوفِ ـ كأكثرِ أبناءِ زمانِنا ـ فأدويةُ الرجاءِ بالنسبة إليهم سُمومٌ مُهلِكَةٌ، إذ لا يزدادُ سماعُهم لها إلّا تمادياً في طُغيانِهم وفساداً في فسادِهم وعصيانِهم، فواعظُ الخلقِ ينبغي أنْ يَعرِفَ أمراضَهُم وينظُرَ إلىٰ مواقعِ عِلَلِهم، ويُعالِجَ كُلَّ علّةٍ بما يضادُّها لا بما يَزيدُها، ففي مثلِ هذا الزمانِ ينبغي ألّا يَذكرَ لهم بواعِثَ الرجاءِ، بل يبالغُ في ذكرِ أسبابِ الخوفِ؛ لئلّا يُهلِكَهم ويُرْدِيَهم بالكلّيّةِ، ولا يقصِدَ بموعظتِه استمالةَ القلوبِ وتَوَقُّعَ الثناءِ من الناسِ، فيَنتقِلُ إلى الترغيبِ على الرجاءِ؛ لكونهِ أخَفَّ على القلوبِ وألذَّ عندَ النفوسِ، فيَهلِكُ ويُهلِكُهُم ويَضِلُّ ويُضِلُّهُمْ.

النوع الثاني: صِغَر النفسِ

وهو مَلَكَةُ العجزِ عن تحمُّلِ الوارداتِ، وهو مِنْ نتائجِ الجُبنِ، ومِنْ خبائثِ الصفاتِ. وتلزمُهُ الذلّةُ والمهانةُ، وعدمُ الاقتحامِ في معالي الأُمورِ، والمسامحةِ في النهي عن المنكرِ والأمرِ بالمعروفِ، والاضطرابِ بعُروضِ أدنى شيءٍ من البلايا والمخاوفِ. وقد وردَ في الأخبارِ أنّ المؤمنَ بريءٌ عن ذلّةِ النفسِ، قال الصادق عليه السلام:

إنّ الله عزّ وجلّ فوّضَ إلىٰ المؤمنِ أُمورَه كلَّها ولم يفوّضْ إليه أن يكونَ ذليلاً، أما تسمعُ اللهَ تعالىٰ يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وقد وردتْ بهذا المضمونِ أخبارٌ أُخَرُ. وعلاجُه ما تقدّمَ في معالجةِ الجبنِ؛ وضدّه كِبْرُ النفسِ.

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٧٢، باب فضل الإيمان، ح ٤٢، والآية في سورة المنافقون (٦٣): ٨.

وصلٌ
ضدّ صِغَر النفس: كِبَرُ النفسِ وصلابتُها

وقد عرفتَ أنّه مَلَكَةُ التحمُّلِ لِما يردُ عليه كائناً ما كان. وقد دلّتِ الأخبارُ على أنّ المؤمنَ ذو صَلابةٍ وعزّةٍ ومَهابةٍ، وكلُّ ذلك فرعُ كِبْرِ النفسِ. قال الباقر عليه السلام: «المـؤمنُ أصـلبُ مـن الجبلِ»[1]، وقال عليه السلام: «إنّ الله تعالىٰ أعطى المؤمنَ ثلاثَ خصالٍ: العزَّ في الدنـيا والآخـرةِ، والفـلحَ في الدنـيا والآخـرةِ، والمـهابةَ في صـدورِ الظـالمين»[2]. وصـاحِبُ هـذه المـلكةِ لا يبالي بالكرامةِ والهوانِ، ويتساوى عندهُ الفقرُ واليسـارُ والغِـنى والإعسـارُ، بـل الصـحّةُ والمرضُ والمدحُ والذمُّ، ولا يتأثّرُ بِتقلُّبِ الأُمورِ والأحـوالِ. وهـي مَـلَكَةٌ شريـفةٌ ليستْ شريعةً لكُلِّ واردٍ، ولا يصلُ إليها إلّا واحدٌ بعدَ واحدٍ، وطريقُ تحصيلها ـ بعد تذكّرِ شرافتِها ـ أن يتكلّفَ في المواظبةِ علىٰ آثارِها والاجتنابَ عمّا ينافيها، حتّىٰ تحصُلَ بالتدريجِ.

ثمّ اعلم أنّ الثَباتَ أخصُّ من كِـبَرِ النفسِ، وهو مَلَكَةُ التحمُّلِ على الخوضِ في الأهوالِ وقوّةِ المقاومةِ مع الشدائدِ والآلام، بحيثُ لا يعتريه الانكسارُ، وإنْ زادتْ وكـثُرتْ. وضـدّهُ الاضطرابُ في الأهوالِ والشدائدِ. ومن جملةِ الثباتِ الثباتُ في الإيمانِ، وهو اطمئنانُ النفسِ في عقائِدِها، بحيثُ لا تتزلزلُ فيها بالشُبهاتِ. قال الله تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ

---

1. الكافي، ج ٢، ص ٢٤١، باب المؤمن وعلاماته وصفاته، ح ٣٧.
2. الخصال، ص ١٥٢، باب الثلاثة، ح ١٨٧.

ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾[١]. وهذا الاطمئنانُ من شرائطِ كَسْبِ الكمالِ وفضائلِ الأعمالِ، إذ ما لَمْ تَستقِرَّ النفسُ على معتقداتِها في المبدأ والمعادِ لم يحصلْ لها العزمُ البالغُ علىٰ تحصيلِ ما تتوقَّفُ فائدتُهُ عليها، فمَنْ ليس له هذا الثباتُ لا تجدُهُ ثابِتاً ومواظِباً علىٰ شيءٍ من الأعمالِ الفاضلةِ، بل هو: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾[٢].

والمتّصِفُ به مواظِبٌ لها دائِماً من غيرِ فُتورٍ، وعدمُ هذا الثباتِ لعدمِ البصيرةِ الباطنةِ أو لضَعفٍ في النفْسِ. فوجودُه يحصلُ من المعرفةِ وقوّةِ النفْسِ، فهو من فضائلِ العاقلةِ وقوّةِ الغضبِ، وعدمُه من رذائلِ إحداهما أو كليهما.

---

١. إبراهيم (١٤): ٢٧.

٢. الأنعام (٦): ٧١.

النوع الثالث: دناءةُ الهِمّة

وهو قُصور النفْسِ عن طلب مَعالي الأُمورِ وقَناعتُها بأدانِيها، وهو من نتائجِ ضَعْفِ النفْسِ وصِغَرِها، وضِدُّهُ «علوُّ الهمّةِ»، وهو مَلَكَةُ السعي في تحصيلِ السعادةِ والكمالِ وطلَبِ مَعالي الأُمورِ، من دونِ ملاحَظَةِ منافعِ الدنيا ومضارِّها، حتّىٰ لا يَعْتَرِيَه السُرورُ بالوجدانِ ولا الحُزنُ بالفقدانِ، بل لا يُبالي في طريقِ الطَلَبِ بالموتِ والقتلِ وأمثالِهما. وصاحبُ هذه المَلَكَةِ هو المؤمنُ الحقيقيُّ المُشتاقُ للموتِ، والموتُ تحفةٌ له، وأعظمُ سرورٍ يَصلُ إليه. كما ورد في الأخبارِ، ويقول الشاعر:

اين جان عاريت كه به حافظ سپرده دوست روزى رخش ببينم وتسليم وى كنم

وهذه المَلَكَةُ من نتائج كِبَرِ النفس وشَجاعَتِها وهي أعظمُ الفضائلِ النفسانيّةِ؛ إذ كلُّ مَنْ وَصَلَ إلى المراتبِ العظيمةِ والأُمورِ العاليةِ فإنّما وَصَلَ إليها لأجلِها؛ إذ صاحبُها لا يَرضى بالمراتِبِ الدَنِيّةِ، ويُشَمِّرُ لتحصيلِ المراتبِ العاليةِ، والأُمورِ المتعالِيَةِ، وفي جوهرِ الإنسانِ وجِبِلَّتِه أنْ يَصِلَ إلىٰ كلِّ ما يَجْتَهِدُ في طلبه؛ ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1]. مَنْ طَلَبَ الشيءَ وجَدَّ وَجَدَ.

ومن أفراد عُلوّ الهمّةِ: الشَهامةُ، وهي الحرصُ على اقتناءِ عظائمِ الأُمورِ توقّعاً لجميلِ الذكرِ علىٰ مَرِّ الدُهورِ.

---

١. العنكبوت (٢٩): ٦٩.

النوع الرابع: عدمُ الغَيْرةِ والحميّة

وهو الإهمالُ في محافظةِ ما يَلزَمُ محافظتُه من الدين والعِرْضِ والأولادِ والأموالِ. وهو من نتائجِ صِغَرِ النفسِ ومنَ المهلكاتِ العظيمةِ، وربّما يؤدّي إلى الدياثةِ والقِيادَةِ. قال ﷺ:

إذا أُغِيرَ الرجلُ في أهلِه أو بعضِ مناكحِهِ من مملوكته فلم يَغَرْ ولم يُغَيِّر، بعثَ اللهُ إليه طائراً يقال له «القفندر» حتّىٰ يسقطَ علىٰ عارِضَةِ بابهِ، ثمّ يُمهلَهُ أربعين يوماً، ثمّ يهتفَ به: «إنّ اللهَ غيورٌ يحبُّ كلَّ غيورٍ». فإنْ هو غارَ وغيّرَ وأنكَرَ ذلك وأكبرَهُ، وإلّا طارَ حتّى يَسقُطَ علىٰ رأسِهِ فيخفِقَ بجناحيه علىٰ عينَيه ثمّ يَطيرَ عنه، فينزِعُ اللهُ منه بعد ذلك رُوحَ الإيمانِ، وتُسمّيه الملائكةُ: الديّوثَ[1].

وقال ﷺ: «كان إبراهيم غَيوراً وأنا أغيرُ منه، وجَدَعَ اللهُ أنفَ من لا يَغارُ على المؤمنينَ والمسلمين»[2]. وقال أميرُ المؤمنينَ عليه السلام: «يا أهلَ العراقِ! نُبِّئْتُ أنّ نساءَكم يدافِعْنَ الرجالَ في الطريقِ، أما تَستَحْيون؟»[3]. و: «أما تَسْتَحْيونَ ولا تَغارُونَ، نساؤكم يَخْرُجْنَ إلى الأسواق ويزاحِمْنَ العُلُوجَ؟»[4].

---

١. الكافي، ج ٥، ص ٥٣٦، باب الغيرة، ح ٣.
٢. الكافي، ج ٥، ص ٥٣٦، باب الغيرة، ح ٤.
٣. الكافي، ج ٥، ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧، باب الغيرة، ح ٦.
٤. الكافي، ج ٥، ص ٥٣٧، باب الغيرة، ذيل الحديث ٦.

وصلٌ

ضدّ عدم الغَيْرة: الغَيْرَةُ والحميّة

وهي السعيُ في محافظةِ من تَلزمُ محافظتُه، وهو من نتائجِ الشّجاعةِ وكِبَرِ النفسِ وقُوَّتِها، وهي شرائفُ الملكاتِ، وبها تَتحقّقُ الرجوليّةُ والفَحْلِيّةُ، والفاقِدُ لها غيرُ معدودٍ من الرجالِ. قال رسول الله ﷺ: «إنَّ سَعْداً لَغيورٌ، وأنا أغيرُ من سَعْدٍ، واللهُ أغيرُ منّي»[1]. وقال ﷺ: «إنّ اللهَ لَغيورٌ، ولأجلِ غَيْرَتِه حَرّمَ الفواحِشَ»[2]. وقال ﷺ: «إنّ الله يَغارُ، والمؤمنُ يَغارُ، وغَيْرَةُ الله أنْ يأتيَ الرجلُ المؤمنُ ما حرّم الله عليه»[3]. وقال الصادق عليه السلام: «إنّ اللهَ تعالىٰ غَيُورٌ ويحبُّ الغَيْرَةَ، ولغَيْرَتِهِ حرّم الفواحِشَ ظاهرَها وباطِنَها»[4].

واعلم أنّ مقتضى الغَيْرَةِ والحميّةِ في الدينِ أنْ يَجتهدَ في حِفْظِهِ عن بِدَعِ المبتدِعينَ، وانتحالِ المبطِلينَ، وقِصاصِ المرتَدِّينَ، وإهانةِ من يستخفُّ بهِ من المخالِفينَ، وردِّ شُبَهِ الجاحِدينَ، ويَسعى في ترويجِهِ ونشْرِ أحكامِهِ، ويبالغُ في تَبْيِينِ حَلالِه وحَرامِه، ولا يَتسامَحُ في الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ. ومقتضى الغَيْرَةِ على الحريمِ ألّا يتغافَلَ عن مبادِئِ الأُمورِ التي تُخْشَى غَوائِلُها، فيحفَظُهُنَّ عن أجانِبِ الرجالِ، وَيَمْنَعُهُنَّ من الدُخولِ في الأسواقِ. قال رسولُ

---

١. صحيح البخاري، ج ٥، ص ٢٠٠٢، ح ٤٩٢١.

٢. صحيح البخاري، ج ٥، ص ٢٠٠٢، ح ٤٩٢٢.

٣. صحيح مسلم، ج ٤، ص ٢١١٤، باب غيرة الله تعالى، ح ٣٦.

٤. الكافي، ج ٥، ص ٥٣٥ـ٥٣٦، باب الغيرة، ح ١.

الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام: «أيُّ شيءٍ خيرٌ للمرأةِ؟» قالتْ: أنْ لا ترى رجلاً ولا يراها رجلٌ. فضمَّها إليه، وقال: «ذرّيّةٌ بعضُها من بعضٍ»[١].

١. بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٨٤، باب سيرها ومكارم أخلاقها، ح ٧.

النوع الخامس: العَجَلَةُ

وهي المعنى الراتِبُ في القلبِ، الباعثُ على الإقدامِ على الأُمـورِ بأوّلِ خـاطِرٍ، مـن دونِ تَوقُّفٍ واستبطاءٍ في اتّباعِها والعملِ بها، وقدْ عرفتَ أنّه مِنْ لوازمِ ضَعفِ النـفسِ وصِـغَرِها، وهو من الأبوابِ العظيمةِ للشيطانِ، قد أهلَكَ به كثيراً من الناسِ. قـال رسـول اللـه ﷺ: «العَجَلةُ من الشيطانِ، والتأنّي من الله»[1]. وقد خاطبَ اللهُ تعالىٰ نبيَّهُ ﷺ بقوله: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[2].

فمَنْ يَستَعجِلْ في أمرٍ يُلْقِ الشيطانُ شرَّهُ عليه من حيثُ لا يَدري. والتجربَةُ شاهدةٌ بأنَّ كلَّ أمرٍ يَصدُرُ عن العَجَلَةِ يوجبُ الندامةَ والخسرانَ، وكلُّ ما يَصدُرُ عن التأنّي والتثبُّتِ لا تعرِضُ بعدَه ندامةٌ، بل يكونُ مرضيّاً. وبأنَّ كلَّ خفيفٍ عجولٍ ساقطٌ عن العيونِ، ولا وَقْـعَ له عـند القلوبِ. والمتأمِّلُ في الأُمورِ يَعلمُ أنَّ العجلةَ هي السببُ الأعظمُ لتبديلِ نعيمِ الآخرةِ ومُـلْكِ الأبدِ بخسائسِ الدنيا ومزخرفاتِها.

---

١. كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ج ١، ص ٣٥٠، ح ٩٤٣.
٢. طه (٢٠): ١١٤.

وصــل

ضدّ العجلة: الأناةُ والتوقّفُ والوَقارُ والسكينَةُ

ضِدُّ العجلَةِ «الأناةُ»، وهو المعنى الراتبُ في القلبِ، الباعثُ عـلى الاحـتياطِ في الأُمـورِ والنظرِ فيها، والتأنّي في اتّباعِها والعملِ بها.

ثمّ «التوقُّفُ» قريبٌ مِنَ التأنّي والأناةِ، والفرقُ بـينهما: أنّ التـوقُّفَ هـو السكـونُ قـبل الدخولِ في الأُمورِ حتّىٰ يستبين له رُشْدُها، والتأنّي سُكونٌ وطمأنينَةٌ بعدَ الدخولِ فيها حتّىٰ يُؤدِّيَ لكلِّ جزءٍ منها حقَّه.

و«الوَقارُ» يتناولُ الأناةَ والتوقُّفَ كليهما، فهو طُـمَـأْنينةُ النفسِ وسكـونُها في الأقـوالِ والأفعالِ والحركاتِ قبل الدخولِ فيها وبعدَه. وهو من نتائجِ قوّةِ النفسِ وكِبْرِها. وما أقـلَّ الفضائل النفسانيّة التي يبلغَ مرتبتَه في الشرافَةِ، ولذا يُمدحُ به الأنبياءُ والأصـفياءُ، وورِدَ في الأخبارِ: «أنّ المؤمنَ متّصفٌ به ألبتّةَ»[1]. فينبغي لكلِّ مؤمنٍ أنْ يتكلّفَ آثارَهُ في الحـركاتِ والأفعالِ، حتّىٰ يصيرَ بالتدريج ملكَةً. وتَكَلّفُ الطمأنينةِ في الأفعالِ والحركاتِ قبل أنْ تصيرَ ملكَةً يختصّ باسم الوقارِ، وإذا صارتْ مَلَكَةً سمّيت «سَكينةً»، إذ هـي طـمأنينةُ البـاطنِ، والوَقارُ اطمِئنانُ الظاهرِ.

---

١. الكافي، ج ٨، ص ٣٩٧، رسالة أبي عبد الله عليه السلام إلىٰ جماعة الشيعة.

النوع السادس: سوءُ الظَنِّ بالخالِقِ والمخلُوقِ

وهو من نتائجِ الجُبْنِ وضَعفِ النفسِ، إذ كُلُّ جَبانٍ ضَعيفُ النفسِ تُذعِنُ نفسُهُ لِكُلِّ فِكْرٍ فاسدٍ يدخلُ في وَهْمِهِ وَيتْبَعُهُ، وقد يَتَرَتَّبُ عليه الخوفُ والغَمُّ، وهو من المَهلِكاتِ العظيمةِ، وقد قال الله سبحانه: ﴿ يَـا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾[٢]، وقال: ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾[٣].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ضَعْ أَمْرَ أخيكَ على أحسنِهِ حتّىٰ يأتيَكَ ما يَغْلِبُكَ منه، ولا تَظُنَّنَّ بكلمةٍ خَرَجَتْ من أخيكَ سوءاً وأنتَ تجدُ لها في الخيرِ محملاً»[٤]. ولا ريبَ في أنّ من حكمَ بِظَنِّهِ علىٰ غيرِه بالشرِّ، بعثه الشيطانُ علىٰ أن يَغْتابَه أو يتوانَى في تعظيمِه وإكرامِه، أو يُقَصِّرَ فيما يَلزمُهُ من القيام بحقوقِه، أو ينظرَ إليه بعَينِ الاحتقارِ ويرى نفسَه خيراً منه، وكلُّ ذلك من المُهلكاتِ. علىٰ أنّ سُوءَ الظنّ بالناسِ من لوازمِ خُبْثِ الباطنِ وقَذارتِهِ، كما أنّ حُسْنَ الظَنِّ من علائمِ سلامةِ القلبِ وطهارتِهِ، فكلُّ من يُسيءُ الظنَّ بالناس ويطلبُ عُيوبَهم وعَثَراتِهم فهو خَبيثُ النفسِ سقيمُ الفُؤادِ، وكلُّ مَنْ يُحسِنُ الظنَّ بهم ويَستُرُ عُيوبَهم فهو سليمُ

---

١. الحجرات (٤٩): ١٢.

٢. فصّلت (٤١): ٢٣.

٣. الفتح (٤٨): ١٢.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٢، باب التهمة وسوء الظنّ، ح ٣.

الصدرِ طيّبُ الباطنِ، فالمؤمنُ يُظهِرُ محاسِنَ أخيه، والمنافقُ يطلبُ مساوئَه، وكُلُّ إناءٍ يَتَرشَّحُ بما فيه.

والسرّ في خباثَةِ سوءِ الظنّ وتحريمِهِ وصدورِهِ عن خُبْثِ الضميرِ وإغواءِ الشيطانِ **أنّ أسرارَ القلوبِ** لا يعلَمُها إلّا علّامُ الغيوبِ، فليس لأحدٍ أن يَعْتَقِدَ في حَقِّ غيرِه سوءاً إلّا إذا انكشفَ له بِعِيانٍ لا يَقبَلُ التأويلَ، إذ حينئذٍ لا يمكنُهُ ألّا يعتقِدَ ما شاهدَهُ وعَلِمَهُ، وأمّا ما لَم يشاهدْهُ ولم يعلَمْهُ ولم يَسْمَعْهُ وإنّما وقعَ في قلْبِهِ، فالشيطانُ ألقاهُ إليهِ، فينْبَغي أن يُكذّبَهُ، لأنّه أفسقُ الفَسَقةِ، وقد قال الله: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ﴾[١]. فلا يجوزُ تصديقُ اللعينِ في نَبَئِهِ، وإنْ حُفَّ بقرائنِ الفسادِ، ما احتملَ التأويلَ والخلافَ، فلو رأيتَ عالماً في بيت أميرٍ ظالمٍ لا تظنّنّ أنّ الباعثَ طلبُ الحُطامِ المحرّمةِ، لاحتمالِ كونِ الباعثِ إغاثةَ مظلومٍ. ولو وجدْتَ رائحةَ الخمرِ في فمِ مسلمٍ فلا تَجْزِمَنَّ بشُربِ الخمرِ ووجوبِ الحدِّ، إذ يمكنُ أنّه تمضمَضَ بالخمرِ وَمَجّهُ وما شربَهُ، أو شربَهُ إكراهاً وقهراً. فلا يُستباحُ سوءُ الظنِّ إلّا بما يُستباحُ به المالُ، وهو صريحُ المشاهدةِ، أو قيامُ بيّنةٍ فاضِلَةٍ.

ولو أخبرَكَ عدْلٌ واحدٌ بسوءٍ من مسلمٍ، وجبَ عليكَ أنْ تتوقّفَ في إخبارِهِ من غيرِ تصديقٍ ولا تكذيبٍ، إذ لو كذَّبْتَهُ لكنتَ خائناً علىٰ هذا العدلِ، إذ ظننْتَ به الكَذِبَ، وذلك أيضاً من سوءِ الظنِّ، وكذا إن ظننْتَ به العداوَةَ أو الحسدَ أو المَقْتَ لتتطرّق لأجلِهِ التُّهْمَة فتردَّ شهادَته. ولو صدّقْتَهُ لكنتَ خائناً على المسلمِ المخبِرِ عنه، إذ ظنَنْتَ به السُوءَ، مع احتمالِ كونِ العَدْلِ المُخبِرِ ساهياً، أو التبسَ الأمرُ عليه بحيثُ لا يكونُ في إخبارِهِ بخلافِ الواقعِ آثماً وفاسِقاً.

وبالجملةِ، لا يَنبَغي أنْ تُحسِنَ الظنّ بالواحدِ وتُسيءَ بالآخَرِ، فتذكرَ المذكورَ حالَه علىٰ ما كان في السترِ والحجابِ، إذ لم يَنكشِفْ لك حالُه بأحدِ القواطِعِ، ولا بحجّةٍ شرعيّة يجبُ قَبولُها، وتحملُ خبرَ العدلِ علىٰ إمكان تطرُّقِ شُبْهةٍ مجوِّزَةٍ للإخبارِ، وإنْ لم يكنْ مطابقاً للواقعِ.

ثمّ المرادُ بسوءِ الظنِّ هو عَقْدُ القلبِ ومَيْلُ النفسِ دونَ مجرّد الخواطرِ وحديثِ النفسِ، بل الشكُّ أيضاً، إذ المَنْهِيُّ عنه في الآياتِ والأخبارِ إنّما هو أنْ يظُنَّ، والظنُّ هو الطرفُ الراجحُ

---

١. الحجرات (٤٩): ٦.

الموجِبُ لميلِ النَفْسِ إليه. والأماراتُ التي بها يمتازُ العقدُ عن مجرَّدِ الخواطرِ وحديثِ النفسِ، هو أن يتَغَيَّرَ القلبُ منه عمّا كانَ من الإلْفِ والمحبّةِ إلىٰ الكراهَةِ والنُفْرَةِ، والجوارحُ عمّا كانت عليه من الأفعالِ اللازِمَةِ في المعاشراتِ إلىٰ خِلافِها. والدليلُ علىٰ أنّ المرادَ هو ما ذُكِرَ، قوله ﷺ: «ثلاثٌ في المؤمن لا تُسْتَحْسَنُ وله مِنْهُنَّ مخرَجٌ، فمخرَجُهُ من سوءِ الظنِّ ألّا يحقّقَهُ»[١]، أي لا يُحقّقُ في نفسهِ بِعَقْدٍ ولا فعلٍ، لا في القلبِ ولا في الجوارحِ.

ثمّ لكونِ سُوءِ الظنّ من المهلكاتِ، منعَ الشرْعُ من التعرُّضِ للتُهْمَةِ، صيانةً لنفوسِ الناسِ عنه، فقال ﷺ: «اتّقُوا مواقِعَ التُهَمِ»[٢]. وقال أميرُالمؤمنين عليه السلام: «من عرّض نفسَه للتُهْمَةِ فلا يَلُومَنَّ من أسَاءَ به الظنَّ»[٣]. وروي: «أنّه ﷺ كان يُكلّم زوجتَهُ صَفِيّةَ بنتَ حي بنِ أخْطَبَ، فمرّ به رجلٌ من الأنصارِ، فدعاهُ رسولُ الله، وقال: يا فلانُ! هذه زوجتي صَفِيّةُ. فقال: يا رسول الله! أفنظُنّ بكَ إلّا خيراً؟ قال: إنّ الشيطانَ يجري من ابنِ آدمَ مجرى الدمِ، فخشيتُ أنْ يَدخُلَ عليكَ»[٤]. فانظرْ كيف أشْفَقَ رسولُ الله ﷺ على دينه فحَرَسَهُ، وكيف علّمَ الأُمّةَ طريقَ الاحترازِ عن التُهْمَةِ؛ حتّىٰ لا يَظُنَّ العالِمُ الورِعُ المعروفُ بالتقوى والدينِ أنّ الناسَ لا يَظُنّونَ به إلّا خيراً، إعجاباً منه بنفسِه، فإنّ ما لا جَزْمَ بتَحَقّقِهِ في حقّ سيّدِ الرسلِ وأشرفِهم، فكيفَ يُجزَمُ بتحقّقِهِ في حقِّ غيره، وإنْ بَلَغَ من العلم والورعِ ما بلَغَ.

والسرُّ في ذلك: أنّ أوْرَعَ الناسِ وأفضلَهُم لا ينظرُ الناسُ كلُّهم إليه بعينٍ واحدةٍ، بل إنْ نَظَرَ إليه بعضُهم بعَينِ الرضىٰ ينظُرُ إليه بعضٌ آخَرُ بعينِ السخْطِ.

وعينُ الرضىٰ عن كُلِّ عيبٍ كَليلَةٌ		ولكنَّ عينَ السُخْطِ تُبدي المساوِيا

فكُلّ عَدُوٍّ وحاسدٍ لا ينظرُ إلّا بعينِ السُخطِ، فيكتُمُ المحاسنَ ويطلُبُ المساوِئ، وكلُّ شِرّيرٍ لا يَظنُّ بالناس كلِّهم إلّا شرّاً، وكلُّ معيوبٍ مفْتَضِحٌ عند الناسِ يُحبُّ أنْ يَفتَضِحَ غيرُه وتَظْهرَ عيوبُه عندَهُم؛ لأنّ البليّة إذا عَمّتْ هانتْ، ولأنْ يشتغِلَ الناسُ به فلا تطولُ ألسنتُهم فيه.

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٥١، باب بيان تحريم الغيبة بالقلب.
٢. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ٣٦، باب بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب.
٣. الكافي، ج ٨، ص ١٥٢، ح ١٣٧.
٤. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ٣٦، باب بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب.

ثمّ طريقُ المعالَجةِ في إزالَتِه ـ بعد تَذكُّرِ ما تقدّمَ من فسادهِ وما يأتي من فضيلةِ ضِدِّهِ ـ: أنّه إذا خطَرَ لكَ خاطرُ سوءٍ علىٰ مسلمٍ لا تَتبَعْهُ ولا تُحقِّقْهُ ولا تُغيِّرْ قلبَكَ عمّا كان عليه بالنسبةِ إليه، من المراعاةِ والتَفقُّدِ والإكرامِ، والاعتمادِ بسبَبِهِ، بل ينبغي أن تزيدَ في مراعاتِه وإعظامِهِ وتدعوَ له بالخيرِ، فإنّ ذلك يُقنِّطُ الشيطانَ ويَدفعُهُ عنك، فلا يُلقي إليك خاطرَ السوءِ خوفاً من اشتغالِك بالدعاءِ وزيادةِ الإكرام. ومهما عرفتَ عثرةً من مسلمٍ فانصحْهُ في السرِّ ولا تبادِرْ إلىٰ اغتيابِهِ، وإذا وعَظْتَهُ فلا تَعِظْهُ وأنت مسرورٌ باطّلاعِكَ علىٰ عَيْبه، لتنظرَ إليه بعينِ الحقارَةِ، مع أنّه يَنظرُ إليكَ بعيْنِ التعظيمِ، بل ينبغي أنْ يكونَ قصدُك استخلاصَهُ من الإثمِ، وتكونَ محزوناً كما تحزَنُ على نفسِك إذا دخلَ عليكَ نُقصانٌ، وينبغي أن يكونَ تركُه ذلكَ العيبَ من غيرِ نصيحَتِكَ أحبَّ إليكَ منْ تركِهِ بنصيحَتِكَ، وإذا فعلتَ ذلك جمَعْتَ بينَ أجْرِ نصيحَتِهِ وأجرِ الحُزْنِ بمصيبتِهِ وأجرِ الإعانةِ علىٰ آخِرَته.

وصـل

ضدّ سوء الظنّ: حُسْنُ الظَنِّ

قد عرَفْتَ أنّ ضِدَّ سوءِ الظنِّ بالخالقِ والمخلُوقِ هو حُسْنُ الظنِّ بهما، ولمّا كانَ الأوّلُ من لوازمِ ضَعفِ النفسِ وصِغَرِها، فالثاني من نتائجِ قوّتِها وثَباتِها، وفوائدُهُ أكثرُ من أنْ تُحصى، وقد تقدّمتِ الظواهرُ الواردةُ في مَدحِه، فينبغي لكُلِّ مُؤمِنٍ ألّا ييْأسَ من رَوْحِ الله، ولا يَظُنَّ أنـّه لا يرْحمُه ويعذّبُهُ ألبتّةَ ولا يُخلّصَهُ من العقابِ، وأنّ مايَردُ عليه في الدنيا من البلايا والمصائبِ هو شرٌّ له وعقوبةٌ، بل ينبغي أنْ يعلمَ أنـّه أرحمُ وأرأفُ به من والديه، وإنّما خلقَهُ لأَجْلِ الفيضِ والجودِ، فلابدّ أنْ يرحمَهُ في دارِ الآخرةِ، ويُخلّصَهُ من عذابِ الأبدِ ويُوصِلَهُ إلىٰ نعيمِ السرمَدِ، وما يردُ عليه منَ المصائبِ والبلايا في دارِ الدنيا خيرٌ له وصلاحٌ، وذخيرةٌ له في يومِ المعادِ.

وكذا لا يظنُّ السوءَ والشرَّ بالمسلمينَ، ولا يَحمِلُ ما لهُ وَجْهٌ صحيحٌ من أعمالِهِم وأقوالِهم علىٰ وجهٍ فاسدٍ، بل يجبُ أن يَحمِلَ كُلَّ ما يشاهِدُهُ من أفعالِهِم وحركاتِهِم علىٰ أحْسَنِ الوجوهِ وأصحِّها ما لم يَجزِمْ بفسادِه، ويكذّبَ وهمَهُ وسائرَ حواسّهِ، فيما يذهب إليه من المحاملِ الفاسِدَةِ والاحتمالاتِ القبيحةِ المحرّمةِ، ويكلِّف نفسَهُ علىٰ ذلك حتّىٰ يصيرَ ذلك مَلَكَةً له، فترتفعَ عنه ملكةُ سوءِ الظنّ بالكلّيّةِ. نعم، الحملُ على الوجهِ الصحيحِ علىٰ تقديرِ عدَمِ مطابقَتِه للواقعِ، لو كان باعِثاً لضَرَرٍ ماليٍّ أو فسادٍ دينيٍّ أو عِرْضِيٍّ، لَزِمَ فيه الحَزْمُ والاحتياطُ، وعدمُ تعليقِ أُمورِه الدينيّةِ والدُنيويّةِ عليه، لئلّا يترَتّبَ عليه الخُسرانُ والإضرارُ، وتَلْزَمُهُ الفضيحةُ والعارُ.

النوع السابع: الغَضَبُ

وهو كيفيّةٌ نفسانيّةٌ موجِبةٌ لحركةِ الروحِ من الداخل إلىٰ الخارجِ للغَلَبةِ، ومبدؤُهُ شهوَةُ الانتقامِ، وهو من جانبِ الإفراطِ. وإذا اشتدَّ يُوجبُ حركةً عَنيفَةً، يَمتَلئُ لأجلِها الدِماغُ والأعصابُ من الدخانِ المظلمِ، فيَستُرُ نورَ العقلِ ويُضعِفُ فعلَه، ولذا لا يؤثِّرُ في صاحبه الوعظُ والنصيحةُ، بل تَزيدُهُ الموعظة غِلْظَةً وشِدّةً. قال بعضُ علماءِ الأخلاقِ:

الغضبُ شعلةُ نارٍ اقتُبِستْ من نارِ الله الموقدةِ إلّا أنّها لا تَطّلِعُ إلّا على الأفئدةِ، وإنّها لمستكِنّةٌ في طيّ الفؤادِ استكنانَ الجمر تحتَ الرمادِ، وتَستخرِجُها حَميّةُ الدينِ من قلوبِ المؤمنينَ، أو حَميّةُ الجاهليّةِ والكِبْرُ الدفينُ من قلوبِ الجبّارينَ، التي لها عِرقٌ إلى الشيطانِ اللعينِ، حيث قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1]. فمن شأنِ الطينِ السكونُ والوقارُ، ومن شأنِ النارِ التَلَظّي والاستِعارُ[2].

ثمّ قوّةُ الغضبِ تتوجّهُ عند ثَورانِها إمّا إلىٰ دفع المؤذِياتِ إن كان قبل وقوعِها، أو إلىٰ التشفّي والانتقامِ إنْ كان بعدَ وقوعِها، فشهوتُها إلىٰ أحدِ هذين الأمرين ولذّتُها فيه، ولا تسكنُ إلّا به.

وهنا بحوث:

---

١. الأعراف (٧): ١٢؛ ص (٣٨): ٧٦.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٦٤، كتاب الغضب؛ المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٩.

البحث الأوّل: الإفراطُ والتفريطُ والاعتدالُ في قوّةِ الغَضَبِ

الناسُ في هذهِ القوّةِ علىٰ إفراطٍ وتَفريطٍ واعتدالٍ.

فالإفراطُ: أن تغلِبَ هذه الصفةُ حتّىٰ تَخْرُجَ عن طاعةِ العقلِ والشرعِ وسياستِهما، ولا تبقى له فكرةٌ وبَصيرةٌ.

والتفريطُ: أنْ يفقُدَ هذه القوّةَ أو تضعُفَ بحيثُ لا يغضَبُ عمّا ينبغي الغضبُ عليه شرعاً وعقلاً.

والاعتدالُ: أنْ يَصدُرَ غضبُه فيما ينبغي ولا يصدُرَ في ما لا ينبغي، بحيثُ يخرجُ عن سياسةِ الشرعِ والعقلِ، بل يكونُ تابِعاً لهما في الغضبِ وعدمِهِ، فيكونُ غضبُهُ وانتقامُه بأمرهما.

ولا ريبَ في أنَّ الاعتدالَ ليس مَذموماً، ولا معدوداً من الغضبِ، بل هو من الشجاعةِ، والتفريطَ مذمومٌ معْدودٌ من الجُبْنِ والمهانَةِ، وربّما كان أخبثَ من الغضبِ، إذِ الفاقدُ لهذه القوّةِ لا حَمِيّةَ له، وهو ناقصٌ جدّاً. ومن آثارِه عدمُ الغَيْرَةِ على الحرمِ، وصِغَرُ النفسِ، والجورُ، وتحمّل الذُلِّ من الأخِسّاءِ، والمداهَنةُ في الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ والفحشاءِ. وقد وصف الله خيارَ الصحابةِ بالحميّةِ والشدّةِ، فقال: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾[1] وخاطبَ نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[2].

والشدّةُ والغِلْظَةُ من آثار قوّةِ الغضبِ، ففقدُ هذه القوّةِ بالكُلّيّة أو ضعفُها مذمومٌ. وقد ظهرَ أنّ الغضبَ المعدودَ من الرذائلِ هو حدّ الإفراطِ الذي يُخرجُهُ عن مُقتضَى العقلِ والدينِ، وحدُّ التفريطِ وإن كان رذيلةً إلّا أنّه ليس غَضَباً، بل هو ضِدٌّ له معدودٌ من الجبنِ، وحَدُّ الاعتدالِ فضيلةٌ وضِدٌّ له ومعدودٌ من الشجاعةِ، فانحصرَ الغضبُ بالأوّلِ.

البحث الثاني: ذَمّ الغَضَب

«الغضبُ» من المُهلكاتِ العظيمةِ، وربّما أدّى إلى الشقاوةِ الأبديّة من القتلِ والقطعِ، ولذا

---

١. الفتح (٤٨): ٢٩.

٢. التوبة (٩): ٧٣.

قيل: إنّه جنونٌ دفعيّ. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الحدّةُ ضربٌ من الجنونِ؛ لأنّ صاحبَها يندمُ، فإنْ لم يندمْ فجنونُهُ مُستَحكَمٌ»[١]. وربّما أدّى إلى اختناقِ الحرارةِ، ويورِثُ الموتَ فَجأةً. وقال الباقر عليه السلام:

إنّ هذا الغضبَ جمرةٌ من الشيطانِ توقَدُ في قلبِ ابنِ آدمَ، وإنّ أحدَكم إذا غضِبَ احمرّتْ عيناهُ وانتفختْ أوداجُه ودخلَ الشيطانُ فيه، فإذا خافَ أحدُكم ذلك من نفسِهِ فليلزمْ الأرْضَ، فإنّ رِجْزَ الشيطانِ ليذهبُ عنه عندَ ذلكَ[٢].

وقال الصادق عليه السلام: «وكان أبي عليه السلام يقول: أيُّ شيءٍ أشدُّ من الغضبِ؟ إنّ الرجلَ يغضَبُ فيقتلُ النفسَ التي حرّمَ اللهُ، ويقذِفُ المُحصَنَةَ»[٣]. وقال الصادق عليه السلام: «الغضبُ مفتاحُ كلّ شرٍّ»[٤]. وقال عليه السلام: «الغضبُ مَمْحَقَةٌ لقلبِ الحكيمِ - وقال عليه السلام: - من لم يَملِكْ غَضَبَهُ لم يملِكْ عقلَهُ»[٥].

ثمّ ممّا يَلْزَمُ الغضبَ - من الآثارِ المُهلِكةِ الذميمةِ، والأغراضِ المضرّةِ القَبيحةِ -: انطلاقُ اللسانِ بالشَتْمِ والسبِّ، وإظهارِ السوءِ والشماتَةِ بالمَساءَةِ وإفشاءِ الأسرارِ وهَتْكِ الأستارِ والسُخْريةِ والاستهزاءِ، وغيرِ ذلك من قبيحِ الكلامِ الذي يستحي منه العقلاءُ؛ وتَوثُّبُ الأعضاءِ بالضربِ والجرحِ والتمزيقِ والقتلِ، وتألّمُ القلبِ بالحِقدِ والحسَدِ والعداوَةِ والبُغْضِ. وممّا تلزمُهُ: النَدامةُ بعد زوالِهِ، وعداوةُ الأصدقاءِ، واستهزاءُ الأراذِلِ، وشَماتَةُ الأعداءِ، وتَغيّرُ المِزاجِ، وتألّمُ الروحِ وسُقْمُ البدنِ، ومكافاةُ العاجِلِ وعقوبةُ الآجلِ.

والعجبُ ممّنْ تَوَهّمَ أنّ شِدّةَ الغضبِ من فَرْطِ الرجوليّةِ، مع أنّ ما يَصدُرُ عن الغضبانِ من الحركاتِ القَبيحةِ إنّما هو أفعالُ الصِبيانِ والمجانينَ دونَ الرجالِ والعاقلينَ. كيف وقد تَصدُرُ عنه الحركاتُ غيرُ المنتظَمَةِ، من الشَتْمِ والسبِّ بالنسبةِ إلى الشمسِ والقمرِ، والسحابِ والمطرِ

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٦٦، باب ذمّ الغضب، ح ٢٠.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٤ـ٣٠٥، باب الغضب، ح ١٢.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٣، باب الغضب، ح ٤.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٣، باب الغضب، ح ٣.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٥، باب الغضب، ح ١٣.

والريح وَالشجرِ، والحيواناتِ والجمادات. وربّما يضربُ القَصْعَةَ على الأرضِ، ويكسِرُ المائدَةَ، ويخاطبُ البهيمةَ والجمادَ كما يخاطبُ العقلاءَ. وإذا عَجِزَ عن التشفّي ربّما مزّقَ ثوبَهُ، ولطَمَ وجهَهُ، وقد يَعْدُو عَدْوَ المدهوشِ المتحيِّرِ، وربّما اعتراهُ مثلُ الغَشْيةِ، أو سقطَ على الأرضِ لا يطيقُ النهوضَ والعَدْوَ. وكيفَ يكونُ مثلُ هذهِ الأفعالِ القبيحةِ من فَرْطِ الرجوليّةِ وقد قال رسول الله ﷺ: «الشُجاعُ من يَمْلِكُ نَفْسَهُ عند غَضَبِهِ».

البحث الثالث: إمكان إزالة الغضب وطرقُ علاجِه

إنّ الغَضَبَ الذي تَلزمُ إزالتُهُ هو الغضبُ المذمومُ، إذْ غيرُهُ ممّا يكونُ بإشارَةِ العقلِ والشرعِ ليس غَضَباً فيه كلامُنا، بل هو من آثارِ الشَجاعةِ، والاتّصافُ به من اللوازمِ، وإنْ أُطلِقَ عليه اسمُ الغَضَبِ أحياناً حقيقةً أو مجازاً، كما روي عن أميرِ المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

كان النبيّ ﷺ لا يغضَبُ للدنيا، وإذا أغضَبَهُ الحقُّ لم يَصْرِفْهُ أحدٌ، ولم يَقُمْ لغضبِهِ شيءٌ حتّىٰ ينتصرَ له[1].

ثمّ علاجُهُ يتوقّفُ علىٰ أُمور، وربّما حَصَلَ ببعضِها:

الأوّلُ: إزالةُ أسبابِهِ المُهَيِّجَةِ له، إذْ علاجُ كلّ عِلّةٍ بِحسمِ مادَّتِها، وهي: العُجْبُ، والفَخْرُ، والكِبْرُ، والغَدرُ، واللجاجُ، والمِراءُ، والمزاحُ، والاستهزاءُ، والتعييرُ، والمخاصَمةُ، وشدّةُ الحرصِ على فضولِ الجاهِ والأموالِ الفانيةِ. وهي بأجمَعِها أخلاقٌ رَديّةٌ مُهلِكةٌ، ولا خَلاصَ من الغَضَبِ مع بَقائِها، فلابدّ من إزالتها حتّىٰ تسهُلَ إزالتُهُ.

الثاني: أن يَتذكّرَ قُبْحَ الغضبِ وسُوءَ عاقِبَتِه، وما وردَ في الشريعةِ من الذمّ عليه.

الثالثُ: أن يَتذكّرَ ما ورَدَ من المدحِ والثوابِ على دفعِ الغضبِ في مواردِه، ويتأمّلَ فيما ورَدَ مِن فوائدِ عدمِ الغضبِ، كقولِ النبيّ ﷺ: «من كَفَّ غَضَبَهُ عن الناسِ كَفَّ اللهُ تبارك وتعالىٰ عنه عذابَ يومِ القيامةِ»[2]. وقولِ الباقر عليه السلام: «مكتوبٌ في التوراةِ فيما ناجى اللهُ به موسى:

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٣٠٣، كتاب آفة الغضب.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٥، باب الغضب، ح ١٤ و١٥.

أمْسِكْ غَضَبَكَ عمّن ملّكْتُكَ عليه أكُفَّ عنكَ غَضَبي»[١]. وقولِ الصادق عليه السلام:

سمعتُ أبي يقولُ: أتى رسولَ الله صلى الله عليه وآله رجلٌ بدويٌّ، فقال: إنّي أسكُنُ الباديةَ فعلّمْني جَوامعَ الكَلِمِ. فقال: «آمرُك ألّا تَغْضَبَ». فأعادَ الأعرابيّ عليه المسألةَ ثلاثَ مرّاتٍ، حتّىٰ رَجَعَ الرجُلُ إلىٰ نفسِه، فقال: لا أسألُ عن شيء بعدَ هذا، ما أمَرَني رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلّا بالخير[٢].

الرابعُ: أن يَتَذكّرَ فوائدَ ضِدَّ الغضَبِ، أعني الحِلمَ وكَظْمَ الغيظِ، وما ورَدَ من المدحِ عليهما في الأخبارِ ـ كما يأتي ـ ويُواظِبَ علىٰ مباشرَتِهِ ولو بالتكلّفِ، فيتحلّم وإنْ كان في الباطنِ غضباناً، وإذا فعل ذلك مدّة صارَ عادةً مألوفةً هنيئةً على النفسِ، فتنقطعُ عنها أُصولُ الغضبِ.

الخامسُ: أنْ يُقدّمَ الفِكرَ والرويّةَ علىٰ كلّ فعلٍ أو قولٍ يصدُرُ عنه، ويحافظَ نفسَهُ من صدورِ غضبٍ عنه.

السادسُ: أنْ يحترِزَ عن مصاحبةِ أربابِ الغَضَبِ، والذينَ يَتبجَّحُونَ بِتَشَفّي الغيظِ وطاعةِ الغَضَبِ، ويُسمّونَ ذلك شَجاعةً ورجوليّةً، فيقولونَ: نَحنُ لا نَصْبِرُ علىٰ كذا وكذا، ولا نحتَمِلُ من أحدٍ أمراً، ويختارَ مجالسةَ أهلِ الحِلمِ، والكاظمينَ الغيظَ، والعافينَ عن الناسِ[٣].

السابعُ: أنْ يعلمَ أنّ ما يقعُ إنّما هو بقضاءِ الله وقَدَرِهِ، وأنّ الأشياءَ كلَّها مُسَخّرَةٌ في قَبْضَةِ قُدْرَتِهِ، وأنّ كلَّ ما في الوجودِ من الله، وأنّ الأمرَ كلَّه للّهِ، وأنّ اللهَ لا يقدّرُ له إلّا ما فيه الخيرة، وربّما كان صلاحُهُ في جُوعِهِ، أو مَرَضِهِ، أو فَقْرِهِ، أو جَرحِه أو قَتْلِه، أو غيرِ ذلك. فإذا عَلِمَ بذلك غَلَبَ عليه التوحيدُ، ولا يغضبُ على أحدٍ، ولا يغتاظُ عمّا يردُ عليه، إذ يرى ـ حينئذ ـ أنّ كُلّ شيء في قَبْضَةِ قُدْرَتِه أسيرٌ، كالقلمِ في يدِ الكاتبِ. فكما أنّ مَنْ وقَّعَ عليه مَلِكٌ بِضَرْبِ عُنُقِهِ لا يَغضَبُ على القلَمِ، فكذلك من عَرَفَ اللهَ وعَلِمَ أنّ هذا النظامَ صادرٌ منه علىٰ وفقِ الحكمةِ والمصلَحةِ ـ ولو تغيّرتْ ذرّةٌ منه عمّا هي عليه خرجتْ عن الأصلحيّة ـ لا يغضبُ

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٣، باب الغضب، ح ٧.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٣، باب الغضب، ح ٤.

٣. إشارة إلى الآية الشريفة ١٣٤ من سورة آل عمران (٣): **﴿الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين﴾**.

علىٰ أحَدٍ، إلّا أنّ غَلَبَةَ التوحيدِ علىٰ هذا الوجهِ كالكبريتِ الأحمرِ، وتوفيقَ الوصول إليه من الله الأكبر، ولو حَصَل لبعضِ المتجرّدين عن جِلباب البدنِ يكونُ كالبرقِ الخاطِفِ، ويَرْجِعُ القلبُ إلىٰ الالتفاتِ إلى الوسائطِ رُجوعاً طبيعيّاً. ولو تُصُوِّرَ دوامُ ذلك لأحدٍ لَتُصُوِّرَ لِـفِرَقِ الأنبياءِ، مع أنّ التفاتَهم في الجملةِ إلى الوسائطِ ممّا لا يمكنُ إنْكارُه.

الثامنُ: أنْ يتذكّر أنّ الغضبَ مرضُ قلبٍ ونقصانُ عقلٍ، صادرٌ عن ضَعفِ النفسِ ونُقْصانِها، لا عن شجاعتِها وقوّتِها، ولذا يكونُ المجنونُ أسرعَ غَضَباً من العاقلِ، والمريضُ أسرَعَ غضباً من الصحيحِ، والشيخُ الهرِمِ أسرعَ غضَباً من الشابِّ، وصاحبُ الأخلاقِ السيّئةِ والرذائلِ القبيحةِ أسرعَ غضباً من صاحبِ الفضائلِ. فالرذِلُ يغضَبُ لشهوتِه إذا فاتَتهُ اللُّقْمَةُ، والبخيلُ يغتاظُ لبُخْلِه إذا فقدَ الحبّةَ، حتّىٰ يغضَبَ لِفَقْدِ أدنى شيءٍ علىٰ أعزّةِ أهلِه وولدِه. والنفسُ القويةُ المتّصفَةُ بالفضيلةِ أجلُّ شأناً من أن تتغيّرَ وتضطرِبَ لمثلِ هذه الأُمور، بل هي كالطودِ الشاهقِ لا تحرّكُه العواصفُ؛ ولذا قال سيّد الرسلِ ﷺ: «ليس الشديدُ بالصُّرَعَةِ، إنّما الشديدُ الذي يملِكُ نفسَهُ عندَ الغَضَبِ»[١]. وإن شكَكْتَ في ذلك فافتحْ عينيكَ وانظرْ إلىٰ طبقاتِ الناسِ الموجودين، ثمّ ارْجِع إلىٰ كتبِ السيرِ والتواريخِ، واستمعْ إلىٰ حكاياتِ الماضينَ، حتّىٰ تعلمَ أنّ الحِلْمَ والعفوَ وكظمَ الغيظِ شيمةُ الأنبياءِ والحكماءِ وأكابرِ الملوكِ والعقلاءِ، والغضبَ خَصْلَةَ الجَهَلَةِ والأغبياءِ.

التاسعُ: أن يَتَذكّرَ أنّ قُدرةَ الله عليه أقوى وأشدُّ من قُدرَتِه علىٰ هذا الضعيفِ الذي يغضبُ عليه، وهو أضعفُ في جنبِ قُوّتِه القاهِرَةِ بمراتبَ غيرِ متناهيةٍ من هذا الضعيفِ في جنبِ قوّتِه، فلْيحذَرْ ولا يأمنْ إذا أمضى غَضبَهُ عليه أنْ يُمضيَ الله عليه غَضَبَهُ في الدنيا والآخرة، وقد روي أنّه:

> ماكان في بني إسرائيلَ مَلِكٌ إلّا ومعهُ حكيمٌ، إذا غَضِبَ أعطاهُ صحيفةً فيها: «ارْحَمِ المساكينَ، واخشَ الموتَ، واذكرِ الآخرةَ»، فكان يقرؤها حتّىٰ يسكنَ غضبُه[٢].

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٩١.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٣٠٦.

وفي بعض الكتب الإلهيّةِ: «يا ابنَ آدمَ! اذكرني حين تغضبُ أذكُرْكَ حين أغضبُ، فلا أمحقُكَ فيمن أمحَقُ»[١].

العاشرُ: أنْ يتذكّرَ أنّ من يَمضي عليه غضبُهُ ربّما قَويَ وتشمّرَ لمقابَلتِه، وجرّدَ عليه لسانَه بإظهارِ معايبه والشماتة بمصائبِهِ، ويؤذيه في نفسِه وأهلِه ومالِه وعِرضِه.

الحادي عشرَ: أنْ يتفكّر في السببِ الذي يدعوهُ إلى الغَيظِ والغَضَبِ:

فإن كانَ خوفَ الذلّةِ والمهانةِ والاتّصافِ بالعجزِ وصِغَرِ النفسِ عند الناسِ، فلْيتَنبّهْ أنّ الحِلْم وكَظْمَ الغيظِ ودَفْعَ الغضَبِ عن النفسِ ليستْ ذلّةً ومَهانةً، ولم يصدُرْ من ضَعفِ النفسِ وصِغَرِها، بل هو من آثارِ قُوّةِ النفسِ وشجاعَتِها. وأضدادُها تَصدُرُ من نُقصانِ النفسِ وخَورِها. فدفعُ الغضبِ عن نفسهِ لا يُخرِجُه من كِبْرِ النفسِ في الواقع، ولو فُرِضَ خُروجُهُ به منه في أعيُنِ جَهَلَةِ الناسِ فلا يبالي بذلك، ويَتَذكّرُ أنّ الاتّصافَ بالذلّةِ والصِغرَ عندَ بعضِ أراذِلِ البشرِ أولى من خزي يومِ المَحْشَرِ والافتضاحَ عند الله الملكِ الأكبَرِ.

وإنْ كانَ السببُ خوفَ أنْ يفوتَ منه شيءُ ممّا يُحِبّهُ، فلْيَعْلَمْ أنّ ما يُحِبّهُ ويَغضَبُ لفقدِه: إمّا ضروريّ لكُلّ أحدٍ، كالقُوتِ والمسكنِ واللباسِ وصحّةِ البدنِ. أو غيرُ ضَروري لأحدٍ، كالجاهِ والمنصِبِ وفُضولِ الأموالِ. أو ضروريّ لبعضِ الناسِ دونَ بعضٍ، كالكتاب للعالمِ، وأدواتِ الصناعاتِ لأرْبابِها.

ولا ريبَ أنّ كلّ ما ليسَ مِنْ هذهِ الأقسامِ ضَرُوريّاً فلا يليقُ أنْ يكونَ محبوباً عند أهلِ البصيرةِ وذوي المروءاتِ، إذ ما لا يحتاجُ إليه الإنسانُ في العاجل لابدّ له من تركهِ في الآجلِ، فما بالُ العاقلِ أنْ يُحبّهُ ويغضبَ لفقدِه، وإذا علم ذلك لم يغضَبْ علىٰ فقدِ هذا القسمِ ألبتّة. وأمّا ما هو ضروريّ للكلّ أو البعضِ، وإن كان الغضبُ والحزنُ من فقدِه مقتضى الطبعِ لشِدّةِ الاحتياجِ إليه، إلّا أنّ العاقلَ إذا تأمّل يجِدْ أنّ ما فُقِدَ عَنْه من الأشياءِ الضروريّةِ إنْ أمْكنَ ردّهُ والوصول إليه يمكنُ ذلك بدون الغيظِ والغضبِ أيضاً، وإنْ لم يُمكنْ لم يُمكِنْ معهما أيضاً. وعلىٰ أيّ حالٍ بعد التأمّلِ يَعلَمُ أنّ الغضبَ لا ثمرةَ له سوىٰ تألّمِ العاجلِ وعُقوبةِ الآجِلِ، وحينئذٍ

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٩٣.

لا يغضبُ، وإنْ غضِبَ يدفَعُهُ عن نفسِه بسهولةٍ.

الثاني عشر: أنْ يَعلَمَ أَنّ الله يُحبُّ منهُ ألّا يغضَبَ، والحبيبُ يَخْتارُ ألبتَّةَ ما يُحِبُّ محبوبُهُ، فإنْ كان مُحبّاً لله فلْيُطْفِئْ شدّةَ حُبِّهِ له غضبَهُ.

الثالث عشر: أنْ يتفكّرَ في قُبحِ صورتهِ وحركاتهِ عند غضَبهِ، بأنْ يتذكّرَ صورةَ غيرِهِ وحركاته عند الغضبِ.

تتْميمٌ: اِعلم أنّ بعضَ المعالجاتِ المذكورةِ يقتضي قَطعَ أسبابِ الغَضبِ وحَسْمَ موادِّهِ، حتّى لا يَهيجَ ولا يصدُرَ، وبعضَها يكسِرُ سَورَتَهُ أو يَدفَعُهُ إذا صَدَرَ وهاجَ. ومِنْ عِلاجِه عندَ الهيجانِ الاستعاذةُ من الشيطانِ، والجلوسُ إنْ كان قائماً، والاضطجاعُ إنْ كان جالِساً، والوضوءُ أو الغسلُ بالماءِ البارِدِ، وإنْ كانَ غَضَبُهُ على ذي رحمٍ فلْيدْنُ منهُ ولْيمسَّهُ، فإنّ الرَحِمَ إذا مُسَّتْ سَكَنَتْ، كما وردَ في الأخبار[١].

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٢، باب الغضب، ح ٢.

وصلٌ

ضدّ الغضب: الحِلم وكَظْم الغَيْظ

قد عرفتَ أنّ الحِلْم هو طمأنينةُ النفسِ، بحيثُ لا يُحرّكُها الغضبُ بسهولةٍ ولا يُزعِجُهُ المكروهُ بسرعةٍ، فهو الضِدُّ الحقيقيُّ للغضبِ؛ لأنّه المانعُ من حُدوثِه، وبعد هَيَجانِه لمّا كانَ كظمُ الغيظِ ممّا يضعفه ويدفعُه، فمن هذه الحيثيّةِ يكونُ كَظْمُ الغيظِ أيضاً ضِدّاً له. فنحنُ نُشيرُ إلىٰ فضيلةِ الحِلم وشرافَتِهِ، ثمّ إلىٰ فوائدِ كظمِ الغيظِ ومنافعِهِ، ليجتهدَ طالبُ إزالةِ الغضبِ في الاتّصافِ بالأوّلِ، فلا يحدثُ فيه أصلاً، وبالثاني، فيدفعُه عند هَيَجانه. فنقول:

أمّا الحِلْمُ فهو أشْرَفُ الكمالاتِ النفسيّة بعد العِلْم، بل لا يَنْفَعُ العلمُ بدونهِ أصلاً؛ ولذا كلّما يُمدَحُ العلمُ أو يُسألُ عنه يقارَنُ به، قال رسولُ اللهﷺ: «اللهمّ أغنِني بالعلم وزيّنّي بالحلم»[1].

وقالﷺ: «ابتغُوا الرِفْعةَ عندَ الله». قالوا: وماهي يارسولَ الله؟! قال: «تَصِلُ من قَطَعَكَ، وتُعطي من حَرَمَكَ، وتحلُمُ عمّن جهلَ عليك»[2].

وقالﷺ: «إنّ الرجلَ المسلمَ لَيُدْرِكُ بالحِلْمِ درجةَ الصائمِ القائمِ»[3].

وأمّا كَظْمُ الغَيظ فهو وإنْ لم يَبلغْ مَرْتَبةَ الحِلْم فضيلةٌ وشرافةٌ؛ لأنّهُ التَحَلُّمُ: أي تَكَلُّفُ

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٧٦.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

٣. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٧٧.

الحِلْمِ، إلّا أنّه إذا واظبَ عليه حتّىٰ صار معتاداً تَحدُثُ بعد ذلك صِفَةُ الحِلْم الطبيعي، بحيثُ لا يهيجُ الغيظُ حتّىٰ يحتاجَ إلىٰ كَظْمِهِ، ولذا قال رسول اللهﷺ: «إنّما العلمُ بالتعلّمِ والحِلْم بالتحَلُّمِ»[١] فمن لم يكنْ حليماً بالطبع لابدّ له من السعي في كظمِ الغيظِ عندَ هَيَجانِه، حتّىٰ تحصلَ له صفةُ الحِلْمِ. وقد مدحَ الله سبحانه كاظمي الغَيْظِ في مُحكَم كتابهِ، وتَواتَرَتِ الأخبارُ علىٰ شرافَته وعِظَمِ أَجْرِهِ. قال رسول اللهﷺ: «من كَظَمَ غَيظاً ولو شاء أنْ يمضيَهُ أمضاهُ، ملأ الله قلبَهُ يوم القيامة رِضىً»[٢].

وقالﷺ: «مِنْ أحَبِّ السبيلِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ جُرعتان: جُرْعَةُ غيظٍ يَردُّها بحِلْم، وجُرْعةُ مُصيبةٍ يَرُدُّها بصَبْرٍ»[٣].

وقال سيّد الساجدينعليه السلام: «وما تَجرَّعْتُ جُرْعةً أحبَّ إليّ من جُرعَةِ غيظٍ لا أُكافئُ بها صاحِبَها»[٤].

وقال الباقرعليه السلام: «مَن كَظَمَ غَيْظاً وهو يَقْدِرُ علىٰ إمضائِه، حشا الله تعالىٰ قلبَهُ أمْناً وإيماناً يومَ القيامة»[٥].

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٧٦.
٢. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٧٥.
٣. الكافي، ج ٢، ص ١١٠، باب كظم الغيظ، ح ٩.
٤. الكافي، ج ٢، ص ١٠٩، باب كظم الغيظ، ح ١.
٥. الكافي، ج ٢، ص ١١٠، باب كظم الغيظ، ح ٧.

النوع الثامن: الانتقام

الانتقام بمثل ما فُعِلَ به، أو بالأزيدِ منه ـ وإن كان محرّماً ممنوعاً من الشريعة ـ وهو من نتائج الغضبِ، إذ كُلُّ انتقامٍ ليس جائزاً، فلا يجوزُ مُقابلةُ الغِيبةِ بالغِيبةِ، والفُحْشِ بالفُحْشِ، والبُهتانِ بالبُهتانِ، والسعايةِ إلى الظَلَمَةِ بمِثلها، وهكذا في سائِر المحرّمات. قال سيّدُ الرسُلِ ﷺ: «إنِ امْرُؤٌ عيّرك بما فيك فلا تُعَيِّرْهُ بما فيه»[1].

فكُلّ فعلٍ أو قولٍ يَصْدُرُ من شخصٍ بالنسبةِ إلى غيرِه ظُلْماً، إنْ كان لهُ في الشرعِ قِصاصٌ وغرامةٌ فيجبُ ألّا يَتعدّى عنه، وإنْ كان العفوُ عن الجائرِ أيضاً أفْضلَ وأولَى وأقربَ إلى الورعِ والتقوى. وإنْ لم يَرِدْ له بخصوصِهِ من الشرعِ حكومةٌ معيّنةٌ، وَجَبَ أنْ يَقتَصِرَ في الانتقامِ وما يحصلُ به التشفّي على ما ليس فيه حرمةٌ ولاكذبٌ، مثل أنْ يقابِلَ الفُحشَ وَالذمَّ وغيرَهما من الأذايا التي لم تُقَدّرْ لها في الشرعِ حكومة معيّنةٌ، بقوله: يا قليلَ الحياء، ويا سيِّئَ الخُلُقِ، ويا صفيق الوجه، وأمثالَ ذلك إذا كان متّصفاً بها. ومثل قوله: جزاكَ الله، وانتقم منك! ومن أنت؟ وهل أنت إلّا من بني فلان؟ ومثل قوله: يا جاهلُ، وهذا ليس فيه كذبٌ مطلقاً، إذ ما من أحدٍ إلّا وفيه جهلٌ.

والدليلُ على جوازِ هذا القَدْرِ من الانتقامِ قولُ النبيّ ﷺ: «المستبّانُ ما قالا فعلى البادئِ

---

١. راجع: سنن أبي داود، ج ٤، ص ٣٤٥، ح ٤٠٨٤.

منها، حتّى يعتديَ المظلومُ»[١]. وقول الكاظم عليه السلام في رجلين يَتسابّان: «البادئُ منهما أظلمُ، ووِزْرُهُ ووزرُ صاحبِهِ عليه مالمْ يتعدَّ المظلومُ»[٢]. وهما يدلّانِ على جواز الانتصارِ لغيرِ البادئ من دون وزرٍ ما لم يتعدّ، ومعلوم أنّ المرادَ بالسَبِّ فيهما أَمثال الكلماتِ المذكورةِ دونَ الفحش والكلماتِ الكاذبةِ. ولا ريبَ في أنّ الاقتصارَ على مجرّد ما وردتْ به الرُخْصةُ بعد الشروع في الجوابِ مُشْكِلٌ، ولعلَّ السكوتَ عن أصل الجوابِ وحوالةِ الانتقام إلى ربّ الأربابِ أيسرُ وأفضلُ ما لم يُؤَدِّ إلى فتورِ الحميّة والغيرةِ، إذ أكثرُ الناسِ لا يقدرُ على ضبطِ نفسهِ عند فَوْرِ الغضبِ، لاختلافِ حالِهم في حدوثِ الغضبِ وزوالِهِ.

ثمّ طريقُ العلاجِ في تركِ الانتقامِ أنْ يتنبّه على سوءِ عاقبتِه في العاجلِ والآجلِ، ويتذكّرَ فوائدَ تركِهِ، ويعلَمَ أَنّ الحوالةَ إلى المنتقمِ الحقيقي أحسنُ وأوْلى، وأنّ انتقامَهُ أشدُّ وأقوى، ثمّ يتأمّلُ في فوائدِ العفو وفَضيلته، كما يأتي.

١. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٢٢.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٢٢، باب السفه، ح ٣، و راجع: ص ٣٦٠، باب السباب، ح ٤.

وصل

ضدّ الانتقام: العفو

«العفوُ» هو إسقاطُ ما يستحقّهُ من قِصاص أو غَرامةٍ، ففرقُه عن الحِلْم وكَظْمِ الغيظِ ظاهرٌ، والآياتُ والأخبارُ في مدحِه وحُسْنِه أكثَرُ من أنْ تُحصى، قال الله تعالى: ﴿خُـذِ العَـفْوَ وَأْمُـرْ بِالْعُرْفِ﴾[١]. وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾[٢]. وقال: ﴿وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ﴾[٣].

وقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله:

ثلاثٌ ـ والذي نفسي بيده ـ إنْ كنتُ حالِفاً لحلفتُ عليهنّ: ما نَقَصَتْ صدقةٌ مـن مالٍ فَتَصَدَّقوا، ولاعفا رجلٌ عن مظلمةٍ يبتغي بها وجهَ الله إلّا زادَه الله بها عـزّاً يومَ القيامة، ولا فَتَحَ رجلٌ على نفسه بابَ مسألةٍ إلّا فتحَ الله عليه بابَ فقرٍ[٤].

وقال صلى الله عليه وآله: «العفوُ لا يَزيد العبدَ إلّا عِزّاً، فاعفوا يُعِزَّكُم الله»[٥].

---

١. الأعراف (٧): ١٩٩.

٢. النور (٢٤): ٢٢.

٣. البقرة (٢): ٢٣٧.

٤. راجع أمالي الطوسي، ص ١٨٢، ح٣٠٦.

٥. الكافي، ج٢، ص١٠٨، باب العفو، ح ٥.

النوع التاسع: العُنْفُ

وهو الْغِلظَةُ والفَظاظَةُ في الأقوالِ أو الحركاتِ أيضاً، وهو من نتائجِ الغضبِ، وضدُّهُ الرفقُ، أي اللينُ فيهما، وهو من نتائجِ الحِلْم. ولا رَيبَ في أنَّ الغِلظَةَ في القولِ يُنَفِّرُ الطباعَ ويؤدّي إلى اختلالِ أمرِ المَعاشِ والمعادِ، ولذلك نهى الله سبحانهَ نبيَّه عنه في مقامِ الإرشادِ، وقال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَليظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].

١. آل عمران (٣): ١٥٩.

وصـــل

ضدّ العنف: الرفق

الأخبارُ في فضيلةِ الرفقِ وفوائدِه أكثرُ من أنْ تُحصى، ونحن نُشيرُ إلى شطرٍ منها هنا، قال رسولُ اللهﷺ: «لو كان الرفقُ خَلْقاً يُرى، ما كان فيما خَلَقَ الله شيءٌ أحسنَ منه»[1]. وقالﷺ: «إنّ الرفقَ لم يوضَعْ على شيءٍ إلّا زانَه، ولا يُنْزَعُ من شيءٍ إلّا شانَه»[2]. وقالﷺ: «لكلِّ شيءٍ قُفلٌ، وقُفْلُ الإيمانِ الرِفقُ»[3]. وقالﷺ: «إنّ اللهَ رفيقٌ يُحِبُّ الرِفْقَ، ويُعطي على الرفْقِ مالا يُعطي على العُنْفِ»[4]. وقالﷺ: «الرفقُ يُمْنٌ، والخُرقُ شؤمٌ»[5].

ثمّ التَجْرِبةُ شاهدةٌ بأنّ إمضاءَ الأُمورِ وإنجاحَ المقاصدِ موقوفٌ على الرفقِ واللينِ مع الخلائقِ، فكلُّ ملِكٍ كان رفيقاً بجُنْدِه ورعيّتِه انتظمَ أمرهُ ودامَ ملكُه، وإنْ كان فظّاً غليظاً اختلَّ أمرهُ وانفضَّ الناسُ من حولِه، وزالَ مُلْكُه وسلطانُه في أسرعِ زمانٍ. وقِسْ عليه غيرَه من طبقاتِ الناسِ من العلماءِ والأُمراءِ وغيرِهما، من ذوي المناصبِ الجليلةِ، وأربابِ المعامَلَةِ والمكاسَبةِ، وأصحابِ الصنائعِ والحِرَفِ.

---

١. الكافي، ج٢، ص ١٢٠، باب الرفق، ح١٣.
٢. الكافي، ج٢، ص١١٩، باب الرفق، ح ٦.
٣. الكافي، ج٢، ص ١١٨، باب الرفق، ح١.
٤. الكافي، ج٢، ص ١١٩، باب الرفق، ح٥.
٥. الكافي، ج٢، ص١١٩، باب الرفق، ح٤.

تكملة: المُداراةُ: قريبٌ من الرفقِ معنىً؛ لأنـّها مُلاءَمَةُ الناسِ، وحسنُ صحبتِهم، واحتمالُ أذاهم، وربّما فُرّقَ بينهما باعتبارِ تحمُّلِ الأذى في المـداراةِ دونَ الرفـقِ. وقـد وردَ في مـدحِها وفوائدِها الدنيويّةِ والأُخرويّةِ أخبارٌ كثيرةٌ كقول النـبيّ ﷺ: «المـداراةُ نـصفُ الإيمـان»[١]، وقوله ﷺ: «ثلاثٌ من لم يكنْ فيه لم يَتِمَّ عملُه: ورعٌ يحجُزُهُ عن معاصي الله، وخُلُقٌ يداري به الناسَ وحِلمٌ يَـرُدُّ به جَهْلَ الجاهلِ»[٢] وقوله ﷺ: «أمَرَني ربّي بمداراةِ الناسِ كما أمَرَني بأداءِ الفرائض»[٣].

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١١٧، باب المداراة، ح ٥.
٢. الكافي، ج ٢، ص١١٦، باب المداراة، ح ١.
٣. الكافي، ج ٢، ص١١٧، باب المداراة. ح ٤.

النوع العاشر: سوءُ الخُلْق بالمعنى الأخصّ

وهو التضجُّرُ، وانقباضُ الوجهِ، وسوءُ الكلام، وأمثالُ ذلك. وهو أيضاً من نتائج الغضبِ، كما أنّ ضِدَّه ـ أعني «حُسنَ الخُلُقِ بالمعنى الأخصّ» وهو أن تُلينَ جَناحَك، وتُطَيِّب كلامَك، وتَلْقى أخاك بِبِشرٍ حَسَنٍ ـ من نتائج الحِلْم، وأكثرُ ما يطلَقُ سوءُ الخُلُقِ وحُسنُه في الأخبارِ يُرادُ به هذا المعنى، ولا ريبَ في أنّ سوءَ الخُلُقِ ممّا يُبْعِدُ صاحبَهُ عن الخالقِ والخَلْقِ، والتجربةُ شاهدة بأنّ الطِباعَ مُتَنَفِّرةٌ عن كلّ سيّئ الخُلُقِ، ويكونُ دائماً أُضْحوكَةً للناسِ، ولا يَنْفَكُّ لحظةً عن الحزنِ والألمِ، ولذا قال الصادق عليه السلام: «مَنْ ساءَ خُلُقُه عذّبَ نفسَه»[1] وقد يَعتريهِ لأجلهِ الضَررُ العظيمُ. هذا كُلّه مع سوءِ عاقبتِه في الآخرةِ وأدائهِ إلى العذابِ الأبديّ، ولذا وردَ به الذمُّ الشديدُ من الشريعةِ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سوءُ الخُلُقِ يفسِدُ العملَ كما يُفسِدُ الخَلُّ العسلَ»[2]، وعنه صلى الله عليه وآله: «إنّ العبد لَيبلُغ من سوءِ خُلُقِهِ أسفلَ دركِ جهنّمَ»[3]. وعنه صلى الله عليه وآله: «أبى اللهُ لصاحبِ الخُلُقِ السيّئ بالتوبةِ، قيل: فكيفَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: «لأنّه إذا تابَ من ذنبٍ وقعَ في ذنبٍ أعظمَ منه». وقال صلى الله عليه وآله: «سوءُ الخلقِ ذنبٌ لا يُغْفَرُ»[4].

وطرقُ العلاجِ في إزالتهِ: أنْ يتذكّرَ أوّلاً أنّهُ يُفسِدُ آخرتَه ودنياهُ، ويَجعلُهُ ممقوتاً عند الخالقِ

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٢١، باب سوء الخلق، ح ٤.

٢. راجع: الكافي، ج ٢، ص ٣٢١، باب سوء الخلق، ح ١ و٣.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٩٣.

٤. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٩٣.

والخَلقِ، فَيُعِدُّ نفسه لإزالتِهِ، ثمّ يُقَدّمُ التروّيَ والتفكّرَ عند كلِّ حركةٍ وتكلُّم، فيحفظُ نفسهُ عنده ـ ولو بالتحمُّلِ والتكلّف ـ من صدورِ سوءِ الخُلُقِ، ويتذكّرُ ما وردَ في مدح حُسْنِ الخلقِ الذي هو ضِدُّهُ، ويواظِبُ حَتّى تزولَ على التدريجِ آثارُهُ بالكلّيةِ.

وضِدّ هذه الرذيلةِ حُسْنُ الخلقِ بالمعنى الأخصِّ، فَمِنْ مُعالجاتِها أنْ يواظبَ عليه حتّى ترتفعَ آثارُها بالكلّيةِ.

النوع الحادي عشر: الحِقْدُ

وقد عرفتَ أنّه إضمارُ العداوةِ في القلبِ، وهو من ثمرةِ الغضبِ، لأنَّ الغضبَ إذا لَزِمَ كظمُهُ -لِعَجْزٍ عن التَشَفّي في الحالِ- رَجَعَ إلى الباطن واحْتَقَنَ فيه فصار حِقداً، وهو من المهلكاتِ العظيمةِ. وقد قال رسولُ اللهﷺ: «المؤمنُ ليس بحقودٍ»[1]. والغالبُ أنّ الحقدَ يلزمُهُ من الآفاتِ الحسدُ، والهجرةُ، والانقطاعُ عن المحقودِ، وإيذاؤُه بالضربِ، والتكلّمُ فيه بما لا يحلُّ من الكذبِ، والغيبةِ، والبُهتانِ، وإفشاءِ السرِّ، وهتكِ السترِ، وإظهارِ العيوبِ، والشَماتَةِ بما يُصيبُهُ من البلاءِ والسرورِ به، والانبساطِ بظهورِ عثَراتِه وهفواتِه، والمحاكاةِ عنه بالاستهزاءِ والسخريةِ، والإعراضِ عنه استصغاراً له، ومنعِ حقوقِه من دَيْنٍ أو ردّ مَظْلِمةٍ أو صِلَةِ رحمٍ. وكلُّ ذلك حرامٌ يؤدّي إلى فسادِ الدينِ والدنيا. وأضعفُ مراتبِهِ أنْ يحْتَرِزَ عن الآفاتِ المذكورةِ، ولا يَرْتَكِبَ لأجْلِه ما يَعصي اللهَ به، ولكن يَستثقِلُه بالباطنِ، ولا ينتهي قلبُه عن بغضِهِ.

وهو أيضاً من الأمراضِ المؤلمةِ للنفسِ، المانعةِ لها عن القربِ إلى الله والوصولِ إلى الملإ الأعلى. ويمنعُ صاحبَه عمّا ينبغي أنْ يصدُرَ عنه بالنسبةِ إلى أهلِ الإيمان من الهشاشةِ والرفقِ والتواضُعِ، والقيامِ بحوائجِهم والمجالَسةِ معهم، والرغبةِ إلى إعانتهم ومواساتِهم وغير ذلك. وهذا كلّه ممّا ينقُصُ درجتَه في الدين، ويَحولُ بينه وبين مُرافقةِ المقرّبين.

---

١. إحياء علوم الدين، ج٣، ص ١٨١، المحجّة البيضاء، ج ٥، ص٣١٧.

ولّما كانت حقيقتُهُ عبارةً عن العداوةِ الباطنةِ، فجميع الأخبارِ الواردَةِ في ذمّ المعاداةِ تدُلُّ على ذمّهِ، كقولِ النبيّ صلى الله عليه وآله: «ما كاد جبرئيل يأتيني إلاّ قال: يا محمّدُ، اتّقِ شَحناءَ الرجالِ وعداوتَهم»[1].

وقوله صلى الله عليه وآله: «ما عَهِدَ إليَّ جبرئيلُ قطُّ في شيءٍ ما عهدَ إليَّ في مُعاداةِ الرجالِ»[2]. وقول الصادق عليه السلام: «من زرعَ العداوةَ حصدَ ما بَذَر»[3] وَقِسْ عليها غيرَها.

وطريقُ العلاج في إزالتِه أنْ يتذكّرَ أنّ هذه العداوةَ الباطنةَ تُؤلمهُ في العاجلِ، إذ الحقودُ المسكينُ لا يخلُو عن التألُّم والهمِّ لحظةً، ويعذّبُه في الآجلِ، ومع ذلك لايضرُّ المحقودَ عليه أصلاً. والعاقلُ لا يدومُ على حالةٍ تكونُ مُضِرّةً لنفسهِ ونافعةً لعدوّه. وبعد هذا التذكُّر، فليجتهدْ في أنْ يعاملَهُ معاملةَ أحبّائِه: من مصاحبتِه بالانبساطِ والرِفقِ، والقيامِ بحوائِجه، وغيرِ ذلك، بل يخُصُّه بزيادةِ البِرِّ والإحسانِ، مجاهَدَةً للنفسِ وإرغاماً للشيطانِ، ولا يزالُ يكرّرُ ذلك حتّى ترتفعَ عن نفسهِ آثارُ هذه الرذيلةِ بالكلّيّة.

ثمّ لّما كان الحقدُ عبارةً عن العداوَة الباطنة ـ وحقيقتُها إضمارُ الشرِّ وكراهةُ الخيرِ لمن يُعاديه ـ فضدّه النصيحة التي هي قصْدُ الخيرِ وكراهةُ الشرِّ ـ لا المحبّة كما يتراءى في بادئ الرأي؛ إذ هي ضدُّ الكراهةِ دون العداوةِ، كما يأتي في محلّه ـ فمَن معالجاتِ الحِقْدِ أنْ يتذكّرَ فوائدَ النصيحةِ ومدحَها لِيُعينَ على إزالَتِه.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٠١، باب المراء والخصومة و...، ح ٥.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٢، باب المراء والخصومة و...، ح ١١.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٢، باب المراء والخصومة و...، ح ١٢.

النوع الثاني عشر: العداوةُ الظاهرةُ

وهي من لوازمِ الحقدِ؛ لأنّه إذا قَوِيَ قوّةً لا يقدِرُ معها على المجاملَةِ أظهرَ العداوةَ بالمكاشَفةِ. والأخبارُ الواردةُ في ذمّها كثيرةٌ، وقد تقدّمَ بعضُها. وعلاجُها كما تقدّمَ في الحقدِ، وضدّها النصيحةُ الظاهرةُ، أعني فِعليّةُ الخيرِ والصلاحِ لا مجرّدَ قَصْدِهما، فلْيُكَلِّفْ نفسَه عليها، حتّى تَصيرَ مَلَكَةً له ويزولَ ضِدُّها.

النوع الثالث عشر: الضربُ والفُحشُ واللعنُ والطَعْنُ

وهذهِ ناشِئةٌ غالباً عن العداوةِ والحِقدِ، وربّما صَدَرتْ من مجرَّدِ الغضبِ وسوءِ الخُلقِ، وربّما صدَرَ الفُحشُ من الاعتيادِ الحاصلِ من مخالَطَةِ الفسّاقِ، وربّما كان الباعثُ في بعضِ أفرادِها حبُّ المالِ وفَقْدُه المعدودُ من رذائلِ قوّةِ الشهوَةِ، إلّا أنّ الفاعلَ المباشِرَ لهذه الأُمورِ هي القوّةُ الغضبيّة، أو النفسُ لهيجانِ قوّةِ الغضبِ، وإنْ كان الهيجانُ حاصلاً بوساطَةِ فعلِ قوّةِ الشهوَةِ. وعلى أيّ تقديرٍ يكونُ من رذائلِ القوّةِ الغضبيّةِ على قاعدَتِنا، ولذا أدرجناها تحتَها فقط.

ثمّ لا ريبَ في كونِ هذه الأُمورِ مذمومةً محرّمةً في الشريعةِ، موجِبَةً لحَبْطِ الأعمالِ وخُسرانِ المالِ. وجَميعُ ما يدُلُّ على ذمِّ الإيذاءِ والإضرار يدُلُّ على ذمّها، لكونِها بعضَ أفرادِهما. والعقلُ والشرعُ متطابقانِ على شدّةِ قُبحِ كلٍّ واحدٍ منها بخصوصهِ وإيجابهِ للهلاكِ.

تنبيه: إعلَم أنّ حقيقةَ الفُحشِ هو التعبيرُ عن الأُمورِ المستَقْبَحةِ بالعبارةِ الصريحةِ. وأهلُ الصلاحِ يتحاشَونَ من التعرّضِ لها، بل الكنايةُ بقضاءِ الحاجةِ عن التبوُّلِ والتغوُّطِ أَوْلى من لفظةِ التغوّطِ والخِراءِ وغيرِهما، وكذا التعبيرُ عن المرأةِ فهذا أيضاً ممّا يُخفى ويُستَحْيَى منه، فلا ينبغي أنْ تُذكَرَ ألفاظُهُ الصريحةُ باللسانِ بل يُكَنَّى عنها، فلا يقالُ: قالت زوجُك أو امرأتُك، بل يقال: قيل في الحجرةِ، أو قيل من وراءِ السترِ، وقالتْ أُمّ الأولادِ، وأمثالُ ذلك. وكذلك مَن به عيوبٌ يَستَحي منها، فلا ينبغي أنْ يعبَّرَ عنها بصريحِ لفظِها، كالبَرَصِ والقَرَحِ والبَطَنِ، وأمثال ذلك، بل يُكَنَّى عنها بعباراتٍ غَيرِ صريحةٍ، مثل العارضِ الذي عَرَضَ، وما يجري مجراه، إذ

التصريحُ بجميع ذلك داخلٌ في الفُحشِ.

ثمّ ألفاظُ الفُحشِ لا ريبَ ـ حينئذٍ ـ في كونها محظورةً بأسرِها مذمومةً، وإنْ كان بعضُها أفحشَ من بعضٍ، فيكونُ إثمُه أشدَّ، سواءٌ استُعمِلَ في الشتمِ والإيذاءِ أو لم يُستعمَلْ فيه، بل في المزاحِ والهزْلِ وغيرِهما. وحينئذٍ لما كانَت هذه العباراتُ متفاوتةً في الفُحشِ بعضُها أفحشُ من بعضٍ، وربّما اختلفَ بعادةِ البلادِ، فيكون بعضُها مكروهاً وبعضُها محظوراً.

وأمّا **اللعنُ**: فلا ريبَ في كونه مذموماً، لأنّه عبارةٌ عن الطَردِ والإبعادِ من الله تعالى، وهذا غيرُ جائزٍ إلّا على من اتّصفَ بصفةٍ تُبعِدُه بنصِّ الشريعةِ. وقد وردَ عليه الذمُّ الشديدُ في الأخبارِ، قال رسولﷺ: «المؤمنُ ليس بلعّانٍ»[١]. وعن الباقرعليه السلام قال:

خطبَ رسولُ اللهﷺ الناسَ، فقال: «ألا أُخبِرُكم بشرارِكم»؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «الذي يمنَعُ رِفْدَهُ، ويضرِبُ عبدَهُ. ويتزَوَّدُ وحدَهُ». فظنّوا أنّ الله لم يخلُقْ خَلْقاً هو شرٌّ من ذلك، ثمّ قال: «ألا أُخبِرُكم بمن هو شرٌّ من ذلك؟»

قالوا: بلىٰ يا رسول الله.

قال: «المتفحّش اللعّان الذي إذا ذُكِرَ عنده المؤمنونَ لعنَهم. وإذا ذكَروهُ لعنوه»[٢].

وقال الباقرعليه السلام: «إنّ اللعنةَ إذا خرجَتْ من فَمِ صاحبِها تردَّدَتْ بينهما فإنْ وجَدَتْ مَساغاً وإلّا رجَعَتْ إلى صاحبِها»[٣].

ثمّ لمّا كان اللعنُ هو الحُكْمَ بالبُعدِ أو طلبَ الإبعادِ من الله. والأوّلُ غيبٌ لا يطّلِعُ عليه إلّا الله. والثاني لا يجوزُ إلّا على من اتّصفَ بصفةٍ تُبعِدُه منه، فينبغي ألّا يَلعنَ أحداً إلّا من جوّزَ صاحبُ الشرع لعنَهُ. والمجوّزُ من الشرعِ إنّما هو اللعنُ على الكافرين والظالمين والفاسقين، كما ورد في القرآنِ. ولا ريبَ في جوازِ ذلك بالوصفِ الأعمّ، كقولك: لعنةُ الله على الكافرين. أو بوصفٍ يخُصُّ بعضَ الأصنافِ.

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢١٩.

٢. الكافي، ج٢، ص ٢٩٠، باب أُصول الكفر وأركانه، ح٧؛ بحار الأنوار، ج٧٢، ص ١٠٧ ـ ١٠٨، باب أُصول الكفر وأركانه، ح٧.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٠، باب السباب، ح ٦ و٧.

والحقُّ جوازُ اللعنِ على شخصٍ معيّنٍ عُلِمَ اتّصافُه بصِفةِ الكُـفْرِ أو الظُـلْمِ أو الفِسْـقِ، إذ المستفادُ من كلامِ الله تعالى وكلامِ رسولهِ ﷺ وكلامِ أئمّتِنا الراشـدين: جـوازُ نسـبتِـهِ إلَى الشخصِ المعيَّنِ، بل المستفادُ منها أنّ اللعنَ على بعضِ أهلِ الجُحودِ والعِنادِ من أحبِّ العباداتِ وأقربِ القُرُباتِ، قال الله سبحانه: ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَ الْمَلَٰئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1]. وقال: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّـٰعِنُونَ﴾[2].

وقال النبيّ ﷺ: «لَعَنَ الله الكاذبَ ولو كان مـازِحاً»[3]. وقـال النـبيّ ﷺ ـ في جـوابِ أبي سفيانَ حين هجاهُ بألفِ بيتٍ ـ: «اللهمّ إنّي لا أُحسِنُ الشعرَ ولا ينبغي لي، اللهمّ العنهُ بِكلّ حرفٍ ألفَ لعنةٍ»[4]. وقد لعنَ أميرُ المؤمنين عليه السلام جماعةً. وروي أنّـه كـانَ يـقنُـتُ في الصـلاةِ المفروضةِ بلعنِ معاويةَ وعمرو بن العاصِ وأبي موسى الأشعري وأبي أعورِ السلمي، معَ أنّه أحْلَمُ الناسِ وأشَدُّهم صفحاً عمّن يسوءُ به، فلولا أنّه كان يرى لعنَهم من الطاعاتِ لما تَخيَّرَ محلَّهُ في الصلواتِ المفروضاتِ[5]. وروى الشيخُ الطوسي: «أنّ الصادقَ عليه السلام كان ينصرِفُ مـن الصلاةِ بلعنِ أربعةِ رجالٍ»[6]. ومَنْ نظرَ إلى ما وقَعَ للحسنِ عليه السلام مع معاويةَ وأصحابِه وكـيفَ لعَنَهُم، وَ تَتَبَّعَ ما وردَ من الأئمّةِ في الكافي وغيرِهِ من كتبِ الأخبارِ والأدعـيةِ في لعـنِهم مـن يستحقُّ اللعنَ من رؤساءِ الضلالِ والتصريحِ بأسمائِهم، يَعلمْ أنّ ذلك من شعائرِ الدين، بحيثُ لا يعترِيه شكٌّ ومِرْيَةٌ. وما وردَ من قولهِ عليه السلام «لا تكونوا لعّانينَ»[7] ومثله، نَهيٌ عن اللعنِ على غيرِ المستحقّين. وماروي: أنّ أميرَالمؤمنين عليه السلام نهى عن لعنِ أهلِ الشامِ،[8] فإنْ صَحَّ، فَلعَلّه كان يرجو إسلامَهم ورجوعَهم إليه، كما هو شأنُ الرئيسِ المشفِقِ على الرعيةِ.

---

١. البقرة(٢): ١٦١.

٢. البقرة(٢): ١٥٩.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٢١.

٤. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٢١.

٥. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٢١.

٦. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٢١؛ تهذيب الأحكام، ج ١، ص٢٢٧.

٧. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص٢٢٢.

٨. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص٢٢٢.

وبالجملةِ، اللعنُ على رؤساءِ الظُلمِ والضلالِ والمجاهرينَ بالكفرِ والفسقِ جائزٌ بل مُستَحبٌّ، وعلى غيرِهم من المسلمينَ غيرُ جائزٍ، إلّا أن يُتَيقَّنَ باتّصافهِ بإحدى الصفاتِ الموجِبَةِ له. وينبغي ألّا يُحكَمَ باتّصافِه بشيءٍ منها بمجرّدِ الظنّ والتخمينِ، إذ لا يجوزُ أنْ يُرمَى مسلمٌ بكفرٍ وفسقٍ من غيرِ تحقيقٍ، قال رسول الله ﷺ: «لا يَرمي رجلٌ رجلاً بالكُفرِ فلا يرميهِ بالفِسْقِ إلّا ارتدّ عليه إنْ لم يكنْ كذلك»[١].

ثمّ اللعنُ على الأمواتِ أشدُّ وِزراً وأعظمُ إثماً، لقول النبيّ ﷺ: «لا تَسُبُّوا الأمواتَ، فإنّهم قد أفْضَوا إلى ما قدّموا»[٢].

ولا ينبغي أنْ يُلْعنَ الجمادُ والحيوانُ أيضاً. لما روي: «أنّه ما لعنَ أحدٌ الأرضَ إلّا قالتْ: اللعنُ على أعصانا لله»[٣]، وما روي: «أنّ النبيّ ﷺ أنكرَ على امرأةٍ لعنتْ ناقةً، وعلى رجلٍ لعنَ بعيراً»[٤].

ثمّ الدعاءُ على المسلمِ بالشرِّ قريبٌ من اللعنِ عليه، فلا ينبغي ارتكابهُ ولو على الظالم، إلّا إذا اضطرّ إليه لشرّهِ وإضرارِه. وقد وردَ أنّ المظلومَ لَيدعو على الظالم حتّى يكافيَه، ثمّ يبقى للظالم عندَه فضيلةٌ يومَ القيامةِ[٥]. وقال عليّ بنُ الحسين عليه السلام:

> إنّ الملائكةَ إذا سمِعُوا المؤمِنَ يذكرُ أخاهُ بالسوءِ ويدعو عليه قالوا: بِئْسَ الأخُ أنتَ لأخيكَ! كُفَّ أيّها المُسْتورُ على ذُنوبِه وعورتِه، واربَعْ على نفسِك، واحمَدِ اللهَ الذي سَتَرَ عليك![٦]

ثمّ ضِدُّ ذلك ـ أَعني الدعاءَ للأخِ المسلمِ بما يُحِبُّ لنفسِه ـ من أحَبِّ الطاعاتِ وأقربِ القُرُباتِ، وفوائدُه أكثرُ من أنْ تُحصَى، بل عند التحقيقِ دعاؤُك له دعاءٌ لنفسِك. قال

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٢٤.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٢٤.
٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢١٩.
٤. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢١٩.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٢٤؛ راجع: الكافي، ج ٢، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤، باب الظلم، ح ١٧.
٦. الكافي، ج ٢، ص ٥٠٨، باب الدعاء للإخوان بظهر الغيب، ح ٧.

رسولُ الله ﷺ: «إذا دعا الرجلُ لأخيه في ظهرِ الغيبِ قال المَلَكُ: ولكَ مثلُ ذلك»[١]. وقال ﷺ: «يُستجابُ للرجلِ في أخيه ما لايُستجابُ له في نفسِه»[٢]. وقال علي بن الحسين عليه السلام:

> إنّ الملائكةَ إذا سمِعوا المؤمنَ يدعو لأخيهِ المؤمنِ بظهرِ الغيبِ أو يذكُره بخيرٍ، قالوا: نِعمَ الأخُ أنت لأخيكَ! تدعو له بالخيرِ وهو غائبٌ عنكَ، وتذكُره بالخير. قد أعطاك الله عزّ وجلّ مثلَي ما سألتَ له، وأثنى عليكَ مثلَي ما أثنيتَ عليه، ولك الفضلُ عليه[٣].

ومثلُه وردَ عن الباقر[٤] عليه السلام أيضاً.

والأخبارُ في فضيلةِ الدعاءِ للإخوان أكثرُ من أنْ تُحصَى، وأيّ كرامةٍ أعظمُ لكَ من أنْ تصِلَ منك إلى المؤمن وهو تحتَ أطباقِ الثّرى هدايا الاستغفارِ والأدعيةِ، وهل تدري كيف تُسرُّ روحُه منك بهذا العملِ؟ فإنّ أهلَه يقسّمونَ ميراثَه ويتنعّمونَ بما خلّفَ، وأنتَ متفرّدٌ بحُزْنِك تدعو له في ظُلمةِ الليلِ.

وأمّا الطعن: فهو أيضاً من ذمائمِ الأفعال، ويورِثُ الضررَ في الدنيا والعذابَ في الأُخرى. قال الباقر عليه السلام: «إيّاكم والطعنَ على المؤمنين»[٥]. وقال عليه السلام: «ما من إنسانٍ يطعنُ في عينِ مؤمنٍ إلّا ماتَ شرَّ مِيتَةٍ، وكان قَمِناً[٦] ألّا يرجِعَ إلى خيرٍ»[٧].

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١٨٦.
٢. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١٨٦.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٥٠٨، باب الدعاء للإخوان بظهر الغيب، ح ٧.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٥٠٧، باب الدعاء للإخوان بظهر الغيب، ح ٢، ٣.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٠، باب السباب، ح ٥.
٦. «قَمِناً» بالتحريك، أي خليقاً.
٧. الكافي، ج ٢، ص ٣٦١، باب السباب، ح ٩.

النوع الرابع عشر: العُجْبُ

وهو استعظامُ نفسِه لأجلِ ما يَرى لها من صِفَةِ كمالٍ، سواءٌ كانت له تلك الصفةُ في الواقعِ أم لا، وسواءٌ كانتْ صفةَ كمالٍ في نفسِ الأمرِ أم لا. وقيل: «هو إعظامُ النِعمةِ والركونُ إليها مع نسيانِ إضافتِها إلى المنعمِ»[1] وهو قريبٌ ممّا ذُكِرَ. ولا يعتبرُ في مفهومِه رؤيةُ نفسِه فوقَ الغيرِ في هذا الكمالِ وهذه النعمةِ، وبذلك يمتازُ عن الكِبرِ، إذِ الكِبْرُ هو أنْ يرى لنفسِه مَزيّةً على غيرِه في صفة كمالٍ، وبعبارةٍ أُخرى هو الاسترواحُ والركونُ إلى رُؤيةِ النفْسِ فوقَ المتكبَّرِ عليه، فالكِبْرُ يستدعي متكبَّراً عليه ومتكبِّراً به.

والعُجبُ لا يستدعي غيرَ المُعْجَبِ، بل لو لم يُخلَقِ الإنسانُ إلّا وحدَهُ تصوّرَ أنْ يكونَ مُعْجَباً، ولا يتصوّرُ أن يكون متكَبِّراً، إلّا أن يكونَ مع غيرِه وهو يرى نفسَه فوق ذلك الغيرِ في صفةِ الكمالِ، ولا يكفي أن يستعظمَ نفسَه ليكونَ متكبِّراً، فإنّه قد يستعظمُ نفسَه، ولكنْ يَرى في غيره أعظمَ من نفسِه أو مثلَ نفسِه فلا يتكبَّرُ عليه، فهو مُعْجَبٌ وليس متكبِّراً. ولا يكفي أن يستحقِرَ غيرَه، فإنّه مع ذلك لو رأى نفسَه أحقرَ أو رأى غيرَه مثلَ نفسِه لم يكنْ متكبِّراً، بلِ المتكبِّرُ هو أن يَرى لنفسِه مَرتبةً ولغيرِه مَرتَبةً، ثمّ يرى مَرتَبةَ نفسِه فوقَ مرتَبةِ غيرِه.

والحاصلُ: أنّ العُجْبَ مجرّدُ إعظامِ النفسِ لأجلِ كمالٍ أو نعمةٍ، وإعظامُ نفسِ الكمالِ والنعمةِ مع الركونِ ونسيانِ إضافتِها إلى الله، فإنْ لم يكنْ معهُ ركونٌ وكان خائفاً على زوالِ النعمةِ

---

١. راجع المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٧٦.

مشفِقاً على تكدُّرِها أو سلبِها بالمرّةِ، أو كان فرحُه بها من حيثُ إنّها من الله من دونِ إضافتها إلى نفسِه لم يكنْ مُعجَباً. فالعُجبُ ألّا يكونَ خائفاً عليها، بل يكونَ فرِحاً بها مطمئنّاً إليها، فيكونُ فرحُه بها من حيثُ إنّها صفةُ كمالٍ منسوبةٌ إليه، لا من حيثُ إنّها عطيةٌ منسوبةٌ إلى الله تعالىٰ. ومهما غلبَ علىٰ قلبِهِ أنّها نعمةٌ من الله مهما شاءَ سَلَبَها زالَ العُجْبُ. وهنا بحوثٌ:

البحث الأوّل: ذمّ العُجْبِ

العُجْبُ من المهلكاتِ العظيمةِ وأرذلِ الملكاتِ الذميمةِ، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مُهلكاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوىً مُتَّبعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسِه»[١]. وقال ﷺ: «إذا رأيتَ شُحّاً مُطاعاً، وهوىً مُتّبَعاً، وإعجابَ كلّ ذي رأيٍ برأيه، فعليك نفسَك»[٢]. وقال ﷺ:

بينما موسى عليه السلام جالسٌ، إذ أقبل عليه إبليسُ وعليه بُرْنُسٌ ذو ألوانٍ، فلمّا دنا منه خلَعَ البرنسَ، وقامَ إلى موسى عليه السلام فسلّم عليه، فقال له موسى عليه السلام: من أنتَ؟ فقال: أنا إبليس، قال: أنتَ! فلا قرَّبَ الله دارَك، قال: إنّي إنّما جئتُ لأُسلّمَ عليك لمكانِكَ من الله، فقال له موسى عليه السلام: فما هذا البُرنسُ؟ قال: به اختطفُ قلوبَ بني آدم، فقال موسى عليه السلام: فأخبرني بالذنبِ الذي إذا أذنبه ابنُ آدمَ استحوذتَ عليهِ، قال: إذا أعجَبَتْهُ نفسُهُ واستكثَرَ عملَهُ وصَغُرَ في عينه ذَنبُه[٣].

وقال الباقر عليه السلام:

دخلَ رجلانِ المسجدَ، أحدُهما عابدٌ والآخَرُ فاسقٌ، فخرجا من المسجدِ والفاسقُ صدّيقٌ والعابدُ فاسِقٌ، وذلك أنّه يدخلُ العابدُ المسجدَ مُدِلاًّ بعبادتِه يُدِلُّ بها فتكون فكرتُه في ذلك، وتكونُ فكرةُ الفاسقِ في الندمِ على فِسقِه، ويستغفرُ الله عزّوجلّ ممّا صنعَ من الذنوبِ[٤].

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٧٢.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٧٢.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٣١٤، باب العجب، ح ٨.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٣١٤، باب العُجب، ح ٦.

البحث الثاني: آفاتُ العُجْبِ

العجبُ آفاتُه كثيرةٌ: منها الكِبْر؛ لأنّه أحدُ أسبابِه ومنها أنّه يدعو إلى نسيانِ الذنوبِ وإهمالِها، فلا يتذكّرُ شيئاً منها، وإنْ تذكّرَ بعضاً منها يَستصغرُها ولا يَستعظمُها، فلا يجتهدُ في تداركِها وتَلافيها، بل يظنُّ أنّها تُغفرُ له. وأمّا العباداتُ، فيستعظمُها ويَتَبَجّحُ بها ويمنُّ على الله بفعلِها، ويَنسى نعمةَ الله عليه بالتوفيقِ والتمكينِ منها، وإذا أُعجِبَ بها عمي عن آفاتِها. ومن لم يَتَفَقّدْ آفاتِ الأعمالِ ضلّ سعيُه، إذِ الأعمالُ الظاهرةُ إذا لم تكنْ خالصةً نقيّةً عن الشوائبِ قلّما تنفعُ، وإنّما يتفقّد الخائفُ المشفِقُ دون المُعْجَبِ؛ لأنّه يَغْتَرُّ بنفسه وبرأيه ويأمنُ مَكْرَ اللهِ وعذابَه، ويظنُّ أنّه عند الله بمكانٍ، وأنّ له عندَ الله حقّاً بأعماله التي هي من عطاياه تعالى ونعمِه، وربّما يُخْرِجُه العُجْبُ إلى تزكيةِ نَفْسِه والثناءِ عليها.

وإنْ أُعجِبَ برأيه وعقلِه وعلمِهِ منَعَهُ ذلك من السؤال والاستفادةِ والاستشارَةِ، فيَستَبدُّ بنفسِه ورأيه ويستنكفُ عن سؤالِ الأعلم، وربّما يُعْجَبُ بالرأي الخطأ الذي خطرَ له، فيفرحُ بكونِه من خواطرِه ولا يعتني بخواطرِ غيرِه، فيُصِرُّ عليه ولا يسمعُ نُصحَ ناصحٍ ولاوَعْظَ واعظٍ، بل ينظرُ إلى غَيرِهِ بعينِ الاستحقارِ والاستجهالِ، فإنْ كان رأيهُ الفاسدُ متعلّقاً بأمرٍ دنيويّ أضرّهُ وَ فَضَحهُ، وإنْ كان متعلّقاً بأمرٍ ديني ـ سيّما في أُصولِ العقائد ـ أضلّه وأهلكَهُ. ولو اتّهَمَ نفسَه ولم يثقْ برأيه، واستعانَ بعلماءِ الدينِ وسؤالِ أهلِ البَصيرةِ، لكان خيراً له وأحسنَ، ومُوصِلاً له إلى الحقّ المتيقَّن. ومن آفاته أنّه يفترُ في الجدّ والسعي، لظنّه أنّه قد استغنى وفازَ بما يُنْجيه، وهو الهلاكُ الصريحُ الذي لا شُبْهَةَ فيه.

البحث الثالث: علاجُ العُجْبِ إجمالاً وتفصيلاً

اعلم أنّ للعُجْبِ علاجين: إجماليّاً وتفصيليّاً:

أمّا العلاجُ الإجمالي فهو أنْ يعرفَ ربَّهُ، وأنّه لاتليقُ العظمةُ والعزّةُ إلّا به، وأنْ يعرفَ نفسَهُ حقّ المعرفةِ، ليعلمَ أنّه بذاتهِ أذَلُّ مِنْ كلِّ ذليلٍ وأقلُّ من كلِّ قليلٍ، ولا تليقُ به إلّا الذِلَّةُ

والمهانَةُ والمسكَنَةُ، فما له والعُجْبُ واستعظام نفسه، فإنّه لا ريبَ في كونه ممكِناً، وكلُّ ممكنٍ في ذاته صرفُ العدمِ ومحضُ اللاشيء ـ كما ثبتَ في الحكمة المتعالية ـ ووجوده وتحققُّه وكمالُه وآثارُه جميعاً من الواجب الحقِّ، فالعظمةُ والكبرياءُ إنّما تليقُ بمفيضِ وجودِه وكمالاتِه، لا لذاتِه التي هي صرفُ العدمِ ومحضُ الليس. فإنْ شاء أن يَستعظمَ شيئاً ويفتخرَ به فليستعظمْ ربّه وبه افتخَرَ، ويَسْتَحْقِرْ نفسَهُ غايةَ الاستحقارِ حتّى يراها صِرفَ العدمِ ومَحْضَ اللاشيء. وهذا المعنى يشترك فيه كلُّ ممكنٍ كائناً من كان.

وأمّا المهانةُ والذلّةُ التي تخصّ هذا المُعْجَبَ وبني نوعِه، فكونُ أوّلِهِ نطفةً قَذِرَةً وآخرِه جيفةً عَفِنةً، وكونُه ما بينَ ذلك حمّالَ نجاساتٍ مُنْتِنَةٍ[١]، وقد مرّ على ممرِّ البولِ ثلاثَ مرّاتٍ. وتكفيه آيةٌ واحدةٌ من كتابِ الله تعالى لو كان له بصيرةٌ، وهي قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ * ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾[٢].

فقد أشارت الآيةُ إلى أنّه كان أوّلاً في كَتْمِ العَدَمِ غيرِ المتناهي، ثمّ خلقَهُ من أقْذَرِ الأشياءِ الذي هو نُطفةٌ مَهينةٌ، ثمّ أماتَهُ وجعلهُ جِيفةً مُنتِنَةً خَبيثَةً.

وأيُّ شيءٍ أخسُّ وأرْذَلُ ممّن بدايَتُهُ مَحْضُ العَدَمِ، وخِلْقَتُهُ من أنْتَنِ الأشياءِ وأقذرِها، ونهايتُه الفناءُ وصيرورَتُه جيفةٌ خبيثةٌ. وهو ما بين المبدأ والمنتهى عاجزٌ ذليلٌ، لم يفوّضْ إليه أمرُهُ، ولم يقدرْ على شيء لنفسِهِ ولا لغيره، إذ سُلِّطَتْ عليه الأمراضُ الهائلةُ، والأسقامُ العظيمةُ، والآفاتُ المختلفةُ، والطبائعُ المتضادّةُ، من المرّةِ والدمِ والريحِ والبلغمِ، فيهدِمُ بعضُ أجزائه بعضاً، شاءَ أم أبى، رضي أم سخطَ، فيجوعُ كُرْهاً، ويعطشُ كُرْهاً، ويمرضُ كُرْهاً، ويموتُ كُرْهاً، لا يملكُ لنفسِه نَفْعاً وضَرّاً ولا خَيراً وشَرّاً. يُريدُ أنْ يَعلمَ الشيءَ فيجهلُه، ويريدُ أن يذكرَ الشيءَ فينساهُ، ويريدُ أنْ ينسى الشيءَ فلا يَنساهُ، ويريدُ أنْ ينصرِفَ قلبُه إلى ما يَهُمُّه فيجولُ في أودية الوَساوِس والأفكارِ بالاضطرارِ. فلا يَمْلِكُ قلْبُهُ قَلْبَهُ، ولانفسُهُ نفسَهُ . يشتهي الشيءَ وفيه هلاكُهُ، ويكرهُ الشيءَ وفيه حياتُه، يَستلِذُّ ما يُهلِكُه ويُرديهِ، ويستبشِعُ ما ينفعُهُ

---

١. اقتباس من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «ما لابن آدمَ والفَخرِ؟ أوّلُهُ نُطفة وآخِرُه جيفة...» (نهج البلاغة، ص ٥٥٥، الحكمة ٤٥٤) وانظر: الكافي، ج ٢، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩، باب الفخر والكبر.

٢. عبس (٨٠): ١٧ ـ ٢٢.

ويُنْجيهِ، ولا يأمنُ في لحظةٍ من ليلِه أو نهاره أنْ يُسلَبَ سمعَهُ وبصرَهُ وعِلْمَهُ وقدرتَهُ، وتُفلَجَ أعضاؤهُ، ويُختلَسَ عقلُه، وتُختطَفَ روحُه، ويُسلَبَ جميعَ ما يهواه في دنياهُ، وهو مُضْطَرٌّ ذليلٌ، إنْ تُرِكَ فني، وإنْ خلا ما بَقي، عبدٌ مملوكٌ، لا يقدرُ على شيءٍ من نفسه ولا من غيره. فأيّ شيءٍ أذلُّ منه لو عرفَ نفسَه؟ وأنّى يَليقُ العُجْبُ به لو لا جهلُهُ؟ وهذا وسَطُ أحوالِه.

وأمّا آخره، فهو الموتُ ـ كما عرفتَ ـ فيصيرُ جيفةً مُنتِنةً قَذِرَةً، ثمّ تضمحِلُّ صورتُه، وتَبلى أعضاؤه، وتَنْخرُ عظامُه، وتَتَفَتّتُ أجزاؤه، فيصيرُ رَميماً رُفاتاً، ثمّ يَصيرُ روثاً في أجوافِ الديدانِ، يهربُ منه الحيوان، ويستقذِرُه كلُّ إنسانٍ، وأحسنُ أحوالِه أنْ يعودَ إلى ما كان، فيصيرَ تراباً تُعملُ منه الكِيزانُ[١]، ويُعمَرُ منه البُنيان. فما أحسنَه لو تُرك تُراباً، بل يحيى بعد طولِ البلى ليقاسيَ شدائدَ البِلى، فيخرجُ من قبره بعد جمع أجزائه المتفرِّقَةِ، فإذا هو في معرِضِ المؤاخَذَةِ والحسابِ، وعليه ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ، فَيُعطَى كتابَه إمّا بيمينه أو شِماله، فيرى فيه جميعَ أعمالِه وأفعالِه، من قليلٍ وكثيرٍ ونقيرٍ وقِطْميرٍ. فإنْ غلبتْ سيّئاتُه على حسناتِه وكان مستحِقّاً للعذابِ والنارِ، تمنّى أنْ يكونَ كلباً أو خِنزيراً، لصيرَ مع البهائمِ تُراباً ولا يَلقى عِقاباً ولا عذاباً. ولا ريبَ في أنّ الكلبَ والخنزيرَ أحسنُ وأطيبُ ممّن عصى ربَّهُ القهّارَ ويُعذّبُ في النار، إذ أوّلهما وآخرهما الترابُ، وهما بمعزِلٍ عن العقابِ والعذابِ، والكلبُ والخنزيرُ لا يهربُ منهما الخَلْقُ، ولو رأى أهلُ الدنيا من يُعذَّبُ في النار لصُعِقوا من وَحْشَةِ خِلْقَتِهِ وقُبحِ صُورَته، ولو وجدوا ريحَه لماتوا من نَتْنِه، ولو وقعتْ قَطْرَةٌ من شرابه الذي يُسقاه في بحارِ الدنيا صارتْ أنتنَ من الجيفةِ المُنتِنَةِ.

فما لمن هذه حاله والعُجْبُ واستعظامُ نفسه! وما أغْفلَهُ من التَدَبُّرِ في أحوالِ يومِهِ وأمسِهِ! ولو لم يُدْرِكْه العذابُ ولم يُؤْمَرْ به إلى النارِ فإنّما ذلك للعفوِ، وليس يدري أيُعفى عنه أم لا. أفترى أنّه مع هذهِ الحالةِ يكونُ مُعجَباً بنفسه؟! ولا أظُنّك أنْ تَظُنّ ذلك.

فما من عبد مُذْنِبٍ، ولو أذنب ذَنْباً واحداً، إلّا وقد استحَقّ عقوبةً من الله، والدنيا سِجْنُهُ، ولا يدري كيف يكونُ أمرُهُ، فيكفيه ذلك خوفاً ومهانةً وذِلّةً. فلا يجوزُ له أنْ يَعْجَبَ ويَستعظِمَ

---

١. جمع كُوز: وهو إناء يُشرب به الماء، يُعمل من الطين المشويّ.

نفسَه. هذا هو العلاجُ الإجمالي للعُجْبِ.

وأمّا التفصيلي فهو أنْ يقطعَ أسبابَهُ ـ أعني ما به العُجْبُ ـ وهي العلمُ، والمعرفةُ، والعبادةُ، والطاعةُ، وغيرِ ذلك من الكمالاتِ النفسيةِ، كالورعِ، والشجاعةِ، والسخاوةِ، والنسَبِ، والحسَبِ، والجمالِ، والمالِ، والقوّةِ، والبطشِ، والجاهِ، والاقتدارِ، وكَثرَةِ الأعوانِ والأنصارِ، والكِياسةِ، والتَفطُّنِ لدقائقِ الأُمورِ والرأي الخطأ.

أمّا العُجْبُ بالعلم: فعلاجُه أنْ يَعْلَمَ أنَّ العالِمَ الحقيقيّ هو الذي يعرِفُ نفسَه وخطرَ الخاتمةِ، وأنَّ من تَليقُ به العظمةُ والعزّةُ والكبرياءُ هو اللهُ سبحانه، وما عداه هالِكُ الهويّةِ والذاتِ فاقِدُ الكمالِ والصفاتِ. وهذا العلمُ يزيدُ الخوفَ والذِلّةَ والمهانَةَ والمسكَنةَ، والاعترافَ بالقُصورِ والتقصيرِ في أداءِ حقوقِ الله، والشكرَ بإزاءِ نعمِهِ. فالعلمُ الذي لا يوجِبُ ذلك ويُورِثُ العُجْبَ، إمّا ليس علماً حقيقيّاً، بل هو من العلوم الدنيويّةِ التي ينبغي أنْ تُسمّى صناعاتٍ لا علوماً، أو صاحبُه خاضَ فيه وهو خَبيثُ النفسِ رديء الأخلاقِ لم يهذّبْ نفسَه أوّلاً ولم يُزَكِّها بالمجاهداتِ ولم يَرُضْها في عبادةِ ربّه، فيبقى خبيثَ الجوهرِ، فإذا خاضَ في العلمِ، وإنْ كان عِلْماً حقيقيّاً صادفَ من قَلبِهِ منزلاً خبيثاً، فلم يَطِبْ ثمرُهُ ولم يَظهرْ في الخيرِ أَثرُهُ، فإنّ العلمَ مثَلُه مثلُ الغَيثِ يَنْزِلُ من السماءِ عذْباً صافياً، فإذا شرِبَتْهُ الأشجارُ والنباتاتُ ازداد المرُّ مرارةً والحلوُ حلاوةً، كذلك العلمُ إذا صادفَ القلوبَ ازدادَ القلبُ المظلِمُ الخبيثُ ظُلْمةً وخباثةً. والطيِّبُ الصافي طيباً وصفاءً.

وإذا عَلِم ذلك يَعرفُ أنّه لا ينبغي العُجْبُ بالعلم، ويجبُ أيضاً أنْ يَعلمَ أنّه إذا أُعجِبَ بنفسِه صارَ ممقوتاً عند الله مبغوضاً لديه، لما تقدّمَ من الأخبار. وقد أحبّ اللهُ منه الذِلّةَ والحقارةَ عند نفسِه، وقال بواسِطةِ سُفرائه: «إنَّ لك عندي قَدْراً مالم تَرَ لنفسِك قَدْراً، فإنْ رأيتَ لنفسِك قَدْراً فلا قَدْرَ لك عندي»[1]. وقال: «صَغِّروا أنفسَكم ليعظمَ عندي محلُّكم»[2]. فلابدّ أنْ يُكلّفَ نفسَه ما يحبُّ مولاه، وأنْ يَعلمَ أنّ حُجّةَ الله على أهلِ العلم أوكَدُ، وأنّه يَتحمّلُ من الجاهلِ ما

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٤٢ و ٢٦٢.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٦٣.

لا يتحمّلُ عُشْرَهُ من العالِم؛ لأنّ العالمَ إذا زلّ زلّ بزلّتِهِ كثيرٌ مِن الناسِ، ولأنّ من عصى الله عن علمٍ ومعرفةٍ كانتْ جنايتُه أفحشَ، إذ لم يقضِ حقَّ نعمةِ اللهِ عليه في العلمِ؛ ولذلك قال رسولُ الله ﷺ:

يُؤتى بالعالِمِ يومَ القيامةِ فَيُلْقَى في النارِ، فتندلِقُ أقتابُه، فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ بالرحى، فيطيفُ به أهلُ النارِ، فيقولونَ: مالكَ؟ فيقولُ: كنتُ آمرُ بالخيرِ ولا آتيهِ وأنهى عن الشرّ وآتيهِ[١].

وقد مثّلَ الله تعالى علماءَ اليهود بالحمار[٢]، وبلْعَم بنَ باعوراء بالكلبِ[٣]؛ لِعدَمِ عَمَلِهم بما عَلِموهُ. وقال رسولُ الله ﷺ:

يكون قومٌ يقرؤون القرآن لا يجاوزُ حَناجِرَهم، يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقْرَأُ منّا ومن أعْلَمُ منّا، ثمّ التفتَ إلى أصحابِه فقال: «أُولئك منكم أيُّها الأُمّة، أُولئك هم وَقُودُ النارِ»[٤].

وقال ﷺ:

إنّ أهلَ النارِ ليتأذّونَ من ريح العالِمِ التارِكِ لِعلْمِهِ، وإنّ أشدَّ أهلِ النارِ ندامةً وحسرَةً رجلٌ دعا عبداً إلى الله فاستجابَ له وقَبِلَ منه، فأطاعَ اللهَ فادخلَهُ اللهُ الجنّةَ، وأدخلَ الداعي النارَ بتركِه عِلْمِهُ واتّباعِهُ الهوى وطولِ الأملِ»[٥].

وقال روح الله عليه السلام: «ويلٌ لعلماءِ السوءِ كيفَ تَتَلَظّى عليهم النارُ»[٦] وقال الصادقُ عليه السلام: «يُغْفَرُ للجاهلِ سبعونَ ذنباً قبل أنْ يُغْفَرَ للعالم ذنبٌ واحدٌ»[٧].

ولا ريبَ في أنّ كلَّ عالمٍ يأمرُ الناسَ بالتواضُعِ وذُلِّ النفسِ وانكسارِها، وينهاهم عن

---

١. منية المريد، ص ١٥٢؛ المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٣١٠.

٢. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مثل الذين حُمّلوا التورية ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾، الجمعة (٦٢): ٥.

٣. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فمثله كمثل الكلب إنْ تحمل عليه يلهث أوتتركه يلهث﴾، الأعراف (٧): ١٧٦.

٤. منية المريد، ص ١٣٧؛ كنز العمّال، ج ١٠، ص ٢١٢، ح ٢٩١٢١.

٥. الكافي، ج ١، ص ٤٤، باب استعمال العلم، ح ١؛ منية المريد، ص ١٤٦.

٦. الكافي، ج ١، ص ٤٧، باب لزوم الحُجّة على العالم وتشديد الأمر عليه، ح ٢.

٧. الكافي، ج ١، ص ٤٧، باب لزوم الحُجّة على العالم وتشديد الأمر عليه، ح ١.

العُجبِ والكِبْر، وهو مُعْجَبٌ مُتكَبِّرٌ، يكون من علماءِ السوءِ، وممّن لم يـعملْ بـعِلْمه، فـيكونُ داخلاً تحتَ هذه الأخبارِ. وأيُّ عالمٍ يُتَصَوّرُ في أمثالِ هذه الأزمنةِ أن يجزِمَ بأنّه عملَ بجميع ما عَلِمَ وأمَر به، ولم يُضِعْ شيئاً من أوامرِ ربّه من الجناياتِ الظاهرةِ والذنوبِ الباطنةِ، كـالرياء والحسدِ والعُجْبِ والنفاقِ وغيرِ ذلك؟ وكيفَ يمكنُه القطعُ بأنّه امتَثَلَ ما أُمِر به من التكـاليفِ العامّةِ والخاصّة به؟ فخطرُهُ أعظَمُ من خطرِ غيرِه، كيف وقد رُوي: «أنّ حذيفةَ صلّى بقوم، فلمّا سلّم قال: لَتَلْتَمِسُنّ إماماً غيري أو لتُصَلُّنَّ وُحداناً، فإنّي رأيتُ في نفسي أنّـه ليس في القـومِ أفضلُ منّي»[1]. فإذا كان مثلُه لا يَسْلَمُ، فكيفَ يَسْلَمُ الضعفاءُ من متأخّري هذه الأُمّةِ، فما أعزّ ـ على بسيطِ الأرض في هذه الأعصارِ ـ علماءَ الآخرةِ الذين أقبلوا على شأنِهم، واستوحشوا من أوثقِ إخوانهم[2]، وشَغَلَهُم عظيمُ الأمرِ عن الالتفاتِ إلى الدنيا وزَهرَتِها، وأزعجَهم خوفُ الرحمن عن مضاجِعِهم في حنادسِ الليالي وظُـلْمَتِها، ولا يَشْـتَهونَ مـن نـعيم الدنـيا حـارّاً ولاباردأ، وصارتْ همومُهم همّاً واحداً، هيهات! فأنّى يَسمحُ آخِرُ الزمانِ بمثلِهم؟ فهم أربابُ الإقبال وأصحابُ الدُوَلِ، وقد انقرضوا في القرون الأُوَلِ، بل يعزّ أنْ يوجدَ في زمانِنا هذا عالمٌ لاتكونُ له استطالةٌ وخيلاءُ، ولم يكن متكبِّراً على الفقراءِ، ومتواضِعاً للأغنياءِ. فينبغي لكـلِّ عالم أنَ يَتفكّر في أحوالِهِ وأعمالِهِ وما أُريدَ منه، وفي عِظَمِ خَطَرِه حتّى تنكسِرَ نفسُه، ويـظهَرَ خوفُه وحزنُه ويبطُلَ كِبْرُهُ وعُجْبُه.

وأمّا العُجْبُ بالعبادةِ والطاعةِ: فعلاجُه أنْ يَعلَمَ أنّ الغَرضَ من العبادةِ هو إظهارُ الذلّ والانكسارِ، وصيرورتُها ملكةً للنفسِ ليحصُلَ له معنى العبوديّةِ وحقيقتُها، فالعُجْبُ لمنافاتِه الغرضَ المقصودَ منها يُبطلُها، وبعد بطلانِها فلا معنى للعُجْبِ بها. وأيضاً آفاتُ العبادةِ الموجِبَةِ لحَبْطِها كثيرةٌ، وكذلك شرائطُها وآدابُها التي لا تصحُّ بدونها كثيرةٌ، فيمكنُ أن تَدخُلَها بعضُ الآفاتِ، أو تُـفْـقَـدَ عنها بعضُ الشرائطِ والآدابِ، فلا تكونُ مقبولةً عندَ الله، ومـع إمكـانِ

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٣٨.

٢. إشارة إلى قول الإمام أبي عبد الله عليه السلام: «طلبة العلم ثلاثة... وصاحب الفقه والعقل ذو كآبةٍ وحـزنٍ وسهـر، قـد تحنّك في بُرنُسه، وقام اللّيل في حندسه، يعمل ويخشى وجلاً داعياً مشفقاً، مقبلاً على شأنه، عـارفاً بأهـل زمـانه، مستوحشاً من أوثق إخوانه، فشدّ الله من هذا أركانه». (الكافي، ج ١، ص ٤٩، باب النوادر، ح ٥).

رَدِّها وعدمِ قبولِها، كيفَ يعجَبُ العاقلُ بها؟ ومن يُمكنُهُ القطعُ بسلامةِ طاعاتِه وعباداتِه عن جميعِ الآفاتِ؟ ومن قَطَعَ بذلك فهو في غايةِ الجهلِ بحقائقِ الأُمورِ. على أنّ فائدةَ العبادةِ إنّما هي إذا كان عند الله سعيداً، ومن جوّزَ أن يكونَ عند الله شقيّاً، وقد سبقَ القضاءُ الإلهي بشِقْوَتِه، فأيّ نفعٍ يَتَصَوَّرُ لعبادتِه حتّى يُعْجَبَ بها؟ ولا ريبَ في أنّه لا يخلُو عبدٌ عن هذا التجويزِ، فما لأحدٍ إلى العُجْبِ والتكبّرِ في حالٍ من الأحوالِ سبيلٌ.

وأمّا العُجبُ بالورعِ، والتقوى، والصبرِ، والشكرِ، والسخاوةِ، والشجاعةِ، وغيرِها من الفضائلِ النفسيّة: فعلاجُه أنْ يَعلَمَ أنّ هذه الفضائلَ إنّما تكونُ نافعةً ومنجيةً إذا لم يدخلْها العُجْبُ، وإذا دخلها العُجْبُ أبطلَها وأفسدَها. فما للعاقلِ أن يَرْتَكِبَ رذيلةً تضيّع ما لهُ من الفضائلِ، وأنّى له لا يُظهِرُ الذلّةَ والتواضُعَ في نفسِهِ حتّى يزيدَ فضيلةً على فضائلِها، وَ يختمَ لأجْلِها الجميعَ بالخيرِ، وتصيرَ عاقبتُه محمودةً، وتكونَ مساعيه مقبولةً مشكورةً.

وينبغي أنْ يعلمَ أنّ كلّ واحدٍ من الفضائل التي يُثبتُها لنفسِه موجودةٌ مع الزيادة في كثيرٍ منِ بني نَوعِه، وإذا علم اشتراكَ الناسِ معه في هذه الفضيلةِ زال إعجابهُ بها. وقد نُقِلَ أنّ واحداً من مشاهيرِ الشُجعانِ إذا قابل خَصْمَه اصفرّ لونُه وارتعدتْ فَرائصُهُ[١] واضطربَ قلبُه، فقيل له: ما هذه الحالةُ، وأنت أشجعُ الناس وأقواهم؟ فقال: إنّي لم أمتحِنْ خصمي،فلعلّه أشجعُ منّي. وأيضاً النصرُ والغلبةُ وحسنُ العاقبةِ مع الذلّة والمسكنةِ، لا مع الإعجاب بالقوّةِ والشجاعةِ، فإنّ الله عند المنكسِرةِ قلوبُهم.

ومن العجائب أنْ تُعجَبَ بنفسكَ، ولا تُعجَب بمن إليه الأمرُ كلُّه، ولا تعجَبُ بجودِه وكرمِه وفضلِه في إيثاره إيّاك على الفسّاق من عباده، إذ مكّنهُم من أسباب الشهواتِ واللذّاتِ، وزَواها عنكَ، وصرفَ عنهم بواعثَ الخيرِ وهيّأها لكَ، حتّى يتيسّرَ لك الخيرُ من غيرِ وسيلةٍ سابقةٍ منك. روي:

أنّ أيّوبَ عليه السلام قال: إلهي إنّك ابتلَيْتَني بهذا البلاءِ، وما ورد عليَّ أمرٌ إلّا آثرتُ هواكَ على هواي، فنُودِيَ من غمامةٍ بعشرةِ آلافِ صوتٍ: يا أيّوبُ! أنّى لكَ ذلك؟ قال:

---

١. أي أعضاؤه.

فأخذَ رماداً فوضعَهُ على رأسِهِ، وقال: منكَ يا ربّ! فرجَعَ عن نسيانِه، وأضاف ذلك إلى الله تعالى، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾[1].

وقال النبيّ ﷺ: «ما منكم من أحدٍ يُنْجيه عَمَلَهُ»، قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله! قال: «ولا أنا، إلّا أنْ يتغمّدَني اللهُ برحمتِهِ»[2].

وأما العُجْبُ بالجمال: فعلاجُه أنْ يعلمَ أنّه في معرضِ الزوالِ بالعِلَلِ والآلامِ والأمراضِ والأسقامِ، وأيُّ عاقلٍ يُعجَبُ بشيءٍ تُزيلُه حمّى يومٍ أو قُرْحَةٌ أو جُدَرِي!

بر مال و جمال خويشتن غـرّه مشـو   كآن را به شبى برند و اين را به تـبى

ولو لَمْ يَرتفعْ بها، فهل يَشُكُّ عاقلٌ بزوالِهِ بذَهابِ الشبابِ ومجيءِ الشيبِ، وبالموتِ الذي لابدّ أنْ تذوقَهُ كُلُّ نفسٍ؟ فانظرْ إلى الوجوهِ الجميلةِ والأبدانِ الناعمةِ، كيفَ تمزّقَتْ في الترابِ وأنتنَتْ في القبورِ، بحيثُ استقذَرَتْها الطباعُ.

على أنّه لو نظرَ نظرَ العقلاءِ في باطنِه عندَ اتّصافِهِ بغايةِ جَمالِه، لرأى من الفضائحِ ما يُكدِّرُ عليه العُجْبَ والتعزُّزَ به، فإنّه وكِّلَتْ إليه الأقذارُ في جميعِ أجزائه: البُصاقُ في فَمِه، والمخاطُ في أنْفِهِ، والوسخُ في أُذنِهِ، والنتنُ تحتَ إبطِهِ، والصديد تحتَ بَشَرتِه، والفضلاتُ في مَعِدَتِه، والرجيع في أمعائِه، والديدانُ في أحشائه، والبولُ في مثانتِه، والصفراءُ في مَرارتِه، يتردّدُ إلى الخلاءِ كلّ يوم مرّتينِ، ويغسلُ الغائطَ كلّ يوم بيده مرّتينِ، يخرجُ من باطنِه ما لو رآهُ بعينِهِ لا ستقذَرَهُ فضلاً أنْ يمسَّهُ أو يَشُمَّهُ. وفي أوّلِ أمرِه خُلِقَ من الأقذارِ الشنيعةِ الصُوَرِ: من النطفةِ ودمِ الحيضِ، وخرجَ من مجاري الأقذارِ. ولو تَرَكَ نفسَهُ في حياتِه يوماً لم يَتعهّدْهُ بالغسلِ والتنظيفِ لثارتْ منه الأنتانُ والأقذارُ، وصارَ أقذرَ وأنتنَ من الدوابّ المهمَلَةِ. هذا أوّلُه ووسطُهُ، وسيموتُ فيصيرُ جيفةً أقذَرَ من سائرِ الأقذارِ. فما للعاقلِ أنْ يَعجَبَ ويَتعزّزَ بهيئةٍ حاصلةٍ لبدنٍ هذهِ حقيقَتُهُ!

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢، والآية في سورة النور (٢٤): ٢١.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٨٢.

وأمّا العُجْبُ بالعقلِ والكياسَةِ والتفطُّنِ لدقائقِ الأُمورِ: فعلاجُه أنْ يعلمَ أنّ ذلك يزولُ عنه بأدنى مرضٍ يصيبُ دماغَهُ، وربّما زالَ عقلهُ دفعةً. مع أنّه إنْ كانَ في الواقعِ فَطِناً كيّساً في الأُمورِ يلزمُ عليه أنْ يشكرَ الله تعالى على ذلك، ويَسْتَصْغِرَ عقلَهُ وفطانتَهُ، لِيُبْقِيَ اللهُ تعالى عليه تلكَ النعمةَ، ولا يَسْلُبَها عنهُ لأجْلِ عُجْبِهِ.

وأمّا العُجْبُ بالرأي الخطأ الذي يُزَيِّنُ له بجهلِه فهو أقبحُ أنواعِ العُجْبِ، إذ جميعُ أهلِ البِدَعِ والضَلالِ والفِرَقِ الذين اختاروا مذاهبَ باطِلةً وآراءً فاسدةً إنّما أصَرُّوا عليها لعُجْبهم بها، ولذا يفتخِرون بمذاهِبِهم على غيرِهم، وبذلك هلكَتِ الأُمَمُ إذا افترقتْ فِرَقاً، وكُلٌّ مُعْجَبٌ برأيه، و: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1].

فكُلُّ مَنْ استحسنَ ما يَسوقُه إليه الهوى والشُبْهةُ ـ مع ظنّ كونِه حقّاً ـ يكونُ له هذا العُجْبُ، وقد أخبرَ رسولُ الله ﷺ: أنّ ذلك يَغلِبُ على آخرِ هذه الأُمّةِ[2]. وعلاجُه أشدُّ من علاجِ غيرِه، لأنّ صاحبَ الرأي الخطأ جاهلٌ بخطئه، ولو عرفَهُ لتركَهُ. ولا يُعالَجُ الداءُ الذي لا يُعرفُ، إذ العارِفُ يقدِرُ على أنْ يُبيّنَ للجاهلِ جهلَهُ ويُزيلَه عنه إذا لم يكنْ مُعْجَباً برأيِهِ وَجَهلِهِ، وإذا كان مُعْجَباً به يَتّهِمُهُ ولا يُصغي إليه حتّى يُعالجَهُ، فقد سُلّطَتْ عليه بليّةٌ تُهلِكُه وهو يَظُنُّ أنّها نِعْمةٌ. وكيفَ يَطْلُبُ الهربَ ممّا يعتقدُ أنّه سَبَبُ سعادتهِ! وإنّما علاجُه في الجملةِ أنْ يكونَ مُتّهِماً لرأيه لا يغترُّ به، إلّا أنْ يشهدَ له قاطعٌ عقليّ أو نقليّ لا يعتريهِ رَيبٌ وشُبْهَةٌ.

ومعرفةُ أدلّةِ الشرعِ والعقلِ وشروطِها ومكانِ الغلَطِ فيها موقوفةٌ على عقلٍ ثابتٍ، وقريحةٍ تامَّةٍ مستقيمةٍ، مع جِدٍّ وتَشْميرٍ في الطلبِ، وممارسةِ الكتابِ والسنّةِ، ومجالَسةِ أهلِ العلمِ، ومدارَسةِ العلومِ طولَ العمرِ، ومع ذلك لا يؤمَنُ عليه الغلَطُ. فالصوابُ للكُلِّ ـ إلّا منْ أيّدهُ اللهُ بقوّةٍ قُدسيّةٍ يتمكّنُ بها من الخَوضِ في غَمراتِ العلومِ ـ ألّا يخوضَ في المذاهبِ الباطلةِ ولا يَصغيَ إليها، ويتّبعَ أهلَ الوحي فيما جاؤوا به من عندِ الله في الأُصولِ والفروعِ.

---

١. المؤمنون (٢٣): ٥٣.

٢. المحجة البيضاء، ج ٦، ص ٢٨٨ و ٣٠٧.

وصـل

ضدّ العجب: انكسارُ النَفْسِ

ضِدُّ العُجْبِ انكسارُ النَفْسِ واستحقارُها وكونُها في نظرِهِ ذليلةً مَهينةً. وكما أنّ العُجْبَ مجرَّدُ استعظامِ النفسِ من دونِ اعتبارِ استصغارِ الغيرِ معه، فكذا ضِدُّهُ مجرّدُ استحقارِ النفسِ من دونِ اشتراطِ إعظامِ الغير معه، إذ الأوّلُ مع اعتبار الثاني تكبّرٌ، والثالثُ مع اشتراطِ الرابعِ تواضعٌ، وهما ضدّان. ثمّ لا ريبَ في فوائدِ انكسارِ النفسِ واستصغارِها، وكُلُّ من بلغَ مرتبةً عظيمةً فإنّما بلغَ بهذهِ الصِفةِ، لأنّ الله تعالى عند المنكسِرَةِ قلوبُهم[1]، وقال رسولُ الله ﷺ:

ما من أحد إلّا ومعه مَلَكانِ وعليه حَكَمَةٌ[2] يُمسكانِها، فإنْ هو رفعَ نفسَهُ جبذاها ثمّ قالا: اللهمّ ضَعْهُ، وإنْ وَضَعَ نفسَهُ قالا: اللهمّ ارفعْهُ[3].

وروي: «أنّه أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أنْ ياموسى أتدري لم اصطفيتُكَ بكلامي دون خَلْقي؟ قال: يا ربِّ! وَلِمَ ذلك؟ فأوحى اللهُ تباركَ وتعالى إليه: أنّي قلبْتُ عبادي ظَهراً لبطنٍ، فَلَمْ أَجِدْ فيهم أحَداً أَذَلَّ نَفْساً لي منكَ، ياموسى إنّك إذا صلّيت وضعتَ خدّكَ على الترابِ»[4].

---

١. إشارةٌ إلى الحديث القدسي: «أنا عند المنكسرة قلوبهم». أُنظر منية المريد، ص ١٢٣.

٢. الحكمة: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢١٩؛ راجع: الكافي، ج ٢، ص ٣١٢، باب الكبر، ح ١٦.

٤. الكافي، ج ٢، ص ١٢٣، باب التواضع، ح ٧.

النوع الخامس عشر: الكِــبْــرُ

وقد عرفتَ أنّه الركون إلى رؤيةِ النفسِ فوقَ الغيرِ. وبعبارةٍ أوضحَ: هـو عـزّةٌ وتـعظيمٌ يوجبُ رُؤيةَ النفسِ فوقَ الغيرِ واعتقادَ المزيّة والرجحانِ عليه، فهو يَستعدي مُتكبِّراً عـليه. وبه يَنْفصِلُ عن العُجْبِ؛ إذِ العُجْبُ مجرّدُ استعظامِ النَفْسِ من دونِ اعتبارِ رُؤيَتِها فوقَ الغيرِ، فالعُجبُ سَبَبُ الكِبْرِ والكِبْرُ من نتائِجه.

ثمّ الكِبْرُ ـ أي العِزّةُ الموجِبَةُ لرؤيَةِ النفسِ فوقَ الغير ـ هو خُلُقُ الباطنِ ويَقتضي أعمالاً في الظاهرِ هي ثمراتُه، وتُسمّى تلكَ الأعمالُ الظاهرةُ الصادرةُ منه تكـبُّراً، ولذا مـن تَـعزّزَ ورأى نفسَهُ باطِناً فوقَ الغير، من دونِ صدورِ فعلٍ على جوارحِه، يقال له: كِبْرٌ، وإذا ظهرتِ الأعمالُ يقال له: تَكَبُّرٌ. وهذه الأعمالُ الظاهرةُ التي هي ثمراتُ خُلُقُ الكِبْرِ، أفعالٌ وأقوالٌ تُوجِبُ تحقيرَ الغيرِ والإزْراءَ به، كالترفُّعِ عن مواكَلَتِه ومجالسَتِه، والاستنكافِ عن مـرافَـقَتِه ومـصاحَبَتِه، وإبعادِهِ عنَ نفسِهِ، وإبائِه عن الجلوسِ بجَنْبِه، وانتظارِه أَنْ يُسلِّمَ عليه، وتَوَقُّعِهِ أنْ يقومَ ماثلاً بين يديه، والاستنكاف من قَبولِ وعْظِهِ، وتعنيفِهِ في إرشادِه ونُصْحِه، وتقدُّمِه عليه في المحافلِ والطُرُقاتِ، وعدمِ الالتفاتِ إليه في المحاوَراتِ، وتوقُّعِ التقديمِ عليه في كلّ ما يدُلُّ على التعظيم عرفاً. وبالجملةِ، الأعمالُ الصادرةُ عن الكِبْرِ كثيرةٌ، ولا حاجةَ إلى إحصائِها، لكونِها مشهورةً معروفةً، ومن جملتها الاختيالُ في المشي وجرُّ الثيابِ، إذ فاعلُهما يرى نـفسَه فـوقَ الأكـثرِ ويقصِدُ بهما استحقارَهم، فهما يقتضيانِ مُتَكَبَّراً عليه، فيكونانِ من أنواع التكبُّرِ، ومـا ورد في

ذمّهما يدُلُّ أيضاً على ذمّه، كما يأتي. وهذه الأفعالُ المعبَّرُ عنها بالتَكَبُّرِ قد تصدُر عن الحقدِ أو الحسدِ أو الرياءِ، وإنْ لم تكنْ في النفسِ عِزّةٌ وتَعَظُّمٌ.

البحث الأوّل: ذمُّ الكِبْر

الكِبْرُ آفَتُه عظيمةٌ وغائلتُهُ هائلةٌ، وبه هَلَكَ خواصُّ الأنامِ فضلاً عن غيرِهم من العوامِّ، وهو الحجابُ الأعظمُ للوصولِ إلى أخلاقِ المؤمنينَ، إذ فيه عزٌّ يمنعُ عن التواضُعِ، وكَظْمِ الغيظِ، وقبولِ النُصحِ، والدوامِ على الصِدْقِ، وتركِ الغضبِ والحقدِ والحسدِ والغيبةِ والإزراء بالناسِ، وغيرِ ذلك. فما من خلُقٍ مذمومٍ إلّا وصاحبُ الكِبْرِ مضطرٌّ إليه، ليَحْفَظَ به عِزّهُ، وما منْ خُلُقٍ محمودٍ إلّا وهو عاجزٌ عنه، خوفاً من فواتِ عزّهِ. ولذا ورَدَ في ذمّه ما وردَ من الآياتِ والأخبارِ، قال الله سبحانه: ﴿كذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ علىٰ كُلِّ قَلبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ﴾ [1] وقال: ﴿سَأَصرِفُ عَنْ ءَايٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [2]. وقال: ﴿والملٰئِكَةُ باسِطُوا أيْدِيهِم أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُم ... وَكُنْتُمْ عَن ءَايٰتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [3]. وقال: ﴿ٱدْخُلوٓا أَبْوٰبَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فيها فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [4]. وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخلُ الجنّةَ مَنْ كان في قلبه مثقالُ حبّةٍ من خَردَلٍ من كِبْرٍ» [5]، وقال: «مَن تعظَّم في نفسِه واختالَ في مشيتِه، لقِيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ» [6]. وقال الصادق عليه السلام: «الجبّارُ الملعونُ من غَمَصَ الناسَ وَجَهِلَ الحقَّ»، قال الراوي: أمّا الحقُّ فلا أجْهلُه، والغَمْصُ لا أدري ما هو؟ قال: «مَنْ حقَرَ الناسَ وتجبَّرَ عليهم فذلك الجبّارُ» [7].

١. غافر (٤٠): ٣٥.
٢. الأعراف (٧): ١٤٦.
٣. الأنعام (٦): ٩٣.
٤. الزمر (٣٩): ٧٢.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢١٢؛ وفي الكافي، ج ٢، ص ٣١٠، باب الكبر، ح ٦، نقلاً عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.
٦. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢١٨.
٧. الكافي، ج ٢، ص ٣١١، باب الكبر، ح ١٣.

البحث الثاني: التكبُّر على الله وعلى الناسِ

التكبُّر قد يكوُن على اللهِ، كما كان لنمرودَ وفرعونَ، وسَبَبُهُ الطُّغيانُ ومَحْضُ الجهلِ، وهو أفحشُ أنواعِ الكِبْرِ، إذ هو أعظمُ أفرادِ الكُفْرِ، ولذا تكرَّرَتْ في ذمّه الآيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذينَ يَستَكبِرونَ عَنْ عِبادَتي سَيَدْ خُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرينَ﴾[١] و﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَميعاً﴾[٢]. و﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَة أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحمٰنِ عِتيّاً﴾[٣].

وقد يكونُ على الرسُلِ من حيثُ تَعَزُّزِ النفسِ وتَرَفُّعِها عن الانقياد لهم، كما كان لمن يقول: ﴿أَهٰؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنا﴾[٤]، ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا﴾[٥]، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾[٦]، ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخٰسِرُونَ﴾[٧]، ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنا ٱلْمَلٰئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا في أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾[٨].

وهذا في الشَناعَةِ قريبٌ من التكبُّرِ على الله، وإنْ كان دونَهُ.

وقد يكونُ على العبادِ بأنْ يَستعظِمَ نفسَهُ ويَستصغِرَهم، وهذا وإنْ كان دونَ الأوّلَين، إلّا أنّه من المُهلكاتِ العظيمةِ، من حيث إنّه يؤدّي إلىٰ مخالفةِ الله سبحانَه، إذ صاحبُه إذا سَمِعَ من عبدٍ استنكفَ من قَبولِه واشمأزَّ بجَحْدِه، ومن حيثُ إنّ العزّ والعظمةَ والعُلى لا يليقُ إلّا بالعَليّ الأعلى، فمهما تكبّرَ العبدُ نازَع اللهَ في صِفَةٍ من صِفاتِه، ولذا قال اللهُ سبحانَه: «والعظمةُ إزاري والكبرياءُ رِدائي، فمن نازعني فيهما قَصَمْتُهُ»[٩].

---

١. غافر (٤٠): ٦٠.

٢. النساء (٤): ١٧٢.

٣. مريم (١٩): ٦٩.

٤. الأنعام (٦): ٥٣.

٥. المؤمنون (٢٣): ٤٧.

٦. إبراهيم (١٤): ١٠.

٧. المؤمنون (٢٣): ٣٤.

٨. الفرقان (٢٥): ٢١.

٩. منية المريد، ص ٣٣٠.

البحث الثالث: درجاتُ الكِبْر

للكِبْر درجاتٌ ثلاثٌ:

الأُولى: أن يكونَ مستقِرّاً في قلبِه، يرى نفسَه خيراً من غيرِهِ، ويُظهِرَهُ في أفعالِه: بالترفُّعِ في المجالسِ، والتقدُّمِ على الأقرانِ، وأنْ يُصَعِّرَ خَدَّهُ للناسِ كأنَّه مُعرِضٌ عَنهم، ويُـعَبِّسَ وَجْـهَهُ، ويُقَطِّبَ جَبِينَهُ. وفي أقواله: بإظهارِ الإنكارِ على من يُقَصِّرُ فيما يتوقَّعُهُ مـن التـعظيم، وإبـداءِ الدعوى، والمفاخَرَةِ والمباهاةِ، وتزكيةِ النفسِ، والتشميرِ لغلَبَةِ الغيرِ في العلمِ والعملِ. وهـذه الدرجةُ أقبحُ الدرجاتِ وأشدُّها، إذ صاحبُها قد رَسَخَتْ في قَـلبه شـجرةُ الكِـبْرِ وارتـفعتْ أغصانُها وفروعُها، بحيثُ أحاطتْ على جميعِ جوارِحِه.

الثانيةُ: كالأُولى، إلّا في إظهارِهِ على اللسانِ، وهي دونَ الأُولى، لكونها أقلَّ أغصاناً منها.

الثالثةُ: أن يكونَ مستقِرّاً في قلبِه بحـيثُ رأى نفسَهُ خـيراً مـن غـيرِه، إلّا أنّـه يجـتهدُ في التواضُعِ، وَ يفعَلُ فِعلَ من يَرى غيرَهُ خيراً من نفسِه. وهذا وإنْ رَسَخَتْ في قلبه شجَرَةُ الكِبْرِ، إلّا أنّه قطعَ أغصانَها بالكلّيّةِ، فإنْ كان مع ذلك مُنكِراً على نفسِه فيما رسخَ فيها ومُغْضِباً عليها ومُتَشَمِّراً لازالَتِها، إلّا أنّه لم يقدِرْ على دفعِه بسُرعةٍ وسُهولةٍ، وتميلُ النفسُ إلى ما تشـتهيه في بعضِ الأحيانِ بدونِ اختيارٍ، ولكنّه كان في مَقامِ المجاهَدَةِ، فلعلّه لم يكنْ عليه كثيرُ إثمٍ، ومثلُه يوفّقُه الله للوصولِ إلى ما يَطلبُه بمقتضى وعدِه.

البحث الرابع: العلاج العلمي للكبر

الكِبْرُ كالعُجْبِ في كيفيّةِ العلاجِ إجمالاً وتفصيلاً، إذِ الكِبْرُ لمّا تَضمَّنَ مـعنى العُـجْبِ ـ أي استعظامَ النفسِ ـ وكان العُجْبُ منشأً له، فما ذُكِرَ لعلاجِ مُطْلَقِ العُجْبِ هو العلاجُ لمطلَقِ الكِبْرِ أيضاً. ولكن ما به الكِبْرُ ـ أعني بواعِثَهُ ـ هي بواعثُ العُجْبِ بعينِها، فما ذُكِر لعـلاجِ العُـجْبِ بالبواعثِ المذكورةِ مشتَرَكٌ بينهما.

ومن المعالجاتِ المختصّةِ بالِكبرِ أنْ يتذكّرَ ما وردَ في ذمّهِ من الآيات والأخبارِ المـذكورةِ وغيرِها، ويتأمّلَ فيما وردَ في مدحِ ضدِّه أعني التواضُعَ كما يأتي. ولكونِ الكِبْرِ مشتَمِلاً عـلى

شيءٍ زائدٍ على العُجْبِ هو رُؤْيةُ النفسِ فوقَ الغيرِ. فَينبغي أنْ يعلَمَ أنّ الحُكْمَ بخيريّةِ نفسِه من الغيرِ غايةُ الجهلِ والسفاهةِ. فلَعَلَّ في الغير من خَفايا الأخلاقِ الكريمةِ ما يُنجيهِ، وفيه من المَلَكاتِ الذميمَةِ ما يُهلِكه ويُرديه. وكيف يجترئُ صاحِبُ البصيرةِ أنْ يُرَجِّحَ نفسَهُ على الغيرِ، مع إبهامِ الخاتِمَةِ وخفاءِ الأخلاقِ الباطنةِ واشتراكِ الكلّ في الانتسابِ إلى اللهِ تعالى، وفي صدورِها وتَرَشُّحِها منه ومعلوليّتِها ولازميّتِها له. فالواقفُ بخطرِ الخاتمةِ وإناطةِ النجاةِ والهلاكِ بالبواطنِ لايَرى لنفسِهِ مَزيّةً على غيرِهِ.

فإنْ قيل: كيف يَحْسُنُ أن يتواضعَ العالِمُ الورِعُ للجاهلِ الفاسقِ، ويراهُ خيراً من نفسِه مع ظهورِ جَهْلِه وفِسْقِهِ، وقَطْعِه باتّصافِ نفسِهِ بالعلم والورع وخُلُوِّه عنهما؟ وكيف يجوزُ له أنْ يُحِبَّ فاسِقاً أو كافراً أو مُبتدِعاً ويَتواضَعَ له ولا يعاديَه.

أجَبْنا عن الأوّل بأنَّ حقيقةَ التواضُعِ ألّا ترى النفسُ لذاتِها مزيّةً واقعيّةً وخيريّةً حقيقيّةً على الغيرِ، لا أن ترى مزيّة لذاتِها عليه في الصفاتِ الظاهرةِ التي يجزمُ باتّصافِ نفسِه بها وعدم اتّصافِه بها، كالعلمِ والعبادَةِ والسخاوَةِ والعدالةِ والاجتنابِ عن الأموالِ المحرَّمَةِ وغيرِ ذلك، إذ العالِمُ ببعضِ العلومِ لا يمكِنُه أنْ يدفَعَ عن نفسِهِ القطعَ بكونِهِ عالِماً بها وكونِ فلانٍ العامّي غيرَ عالِمٍ بها. لكنّ المزيّةَ الواقعيّةَ والخيريّةَ النفس الأمريّة إنّما هي بالتقرُّبِ إلى الله والوصولِ إلى السعادَةِ الدائميّة.

ولا شكَّ في أنّ ذلك لا يحصُلُ بمجرّدِ تَعلُّمِ بعضِ العلومِ والمواظَبَةِ على بعضِ العباداتِ أو غيرِ ذلك من الصفاتِ المحمودَةِ، بل المناطُ فيه حسنُ الخاتِمَةِ وهو أمرٌ مُبْهَمٌ، إذ العواقبُ مطويّةٌ عن العبادِ، فيُمكنُ أن يُسْلِمَ الكافرُ ويُختَمَ له بالإيمان، ويَضلَّ هذا العالِمُ الورِعُ ويُختَمَ له بالكفر. فعلى كلّ عبدٍ إنْ رأى من هو شرٌّ منه ظاهراً أنْ يقول: لعلَّ هذا ينجو وأهلَكُ أنا. فلايراه شرّاً من نفسِه في الواقع خائفاً من العاقبةِ، ويقولُ: لعلّ برَّ هذا باطنٌ، بأنْ يكونَ فيه خُلُقٌ كريمٌ بينَهُ وبينَ الله فيرحَمُهُ اللهُ ويتوبَ عليه ويَختِمَ له بأحسَنِ الأعمالِ، وبِرّي ظاهرٌ لا آمَنُ أنْ تدخُلَهُ الآفاتُ فتُحْبِطَهُ. وبالجملةِ: ملاحظةُ الخاتمةِ والسابقةِ، والعلمُ بأنَّ الكمالَ في القُربِ من اللهِ وسعادةِ الآخرة دون ما يظهر في الدنيا من الأعمالِ الظاهرةِ، يُوجِبُ نَفْيَ الكِبْرِ والتواضعَ لكُلِّ

أحدٍ.

وعن الثاني بأنَّ الحبَّ ينبغي أنْ يكونَ لأجْلِ النسبةِ الشريفةِ المذكورةِ، والتواضُعَ لأجلِ ملاحظةِ الخاتمةِ، وبُغضَهُ وغَضَبَهُ عليه لأجْلِ ما ظهرَ منه من الكُفرِ والفُسوقِ. وأيّ منافاةٍ بينَ الغضبِ لله في صُدُورِ معصيَةٍ من عبدٍ، وبينَ عدمِ الكِبْرِ والإذلالِ؟! إذِ الغضبُ إنّما هو للهِ لا لنفسِكَ، إذْ أمَرَكَ بأنْ تَغضَبَ عند مشاهدةِ المنكر. والتواضعُ وعدمُ الكِبْرِ إنّما هو بالنظرِ إلى نفسِكَ، بألّا ترى نفسَكَ ناجِياً وصاحبَك هالِكاً في حال غضبِك عليه لأمرِ الله، بل يكونُ خوفُكَ على نفسِك ممّا عَلِمَ اللهُ من خفايا ذنوبِك أكثرَ من خوفِكَ عليه مع الجهلِ بالخاتِمةِ، فليس من ضرورةِ الغضَبِ والبغضِ للهِ أنْ تتكَبَّرَ على المغضوبِ عليه، وترى قَدْرَكَ فوق قَدْرِهِ. ومثال ذلك: أن يكونَ لِملِكٍ غلامٌ وولدٌ، وقد وكَّلَ الملكُ الغلامَ على ولدِه بأنْ يراقِبَهُ ويضْرِبَهُ مهما ساءَ أدبُهُ، ويغضبَ عليه إذا اشتغلَ بما لا يليقُ به، فإنْ كان الغلامُ مُطيعاً محبّاً لمولاهُ يغْضَبْ عليه إذا ساءَ أدبُهُ امتثالاً لأمرِ مولاه، ومع ذلكَ يُحِبُّهُ لانتسابِه إلى مولاهُ بالولادَةِ، ولا يتكبَّرُ عليه، ويتواضَعُ له، ويرى قَدْرَهُ عند مولاهُ فوقَ قَدْرِ نفسِه، لأنّ الولدَ أعزُّ لا محَالةَ من الغلام.

البحث الخامس: العلاجُ العملي للكِبْرِ

ما ذكرناه لعلاج الكبْرِ إنّما هو العلاجُ العلميّ، وأمّا العِلاجُ العمليّ فهو أنْ يتواضعَ بالفِعلِ لله ولسائرِ الخَلْقِ، ويواظِبَ على أخلاقِ المتواضِعينَ، ويكلِّفَ نفسَه على ذلك إلى أنْ تُقْطعَ عن قلبه شجرةُ الكِبرِ بأُصولها وفروعِها، ويصيرَ التواضُعُ مَلَكَةً له.

وللقطع الكليّ وحصولِ ملكةِ التواضُعِ امتحاناتٌ يُعرَفانِ بها ـ فلابدَّ أنْ يَمْتَحِنَ نفسَه بها حتّى يطمئنَّ بأنّهُ متواضع؛ إذ النفسُ قد تُضْمِرُ التواضعَ وتدّعي البراءةَ من الكِبْرِ، فإذا وقعتِ الواقعةُ عادتْ إلى طبعِها ونَسِيَتْ وَعْدَها ـ:

الأوّلُ: أنْ يُناظِرَ مع أقرانِه في بعضِ المسائلِ، فإذا ظَهَر شيءٌ من الحقِّ على لسانِهم، فإن اعترفَ به مع السرورِ والاهتزازِ والشكرِ لهم لتنبيههم إيّاه على ما غفلَ عنه فهو علامةُ

التواضُع، وإنْ ثَقُلَ عليه القبولُ والاعتراف ولم يُسَرَّ بظهورِ الحقِّ على لسانِهم فهو دليلُ بقاءِ الكِبْرِ بعدُ، فلْيُعالِجْهُ من حيثُ العلمِ بأنْ يتذكَّرَ سوءَ عاقبتِهِ وخِسّةَ نفسِه وخباثتَها، من حيثُ إنّ قَبولَ الحقِّ يَثقُلُ عليها، ومن حيثُ العملِ بأنْ يكلِّفَ نفسَهُ على ما يَثقُلُ عليها من الاعترافِ بالحقِّ وإطلاقِ اللسانِ بالثناءِ والشكرِ، والإقرارِ على نفسِهِ بالعجزِ والقُصورِ، ويقول: ما أحسنَ فَطانتَكَ! لقد أرشدْتَني إلى الحقِّ، فجزاكَ اللهُ خيراً. فإذا واظبَ على ذلك مرّاتٍ متواليةً، صار ذلك له طبعاً، وسقَط ثِقْلُ الحقِّ عن قَلْبه وطابَ له قبولُه، وإنْ لم يَثقُلْ عليه في الخلوةِ وثقلَ عليه في الملإ، فليس فيه كِبْرٌ، بل فيه رياءٌ، فلْيعالِجْ بما يأتي في معالجةِ الرياءِ.

الثاني: أن يُقدّمَ الأقرانَ والأمثالَ على نفسه في المحافل، ويمشيَ خلفَهم في الطُرُقِ، فإنْ لم يَثقُلْ ذلك عليه فهو متواضعٌ وإلّا فمتكبّرٌ، فلْيُقدّمْهمْ بالتكلُّفِ، وَ يجْلِسْ تحتَهم، ويُظْهِر السُرورَ والارتياحَ بذلك، حتّى يَسقطَ عنه ثِقْلُهُ. قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام: «إنّ من التواضُع أنْ يجلِسَ الرجُل دونَ شرفِه»[1]. وقال عليه السلام: «من التواضُع أنْ ترضى بالمجلسِ دونَ المجلسِ، وأنْ تسلِّمَ على من تَلقَى، وأنْ تَترُكَ المِراءَ وَ إنْ كنتَ مُحِقّاً، ولا تحبَّ أنْ تُحْمَدَ على التقوى»[2]. ومن المتكبّرينَ من إذا لم يجدْ مكاناً في الصدْرِ يجلِسُ في صَفِّ النعالِ، أو يجعلُ بينَه وبين الأقرانِ بعضَ الأراذلِ ولا يجلِسُ تحتَهم، وغرضُهم من ذلك استحقارُ الأقرانِ أو إيهامُ أنّ تركَهم للصدرِ إنّما هو بالتفضّلِ، فهو أشدُّ أنواع التكبّرِ.

الثالث: أنْ يُجيبَ دعوةَ الفقيرِ، وَيمرَّ إلى السوقِ في حاجةِ الرُفَقاءِ والأقارِبِ، ويَحمِلَ حاجتَهم وحاجةَ نفسِه منه إلى البيتِ، فإنْ لم يَثقُلْ عليه ذلك في الخلوةِ والملأ فليس فيه كِبْرٌ ورياءٌ، وإنْ ثَقُلَ عليه فيهما ففيه كِبْرٌ ورياءٌ، وإنْ ثقلَ عليه عند مشاهدةِ الناسِ دونَ الخَلْوَةِ ففيه رياءٌ دونَ الكِبْرِ. قال أميرالمؤمنين عليه السلام: «لا يَنقُصُ الرجل الكاملَ من كمالِه ماحَمَلَ من شيءٍ إلى عياله»[3]. وروي: «أنّه اشترى لحماً بدرهمٍ فحَمَلَه في ملحفتِه، فقال له بعضُهم: أَحْمِلُ عنك يا

١. الكافي، ج ٢، ص ١٢٣، باب التواضع، ح ٩.
٢. الكافي، ج ٢، ص ١٢٢ ـ ١٢٣، باب التواضع، ح ٦.
٣. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٤٨.

أميرَالمؤمنين؟ فقال: لا! أبو العيالِ أحقُّ أنْ يحمِلَ»[١].

الرابع: أنْ يلبسَ ثياباً بذلةً، فإنْ لم يَثقلْ عليه ذلك أصلاً فليس فيه كِبْرٌ ورياءٌ، وإلّا كان متكبّراً أو مُرائياً. قال رسول اللهﷺ: «من اعتقلَ البعيرَ ولبسَ الصوفَ فقد بَرِئَ من الكِبر»[٢]. وقالﷺ: «إنّما أنا عبدٌ آكُلُ في الأرضِ، وألبسُ الصوفَ، وأعقِلُ البعيرَ، وألعَقُ أصابعي، وأُجيبُ دعوةَ المملوكِ، فمن رغِبَ عن سُنّتي فليس منّي»[٣]. وعُوتِبَ أميرُالمؤمنينَعليه السلام في إزارٍ مرقوعٍ، فقال: «يقتدي به المؤمن، وتخشعُ له القلوبُ»[٤].

والامتحانات لبقاء الكِبرِ كثيرةٌ: كأن يُحبَّ قيامَ الناسِ له أو بينَ يديه. قال أميرالمؤمنينعليه السلام: «من أرادَ أن ينظرَ إلى رجلٍ من أهلِ النارِ، فلينظرْ إلى رجلٍ قاعدٍ وبين يديه قومٌ قيامٌ»[٥]. وقال بعضُ الصحابةِ: «لم يكنْ شخصٌ أحبَّ إليهم من رسول الله، وكانوا إذا رَأَوْهُ لم يقوموا له لما يعلمونَ من كَراهتِه لذلك»[٦].

وأنْ يُحبَّ أن يمشي خَلفَه غيرُهُ، وقد روي: «أنّه لا يزالُ العبدُ يزدادُ من الله بُعداً ما مُشِيَ خَلفَهُ». وكانَ رسولُ اللهﷺ في بعضِ الأوقاتِ يمشي مع بعضِ الأصحابِ، فيأمرُهم بالتقدُّمِ ويمشي في غمارِهم[٧].

وألّا يزورَ غيرَه، وإنْ كان في زيارتهِ فائدةٌ دينيّةٌ. وأنْ يَستنكِفَ من مُجالسَةِ الفقراءِ والمعلولينَ والمرضى. روي أنّه دخلَ على رسولِ الله رجلٌ وعليه جُدَرِيٌّ قد تَقشَّرَ، وعنده ناسٌ من أصحابِه يأكلونَ، فما جلَسَ عند أحدٍ إلّا قام من جَنْبِه. فأجلسَهُ النبيّﷺ إلىٰ جَنْبِه[٨]. وكانﷺ في نَفَرٍ من أصحابه يأكلونَ في بيتِه، إذْ دَخَلَ عليهم رَجُلٌ به زَمانَةٌ تُنْكِرُهُ الناسَ

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٤٨.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٧٠.
٣. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٧٠.
٤. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٤٨.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٤٧.
٦. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٤٧.
٧. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٤٧.
٨. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٤٧.

لأجِلها، فأجْلَسَهُ رسولُ الله على فَخِذِهِ وقال له: «اطْعَمْ» وكأنَّ رجلاً من قريش اشْمأزَّ منه وتَكرّهَ، فما مات ذلك الرجلُ حتّى كانتْ به زَمانةٌ مثلُها [1]. وقد روى أبو سعيدٍ الخدري:

أنّه ﷺ كان يعلفُ الناضِحَ، ويَعقِلُ البعيرَ، ويَقُمُّ البيتَ، ويَحْلِبُ الشاةَ، ويخصِفُ النعلَ، ويَرْقَعُ الثوبَ، ويأكلُ مع خادمِهِ، ويطْحَنُ عنه إذا أعيى ويشتري الشيءَ من السوقِ، ولا يمنعُه الحياءُ أن يُعلّقَهُ بيده أو يجعلَهُ في طرفِ ثوبه وينقلبَ إلى أهله. يصافحُ الغنيَّ والفقيرَ والصغيرَ والكبيرَ، ويُسلّمُ مبتدِئاً على كلّ من استقبلَهُ من صغيرٍ أو كبيرٍ أسودَ أو أحمرَ، حُرٍّ أو عَبْدٍ من أهلِ الصلاةِ، ليستْ له حُلّةٌ لمدخلِهِ ولا حُلّةٌ لمخرَجِهِ، لا يستحيي من أن يُجيبَ إذا دُعِيَ، وإن كانَ أشْعَثَ أغبرَ، ولا يَحْقِرُ ما دُعِي إليه، وإنْ لم يجدْ إلّا حَشَفَ الرَّقْلِ، لا يرفعُ غَداءً لعشاءٍ ولا عشاءً لغداءٍ. هيّنَ المؤونةِ، ليّنَ الخُلُقِ، كريمَ الطبيعةِ، جميلَ المعاشرَةِ، طلْقَ الوجهِ، بَسّاماً من غيرِ ضَحِكٍ، محزوناً من غيرِ عُبوسٍ، شديداً في غيرِ عُنفٍ، متواضِعاً في غيرِ مَذَلّةٍ، جَواداً من غيرِ سَرَفٍ، رحيماً لكلّ ذي قُربى، قريباً من كلّ ذمّي ومسلمٍ، رقيقَ القلبِ، دائمَ الإطراقِ، لمْ يَبْشَمْ [2] قَطُّ من شِبَعٍ، ولا يمدُّ يدَه إلى طَمَعٍ [3].

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٢٠.

٢. البَشَم: الشبع الزائد.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

وصـل

ضدّ الكبر: التواضُعُ

ضِدُّ الكِبْرِ التواضعُ،وهو انكسارٌ للنفسِ يمنعُها مِنْ أنْ يرى لذاتِها مَزِيّةً على الغيرِ، وتَلْزَمُهُ أَفعالٌ وأقوالٌ موجِبَةٌ لاستعظامِ الغيرِ وإكرامِهِ، والمواظبةُ عليها أقوى معالجةٍ لإزالةِ الكِـبْرِ. ولابدّ من الإشارةِ إلى الأخبارِ الوارِدَةِ في مدحِ التواضُعِ وفوائِدِهِ، تحريكاً للطالبين إلى السعيِ في تحصيلِه الموجبِ لإزالةِ ضِدِّهِ، وهذه الأخبارُ كثيرةٌ خارجةٌ عن حـدِّ الإحـصاءِ، فـنكتفي بإيرادِ بعضٍ منها، قال عليه السلام: «طوبى لمن تواضَعَ في غيرِ مَسْكَنَةٍ، وأنفقَ مالاً جَمَعَهُ مـن غـير مَعْصِيةٍ، ورَحِمَ أهلَ الذِلَّةِ والمَسْكَنَةِ، وخالَطَ أهلَ الفقهِ والحِكْمَةِ»[1]. وقال عليه السلام: «مَنْ تَواضَعَ للّه رفعهُ اللهُ، ومن تكَبَّرَ خفَضَهُ الله، ومَنِ اقْتَصَدَ في معيشتهِ رزقهُ اللهُ، ومن بذَّرَ حَرَمَهُ اللهُ، ومن أكثَرَ ذكرَ الموتِ أحبّهُ اللهُ، ومن أَكثَرَ ذكرَ الله أظَلَّهُ اللهُ في جَنَّتِهِ»[2]. وأصلُ التواضُعِ من إجلالِ الله وهيبتِه وعَظَمتِه. وليس للّه عزّوجلّ عبادةٌ يقبَلُها ويَرضاها إلّا وبابُها التواضُعُ، ولا يَعْرِفُ ما في معنىٰ حقيقةِ التواضُعِ إلّا المقرّبونَ من عبادهِ المستقلّين بوحدانيّته، قال اللـه عزّوجلّ: ﴿وَعِبادُ ٱلرَّحمٰنِ ٱلَّذينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلأَرْضِ هَوْناً وَ إِذا خاطَبَهُمُ ٱلجٰهِلُونَ قالُوا سَلٰماً﴾[3].

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢١٩.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١٢٢، باب التواضع، ح ٣ و ٤.

٣. الفرقان (٢٥): ٦٣.

وقد أمَر الله عزّ وجلّ أعزَّ خَلْقِه وسيّدَ بَريّتِه محمّداً صلى الله عليه وآله بالتواضُع، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. وقال الإمام أبو محمّد الحسنُ بنُ عليّ العسكري عليهما السلام:

أَعْرَفُ الناسِ بحقوقِ إخوانِهم، وأشدُّهم قضاءً لهم، أعظَمُهم عند الله شأناً، ومن تواضَع في الدنيا لإخوانِه فهو عندَ اللهِ من الصدّيقينَ ومن شِيعةِ علي بنِ أبي طالبٍ عليه السلام حقّاً[2].

تتميم: لمّا عرفْتَ أنّ كُلَّ فضيلةٍ وسَطٌ له طرفانِ مذمومان، فأحدُ طَرَفَي التواضُعِ الكِبْرُ ـ كما عرفتَ ـ وهو من طَرَفِ الإفراطِ، وآخِرُهما الذِلّةُ والتخاسُسُ، وهو من طرفِ التفريطِ. فكما أنّ الكِبْرَ مذمومٌ، فكذلك المذلّةُ والتخاسسُ أيضاً مذمومٌ، إذْ كلا طرفي الأُمور ذميمٌ، والمحمودُ هو التواضُعُ من دونِ الخروجِ إلى شيءٍ من الطرفين، إذ أحبُّ الأُمورِ إلى الله أوسَطُها. وهو أنْ يُعطِيَ كلَّ ذي حقٍّ حقّهُ، وهو العدلُ، فلو وقعَ في طرفِ النُقصانِ فلْيرفَعْ نفسَهُ، إذْ ليس للمؤمنِ أن يُذِلّ نفسَهُ، فالعالمُ إذا دخلَ عليه إسكافٌ فخلّى له مجلسَه وأجلسَه فيه، وتركَ تعليمَه وإفادَتَه، وإذا قامَ عدا إلى البابِ خلفَهُ، فقد تخاسَسَ وتذلّلَ، وهو غيرُ محمودٍ، بل هو رذيلةٌ في طرفِ التفريط. فاللازم إذا وقعَ فيه أنْ يرفعَ نفسَه إلى أنْ يعودَ إلى الوسطِ الذي هو الصراطُ المستقيمُ. فإنّ العدلَ أنْ يتواضعَ بمثلِ ما ذكرَ لأمثالِه ولمنْ يَقرُبُ درجتَه. فأمّا تواضُعُهُ للسوقي، فبالبِشْرِ في الكلامِ، والرفقِ في السؤالِ، وإجابةِ دعوتِهِ، والسعي في حاجتِه، وأمثالِ ذلكَ، وألّا يرى نفسَه خيراً منه، نظراً إلى خطَرِ الخاتِمة. ثمّ ينبغي ألّا يتواضعَ للمتكبّرينَ، إذِ الانكسارُ والتذَلُّلُ لمن يَتَكَبَّرُ ويتعزّزُ مع كونه من التخاسُسِ والمَذَلّةِ المذمومة يوجِبُ إضلالَ هذا المتكبِّر، وتَقريرَهُ على تكبُّرِه، وإذا لم يتواضعْ له الناسُ وتَكَبَّروا عليه ربّما تنبّه وتركَ التكبُّرَ، إذِ المتَكَبِّرُ لا يرضى بتَحمُّلِ المَذَلَّةِ والإهانةِ من الناس، ولذا قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتُم المتواضِعين مِن أُمّتي فتواضَعُوا لهم، وإذا رأيتُمُ المتكبِّرينَ فتكبَّروا عليهم، فإنّ ذلك لهم مَذَلَّةٌ وصَغارٌ»[3].

---

١. الشعراء (٢٦): ٢١٥.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٦٦.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٢٢.

النوع السادسَ عشرَ: الافتخارُ

أي المباهاةُ باللسانِ بما توهّمَهُ كمالاً، والغالبُ كونُ المباهاةِ بالأُمورِ الخارجةِ عن ذاتِه، وهو بعضُ أصنافِ التكبّرِ. فكلّ ما وردَ في ذمّه يدلُّ على ذمّه، والأسبابُ الباعثةُ عليه هي أسبابُ التكبُّر. وقد تقدَّمَ أنّ شيئاً منها لا يصلحُ لأنْ يكونَ منشأً للافتخارِ، فهو ناشئٌ من مَحْضِ الجهلِ والسَفاهَةِ. وقال الباقر عليه السلام: «عجباً للمختالِ الفَخُورِ، وإنّما خُلِقَ من نُطفةٍ ثمّ يعودُ جيفةً، وهو فيما بين ذلك لا يدري ما يُصنَعُ به»[1]. وقال عليه السلام:

صعدَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله المنبرَ يومَ فتحِ مكّةَ، فقال: أيُّها الناسُ، إنّ اللـه قـدْ أذْهَبَ عنكم نَـخوَةَ الجاهليّةِ وتفاخُرَها بآبائها، ألا إنّكم من آدمَ وآدمُ من طينٍ، ألا إنّ خيرَ عبادِ الله عبدٌ اتّقاه[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «آفةُ الحسَبِ الافتخارُ والعجب»[3].

ثمّ ضدّهُ استحقارُ نفسِه وترجيحُ غيرِه عليها بالقول.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٢٩، باب الفخر والكبر، ح ٤.

٢. الكافي، ج ٨، ص ٢٤٦، كتاب الروضة، ح ٣٤٢.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٢٨، باب الفخر و الكبر، ح ٢.

النوع السابعَ عشرَ: البَغْي

ويُسَمّى البذْخَ أيضاً، وهو صُعوبةُ الانقيادِ والتابعيّةِ لمن يَجِبُ أنْ يَنقادَ له. وقد فُسِّرَ بمطلقِ العُلُوِّ والاستطالةِ، سواءٌ تحقّقَ في ضِمنِ عدم الانقيادِ لمن يَجبُ أنْ يَنقادَ له، أو في ضِمْنِ أحدِ أفعالِ الكِبْرِ، أو في ضِمنِ الظُّلْمِ والتعدّي على الغيرِ. وعلى أيٍّ تقديرٍ هو أفحشُ أنواعِ الكِبْرِ، إذْ عدمُ الانقيادِ لمَن يجبُ أنْ ينقادَ له ـ كالأنبياء وأوصيائهم ـ يؤدّي إلى الكفرِ الموجبِ للهلاكِ الأبدي. ولقد هلكَ بذلكَ أكثرُ طوائفِ الكفّارِ، كاليهودِ والنصارى وكفّارِ قريشٍ وغيرِهم. وكذا الظلمُ والتعدّي على المسلمِ وإذلالُه بالمقهوريّةِ والمغلوبيّةِ من المهلكاتِ العظيمةِ، ولذا وردَ في ذمّهِ ما وَرَدَ، قال رسول اللهﷺ: «إنَّ أعجلَ الشرِّ عقوبةً البغيُ»[1].

وعِلاجُه: أنْ يتذكَّرَ أوّلاً الأخبارَ الواردةَ في ذمِّهِ، وثانياً: ما ورَدَ في مَدحِ ضِدِّهِ ـ أعني التسليمَ والانقيادَ لمن يَلزمُ إطاعتُهُ وتابعيّتُهُ ـ كقولِهم عليهم السلام: «شيعتُنا المسلِّمونَ»[2]. والآياتِ والأخبارِ الواردةِ في وجوبِ إطاعةِ الله وإطاعةِ النبيِّﷺ وأُولي الأمرِ، وغيرهم من العلماء والفقهاءِ الذينَ هم نوّابُ الأئمّة في زمن الغَيْبَةِ. وبعدَ ذلك يُكلِّفُ نفسَه التابعيةَ والإطاعةَ لمنْ يَجِبُ أنْ يُطاعَ، ويَتَخَضَّعُ له قولاً وفِعلاً، حتّى يصيرَ ذلك له مَلَكَةً.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٢٧، باب البغي، ح ١.

٢. وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١١٧ ـ ١١٨، أبواب صفات القاضي، الباب ٩، ح ٢٥.

النوع الثامنَ عشرَ: تزكيةُ النَفْسِ

أي نفيُ النقائصِ عنها، وإثبات الكمالاتِ لها. وهو من نتائجِ العُجْبِ. وقُبْحُه أظهرُ من أنْ يخفَى، إذْ مَنْ عرفَ حقيقةَ الإمكانِ، ثمّ اطّلعَ على خَلْقِ الإنسانِ، يعلم أنّه عينُ القصورِ والنقصانِ، فلا يُطلَقُ بمدحِ نفسِه اللسانُ، على أنّه يَتَضَمَّنُ بخصوصه قُبحاً يشهدُ به الذوقُ والوجدانُ، ولذا قال أميرُ المؤمنينعليه السلام: «تزكيةُ المرءِ لنفسِه قبيحةٌ»[1]. وقد تقدّم ما يكفيكَ لمعرفةِ حَقارَةِ الإنسانِ وخَساستِهِ.

ثمّ ضِدُّ التزكيةِ عدمُ تبرِئَةِ نفسِه من العيوبِ والإقرارُ بها وإثباتُ النقائصِ لها، فإذا كَلَّفَ نفسَهُ عليه وفعلَ ذلك مرّاتٍ متواليةً، يصيرُ معتاداً له، ويزولُ عنه ما اعتادَه من مدحِ نفسِه.

---

١. روي عن أمير المؤمنينعليه السلام: «... الله عزّ وجلّ نهىٰ عن التزكية»؛ بحار الأنوار، ج٣٨، ص ١٧٢، الباب ٦٢، ح ١.

النوع التاسعَ عشرَ: العصبيّةُ

وهي السعيُ في حِمايةِ نفسِهِ أو ما له إليه نسبةٌ من الدينِ والأقارِبِ والعشائرِ وأهلِ البلدِ، قولاً أوفِعْلاً. فإنْ كان ما يَحميه ويَدفعُ عنه السوءَ ممّا يلزمُ حفظُهُ وحمايتُهُ، وكانت حمايتُهُ بالحقِّ من دونِ خروجٍ من الإنصافِ والوقوعِ في ما لا يجوزُ شرعاً، فهو الغَيْرَةُ الممدوحةُ التي هي من فضائلِ قوّةِ الغضبِ. وإنْ كان ممّا لا تلزَمُ حمايتُهُ، أو كانت حمايتُهُ بالباطلِ، بأنْ يَخرُجَ عن الإنصافِ وارتكبَ مايحرمُ شرعاً، فهو التعصّب المذمومُ، وهو من رداءَةِ قوّةِ الغضبِ. وإلى ذلك يُشيرُ كلامُ سيّدِ الساجدينَ عليه السلام حيثُ سُئلَ عن العصبيّةِ، فقال:

العصبيّةُ التي يأثَمُ عليها صاحبُها أنْ يرى الرجلُ شِرارَ قومِهِ خيراً من خِيارِ قومٍ آخرينَ، وليس من العصبيّة أنْ يُحِبَّ الرجلُ قومَهُ، ولكنْ من العصبيّة أنْ يُعينَ قومَهُ على الظُلمِ[1].

والغالبُ إطلاقُ العصبيّة في الأخبارِ على التعصُّبِ المذمومِ، ولذا وردَ بها الذمُّ، كقولِ النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَنْ تعصّبَ أو تُعُصِّبَ له فقدْ خَلَعَ رِبقَ الإيمانِ من عُنقِه»[2]. وقوله صلى الله عليه وآله: «مَنْ كانَ في قلبه حبّةٌ من خَرْدَلٍ من عصبيّةٍ بعثَهُ اللهُ يومَ القيامةِ مع أعرابِ الجاهليّةِ»[3] وقال السجّاد عليه السلام: «لم يَدخُلِ الجنّةَ حَميّةٌ غيرُ حَميّةِ حمزةَ بنِ عبدِالمطّلبِ. وذلك حينَ أسلَم غَضَباً للنبيّ صلى الله عليه وآله»[4].

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩، باب العصبيّة، ح ٧.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٨، باب العصبيّة، ح ٢.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٨، باب العصبيّة، ح ٣.

٤. الكافي، ج ٢، ص٣٠٨، باب العصبيّة، ح ٥؛ بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٢٨٣، باب أحوال عشائره وأقربائه، ح ٤٥.

النوع العشرون: كتمانُ الحقِّ

والانحرافُ عنه، وباعثُه إمّا العصبيّةُ أو الجُبنُ، فهو من نتائجَ واحدةٍ منهما.

والظواهرُ الدالّةُ على ذمّهِ مطلقاً، وعلى كلّ واحدٍ مِن الأصنافِ المندرِجَةِ تحتَه كثيرةٌ، ولا حاجةَ إلى ذكرِها لاشتهارِها.

وعلاجُ العصبيّةِ وكِتْمانِ الحقّ أنْ يَتذكّر: أوّلاً إيجابَهما لِسَخَطِ الله ومَقْتِهِ، وربّما تأدّيا إلى الكفر.

وثانياً فوائدَ ضِدِّهما، أعني الإنصافَ والاستقامةَ على الحقِّ. وبعد ذلك يُكلِّفُ نفسَه على إظهارِ ما هو الحقُّ والعملِ به، ولو بالمشقّةِ الشديدةِ، إلى أنْ يَصيرَ ذلك عادةً له، فيزولُ عن نفسِه ما صارَ لها ملكةً من التعصُّبِ وكتمانِ الحقِّ.

وصـــل

ضدّ العصبيّة وكتمانِ الحقّ: الإنصافُ والاستقامةُ على الحقِّ

لمّا كان ضدُّهما الإنصافَ والاستقامةَ على الحقِّ، فـلْنُشِرْ إلى بـعضِ مـا وردَ في مَـدحِهما تحريكاً للطالبينَ إلى الأخذِ بهما، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يَـسْـتَـكْـمِلُ العبدُ الإيمـانَ حـتّى يكونَ فيه ثلاثُ خصالٍ: الإنفاقُ من الإقتارِ، والإنصافُ من نفسِه، وبذلُ السلامِ»[1]. وكان صلى الله عليه وآله يقولُ في آخرِ خُطبتِهِ: «طوبى لمن طابَ خُلُقُهُ، وطَهُرَتْ سَجيّتُهُ، وصلُحَتْ سريرتُه، وحسُنتْ علانيتُه، وأنفقَ الفضلَ من مالِه، وأمسَكَ الفضلَ من قـولِه، وأنـصفَ النـاسَ مـن نـفسِه»[2]. وقال صلى الله عليه وآله: «سيّدُ الأعمالِ إنصافُ الناسِ من نفسِكَ...»[3] إلى آخره. وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام في كلامٍ له: «ألا إنّه مَن يُنصِفُ من نفسِه لم يزدْهُ اللهُ إلّا عزّاً». وقال الصادق عليه السلام:

ثلاثةٌ هم أقربُ الخَلْقِ إلى الله تعالى يومَ القيامةِ حتّى يَفرُغَ من الحسابِ: رجـلٌ لم تَـدْعُهُ قدرةٌ في حالِ غضبِهِ على أنْ يحيفَ على مَنْ تحتَ يدِهِ. ورجلٌ مشى بـين اثنينِ فلم يَـمِـلْ مع أحدِهما على الآخرِ بشعيرةٍ، ورجلٌ قال بالحقّ فيما له وعليه[4].

وقال عليه السلام: «إنّ لله جَنّةً لا يدخُلُها إلّا ثلاثةٌ، أحدُهم من حكم في نفسه بالحقِّ»[5].

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٣٧٠.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١٤٤، باب الإنصاف و العدل، ح ١.

٣. الكافي، ج ٢، ص ١٤٥، باب الإنصاف و العدل، ح ٧.

٤. الكافي، ج ٢، ص ١٤٥، باب الإنصاف و العدل، ح ٥.

٥. الكافي، ج ٢، ص ١٤٨، باب الإنصاف و العدل، ح ١٩.

النوع الحادي والعشرون: القَساوة

وهيَ ملكةُ عدمِ التأثُّرِ عن تألُّمِ أبناء النوعِ. ولاريبَ في كونِه ناشِئاً منْ غَـلبةِ السـبُعيّةِ، وأكثرُ ذمائمِ الصفاتِ: من الظلمِ والإيذاءِ، وعدمِ إغاثةِ المظلومينَ، وعـدمِ مـواسـاةِ الفـقراءِ والمحتاجينَ وغيرِ ذلك يترتّبُ عليه. وضِدُّهُ الرحمةُ والرقّةُ، وهو التأثُّر عن مشاهدةِ تألُّمِ أبناءِ نوعِه، ويَتَرتَّبُ عليه منَ الصفاتِ المرضيّةِ أضدادُ ما ذُكِرَ. وقد ورَدَ به المـدحُ والترغـيب في الأخبارِ الكثيرةِ، كقول الصادق عليه السلام: «اتّقوا اللهَ وكونوا إخوةً بَرَرَةً متحابّينَ في الله متواصلينَ متراحمين...»[١]. وقوله عليه السلام: «تواصَلُوا وتَبارُّوا وتَراحمُوا وكُونوا إخوةً بَرَرَةً كما أمركم اللهُ»[٢].

والأخبارُ الواردةُ في فضيلةِ مطلقِ الرحمةِ، وفي فضيلةِ خُصوصِ كـلّ واحـدٍ واحـدٍ فـيما يندَرِجُ تحتَه: من إعانةِ المحتاجِ، وإغاثةِ المظلومِ، ومواساةِ الفقيرِ، والاغتمامِ بمصائبِ المـؤمنينَ، وأمثالِ ذلكَ أكثرُ من أن تُحصى.

ثمّ إنّ إزالَةَ القَساوَةِ واكتسابَ الرحمةِ في غايةِ الإشكالِ، إذ القساوةُ صفَةٌ راسخةٌ في القلبِ لا يُـقْـدَرُ على تركِها بسهولةٍ، فطريقُ العلاجِ أنْ يَتْرُكَ لوازِمَها وآثارَها من الأفعال الظاهرةِ، ويُواظِبَ على مايَترتَّبُ على الرحمةِ من الصفاتِ الاختياريّةِ، ويكلِّفَ نفسَه على ذلك حـتّى يرتفِعَ على التدريجِ مبدأ الأُولى ويحصُلَ مبدأ الثانية.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٤٠١، باب التراحم والتعاطف، ح ٤٥.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٤٠١، باب التراحم والتعاطف، ح ٤٦.

الباب الخامس

فيما يتعلّق بالقُوّةِ الشَهَويّةِ

من الرذائِلِ والفضائِلِ وكيفيةِ العِلاجِ

جنسا رذائِلِ القوّة الشهويّةِ

الجنس الأوّل: الشَرَه

الجنس الثاني: الخمود

وصلٌ: ضدّ هذين الجنسين: العفّة

أنواع الرذائل والفضائل والنتائج والآثار المتعلّقة بالقوّة الشهويّة

جنسا رذائِلِ القوّة الشهويّةِ

الجنس الأوّل: الشَرَهُ

الشَرَهُ أحدُ جنْسَي رذائِلِ القوّةِ الشهويّة، وهو إطاعةُ شَهْوةِ البطنِ والفَرْج، وشِدّةُ الحِرصِ على الأكلِ والجِماعِ، وربّما فُسّر باتّباع القوّةِ الشَهْويّة في كلِّ ما تدعُو إليه من شَهْوةِ البطنِ والفَرْج، وحبِّ المال، وغيرِ ذلك؛ لِيكونَ أعمَّ مِن سائِرِ رذائِلِ قُوّةِ الشَهوة، وتَتَحقّقَ جنسيّتُه. وعلى الأوّل يكون بعضُ رذائِلها ـ كحبِّ الدنيا المتَعلِّق بها ـ أعمَّ منه، إلّا أنّ القومَ لمّا فسّروه بالأوّل فنحن اتّبعناهم، إذ الأمرُ في مثلِهِ هيّنٌ.

وبالجملة، رذيلةُ الشَرَهِ من طرف الإفراطِ، ولا ريبَ في كونِه أعظمَ المُهْلِكات لابنِ آدمَ، ولِذا قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ وُقِيَ شرَّ قَبْقَبِه وذَبْذَبِه ولَقْلَقِهِ فَقَد وُقِيَ»[1]. والقَبْقَبُ: البَطنُ، والذَبْذَبُ: الفَرج، واللَقْلَق: اللسانُ. وقال ﷺ: «ثلاثٌ أخافهُنّ على أُمّتي مِن بعدي: الضَلالَةُ بَعْدَ المعرفةِ، ومُضِلّاتُ الفِتَن، وشَهْوَةُ البَطن والفَرجِ».[2]

ويدلّ على ذمّ الأوّل ـ أَعنِي شهوةَ البَطنِ والحِرْصَ على الأكلِ والشُرب ـ قولُه ﷺ: ما ملأَ ابنُ آدمَ وِعاءاً شرّاً مِن بطْنِه، حَسْبُ ابنِ آدَمَ لُقيماتٌ يُقِمْنَ صُلبَه، وإنْ كان

---

١. بحار الأنوار، ج٧٧، ص١٦٩ ـ ١٧٠، باب ما جمع من مفردات كلماته، ذيل الحديث ٧، وفيه: «فقد وقي الشر كلّه»؛ كنز العمّال، ج٣، ص٥٥٣، ح٧٨٧٢ وفيه: «فقد وجبت له الجنّة».

٢. الكافي، ج٢، ص٧٩، باب العفّة، ح٦؛ كنز العمّال، ج١٦، ص٤٥، ح٤٣٨٦٤.

لابدّ فاعلاً فثلثٌ لِطَعامِه وثلثٌ لِشَرابِه وثلثٌ لِنَفَسه[١].

وقال ﷺ: «لا تُميتوا القُلوبَ بِكَثْرةِ الطعامِ والشرابِ؛ فإنّ القلبَ كالزرعِ يموتُ إذا كَثُر عليه الماء»[٢]. وقال ﷺ: «أفضَلُكم منزلةً عندَ الله أطوَلُكم جُوعاً وَتفكُّراً، وأبغضُكم إلى الله تعالى كلُّ نَؤُومٍ أكُولٍ شَرُوبٍ»[٣]. وقال ﷺ: «لا يَدخُلُ مَلكُوتَ السّماواتِ مَنْ مَلأَ بَطْنَه»[٤]. وقال لقمانُ لابنهِ: «يابُنَيّ، إذا امْتَلأَتِ المَعِدَةُ، نامَت الفِكْرَةُ، وخَرَسَت الحِكْمَةُ، وقَعَدت الأعضاءُ عنْ العِبادةِ». وقال الباقر عليه السلام: «إذا شَبعَ البطنُ طَغَى»[٥]. وقال عليه السلام: «ما مِن شيءٍ أبغضُ إلى الله عزّ وجلّ من بطنٍ مَمْلُوءٍ»[٦]. وقال عليه السلام:

ما مِن شيءٍ أضرّ لِقلبِ المؤمنِ مِن كَثْرةِ الأكلِ، وهي مُورِثةٌ شيئين: قَسْوَةَ القلبِ، وهيجانَ الشَهْوَةِ. والجُوعُ إدامٌ للمؤمنِ، وغِذاءٌ للرُوحِ، وطَعامٌ للقَلْبِ، وصِحّةٌ للبَدَنِ[٧].

والأخبارُ الوارِدةُ بهٰذه المضامينِ كَثيرةٌ.

ولا رَيبَ في أنّ أكثرَ الأمراضِ والأسْقامِ تترتَّبَ على كَثْرةِ الأكْلِ. قال الصادقُ عليه السلام: «كلُّ داءٍ مِن التُخمَةِ إلّا الحُمّى فإنّها تَرِدُ وُرُوداً»[٨]. وقال عليه السلام: «الأكلُ على الشِبَعِ يُورِثُ البَرَصَ»[٩].

والبطنُ مَنْبَتُ الأدْواءِ والآفاتِ ويَنْبوعُ الشهواتِ، إذْ تَتْبَعُها شَهْوَةُ الفَرجِ، وتَتبَعُ شهوةَ المطعَمِ والمنكَحِ شِدّةُ الرغبةِ في الجاهِ والمالِ، لِيتوسّل بهما إلى التوسُّع في المطعُوماتِ والمنكوحاتِ، ويَتْبَعُ ذلك أنواعُ الرعُونات، وضُرُوبُ المحاسَداتِ والمنافَساتِ. وتَتَولّد من

١. كنز العمّال، ج٣، ص ٣٩٩، ح٧١٣٧.
٢. بحار الأنوار، ج٦٦، ص ٣٣١، ح٧؛ باب ذمّ كثرة الأكل.
٣. إحياء علوم الدين، ج٣، ص ٨٠ ـ ٨١.
٤. إحياء علوم الدين، ج٣، ص ٨٠.
٥. الكافي، ج٦، ص ٢٧٠، باب كراهية كثرة الأكل، ح ١٠.
٦. الكافي، ج٦، ص ٢٧٠، باب كراهية كثرة الأكل، ح ١١.
٧. بحار الأنوار، ج٣٦، ص٣٣٧، باب ذمّ كثرة الأكل، ح٣٣.
٨. بحار الأنوار، ج٦٦، ص ٣٣٦، باب ذمّ كثرة الأكل، ح ٢٩.
٩. الكافي، ج٦، ص٢٦٩، باب كراهية كثرة الأكل، ح٧.

ذلك آفةُ الرياءِ، وغائلةُ التفاخُرِ والتكاثُرِ والعُجبِ والكِبرِ، ويدعُو ذلك إلى الحِقدِ والعداوةِ والبغضاءِ، ويُفضِي ذلك بصاحِبه إلى اقتحامِ البَغي والمنكرِ والفَحشاءِ. وكلّ ذلك ثمرةُ إهمالِ المعدَةِ وما يتولّد مِن بَطَرِ الشِبَعِ والامتلاءِ.

ولو ذلّل العبدُ نفسَه بالجُوعِ، وضَيّقَ مجارِيَ الشَيطانِ، لم يَسْلُك سبيلَ البَطَرِ والطُغْيانِ، ولم ينجرَّ به إلى الانهماكِ في الدنيا والانغمارِ فيما يُفضِيهِ إلى الهَلاكِ والرَدَى، ولذا وَرَد في فَضيلَة الجُوعِ والصَبرِ عليه ما وَرَدَ مِن الأخبارِ؛ قال رسولُ الله ﷺ:

> جاهِدُوا أنفُسَكُم بالجوعِ والعَطَشِ، فإنّ الأجْرَ في ذلك كأَجْرِ المجاهِدِ في سبيلِ الله، وإنّه ليس مِن عَملٍ أحبُّ إلى اللهِ منْ جوعٍ وعَطَشٍ[١].

وقال ﷺ: «أفضَلُ الناسِ مَنْ قَلَّ مَطْعَمُه وضِحكهُ، ورَضِي بما يَسْتُر عَوْرَتَه»[٢]. وقال ﷺ: «سَيّدُ الأعمالِ الجُوعِ، وذُلُّ النفسِ لِباسُ الصُوفِ»[٣]. وقال ﷺ: «اشرَبُوا وكُلُوا في أَنصافِ البُطُونِ، فإنّه جُزءٌ من النُبُوّةِ»[٤]. وقال ﷺ: «أَقْرَبُ الناسِ من اللهِ عزّ وجلّ يَوْمَ القيامةِ منْ طال جُوعُه وعَطَشُه وحُزْنُه في الدنيا»[٥]. وقالت بعضُ زَوجاتِه ﷺ:

> إنّ رسولَ اللهِ لم يَمْتَلِئ قَطُّ شِبعاً، وربّما بَكَيتُ رَحمةً ممّا أرَى به من الجُوعِ...، فأقول: نفسي لكَ الفِداءُ! لو تَبلَّغْتَ مِن الدنيا بقَدْرِ مَا يُقَوِّيكَ ويَمنَعُك من الجُوعِ، فيقول: إخواني مِن أُوْلِي العَزمِ مِن الرُسُل قد صبَرُوا على ما هو أشدّ مِن هذا، فَمَضوا على حالِهِم فَقَدِموا على ربِّهم فأَكْرَمَ مآبَهم وأجزلَ ثوابَهم، فأجِدُني أستَحْيي إن تَرَفَّهْتُ في مَعيشَتِي أنْ يُقْصَرَ بي غداً دونَهم، فأصْبِرِ أيّاماً يَسيرةً أحبُّ إليَّ مِن أنْ يُنقَصَ بي حَظّي غداً في الآخِرَة، وما مِن شيءٍ أحبّ إليّ مِن اللُحوقِ بأصحابي وإخواني.[٦]

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص١٤٦.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص١٤٦.
٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص١٤٦.
٤. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص١٤٧.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص١٤٦.
٦. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص١٤٩.

وروي:

أنّه جاءت فاطمةُ عليها السلام ومعها كُسَيْرةٌ مِن خُبْزٍ، فدفعَتْها إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: ما هذه الكُسَيْرةُ؟ قالت: قُرْصٌ خَبَزْتُه للحسنِ والحسينِ عليهما السلام جِئتُكَ منه بهذه الكُسَيْرةِ، فقال: أمّا إنّه أوّلُ طعامٍ دخَل فَم أبيكِ منذُ ثلاثٍ[١].

فوائدُ الجوعِ: ثمّ للجوعِ فوائدُ: هي صَفاءُ القلب ورِقّته، واتّقادُ الذِهن وحِدّتُه، والالتذاذُ بالمناجاةِ والطاعَةِ، والابتهاجُ بِالذكْرِ والعبادَةِ، والترَحُّمُ لِأربابِ الفقرِ والفاقةِ، والتذكّرُ بجُوعِ يَوْمِ القيامَةِ، والانكسارُ المانِعُ عن الطُغيانِ والغَفْلَةِ، وتَيَسُّرُ المواظَبَةِ على الطاعةِ والعِبادَةِ، وكَسْرُ شَهَواتِ المعاصي المُسْتَوْلِيَةِ بالشِبَعِ، ودفعُ النومِ الذي يُضَيِّعُ العُمرَ ويُكِلُّ الطبعَ ويُفَوِّتُ القيامَ والتَهَجّدَ، والتمكُّنُ مِن الإيثارِ والتَصدُّقُ بالزائِدِ، وخِفّةُ المؤونةِ الموجِبَةُ للفَراغِ عن الاهتمامِ بالتحصيلِ والإعداد، وصحّةُ البَدَنِ ودفعُ الأمراضِ، إذ «المِعْدَةُ بيتُ كُلِّ داءٍ والحِمْيَةُ رأسُ كلّ دواءٍ»،[٢] وأضدادُ هذه الفوائِد من المفاسِد يترتَّب على الشِبَع.

ثمّ علاج الشَرَه بالأكْلِ والشُرْب أنْ يَتذَكَّرَ الأخبارَ الواردةَ في ذَمِّه، ويُنَبِّهَ نفسَه على رَذالةِ المأكولاتِ وخَساسَتِها، وعلى خِسّة الشُرَكاء مِن الحيواناتِ، ويتأمّلَ في المفاسِد المترتّبةِ على الوَلُوعِ به: من الذلّةِ، والمَهانةِ، وسُقوطِ الحِشْمَةِ والمَهابَة، وفُتورِ الفِطنَةِ، وظُهورِ البلادَةِ، وحُدوثِ العِلَلِ والأمراضِ الكثيرةِ، وبعد ذلك يَحفَظُ نفسَه عن الإفراطِ في الأكلِ ولو بالتكلّفِ حتّى يصيرَ الاعتدالُ فيه عادةً.

وأمّا الثاني ـ أعني طاعةَ شهوةِ الفرجِ والإفراطِ فيها ـ فلا رَيْبَ في أنّه يَقهَرُ العقلَ حتّى يجعلَ الإنسانَ مقصورَ الهمّ على التمتّع بالشهواتِ فيُحرَم من سُلُوكِ طريقِ الآخِرةِ، أو يَقْهَرُ الدِين حتّى يَجرَّ إلى اقتحامِ الفواحش. وربّما انتهَت هذه الشهوةُ بِمَن غَلَبَ وَهْمُه على عقْلِه إلى العِشقِ البهيمي الذي ينشأ مِن استيلاءِ الشهوة، فيُسَخِّرُ الوهمُ العقلَ لِخِدمَةِ الشَهْوة، وقد خُلِقَ العقلُ لِيَكونَ مُطاعاً لا لِيَكُونَ خادِماً للشَهْوَةِ. وهذا مرضُ قلوبٍ فارِغةٍ خَلَت عن مَحبّةِ اللهِ

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

٢. بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٢٠٥، باب احتجاجات الصادق عليه السلام على الزنادقة.

وعن الهِمَمِ العاليةِ.

وَيَجِبُ الاحترازُ مِن أوائِلِه بِتَرْكِ مُعاوَدَةِ الفِكْرِ والنَظَرِ، وإذا استَحْكَمَ عَسُر دَفْعُه، وكذلك حبُّ الباطلِ مِن الجاهِ والمالِ والعقارِ والأولادِ. فَمَثَلُ مَنْ يَكْسِرُه في أوّل انبعاثِه كَمَثَلِ مَنْ يَصرِف عِنانَ الدابّةِ عِند تَوَجُّهِها إلى بابٍ لِتَدْخُلَه، وما أهوَنَ مَنْعَها بِصَرفِ عِنانِها، ومَثَلُ مَنْ يُعالِجه بَعد استحكامِه مَثَلُ مَنْ يَتْرُكُ الدابّةَ حتّى تدخلَ وتَتَجاوزَ البابَ ثمّ يَأْخُذُ بِذَنَبِها ويَجُرّها إلى وَرائِها، وما أعظمَ التفاوتَ بين الأمرينِ في اليُسرِ والعُسْر! فلْيَكُن الاحترازُ والاحتياطُ في بِداياتِ الأُمورِ، إذْ في أواخِرِها لا تَقْبَلُ العِلاج إلّا بِجُهْدٍ شَديدٍ يكاد يُوازِي نَزْعَ الرُوحِ. والتَجْرِبَةُ شاهِدةٌ بأنّ منْ ينقادُ لِهٰذهِ الشَهْوَةِ ويَسعَى في تكثيرِ ما يهيجُها مِن التَخيُّلِ والنظرِ وتناوُلِ الأغذِيةِ والأدوِيةِ المحرِّكةِ لها، يكونُ ضَعيفَ البدن، سقيمَ الجِسم، قَصيرَ العُمْرِ. وقد يَنْجَرُّ إفراطُها إلى سُقُوطِ القوّةِ واختلالِ القوىٰ الدماغيةِ وفَسادِ العقْلِ كما بُرهِنَ عليه في الكُتبِ الطِبّيّةِ.

ثمّ عِلاجُ إفراطِ هذه الشهْوَة ـ بعد تذكّرِ مفاسِدِها المذكورةِ ـ كَسْرُها بِالجُوعِ، وسَدُّ الطُرُقِ المؤَدّيةِ إليها: مِن التخيُّلِ والنظَرِ والتكلُّمِ والخَلْوَةِ، فإنّ أقوى الأسبابِ المهيِّجَةِ لَها، هو النَظَرُ والخَلْوَة، ولذا قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ﴾[1]. وقال النبيّ ﷺ: «النظرةُ سَهْمٌ مَسمُومٌ مِن سِهامِ إبليسَ، فَمَنْ تَرَكَها خَوفاً مِن اللهِ تعالى أعطاهُ اللهُ إيماناً يَجِدُ حَلاوتَه في قَلبِه».[2] وقال ﷺ: «لِكلِّ عُضوٍ من أعضاءِ ابنِ آدمَ حظٌّ مِن الزنا فالعَيْنانِ تَزنيانِ وَزِناهُما النَظرُ».[3] وقال ﷺ: «لا تَدْخُلُوا على المغِيباتِ ـ أي التي غاب عَنها زوجُها ـ فإنّ الشَيطانَ يجري مِن أحدِكُمْ مَجرى الدَمِ»[4]. وقال عيسى بن مريم ﵇: «إيّاكم والنظرةَ، فإنّها تزرَعُ في القَلبِ شَهْوةً، وكَفَى بها فِتنةً»[5]. وقيل ليحيى بن زكريّا: ما بَدْءُ الزنا؟ قال: «النَظْرَةُ والتمنّي».[6]

١. النور (٢٤): ٣٠.

٢. بحار الأنوار، ج١٠٤، ص٣٨، باب من يحلّ النظر إليه، ح٣٤.

٣. بحار الأنوار، ج١٠٤، ص٣٨، باب من يحلّ النظر إليه، ح٣٥.

٤. إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢٩.

٥. المحجّة البيضاء، ج٥، ص١٨٠.

٦. المحجّة البيضاء، ج٥، ص١٨٠.

ولكونِ النظرِ مُهيِّجاً للشهوةِ حَرُمَ في الشريعةِ نَظرُ كلٍّ مِن الرجلِ والمَرْأةِ إلى الآخَر، وكذا حَرُمَ استماعُ كُلٍّ منهما لكلامِ الآخَرِ، إلّا مع الضرورةِ وعُمومِ الحاجةِ. وكذا حَرُمَ نظرُ الرجالِ إلى المُردِ مِن الصِبيانِ إذا كان مُورِثاً للفتنةِ. ولذا كان كُبَراءُ الأخيارِ وعُظماءُ الأبرارِ في الأعصارِ والأمصارِ مُحتَرِزين عن النظرِ إلى وُجوهِ الصبيانِ، حتّى قال بعضهم: «ما أنا بأخوفَ على الشابِّ الناسِكِ مِن سَبُعٍ ضارٍ كَخَوْفي عليه مِن غُلامٍ أمرَدَ يَجْلِسُ إليه»[1].

ثمّ إن لم تنقمِع الشَهوةُ بالجوعِ والصَوْمِ وحفظِ النَظر، فيَنبَغي كَسرُها بالنكاحِ، بشَرطِ الاستطاعَةِ والأمنِ مِن غوائِله. قال رسول الله ﷺ: «معاشِرَ الشَبابِ، عَلَيْكُم بالباءةِ، فَمَن لم يَستَطِع فَعَليهِ بالصَومِ، فإنّ الصومَ له وِجاءٌ»[2].

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٨٢.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٢٩.

الجنس الثاني: الخمود

وهو ثاني جِنسَي رذائِل قوّةِ الشهوةِ، وهو التفريطُ في كسبِ ضروريّ القُوت، بحيثُ يُؤدّي إلى سُقُوطِ القُوّةِ وتَضْيِيعِ العيالِ وانقِطاعِ النسلِ. ولا رَيْب في كونِ ذلك مَذمُوماً غيرَ مستحسَنٍ في الشرعِ، إذ تحصيلُ المَعارِفِ الإلهيّةِ واكتسابُ الفضائِلِ الخُلقيّةِ والعباداتِ البدنيّةِ موقوفٌ على قوّةِ البدنِ، فالتفريطُ في إيصال بدلِ ما يتحلَّل إلى البدنِ يُوجِبُ الحِرمانَ عن تحصيلِ السَعاداتِ، وهو غايةُ الخُسْرانِ.

ومِن فوائِد النكاحِ تَفريغُ القَلْبِ عن تَدبيرِ المنزِلِ، والتكفُّلِ بِشُغلِ الطَبْخِ والفَرْشِ والكَنْسِ، وتَنْظيفِ الأواني وتهيئَةِ أسْبابِ المَعِيشَةِ، فإنَّ الفَراغَ عن ذلك أعوَنُ شيءٍ على تحصيلِ العِلمِ والعَملِ، ولذا قال النبيُّ ﷺ: «ليتّخِذْ أحدُكم لِساناً ذاكِراً، وقلباً شاكِراً، وزوجةً مؤمنةً صالحةً تعينُه على آخِرتِه»[1].

ومنها: مجاهَدَةُ النفسِ ورياضَتُها بالسعي في حوائجِ الأهلِ والعِيالِ، والاجتهادِ في إصلاحِهم وإرشادِهم إلى طريق الدينِ، وفي تحصيل المالِ الحلالِ لهم من المكاسِب الطيّبةِ، والقيامِ بتَرْبيةِ الأوْلادِ، وكلّ ذلك مِن الفضائلِ العظيمةِ، ولذا قال رسول الله ﷺ: «الكادّ في نَفَقَةِ عيالِه كالمجاهِدِ في سبيلِ اللهِ»[2]. وقال ﷺ: «مَنْ حَسُنَت صلاتُه، وكثُرَ عيالُه، وقلَّ مالُه،

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٣١.

٢. بحار الأنوار، ج ١٠٣، ص ١٠٣، باب آداب التجارة، ح ٤٩ وص ٣، باب الحثّ على طلب الحلال، ح ٦.

ولم يَغْتَب المسلمين، كانَ مَعي في الجنّةِ كهاتين»[١]. وقال ﷺ: «مِن الذنوبِ ذنوبٌ لا يُكفِّرُها إلّا الهمُّ بِطَلَبِ المعِيْشَةِ»[٢].

ولا رَيْبَ في أنّ خمودَ الشهْوَة يَلزمُهُ الحِرمانُ عن الفوائِدِ المذكورةِ، فَهُوَ مرجوحٌ.

ثمّ لَمّا كانَ للنكاحِ آفاتٌ أيضاً، كالاحتياجِ إلى المالِ وصُعُوبةِ تحصيلِ الحلالِ منه ـ لا سيّما في أمثالِ زمانِنا ـ والعَجْزِ عن القيامِ بحُقُوقِ النِسوانِ، واحتمالِ الأذَى منهنّ، وتَفرُّقِ الخاطِرِ لأجلِ القيامِ بِتَدْبيرِ المعيشةِ وتهيئَةِ ما يحتاجون إليه، وتأديةِ ذلك غالباً إلى ما لا ينبغي مِن الانغمارِ في الدنيا والغفلَةِ عن اللهِ سُبحانه وعمّا خُلِقَ لأجلِه، فاللائِقُ أن يُلاحَظَ في كلِّ شخصٍ أنّ الراجِحَ في حقِّهِ ماذا؟ ـ بعد ملاحَظَةِ الفوائِدِ والمفاسِدِ ـ فَيَأْخُذَ به.

١. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٣٢.
٢. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٣٢.

وصلٌ
ضدّ هذين الجنسين: العفّة

قد عرفْتَ أنّ ضدّ الجنسَين العِفّةُ، وهوَ انقيادُ قوّةِ الشهْوَةِ للعقلِ في الإقدامِ على ما يَأمُرها به مِن المأْكَلِ والمَنكَحِ كمّاً وكيفاً، والاجتنابُ عمّا ينهاها عنه، وهو الاعتِدالُ الممدوح عقلاً وشرعاً، وطرفاه من الإفراطِ والتفريط مذمومان، فإنّ المطلوبَ في جميعِ الأخلاقِ والأحوالِ هو الوسطُ، إذ خيرُ الأُمور أوساطُها، وكِلا طرفَيها ذميمٌ. فلا تظُننَّ ممّا ورَد في فضيلةِ الجُوْع أنّ الإفراطَ فيه ممدوحٌ، فإنّ الأمرَ ليس كذلكَ، بلْ مِن اسرارِ حِكمةِ الشريعةِ أنّ كلّما يطلبُ الطبعُ فيه طرفَ الإفراطِ بالَغ الشرعُ في المنعِ عنه على وجْهٍ يَتوهَّمُ الجاهلُ منه أنّ المطلوبَ طرفُ التفريطِ، والعالِمُ يُدرِكُ أنّ المقصودَ هو الوسطُ، فإنّ الطَبعَ إذا طلبَ غايةَ الشِبَعِ، فالشَرعُ ينبغي أن يَطْلُبَ غايةَ الجُوعِ، حتّى يكونَ الطبعُ باعِثاً والشرعُ مانِعاً، فَيتقاوَمانِ ويَحْصُل الاعْتِدالُ. ولَـمّا بَلغ النبيّ صلى الله عليه وآله في الثناءِ على قيامِ اللّيلِ وصِيامِ النَهارِ، ثمَّ علمَ مِن حالِ بَعضِهم أنَّهُ يَقُومُ اللّيلَ كلَّهُ ويَصُوم الدهرَ كُلّه، فَنَهى عنه[1].

والأخبارُ الوارِدَةُ في مَدْحِ العِفّةِ وفَضِيلتِها كثيرةٌ، قال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «أفضلُ العِبادَة العَفافُ»[2]. وقال الباقر عليه السلام: «ما مِن عِبادَةٍ أفضلُ مِن عفّةِ بَطْنٍ وفَرْجٍ»[3]. وقال عليه السلام:

---

١. مجمع البيان، ذيل الآية ٢٣٥ من المائدة(٥).

٢. الكافي، ج ٢، ص ٧٩، باب العفّة، ح ٣.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٨٠، باب العفّة، ح ٧.

«ما عُبِدَ اللهُ بِشَيءٍ أفضلَ مِن عِفّةِ بطنٍ وفرجٍ»[١]. وقال عليه السلام: «أيُّ الاجتهاد أفضل مِن عِفّةِ بَطنٍ وفَرجٍ»[٢]. وفي معناها أخبارٌ أُخر[٣].

وإذْ عرفتَ هذا، فاعلَم أنّ الاعتدال في الأكلِ أن يأكلَ بحيثُ لا يحسُّ بثقلِ المَعِدَة ولا بِألمِ الجُوعِ، بَلْ يَنسَى بَطنَه فلا يُؤثِّر فيه أصلاً، فإنّ المقصودَ مِن الأكلِ بَقاءُ الحياةِ وقُوّةُ العبادَةِ، وثِقلُ الطعامِ يمنعُ العِبادةَ، وألمُ الجُوعِ أيضاً يَشغَلُ القلبَ ويَمنَعُ منها. فالمقصودُ أن يأكُلَ أكلاً معتدِلاً بحيثُ لايَبقَى لِلْأكلِ فيه أثرٌ، لِيَكُونَ مُتَشبّهاً بالملائكةِ المقدّسينَ عن ثِقْلِ الطعامِ وألمِ الجُوعِ، وإليه الإشارَةُ بِقَوْلِه تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾[٤].

وهذا يَختلِفُ بالنسبةِ إلى الأشخاصِ والأحوال والأغذِيَةِ، والمعيارُ فيه أن لا يأكُلَ طعاماً حتّى يشتَهِيَهُ، ويرفَع يدَه عنه وهو يَشْتَهيهِ، ويَنبغي أن لا يكونَ غَرَضُه مِن الأكلِ التَلذُّذَ، بلْ حِفظُ القُوّةِ على تحصيلِ ما خُلِق لِأجلِه، فَيقتَصِرُ مِن أنواعِ الطعامِ على خُبزِ البُرّ في بعضِ الأوقاتِ، وعلى خُبزِ الشعيرِ في بَعضِها، ولو ضمَّ إليه الإدامَ، فَيَكْتَفي بإدامٍ واحدٍ في بَعضِ الأحيانِ، ولا يواظِبُ على اللَحمِ، ولا يَترُكُهُ بالمرّةِ، قال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «مَنْ تَرَكَ اللحمَ أربعينَ يَوماً ساءَ خُلُقُه، ومَنْ داوَمَ عليهِ أربعين يَوْماً قسا قَلْبُه»[٥].

والاعتدالُ أنْ يكتفِيَ في اليَومِ بِلَيلَتِه بأكلةٍ واحدةٍ في وقتِ السَحَرِ، بعدَ الفراغِ من التَهجُّدِ أو بَعدَ صلاةِ العِشاءِ، أو بأكلَتَينِ: التغدِّي والتعشِّي، إن لم يَقدِر على الاكتِفاءِ بمرّةٍ واحِدَةٍ، وقد استفاضت أخبارُ أئمّتنا الراشِدينَ عليهم السلام بالحَثّ على التعشّي[٦].

وأمّا غيرُ الجنسينِ مِنْ الأنواعِ والنتائجِ والآثارِ المتعلّقَةِ بالقُوّةِ الشهويّةِ وإنْ كانْ بَعْضُها أعمَّ مِن الجِنسَينِ أو مُساوِياً لهما فأنواعٌ، وبعض الأنواعِ يشتمل على بحوثٍ.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٧٩، باب العفّة، ح ١.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٧٩، باب العفّة، ح ٤.

٣. راجع: بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٦٨، باب العفاف وعفّة البطن والفرج.

٤. الأعراف (٧): ٣٠.

٥. بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٥٨، باب فضل اللحم، ح ٦؛ وراجع بحار الأنوار، ج ٦٢، ص ٢٩٤، كتاب طبّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، بابٌ نادر.

٦. راجع: الكافي، ج ٦، ص ٢٨٨، باب فضل العشاء وكراهية تركه.

أنواعُ الرذائلِ والفضائلُ والنتائج والآثار المتعلّقة بالقوّة الشهويّة

النوع الأوّل: حبُّ الدنيا

اِعلَم أنّ للدُنيا ماهيّةً في نفسِها وماهيّةً في حقِّ العَبدِ، أمّا ماهيّةُ الدنيا وحقيقتُها في نفسِها، فَعِبارَةٌ عن أعيانٍ موجودةٍ هي الأرضُ وما علَيها، والأرضُ هي العَقارُ والضِياعُ وأمثالُها، وما علَيْها تَجْمَعُه المعادِنُ والنباتُ والحيوانُ. والمعادِنُ تُطلَبُ لِكَونِها إمّا مِن الآلاتِ والزينةِ كالنُحاسِ والرَصاصِ والجواهِرِ وأمثالِها، أو مِن النُقود كالذَهب والفِضّةِ. والنَباتُ يُطلَبُ لِكَونِه مِن الأقواتِ أو الأدوِيَةِ. والحَيوانات تُطلَبُ إمّا لِملكِيّةِ أبدانِها واستخدامِها، أو لِملكِيّة قُلُوبِها وتَسْخيرِها ليَتَرَتّبُ عليه التعظيمُ والإكرامُ وهو الجاهُ، أو للتمتُّعِ والتلذُّذِ بها كالنِسوان، أو للقوّةِ والاعتِضادِ كالأولادِ. هذه هي الأعيانُ المعبَّرُ عَنْها بالدُنيا.

وأمّا ماهيّتُها في حقّ العبدِ، فَعبارةٌ عن جميعِ مالَهُ قبلَ الموتِ، كما أنّ بعدَ الموتِ عِبارَةٌ عن الآخِرةِ، فَكلُّ ما لِلْعبدِ فيه نَصيبٌ وشهوةٌ وحظٌّ وغَرَضٌ ولذّةٌ في عاجلِ الحالِ قبلَ الوفاةِ فَهي الدنيا في حقِّه. وللعبدِ فيه علاقتانِ، علاقةٌ بالقلبِ: وهو حُبُّه لَه، وعلاقةٌ بالبدنِ: وهو إشغالُه بإصلاحِه، ليستوفيَ منه حُظوظَه. إلّا أنّ جميعَ ماله إليهِ ميلٌ ورغبةٌ ليس بمذمومٍ، وذلك لأنّ ما يصحبهُ في الدنيا وتبقى ثَمرتُهُ معه بعدَ الموتِ ـ أعني العلمَ النافعَ والعملَ الصالحَ ـ فهو من الآخرةِ في الحقيقةِ، وإنّما سُمّي بالدنيا باعتبارِ دُنُوِّهِ، فإنّ كُلّاً من العالِمِ والعابِدِ قد يلتذّ بالعلمِ والعبادةِ بحيث يكون ذلك ألذّ الأشياءِ عندَه، فهو وإن كان حظّاً عاجلاً له في الدنيا، إلّا أنّه

ليس من الدنيا المذمومةِ، بل هو من الآخرةِ في الحقيقةِ، وإن عُدّ من الدنيا من حيثُ دخولُه في الحسِّ والشهادةِ؛ فإنّ كلّ ما يدخلُ فيهما فهو من عالمِ الشهادةِ، أعني الدنيا.

فالدنيا المذمومةُ عبارةٌ عن حظٍّ عاجلٍ، لا يكونُ من أعمالِ الآخرةِ ولا وسيلةً إليها، وما هو إلّا التّلَذُّذُ بالمعاصي والتّنَعُّمُ بالمُباحاتِ الزائدةِ على قدرِ الضرورةِ في تحصيلِ العلمِ والعملِ.

وأمّا قَدرُ الضرورةِ من الرزقِ، فتحصيلُه من الأَعمالِ الصالحةِ ـ كما نَطقَت به الأَخبارُ ـ قال رسولُ الله ﷺ: «العبادةُ سبعونَ جُزءاً، أَفضلُها طلبُ الحلالِ»[١]. وقال ﷺ: «مَلعونٌ من أَلْقَى كَلَّهُ على الناسِ».[٢] وقال السجّاد عليه السلام: «الدنيا دنياآن: دنيا بلاغٌ، ودنيا ملعونةٌ»[٣]. وقال الباقر عليه السلام: «من طلبَ الدنيا استِعفافاً عن الناسِ، وسعياً على أهلِه، وتَعَطُّفاً على جارِهِ، لَقِيَ اللهَ عزّ وجلّ يومَ القيامةِ ووجهُهُ مثلُ القمرِ ليلةَ البَدْرِ»[٤]. وقال له عليه السلام رجل: إنّا لنطلبُ الدنيا ونحبُّ أن نُؤْتاها، فقال: «تحبُّ أن تصنعَ بها ماذا؟» قال: أعودُ بها على نفسِي وعِيالي، وأَصِلُ بها وأتصدّقُ، وأَحُجُّ وأعتَمِرُ، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ليس هذا طلبُ الدنيا، هذا طلبُ الآخرةِ»[٥]. وكان أبو الحسن عليه السلام يعملُ في أرضٍ قد اسْتَنْقَعَتْ قدماهُ في العَرَقِ، فقيل له: جُعِلتُ فداكَ! أينَ الرجالُ؟ فقال:

> وقد عَمِلَ باليدِ من هو خيرٌ منّي في أرضِهِ ومن أَبِي، فقيل: ومن هو؟ فقال: رسولُ اللهِ ﷺ وأميرُ المؤمنين وآبائِي كلُّهم كانوا قد عَمِلوا بأيديهِم، وهو من عملِ النبيّينَ والمرسلينَ والأوصياءِ والصالحينَ.[٦]

وقد ورد بهذه المضامينِ أخبارٌ كثيرةٌ أُخر مشهورةٌ.

---

١. الكافي، ج ٦، ص ٧٨، باب الحثّ على الطلب والتعرّض للرزق، ح ٦.
٢. الكافي، ج ٦، ص ٧٢، باب الحثّ على الطلب والتعرّض للرزق، ح ٦.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٣١٧، باب حبّ الدنيا، ح ٨.
٤. الكافي، ج ٦، ص ٧٨، باب الحثّ على الطلب والتعرّض للرزق، ح ٥.
٥. الكافي، ج ٦، ص ٧٢، باب الاستعانة بالدنيا على الآخرة، ح ١٠.
٦. الكافي، ج ٦، ص ٧٥ ـ ٧٦، باب ما يجب من الاقتداء بالأئمّة في التعرّض للرزق، ح ١٠.

تذنيب: قد ظهر من هذه الأخبارِ أنّ الراجِحَ ـ بل اللازِمَ ـ لكلِّ مؤمنٍ أن يكونَ له مكسبٌ طيّبٌ يُحَصِّلُ منه مايحتاجُ إليه من الرزقِ وغيرِه من المَخارجِ المحمودةِ، وقد صُرِّح بذلك في أخبارٍ كثيرةٍ أُخر، قال أميرُ المؤمنين عليه السلام:

أوحَى الله عزّ وجلّ إلى داودَ عليه السلام: إنّك نعمَ العبدُ لو لا أنّك تأكلُ من بيتِ المالِ ولا تعملُ بيدِك شيئاً، قال: فبكى داودُ أربعينَ صباحاً، فأوحَى الله عزّ وجلّ إلى الحديدِ أن لِنْ لعبدي داودَ، فألانَ اللهُ له الحديدَ، وكان يعمل كلَّ يومٍ درعاً فيبيعها بألفِ درهمٍ، فعمل ثلاثمائة وستّينَ دِرعاً فباعها بثلاثمائة وستّين ألفاً، واستغنى عن بيتِ المالِ[١].

وقيلَ له في رجلٍ قال: لأقعدنَّ في بيتي، ولأُصَلِّيَنَّ، ولأَصُومَنَّ، ولأعبُدَنَّ رَبِّي، فأمّا رزقي فسيأتِيني: قال أبو عبدِ الله: «هذا أحدُ الثلاثةِ الذين لا يُستجابُ لهم»[٢].

وهذا ـ أي ملكةُ تحصيلِ المالِ الحلالِ من المكاسبِ الطيّبةِ وصَرفِها في المخارجِ المحمودةِ ـ هو الحُرِّيّةُ بأحدِ المَعنَيينِ، إذ للحريّةِ إطلاقانِ: أَحدُهما ذلك، وهو الحريّةُ بالمعنى الأخصّ، وثانيهما التخلُّص عن أسرِ الهَوَى وعبوديّةِ القوّةِ الشهويّةِ، وهو الحريّةُ بالمعنى الأعمِّ المرادِفةُ، وضدُّهُ الرِّقِّيّةُ بالمعنى الأعمّ الذي هو طاعةُ قوّةِ الشهوةِ ومتابَعةُ الهَوَى.

وضدّ الأوّلِ ـ أعني الرقّيّةَ بالمعنى الأخصّ ـ هو افتقارُه إلى الناسِ فيما يحتاجُ إليه من الرزقِ، وإلقاءُ نظرِه إلى أيديهم، وحوالةُ رزقِه على أموالِهم، إمّا على وجهٍ مُحَرَّمٍ كالغَصبِ والنهبِ والسرقةِ وأنواعِ الخِياناتِ، أو غيرِ محرَّمٍ كأخذِ وجوهِ الصدقاتِ وأوساخِ الناسِ، بل مُطلقُ الأخذِ منهم إذا جعلَ يدَه يداً سُفلَى ويدَهم يداً عُليا. ولَا ريب في كونِ الرقّيّةِ بهذا المعنى مذمومةً، إذ الوجهُ الأوّل محرّمٌ في الشريعةِ ومُوجِبٌ للهلاكِ الأبديِّ، والوجهُ الثاني وإن لم يكن محرّماً إذاكان فقيراً مستحِقّاً، إلّا أنّه لإيجابِهِ التوقُّعَ من الناسِ وكونِ نظرِه إليهم يقتضي المَذَلّةَ والانكِسارَ والتَخضُّعَ للناسِ والرقّيّة والعبوديّةَ لهم، وهذا يرفعُ الوثوقَ باللهِ والاعتمادَ

---

١. الكافي، ج ٦، ص ٧٤، باب ما يجب من الاقتداء بالأئمّة في التعرّض للرزق، ح ٥.
٢. الكافي، ج ٦، ص ٧٧، باب الحثّ على الطلب والتعرّض للرزق، ح ١.

والتوكُّلَ عليه، وينجرّ ذلك إلى سلبِ التوكّلِ على اللهِ بالكلّيةِ، وترجيحِ المخلوقِ على الخالقِ، وهذا ينافي مقتضى الإيمانِ والمعرفةِ الواقعيّةِ باللهِ سبحانَه.

وهنا بحوثٌ:

البحث الأوّل: الدنيا المذمومةُ هي الهوى

قد ظهر ممّا ذكر: أنّ الدنيا المذمومةَ حظُّ نفسِك الذي لا حاجةَ إليه لأمرِ الآخرةِ، ويُعبَّر عنه بالهَوى، وإليه أشارَ قولُه تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[1].

ومجامع الهوى هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[2].

والأعيانُ التي تحصُلُ منها هٰذهِ الأُمورُ هي المذكورةُ في قولِه سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[3]. فهٰذهِ أعيانُ الدنيا، وللعبدِ معها علاقتانِ:

علاقةٌ مع القلب: وهي حبّهُ لها وحظّهُ منها وانصرافُ همِّهِ إليها، حتّى يصيرَ قلبُه كالعبدِ أو المحبِّ المُستَهْتَرِ بها[4]، ويدخلُ في هذه العلاقةِ جميعُ صفاتِ القلبِ المتعلّقة بالدنيا: كالرياءِ، والسمعةِ، وسوءِ الظنِّ، والمُداهَنَةِ، والحسدِ، والحقدِ، والغلِّ، والكبرِ، وحبِّ المدحِ، والتفاخُرِ والتكاثُرِ. فهٰذه هي الدنيا الباطنةُ، والظاهرةُ هي الأَعيانُ المذكورةُ.

وعلاقةٌ مع البدنِ: وهو اشتغالُه بإصلاحِ هذه الأعيانِ لتصلُحَ لحُظوظِهِ وحظوظِ غيرِه، وهذا الاشتغالُ عبارةٌ عن الصناعاتِ والحرفِ التي اشتغلَ الناسُ بها بحيث أنْسَتْهُمْ أنفسَهم وخالِقَهم وأغْفَلَتْهم عمّا خُلِقوا لأَجلِه، ولو عرفوا سببَ الحاجةِ إليها واقتصَرُوا على قدرِ

---

١. النازعات (٧٩): ٤٠ و ٤١.

٢. الحديد (٥٧): ٢٠.

٣. آل عمران (٣): ١٤.

٤. «اُستُهتِر بالشيء: فُتِنَ به ولَزِمَه غير مبالٍ بنقد ولا موعظة» (المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٩٧١، هـ ت ر).

الضرورةِ، لم يستغرقهُم اشتغالُ الدنيا والانهماكُ فيها، ولمّا جَهِلوا بالدنيا وحكمَتِها وحظِّهم منها لم يَقتصِرُوا على قدرِ الاحتياجِ، فأوقعُوا أنفُسَهم في أَشغالِها، وتَتابَعَت هٰذهِ الأشغالُ واتّصَلَت بعضُها ببعضٍ، وتداعَت إلى غيرِ نهايةٍ محدودةٍ.

البحث الثاني: ذمُّ الدنيا

اعلَم أنّ الدنيا عدوّةٌ للّهِ ولأوليائِه ولأعدائِه: أمّا عداوتُها للّهِ، فإنّها قَطَعَت الطريقَ على العبادةِ. وأمّا عداوتُها لأوليائِه وأحبّائِهِ، فإنّها تزيَّنَت لهم بزينَتِها وعَمَّتهُم بِزَهرَتِها ونَضارتِها، حتّى تَجرّعوا مرارةَ الصبرِ في مُقاطَعَتِها. وأمّا عداوتُها لأعدائِه، فإنّها اسْتَدْرَجَتْهُم بِمكرِها ومَكيدتِها واقْتَنَصَتْهُم بِشباكِها وحَبائِلها حتّى وَثِقُوا بها وعَوَّلُوا عليها، فاجْتَنَبوا منها حيرةً وندامةً تنقطعُ دونَها الأكبادُ ثمّ حَرَمَتهُم عن السعادةِ أبدَ الآبادِ، فهم على فراقِها يتحسَّرون، ومن مكايدها يستغيثونَ ولا يُغاثونَ، بل يقال لهم: ﴿اخْسَؤا فيها وَلا تُكَلِّمُونِ﴾[1]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوا الحَياةَ الدُّنيا بالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذابُ وَلاهُمْ يُنْصَرُونَ﴾[2].

والآياتُ الواردةُ في ذمّ الدنيا وحبِّها كثيرةٌ، وأكثرُ القرآنِ مشتملٌ على ذلكَ وعلى صرفِ الخلق عنها ودعوتِهم إلى الآخرةِ، بل هو المقصودُ من بعثةِ الأنبياءِ، فلا حاجةً إلى الاستشهادِ بآياتِ القرآن لظهورِها فَلنُشِرْ إلى نبذةٍ من الأخبارِ الواردةِ في ذمّ الدنيا وحبِّها وفي سرعةِ زوالِها، قال رسولُ الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تَعدِلُ عندَ اللهِ جَناحَ بَعُوضةٍ ما سَقَى كافراً منها شَربةَ ماءٍ»[3]. وقال ﷺ: «الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها إلّا ما كان للّهِ منها»[4]. وقال ﷺ: «الدنيا سجنُ المؤمنِ وجنّةُ الكافرِ»[5]. وقال ﷺ:

مَنْ أصبحَ والدنيا أكبرُ هَمِّهِ فليس من اللهِ في شيء، وألزَم اللهُ قلبه أربعَ خصالٍ:

---

١. المؤمنون (٢٣): ١٠٨.

٢. البقرة (٢): ٨٦.

٣. بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٢٠، ح ٧، باب مناقب فاطمة عليها السلام، ح ٧.

٤. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٣٥٣.

٥. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٣٥٣.

هَمّاً لا ينقطِع عنه أبداً، وشُغلاً لايَتفرَّغُ منه أبداً، وفَقراً لاينالُ غِناه أبداً، وأَملاً لا يَبلُغُ مُنتهاهُ أَبداً[١].

وأوحَى اللهُ تعالى إلى موسى:

يا مُوسى، مالكَ ولدارِ الظالمين! إنّها ليست لكَ بدارٍ، أَخرِج منها همَّك وفارِقْها بِعقلِكَ فبِئست الدارُ هيَ، إلّا لعاملٍ يعملُ فيها فنِعْمَت الدارُ هيَ. ياموسى! إنّي مُرصِدٌ للظالمِ حتّى آخذَ منه للمظلوم[٢].

وأوحى إليه: «ياموسى، لا تَركَنَنَّ إلى حُبِّ الدنيا، فلن تَأتِيَنَّ بكبيرةٍ هي أشدُّ منها»[٣]. ومرَّ موسى عليه السلام برجلٍ وهو يبكي، ورجعَ وهو يبكي، فقال موسى: «ياربِّ! عبدُكَ يبكي من مخافَتِك»، فقال تعالى: «يابنَ عِمرانَ! لو نزلَ دماغُه مع عينيهِ، ورفعَ يديه حتى يَسقُطا، لم أَغفِر له وهو يُحبُّ الدنيا»[٤].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّما مثلُ الدنيا كمثلِ الحيّةِ، ما أَلينَ مَسَّها وفي جَوفِها السمُّ الناقِعُ، يحذرُها الرجلُ العاقلُ ويَهوِي إليها الصبِيُّ الجاهِلُ»[٥]. وقال في وصفِ الدنيا:

ما أَصِفُ من دارٍ أَوَّلُها عناءٌ وآخرُها فناءٌ، في حلالِها حسابٌ وفي حرامِها عقابٌ، من استغنَى فيها فُتِنَ، ومن افتقَر فيها حَزِنَ، ومن ساعاها فاتَتْهُ، ومن قَعَد عنها أَتَتْهُ، ومن بَصُر بها بَصَّرَتْه، ومن أَبصرَ إليها أَعْمَتْهُ[٦].

وقال عليه السلام في بعض مواعظه:

ارْفُضِ الدنيا؛ فإنَّ حبَّ الدنيا يُعمِي ويُصِمُّ ويُبْكِمُ ويُذِلُّ الرقابَ، فتدارَك ما بقي من عمركَ، ولا تَقُل غداً وبعدَ غدٍ، فإنّما هلكَ من كان قبلك بإقامَتِهم على الأماني

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٣٥٥.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٣٥٨.
٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٣٦١.
٤. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٣٦١.
٥. الكافي، ج ٢، ص ١٣٦، باب ذمّ الدنيا والزهد فيها، ح ٢٢.
٦. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٢٠، باب حبّ الدنيا وذمّها، ح ١١٠.

والتَسْوِيفِ، حتّى أتاهم أمرُ اللهِ بغتةً وهم غافِلُون[١].

وقال السجّاد عليه السلام:

ما من عمل بعدَ معرفةِ الله عزّ وجلّ ومعرفةِ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أفضلُ من بغضِ الدنيا، فإنّ لذلك لَشُعَباً كثيرةً، وللمعاصِي شُعباً. فأوّلُ ما عُصِي الله بـهِ الكِـبرُ مـعصيةُ إبليسَ حين أَبى واستكبرَ وكان من الكافرين. ثمّ الحِرصُ، وهي معصيةُ آدمَ وحوّاءَ حين قال الله عزّ وجلّ لهما: ﴿فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَة فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ﴾[٢]. فأخذا ما لا حاجةَ بهما إليهِ، فدخل ذلك على ذُرِّيَّتِهما إلى يومِ القيامةِ، وذلك أنّ أكثرَ ما يطلُبُ ابنُ آدمَ ما لا حاجةَ بهِ إليهِ. ثمّ الحَسَدُ، وهو معصيةُ ابنِ آدمَ حيثُ حسدَ أخاه فقتلَه، فـتَشَعَّبَ مـن ذلك حبُّ النسـاءِ، وحبُّ الدنـيا، وحبُّ الرئاسةِ، وحبُّ الراحةِ، وحبُّ الكلامِ، وحبُّ العُلُوِّ والثَرْوةِ، فصِرْنَ سبعَ خِصالٍ، فاجتمعْنَ كلُّهنَّ في حبِّ الدنيا. فقال الأنبياءُ والعُلَماءُ ـ بعدَ معرفةِ ذلك: حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خَطِيئةِ، والدنيا دنياآن: دنيا بلاغٌ ودنيا ملعونةٌ[٣].

والأخبارُ والآثارُ في ذمّ الدنيا وحُبِّها، وفي سرعةِ زَوالِها وعدمِ الاعتبارِ بها، وفي هلاكِ من يَطلبُها ويرغَبُ إليها، وفي ضِدِّيَّتِها للآخرةِ، أكثرُ من أن تُحصَى. ولِعظَمِ آفةِ الدنيا وحَـقارتِها ومهانَتِها عندَ الله، لم يَرضَها لأحدٍ من أوليائِهِ، وحذَّرَهُم عن غوائِلِها، فَتَزَهَّدُوا فيها وأَكلُوا منها قَصداً، وقدَّمُوا فَضلاً. أَخذُوا منها ما يَكفِي، وتركُوا ما يُلهِي. لَبِسوا من الثيابِ مـا سـترَ العَورَةَ، وأَكلُوا من الطعام ما سدّ الجُوعَ. نظرُوا إلى الدنيا بعينِ أنّها فانيةٌ، وإلى الآخـرةِ أنَّهـا باقيةٌ، فَتَزَوَّدُوا منها كزادِ الراكِبِ، فخرّبُوا الدنيا وعَمَرُوا بِهـا الآخـرةَ، ونـظروا إلى الآخـرةِ بِقُلوبِهِم فَعَلِمُوا أَنَّهم سينظُرونَ إليها بأَعْيُنِهِم، فارتحلُوا إليها بقُلوبِهِم لمّا عَلِمُوا أنَّهم سيرَتَحِلُونَ إليها بأبدانِهم. صبروا قليلاً ونَعِمُوا طويلاً.

---

١. الكافي، ج ٢، ص١٣٦، باب ذمّ الدنيا والزهد فيها، ح ٢٣.

٢. الأعراف (٧): ١٩.

٣. الكافي، ج ٢، ص٣١٧، باب حبّ الدنيا والحرص عليها، ح ٨.

البحث الثالث: خَسائِسُ صفاتِ الدنيا

اعلَم أنَّ للدنيا صفاتٍ خَسِيسةً قد مُثِّلَت في كلِّ صِفَةٍ بما تُماثِلُهُ فيها:

فمِثالُها في سرعةِ الفناءِ والزوالِ وعدمِ الثباتِ مثلُ النباتِ الذي اختلَطَ به ماءُ السماءِ فاخْضَرَّ، ثمّ أصبحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرياحُ، أو كَمنزِلٍ نَزَلتَه ثمّ ارتحلتَ عنه، أو كَقَنْطَرةٍ تَعبرُ عنها ولا تَمكُث عَليها. وفي كونِها مجرّدُ الوهمِ والخيالِ، وكونِها ممّا لا أصلَ لها ولا حقيقةَ، كَفَيْءِ الظِلالِ أو خَيالاتِ المنامِ وأضْغاثِ الأحلامِ، فإنّك قد تجدُ في منامِك ما تَهواهُ، فإذا استَيْقَظتَ ليسَ معكَ منه شيءٌ.

وفي عداوتِها لأهلِها وإهلاكِها إيّاهم بامرأةٍ تَزَيَّنَتْ للخُطّابِ، حتّى إذا نَكَحَتْهُم ذَبَحَتْهُم. فقد روي:

أنّ عيسى عليه السلام كوشِفَ بالدنيا، فرآها في صورةِ عجوزٍ شَمْطاءَ هَتْماءَ عليها من كلِّ زينةٍ، فقال لها: كم تَزوَّجْتِ؟ قالت: لا أُحصِيهِم، قال: فكلُّهم مات عنك أو كلُّهم طَلَّقَكِ؟ قالت: بل كلَّهُم قَتَلْتُ. فقال عيسى عليه السلام: «بؤساً لأزواجِكِ الباقينَ، كيف لا يعتبرونَ بالماضين؟ كيف تُهلكِينَهُم واحداً واحداً ولا يكونونَ منكِ على حَذَرٍ؟!»[1].

وفي مخالَفةِ باطِنِها لظاهِرِها كعجوزٍ مُتَزَيِّنَةٍ تَخدَعُ الناسَ بظاهِرِها. فإذا وقفوا على باطِنِها وكَشَفُوا القِناعَ عن وَجهِها، ظهرت لهم قَبائِحُها. روي:

أنّه يُؤتَى بالدنيا يومَ القيامةِ في صورةِ عجوزٍ شَمْطاءَ زَرْقاءَ، أنيابُها باديةٌ، مُشَوَّهٌ خَلقُها، فتُشرِفُ على الخلائقِ، ويقال لهم: تَعرِفونَ هٰذِهِ؟ فيقولون: نَعوذُ باللهِ من معرفةِ هذه! فيقال: هذه الدنيا التي تفاخَرتُم عليها، وبها تَقاطَعْتُمُ الأرحامَ، وبها تَحاسَدتُم وتَباغَضتُم وغُرِرْتُم، ثمّ يُقذَفُ بها في جهَنَّمَ، فتنادي: أي رَبِّ، أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله عزّ وجلّ: «ألحِقُوا بها أتباعَها وأشياعَها»[2].

---

١. إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢١٤ ـ ٢١٥.

٢. إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢١٥.

وفي قِصَرِ عُمرِها لكلِّ شَخصٍ بالنسبةِ إلى ما تَقدَّمَهُ من الأَزَلِ وما يتأَخَّرُ عنه من الأَبَدِ كمثلِ خَطوةٍ واحدةٍ، بل أَقلّ من ذلكَ، بالنسبة إلى سفرٍ طويل، بل بالنسبةِ إلى كلِّ مسافةِ الأرضِ أَضعافاً غيرَ مُتَناهِيَةٍ. ومن رأَى الدنيا بهذهِ العينِ لم يركَن إليها، ولم يُبالِ كيف انقضَتْ أيّامُهُ في ضِيقٍ وضُرٍّ أو في سَعَةٍ ورَفاهِيَةٍ، بل لا يَبني لَبِنَةً على لَبِنَةٍ. تُوُفِّيَ سَيِّدُ الرُسُلُ ﷺ وما وضعَ لَبِنةً على لَبِنةٍ ولا قَصَبةً على قَصَبةٍ. ورأَى بعضَ أصحابِه يبني بيتاً من جَصٍّ، فقال: «أرى الأَمرَ أَعجل من هذا». وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال: «الدنيا قَنْطَرَةٌ، فَاعْبُرُوها ولا تَعْمُروها».

وفي نُعُومَةِ ظاهِرِها وخُشُونَةِ باطِنِها مثلُ الحيّةِ التي يَلِينُ مَسُّها ويَقتُلُ سُمُّها.

وفي قِلّةِ مابَقِيَ منها بالإضافةِ إلى ما سبقَ مثلُ ثَوبٍ شُقَّ من أَوّلِه إلى آخِرِه، فَبَقِيَ مُتَعَلِّقاً في آخِرِه، فَيُوشكُ ذلكَ الخَيطُ أن يَنقَطِعَ.

وفي قِلَّةِ نِسبَتِها إلى الآخِرةِ كَمَثَلِ ما يَجعَلُ أحدٌ إِصبَعَهُ في اليَمِّ، فلينظُره بِمَ يَرجِعُ إليهِ مِن الأَصلِ.

وفي تَأدِيَةِ علائِقِها بعضٍ إلى بعضٍ حتّى يَنْجَرَّ إلى الهلاكِ كماءِ البَحرِ كُلَّما شرِبَ منه العطشانُ ازدادَ عَطَشاً حتّى يَقتُلَه.

وفي تَأدِيَةِ الحِرصِ عَليها إلى الهلاكِ غَمّاً كمثلِ دُودَةِ القَزِّ كُلَّما ازدادَتْ على نفسِها لَفّاً كانَ أَبعدَ لها من الخُروجِ حتّى تَمُوتَ غَمّاً.

وفي تَعذُّرِ الخَلاصِ من تَبِعاتِها واستحالةِ عدمِ التلَوُّثِ بقاذُوراتِها بعدَ الخَوضِ فيها كالماشِي في الماءِ، فإنّه يَمتَنِعُ أَلّا تَبتَلَّ قدماهُ.

وفي نضارَةِ أوّلها وخباثةِ عاقبتِها كالأَطعِمَةِ التي تُؤكَل، فكما أنّ الطعامَ كلّما كانَ أَلَذَّ طَعماً وأكثَرَ دُسُومةً كان رَجِيعُه أقذَرَ وأشَدَّ نَتناً، فكذلك كلُّ شهوةٍ من شهواتِ الدنيا التي كانت للقلب أشهَى وأقوَى، فَنَتْنُها وكراهِيَتُها والتأذّي بها عندَ الموتِ أشدّ. وهذا مُشاهَدٌ في الدنيا، فإنّ المصيبةَ والألَمَ والتفجُّعَ في كلِّ مافُقِد بقدرِ الالتذاذِ بوجُودِهِ وحِرصِهِ عليهِ وحبِّهِ له، ولذا ترى أنّ من نُهِبَت دارُه وأُخِذَت أهلُه وأولادُه، يكون تفجّعُهُ وألمُهُ أشدَّ ممّا إذا أُخِذ عَبدٌ من

عَبيدِه، فكلّ ما كان عندَ الوجودِ أشهىَ عندَه وألَذَّ، فهو عند الفقدِ أدهَى وأمَرّ، وما للـموتِ معنى إلّا فقدُ ما في الدنيا.

وفي تَنَعُّمِ الناسِ بها ثمّ تَفَجُّعِهم على فراقِها مثلُ طبقِ ذهبٍ عليه بَخُورٌ ورَياحينُ، في دارِ رجلٍ هَيَّأَه فيها، ودعا الناسَ على الترتيبِ واحداً بعدَ واحدٍ ليدخلُوا دارَه، ويَشمُّه كلُّ واحدٍ وينظرُ إليه، ثمّ يتركُه لمن يلحَقُه، لا لِيَتَمَلَّكَه ويأخُذَه، فدخلَ واحدٌ وجَهِل رَسْمَه، فظنَّ أنّه قد وُهِبَ ذلك له، فتعلّقَ به قلبهُ لمّا ظنّ أنّه له، فلما استُرجِع منه ضَجِر وتَألَّمَ. ومن كان عـالماً بـرَسمِه انـتفَع بـه وشَكَرَه ورَدَّه بِطِيبِ قلبٍ وانشراحِ صدرٍ. فكذلك من عرفَ سنّةَ اللهِ في الدنـيا، عـلمَ أنّهـا دارُ ضيافةٍ سُبِّلَت على المُجتازينَ لينتَفِعُوا بما فيها، كما ينتفعُ المُسافِرُ بالعَوارِي، ثمّ يتركُوها ويتوجَّهوا إلى مَقصَدِهم من دونِ صرفِ قُلوبِهِم إليها، حتّى لا تعظُمَ مصيبتُهُم عندَ فراقِها، ومن جَهِل سنّةَ الله فيها ظنَّ أنّها مملوكةٌ له، فيتعلّق بها قلبُه، فلمّا أُخِذَت منه عَظُمَت بَلِيَّتُهُ واشتَدَّتْ مُصِيبَتُهُ.

وفي اغترارِ الخلقِ بها وضعفِ إيمانِهم بقولِه تعالى في تحذيرِه إيّاهم غوائِلَها كمفازةٍ غَبراءَ لا نهايةَ لها، سلكها قومٌ وتاهُوا فيها بلا زادٍ وماءٍ وراحلةٍ، فأيقَنُوا بالهلاكِ، فبيناهم كذلك إذ خرجَ عليهم رجلٌ وقال: أرأيتُم إن هَدَيْتُكم إلى رياضٍ خُضرٍ وماءٍ رِواءٍ، ما تعملون؟ قالوا: لا نَعصِيكَ في شيءٍ. فأخذَ منهم عُهوداً ومَواثِيقَ عـلى ذلك، فأوردَهـم مـاءً رِواءً وريـاضاً خَضراءَ، فمكث فيهم ما شاءَ الله، ثمّ قال: الرحيلَ! قالوا: إلى أينَ؟ قال: إلى ماءٍ ليس كمائِكم، وإلى رياضٍ ليست كرياضِكُم. فقال أكثرُهم: لا نُريد عيشاً خيراً من هذا، فلم يُطِيعُوه. وقالت طائفةٌ ـ وهم الأقلّون ـ: ألم تعطُوا هذا الرجلُ عُهودَكم ومَواثيقَكم بـاللهِ ألّا تَـعصُوه، وقـد صدَقَكُم في أوّلِ حَديثِه؟ فواللهِ إنّه صادقٌ في هذا الكلامِ أيضاً! فاتَّبَعَهُ هذا الأَقَلُّ، فذهب فيهم إلى أن أورَدَهُم في ماءٍ ورياضٍ أحسنَ بمَراتِبَ شَتّى ممّا كانوا فيه أوّلاً، وتخلّفَ عنه الأكثرونَ، فبدَرَهُم عَدوٌّ، فأصبَحُوا من بينِ قَتيلٍ وأسيرٍ.

البحث الرابع: عاقبةُ حبِّ الدنيا وبغضِها

اعلَم أنّه لا يبلُغ مع العبدِ عندَ الموتِ إلّا صفاءُ القلبِ، أعني طهارَتَهُ عن أدنـاسِ الدنـيا

وحبّه للّهِ وأُنسَهُ بِذِكرِهِ، وصفاءُ القلبِ وطهارتُهُ لا يحصُلُ إلّا بالكَفِّ عن شهواتِ الدنيا، والحبُّ لايحصُلُ إلّا بالمَعرِفَةِ، والمعرفةُ لا تحصُلُ إلّا بدَوامِ الفِكرةِ، والأُنسُ لا يحصُل إلّا بكثرةِ ذكرِ اللهِ والمُواظَبَةِ عليه. وهذه الصفاتُ الثلاثُ هي المُنجِياتُ المُسْعِداتُ بعدَ الموتِ، وهي الباقياتُ الصالحاتُ.

أمّا طهارةُ القلبِ عن أَدناسِ الدنيا، فهي الجُنَّةُ بينَ العبدِ وبينَ عذابِ اللهِ، كما وردَ في الخبر:

إنّ أعمالَ العبد تُناضِلُ عنهُ، فإذا جاء العذابُ من قِبَلِ رجلَيهِ جاء قيامُ الليلِ يدفَعُ عنه، وإذا جاء من قِبَلِ يديهِ جاءَت الصدقةُ تدفَعُ عنه...[1].

وأمّا الحبُّ والأُنسُ، فهما يُوصِلانِ العبدَ إلى لذّةِ المُشاهَدَةِ واللِقاءِ. وهذه السعادةُ تتعجَّلُ عَقِيبَ الموتِ إلى أن يدخُلَ الجنّةَ، فيَصِيرُ القبرُ رَوضةً من رِياضِ الجنّةِ.[2] وكيف لا يَصِلُ صاحبُ الصفاتِ الثلاثِ بعدَ موتِه غايةَ البَهجَةِ ونهايةَ اللذّةِ بمُشاهَدَةِ جمالِ الحقِّ، ولا يكونُ القبرُ عليهِ رَوضةً من رياضِ الخُلدِ، ولم يكن له إلّا محبوبٌ واحدٌ، وكانت العَوائِقُ تَعُوقُه عن الأُنسِ بدَوامِ ذكرِهِ ومطالَعةِ جمالِه، وبالموتِ ارتَفَعَت العوائِقُ وأَفلَتَ من السجنِ وخُلِّيَ بينه وبينَ محبوبِه، فَقَدِمَ عليه مَسرُوراً سالماً من الموانعِ آمِناً من الفراقِ؟

وكيف لا يكون محبُّ الدنيا عندَ الموتِ معذّباً ولم يكن له محبوبٌ إلّا الدنيا، وقد غُصِبَت منه وحِيلَ بينَه وبينَها، وسُدَّت عليهِ طُرُقُ الحيلةِ في الرجوعِ إليها؟

وليس الموتُ عَدَماً، إنّما هو فِراقٌ لِمَحابِّ الدنيا وقُدومٌ على اللهِ، فإذن سالِكُ طريقِ الآخرةِ هو المُواظِبُ على أسبابِ هٰذهِ الصفاتِ الثلاثِ، وهي: الذِكرُ، والفِكرُ، والعَمَلُ الذي يَفطِمُه عن شهواتِ الدنيا ويُبَغِّضُ إليه مَلاذَّها ويَقطَعُه عنها. وكلّ ذلك لا يمكِنُ إلّا بصحّةِ البدنِ، وصحّةُ البدنِ لا تُنالُ إلّا بالقُوتِ والمَلْبَسِ والمَسكنِ، ويَحتاجُ كلُّ واحدٍ إلىٰ أسبابٍ، فالقدرُ الذي لابدّ منهُ من هٰذهِ الثلاثَةِ إذا أخَذَهُ العبدُ من الدنيا للآخرةِ لم يكن من أبناءِ الدنيا وكانت الدنيا في حقّه مزرعةَ الآخرةِ. وإن أخذَ ذلك على قصد التَنَعُّمِ وحظِّ النفسِ صارَ من أبناءِ الدنيا

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ٢٢٠.

٢. إشارةٌ إلى الحديث: «القبر إمّا روضةٌ من رياض الجنّة...»، بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٠٥، باب ما يعاين المؤمن والكافر.

والراغِبينَ في حُظوظِها. إلّا أنّ الرغبةَ في حُظوظِ الدنيا تنقسِمُ إلى ما يُعرِّضُ صاحبَه لعذابِ اللهِ في الآخرةِ، وسُمّي ذلك حراماً، وإلى ما يحُولُ بينَه وبينَ الدرجاتِ العُلى ويُعرِّضُه لطُولِ الحسابِ، ويُسمَّى ذلك حلالاً. والبصيرُ يعلم أنّ طولَ المَوقِفِ في عَرَصاتِ القِيامةِ لأجلِ المُحاسَبةِ أيضاً عذابٌ، فمن نُوقِشَ في الحسابِ عُذِّب، ولذلك قال رسولُ الله ﷺ: «في حلالِها حسابٌ وفي حَرامِها عقابٌ»[١]. بل لو لم يكن الحسابُ، لكان ما يفوتُ عن الدرجاتِ العُلَى في الجنّةِ وما يَرِدُ على القلب من التحسُّرِ على تَفويتِها بحظُوظٍ حقيرةٍ خَسيسةٍ لا بقاءَ لها، هو أيضاً عذابٌ.

ويُرشِدُكَ إلى ذلك حالُك في الدنيا إذا نظرتَ إلى أقرانِكَ، وقد سبقوكَ إلى السعادات الدنيويّةِ، كيف يَنقطِعُ قلبُكَ عليها حَسَراتٍ، مع علمِكَ بأنّها سعاداتٌ مُتصَرِّمَةٌ لا بقاءَ لها، ومُنَغَّصَةٌ بِكُدُوراتٍ لا صفاءَ لها. فما حالُك في فواتِ سعاداتٍ لا يُحيطُ الوصفُ بعظمتِها وتنقطِعُ الأذهانُ والدُهورُ دونَ غايتِها؟ وكلّ من تَنعَّم في الدنيا، ولو بسماعِ صوتٍ من طائرٍ أو بالنظرِ إلى خُضرةٍ أو بشربةِ ماءٍ باردٍ، فهو ينقصُ من حظِّهِ في الآخرةِ. والتعرُّضِ لجوابِ السؤالِ فيه ذُلٌّ، وحَذَرٌ، وخَوفٌ، وخَطَر، وخَجل، وانكِسارٌ، وَمشَقّةٌ، وانتظارٌ، وكلّ ذلك من نُقصانِ الحظِّ.

فالدنيا ـ قليلُها وكثيرُها، حلالُها وحرامُها ـ ملعونةٌ، إلّا ما أعانَ على تقوى الله، فإنّ ذلك القدرَ ليس من الدنيا، وكلُّ من كانت معرفتُه أقوى وأتمّ كان حذرُه من نعيمِ الدنيا أشَدَّ وأعظَمَ، حتّى أنّ عيسى ﷺ وضعَ رأسَه على حجرٍ لمّا نامَ ثمّ رَمَى بِه، إذ تمثّلَ له إبليسُ وقال: رَغِبتَ في الدنيا.[٢] وحتّى أنّ سليمانَ ﷺ في ملكه كان يُطعِمُ الناسَ من لذائذِ الأطعِمَةِ وهو يأكُلُ خبزَ الشعيرِ،[٣] فجعل المُلكَ على نفسِهِ بهٰذا الطريقِ امتحاناً وشدَّةً؛ فإنّ الصبرَ عن لذيذِ الأطْعِمَةِ مع وُجودِها أشَدُّ. ولهٰذا سلَّطَ الله المِحَنَ والبلاءَ على الأنبياءِ والأولياءِ، ثمّ الأمثلِ فالأمثلِ في درجاتِ العُلَى. كلّ ذلك نَظَراً لهم وامتِناناً عليهم، ليتَوَفَّرَ من الآخرةِ حَظُّهم، كما يمنَعُ الوالدُ المُشفِقُ ولدَه لذائذَ الفواكِهِ والأطعمةِ ويُلزِمُهُ الفَصدَ والحِجامةَ، شَفَقةً عليهِ وحُبّاً له لا بُخلاً بِه

١. بحار الأنوار، ج٧٣، ص٢٧، باب حبّ الدنيا وذمّها، ذيل الحديث ١٦ وص ١٢٠ ذيل الحديث ١١٠.

٢. إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢٢١.

٣. إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢٢١.

عليهِ. وقد عرفتَ بهٰذا أنّ كلَّ ما ليس للّٰهِ فهو من الدنيا، وما هو للّٰهِ فليس من الدنيا.

ثمّ الأشياءُ على أقسامٍ ثلاثةٍ:

الأوّل: ما لا يتصوّر أن يكونَ للّه، بل من الدنيا صورةً ومَعنىً، وهي أنواعُ المعاصِي والمَحظُوراتِ وأصنافُ التنعُّمِ بالمباحاتِ، وهي الدنيا المَحضَةُ المذمومةُ على الإطلاقِ.

الثاني: ماصُورتُه من الدنيا، كالأكلِ والنومِ والنكاحِ وأمثالِها، ويمكن أن يُجعَلَ معناهُ للّٰهِ، فإنّه يمكنُ أن يكونَ المقصودُ منه حظَّ النفسِ، فيكون معناه كصورتِه أيضاً من الدنيا. ويمكن أن يكون المقصودُ منه الاستعانةَ على التقوى، فهو للّٰهِ بمعناه وإن كانت صورتُه صورةَ الدنيا. قال رسولُ الله ﷺ:

> من طلبَ من الدنيا حلالاً مُكاثِراً مُفاخِراً لَقِيَ اللهَ وهو عليه غَضبانُ، ومن طلبها استِعْفافاً عن المسألَةِ وصِيانةً لنفسِهِ جاء يومَ القيامةِ ووجهُهُ كالقمرِ ليلةَ البَدرِ.[١]

الثالث: ما صورتُه للّه، ويمكن أن يُجعَلَ مَعناهُ من الدنيا بالقَصْدِ، وهو تركُ الشهواتِ، وتحصيلُ العلمِ، وعملُ الطاعاتِ والعباداتِ. فهٰذه الثلاث إذا لم يكن لها باعثٌ سوى أمرِ اللهِ واليومِ والآخرِ فهي للّٰهِ صورةً ومعنىً، ولم تكن من الدنيا أصلاً. وإن كان الغَرَضُ منها حفظَ المالِ والحَمِيّةَ والاشتهارَ بالزُّهد والورعِ وطلبَ القَبُولِ بين الخلقِ بإظهارِ المعرفَةِ صار من الدنيا معنىً وإن كان يُظَنُّ بصورتِه أنّه للّه.

البحث الخامس: ذمّ المالِ

الكتابُ والسنّةُ مُتظاهِرانِ في ذمِّ المالِ وكراهةِ حبِّهِ، قال اللهُ سبحانه: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُم وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلك فَأُولٓـئِكَ هُـمُ الْخـاسِرُونَ﴾[٢]، وقـال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٣]، وقال: ﴿الْمالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا...﴾ الآية[٤].

---

١. إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢٢١.

٢. المنافقون (٦٣): ٩.

٣. الأنفال (٨): ٢٨.

٤. الكهف (١٨): ٤٦.

وقال رسولُ الله ﷺ: «حُبُّ المالِ والشرفِ يُنْبِتانِ النفاقَ، كما يُنبتُ الماءُ البَقْلَ».[١]
وقال ﷺ: «ما ذِئبانِ ضارِيانِ أُرسِلا في زَرِيبةِ غَنَمٍ بِأكثرَ فَساداً من حبِّ المالِ والجاهِ في دينِ الرجلِ المسلمِ»[٢]، وقال: «شرُّ أُمَّتي الأغنياءُ»[٣]. وقال ﷺ:

يقولُ اللهُ تعالى: يا ابنَ آدمَ! مالي، مالي! وهل لكَ من مالِكَ إلّا ما تَصَدَّقتَ فأمْضَيتَ، أو أكلْتَ فأفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فأبْلَيتَ؟![٤]

البحث السادس: الجمعُ بين ذمِّ المالِ ومدحِهِ

اعلَم أنّه كما وردَ ذمُّ المالِ في الآياتِ والأخبارِ وردَ مدحُه فيهما أيضاً، وقد سمّاه الله خيراً في مواضِعَ، فقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ...﴾[٥]. وقال في مقام الامتنانِ: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُم جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً﴾[٦].

وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «نِعمَ المالُ الصالحُ للرجلِ الصالحِ»[٧]. وكلُّ ما جاء في ثوابِ الصدقَةِ، والضيافةِ، والسّخاءِ، والحجِّ، وغيرِ ذلك ممّا لا يُمكِنُ الوُصولُ إليه إلّا بالمالِ فهو ثناءٌ عليه.

ووجهُ الجمعِ بين الظَّواهِرِ المادحةِ والذامّةِ هو: أنّ المالَ قد يكُونُ وسيلةً إلى مقصودٍ صحيحٍ هو السعادةُ الأُخرويّةُ، إذ الوسائِلُ إليها في الدنيا ثلاثٌ، وهي: الفضائِلُ النفسيّةُ، والفضائلُ البدنيّةُ، والفضائِلُ الخارجيّةُ التي عُمْدَتُها المالُ. وقد يكونُ وسيلةً إلى مقاصِدَ فاسِدَةٍ، وهي المقاصدُ الصادّةُ عن السعادةِ الأُخرويّةِ والحياةِ الأبديّةِ، والصادّةُ عن سبيلِ العلمِ والعَمَلِ. فهو إذن محمودٌ ومذمومٌ بالإضافةِ إلى المقصودَينِ. فالظواهِرُ الذامّةُ محمولةٌ على

---

١. المحجّة البيضاء، ج٦، ص ٤٠ ـ ٤١.
٢. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٤١.
٣. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٤١.
٤. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٤٢.
٥. البقرة (٢): ١٨٠.
٦. نوح (٧١): ١٢.
٧. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٤٦.

صورةِ كونه وسيلةً إلى مقاصدَ فاسِدةٍ، والمادِحةُ على صورةِ كونِه وسيلةً إلى مقاصِدَ صحيحةٍ، ولمّا كانت الطبائعُ مائلةً إلى اتّباعِ الشهواتِ القاطعةِ لسَبيلِ اللهِ، وكان المالُ مُسَهِّلاً لها وآلةً إليها، عَظُمَ الخَطَرُ في ما يَزيدُ على قدرِ الكِفايةِ، فاستعاذَ طَوائِفُ الأنبياءِ والأولياءِ من شَرِّهِ، حتّى قال نبيُّنا ﷺ: «اللهمّ اجعلْ قُوتَ آلِ محمّدٍ كَفافاً»[1].

البحث السابع: غوائِلُ المالِ وفَوائِدهُ

إنّ غوائِلَه إمّا دُنيويّةٌ أو دينيّةٌ:

والدنيويّةُ: هي ما يقاسِيه أربابُ الأموالِ: من الخوفِ، والحُزنِ، والهمِّ، والغمِّ، وتفرُّقِ الخاطِرِ، وسوءِ العيشِ، والتعبِ في كسبِ الأموالِ وحِفظِها، ودفعِ الحُسّادِ وكيدِ الظالِمينَ، وغيرِ ذلك.

والدينيّةُ: ثلاثةُ أنواعٍ:

أوّلها: أداؤُهُ إلى المعصيةِ. إذ المالُ من الوسائلِ إلى المعاصِي، ونوعٌ من القُدرةِ المُحَرِّكةِ لِداعِيَتِها.

وثانيها: أداؤُهُ إلى التنعُّمِ في المُباحاتِ. فإنّ الغالِبَ أنّ صاحبَ المالِ يتنعَّمُ بالدنيا ويُمَرِّنُ عليهِ نَفسَه، فيصيرُ التنعُّمُ محبُوباً عندَه مألُوفاً بحيثُ لا يَصبِرُ عنه، ويَجُرُّهُ البعضُ منهُ إلى البعضِ. وإذا اشتَدَّ إلفُهُ به وصارَ عادةً له ربّما لم يَقدِر عليهِ من الحلالِ، فَيقْتَحِمُ في الشبهاتِ ويَخُوضُ في المحرَّماتِ: من الخيانةِ، والظلمِ، والغصبِ، والرياءِ، والكذبِ، والنفاقِ، والمُداهنَةِ، وسائِرِ الأخلاقِ المُهلِكَةِ، والأشغالِ الرَدِيّةِ، لِيَنْتَظِمَ أمرُ دنياهُ ويَتيَسَّر له تَنعُّمُهُ.

وثالثُها: أنّه يُلهِيهِ إصلاحُ مالِه وحِفظُه عن ذكرِ اللهِ تعالى، وكلُّ ما يَشغَلُ العبدَ عن اللهِ تعالى فهو خُسرانٌ ووَبالٌ.

وأمّا فَوائِدُه: فهي أيضاً دنيويّةٌ ودينيّةٌ:

أمّا الدنيويّةُ: فهي مايتعلّقُ بالحُظوظِ العاجِلَةِ: من الخلاصِ من ذُلِّ السُؤالِ، وحَقارةِ الفقرِ،

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٤٥.

والوصولِ إلى العزِّ والمجدِ بينَ الخَلقِ، وكَثرةِ الإخوانِ والأصدقاءِ والأعوانِ، وحُصُولِ الوقارِ والكَرامةِ في القُلُوبِ.

وأمّا الدينيّة: فثلاثةُ أَنواعٍ:

أوّلها: أن يُنفِقَهُ على نفسِه في عبادةٍ، كالحجِّ والجِهادِ، أو فيما يُقَوّي على العبادةِ، كالمَطعَمِ والملبسِ والمسكنِ.

وثانيها: أن يَصرِفَهُ إلى أشخاصٍ مُعَيَّنَةٍ: كالصدقةِ، والمُرُوءَةِ، ووِقايةِ العِرْضِ، وأُجرَةِ الاستِخْدامِ. وأمّا الصدقةُ بأنواعِها فلا يُحصَى ثوابُها، وربّما نَشيرُ إلى فضيلَتِها في مَوضِعِها. وأمّا المُرُوءَةُ، ونعني بها صَرْفَ المالِ إلى الأغنياءِ والأشرافِ في ضِيافةٍ أو هديّةٍ أو إعانةٍ وما يجري مجراها ممّا يَكتَسِب بهِ الإخوانَ والأصدقاءَ وَيجلِبُ به صفةَ الجُودِ والسخاءِ، إذ لا يَتّصِفُ بالجودِ إلّا من يصطَنِعُ المَعروفَ ويَسلُكُ سبيلَ الفُتُوَّةِ والمروءَةِ، فلا ريبَ في كونه ممّا يَعظُم ثوابُه. فقد وردت أخبارٌ كثيرةٌ في الهدايا والضِيافاتِ وإِطعام الطعامِ، من غير اشتراطِ الفقرِ والفاقةِ في مصارفِها.

وأمّا وقايةُ العِرضِ، ونعني بها بَذلَ المالِ لدفعِ ثَلْبِ السُفهاءِ، وهَجْوِ الشُعراءِ، وقَطعِ ألسِنَةِ الفاحشينَ والمُغتابِينَ، ومنعِ شرِّ الظالمينَ وأمثالِ ذلك، فهو أيضاً من الفوائِد الدينيّة. قال رسولُ الله ﷺ: «ما وَقَى المرءُ به عِرضَه فهو له صدقةٌ».[1] وأمّا أُجرةُ الاستِخْدامِ، فلا ريبَ في إعانَتِهِ على أُمورِ الدينِ، إذ الأعمالُ التي يحتاجُ إليها الإنسانُ لِتَهْيِئَةِ أسبابهِ كثيرة، ولو تَولّاها بنفسِه ضاعَت أوقاتُه، وتَعذَّرَ عليهِ سُلوكُ سبيلِ الآخرةِ بالفِكرِ والذكرِ الذي هو أعلى مقاماتِ السالِكينَ، ومن لا مالَ له يحتاجُ أن يتوَلّى بنفسِه جميعَ الأعمالِ التي يحتاج إليها في الدنيا، حتّى نَسْخَ الكتابِ الذي يَفتَقِرُ إليه، وكلّ ما يُتَصَوَّرُ أن يقومَ به الغيرُ فَتَضْييعُ الوقتِ فيه خُسرانٌ ونَدامةٌ.

وثالثها: أن يَصرِفَه إلى غيرِ مُعَيّنٍ يحصُلُ به خيرٌ عامٌّ، وهي الخَيراتُ الجارِيَةُ: من بناءِ المَساجِدِ، والمَدارِسِ، والقَناطِرِ، ونَسخِ المَصاحِفِ والكتبِ العلميّةِ، وغيرِ ذلك من الأوقافِ

---

١. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٤٧.

المرْصَدَةِ للخيراتِ المؤَبَّدَةِ، الدائرةِ بعدَ الموتِ، المُسْتَجْلِبَةِ ببركةِ أدعيةِ الصالحينَ إلى أوقاتٍ مُتَمادِيَةٍ.

البحث الثامن: الأُمورُ المُنْجِيَةُ من غوائِلِ المالِ

من أرادَ النجاةَ من غوائِلِ المالِ فَلْيُحافِظْ على أُمورٍ:

الأوّل: أن يعرِفَ مَقصودَ المالِ وباعثَ خَلْقِه وعلّةَ الاحتِياجِ إليهِ، حتّى لا يَكتَسِبَ ولا يَحفَظُ إلّا قَدرَ حاجَتِهِ.

الثاني: أن يُراعِيَ جِهَةَ دَخلِهِ، فيجتَنِبَ الحرامَ والمُشتَبهَ، والجهاتَ المكروهةَ القادِحَةَ في المروءةِ والحريّةِ، كالهدايا المَشُوبَةِ بالرشوةِ، والسؤالِ الذي فيه الانكِسارُ والذلَّةُ.

الثالث: أن يُراعِيَ جِهَةَ الخَرجِ، ويَقتَصِدَ في الإنفاقِ، غيرَ مُبَذِّرٍ ولا مُقتِّرٍ. قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً﴾[1].

وقال النبيُّ ﷺ: «ما عالَ من اقْتَصَدَ»[2]. ثمّ للاقتصادِ في المَطْعَمِ والملبسِ والمسكنِ درجاتٌ ثلاثٌ: أَدنى وأوسطُ وأعلَى، وربّما كان المَيلُ إلى الأُولى أحرَى وأولَى، لِيدخُلَ في زمرةِ المُخِفِّينَ يومَ القِيامةِ.

الرابع: أن يَضَعَ ما اكتَسَبَهُ من حِلِّهِ في حَقِّهِ، ولا يَضَعَهُ في غيرِ حَقِّهِ؛ فإنّ الإثمَ في الأخذِ من غيرِ حلِّهِ والوَضْعِ في غيرِ حَقِّهِ سواءٌ.

الخامس: أن يُصلِحَ نِيَّتَهُ في الأخذِ والتَرْكِ والإنفاقِ والإمساكِ، فيأخُذُ ما يأخُذُ استِعانةً بهِ على ما خُلِقَ لأجلِهِ، ويَتْرُكُ ما يَتْرُكُ زُهداً فيه واستِحقاراً له واجتِناباً عن وِزْرِهِ وثِقْلِه، وإذا فعلَ ذلك لم يَضُرَّه وُجودُه. قال أميرُ المؤمنينَ عليه السلام: «لو أنّ رجلاً أخذَ جميعَ ما في الأرضِ وأراد به وجهَ اللهِ فهو زاهدٌ، ولو تركَ الجميعَ ولم يُرِد به وجهَ اللهِ فليس بزاهدٍ»[3].

فينبغي لكلِّ مؤمنٍ أن يكونَ باعثَ جَميعِ أفعالِه التقرُّبُ إلى اللهِ ليصيرَ الجميعُ عبادةً.

---

١. الفرقان (٢٥): ٦٧.

٢. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٥٥.

٣. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٩٠ ـ ٩١.

فإنّ أبعدَ الأفعالِ عن العبادةِ الأكلُ وقضاءُ الحاجةِ، وَيَصِيرُ بالقصدِ عبادةً. فمن أخذَ من المالِ ما يحتاجُ إليه في طريقِ الدينِ، وبذلِ ما فضلَ منه على إخوانِه المؤمنينَ، فهو الذي أخذ من حيَّةِ المالِ تِرياقَها واتّقى سمَّها، فلا تضُرُّه كثرةُ المالِ. إلّا أنّه لا يتأتّى ذلكَ إلّا لمن كَثُرَ عِلمُه واستحْكَمَتْ في الدينِ قَدَمُه. والعامّيُّ إذ يَشتَبِهُ به في الاستِكثارِ من المالِ، فشأنُه شأنُ الصبيِّ الذي يَرى المُعَزِّمَ الحاذِقَ يأخُذُ بالحيّةِ ويَتَصَرَّفُ بها ليأخُذَ تِرياقَها، فَيَقتَدِي به ويأخذها مُستَحْسِناً صورَتَها وشَكلَها ومُسْتَليناً جِلدَها فتَقْتُلَهُ في الحالِ. إلّا أنّ قتيلَ الحيّةِ يَدرِي أنّه قتيلٌ وقتيلُ المالِ قد لا يَعرِفُ ذلك. وكما يمتَنِعُ أن يتشبَّهَ الأعمى بالبصيرِ في تَخَطِّي قُلَلِ الجبالِ وأَطرافِ البحارِ والطُرُقِ المَشُوكَةِ، فيمتنعُ أن يتشبَّهَ العامّيُّ الجاهلُ بالعالِمِ الكاملِ في الاستِكثارِ من المالِ.

وصــل

ضدّ حبّ الدنيا: الزُهدُ

ضِدُّ حبِّ الدنيا والرَغْبَةِ إليها هو الزُهدُ، وهو ألّا يُريدَ الدنيا بِقَلبِه، ويَتْرُكها بِجَوارِحِه، إلّا بقَدرِ ضَرورةِ بَدَنِه. وبعبارةٍ أُخرى: هو الإعراضُ عن مَتاعِ الدنـيا وطَـيِّباتِها مـن الأمـوالِ والمَناصِبِ وسائِرِ ما يَزُولُ بالموتِ. وبتقريرٍ آخرَ: هو الرغبةُ عن الدنيا عُدولاً إلى الآخرةِ، أو عن غيرِ اللهِ عُدُولاً إلى الله، وهو الدرجةُ العُليا. فمن رَغِب عن كـلِّ مـا سِـوَى اللـهِ حـتّى الفَرادِيس، ولم يُحِبّ إلّا اللهَ، فهو الزاهِدُ المُطلَقِ. ومن رَغِب عن حُظوظِ الدنيا خوفاً من النارِ أو طَمَعاً في نعيمِ الجنَّةِ من الحورِ والقُصورِ والفَواكِه والأنهارِ، فهو أيضاً زاهـدٌ، ولكـنّه دونَ الأوّل.

ومن تَركَ بعضَ حُظوظِ الدنيا دونَ بَعضٍ، كالذي يَترُكُ المالَ دونَ الجاهِ، أو يَترُكُ التوَسُّعَ في الأكلِ دونَ التَجَمُّلِ في الزِينَةِ، لا يَستَحِقُّ اسمَ الزاهِدِ مطلقاً.

وبما ذُكِر يَظهَر أنّ الزهدَ إنّما يتحقَّقُ إذا تمكَّنَ من نَيل الدنيا وتَركِها، وكان باعِث التَركِ هو حَقارَة المرغوبِ عنه وخَساسَته ـ أعني الدنيا ـ بالإضافةِ إلى المرغوبِ إليه وهو اللهُ والدارُ الآخرةُ. فلو كان التَركُ لِعدمِ قُدرتِه عليها، أو لِغَرَضٍ غيرِ اللهِ تعالى وغيرِ الدارِ الآخرةِ، من حُسنِ الذِكرِ، واستِمالَةِ القُلوبِ، أو الاشتِهارِ بالفُتُوَّةِ والسخاءِ، أو الاستِثقالِ لما في حِفظِ الأموالِ من المَشَقَّةِ والعَناءِ، أو أمثالِ ذلك، لم يكن من الزُهدِ أصلاً. ونذكر ما يتعلّق بالزهد في أُمور:

الأمر الأوّل: مدحُ الزهدِ

الزهدُ أحدُ منازِلِ الدينِ وأعلى مقاماتِ السالِكينَ. قال اللهُ سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ... وقالَ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثوابُ اللهِ خَيْرٌ﴾[١].

فنسبَ الزهدَ إلى العلماءِ، ووصفَ أهلَه بالعلمِ، وهو غايةُ المدحِ. وقال: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[٢]. وقال: ﴿وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَالَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ﴾[٣].

وقال رسولُ الله ﷺ:

من أصبَحَ وهَمُّه الدنيا، شَتَّتَ اللهُ عليه أمرَه، وفرَّقَ عليه ضَيْعَتَه، وجعلَ فَقرَهُ بينَ عَينَيهِ، ولم يُؤتِهِ من الدنيا إلّا ما كُتِبَ له. ومن أصبَحَ وهَمُّهُ الآخِرةُ، جَمَعَ اللهُ له هَمَّه، وحَفِظَ عليه ضَيْعَتَه، وجَعلَ غِناهُ في قلبِه، وأَتَتْهُ الدنيا وهي راغِمَةٌ.[٤]

وقال ﷺ: «إذا رأيتُم العبدَ قد أُعطِيَ صَمتاً وزُهداً في الدنيا فاقْتَرِبُوا منه، فإنّه يُلَقَّ الحِكمَةَ»[٥]. وقال ﷺ: «من أرادَ أن يُؤْتِيَهُ اللهُ علماً بغيرِ تَعَلُّمٍ، وهُدَىً بغيرِ هِدايةٍ، فليَزْهَدْ في الدنيا»[٦]. ورُوي:

أنّ بعضَ زوجاتِه بَكَت ممّا رأَتْ بِهِ من الجُوعِ، وقالَتْ له: يا رسولَ اللهِ، ألا تَسْتَطْعِمُ اللهَ فَيُطْعِمَكَ؟ فقال: «والذي نفسِي بيدِهِ! لو سألتُ رَبِّي أن يُجرِيَ معي جبالَ الدنيا ذَهَباً لأجراها حيثُ شئتُ من الأرضِ، ولٰكنّي اختَرْتُ جُوعَ الدنيا على شِبعِها، وفقرَ الدنيا على غَنائِها، وحُزنَ الدنيا على فَرَحِها. إنّ الدنيا لا تَنْبَغِي

---

١. القصص (٢٨): ٧٩ ـ ٨٠.

٢. طه (٢٠): ١٣١.

٣. الشورى (٤٢): ٢٠.

٤. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٥١.

٥. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٥١.

٦. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٥١.

لمحمّدٍ ولا لآلِ محمّد، إنّ اللهَ لم يرضَ لأُولي العزمِ من الرُسُلِ إلّا الصبرَ على مَكروهِ الدنيا والصبرَ عن مَحبُوبها، ثمّ لم يرضَ لي إلّا أن يُكلِّفني مثلَ ما كلّفهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرسُل﴾[1]. واللهِ مالي بدٌّ من طاعتِه! وإنّي واللهِ لأصْبِرَنَّ كما صَبَرُوا بِجهدِي ولا قُوّةَ إلّا باللهِ[2].

وقال ﷺ: «إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً زَهّدَهُ في الدنيا ورَغّبَه في الآخِرةِ، وبَصّرَه بِعُيوبِ نَفسِه»[3]. وقال ﷺ:

من اشتاقَ إلى الجنّةِ سارعَ إلى الخَيراتِ، ومن خافَ من النار لَهى عن الشهواتِ، ومن تَرَقَّب المَوتَ تَرَكَ اللذّاتِ، ومن زَهِدَ في الدنيا هانَت عليه المُصِيباتُ[4].

وعن عليّ بن الحسين عليه السلام قال:

مرّ رسولُ الله ﷺ براعي إبل، فبعثَ يَسْتَسْقِيه، فقال: أمّا ما في ضُرُوعِها فَصَبُوحُ الحَيِّ، وأمّا في آنِيَتِنا فَغَبُوقُهُم. فقال رسولُ الله ﷺ: اللهمّ كَثِّر مالَهُ ووَلَدَه. ثمّ مَرَّ براعِي غَنَمٍ، فبعثَ إليه يَسْتَسْقِيهِ، فَحَلَب له ما في ضُرُوعِها وأَكْفَأَ ما في إنائِه في إناءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وبعث إليه بشاةٍ، وقال: هذا ما عندنا، وإن أحْبَبْتَ أن نَزيدَكَ زِدناكَ. قال رسولُ الله ﷺ: اللهمّ ارزُقْهُ الكَفافَ. فقال له بعضُ أصحابِه: يا رسولَ الله، دعوتَ للذي رَدَّكَ بدعاءٍ عامَّتُنا نُحِبُّهُ، ودعوتَ للذي أسعَفَكَ بحاجتِك بدُعاءٍ كُلُّنا نَكْرَهُهُ. فقال رسولُ الله ﷺ: إنّ ما قَلَّ وكَفَى خيرٌ ممّا كَثُرَ وأَلْهَى. اللهمّ ارزُق محمّداً وآلَ محمّد الكَفافَ.[5]

وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «إنّ مِن أعونِ الأخلاقِ على الدينِ الزهدُ في الدنيا».[6] وقال عليه السلام:

---

١. الأحقاف (٤٦): ٣٥.

٢. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٥٣ ـ ٣٥٤.

٣. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٥٥ ـ ٣٥٦.

٤. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٥٦.

٥. الكافي، ج٢، ص١٤٠، باب الكفاف، ح٤.

٦. الكافي، ج٢، ص١٢٨، باب ذمّ الدنيا والزهد فيها، ح٣.

إنّ علامةَ الراغبِ في ثوابِ الآخرةِ زُهدُهُ في عاجِلِ زَهرةِ الدنيا، أما إنّ زُهدَ الزاهِدِ في هذه الدنيا لا يَنقُصُهُ مما قَسَمَ اللهُ عزّ وجلّ له فيها وإن زَهِد، وإنّ حِرصَ الحَريصِ على عاجلِ زَهرَةِ الدنيا لايَزِيدُه فيها وإن حَرِص. فالمَغبُونُ من حُرِمَ حَظَّه من الآخرةِ.[١]

وقال الباقر عليه السلام: «أكثِرْ ذِكرَ المَوتِ؛ فإنّه لم يُكثِر إنسانٌ ذِكرَ المَوتِ إلّا زَهِدَ في الدنيا».[٢]

وقال عليه السلام:

قال الله تعالى: وعِزّتي وجَلالي وعَظَمتي وبَهائي وعُلُوّ ارتفاعِي لا يُؤثِرُ عبدٌ مؤمنٌ هَوايَ على هواهُ في شيءٍ من أمرِ الدنيا إلّا جَعَلتُ غِناهُ في نفسِه، وهِمّتَهُ في آخرتِه، وضَمّنتُ السماواتِ والأرضَ رِزقَه، وكنتُ له من وراءِ تِجارةِ كلِّ تاجرٍ.[٣]

وقال الصادقُ عليه السلام: «جُعِلَ الخيرُ كلُّه في بيتٍ، وجُعِل مفتاحُه الزُهدَ في الدنيا»[٤].

ثمّ افتحْ بَصِيرَتَكَ وتَأمّلْ في سِيرَةِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وزُهدِهِ في الدنيا، فإنّه لَبِث في النبوّةِ ما لَبِث، ولم يَشبَع هو وأهلُ بَيتِهِ غُدوَةً إلّا جاعُوا عَشِيّةً: ولم يَشبَعُوا عَشِيّةً إلّا جاعُوا غُدوَةً، ولم يَشبَعْ من التمرِ هو وأهلُ بيتِه حتّى فتحَ الله عليهم خَيبَرَ، وقُرِّبَ إليه يوماً طعامٌ على مائِدةٍ فيها ارتِفاعٌ فَشَقّ ذلك عليهِ حتّى تَغيّرَ لَونُه، فأمرَ بالمائدةِ فَرُفِعَت ووُضِع الطعامُ على الأرضِ، وكان ينامُ على عباءةٍ مَثنِيّةٍ فَثَنَوْها له ليلةً أربعَ طاقاتٍ فنامَ عليها، فلمّا استيقظَ قال: «مَنَعتُموني قيامَ الليلةِ هٰذهِ بهٰذه العباءةِ اثنُوها باثنَتَينِ كما كُنتُم تَثنُونَها»، وكان يضعُ ثيابَه لِتُغسَلَ فيأتيهِ بِلالٌ فيُؤذِنُه بالصلاةِ فما يَجِدُ ثوباً يَخرُجُ به إلى الصلاةِ حتّى تَجِفَّ ثيابُه فيخرُج بها إلى الصلاةِ.[٥]

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٢٩، باب ذمّ الدنيا والزهد فيها، ح ٦.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١٣١، باب ذمّ الدنيا والزهد فيها، ح ١٣.

٣. الكافي، ج ٢، ص ١٣٧، باب بدون العنوان في كتاب الإيمان والكفر، ح ٢.

٤. الكافي، ج ٢، ص ١٢٨، باب ذمّ الدنيا والزهد فيها، ح ٢.

٥. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٢٢٢.

الأمر الثاني: اعتباراتُ الزهدِ ودَرَجاتُه

اِعلَم أنّ للزهدِ اعتباراتٍ تَتحقّقُ له بكلِّ اعتبارٍ درَجاتٌ:

الأوّل: اعتبارُ نفسِه ـ أي من حيثُ نفسِ التركِ للدنيا ـ وبهٰذا الاعتبارِ له درجاتٌ ثلاثٌ:

الأُولى: أن يَزهَدَ في الدنيا مع ميلِه إليها وحبِّهِ لها بأن يَكُفَّ نفسَه عنها بالمُجاهَدَةِ والمشقّةِ، وهذا هو التَزَهُّدُ.

الثانية: أن يترُكَ الدنيا طَوعاً وسُهُولةً من دونِ مَيلٍ إليها لاستحقارِهِ إيّاها بالإضافةِ إلى ما يَطمَع فيه من لذّاتِ الآخرةِ. وهذا كالّذي يترُكُ دِرهَماً لأجلِ درهَمَينِ مُعاوَضةً فإنّه لا يَشُقُّ عليه ذلكَ وإن كان يحتاجُ إلى قليلِ انتظارٍ. ومثلُه ربّما أُعجِبَ بِنفسِه وبِزُهدِهِ لاحتمالِ أن يظنّ بنفسِه. أنّه تركَ شيئاً له قدرٌ لما هو أعظمُ قَدراً منه.

الثالثة: وهي أعلى الدرجاتِ أن يترُكَ الدنيا طَوعاً وشَوقاً ولا يرى أنّه تركَ شيئاً، إذ عرف أنّ الدنيا لا شيءَ فيكونُ كمن تركَ خُنفُساءَ وأخذ ياقُوتةً صافيةً حَمراءَ، فلا يرى ذلك مُعاوَضَةً ولا يَرى نفسَه تارِكاً شيئاً. وسَبَب هذا التركِ كمالُ المعرفةِ، فإنّ العارفَ على يقينٍ بأنّ الدنيا بالإضافةِ إلى اللهِ ونعيمِ الآخرةِ أخسُّ من خُنفساءَ بالنظرِ إلى ياقوتةٍ. ومثلُ هذا الزاهِد في أمنٍ من خطرِ الالتفاتِ إلى الدنيا، كما أنّ تارِك الخُنفساءِ بالياقوتةِ في أمنٍ من طلبِ الإقالةِ في البيعِ.

وقد ذكر أربابُ القلوبِ من أهلِ المعرفةِ أنّ مثلَ تارِكِ الدنيا بالآخرةِ مثلُ من مَنَعَه عن بابِ الملكِ كلبٌ يكون في بابِه، فألقَى إليه لقمةَ خُبزٍ نالها من موائدِ الملكِ فَشَغَلَه بنفسِه ودخلَ البابَ، ونال غايةَ القُربِ من الملكِ حتّى نَفَذَ أمرُهُ في جميعِ مَملَكَتِه، أفَتَرى أنّه يَرى لنفسِه عِوَضاً عندَ الملكِ بلقمةِ خُبزٍ ألقاها إلى كلبٍ في مقابلةِ ماينالهُ، مع كونِ هٰذهِ اللقمةِ أيضاً من الملكِ. فالشيطانُ كلبٌ على بابِ اللهِ يمنعُ الناسَ من الدُخولِ، مع أنّ البابَ مفتوحٌ والحجابَ مرفوعٌ. والدنيا كلقمةِ خبزٍ إن أكلَها فلذّتُها في حالِ المضغِ وتنقَضِي على القربِ بالابتلاعِ ثمّ يبقى ثقلُه في المِعدَةِ ثمّ ينتهي إلى النتنِ والقَذَرِ ويحتاجُ إلى إخراجِه، فمن ترَكَها لينالَ عِزَّ الملكِ

كيفَ يَلتَفِتُ إليها! ولا ريبَ في أنّ نسبةَ الدنيا لكلِّ شخصٍ، أعني ما يَسلَم له منها وإن عُمِّر ألفَ سنة، بالإضافة إلى نعيم الآخرةِ أقلُّ من لقمةٍ بالإضافةِ إلى ملكِ الدنيا، إذ لا نسبةَ للمُتَناهِي إلى غيرِ المُتناهِي، والدنيا مُتناهِيَةٌ، ولو كانت تتمادَى ألفَ ألفَ سنة صافِية عن كلِّ كُدورَةٍ لكانَ لا نِسبةَ لها إلى الأبدِ. فكيف ومُدَّةُ العُمرِ قَصيرةٌ ولذّاتُها مُكَدَّرَةٌ غيرُ صافيةٍ، فأَيّ نسبةٍ لها إلى نَعيمِ الأبدِ؟!

الثاني: اعتبارُ المَرغُوبِ عنهُ، أعني ما يُترَكُ. وبهذا الاعتبارِ له خمسُ درجات:

الأُولى: أن يَترُكَ المُحَرَّماتِ وهو الزُهدُ في الحرامِ، ويُسَمّى زُهدَ فَرضٍ.

الثانية: أن يترُكَ المُشتَبهاتِ أيضاً، وهو الزُهدُ في الشُبهَةِ، ويسمّى زُهدَ سَلامَةٍ.

الثالثة: أن يزهَدَ في الزائِد عن قدرِ الحاجةِ من الحلالِ أيضاً، ولا يَزهَد في التمتُّعِ بالقدرِ الضَروريِّ من المَطعَمِ والملبسِ والمسكنِ وأثاثِهِ والمَنْكَحِ وما هُو وَسيلةٌ إليها من المالِ والجاهِ.

وإلى هذه الدرجاتِ كلّاً أو بعضاً أشارَ مولانا أميرُ المؤمنين عليه‌السلام بقوله:

> كونوا على قَبولِ العملِ أشدَّ عنايةً منكم على العملِ، الزُهدُ في الدنيا قِصَرُ الأملِ وشُكرُ كلِّ نعمةٍ والوَرَعُ عن كلِّ ما حَرّم اللهُ عزّ وجلّ[1].

ومولانا الصادق عليه‌السلام بقوله: «الزُهدُ في الدنيا ليس بإضاعةِ المالِ ولا تَحريمِ الحلالِ، بل الزُهدُ في الدنيا ألّا تَكُونَ بما في يدك أوْثَقَ ممّا في يدِ اللهِ عزّ وجلّ»[2]. وهذا مع ما يأتي بعدَه هو الزهدُ في الحلالِ، ويسمّىٰ زُهد نَفْلٍ.

الرابعة: أن يترُكَ جميعَ ما للنفسِ فيه تمتّعٌ ويزهَدُ فيهِ ولو في قدرِ الضرورةِ، لا بمعنىٰ تركِ هذا القدرِ بالمرّةِ، إذ ذلك متعذِّرٌ، بل تركهُ من حيثُ التمتّعِ به وإن ارتَكَبَهُ اضطراراً من قبيل أكلِ الميتةِ مع الإكراهِ له باطناً. وهذا يتناوَلُ تَركَ جميعِ مقتضياتِ الطبعِ من الشهوةِ والغضبِ والكِبرِ والرئاسةِ والمالِ والجاهِ وغيرِها، وإلى هذهِ الدرجةِ أشارَ الصادقُ عليه‌السلام بقوله: «الزاهدُ

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣١٢، باب الزهد ودرجاته، ح ١١.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣١٠، باب الزهد ودرجاته، ح ٤.

في الدنيا الذي يترُكُ حلالَها مخافةَ حسابِه، ويترُكُ حَرامَها مخافةَ عَذابِه»[١] وإليها يرجِعُ قولُ أميرِالمؤمنين عليه السلام:

الزُهدُ كلّهُ بينَ كلمتينِ من القرآنِ، قال اللهُ سبحانه: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلىٰ ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾[٢]. فمن لم يَأْسَ على الماضي ولم يَفرَحْ بالآتي فقد أخذَ الزُهدَ بِطَرَفيه.[٣]

الخامسة: أن يترُكَ جميعَ ما سِوَى اللهِ ويزهَدَ فيهِ حتّى في بَدَنِه ونفسِهِ أيضاً، بحيثُ كان ما يصحَبُه ويَرتَكِبُه في الدنيا إلجاءً وإكراهاً من دونِ اسْتِلذاذٍ وتَمَتُّعٍ به. وإلى هذه الدرجةِ أشارَ مولانا الصادقُ عليه السلام حيث قال:

الزُهدُ مفتاحُ بابِ الآخرةِ والبَراءةُ من النارِ، وهو تَرْكُكَ كلَّ شيءٍ يَشغَلُكَ عن اللهِ من غيرِ تأسُّفٍ على فَوتِها، ولا إعجابٍ في تركِها، ولا انتظارِ فرجٍ منها، ولا طلبِ محمدةٍ عليها، ولا عِوضَ منها، بل ترى فوتَها راحةً وكونَها آفةً ...[٤].

ثمّ الالتِفاتُ إلى بعضِ ما سِوَى اللهِ والاشتِغالُ بِهِ ضَرورةً، كضَروريِّ الأكلِ واللبسِ ومُخالَطةِ الناسِ ومُكالمتِهم وأمثالِ ذلك، لاينافي هذه المَرْتَبةَ من الزُهدِ، إذ معنى الانصرافِ عن الدنيا إلى اللهِ تعالى إنّما هو الإقبالُ بكلِّ القلبِ إليه تعالى ذِكراً وفِكراً، وهذا لا يُتَصوَّرُ بدونِ البقاءِ، ولا بقاءَ إلّا بضروراتِ المَعيشَةِ، فمتى اقتصرَ من الدنيا عليها قَصداً لدفعِ المُهلِكاتِ عن البَدَنِ والاستعانةِ بِالبَدنِ على العبادةِ وسائرِ ما يُقَرِّبُهُ إلى اللهِ لم يكن مُشتغلاً بغيرِ الله، إذ مالا يُتَوَصَّلُ إلى الشيءِ إلّا بِهِ فهوَ منهُ. فالمُشتَغِلُ بِعَلَفِ دابَّتِهِ في طريقِ الحجِّ ليس مُعرِضاً عن الحجِّ، ولكن يَنبغي أن يكونَ البدنُ في طريقِ اللهِ مثلَ الدابّةِ في طريقِ الحجّ، فكما أنّ قصدَك من تَهْيئَةِ ماتَحتاجُ إليه دابّتُكَ دَفعُ المهلكاتِ عنها حتّى تَسيرَ بك إلى مَقصَدِك دونَ تَنَعُّمِها، فكذٰلك يَنبغي أن يكونَ قَصدُكَ من الأكلِ والشربِ واللباسِ والسكنى صيانةَ بَدَنِكَ عمّا يُهلِكُك من الجوعِ

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣١١، باب الزهد ودرجاته، ح٦.

٢. الحديد (٥٧): ٢٣.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص٣١٧، باب الزهد ودرجاته، ح٢٣.

٤. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣١٥، باب الزهد ودرجاته، ح ٢٠.

والعطشِ والحرِّ والبردِ، فتَقْتَصِر على قدرِ الضرورةِ وتَقصِدَ به التقوى على طاعةِ اللهِ دونَ التلذُّذِ والتنعُّمِ، وذلك لا ينافي الزهدَ بل هو شَرطُهُ. ثمّ تَرَتُّبُ التلذُّذِ على ذلك لا يَضُرُّكَ إذا لم يكن مقصوداً بالذاتِ لك فإنّ الإنسانَ قد يَستريحُ في قيامِ الليلِ بنَسيمِ الأسحارِ وصَوتِ الطُيورِ، وهذا لايضرُّ بعبادتِه إذا لم يقصِد طلبَ مَوضِعٍ خاصٍّ لهٰذه الاستراحةِ، على أنّه لا لذّةَ حقيقةً في الأكلِ والشربِ واللباسِ، وإنّما تَندفِعُ بها آلامُ الجوعِ والعطشِ والحرِّ والبردِ.

فكلُّ مُكِبٍّ على الدنيا مُتَّبِعٍ للشهواتِ لا يزالُ يُقَيِّدُ نفسَه بِسَلاسلَ وأغلالٍ لا يَقدِر على قَطعِها إلى أن يُفَرِّق مَلَكُ المَوتِ بينَه وبينَ شهواتِه دفعةً، فتبقَى السلاسِلُ من قلبِه معلَّقةً بالدنيا التي فاتَتْهُ وخَلَّفَها، وهي تُجاذِبُه إلى الدنيا، ومَخالِبُ مَلَكِ المَوتِ قد تَعلَّقَتْ بِعُرُوقِ قلبِه تجذِبُهُ إلى الآخرةِ. فأهْوَنُ أحوالِه عندَ الموتِ أن يكونَ مثلَ شَخصٍ يُنْشَرُ بالمناشيرِ ويُفْصَلُ أحدُ جانِبَيهِ عن الآخرِ. فهٰذا أوّلُ عذاب يلقاهُ قبلَ مايراهُ من حَسَراتِ نُزولِه في أسفلِ السافلينَ ومَنْعِهِ عن أعلى عليينَ وجوارِ ربِّ العالمينَ. فبالنزُوعِ إلى الدنيا يُحجَبُ عن لِقاءِ اللهِ، وعندَ الحِجابِ تَتَسَلَّطُ عليهِ نارُ جَهَنَّمَ، إذ النارُ لكلِّ محجوبٍ مُعدَّةٌ، كما قال اللهُ تعالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾[١].

ولمّا انْكَشَفَ لأربابِ القُلوبِ أنّ العبدَ يُهلِكَ نَفسَهُ باتِّباعِ الهَوَى والخَوضِ في الدنيا إهلاكَ دودِ القزِّ نَفسَه رَفَضُوا الدنيا بالكُلِّيَّةِ. فنسألُ الله تعالى أن يُقرِّرَ في قلوبِنا ما نَفَثَ في رُوعِ حبيبِه ﷺ، حيثُ أوحى إليه: «أحْبِبْ ما أحْبَبْتَ فإنّك مُفارِقُه»[٢].

الثالث: اعتبارُ المرغُوب فيهِ، أعني ما يُتْرَكُ لأجْلِه. وله بهذا الاعتبارِ ثلاثُ درجاتٍ.

الأُولى: أن يكونَ المرغُوبُ فيه النجاةَ من النارِ وسائرِ عذابِ الآخرةِ، وهذا زُهدُ الخائِفِينَ.

الثانية: أن يكونَ ثَوابَ اللهِ ونَعِيمَ الجنّةِ. وهذا زُهدُ الراجِينَ.

الثالثة: وهي الدرجةُ العليا: ألّا تكونَ له رَغبةٌ إلّا في اللهِ وفي لِقائِه، فلا يَلتَفِتُ إلى الآلامِ

---

١. المطفّفين (٨٣): ١٥ ـ ١٦.

٢. بحار الأنوار، ج٧٩، ص١٧٢، باب النوادر، ح٦.

لِيَقصِدَ منها الخلاصَ، ولا إلى اللذّاتِ لِيَقصِدَ نَيلَها، بل كان مستغرقَ الهمِّ بـاللهِ، وهـذا زُهـدُ العارِفينَ، لأنّه لا يُحِبُّ اللهَ خاصّةً إلّا مَنْ عَرَفَه بصفاتهِ الكماليّةِ. فكما أنّ مَنْ عرفَ الديـنارَ والدِرهَمَ، وعلم أنّه لا يَقدِرُ على الجَمعِ بينَهما، لم يُحِبّ إلّا الدينارَ. كذلك مَنْ عرفَ اللهَ وعرفَ لذّةَ النظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ، وعرفَ أنّ الجمعَ بين تلكَ اللذّةِ والنـظرِ إلىٰ القـصورِ وخُـضرةِ الأشجارِ غيرُ ممكنٍ، فلا يُحبُّ إلّا لذّةَ النظرِ ولا يُؤثِرُ غيرَهُ.

الأمر الثالث: الزُهدُ الحقيقيّ

لا تَظُنَّنَّ أنّ كلَّ من يَترُكُ مالَ الدنيا أنّه زاهِدٌ، فإنّ تَركَ المالِ وإظهارَ التَضْيِيقِ والخُشُونةِ في المأكلِ والملبسِ سَهلٌ على من أحَبَّ المدحَ بالزُهدِ. فكم من الرهبانِ والمُرائِيِنَ تَركُوا مالَ الدنيا ورَوَّضُوا أنفُسَهم كلَّ يومٍ على قدرٍ قليلٍ من القوتِ، واكتَفَوا من المسكنِ بأيِّ موضعٍ اتّفَقَ لهم، وكان غَرَضُهم من ذلك أن تَعرِفَهُم الناسُ بالزُهدِ وتَمدَحَهم عليهِ، فهم تَرَكُوا المالَ لنيلِ الجاهِ. فالزُهدُ الحقيقيُّ تَرْكُ المالِ والجاهِ، بل جميعِ حُظوظِ النفسِ من الدنيا. وعلامةُ ذلك استواءُ الغِنى والفقرِ والذمِّ والمـدحِ والذُلِّ والعِزِّ لأجلِ غلبةِ الأُنْسِ باللهِ، إذ ما لم يَغلِبْ على القلبِ الأُنسُ باللهِ والحُبُّ له لم يَخرُج عنه حبُّ الدنيا بكُلِّيَّتِهِ. إذ محبّةُ اللهِ ومحبّةُ الدنيا في القلبِ كالماءِ والهواءِ في القدحِ، فإذا دخلَ أحدُهما خرجَ الآخَرُ، فكلاهما لا يَجتَمِعان ولا يَرتَفِعانِ أيضاً. فـالقَلبُ المملوءُ من حبِّ الدنيا يكون خالياً عن حبِّ اللهِ، كما أنّ القلبَ المَشْغُولَ بحبِّ اللهِ وأُنسِه فارغٌ عن حبِّ الدنيا، وبقدرِ ما يخرج أحدُهما يَدخُلُ الآخرُ وبالعكسِ.

النوع الثاني: الغِنى

وهو وُجودُ كلِّ ما يحتاجُ إليه من الأموالِ، وهذا أَقَلُّ مَراتِبه، وَفَوقَ ذلك مَراتِبُ لا تُحصَى.

ثمّ الغَنِيُّ إمّا أن يكونَ بحيثُ يَسعَى في طلبِ المالِ وجمعِه ويتعَبُ في تحصيلِه، ويَكرَهُ خُروجَه عن يدِه ويَتأَذَّى بِه، وهذا غَنِيٌّ حَرِيصٌ. أو يكونَ بحيثُ لا يَتعَبُ ولا يَسعَى في تَحصِيلِه، إلّا أنّه لمّا أتاهُ أخذَه وفَرِحَ بِه، مع تأذِّيهِ بِفَقدِه وكَراهَتِه له، وهذا أيضاً لا يخلُو عن الحِرْصِ لِحُزنِه بِفَقدِهِ. أو يكونَ بحيثُ لا يَتعَبُ في طلبِهِ ولا يرغَبُ فيهِ رغبةً يفرَحُ بحُصولِه ويتأَذَّى بفقدِه، ولكن لما أتاه رَضِيَ به: إمّا مع تَساوي وُجُودِه وعَدمِه، أو مع كونِ وُجودِه أحبَّ إليه من عَدمِه، ومثله الغَنِيّ الراضِي والقانِعُ.

وأيضاً الغنيُّ إمّا أن يكونَ جَميعُ مالِه حَلالاً، أو يكونَ بعضُه أو كلُّه حراماً. والغِنى الحاصِلُ من الحلالِ ـ مع بذلِ ما يفضُلُ عن أقلِّ مَرتبتِه في المصارِفِ اللائقةِ، ومُساواةِ وُجودِه وعَدمِهِ عندَ صاحِبه ـ سالِمٌ من الآفاتِ والأخطارِ، وغيرُ ذلك من أقسامِه لايخلُو عن آفةٍ أو خَطَرٍ، وحُبُّه بعضُ أفرادِ حبِّ الدنيا، بل هو راجِعٌ إلى حبِّ المالِ بعينِه. فيدلُّ على ذمِّه ما وردَ في ذمِّها. وقد وردَ في ذمِّه بخصُوصِه بعضُ الآياتِ والأخبارِ، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الإِنسانَ لَيَطْغىٰ أَنْ رَءاهُ اسْتَغنىٰ﴾[1]. وقال ﷺ: «اطّلعت على الجنّة، فرأيت أكثرَ أهلِها الفقراءَ. واطّلعت على النارِ، فرأيتُ أكثرَ أهلِها الأغنياءَ»[2].

---

١. العلق (٩٦): ٦ ـ ٧.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٩٣.

وصلٌ
ضدّ الغنى: الفقر

ضِدُّ الغِنَى الفَقرُ، وهو فقدُ ما يُحتاجُ إليه. ولا يُسَمَّى فقدُ ما لا حاجةَ إليه فقراً. فإن عُمِّم ما يحتاجُ إليه ولم يُخَصَّ بالمالِ، كان كُلُّ موجودٍ مُمكنٍ محتاجاً، لاحتياجِه إلى دوامِ الوُجودِ وغيرِه من الحاجاتِ المُستفادةِ من اللهِ سبحانه، وانحَصَرَ الغِنى بواحدٍ واجبٍ لذاتِه ومفيدٍ لوجودِ غيرِه من الموجوداتِ، أعني اللهَ سبحانه. فهو الغنيُّ المُطلَقُ، وسائرُ الأشياءِ الموجودةِ فُقَراءُ مُحتاجونَ. وقد أُشيرَ إلى هذا الحصرِ في الكتابِ الإلهيِّ بقوله تعالى: ﴿وَاللهُ الغنيُّ وأنتم الفُقَراءُ﴾[1].

وإن خُصَّ بالمالِ لم يَكن كلُّ الناسِ فُقراءَ، بل من فَقدَ المالَ الذي هو محتاجٌ إليه كان فقيراً بالإضافةِ إليه، والفَقرُ بهذا المعنى هو الذي نُريدُ بيانَه هنا. ولتوضيح المراد نذكر أُموراً:

الأمر الأوّل: مَراتِبُ الفَقرِ ومَدحُه

قد عرفتَ أنّ بعضَ مراتبِ الفقرِ راجعٌ إلى الزُهدِ، وبعضَها إلى ما هو فَوقَه ـ أعنِي الرِضَى والاستِغْناءَ ـ وبعضَها إلى القَناعةِ. فَفَضِيلةُ هذه المراتبِ ظاهِرَةٌ، والأخبارُ الواردةُ في فضيلةِ الزُهد والرِضَى والقناعةِ تَدُلُّ على فَضِيلةِ المراتبِ المذكورةِ من الفقرِ. وأمّا المرتبةُ الأُولى

---

١. محمّد ﷺ (٤٧): ٣٨.

المُتَضَمِّنَةُ للحِرص، فهي أيضاً لا يَخلُو عن فَضيلةٍ بالنَظَرِ إلى الغِنَى المُتَضَمِّنِ له. والأخبارُ الواردةُ في مدحِ الفقرِ تَتناوَلُ بِعُمومِها جميعَ مَراتِبِه، وقال الكاظم عليه السلام:

> إنّ اللهَ عزّوجلّ يقول: إنّي لم أُغْنِ الغنيَّ لكَرامَةٍ بِهِ عَلَيَّ، ولم أُفقِرِ الفَقِيرَ لِهَوانٍ بِهِ عَلَيَّ، وهو ممّا ابتَلَيتُ بِهِ الأغنياءَ بالفُقَراءِ، ولولا الفقراءُ لم يَستَوجِب الأغنياءُ الجنَّةَ.[١]

وقال عليه السلام: «إنّ الأنبياءَ وأولادَ الأنبياءِ وأتباعَ الأنبياءِ خُصُّوا بثلاثِ خِصالٍ: السّقمُ في الأبدانِ، وخَوفُ السُلطانِ، والفقرُ»[٢]. وقال الرضا عليه السلام: «من لَقِيَ فقيراً مُسلِماً وَسلّم عليه خلافَ سَلامِهِ على الغَنِيِّ، لَقِيَ اللهَ يومَ القيامةِ وهو عليهِ غَضبان»[٣]. وقال بعضُ الصحابةِ: «مَلعُونٌ من أكرَمَ الغَنِيَّ وأهانَ الفَقِيرَ»[٤]. وقال لُقمانُ لابنهِ: «لا تَحْقِرَنَّ أحداً لِخُلْقانِ ثِيابِهِ فإنّ رَبَّكَ ورَبَّهُ واحِدٌ»[٥].

وممّا يَدُلُّ على فَضيلةِ الفَقرِ، إذا كان مع الرِضى أو القَناعةِ أو الصبرِ أو الصِدقِ أو السترِ، قولُه صلى الله عليه وآله: «يامَعشرَ الفُقَراءِ: أعطُوا الله الرِضى من قُلوبِكُم تَظْفَرُوا بِثوابِ فَقرِكُم، فإن لم تَفعَلُوا فلا ثَوابَ لكم».[٦] وقولُه صلى الله عليه وآله:

> يقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ: أينَ صَفوَتي من خَلقِي؟ فتقولُ الملائكةُ: من هم يارَبَّنا؟ فيقول: فُقراءُ المسلمينَ القانِعِينَ بعطائِي الراضِينَ بِقَدَري، أدخِلُوهُم الجنَّةَ. فَيَدخُلُونها ويأكُلون ويشرَبونَ والناسُ في الحِسابِ يَتَرَدَّدُونَ.[٧]

وقولُه صلى الله عليه وآله: «من جاعَ أو احتاجَ، فكتَمَه عن الناسِ وأفشاهُ إلى اللهِ تعالى كان حقّاً على

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٢٦٥، باب فضل فقراء المسلمين، ح ٢٠.
٢. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٦٤، باب فضل الفقر والفقراء، ح ٥٧.
٣. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٨، باب فضل الفقر والفقراء، ح ٣١.
٤. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٨٩.
٥. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٤٧، باب فضل فقراء المسلمين، ح ٥٧.
٦. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٣٢٥.
٧. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

اللهِ أن يَرزُقَهُ رِزقَ السنةِ من الحَلالِ».[١] وقولُه ﷺ: «إنّ لِكلّ شيءٍ مفتاحاً، ومفتاحُ الجنّةِ حبُّ المساكينِ والفقراءِ الصابرينَ، وهم جُلَساءُ اللهِ يومَ القيامةِ».[٢]

ثمّ لا رَيبَ في أنّ كلّ من لم يَجِد القُوتَ من التَعفُّفِ، وسَتَرَ احتياجَهُ هذا وصَبَرَ ورضِيَ يكونُ داخِلاً تحتَ هذه الأخبارِ، وتَثبُتُ لَه الفَضِيلةُ التي وَرَدَت فيها، ولا ريبَ في أنّ هذه صفةٌ لا تُوجَدُ في ألفِ ألفٍ واحدٍ.

وأمّا الفقيرُ الحَريصُ الذي يُظهِر فقرَه ويَجزَعُ معه، فظاهرُ بعضِ الأخبار وإن تَناوَلَه، إلّا أنّ الظاهرَ خُروجُه منها كما أوْمَأَتْ إليه بعضُ الأخبارِ المذكورةِ، وإن كان أحسنَ حالاً من الغَنيِّ الذي مثلُه في الحِرصِ.

الأمر الثاني: المُوازَنَةُ بينَ الفَقرِ والغِنى

لا ريبَ في أنّ الفقرَ مع الصبرِ والقناعةِ وقَصدِ الفَراغِ أفضَلُ من الغِنى مع الحِرصِ والإمساكِ، كما لا رَيبَ في أنّ الغِنى مع الإنفاقِ وقصدِ الاستعانةِ على العبادةِ أفضَلُ من الفقرِ مع الحِرصِ والجزَعِ، وإنّما وقعَ الشكُّ في التَرجيحِ بينَ الفقر والغنى في مواضِعَ:

الأوّل في التَرجيحِ بينَ الفقرِ مع الصبرِ والقناعةِ، والغِنى مع الإنفاقِ وقصدِ الاستعانةِ على العبادةِ.

والحقُّ أنّ الأفضلَ من الفقرِ والغِنى ما لا يَشغَلُ العبدَ عن اللهِ، فإن كان الفقرُ يشغَلُه فالغِنى أولَى به، وإن كان الغِنى يشغَلُه عن اللهِ فالفَقرُ أولَى به وذلك لأنّ الغِنى ليس محذوراً بعينِه بل لكونِه عائقاً عن الوصولِ إلى اللهِ، والفقرَ ليس مطلوباً لذاتِه بل لعدمِ كونِه عائقاً عن اللهِ، وليس مانعيّةُ الأوّلِ وعدمُ مانعيّةِ الثاني كليّاً، إذ ربَّ فقيرٍ يشغَلُه الفقرُ عن المَقصدِ، وكم من غَنيٍّ لا يَصرِفهُ الغِنى عنه، إذ الشاغِلُ ليس إلّا حبّ الدنيا، لِمُضادَّتِه حبَّ اللهِ تعالى، والمحبُّ للشيءِ مشغُولٌ به، سواء كان في وِصالِه أو في فِراقِه. فإذن فضلُ الفقيرِ والغَنيِّ بحسبِ تعلُّقِ

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٤٩، باب فضل الفقر والفقراء، ح ٥٨.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٣٢٥.

قلبِهما بالمالِ وُجوداً وعدماً، فإن تساويا فيه تساوَت دَرَجَتُهما. وإن تفاوَتا فيه فأيُّهما أقلُّ تعلّقاً درجتُه أعلَى وأفضلُ، بل مع وجودِ تعلّقٍ لهما وتساوِيهما فيه يكون وجودُ قدرِ الحاجةِ من المالِ أفضلَ من فقدِه، إذ الجائعُ يسلُكُ سبيلَ الموتِ لا سبيلَ المعرفةِ والطاعةِ.

ومع عدمِ تعلُّقِ قلبِهما أصلاً بحيثُ يَستوِي عندَهما وجودُ المالِ وعدمُه كان المالُ عندَهما كهواءِ الجَوِّ وماءِ البحرِ وبالجملةِ حَصلَت لهما المرتبةُ الأخيرةُ من الفقرِ، أعني الاستغناءَ والرضى، كان الواجدُ أفضلَ من الفاقِدِ، لاستوائِهما في عدم الالتفاتِ إليه، ومزيّةُ الواجدِ باستفادةِ أدعيَةِ الفُقَراءِ والمساكين.

ثمّ الحكمُ بانقطاعِ القلبِ رأساً عن المال وجوداً وعدماً إنّما يُتَصَوَّرُ في الشاذِّ النادرِ الذي لا يسمَحُ الدهرُ بمثلِه إلّا بعد أَزمِنَةٍ مُتطاوِلَةٍ، وقلوبُ جُلِّ الناسِ غيرُ خاليةٍ عن حبِّ المالِ والتعلُّقِ به. فتفصيلُ القولِ بأفضليّةِ من هو أقلّ تعلّقاً بالمالِ، استواءُ درجتِهما مع استوائِهما في التعلُّقِ، ومزيّةُ الواجِدِ على الفاقِدِ مع انقطاعِ قلبِهما بالكليّةِ عنه مزلّةُ الأقدامِ ومَوضِعُ الغُرورِ، إذ الغَنِيُّ ربّما يظنّ أنّه مُنقَطِعُ القَلبِ عن المالِ ويكونُ حبُّهُ دفيناً في باطِنه وهو لا يشعُرُ به، وإنّما يشعُرُ به إذا فقدَه، فما عدا الأنبياءِ والأولياءِ وشِرذِمَةٍ قليلةٍ من أكابِرِ الأتقياءِ لو ظَنُّوا انقطاعَهم عن الدنيا إذا جَرّبوا أنفُسَهم بإخراجِ المالِ من أيديهِم يَظهَرُ لهم أنّهم مَغرورُونَ وليس لهم تمامُ الانقطاعِ عن الدنيا. وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً فَليُطْلَقِ القولُ بأنّ الفقرَ أصلَحُ لكافّةِ الناسِ وأفضلُ، لأنّه عن الخطرِ أبعدُ، إذ فتنةُ السَرّاءِ من فتنةِ الضَرّاءِ أشَدُّ، وعلاقةُ الفقيرِ وأُنسُه بالدنيا غالباً أضعَفُ، وبقدرِ ضَعفِ علاقتِه يتضاعَفُ ثوابُ أذكارِه وعبادتِه، إذ حَرَكاتُ اللسانِ والجَوارِحِ ليست مرادةً لأعيانِها بل ليتأكّدَ بها الأُنسُ بالمذكورِ، وتأثيرُها في إثارةِ الأُنسِ في قلبٍ فارغٍ عن غيرِ المذكورِ أشَدُّ من تأثيرِها في قلبٍ مشغولٍ، ولهٰذا وردت الأخبارُ مُطْلَقَةً في فضل الفَقرِ على الغِنى، وفي فَضلِ الفُقَراءِ على الأغنياءِ.

الثاني في الترجيح بينَ الفقرِ مع الحرصِ والجزعِ، والغِنى مع الحرصِ والإمساكِ. والتحقيقُ فيه أنّ مطلوبَ الفقيرِ إن كان ما لابدّ منه في المعيشةِ وكان حرصُه في تحصيلِ هذا القدرِ دونَ الزائدِ منه وكان قصدُه الاستعانةَ بهِ على الدينِ، وكذا كان حِرصُ الغَنيّ وإمساكُهُ في هذا القدرِ

بهٰذا القصدِ، فحالُ الوجودِ أفضلُ؛ لأنّ الفقدَ يَصدُّه عن أُمورِ الدينِ لاضطرارِه في طلبِ القوتِ. وهو أولى بالتفضيلِ إذا كان قصدُ الغنيّ ذلك وكان مَطلوبُ الفقيرِ فوقَ الحاجةِ ـ أو قدرِ الحاجة ـ بدونِ قصدِ الاستعانةِ به على أمرِ الدينِ. وإن كان مطلوبُ كلٍّ منهما فوقَ الحاجةِ، أولم يكن قصدُهما الاستعانةَ به على أمرِ الدينِ، فالفقدُ أصلحُ وأفضلُ، لأنّهما اسْتَوَيا في الحرصِ وحبِّ المالِ، وفي عدمِ قصدِ الاستعانةِ به على الدينِ، لكنّهما افترقا في أنّ الواجدَ يتأكّدُ حبُّ الدنيا في قلبِه ويَطمَئِنُّ إليها لأُنسِه بها، والفاقدَ يتجافى قلبُه عنها اضطراراً، أو تكونُ الدنيا عنده كالسجنِ الذى يطلُبُ الخلاصَ منه. وهو أولى وأحرَى بالتفضيلِ إذا كان قصدُ الفقيرِ ذلك وكان قصدُ الغنيّ فوقَ الحاجةِ ـ أو قدرَها ـ بدونِ الاستعانةِ به على أمرِ الدينِ.

الثالثُ في الترجيحِ بين فقيرٍ حريصٍ مُتكالِبٍ على الدنيا ليس له همٌّ سواه، وغنيٍّ هو دونَه في الحرصِ على حفظِ المالِ، وتَفَجُّعُهُ بفقدِ المالِ لو فقدَه أقلُّ من تفجُّعِ الفقيرِ بفقدِه. والظاهرُ حينئذ كونُ الفقيرِ أسوأَ حالاً، إذِ البعدُ عن اللهِ بقدرِ قوّةِ التفجُّعِ بفقدِ المالِ، والقربُ بقدرِ ضعفِ التفجُّعِ به.

الأمر الثالث: ما ينبغي للفقيرِ

ينبغي للفقيرِ ألّا يكونَ كارهاً للفقرِ من حيثُ إنّه فعلُ اللهِ ومن حيثُ إنّه فَقرٌ، بل يكونُ راضياً بِهِ طالباً له فرحاناً بِهِ لِعلمِهِ بغوائلِ الغِنى، وأن يكونَ مُتَوكِّلاً في باطنِه على اللهِ، واثِقاً بِهِ في إتيان قدرِ ضَرُورَتِهِ، ويكونَ قانعاً به، كارهاً للزيادةِ عليه، منقطعَ الطمعِ عن الخلقِ، غيرَ مُلتَفِتٍ إلى ما في أيدِيهِم، وغيرَ حريصٍ على اكتسابِ المالِ كيف كان، وأن يكونَ صابراً شاكراً على فقرِه، قال أميرُ المؤمنين عليه السلام:

إنّ للّهِ عقوباتٍ بالفقرِ، ومَثُوباتٍ بالفقرِ، فمن علاماتِ الفقرِ إذا كان مثوبةً أن يَحسُنَ عليه خُلُقُهُ، ويطيعَ به ربَّه، ولا يشكو حالَه، ويشكرَ الله تعالى على فقرِه. ومن علاماتِه إذا كان عقوبةً أن يسوءَ عليه خُلُقُه، ويعصيَ ربَّه بتركِ طاعتِه، ويُكثِرَ

الشِكايةَ، ويَتسَخَّطَ بالقضاءِ.[١]

وهذا يدُلّ على أنّ كلَّ فقيرٍ ليس مُثاباً على فقرِه، بل من يرضَى بفقرِه، ويفرَحُ به، ويقنَعُ بالكفافِ، ويقصِرُ الأملَ. وإن لم يرضَ به وتَشوَّفَ إلى الكثرةِ وطولِ الأملِ، وفاتَه عزُّ القناعةِ، وتَدَنَّسَ بذُلِّ الحرصِ والطمعِ، وجَرَّهُ الحرصُ والطمعُ إلى مساوِئ الأخلاقِ، وارتكابِ المُنكراتِ الخارقةِ لِلمروآتِ، حَبِطَ أجرُه وكانَ آثماً قلبُهُ.

وينبغي أن يُظهِرَ التعفُّفَ ويسترَ الفقرَ ويَسترَ أنّه يَسترُ، وألّا يُخالِطَ الأغنياءَ، ولا يرغبَ في مُجالَسَتِهم، ولا يتواضَعَ لهم لأجلِ غِناهُم بل يتكبَّرُ عليهِم. قال أميرُ المؤمنينَ عليه السلام: «ما أحسنَ تواضعَ الغنيِّ للفقيرِ رغبةً في ثوابِ الله، وأحسنُ منه تِيهُ الفقيرِ على الغَنِيِّ ثقةً بالله»[٢]. وألّا يَسكُتَ عن ذكرِ الحقِّ مُداهَنَةً للأغنياءِ، وطمعاً بما في أيدِيهِم، ولا يَفتُرَ بسبب فَقرِه عن عبادةِ اللهِ، ويبذلَ قليلَ ما يَفضُلُ عنه، فإنّ ذلك جهدُ المُقِلِّ، وفضلُه أكثَرُ من أموالٍ كثيرةٍ يَبذُلُها الغَنِيُّ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله:

«درهم من الصدقةِ أفضلُ عندَ اللهِ من مائةِ ألفِ دينارٍ»، قيل: وكيفَ ذلك يارسولَ اللهِ؟ قال: «أخرَج رجلٌ من عُرضِ مالِه مائةَ ألفِ دينارٍ يَتَصَدَّقُ بها، وأخرجَ رجلٌ درهماً من درهمينِ لا يَملِكُ غيرَهما طَيِّبَةً به نفسُه، فصارَ صاحبُ الدرهمِ أفضلَ من صاحبِ مائةِ ألفِ دينارٍ»[٣].

وينبغي ألّا يَدَّخِرَ أزيَدَ من قدرِ الحاجةِ، فإن لم يَدَّخِر أكثَرَ من قوتِ يومِه وليلتِه فهو من الصدِّيقِينَ، وإن لم يَدَّخِرْ أكثَرَ من قوتِ أربعينَ يوماً كان من المُتَّقينَ، وإن لم يَدَّخِر أكثَرَ من قوتِ سنةٍ ـ وهو الفضلُ المشتركُ بين الفَقرِ والغِنى ـ كان من الصالحين، ولو زاد عليه خرجَ عن زُمرةِ الفُقَراءِ.

---

١. المحجّة البيضاء، ج٧، ص ٣٣١.

٢. المحجّة البيضاء، ج٧، ص ٣٣١.

٣. المحجّة البيضاء، ج٧، ص ٣٣١.

الأمر الرابع: وظيفةُ الفقراءِ

ما يُعطَى الفقيرُ بغيرِ سُؤالِه إن كان حراماً أو شُبهةً وَجَب عليه رَدُّهُ والاجتِنابُ عنه، وإن كان حلالاً فإن كان هديّةً استُحِبَّ قبوله تَأسِّياً برسولِ الله ﷺ إن لم تكن فيه مِنَّة، ولو كانت فيه منّةٌ فالأولى تركُه. وكان بعضُهم إذا أعطاه صديقُه شيئاً يقولُ له: اترُكْهُ عندَك، وانظرْ إن كنتُ أنا بعدَ قبولِه في قلبِك أفضلَ منّي قبلَ القَبولِ فأخبِرني حتّى آخذَه، وإلّا فلا. وعلامةُ ذلك أن يَشُقَّ على المُعطَى رَدُّه، ويفرَح بالقَبولِ، ويرى المنّةَ على نفسِه في قبولِه.

وإن كان صدقةً أو زكاةً أو غيرَ ذلك ممّا يكونُ للثوابِ المحضِ، فينبغي أن يَنظُرَ في استحقاقِه لذلك، فإن كان من أهلِه قَبِلَه وإلّا ردّه.

وإن كان المعطِي أعطاهُ لوَصفٍ يعلَمُهُ فيه كعلمٍ أو وَرَعٍ أو كونِه عَلَوِيّاً، ولو لم يكن له هذا الاختصاص لَنَفَر طَبعُه، ولما تقرَّب إلى الله بإعطائِه، ولم يكن له باطناً كذلك فأَخذُه حرامٌ.

وإن لم يكن هديّةً ولا صدقةً بل أعطاهُ للشُهرَةِ والرياءِ والسُمعةِ فينبغي أن يَرُدَّه عليه ولا يَقبَلَه، وإلّا كان معيناً له على غرضِهِ الفاسدِ، والإعانةُ على الإثمِ إثمٌ.

الأمر الخامس: مواردُ قَبولِ العطاءِ ورَدِّهِ

ما يُعطَى الفقيرُ إن كان محتاجاً إليه ولم يكن أزيدَ من حاجتِه فالأفضلُ له الأخذُ، إذا سَلِم من الآفاتِ المذكورةِ. قال رسولُ الله ﷺ: «ما المُعطِي من سَعَةٍ بأعظَمَ أجراً من الآخذِ إذا كان محتاجاً».[١] وقال ﷺ: «من أتاه شيءٌ من هذا المالِ من غيرِ مسألةٍ ولا اسْتِشرافٍ فإنّما هو رِزقٌ ساقَه اللهُ إليه فلا يَرُدَّه».[٢] وإن كان زائداً على قدرِ حاجتِه فَلْيَرُدَّ الزائدَ إن كان طالباً طريقَ الآخرةِ، إذ الزيادةُ على قدرِ الحاجةِ انّما تأتيكَ ابتلاءً وفتنةً لينظُرَ الله إليكَ ماذا تعمَلُ فيه، وقدرُ الحاجةِ يأتيك رِفقاً بك، فأنتَ في أخذِ قدرِ الحاجةِ مُثابٌ، وفيما زاد عليه إمّا عاصٍ أو مُتعَرِّضٌ للحسابِ. قال رسولُ الله ﷺ: «لا حَقّ لابنِ آدمِ إلّا في ثلاثٍ: طعامٌ يقيمُ صُلْبَه،

---

١. إحياء علوم الدين، ج٤، ص٢٠٨.

٢. إحياء علوم الدين، ج٤، ص٢٠٨.

وثَوبٌ يُوارِي عَورَتَه، وبيتٌ يَسكنُه، فما زادَ فهو حسابٌ».[١] فلا ينبغي لطالبِ السعادةِ أن يأخُذَ الأزيدَ من قدرِ الحاجةِ، إذ النفسُ اذا رُخِّصَت في نقضِ العزمِ والعهدِ ألِفَت به، وردُّها بعد الإلْفِ والعادةِ مُشكِلٌ.

والحاصلُ أنّ أخْذ قدرِ الحاجةِ راجحٌ لكونِه ممّا لابدّ منه، وإيجابِه ثوابَ المُعطِي، ولذٰلك لمّا أُمر موسى بن عمران عليه السلام بأن يُفطِر عندَ بني إسرائيلَ قال:

إلٰهي ما بالي فَرَّقْتَ رِزقي على أيدي بني إسرائيلَ، يُغَدِّيني هذا يوماً ويُعَشِّيني هذا ليلةً؟ فأوحَى الله إليه: «هكذا أصنعُ بأوليائي، أُجرِي أرزاقَهم على أيدي البَطّالينَ من عبادِي لِيُؤْجَرُوا فيهم».[٢]

فلا ينبغي أن يُرَى المُعطِي إلّا من حيث إنّه مُسَخَّرٌ مأجُورٌ.

وأمّا أخذُ الزيادةِ على قدرِ الحاجةِ فليس ممّا ينبغي، نعم من كان حالُه التكَفُّلَ بأُمورِ الفقراءِ والإنفاقَ عليهم، لما في طبعِه من البذلِ والسخاءِ والرفقِ والعطاءِ، فيجوز له أخذُ الزيادةِ ليبذلَها على المستحقّين، ولكن يلزمُ أن يبادِرَ إلى الصرفِ إليهم ولا ينبغي أن يَدَّخِرَ، إذ في إمساكه ولو في يومٍ واحدٍ أو ليلةٍ واحدةٍ فتنةٌ واختبارٌ، فربّما مالت النفسُ إلى الإمساكِ ويَصِيرُ وَبالاً عليها، وقد نُقِل أنّ جماعةً تَصدَّوا لِخدمةِ الفُقَراءِ والتكفُّلِ لأحوالِهم فَخدَعَتْهم النفسُ الأمّارةُ بإعانةِ الشيطانِ فاتَّخَذُوها وسيلةً إلى التَوسُّعِ في المالِ، والتَنعُّمِ في المطعَمِ والمشرَبِ، وانجرَّ أمرُهم إلى الهلاكِ.

الأمر السادس: لا يجوزُ السؤالُ من غيرِ حاجةٍ

ينبغي للمؤمنِ ألّا يسألَ الناسَ من غيرِ حاجةٍ اضطُرَّ إليها، بل يَستعِفّ عن السؤالِ ما استطاعَ، لأنّه فقرٌ مُعجَّلٌ[٣]، وحسابٌ طَويلٌ يومَ القيامةِ. والأصلُ فيه التحريمُ لِتَضَمُّنِه الشكوى من اللهِ، وإذلالَ السائلِ نفسَه عندَ غيرِ الله، وايذاءَ المسؤولِ غالباً، إذ ربّما لم تسمَح

---

١. المحجّة البيضاء، ج٧، ص ٣٢٥.

٢. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٢٦.

٣. راجع: الكافي، ج٤، ص ٢٠، باب كراهية المسألة، ح١.

نفسُه بالبذلِ عن طِيبِ القلبِ، وبعدَ السؤالِ ألجأَهُ الحياءُ أو الرياءُ إليه، ومعلومٌ أنّ الإعطاءَ استحياءً أو رياءً لئلّا يَنقُصَ جاهُه عندَ الناسِ بِنسبَتِهم إيّاه إلى البخلِ لا تكونُ له حِليّةٌ شَرعاً.

ولِتضمُّنِه هذهِ المفاسدَ وَرَدَ في الشريعةِ المنعُ منهُ، قال رسولُ الله ﷺ: «مسألةُ الناسِ من الفواحِشِ»[١]، وقال ﷺ: «من سألَ عن ظهرِ غِنى فإنّما يَستَكثِرُ من جَمْرِ جَهنَّم»[٢]، وقال ﷺ: «من سأل الناسَ وعندَه قوتُ ثلاثةِ أيّامٍ لَقِيَ اللهَ يومَ يَلقاهُ وليسَ على وجهِهِ لَحمٌ»[٣] وقال ﷺ: «ما من عبدٍ فتحَ على نفسِه باباً من المسألةِ إلّا فتح الله عليهِ سبعينَ باباً من الفقرِ»[٤]. وقال: «إنّ المسألةَ لا تَحِلُّ إلّا لفقرٍ مُدْقِعٍ أو غُرمٍ مُفْظِعٍ»[٥]. وقال: «السؤالُ عن ظَهرِ غِنى صُداعٌ في الرأسِ، وداءٌ في البطنِ»[٦]. ورُوي:

أنّه جاءت فَخِذٌ من الأنصارِ إلى رسولِ الله ﷺ فَسلَّموا عليه فردَّ عليهم السلامَ، فقالوا: يارسولَ الله، إنّ لنا إليكَ حاجَة، فقال: «هاتُوا حاجَتَكم»، فقالوا: إنّها حاجةٌ عظيمةٌ. فقال: «هاتُوها ماهي»؟ قالوا: تَضمَن لنا على ربِّك الجَنَّةُ، فنكَس رأسَه، ثمّ نَكَتَ في الأرض، ثمّ رفع رأسَه فقال: «أفعَلُ ذلك بكم على ألّا تَسألُوا أحداً شيئاً»، فكان الرجلُ منهم يكونُ في السفرِ فَيَسقُطُ سوطُهُ، فيكْرَهُ أن يقولَ لإنسانٍ: ناوِلنِيه، فراراً من المسألةِ وينزلُ فيأخذُه، ويكونُ على المائدةِ ويكونُ بعضُ الجلساءِ أقربَ إلى الماءِ منه فلا يقولُ: ناوِلني حتّى يقومَ فيشربَ[٧].

وبايعَ ﷺ قوماً على الإسلام، فاشترطَ عليهم السمعَ والطاعةَ، ثمّ قال لهم خُفيَةً: «لا تسألُوا الناسَ شيئاً»، فكان بعدَ ذلكَ تقع المِخْصَرَةُ من يدِ أحدِهم فينزلُ لها ولا يقولُ

---

١. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٣٧.
٢. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٣٧.
٣. بحار الأنوار، ج٩٦، ص١٥٤، باب ذمّ السؤال، ح ٢٠.
٤. بحار الأنوار، ج٩٦، ص١٥٦، باب ذمّ السؤال، ح ٢٩.
٥. بحار الأنوار، ج٩٦، ص١٥٦، باب ذمّ السؤال، ذيل الحديث ٢٩.
٦. بحار الأنوار، ج٩٦، ص١٥٦ باب ذمّ السؤال، ح ٢٩.
٧. الكافي، ج ٤، ص ٢١، باب كراهية المسألة، ح ٥.

لأحدٍ: ناولنيها[١]. وكان ﷺ يأمر غالباً بالتعفُّفِ عن السؤالِ، ويقول: «من سَألنا أعطيناهُ، ومن استغنَى أغناه اللهُ، ومن لم يَسْألْنا فهو أحبُّ إلينا»[٢] وقال: «وما قلّ من السؤالِ فهو خيرٌ» قالوا: ومنكَ يارسولَ الله؟ قال: «ومنّي»[٣]. وقال: «لو أنّ أحدَكم أخذَ حبلاً فيأتي بحُزمةِ حَطبٍ على ظهرِه فَيبيعها ويكفُّ بها وجهه، خيرٌ له من أن يسألَ»[٤].

وقال سيّدُ الساجدِين عليه السلام: «ضَمِنت على ربّي أنّه لا يسألُ أحدٌ أحداً من غيرِ حاجةٍ إلّا اضطَرَّتْهُ المسألةُ يوماً إلى أن يسألَ من حاجةٍ»[٥]. ونظر عليه السلام يومَ عَرفَةَ إلى رجالٍ ونساءٍ يسألُونَ، فقال: «هؤلاءِ شرارُ خلقِ اللهِ، الناسُ مُقبِلونَ على اللهِ وهم مُقبِلونَ على الناسِ»[٦].

وقال الصادقُ عليه السلام:

طلبُ الحوائجِ إلى الناسِ استلابٌ للعزِّ مَذهَبَةٌ للحياءِ، واليأسُ ممّا في أيدي الناسِ عِزٌّ للمؤمنِ في دينِه، والطمعُ هو الفقرُ الحاضِرُ[٧].

ثمّ المنعُ والتحريمُ إنّما هو في السؤالِ بدونِ الاضطرارِ، وأمّا مع الحاجةِ والاضطرارِ فلا ريبَ في جَوازِه، وقد وَرَدَت بِهِ الرُخصَة، قال الله سبحانه: ﴿وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[٨].

وقال رسول الله: «لا تَرُدُّوا السائلَ ولو بِشِقِّ تَمرةٍ»[٩]. وقال ﷺ: «لولا أنّ السائلَ يَكذِبُ ماقُدِّسَ مَن رَدَّه»[١٠] وقال ﷺ: «للسائلِ حقٌّ وإن جاء على الفَرَسِ»[١١]. ولو كان السؤالُ مُطلَقاً حراماً لما أجازَ اللهُ ورسوله إعانةَ العاصي على مَعصِيَتِه.

---

١. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٣٧.
٢. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٣٧.
٣. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٣٧.
٤. بحار الأنوار، ج٩٦، ص١٥٨، باب ذم السؤال، ذيل الحديث ٣٧.
٥. بحار الأنوار، ج٩٩، ص١٥٨، باب ذم السؤال، ذيل الحديث ٣٧.
٦. بحار الأنوار، ج٩٦، ص ٢٦١، باب الوقوف بعرفات، ح ٤٠.
٧. بحار الأنوار، ج٩٦، ص١٥٨، باب ذمّ السؤال، ذيل الحديث ٣٧.
٨. الضحى (٩٣): ١٠.
٩. بحار الأنوار، ج٩٦، ص ١٧٠، باب كراهية ردّ السائل، ذيل الحديث ٢.
١٠. بحار الأنوار، ج٩٦، ص ١٧٠، باب كراهية ردّ السائل، ذيل الحديث ٢.
١١. الكافي، ج ٤، ص ١٥، باب كراهية ردّ السائل، ح٦.

ثمّ الحاجةُ المُجَوِّزَةُ للسؤالِ ما بلغتْ حَدّ الاضطرارِ، كسؤالِ الجائعِ الخائفِ على نفسِه بالموتِ أو المرضِ لولم يَصِل إليه قوتٌ.

ثمّ ماذُكِر إنّما هو في السؤالِ للاحتياجِ إليه بعدَ النسبةِ لما يحتاجُ إليه في الحالِ، وأمّا السؤالُ لما يحتاج إليه في الاستقبالِ، فإن كان يحتاجُ إليه بعدَ السنةِ فهو حرامٌ قطعاً، وإن كان يحتاجُ إليه قبلَها، سواء كان بعدَ أربعينَ يوماً من يومِه أو خمسينَ أو أقلَّ أو أكثرَ، فإن أمكنَه السؤالُ عندَ بلوغِ وقتِ الحاجةِ فلا يَحِلُّ له السؤالُ، وإن عَلِم بأنّه لا يتمكّنُ من السؤالِ عنده فهو جائزٌ مع الكراهةِ والمَرجُوحِيّةِ، وكلّما كان تَراخِي الحاجةِ عن يومِه أكثرَ كانت الكراهةُ أشَدَّ.

ثمّ معرفةُ درجاتِ الحاجةِ وضعفِها وشدّتِها والوقتِ الذي يحتاجُ فيه موكولٌ إلى العبدِ ومَنُوطٌ باجتهادِه ونظرِه لنفسِه بينَه وبينَ الله، فليَعْمَلْ بِهِ بعدَ استغناءِ قلبِه على ما يقتضيهِ سلوكُ طريقِ الآخرةِ، وكلّما كان يقينُه أقوى، وثقتُه بمجيءِ الرزقِ أتَمَّ، وقناعتُه بقوتِ الوقتِ أظهَرَ، فدرجتُه عندَ الله أعلى.

فياحبيبي، لا تُهبِطْ نفسَك من أوجِ التوكّلِ والاعتمادِ على اللهِ إلى حضيضِ الخوفِ والاضطرابِ في مجيءِ رزقِك، ولا تُصغِ إلى تخويفِ الشيطانِ؛ فإنّه يَعِدُكم الفقرَ ويأمُرُكم بالفحشاءِ، وكن مُطْمَئِنّاً بوعدِ ربِّكَ، إذ قال: ﴿وَاللّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾[1]. واسمَع قولَ نبيّك ﷺ حيث قال: «لو توكّلْتُم على اللهِ حقَّ تَوَكُّلِه، لَرُزِقْتُم كما تُرزَق الطُّيورُ، تَغدُو خِماصاً وتَرُوح بِطاناً»[2].

---

١. البقرة (٢): ٢٦٨.

٢. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٥١، باب التوكّل ...، ح ٥١.

النوع الثالث: الحِرصُ

وهو معنى راتِبٌ في النفسِ، باعثٌ على جَمعِ مالا يحتاجُ إليه ولا يُفيدهُ من الأموالِ، من دونِ أن ينتهيَ إلى حدٍّ يكتفي به، وهو أقوى شُعَبِ حبِّ الدنيا وأشهرِ أنواعِه. ولا ريبَ في كونِه مَلَكَةً مُهلِكَةً وصفةً مُضِلّةً، بل باديةً مظلمةَ الأرجاءِ والأطرافِ، وهاويةً غيرَ متناهيةِ الأعماقِ والأكنافِ، مَن وَقَع فيها ضلَّ وبادَ، ومن سقَطَ فيها هلكَ وما عادَ. والتجربةُ والاعتبارُ والأخبارُ والآثارُ متظاهِرَةٌ على أنّ الحريصَ لا ينتهي إلى حدٍّ يَقِفُ دونَه، بل لا يزالُ يَخُوض فى غمراتِ الدنيا إلى أن يغرَقَ، وتطرحُه أرضٌ إلى أرضٍ حتّى يَهلِكَ.

قال رسول الله ﷺ: «لو كان لابنِ آدم واديانِ من ذهبٍ لابتغى وراءَهما ثالثاً، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدَم إلّا الترابُ، ويتوبُ الله على من تاب»[1]. وقال ﷺ: «مَنهُومانِ لا يشبَعانِ: منهومُ العلمِ، ومنهومُ المالِ»[2]. وقال أبو جعفرٍ الباقرُ عليه السلام: «مثلُ الحريصِ على الدنيا كمثلِ دُودَةِ القزِّ، كلّما ازدادَت مِن القزّ على نفسِها لَفّاً كان أبعدَ لها من الخروجِ، حتّى تَمُوتَ غَمّاً»[3].

ثمّ ما ورد من الأخبار في ذمّهِ أكثرُ من أن تُحصَى، ولا حاجةَ إلى إيرادِها لاشتهارِها. وقال الباقرُ عليه السلام: «ربَّ حريصٍ على أمرٍ قد شَقِيَ به حين أتاهُ، وربّ كارهٍ لأمرٍ قد سَعدَ بهِ حين

---

١. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٥٠.

٢. بحار الأنوار، ج٧٣، ص٢٢، باب حبّ الدنيا والحرص عليها، ح٧.

٣. الكافي، ج٢، ص٣١٦، باب حبّ الدنيا والحرص عليها، ح٧.

أتاه».[١] وأيُّ خسرانٍ أشدُّ من أن يسعَى الإنسان في طلبٍ به هلاكهُ؟ وأيُّ تأمُّلٍ في أنّ كلّما يَحرِصُ عليه الإنسانُ من أموالِ الدنيا يكونُ مُهلِكاً له؟!

ثمّ اعلم أنّ طريقَ المعالجة في إزالةِ الحرص وتحصيلِ القناعة: أن يتذكّر أوّلاً ما في القناعةِ من المدحِ والشرافةِ، وعزِّ النفس وفضيلةِ الحريّة، وما في الحرصِ من الذمِّ والمهانةِ، وتحمّلِ الذلّة ومتابعةِ الشهوة. ويعرفَ أنّ من لا يؤثِرُ عزّ النفسِ على شهوةِ البطنِ، فهو قليلُ العقلِ ناقصُ الإيمانِ.

ثمّ يتذكّرَ ما في جمعِ المالِ من الآفاتِ الدنيويّةِ والعقوباتِ الأُخرويّةِ، ويكثر التأمُّلَ فيما مضى عليه عظماءُ الخلقِ وأعزُّ أصنافِهم، أعني الأنبياءَ والأوصياءَ ومن سار بسيرتهم من السلفِ الأتقياءِ، من صبرِهم على القليلِ، وقناعتِهم باليسيرِ.

وبعد التأمّلِ في جميعِ ما ذُكر يتمُّ العلاجُ العلمي، وبه تسهُلُ إزالةُ الحرصِ واكتسابُ القناعةِ؛ فلْيُبادِرْ إلى العلاجِ العملي، وهو العملُ بالاقتصادِ في أمرِ المعيشةِ، ليسدَّ أبوابَ الخَرْجِ ما أمكنَ، وردُّ النفسِ إلى ما لابدَّ منه. فإنّ من كَثُرَ خَرجُه واتّسعَ إنفاقُه، لم تُمكِنْه القناعةُ، فإن كان وحدَه اكتفىَ بثوبٍ خشنٍ، ويقنع بأيِّ طعامٍ كان، ويقلّلُ من الإدامِ ما أمكنَه، وهكذا الحالُ في سائرِ ما يضطرّ إليهِ ويُوطِّنُ نفسَه عليهِ وإن كان له عيالٌ ردّ كلَّ واحدٍ منهم إلى هذا القدرِ. وإذا بنى أمرَه على الاقتصادِ لم يحتَجْ إلى كثيرِ جهدٍ وإن كان مُعيلاً. قال رسولُ الله ﷺ: «ما عالَ من اقتصَدَ»[٢]. وقال: «التدبيرُ نصفُ المعيشةِ»[٣]. وقال: «من اقتصدَ أغناهُ اللهُ، ومن بذَّرَ أفقرَهُ الله»[٤]. وقال: «الاقتصادُ، وحسنُ الصمتِ، والهديُ الصالحُ، جزءٌ من بضعٍ وعشرينَ جزءاً من النبوّةِ»[٥]. وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «القَصدُ مَثراةٌ، والسَرَفُ مَتواةٌ»[٦].

---

١. راجع: بحار الأنوار، ج٧٨، ص٢٦٢، باب مواعظ الصادق عليه السلام، ح ١٦٤.
٢. كنز العمّال، ج٣، ص٤٩، ح ٥٤٣١؛ بحار الأنوار، ج ٧١، ص٣٤٧، باب الاقتصاد وذمّ الإسراف، ح ١٤.
٣. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٥٥.
٤. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٥٥.
٥. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٥٥.
٦. بحار الأنوار، ج ٧١، ص٣٤٧، باب الاقتصاد وذمّ الإسراف، ح ١٣.

وقال الصادقُ عليه السلام: «إنّ القصدَ أمرٌ يحبّه الله، وإنّ السَرَفَ أمرٌ يُبغِضه اللهُ، حتّى طَرحُكَ النواةَ، فإنّها تَصلُحُ لشيءٍ، وحتّى صَبُّكَ فَضلَ شرابِك»[١]. وقال عليه السلام: «ضَمِنْتُ لمن اقتصَدَ ألّا يفتقِرَ»[٢]. والأخبارُ في مدحِ الاقتصادِ أكثرُ من أن تُحصَى.

ثمّ إذا تيسّرت له المعيشةُ في الحالِ، فلا ينبغي أن يكونَ مضطرباً لأجلِ الاستقبالِ، ويعتمِدُ على فضلِ الله ووعدِه بأنّ الرزقَ الذي قُدِّرَ له يأتيهِ وإن لم يكن حريصاً ولا مضطرباً لأجلِهِ ولا يعلَم لنفسِه مدخلاً يأتي رزقُه منه. وقال الله تعالى: ﴿وَما مِنْ دابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلّا عَلى اللهِ رِزْقُها﴾[٣]. وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجعَلْ لَهُ مَخرَجاً * وَيَرزُقْهُ مِنْ حَيثُ لا يَحتَسِبُ﴾[٤].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أبى الله أن يرزُق عبدَه المؤمنَ إلّا من حيثُ لا يَحتَسِبُ»[٥].

ثمّ ينبغي ألّا ينظر إلى من هو فوقَه، بل ينظر إلى من هو دونَه في التنعُّمِ وفي مالِ الدنيا، فإنّ الشيطانَ يصرِفُ نظرَه في أمرِ الدنيا إلى من هو فوقَه، ويقول: لِمَ تَفتُرُ عن طلبِ الدنيا وأربابُ الأموالِ يتنعّمُون في المطاعمِ والملابسِ؟ ويصرِفُ نظرَه في أمرِ الدينِ إلى من هو دونَه، ويقول: لِمَ تضيِّقُ على نفسِك وتخافُ الله وفلانٌ أعلمُ منكَ ولا يخافُ اللهَ؟ قال أبو ذرّ رضي الله عنه: «أوصاني خليلي رسولُ الله أن أنظرَ إلى من هو دوني، لا إلى مَنْ هو فوقي في الدّنيا».[٦] وقال صلى الله عليه وآله: «إذا نظر أحدُكم إلى من فضّلَه الله عليه في المالِ والخلقِ، فلينظرْ إلى مَنْ هو أسفلُ منه»[٧].

---

١. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٤٦، باب الاقتصاد وذمّ الإسراف، ح ١٠.
٢. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٤٦، باب الاقتصاد وذمّ الإسراف، ح ٩.
٣. هود (١١): ٦.
٤. الطلاق (٦٥): ٢ ـ ٣.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٥٧.
٦. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٥٨.
٧. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٥٩.

وصـل

ضدّ الحرص: القناعةُ

ضدُّ الحِرصِ القناعةُ. وهي مَلَكةٌ للنفسِ تُوجِبُ الاكتفاءَ بقدرِ الحـاجةِ والضرورةِ مـن المالِ، من دونِ سعيٍ وتعبٍ في طلبِ الزائدِ عنه، وهي صفةٌ فاضلةٌ يتوقّفُ عليها كسبُ سائرِ الفضائلِ، وعدمُها يُؤَدّي بالعبدِ إلى مساوئ الأخلاقِ والرذائلِ، وهـي المـظنّةُ للـوُصولِ إلى المقصدِ، وأعظمُ الوسائلِ لتحصيلِ سعادةِ الأبدِ. إذ من قَنِعَ بقدرِ الضَرورةِ من المطعمِ والملبسِ، ويَقتصِرُ على أقلِّه قدراً أو أخسِّه نوعاً، ويردُّ أملَه إلى يومِه أو إلى شهرِه، ولا يشـغَلُ قـلبَه بالزائدِ عن ذلك، كان فارغَ البالِ مجتمعَ الهمِّ، فيتمكّن من الاشتغالِ بأمرِ الدينِ وسُلوكِ طريقِ الآخرةِ. ومن فاتتهُ القناعةُ، وتدنَّسَ بالحرصِ والطمعِ وطولِ الأمـلِ، وخـاضَ في غـمراتِ الدنيا، تفرّق قلبُه وتَشَتَّتَ أمرُهُ. فكَيف يُمكِنُه التشمُّرُ لتحصيلِ أمـرِ الديـنِ، والوصـولِ إلى درجاتِ المتّقينَ؟

ولذلك ورد في مدحِ القناعةِ ماوردَ من الأخبارِ، قال رسولُ الله ﷺ: «طوبى لمن هُدِيَ للإسلامِ، وكان عيشُه كفافاً وقَنِعَ به!»[1]، وقال: «مامن أحدٍ، من غَنِيٍّ ولا فـقيرٍ، إلّا ودَّ يـومَ القيامةِ أنّه كان أُوتي قوتاً في الدنيا»[2]، وقال ﷺ: «كن وَرِعاً تكن أعبدَ الناسِ، وكنْ قانعاً

---

١. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٥١.

٢. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٥١.

تكنْ أشكرَ الناسِ، وأحِبَّ للناسِ ماتُحِبُّ لنفسِك تكن مُؤمناً»[1]. وروي: «أنّ موسى سأل ربّه تعالى وقال: «أيُّ عبادِك أغنَى؟ قال: أقنعُهم لما أعطيتُه»[2]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

ابن آدم، إن كنتَ تريدُ من الدنيا ما يكفيك، فإنّ أيسَرَ مافيها يكفِيكَ، وإن كنتَ إنّما تريدُ مالا يكفيك، فإنّ كلّ ما فيها لا يكفِيك[3].

وقال أبو جعفر الباقرُ عليه السلام:

إيّاكَ أن تطمحَ بَصَركَ إلى من هو فوقَك، فكفى بما قال اللهُ عزّ وجلّ لنبيِّه صلى الله عليه وآله: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ﴾[4] وقال: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾[5]. فإن دخلك من ذلك شيءٌ، فاذكُر عيشَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، فإنّما كان قوتُه الشعيرَ، وحلواه التمرَ، ووقودُه السعفَ إذا وجدَه.[6]

وقال: «من قَنع بما رزقَه اللهُ فهو من أغنَى الناسِ»[7]، وقال الصادقُ عليه السلام: «من رَضِيَ من اللهِ باليسيرِ من المعاشِ رَضِيَ الله عنه باليسيرِ من العملِ»[8]، وقال:

مكتوبٌ في التوراةِ: «ابنَ آدمَ، كن كيف شئتَ، كما تَدِينُ تُدانُ،من رَضِيَ من اللهِ بالقليلِ من الرزقِ قَبِلَ اللهُ منه اليسيرَ من العملِ، ومن رَضِيَ باليسيرِ من الحلالِ خَفَّت مَؤونَتُهُ، وزكت مَكْسَبَتُهُ، وخرجَ من حدِّ الفُجورِ»[9].

---

١. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٥١.
٢. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٥١.
٣. الكافي، ج٢، ص١٣٨ ـ ١٣٩، باب القناعة، ح٦.
٤. التوبة (٩): ٥٥.
٥. طه (٢٠): ١٣١.
٦. الكافي، ج٢، ص١٣٧ ـ ١٣٨، باب القناعة، ح١.
٧. الكافي، ج٢، ص١٣٩، باب القناعة، ح٩.
٨. الكافي، ج٢، ص١٣٨، باب القناعة، ح٣.
٩. الكافي، ج٢، ص١٣٨، باب القناعة، ح٤.

النوع الرابع: الطمعُ

وهو التوقُّعُ من الناسِ في أموالِهم، وهو أيضاً من شُعَبِ حُبِّ الدنيا ومن أنـواعِـه، ومـن الرذائلِ المُهلِكَةِ. قال رسـولُ اللـه ﷺ: «إيّـاكَ والطـمعَ، فـإنّه الفـقرُ الحـاضِرُ»[1]. وقـال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «استغنِ عمّن شئتَ تَكُن نَـظِيرَهُ، وارغَب إلى مـن شِـئتَ تَكُـن أسِـيرَهُ، وأَحسِنْ إلى من شئتَ تَكُن أمِيرَه»[2]، وقال الباقرُ عليه السلام: «بئس العبدُ عبدٌ له طمعٌ يقودُه، وبئسَ العبدُ عبدٌ له رغبةٌ تُذِلُّه».[3] وقيل للصادقِ عليه السلام: ما الذي يُثَبِّتُ الإيمانَ في العبدِ؟ قال: «الوَرَعُ، والذي يُخرِجُه مِنهُ الطَمَعُ».[4]

والأخبار في ذمّ الطمعِ كثيرةٌ، وكفى به ذمّاً أنّ كلَّ طامعٍ يكون ذليلاً مَهيناً عندَ الناسِ، وأنّ وُثوقَه بالناسِ واعتمادَه عليهم أكثرُ من وُثوقِه باللهِ، إذ لو كان اعتمادُه على اللهِ أكثرَ من اعتمادِه على النّاسِ لم يكن نَظرُه إليهم، بل لم يطمَع من أحدٍ شيئاً إلّا من اللهِ سبحانه.

---

١. بحار الأنوار، ج٧٣، ص١٦٨، باب الطمع والتذلّل ...، ح ٤.

٢. بحار الأنوار، ج٧٣، ص١٦٩، باب الطمع، ذيل الحديث ٦، مع تفاوتٍ في اللفظ.

٣. الكافي، ج٢، ص ٣٢٠، باب الطمع، ح ٢.

٤. الكافي، ج٢، ص ٣٢٠، باب الطمع، ح ٤.

وصلٌ

ضدّ الطمع: الاستغناءُ عن الناسِ

ضدّ الطمعِ هو الاستغناءُ عن الناسِ. وهو من الفضائلِ المُوجِبَةِ لِتَقَرُّبِ العبد إلى اللهِ سبحانَه، إذ من استغنَى باللهِ عن غيرِ اللهِ أحبَّه اللهُ. والأخبارُ الآمرةُ بالاتّصافِ به والمادِحةُ له كثيرةٌ. قال رسولُ الله ﷺ: «عليك باليأسِ عمّا في أيدي الناسِ، فإنّه الغِنى الحاضرُ»[1].

وقال أميرالمؤمنين عليه السلام:

ليجتَمِعْ في قَلبِك الافتقارُ إلى الناسِ والاستغناءُ عنهم، فيكون افتقارُك إليهم في لينِ كلامِك وحُسنِ بِشرِكَ، ويكون استغناؤكَ عنهم في نزاهةِ عِرضِكَ وبقاءِ عِزِّكَ[2].

وقال سيّد الساجِدين عليه السلام:

رأيتُ الخيرَ كلَّه قد اجتَمَعَ في قطعِ الطمعِ عمّا في أيدي الناسِ، ومن لم يَرْجُ الناسَ في شيءٍ، وردَّ أمرَه إلى الله تعالى في جميعِ أُمورِه، استجابَ اللهُ تعالى له في كلِّ شيءٍ[3].

وقال الصادق عليه السلام: «شَرَفُ المؤمنِ قيامُ الليلِ، وعزُّهُ استغناؤُه عن الناس»[4]. وطريقُ العلاجِ في قطعِ الطمعِ وكسبِ الاستغناءِ قريبٌ ممّا ذُكِر في علاجِ إزالةِ الحرصِ وتحصيلِ القناعةِ.

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٥٥؛ بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٦٨، باب الطمع، ح ٤.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١٤٩، باب الاستغناء عن الناس، ح ٧.

٣. الكافي، ج ٢، ص ١٤٨، باب الاستغناء عن الناس، ح ٣.

٤. الكافي، ج ٢، ص ١٤٨، باب الاستغناء عن الناس، ح ١.

النوع الخامس: البخلُ

وهو الإمساكُ حيثُ يَنبغي البَذْلُ، كما أنّ الإسرافَ هو البَـذلُ حـيثُ يـنبغي الإمسـاكُ، وكلاهما مذمومان، والمحمودُ هو الوسطُ، وهو الجودُ والسخاءُ، إذ لم يؤمَـرْ رسولُ الله ﷺ إلّا بالسخاءِ، وقيل له: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطها كُلَّ البَسْطِ﴾[1]. وقال تـعالى: ﴿والَّذينَ إذا أنفَقُوا لَم يسرِفُوا وَلم يقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَواماً﴾.[2]

فالجُودُ وسطٌ بينَ الإقتارِ والإسرافِ، وبينَ البَسطِ والقَبضِ، وهو تقديرُ البذلِ والإمساكِ بقدرِ الواجبِ اللائقِ. ولا يكفي في تحقُّقِ الجودِ والسخاءِ أن يفعلَ ذلك بالجوارحِ ما لم يكـن قلبُه طيِّباً غيرَ منازعٍ له فيه. فإن بَذَلَ في محلٍّ وجوب البذلِ ونفسُه تنازعُه وهو يضايرُها فهو مُتَسَخٍّ وليس بِسَخِيٍّ، بل ينبغي ألّا يكونَ لقلبِه علاقةٌ مع المالِ إلّا من حيثُ يرادُ المالُ له، وهو صرفُه إلى مايجبُ أو ينبغي صرفُه إليه.

ثمّ اعلم البخلُ من ثمراتِ حبِّ الدنيا ونتائِجه، وهو من خبائثِ الصفاتِ ورذائلِ الأخلاقِ. ولذا ورد في ذمِّه ماوردَ من الآياتِ والأخبارِ. قال الله سبحانه: ﴿الذِينَ يَـبْخَلُونَ وَيَأْمُـرُونَ الناسَ بِالبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه...﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الذِينَ يَبْخَلُونَ بِما

---

١. الإسراء (١٧): ٢٩.

٢. الفرقان (٢٥): ٦٧.

٣. النساء (٤): ٣٧.

آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُم سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ﴾[١].

وقال رسولُ الله ﷺ: «إيّاكم والشحَّ، فإنّه أهلَكَ من كانَ قبلَكم، حَمَلَهم على أن سفكوا دماءَهم واستحلُّوا محارِمَهم».[٢] وقال ﷺ: «لا يدخلُ الجنّةَ بخيلٌ، ولا خَبٌّ، ولا خائِنٌ، ولا سَيّءُ المَلَكَةِ».[٣] وقال ﷺ: «البَخيلُ بعيدٌ من اللهِ، بعيدٌ من الناسِ، بعيدٌ من الجنّةِ، قريبٌ من النارِ. وجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى اللهِ من عابدٍ بخيلٍ، وأدوَى الداءِ البُخلُ»[٤]. وقال ﷺ: «الموبقاتُ ثلاثٌ: شُحٌّ مطاعٌ، وهَوىً مُتّبَعٌ، وإعجابُ المَرءِ بِنَفسِه»[٥]. وقال ﷺ: «إيّاكم والشُحَّ، فإنّما هَلَكَ من كان قبلكم بالشحِّ، أَمرَهُم بالكَذِبِ فَكَذَبُوا، وأمرَهم بالظلمِ فظَلَمُوا، وأمرَهم بالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا»[٦]. وقال ﷺ: «البخلُ شجرةٌ تنبتُ في النارِ، فلا يَلِجُ النارَ إلّا بخيلٌ»[٧]. وقال ﷺ: «السَخِيُّ الجَهُولُ أحبُّ إلى اللهِ عزّ وجلّ من العابِدِ البخيلِ»[٨]. وقال: «الشُحُّ والإيمانُ لايجتمعانِ في قلبِ واحدٍ»[٩]. وقال أيضاً: «خَصلتانِ لاتَجتمعانِ في مؤمنٍ: البخلُ، وسوءُ الخُلُقِ»[١٠]. وروي:

أنّه ﷺ كان يطوفُ بالبيتِ، فإذا رجلٌ متعلّقٌ بأستارِ الكعبةِ وهو يقول: بِحُرمةِ هذا البيتِ إلّا غَفَرْتَ لي ذنبي! قال رسولُ الله ﷺ: وما ذنبُك؟ صِفْهُ لي. قال: هو أعظَمُ من أن أصِفَه لك قال: وَيحَكَ! ذنبُكَ أعظمُ أم الأرضونَ؟ قال: بل ذنبي يا رسولَ الله. قال ﷺ : ويحَكَ! ذنبُك أعظمُ أم الجبالُ؟ قال: بل ذنبي يا رسولَ الله. قال ﷺ: فذنبُكَ أعظمُ أم البحارُ؟ قال: بل ذنبي يا رسولَ الله.

١. آل عمران (٣): ١٨٠.
٢. إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢٥٢.
٣. إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢٥٣.
٤. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٦٢.
٥. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٧١؛ بحار الأنوار، ج٧٣، ص٣٠٢، باب البخل، ح١١، عن أبي جعفرٍ عليه السلام.
٦. بحار الأنوار، ج٧٣، ص٣٠٣، باب البخل، ح١٥.
٧. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٧٣.
٨. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٧٤.
٩. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٧٤.
١٠. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٧٤.

قال ﷺ: فذنبُك أعظمُ أم السماواتِ؟ قال: بل ذنبِي يا رسولَ الله. قال: ذنبك أعظمُ أم العرشُ؟ قال: بل ذنبِي يا رسولَ الله. قالَ: ذنبُك أعظمُ أمِ اللهُ؟ قال: بلِ اللهُ أعظمُ وأعلى وأجلُّ. قال: ويحَك! فَصِف لي ذنبَك. قال: يا رسولَ الله، إنّي رجلٌ ذو ثَروَةٍ من المالِ، وإنّ السائلَ ليأتيني ليسألَني فكأنّما يستقبِلُني بشُعلةٍ من النارِ. فقال رسولُ الله ﷺ: إليكَ عنّي! لا تُحرِقْني بنارِك! فوالذي بعثني بالهدايةِ والكرامةِ، لو قمتَ بينَ الركنِ والمقامِ، ثمّ صلّيت ألفي ألف عامٍ، وبكيتَ حتّى تَجرِيَ من دُموعِكَ الأنهارُ وتُسقَى بها الأشجارُ، ثمّ متّ وأنتَ لَئيمٌ، لأكَبَّكَ اللهُ في النارِ! ويحَك! أما عَلِمتَ أنّ اللهَ يقول: ﴿وَمَنْ يَبخَلْ فَإِنَّما يَبخَلُ عَن نَفسِهِ﴾[1]، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ﴾؟![2]

وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «سيأتي على الناسِ زمانٌ عَضوضٌ، يَعَضُّ المؤمنُ على ما في يَدَيهِ، ولم يُؤمَرْ بذلكَ. قال الله تعالى: ﴿وَلا تَنسَوا الفَضْلَ بَينَكُمْ﴾[3]».[4]

وروي: أنّه «ما مِن صباحٍ إلّا وقد وَكّل الله تعالى مَلَكين ينادِيان: اللهمّ اجعَل لكلِّ مُمسِك تَلَفاً، ولكلِّ مُنفِق خَلَفاً»[5]!

---

١. محمّد ﷺ (٤٧): ٣٨.
٢. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٧٤ ـ ٧٥. والآية في الحشر (٥٩): ٩؛ التغابن (٦٤): ١٦.
٣. البقرة (٢): ٢٣٧.
٤. نهج البلاغة، ص٥٥٧، الحكمة ٤٦٨، وفيه: «الموسر» بدل «المؤمن».
٥. كنز العمّال، ج ٦، ص٣٧٤، ح١٦١٢٣.

وصــل

ضدّ البخل: السخاءُ

ضدُّ البخلِ السخاءُ. وقد عرفتَ معناه، وهو من ثمرةِ الزهدِ، كما أنّ البخلَ مـن ثمـرةِ حبِّ الدنيا. فينبغي لكلِّ سالِكٍ لطريقِ الآخرةِ أن يكونَ حاله القناعةُ إن لم يكن له مالٌ، والسخاءُ واصطناعُ المعروفِ إن كان له مالٌ. ولا ريبَ في كونِ الجودِ والسخاءِ من شَرائِـفِ الصـفاتِ ومعالي الأخلاقِ، وهو أصلٌ من أُصولِ النجاةِ، وأشهرُ أوصافِ النـبيّين، وأعـرَفُ أخـلاقِ المرسلينَ. وما وردَ في مدحِه خارجٌ عن حدّ الإحصاءِ: قال رسولُ الله ﷺ: «السخاءُ شجرةٌ من شجرِ الجنّةِ، أغصانُها مُتَدَلِّيَةٌ إلى الأرضِ، فمن أخذَ مـنها غـصناً قـادَه ذلك الغـصنُ إلى الجنّةِ».[١] وقال ﷺ: «قال اللهُ سبحانه: إنّ هذا ديـنٌ ارتـضَيْتُهُ لنـفسي، ولن يُـصلِحَه إلّا السَخاءُ وحُسنُ الخلُقِ، فأَكرِمُوه بِهما ما استَطَعْتُم».[٢] وقال ﷺ: «ما جَعلَ اللهُ أَوليـاءَه إلّا على السخاءِ وحُسنِ الخلقِ».[٣] وقال ﷺ: «إنّ من موجباتِ المغفرةِ: بذلُ الطعامِ، وإفشـاءُ السلامِ، وحسنُ الكلامِ».[٤] وقال ﷺ: «إنّ السَخِيَّ قريبٌ من اللهِ، قريبٌ من الناسِ، قريبٌ

---

١. إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢٤٣.

٢. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٥٩.

٣. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٥٩.

٤. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٦٠.

من الجنّةِ، بعيدٌ من النارِ».[١] وقال ﷺ: «خُلُقانِ يحبُّها اللهُ، وهما: حُسنُ الخلقِ، والسخاءُ»[٢]. وقال ﷺ: «إنّ اللـه جـوادٌ يحبُّ الجـودُ، ويحبُّ مَعاليَ الأخـلاقِ، ويكـرَهُ سَـفاسِفَها».[٣] وقال ﷺ: «الرِزقُ إلى مُطعِمِ الطعامِ أسرَعُ من السكينِ إلى ذروةِ البـعيرِ، وإنّ اللـه تـعالى لَيُباهِي بِمُطعِمِ الطعامِ الملائكةَ عليهم السلام».[٤] وقال ﷺ: «إنّ للّهِ عباداً يخصُّهم بالنِعَمِ لمنافعِ العبادِ، فمن بَخِلَ بتلكَ المنافعِ عن العبادِ نقلَها الله عنه وحوَّلها إلى غيرِه».[٥] وقال ﷺ: «الجـنّةُ دارُ الأسخياءِ».[٦] وقال ﷺ: «إنّ بُدلاءَ أُمّتي لم يدخلُوا الجنّةَ بصلاةٍ ولا صيامٍ، ولكن دخلُوها بسخاءِ الأنفُسِ، وسلامةِ الصُدورِ، والنُصحِ للمسلمينَ»[٧]. وقال ﷺ: «إنّ أفضلَ الناسِ إيماناً أبسَطُهم كفّاً». وقال ﷺ:

يُؤتَى يومَ القيامةِ برجلٍ، فيقال: احتَجَّ. فيقول: ياربِّ، خلقتَنِي وَهَديتَني، وأوسَعْتَ عليَّ فلم أزَلْ أُوسِعُ على خلقِك، وأَنشُرُ عليهم لكي تَنشُرَ علي هذا اليومَ رحمَتك وتُيَسِّرَه. فيقول الربُّ (تعالى ذكره): صدقَ عبدِي، أدخِلُوه الجنَّةَ.[٨]

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ومن يبسطُ يدَه بالمعروفِ إذا وجدَه، يُخلفِ الله له ما أنـفقَ في دنياه، ويُضاعِفُ له في آخرتِه».[٩] وقال الباقرُ عليه السلام:

إنّ الشمسَ لتطلُعُ ومعها أربعةُ أملاكٍ: مَلَكٌ ينادِي: ياصاحِبَ الخيرِ أتِمَّ وأبـشِرْ، ومَلَك ينادي: ياصاحبَ الشرِّ اِنزِعْ وأقصِرْ، وملكٌ ينادي: أعطِ منفقاً خلفاً وآتِ مُمسِكاً تلفاً، وَملك يَنضَحُ الأرضَ بالماءِ، ولولا ذلك اشتعلَت الأرضُ.[١٠]

---

١. المحجّة البيضاء، ج٦، ص ٦٠.
٢. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٥٩.
٣. المحجّة البيضاء، ج٦، ص ٦٠.
٤. المحجّة البيضاء، ج٦، ص ٦٠.
٥. المحجّة البيضاء، ج٦، ص ٦١.
٦. بحار الأنوار، ج٧١، ص٣٥٦، باب السخاء.... ح١٨.
٧. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٦٢.
٨. الكافي، ج ٤، ص ٤٠، باب معرفة الجود والسخاء، ح٨.
٩. الكافي، ج ٤، ص٤٣، باب الإنفاق، ح ٤.
١٠. الكافي، ج ٤، ص٤٢، باب الإنفاق، ح ١.

وقال الصادق عليه السلام لبعض جُلسائه: «ألا أُخبرُكَ بشيءٍ تُقرَّبُ به من اللهِ وتُقرَّبُ من الجنّةِ وتُباعَدُ من النارِ؟»، فقال: بلى. فقال: «عليكَ بالسخاءِ».[١] وقال:

خيارُكم سُمحاؤُكم، وشِرارُكم بُخلاؤُكم. ومن خالِصِ الإيمانِ: البِرُّ بالإخوان والسعيُ في حوائِجهم، وإنّ البارَّ بالإخوانِ ليحبّه الرحمنُ، وفي ذلك مَرغَمةٌ للشيطانِ، وتَزَحْزُحٌ عن النيرانِ ودُخولُ الجنانِ.[٢]

وقال الكاظم عليه السلام:

السخيُّ الحسنُ الخُلُقِ في كنفِ اللهِ، لايَستخلي اللهُ منه حتّى يُدخِلَه الجنّةَ. وما بَعَثَ الله نبيّاً ولا وصيّاً إلّا سخيّاً، ولا كان أحدٌ من الصالحين إلّا سخيّاً، وما زالَ أبي يُوصِيني بالسخاء حتّى مَضَى.[٣]

تنبيه: أرفعُ درجاتِ الجودِ والسخاءِ الإيثارُ، وهو أن يجودَ بالمالِ مع الحاجةِ إليه. قال اللهُ سبحانه في معرضِ الثناءِ على أهلِ الإيثارِ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٤].

وقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «أيُّما امرئٍ اشتَهَى شهوةً فردَّ شهوتَه وآثرَ على نفسِه، غُفِر له».[٥] وكان الإيثارُ من شِعارِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، ولقد قالت بعضُ زوجاتِه: «إنّه صلى الله عليه وآله ما شَبِعَ ثلاثةَ أيّامٍ متواليةٍ حتّى فارقَ الدنيا، ولو شِئنا لَشَبِعنا، ولٰكنّا كنّا نُؤثِرُ على أنفُسِنا»[٦]. ورُوي:

أنّ موسى بنَ عمران قال: ياربِّ، أرِني بعضَ درجاتِ محمّدٍ وأُمّتِه. قال: ياموسى، إنّك لن تطيقَ ذلك، لٰكنّي أُرِيكَ منزلةً من منازِلِه جليلةً عظيمةً، فَضَّلتُه بها عليكَ وعلى جميعِ خلقي. قال: فكشَفَ له عن ملكوتِ السماواتِ، فنظر إلى منزلةٍ كادت أن تتلفَ نفسُه من أنوارِها وقُربِها من اللهِ، فقال: ياربِّ، بماذا بلغْتَ بهِ إلى هذه

---

١. الكافي، ج ٤، ص ٤١، باب معرفة الجود والسخاء، ح ١٢.
٢. الكافي، ج ٤، ص ٤١، باب معرفة الجود والسخاء، ح ١٥.
٣. الكافي، ج ٤، ص ٣٩، باب معرفة الجود والسخاء، ح ٤.
٤. الحشر (٥٩): ٩.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٧٩.
٦. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٧٩.

الكرامةِ؟ قال تعالى: بخُلُقٍ اخْتَصَصْتُهُ بـهِ مـن بـينِهم، وهـو الإيـثارُ. يـاموسى، لا يأتيني أحدٌ منهم قد عمل به وقتاً من عمرِه إلّا استحييتُ من محاسَبتِه، وبوّأتُهُ من جنّتي حيث يشاءُ[١].

وسُئل الصادقُ عليه السلام: «أيُّ الصدقةِ أفضلُ؟ قال عليه السلام: جهدُ المُقِلِّ، أما سمعتَ قولَ اللهِ عـزّ وجلّ: ﴿ويُؤْثِرُونَ على أنفُسِهِمْ ولو كانَ بِهِم خَصاصَةٌ﴾»[٢]. وإيثارُ عليٍّ عليه السلام غيرَه في جميعِ أوقاتِ عمرِه مشهورٌ، وفي الكتبِ مسطورٌ[٣]. ولقد آثرَ حياةَ رسول الله صلى الله عليه وآله على حياتِه ليلة المبيتِ، فباهى اللهُ بهِ الملائكةَ، وأنزل فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْري نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ﴾[٤].[٥]

ولقد كان الخواصُّ من شيعتِه والمقتدُونَ بهِ في سُنَّتِه وسِيرَتِه، يجتهدونَ في المحافظةِ على هذهِ الفَضيلةِ مهما أمكَنَ. ولنذكر هنا أُموراً ترتبط بالسخاء:

الأمر الأوّل: فضيلةُ إعلانِ الصدقةِ الواجبةِ

الصدقةُ الواجبةُ، أعني الزكاةَ، إعلانُها أفضلُ من إسرارِها إن كان في إظـهارِها تـرغيبٌ للناسِ في الاقتداءِ، وأمنٌ من تطرُّقِ الرياءِ، ولم يكن الفقيرُ بحيثُ يستحيي من أخذِها علانيةً.

قال الصادقُ عليه السلام:

كلُّ ما فرضَ اللهُ عليكَ، فإعلانُه أفضلُ من إسرارِهِ، وكلُّ ما كان تطوُّعاً فإسرارُه أفضلُ من إعلانِه، ولو أنّ رجلاً حمل زكاةَ مالِهِ على عاتقِه علانيةً، كان ذلك حسناً جميلاً[٦].

وقال في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوها الفُقَراءَ فَهُو خيرٌ لَكُمْ﴾[٧]: «هي ما سِوَى الزكـاةِ،

---

١. المحجّة البيضاء، ج٦، ص ٨٠.
٢. بحار الأنوار، ج٩٦، ص١٧٨ ـ ١٧٩، في أنواع الصدقة، ح١٥، والآية ٩ من سورة الحشر (٥٩).
٣. راجع: شواهد التنزيل، ج٢، ص ٣٣١.
٤. البقرة (٢): ٢٠٧.
٥. بحار الأنوار، ج٣٦، ص ٤٠ ـ ٥١.
٦. الكافي، ج٣، ص ٥٠١، باب فرض الزكاة، ح١٦.
٧. البقرة (٢): ٢٧١.

فإنّ الزكاةَ علانيةٌ غيرُ سرٍّ»[١]. فلو دخلَ في نفسِه الرياءُ مع الإظهارِ، أو كان الفقيرُ يستحيي من أخذِها علانيةً، كان الإسرارُ بها أفضلَ. أمّا الأوّل فظاهرٌ، وأمّا الثاني فلما رُوي:

أنّه قيل لأبي جعفرٍ الباقرِ عليه السلام: الرجلُ من أصحابِنا يستحيي من أن يأخذَ من الزكاةِ، فأعطيه من الزكاةِ ولا أُسَمّي له أنّها من الزكاةِ. فقال: «أَعطِه ولا تُسَمِّ له، ولا تُذِلَّ المؤمنَ»[٢].

وبالجملةِ، الإعلانُ كما تُتَصوَّرُ فيهِ فائدةُ الترغيبِ، يَتَطَرَّقُ إليهِ محذورُ الرياءِ والمنِّ والأذى، وذلك يختلفُ بالأحوالِ والأشخاصِ. فبالنظرِ إلى بعضِ الأحوالِ والأشخاصِ يكونُ الإعلانُ أفضلَ، وبالنظرِ إلى بعضٍ آخرَ يكونُ الإسرارُ أفضلَ. فلابدّ لكلّ منفقٍ أن يلاحظَ حالَه ووقتَه، ويقابِلَ الفائدةَ بالمحذورِ، ويختارَ ماهو الأفضلُ. ومن عَرفَ الفوائدَ والغوائلَ، ولم ينظُرْ بعينِ الشهوةِ، اتّضَحَ له ما هو الأولى والأليقُ.

الأمر الثاني: ذمُّ المَنِّ والأذى في الصدقةِ

ينبغي للمتصدِّقِ أن يجتنبَ عن المنِّ والأذى، قال اللهُ سبحانَه: ﴿لا تُبطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالمَنِّ وَالأذىٰ﴾[٣]، وقال: ﴿قَوْلٌ مَعروفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أذىً﴾[٤].

والمنُّ: أن يرى نفسَه محسناً. ومن ثمراتِها الظاهرةِ الإظهارُ بالإنفاقِ، والتحدُّثُ به، وطلبُ المكافأةِ منه بالشكرِ والخدمةِ والتعظيمِ والمتابعةِ في الأُمورِ. والأذى: التَعييرُ، والتوبيخُ، والاستخفافُ، والاستخدامُ، والقول السيءُ، وتقطيبُ الوجهِ، وهتكُ السترِ. ثمّ معرفةُ الأذى ظاهرةٌ، وكذا معرفةُ الثمراتِ الظاهرةِ للمنِّ. وأمّا المنُّ الباطني، أي رؤيةُ نفسِه محسناً، فيُعرفُ بأن يكون استبعادُه من خيانةِ القابضِ بعدَ العطاءِ أكثرَ من استبعادِه منه قبلَه.

وعلاجُ المنّ أن يعرفَ أنّ المحسِنَ هو الفقيرُ القابضُ لإيصالِه الثوابَ والإنجاءَ من العذابِ،

---

١. الكافي، ج٣، ص٥٠٢، باب فرض الزكاة، ح١٧.

٢. الكافي، ج٣، ص٥٦٣ ـ ٥٦٤، باب من تحلّ له الزكاة، ح٣.

٣. البقرة (٢): ٢٦٤.

٤. البقرة (٢): ٢٦٣.

وكونِه نائباً عن اللهِ تعالى، وكونِ مايعطيهِ حقّاً من اللهِ سبحانه، أحالَ عليهِ الفقيرَ إنجازاً لما وعدَه من الرزقِ.

وبالجملةِ، العاقلُ بعدَ التأمّلِ يعلمُ أنّ مايعطيهِ قليلٌ في مقابلةِ ما يأخذُه، وأنّ الفقيرَ مُحسِنٌ إليه. قال أميرُ المؤمنين عليه السلام:

ومن عَلِم أنّ ماصنعَ إنّمـا صـنَع إلى نـفسِه، لم يستبطِئِ النـاسَ في شُكـرِهم، ولم يَستَزِدْهم في مَوَدَّتِهم، فلا تَلتَمِسْ من غيرِكَ شكرَ ما أتيتَ إلى نفسِك ووَقَيتَ به عِرضَك. واعلَم أنّ الطالبَ إليك لحاجةٍ لم يُكرِم وجهَه عن وجهِك، فأَكرِمْ وجهَكَ عن رَدِّه.[1]

وينبغي للمحترزِ عن المنِّ والأذى أَن يتواضعَ ويتخضَّعَ للفقيرِ عند إعـطائِه، بأن يـضَع الصدقةَ لديه، ويَمْثُلَ قائماً بينَ يديهِ، أو يبسُطَ كفَّهُ ليأخُـذَ الفـقيرُ، وتكـونَ يـدُ الفـقيرِ هـي العليا.[2]

الأمر الثالث: ماينبغي للمعطي

وممّا ينبغي للمعطي أن يستصغِرَ العطيّةَ لتَعْظُمَ عندَ اللهِ، وإن استَعْظَمَها صَغُرَتْ عندَ الله. قال الصادقُ عليه السلام:

رأيتُ المعروفَ لايصلُحُ إلّا بثلاث خصال: تَصغيرُهُ، وتَستيرُه، وتَعجيلُهُ. فأنتَ إذا صَغَّرْتَهُ عَظَّمْتَه عندَ من تَصنعُه إليه، وإذا ستَّرتَه تَمَّمْتَهُ، وإذا عَجَّلْتَه هَنَّأْتَهُ، وإن كانَ غيرَ ذلك سَخَّفْتَه ونَكَدْتَه.[3]

وأن يعطِيَ الأجودَ والأحَبَّ والأبعَدَ عن الشُبهةِ، لأنّ اللهَ طيّبٌ لايقبَلُ إلّا طَيِّباً، وإخراجُ غيرِ الجيِّد سُوءُ أدبٍ بالنسبةِ إلى اللهِ، إذ إمساكُ الجيّدِ لنفسِه وأهلِه، وإنفاقُ الرديءِ في سبيلِ اللهِ يُوجِبُ إيثارَ غيرِ اللهِ وتَرجيحَهُ عليه، ولو فعل هذا لضيفٍ وقدَّمَ إليه أرداَ طعامٍ في البيتِ

---

١. الكافي، ج ٤، ص٢٨، باب منه [أي من فضل المعروف]، ح ١.

٢. راجع: الخصال، ص١٣٢، ح١٤٤.

٣. الكافي، ج ٤، ص ٣٠، باب تمام المعروف، ح ١.

لانكسَرَ قلبُه وَوغِرَ بهِ صَدرُه.

هذا إذا كان نظرُه إلى الله بأن يتصدَّقَ لوجهِ اللهِ، من غيرِ ملاحظةِ عوضٍ لنفسِه في دارِ الآخرةِ، وان كان نظرُه إلى نفسِه وثوابِه في الآخرةِ فلا ريبَ في أنّ العاقلَ لا يُؤثِر غيرَه على نفسِه، وليس له من مالِه إلّا ما تصدّق فأبقى، وأكلَ فأفنى. ولِعظَمِ فائدةِ إنفاقِ الأجوَدِ الأحبِّ، وقبحِ إنفاقِ الرديءِ الأخسِّ، قال اللهُ تعالى: ﴿أنفِقُوا مِن طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلاّ أنْ تُغمِضُوا فِيهِ﴾[1]. أي لا تأخذُونَه إلّا مع كراهيةٍ وحياءٍ، وهو معنى الإغماضِ. وما هذا شأنُه عندكم فلا تُؤثِروا بهِ ربَّكم. وقال سبحانه: ﴿لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتىٰ تُنفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ﴾[2]. وقال: ﴿وَيجعَلونَ للّهِ مايَكرَهُونَ﴾[3]. وفي الخبرِ: «سَبَقَ دِرهمٌ مائةَ ألفِ درهمٍ»[4]. وذلكَ بأن يخرجَهُ الإنسانُ وهو من أحلِّ مالِه وأجودِهِ، فيصدرُ ذلك عن الرضىٰ والفرحِ بالبذلِ، وقد يُخرِج مائةَ ألفِ درهمٍ ممّا يكرَهُ من مالِه، فَيَدُلُّ على أنّه ليس يُؤثِرُ اللهَ بشيءٍ ممّا يحبُّه.

وممّا ينبغي له أن يُغنيَ الفقيرَ إذا قدرَ، ففي الخبرِ: «إذا أعطيتَه فأغْنِهْ»[5]، وأن يُقَبِّلَ يدهَ بعدَ الإعطاءِ، لأنّه يقعُ في يدِ الله تعالى أوّلاً. قال أميرُ المؤمنينَ عليه السلام: «إذا ناولتُم السائلَ فليردَّ الذي ناولَه يدَه إلى فيه فيقبّلها؛ فإنّ الله عزّ وجل يأخذُ الصدقاتِ»[6]. وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «ما تقعُ صدقةُ المؤمنِ في يدِ السائلِ حتّى تقعَ في يدِ اللهِ»، ثمّ تلا هذهِ الآيةَ: ﴿أَلَمْ يَعلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَن عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ﴾[7].[8] وأن يلتمسَ الدعاءَ من الفقيرِ؛ لأنّ دعاءَه يُستَجابُ فيه، كما روي: «أنّ عليَّ بنَ الحسينِ عليه السلام كان يقولُ للخادمِ: أمسِك قَليلاً حتّى يَدعُوَ، فإنّ دعوةَ

---

١. البقرة (٢): ٢٦٧.

٢. آل عمران (٣): ٩٢.

٣. النحل (١٦): ٦٢.

٤. إحياء علوم الدين، ج ١، ص٢١٨.

٥. الكافي، ج٣، ص ٥٤٨، باب أقلّ ما يعطى من الزكاة وأكثر، ح٣.

٦. بحار الأنوار، ج٩٦، ص١٣٤، باب فضل الصدقة وأنواعها وآدابها، ذيل الحديث ٦٨.

٧. التوبة (٩): ١٠٤.

٨. بحار الأنوار، ج٩٦، ص١٣٤، باب فضل الصدقة وأنواعها وآدابها، ذيل الحديث ٦٨.

السائلِ الفقيرِ لا تُرَدّ»[١]. وأنّه عليه السلام كان يأمرُ الخـادِمَ إذا أعطَى السـائلَ، أن يأمُـرَهُ أن يـدعُوَ بالخيرِ[٢]. وعن أحدِهما عليهما السلام: «إذا أعطيتُمُوهم فَلَقِّنُوهم الدعاءَ، فإنّه يُستجاب لَهـم فـيكم، ولا يستجابُ لهم في أنفسِهم»[٣].

وممّـا ينبغي له أيضاً أن يَصرِفَ الصدقاتِ إلى من يَكثُرُ بـإعطائِه الأجـرُ، كأهـلِ الورعِ والعلمِ، وأربابِ التقوى والصدقِ، والكاملينَ في الإيمانِ والتشيُّعِ. قـال رسـولُ اللـه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يأكلْ طعامَكَ إلّا تقيٌّ»[٤]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أطعِمُوا طعامَكم الأتقياءَ»[٥]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أضِف بطعامِك من تحبُّه في الله»[٦]. ومن أهلِ المزيّةِ والاختصاصِ بالبذلِ إليه، من كان مستتراً ساتراً للحاجةِ، كائناً من أهلِ المروءةِ، مُتَغَشِّياً في جلبابِ التجمُّلِ، محصوراً في سبيلِ اللهِ، محبوساً في طريقِ الآخرةِ بَعيلةٍ أو مرضٍ أو ضيقِ معيشةٍ أو إصلاحِ قلبٍ أو سببٍ آخرَ من الأسـبابِ. والأولى من الكلِّ الأقاربُ وأُولو الأرحامِ من أهلِ الاحتياجِ، فإنّ الإنـفاقَ عـليهم صـدقةٌ وَصِلةٌ. وفي صِلَةِ الرحمِ من الثوابِ ما لا يخفى. قال أميرُ المؤمنين عليه السلام:

لأن أصِلَ أخاً من إخواني بدرهمٍ، أحبُّ إليّ من أن أتصدّقَ بعشرينَ درهماً، ولأن أصِلَه بعشرين درهماً أحبُّ إلي من أن أتَصَدَّقَ بمائةِ درهمٍ، ولأن أصِلَهُ بمائةِ درهمٍ أحبُّ إليّ من أن أُعتِقَ رَقبةً.

وفي خبرٍ آخر: «لا صدقةَ وذو رحمٍ محتاجٌ،[٧] الصدقةُ بعشرةٍ والقرضُ بثمانيةَ عشرَ، وصلةُ الإخوانِ بعشرينَ، وصلةُ الرحمِ بأربـعةٍ وعـشرينَ»[٨]. وفي الخـبر: «إنّ أفـضلَ الصـدقاتِ

---

١. بحار الأنوار، ج٩٦، ص١٣٣ ـ ١٣٤، باب فضل الصدقة وأنواعها وآدابها، ح٦٨.
٢. بحار الأنوار، ج٩٦، ص١٣٤، باب فضل الصدقة وأنواعها وآدابها، ح٦٨.
٣. بحار الأنوار، ج٩٦، ص١٣٤، باب فضل الصدقة وأنواعها وآدابها، ذيل الحديث ٦٨.
٤. بحار الأنوار، ج٧٧، ص٨٤، باب مواعظ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ح٣.
٥. إحياء علوم الدين، ج١، ص٢١٩.
٦. بحار الأنوار، ج٧٥، ص٤٥٢، باب آداب الضيف، ح٩.
٧. الفقيه، ج٢، ص٣٨، ح١٦٦، باب فضل الصدقة، ح١٣.
٨. الكافي، ج٤، ص١٠، باب الصدقة على القرابة، ح٣.

والصِلاتِ الإنفاقُ على ذي الرحمِ الكاشحِ».[١] يعني المُبغِضَ، وكأنّه لمخالفةِ الهوى وصدورِهِ عن الخُلوصِ والتَقوى.

الأمر الرابع: ما ينبغي للفقراء في أخذِ الصدقةِ

ينبغي للفقيرِ الآخذِ أن يعلمَ أنّ الله تعالى أوجبَ صرفَ المالَ إليه ليكفِيَ مهمَّتَهُ، فيتَجرَّدَ للعبادةِ والاستعدادِ للموتِ، فينبغي أن يتأهَّبَ لذلك ولا تصرِفَه عنه فضولُ الدنيا، ويشكرَ اللهَ على ذلك، ويشكرَ المُعطِي، فيدعو له ويثني عليه مع رؤيةِ النعمةِ من اللهِ سبحانه[٢]. قال رسولُ الله ﷺ: «من لم يشكُرِ الناسَ لم يشكرِ اللهَ». وقال الصادقُ عليه السلام: «لعن الله قاطِعي سبيلَ المعروفِ. قيل: وما قاطِعُوا سبلَ المعروفِ؟ قال: الرجلُ يُصنَعُ إليه المعروفُ فيكفُره. فيمنَع صاحِبَه من أن يصنعَ ذلك إلى غيرِه»[٣]. وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «من صَنَع بمثلِ ماصُنِع إليه فإنّما كافأَهُ، ومن ضَعَّفَه كان شكوراً، ومن شَكر كان كَريماً»[٤].

وينبغي له أيضاً أن يسترَ عيوبَ صاحبِ العطاءِ ولا يذمَّه ولا يُحقِّرَهُ، ولا يُعيِّرَهُ بالمنعِ إذا منعَ، ويُفخِّمَ عندَ نفسِه وعندَ الناسِ إعطاءَهُ، بحيثُ لا يُخرِجُه عن كونه واسطةً، لئلّا يكون مشركاً. وأن يتوقّى مواقعَ الحرمةِ والريبةِ والشبهةِ في أصلِه ومقدارِه، فلا يأخذُ ممّن لا يَحِلُّ مالُه أو يُشتبَه، كعمّالِ السلاطينِ والجنودِ ومن أكثرُ كسبِه من الحرامِ، ولا الزيادةَ على قدرِ الحاجةِ، ولا يسألُ على رؤوسِ الملأ ممّن يستحي من الردِّ. وأن يتورَّعَ العالمُ والمتّقي من أخذِ الزكاةِ والصدقاتِ مالم يضطرّ إليها، تنزيهاً لنفسِه عن الأوساخِ. وأن يسترَ الأخذَ بنيّةِ أنّه أبقى لسترِ المروءةِ والتعفُّفِ، وأصوَنُ لنفسِه عن الإهانةِ والإذلالِ، وأعونُ للمعطي على الإخفاءِ والإسرارِ، وأسلَمُ لقلوبِ الناسِ من الحسدِ وسوءِ الظنِّ، أو يظهره بنيّةِ الإخلاصِ والصدقِ، وإظهارِ المَسْكَنَةِ والعبوديّةِ، والتَبرُّءِ عن الكبرِ، وتلبيسِ الحالِ

---

١. الكافي، ج ٤، ص ١٠، باب الصدقة على القرابة، ح ٢.
٢. إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٢٢٣.
٣. الكافي، ج ٤، ص ٣٣، باب من كفر المعروف، ح ١.
٤. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٢، باب المكافاة على الصنائع، ح ٤.

وإقامة سُنَّةِ الشكرِ أو غيرِ ذلك. فإنّه يختلفُ باختلافِ النيّاتِ والأشخاصِ والأحوالِ، ولكلّ امرئٍ ما نوى[١]، وكلُّ مراقبٍ للأحوالِ عارفٍ بالفوائِدِ والمفاسِد، يُمكِنُه الأخذُ بالأنفعِ الأرجحِ.

الأمر الخامس: ما ينبغي في الإنفاقِ على العيالِ

ينبغي لطالبِ الأجرِ والثوابِ في إنفاقِ العيالِ أن يَقصدَ في كَدِّهِ وسعيه في تحصيلِ النفقةِ وفي إنفاقِه وجهَ اللهِ وثوابَ الآخرةِ، إذ لا ثوابَ بدونِ القُربةِ. وأن يجتنِبَ عن تحصيلِ الحرامِ والشُبهةِ، ولا يدخلَ على عيالِه إلّا الحلالَ، إذ أخذُ الحرامِ وإنفاقُهُ أعظمُ الذنوبِ وأشدّ المعاصي. وأن يقصدَ في التحصيلِ والإنفاقِ، فليَحْتَرِزْ عن الإقتارِ لئلّا يضيعَ عيالُه، وعن الإسرافِ لئلّا يضيعَ عُمُرُه في طلبِ المالِ، فيكُون من الخاسِرين الهالكين. قال الله سبحانه: ﴿وَكُلوا وَاشرَبوا وَلا تُسرِفوا﴾[٢]، وقال: ﴿وَلا تجعَلْ يَدَكَ مَغلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلا تَبسُطها كُلَّ البَسطِ﴾[٣]، وقال: ﴿وَالّذينَ إذا أنفَقوا لَم يُسرِفوا وَلَمْ يَقتُروا وَكانَ بَينَ ذٰلِكَ قَواماً﴾[٤].

الأمر السادس: الإنفاقات المستحبّةُ الداخلةُ تحت السخاءِ

الأوّل: صدقةُ التطوُّعِ

وفضلُها عظيمٌ، وفوائدُها الدنيويّةُ والأُخرويّةُ كثيرةٌ. قال رسولُ الله ﷺ: «تَصَدَّقُوا ولو بتَمرةٍ، فإنّها تَسُدُّ من الجائعِ، وتُطفِىءُ الخطيئةَ كما يُطفِئُ الماءُ النارَ». وقال ﷺ: «لا تقطَعُوا على السائلِ مسألتَهُ، فلولا أنّ المساكينَ يكذِبونَ ما أفلحَ من رَدَّهم»[٥]. وقال الباقرُ عليه السلام: «البِرُّ والصدقةُ ينفيانِ الفقرَ، ويزيدانِ في العمرِ، ويدفعانِ عن صاحبِهما سبعينَ ميتةِ

---

١. تهذيب الأحكام، ج٤، ص١٨٦، باب نيّة الصوم، ح٥١٩؛ منية المريد، ص١٣٣.
٢. الأعراف (٧): ٣١.
٣. الإسراء (١٧): ٢٩.
٤. الفرقان (٢٥): ٦٧.
٥. المحجّة البيضاء، ج٢، ص ١١٠.

سوءٍ»[١]. وقال الصادق عليه السلام:

داووا مرضاكم بالصدقةِ، وادفعُوا البلاءَ بالدعاءِ، واستَنْزِلُوا الرزقَ بالصدقةِ، فإنّها تفكُّ من بينِ لَـحيِّ سبعمائةِ شيطانٍ. وليس شيءٌ أثقلَ على الشيطانِ من الصدقةِ على المؤمنِ، وهي تقعُ في يدِ الربِّ تعالى قبل أن تقعَ في يدِ العبدِ[٢].

الثاني: الهديّةُ

وهي ما يُعطِي ويُرسِلُ إلى أخيهِ المسلمِ، فقيراً كان أم غنيّاً، طلباً للاستئْناسِ، وتأكيداً للصُحبةِ والتودُّدِ. وهو مندوبٌ إليه من الشرعِ، ومع سلامةِ القصدِ والنيّةِ يكونُ عبادةً. قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «تحابوا تهادوا، فإنّها تَذهَبُ بالضَغائنِ»[٣]. وقال صلى الله عليه وآله: «لو أُهدِي إليَّ ذراعٌ لَقَبِلْتُ»[٤]. وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «لأن أُهدي لأخي المسلمِ هديَّةً أحبُّ إليّ من أن أتصدَّقَ بمثلِها»[٥]. وقال عليه السلام: «من تكرِمَةِ الرجلِ لأخيهِ المسلمِ، أن يقبلَ تُحفَتَهُ وأن يُتحِفَه بما عندهَ، ولا يتكلّف له شيئاً».[٦]

الثالث: الضيافة

وثوابُها جزيلٌ، وأجرُها جميلٌ، وفضلُها عظيمٌ، وثمَرُها جسيمٌ. قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «لا خيرَ فيمن لا يُضِيفُ»[٧]. ومرّ صلى الله عليه وآله برجلٍ له إبلٌ وبقرٌ كثيرٌ فلم يُضَيِّفْهُ، ومرّ بامرأةٍ لها شُوَيهاتٌ فَذَبَحَتْ له، فقال صلى الله عليه وآله: «انظروا إليهما، فإنّما هذه الأخلاقُ بيدِ اللهِ عزّ وجلّ، فمن شاء أن يمنحَه خُلُقاً حَسَناً فَعَل»[٨]. وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام:

ما من مؤمنٍ يحبُّ الضيفَ إلّا ويقومُ من قبرِه ووجهُه كالقمرِ ليلةَ البدرِ، فينظر أهلُ

---

١. المحجّة البيضاء، ج٢، ص ١٠٩.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٢، ص ١٠٩.
٣. الكافي، ج ٥، ص ١٤٤، باب الهديّة، ج ١٤، وفيه: «تهادّوا وتحابّوا، تهادّوا فإنّها».
٤. المحجّة البيضاء، ج٣، ص ٣٤.
٥. الكافي، ج ٥، ص ١٤٤، باب الهديّة، ح ١٢.
٦. الكافي، ج ٥، ص ١٤٣، باب الهديّة، ح٨.
٧. المحجّة البيضاء، ج٣، ص ٣٢.
٨. المحجّة البيضاء، ج٣، ص ٣٢.

الجمعِ فيقولون: ماهذا إلّا نبيٌّ مرسَلٌ! فيقول مَلَكٌ: هذا مؤمنٌ يحبُّ الضيفَ ويُكرِمُ الضيفَ، ولا سبيلَ له إلّا أن يَدخُلَ الجنَّة [١].

وقال عليه السلام: «ما من مؤمنٍ يسمَع بهمسِ الضيفِ وفَرِح بذلك، إلّا غُفِرَت له خطاياه، وإن كانت مُطَبِّقَةً بينَ السماءِ والأرضِ» [٢]. وعن محمّد بنِ قيسٍ، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

ذكر أصحابُنا قوماً، فقلت: والله ما أتَغَدَّى ولا أتَعَشَّى إلّا ومعي منهم اثنانِ أو ثلاثةٌ أو أقلّ أو أكثر، فقال عليه السلام: «فضلُهم عليك أكثرُ من فضلِكَ عليهم». قلت: جُعِلت فداكَ، كيف ذا وأنا أُطعِمُهم طعامي، وأُنفِقُ عليهم من مالي، ويَخدُمُهم خادِمي؟ فقال: «إذا دخلُوا عليك دخلُوا من اللهِ بالرزقِ الكثيرِ، وإذا خرجُوا خرجُوا بالمغفرةِ لك» [٣].

وكان إبراهيمُ الخليلُ عليه السلام إذا أراد أن يأكلَ خرجَ ميلاً أو ميلين يلتمِسُ من يَتَغَدَّى معه، وكان يكنّى أبا الضِيفانِ [٤]. وجميعُ الأخبارِ الواردةِ في فضيلةِ إطعامِ المؤمنِ وشبعه تَدُلُّ على فضيلةِ الضيافةِ،كقوله صلى الله عليه وآله وسلم بعد سؤالِه عن الحجِّ المبرورِ: «هو إطعامُ الطعامِ وطِيبُ الكلامِ» [٥]. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أطعمَ ثلاثةَ نفرٍ من المسلمينَ أطعَمَهُ اللهُ من ثلاثِ جنانٍ في ملكوتِ السماواتِ: الفردوسِ، وجنّةِ عدنٍ، وطوبى شجرة تخرجُ في جنّةِ عدنٍ غَرَسَها رَبُّنا بيدِه» [٦]. وقول الصادق عليه السلام: «من أشبعَ مؤمناً وَجَبَت له الجنّةُ» [٧]. وقوله عليه السلام: «من أطعَمَ مؤمناً حتّى يُشبِعَه، لم يدرِ أحدٌ من خلقِ اللهِ مالَه من الأجرِ في الآخرةِ، لا مَلَكٌ مقرّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ، إلّا اللهُ ربُّ العالمين» [٨]. وسُئل صلى الله عليه وآله وسلم: «ما الإيمانُ؟ فقال: إطعامُ الطعامِ، وبذلُ السلامِ» [٩]. وقال:

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٦١، باب فضل إقراء الضيف وإكرامه، ذيل الحديث ١٤.
٢. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٦٠، باب فضل إقراء الضيف وإكرامه، ذيل الحديث ١٤.
٣. الكافي، ج ٦، ص ٢٨٤، باب أنّ الضيف يأتي رزقه، ح ٤.
٤. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٣٢.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٣٣.
٦. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١، باب إطعام المؤمن، ح ٣.
٧. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٠، باب إطعام المؤمن، ح ١.
٨. الكافي، ج ٢، ص ٢٠١، باب إطعام المؤمن، ح ٦.
٩. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٣٢.

إنّ في الجنّةِ غُرَفاً يُرى ظاهِرُها من باطِنها، وباطنُها من ظاهِرِها، يسكنُها من أُمّتي من أطابَ الكلامَ، وأطعَمَ الطعامَ، وأفشى السلامَ، وصلّى بالليلِ والناسُ نيامٌ[١].

وقال: «من أحبِّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى: إشباعُ جَوعَةِ المؤمنِ، وتنفيسُ كُربَتِه، وقضاءُ دَينِه»[٢].

تنبيه: ينبغي لكلِّ مؤمنٍ أن يُجيبَ دعوةَ أخيهِ إلى الضيافةِ، من غيرِ أن يُفرِّقَ بينَ الغنيِّ والفقيرِ، بل يكونُ أسرعَ إجابةً إلى دعوةِ الفقيرِ، وألّا يمنَعَهُ بعدُ المسافةِ عن الإجابةِ إذا أمكن احتمالُها عادةً. قال رسولُ الله ﷺ:

أُوصي الشاهِدَ من أُمّتي والغائبَ أن يُجيبَ دعوةَ المسلمِ ولو على خمسةِ أميالٍ[٣]، ولا يمنعهُ صومُ التطوُّعِ عن الإجابةِ، بل يحضُرُ، فإن عَلِمَ سرورَ أخيه بالإفطارِ فليُفطِرْ ويحتسبْ في إفطارِه أفضلَ ما يحتسبُ في صومِه.

وقال الصادق عليه السلام: «من دخل على أخيهِ وهو صائمٌ فأفطرَ عندَه ولم يُعلِمْهُ بصومٍ فيَمُنَّ عليه، كتب اللهُ له صومَ سنةٍ[٤]، وإن عَلِم أنّه متكلّف ولا يُسَرُّ بإفطارِه فَليَتَعَلَّلْ».

وينبغي ألّا يقصدَ بالإجابةِ قضاءَ شهوةِ البطنِ، لِيُدخِلَ عَمَله في أُمورِ الدنيا، بل ينوي الاقتداءَ بسنّةِ رسولِ الله ﷺ وإكرامِ أخيه المؤمنِ، ليكونَ في عملِه مُطيعاً للّهِ مثاباً في الآخرةِ، وأن يحترزَ عن الإجابةِ إذا كان الداعي من الظَلَمةِ أو الفُسّاقِ، أو كانت ضيافتُه للفخرِ والمباهاةِ، ومن كان طعامُه حراماً أو شبهةً، أو لم يكن موضعُه أو بساطُه المفروشُ حلالاً، أو كان في الموضِعِ شيءٌ من المنكراتِ كإناءِ فضّةٍ، أو تصويرِ حيوانٍ على سقفٍ أو حائطٍ، أو أحدِ آلاتِ اللهو من المزاميرِ وأمثالِها، أو التشاغلِ بشيءٍ من اللهوِ واللعبِ والهزلِ، فكلُّ ذلك ممّا يمنَعُ الإجابة، ويُوجِبُ تحريمَها أو كراهيَتَها. قال الصادقُ عليه السلام: «لا ينبغي للمؤمنِ أن يجلِس مجلساً يُعصَى اللهُ تعالى فيه ولا يَقدِرُ على تغييرِه»[٥] ومن ابتُلِيَ بحضورِ طعامِ ظالمٍ إكراهاً وتقيّةً،

---

١. بحار الأنوار، ج٨، ص١١٨ ـ ١١٩، باب الجنّة ونعيمها، ح ٥.

٢. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٦٠، باب إطعام المؤمن، ح ٢.

٣. الكافي، ج٦، ص٢٧٤، باب إجابة دعوة المسلم، ح ٤.

٤. الكافي، ج٦، ص ١٥٠، باب فضل إفطار الرجل عند أخيه إذا سأله، ح٣.

٥. الكافي، ج ٢، ص٣٧٤، باب مجالسة أهل المعاصي، ح ١.

فَليُقَلِّل الأكلَ، ولا يأكُلْ أطايِبَ الأطعِمَةِ.

وينبغي للضيفِ أيضاً إذا دخل الدارَ ألّا يَتَصَدَّرَ، ولا يقصدَ أحسنَ الأماكنِ، بل يَتواضَعَ ويرضى بالدُونِ من المجلسِ، وإن أشارَ إليه صاحبُ الدارِ بموضعٍ فلا يُخالِفْه ويَجلِسْ فيه، وإن أشار إليه بعضُ الضيفانِ بالارتفاعِ أو الانحطاطِ، وألّا يجلسَ في مقابلةِ بابِ حُجرةِ النسوانِ، ولا يكثرَ النظرَ إلى الموضعِ الذي يُخرَجُ منه الطعامُ، فإنّه دليلُ الشَرَهِ وخِسَّةِ النفسِ،وأن يَخُصَّ بالتحيّةِ والسلامِ أوّلاً من يَقرُبُ منه. وينبغي لمن دُعِيَ إلى الضيافةِ ألّا يُطَوِّل الانتظارَ عليهم، ولا يُعَجِّلَ بحيثُ يُفاجِئُهم قبلَ تمامِ الاستعدادِ.

الرابع: مايُبذَلُ لوقايةِ العِرضِ والنفسِ

إنّ السَخيَّ لا يُقَصِّر في شيءٍ من ذلك، والبخيلَ ربّما منعَ بُخْلُه عن ذلك، فَـيَهتِكُ عِـرضَه ويُذهِبُ حُرمَتَه. وفي بعض الأخبارِ دلالةٌ على أنّ البذلَ لذلك صدقةٌ. وما وَقَى المرءُ به عِرضَهُ فهو له صدقةٌ، وكذا بذلُ ما تقتضِيه المُروءةُ والعادةُ من ثمراتِ الجودِ والسخاءِ، ومن مَنَعَهُ كان بخيلاً.

الأمر السابع: الفرقُ بين الإنفاقِ والبِرِّ والمعروفِ

اعلم أنّ لفظَ الإنفاقِ والمعروفِ والبِرِّ يـتناوَلُ جمـيعَ مـاتقدَّمَ مـن الإنـفاقاتِ الواجـبةِ والمستحبّةِ. والفرقُ بينَهما: أنّ الإنفاقَ خاصٌّ بالمالِ.

والمعروفَ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ماعُرِف من طاعةِ اللهِ والتقرُّبِ إليهِ والإحسـانِ إلى النـاسِ، وكلِّ مانَدَبَ إليه الشرعُ من فعلٍ وتركٍ، والغالبُ في الأخبارِ إرادةُ مايتعلَّق بالمالِ من معانيه.

والبِرّ كالمعروفِ في شُمولِه لجميعِ أعمالِ الخـيرِ في الأصـلِ، وانـصرافُ إطـلاقِهِ غـالباً في الأخبارِ إلى مايتعلّقُ بالمالِ من وجوهِ الإنفاقاتِ المتقدِّمةِ بأسرِها، وربّمـا خُـصَّ بمـا سـوى الصدقة منها، لما تقدّم: أنّ «البرّ والصدقةَ يَنفِيانِ الفقرَ ويزيدانِ في العمرِ». والظاهرُ أنّ مـبنى الخبرِ على ذكرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ، فلا وجهَ للتخصيصِ.

ثمّ الصدقةُ تتناولُ جميعَ ماتقدّمَ من وجوهِ الإنفاقِ، سوى المروءةِ.

النوع السادس: طلبُ الحرام

ولا ريبَ في كونه مترتِّباً على حبِّ الدنيا والحرصِ عليها، وهو أعظمُ المُهلِكاتِ، به هلكَ أكثرُ من هَلَكَ، وجُلُّ الناسِ حُرِمُوا عن السعادةِ لأجلِه، ومُنِعُوا عن توفيقِ الوصولِ إلى اللهِ بسببِه. ومن تأمّلَ يَعلمُ أنّ أكلَ الحرامِ أعظمُ الحُجُبِ للعبدِ من نَيلِ دَرجةِ الأبرارِ، وأقوى الموانعِ له عن الوصولِ إلى عالمِ الأنوارِ. وهو مُوجِبٌ لِظُلمةِ القلبِ وكُدرتِهِ، وهو الباعِثُ لِخُبْثِهِ وغَفْلَتِه. هو العِلّةُ العظمى لخُسرانِ النفسِ وهلاكِها، وهو السببُ الأقوى لِضَلالتِها وخَباثَتِها، هو الذي أنساها عهودَ الحِمى، وهو الذي أهواها في مهاوِي الضلالةِ والردى. وما للقلبِ المتكوِّنِ من الحرامِ والاستعدادَ لفيوضاتِ عالمِ القدسِ! وأنّى للنطفةِ الحاصلةِ منه والوصولَ إلى مراتبِ الأُنسِ! وكيف يدخلُ النورُ والضياءُ في قلبٍ أظلَمَتْهُ أدْخِنَةُ المحرَّماتِ؟! وكيف تَحصُلُ الطهارةُ والصفاءُ لنفسٍ أَخْبَثَتْها قذاراتُ المُشتبهاتِ؟!

ولأمرٍ ما حذّر عنه أصحابُ الشرعِ وأُمناءُ الوحيِ غايةَ التحذيرِ، وزَجرُوا منه أشدَّ الزجرِ. قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ للّهِ ملكاً على بيتِ المقدسِ ينادِي كلَّ ليلةٍ: من أكل حراماً لم يُقبَل منه صَرفٌ ولا عَدلٌ»[1]: أي لا نافلةٌ ولا فريضةٌ. وقال ﷺ: «من لم يبالِ من أين اكتسبَ المالَ، لم يبالِ اللهُ من أينَ أدخَلَهُ النارَ»[2]. وقال ﷺ: «إنّ أخوفَ ما أخافُ على أُمّتي

---

١. إحياء علوم الدين، ج٢، ص٨٩.

٢. إحياء علوم الدين، ج٢، ص٩٠.

من بعدِي هذهِ المكاسبُ الحرامُ، والشهوةُ الخفيّةُ، والربا»[١]. وقال ﷺ: «من اكتسبَ مالاً من الحرامِ، فإن تصدَّقَ بهِ لم يُقبَل منه، وإن تركَه وراءَه كان زادَهُ إلى النارِ»[٢]. وقال الصادق عليه السلام: «إذا اكتسبَ الرجلُ مالاً من غيرِ حلِّه، ثمّ حجّ فلبّى نودي: لا لبّيْكَ ولا سَعْدَيكَ! وإن كان من حلِّه نودي: لَبّيكَ وسَعدَيك!»[٣]. وقال عليه السلام: «كسبُ الحرامِ يَبِينُ في الذريّةِ»[٤]. وقال عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنا إلى ماعَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعلناهُ هباءً مَنثُوراً﴾[٥]. «إن كانت أعمالُهم أشدَّ بياضاً من القَباطِيّ، فيقولُ الله عزّ وجلّ لها: كُوني هَباءً. وذلك أنّهم كانوا إذا شرع لهم الحرامُ أخذُوه»[٦]. وقال الكاظم عليه السلام: «إنّ الحرامَ لا ينمي، وإن نَمىٰ لم يبارَك فيهِ، وإن أنفقَهُ لم يُؤجَر عليهِ، وما خلّفه كان زادَه إلى النارِ»[٧].

وهاهنا بحوثٌ:

البحث الأوّل: عِزّةُ تحصيلِ الحلالِ

ينبغي لطالبِ النجاةِ أن يفرَّ من الحرامِ فرارَهُ من الأسدِ، ويَحتَرِزَ منه احترازَه من الحيّةِ السوداءِ، بل أشدّ. وأنّى يمكنهُ ذلك في أمثالِ زمانِنا الذي لم يبقَ فيه من الحلالِ إلّا الماءُ الفراتُ والحشيشُ النابتُ في أرضِ المواتِ، وما عداهُ قد أَخبَثَتْهُ الأيدي العادِيَةُ، وأَفسدَتْهُ المعاملاتُ الفاسِدَةُ! مامن درهمٍ إلّا وقد غُصِبَ من أهله مَرَّةً بعدَ أُولى، وما مِن دينارٍ إلّا وقد خرجَ من أيدِي من أخذَه قَهراً كَرَّةً غِبَّ أُولى، جُلُّ المياهِ والأراضي من أهلِها مغصوبةٌ، وأنّى يمكنُ القطعُ بحلّيّةِ الأقواتِ وأكثرُ المواشي والحيواناتِ من أهلِها مَنهوبَةٌ، فأنّى يتأتّى الجزمُ بحِلّيّةِ اللحومِ والألبانِ والدُسومِ! فهيهاتَ ذلك هيهاتَ! مامن تاجرٍ إلّا ومعاملَتُه مع الظالمين، وما من ذي

---

١. الكافي، ج ٥، ص ١١٤، باب المكاسب الحرام، ح ١.
٢. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٩٠.
٣. الكافي، ج ٥، ص ١٢٤، باب المكاسب الحرام، ح ٣.
٤. الكافي، ج ٥، ص ١٢٤، باب المكاسب الحرام، ح ٤.
٥. الفرقان (٢٥): ٢٣.
٦. الكافي، ج ٥، ص ١٢٦، باب المكاسب الحرام، ح ١٠.
٧. الكافي، ج ٥، ص ١٢٥، باب المكاسب الحرام، ح ٧.

عملٍ إلّا وهو مخالِطٌ للجائرين من عمّالِ السلاطينِ.

وبالجملةِ، الحلالُ في أمثالِ زمانِنا مفقودٌ، والسبيلُ دونَ الوصولِ إليه مسدودٌ. ولَعَمري، إنَّ فقدَه آفةٌ عمَّ في الدين ضَرَرُها، ونارٌ استطارَ في الخلقِ شَرَرُها. والظاهرُ أنَّ أكثرَ الأعصارِ كان حالُها كذلك. ولذلك قال الإمامُ جعفرُ بن محمّدٍ الصادقُ عليه السلام: «المؤمنُ يأكُلُ في الدنيا بمنزلةِ المُضْطَرِّ».[١] وقال رجلٌ للكاظمِ عليه السلام: «ادعُ اللهَ عزّوجلّ أن يرزقَني الحلالَ، فقال: أتدري ما الحلالُ؟ قال: الكسبُ الطيِّبُ. فقال: كان عليُّ بنُ الحسينِ عليهما السلام يقول: الحلالُ قوتُ المُصْطَفَين ولكن قل: أسألُكَ من رزقِكَ الواسِعِ».[٢] ومع ذلك كلّه لا ينبغي للمؤمنِ أن ييأسَ من تحصيلِ الحلالِ، ويتركَ الفرقَ والفصلَ بينَ الأموالِ، فإنّ اللهَ سبحانَه أجلُّ وأعظمُ من أن يُكلِّفَ عبادَهُ بأكلِ الحلالِ وَيُسدَّ عنهم طريقَ تحصِيلِه.

البحث الثاني: أنواعُ الأموالِ

اعلَم أنّ الأموالَ على أقسامٍ ثلاثةٍ: حلالٍ بَيِّنٍ، وحَرام بَيِّنٍ، وشُبُهاتٍ بَينَهما. ولكلٍّ منها دَرجاتٌ، فإنّ الحرامَ وإن كان كلُّه خبيثاً إلّا أنّ بعضَه أخبثُ من بعضٍ، فإنّ ما يُؤخَذُ بالمعاملةِ الفاسِدَةِ مع التراضِي ليس في الحُرمةِ كمالِ اليتيمِ الذي يُؤخَذُ قَهراً. وكذا الحلالُ وإن كان كلُّه طيِّباً إلّا أنّ بعضَه أطيبُ من بعضٍ. والشبهةُ كلُّها مكروهةٌ ولكنّ بعضَها أشدُّ كراهةً من بعضٍ. وكما أنّ الطبيبَ يحكُم على كلِّ حلوٍ بالحرارةِ، ولكن يقولُ بعضُه حارٌّ في الدرجةِ الأُولى، وبعضُه في الثانيةِ، وبعضُه في الثالثةِ، وبعضُه في الرابعةِ، فكذلك الحرامُ بعضُه خبيثٌ في الدرجة الأُولى، وبعضُه في الثانية، وبعضُه في الثالثةِ، وبعضُه في الرابعةِ. وكذلك درجاتُ الحلالِ في الصفاءِ والطِيبةِ، ودرجاتُ الشُبهةِ في الكراهةِ.

ثمّ الحرامُ إمّا يحرُمُ لِعَينِه كالكلبِ والخنزيرِ والترابِ وغيرِها من المحرّماتِ العينيّةِ، أو لصفةٍ حادثةٍ فيه كالخمرِ لإسكارِه، والطعامِ المسمومِ لِسمّيّتِه، أو لِخَلَلٍ في جهةِ إثباتِ اليدِ عليه. وله

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٣٣، آفات النكاح.

٢. الكافي، ج ٥، ص ٨٩، باب الكسب الحلال، ح ١.

أقسامٌ غيرُ محصورَةٍ، كالمأخوذِ بالظلمِ والقهرِ والغصبِ والسرقةِ والخيانةِ في الأمانةِ وغيرِها، والغشِّ والتلبِيس والرشوةِ، وبالبخسِ في الوزنِ والكيلِ، وبإحدى المعاملاتِ الفاسدةِ، من الربا والصرفِ والاحتكارِ، وغيرِ ذلك ممّا هو مذكورٌ في كتب الفقهِ.

البحث الثالث: الفرقُ بين الرشوةِ والهديّةِ

وربّما يُتوهَّمُ الاشتباهُ في بعضِ الموارِدِ بينَ الرشوةِ والهديّةِ، فَلْنُشِرْ إلى جَلِيَّةِ الحالِ فيهما، فنقول: هاهنا صُوَرٌ:

الأُولى: أن يُسلِمَ أو يرسِلَ مالاً إلى بعضِ الإخوانِ طلباً للاستِئْناسِ، وتأكيداً للصُحبةِ والتَودُّدِ. وقد عرفتَ كونَه هديّةً وحلالاً، سواء قصدَ به الثوابَ في الآخرةِ والتقرُّبَ إلى الله تعالى أيضاً، أولم يقصِد به الثوابَ، بل قصد مُجَرَّدَ الاستئناسِ والتودُّدِ.

الثانية: أن يقصِدَ بالبذلِ عوضاً ماليّاً معيّناً في العاجلِ، كأن يُهدِي الفقيرُ إلى الغنيِّ أو الغنيُّ إلى الغنيّ شيئاً طمعاً في عوضٍ أكثر أو مساوٍ من مالِه. وهذا أيضاً نوعُ هديّةٍ، وحقيقتُه ترجعُ إلى هِبَةٍ بشرطِ العِوَضِ، وإذا وَفَى بما يَطمَعُ فيه من العِوَضِ فلا ريبَ في حِلِّيّتِه. قال الصادقُ عليه السلام:

الربا رباءان: ربا يُؤكَلُ، وربا لا يُؤكَلُ. فأمّا الذي يُؤكَلُ فهديّتُكَ إلى الرجلِ تطلُبُ منه الثوابَ أفضلَ منها، فذٰلك الربا الذي يُؤكَلُ وهو قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا أَتَيتُمْ مِنْ رباً لِيَربوا في أموالِ النَّاسِ فَلا يَربوا عِنْدَ اللهِ﴾[1]. وأمّا الذي لا يُؤكَلُ فهو الذي نَهى الله عزَّ وجلَّ عنه، وأوعدَ عليه النارَ»[2].

وعنه عليه السلام: «قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: الهديّةُ على ثلاثةِ وجوهٍ: هديّةُ مكافأةٍ، وهديّةُ مُصانَعةٍ، وهديّةٌ للّهِ عزّ وجلّ»[3].

وفي بعضِ الأخبارِ نوعُ إشعارٍ بالحلِّ، وإن لم يتحقّق الوفاءُ بما يَطمَعُ فيه من العِوض، كخبرِ

---

١. الروم (٣٠): ٣٩.

٢. الكافي، ج ٥، ص ١٤٥ ـ ١٤٦، باب الربا، ح ٦.

٣. الكافي، ج ٥، ص ١٤١، باب الهديّة، ح ١.

إسحاقَ بنِ عمّارٍ عن الصادقِ عليه السلام قال:

قلتُ له عليه السلام: الرجلُ الفقيرُ يُهدِي إليَّ الهديّةَ، يَتَعرَّضُ لما عندي، فآخذُها ولا أعطِيه شيئاً، أيحلّ لي؟ قال: «نعم! هي لك حلالٌ، ولكن لا تَدَعْ أن تُعطِيَهُ»[١].

وهل يحلّ مع إعطائهِ العِوَض المطموعَ فيه إذا لم يكن من مالِه، بل كان من الأموالِ التي أعطته الناسُ ليصرفَ إلى الفقراءِ من الزكواتِ والأخماسِ وسائرِ وُجوهِ البرِّ. الظاهرُ الحِلُّ إذا كان المُهدِي من أهلِ الاستحقاقِ والمُهدَى له معطياً إيّاهُ، وإن لم يكن لِيُهدِي له شيئاً. وفيه تأمّلٌ، كما يَظهرُ بعدَ ذلك.

الثالثةُ: أن يقصدَ به الإعانةَ بعملٍ معيّنٍ، كالمحتاجِ إلى السلطانِ أو ذي شوكةٍ يُهدِي إلى وَكيلِهما، أو من له مكانةٌ عندَهما فيُنْظَر إلى ذلك العملِ، فإن كان حراماً كالسعي في تنجُّزِ إدرارٍ حرامٍ أو ظلمِ إنسانٍ أو غيرِ ذلك، أو واجباً كدفعِ ظلمٍ أو استخلاصِ حقٍّ ينحَصِرُ الدفعُ والاستخلاصُ بِه، أو شهادةٍ معيّنةٍ، أو حكمٍ شرعيٍّ يَجِبُ عليه، أو أمثالِ ذلك، فهو رشوةٌ محرَّمَةٌ يَحرُم أخذُها.

الرابعة: أن يطلبَ به حصولُ التودُّدِ والمحبّةِ، ولٰكن لا من حيثُ إنّه تودُّدٌ فقط، بل لِيَتَوَصَّلَ بجاهِه إلى أغراضٍ ينحَصِرُ جنسُها وإن لم تَنحَصِرْ عينُها، وكان بحيثُ لولا جاهُه لكان لا يُهدَى إليه، فإن كان جاهُه لأجلِ علمٍ أو ورعٍ أو نَسَبٍ فالأمرُ فيه أخفُّ، والظاهرُ كونُ الأخذِ حينئذٍ مكروهاً، لأنّه هديّةٌ في الظاهرِ مع كونِه مشابهاً للرشوةِ. وإن كان لأجلِ ولايةٍ تَوَلّاها من قضاءٍ أو حكومةٍ أو ولايةِ صدقةٍ أو وقفٍ أو جبايةِ مالٍ أو غيرِ ذلك من الأعمالِ السلطانيّةِ، فالظاهرُ كونُ ما يأخذُه حراماً لو كان بحيث لا يُهدَى إليه لولا تلك الوِلاية، لأنّه رشوةٌ عُرِضَت في مَعرِضِ الهديّةِ، إذ القصدُ بها في الحالِ طلبُ التقرُّبِ والمحبّةِ، ولكن لأمرٍ ينحَصِرُ في جنسِه، لظهورِ أنّ مايُمكِن التوصُّلُ إليه بالوِلايات ماذا. قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «يأتي على الناسِ زمانٌ يُستَحَلّ فيه السُحتُ بالهديّةِ، والقتلُ بالمَوعِظَةِ، يُقتَلُ البريءُ لِتُوعَظَ

---

١. الكافي، ج ٥، ص ١٤٣، باب الهديّة، ح ٦.

به العامّةُ». [١] وروي:

أنّه ﷺ بعث والياً على صدقاتِ الأزدِ، فلمّا جاء أمسكَ بعضَ ما معه، وقال: هذا لكم وهذا لي هديّةٌ. فقال ﷺ: «ألا جلستَ في بيتِ أبيك وبيتِ أُمِّك حتّى تأتيَكَ هديّةٌ إن كنتَ صادقاً!» ثمّ قال: «مالي أستَعمِلُ الرجلَ منكم فيقول: هٰذهِ لكم وهٰذه هديّة لي، ألا جلس في بيتِ أُمّهِ لِيُهدَى له! والذي نفسي بيدِه، لا يأخذُ منكم أحدٌ شيئاً بغيرِ حقِّه إلّا أتى اللهَ يحملُه، ولا يأتينّ أحدُكم يومَ القيامةِ ببعيرٍ له رُغاءٌ، أو بَقرةٍ لها خُوارٌ أو شاةٍ تَيْعَرُ». ثمّ رفعَ يديهِ حتّى رأوا بياضَ إبطَيه، وقال: «اللهمّ هل بَلَّغتُ؟». [٢]

وعلى هذا، فينبغي لِكلِّ والٍ أو حاكمٍ وقاضٍ وغيرِهم من عمّالِ السلاطينِ، أن يُقدِّرَ نفسَه في بيتِ أبيهِ وأُمّهِ معزولاً بلا شُغلٍ، فما كان يُعطَى حينئذٍ يجوزُ له أن يأخذَه في ولايتِه أيضاً، وما لا يُعطى مع عَزلِه ويعطى لولايتِه يَحرُمُ أخذُه، وما أشكل عليه من عطايا أصدقائِه فهو شُبهةٌ، وطريقُ الاحتياطِ فيها واضحٌ.

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٩٠.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٧٧، باب الورع، ح ٥.

وصـل

ضدّ طلب الحرام: الورعُ عن الحرامِ

ضدّ عدمِ الاجتنابِ عن الحرامِ التنزُّهُ والاحتياطُ عنه، وهو الورعُ بأحدِ إطـلاقَيهِ. فـإنّ الورعَ قد يُفَسَّرُ بِمَلَكَةِ التَنَزُّهِ والاجتنابِ عن مالِ الحرامِ أكلاً وطلباً وأخذاً واستعمالاً، وقـد يُفَسَّر بكفِّ النفسِ عن مطلَقِ المـعاصي ومنعِها عمّا لا ينبغي. فعلى الأوّلِ يكون ضـدّاً لعـدمِ الاجتنابِ عن المالِ الحرامِ، ويكونُ من رذائلِ قوّةِ الشهوةِ. وعلى الثاني يكونُ ضـدّاً لمـلكةِ الولوعِ على مطلقِ المعصيّةِ، ويكونُ من رذائِلِ القوّة الغضبيّةِ والشهويّة جميعاً.

ثمّ الظاهرُ أنّ التقوى مرادفةٌ للورعِ، فإنّ لها أيضاً تفسيرين:

أحدهما: الاتّقاءُ عن الأموالِ المحرّمةِ، وقد أُطلِقَت التقوى في بعضِ الأخبارِ على هذا المعنى.

وثانيهما: ملكةُ الاتّقاءِ عن مطلقِ المعاصي، خوفاً من سخطِ الله وطلباً لرِضاهُ.

فعلى الأوّل يكون ضدّاً لعدمِ التنزُّهِ عن المالِ الحرامِ ورذيلةً لقوّةِ الشهوةِ، وعـلى الثـاني يكون ضدّاً لملكةِ ارتكابِ المعاصي ورذيلةً للقوّتين معاً.

وهنا أمران:

الأمر الأوّل: مدح الورع

الورعُ والتقوى عن الحرامِ أعظمُ المُنجياتِ، وعمدةُ ماتُنال به السعاداتُ ورفعُ الدرجاتِ.

وقال ﷺ: «من لَقِيَ اللهَ سبحانَه وَرِعاً أعطاه الله ثوابَ الإسلامِ كلِّه»[١]. وقال البـاقرُ ﷺ: «إنّ أشدّ العبادةِ الوَرَعُ»[٢]. وقال ﷺ:

ما شِيعَتُنا إلّا من اتّقى اللهَ وأطاعَه. فاتّقوا الله واعمَلُوا لما عندَ اللهِ، ليس بينَ اللهِ وبينَ أحدٍ قرابةٌ. أحبُّ العبادِ إلى اللهِ تعالى وأكرمُهم عليه أتقاهُم وأعملُهم بطاعتِه[٣].

وقال الصادقُ ﷺ: «أُوصيك بتقوى اللهِ والورعِ والاجتهادِ، واعلمَ أنّه لا يـنفعُ اجـتهادٌ لا ورعَ فيه»[٤]. وقال ﷺ: «عليكم بالورعِ، فإنّه لا يُنالُ ما عندَ اللهِ إلّا بالورعِ»[٥]. وقال ﷺ: «إنّ اللهَ ضَمِن لِمَن اتّقاهُ أن يُحَوِّلَه عمّا يكرَهُ إلى مايحبُّ، ويَـرزُقَهُ مـن حـيثَ لا يحـتَسِبُ»[٦]. وقال ﷺ: «إنّ قليلَ العملِ مع التقوى خيرٌ من كثيرٍ بلا تقوى»[٧]. وقال ﷺ: «ما نقلَ اللهُ عبداً من ذلِّ المعاصي إلى عزِّ التقوى، إلّا أغناهُ من غيرِ مالٍ، وأعزَّهُ من غيرِ عشيرةٍ، وآنسَه من غيرِ بشرٍ»[٨]. وقال ﷺ: «إنّما أصحابي من اشتدّ وَرَعُـه، وعَـمِلَ لخـالِقه، ورجـا ثـوابَـه، هـؤلاءِ أصحابي».[٩] وقال ﷺ:

أعينُونا بالوَرعِ، فإنّ من لَقِيَ الله تعالى منكم بالورعِ كان له عندَ الله فرجاً. إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَنْ يُطعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئكَ مَعَ الَّذينَ أنعَمَ اللهُ عَلَيهِمْ مِنَ النَّبيّينَ وَالصِّديقينَ والشُّهداءِ والصّالحينَ وَحَسُنَ أُولَئكَ رَفيقاً﴾[١٠]. فمنّا النبيّ، ومنّا الصّدّيق والشُّهَداءُ والصالحونَ[١١].

---

١. إحياء علوم الدين، ج٢، ص٩٠.
٢. الكافي، ج٢، ص٧٧، باب الورع، ح٥.
٣. الكافي، ج٢، ص٧٤، باب الطاعة والتقوى، ح٣.
٤. الكافي، ج٢، ص٧٦، باب الورع، ح١.
٥. الكافي، ج٢، ص٧٦، باب الورع، ح٣.
٦. الكافي، ج٨، ص٤٩، ح٩.
٧. الكافي، ج٢، ص٧٦، باب الطاعة والتقوى، ح٧.
٨. الكافي، ج٢، ص٧٦، باب الطاعة والتقوى، ح٨.
٩. الكافي، ج٢، ص٧٧، باب الورع، ح٦.
١٠. النساء (٤): ٦٩.
١١. الكافي، ج٢، ص٧٨، باب الورع، ح١٢.

ولكونِ طلبِ الحرامِ وعدمِ الاجتنابِ عنه باعثاً للهلاكِ، وتَوقّف النجاةِ والسعادةِ في الآخرة على الورعِ عن المحرّماتِ، مع افتقارِ الناسِ في الدنيا إلى المطاعمِ والملابِس، ورَدَ في فضيلةِ كسبِ الحلالِ ومدحِه ماوردَ. وقال ﷺ: «العبادةُ سبعون جزءاً، أفضلُها طلبُ الحلالِ»[١]. وقال ﷺ: «العبادةُ عشرةُ أجزاء، تسعةُ أجزائِه في طلبِ الحلالِ»[٢]. وقال ﷺ: «من أكل من كدِّ يدهِ كان يومَ القيامةِ في عدادِ الأنبياءِ، ويأخذُ ثوابَ الأنبياءِ»[٣]. وقال ﷺ: «من طلبَ الدنيا استعفافاً عن الناسِ وسعياً على أهلِه وتعطُّفاً على جارِه، لَقِي اللهُ عزّ وجلّ يومَ القيامةِ ووجهُه كالقمرِ ليلةَ البدرِ».[٤] وكان ﷺ إذا نظر إلى الرجلِ وأعجبَه، قال: «هل له حِرفةٌ؟» فإن قال: لا، قال: «سقطَ من عيني». قيل: وكيف ذاك يارسولَ الله؟ قال: «لأنّ المؤمنَ إذا لم تكن له حرفةٌ تَعيشُ بدينِه»[٥]. وقال ﷺ: «من طلبَ الدنيا حلالاً في عفافٍ كان في درجةِ الشهداء».[٦] وقال ﷺ: «من أكلَ الحلالَ أربعينَ يوماً نَوَّر اللهُ قلبَه، وأجرَى ينابِيعَ الحكمةِ من قلبِه على لسانِه».[٧]

الأمر الثاني: درجاتُ الوَرَع

قَسَّم بعضُ العلماءِ الورعَ والتقوى عن الحرامِ على أربعِ درجاتٍ:

الأُولى: وَرَعُ العُدولِ: وهو الاجتنابُ عن كلّ ما يلزَمُ الفسقُ باقتحامِه، وتسقُط بهِ العدالةُ، ويثبُتُ به العِصيانُ والتعرُّضُ للنارِ، وهو الورع عن كلِّ ما تُحرِّمُه فتوى المجتَهِدين.

الثانية: ورعُ الصالحين: وهو الاجتنابُ من الشبهاتِ أيضاً.

الثالثة: الورعُ عمّا يُخافُ أداؤُهُ إلى محرَّمٍ أو شبهةٍ أيضاً، وإن لم يكن في نفسِه حراماً

١. الكافي، ج ٥، ص٧٨، باب الحثّ على الطلب والتعرّض للرزق، ح٦.
٢. بحار الأنوار، ج ١٠٣، ص ٩، باب الحثّ على طلب الحلال، ح ٣٦.
٣. بحار الأنوار، ج ١٠٣، ص ١٠، باب الحثّ على طلب الحلال، ح ٤٢.
٤. الكافي، ج ٥، ص٧٨، باب الحثّ على الطلب والتعرّض للرزق، ح ٥.
٥. بحار الأنوار، ج ١٠٣، ص ٩، باب الحثّ على طلب الحلال، ح ٣٨.
٦. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص٨٦.
٧. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص٨٦.

ولا شبهةً، فهو تركُ مالا بأسَ به مخافةَ مابهِ بأسٌ.

الرابعة: ورعُ الصِدِّيقين: وهو الاجتنابُ عن كلّ ما ليسَ للّه، ويُتَناولُ لغيرِ الله وغيرِ نيّة التقوّي على عبادتِه وإن كان حلالاً صرفاً لايُخافُ أداؤُه إلى حرامٍ أو شبهةٍ. والصدّيقون الذين هذه درجتُهم هم الموحِّدُون المتجرِّدُونَ عن حظوظِ أنفسِهم، المتفَرِّدُونَ للّهِ تعالى بالقصدِ، الراؤون كلَّ ما ليس للّهِ تعالى حراماً، العامِلونَ بقولهِ سبحانه: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُم في خَوْضِهِمْ يَلعَبُونَ﴾[١].

تتميم: قال الصادق عليه السلام:

التقوى على ثلاثةِ أوجهٍ: تقوى من خوفِ النارِ والعقابِ، وهو تركُ الحرامِ، وهو تقوى العامِّ. وتقوى من اللهِ، وهو تركُ الشبهاتِ فضلاً عن الحرامِ، وهو تقوى الخاصّ. وتقوى في الله، وهو تركُ الحلالِ فضلاً عن الشبهةِ[٢].

وإلى هذه المراتبِ الثلاثِ أُشير في الكتاب الإلهي بقولِه: ﴿لَيسَ عَلى الذينَ آمَنُوا وعَملُوا الصالِحاتِ جُناحٌ فيما طَعِمُوا إذا ما اتّقوا وآمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحاتِ ثُمَّ اتَّقوا وآمَنُوا ثُمَّ اتَّقوا وأَحسَنُوا واللهُ يُحبُّ المحسِنينَ﴾[٣].

---

١. الأنعام (٦): ٩١.

٢. مصباح الشريعة، ص ٤٥٠، الباب ٨٢؛ بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٩٥، باب الطاعة والتقوى والورع، ح ٤١: «التقوىٰ علىٰ ثلاثةِ أوجُهٍ: تقوى باللهِ في الله وهو تركُ الحلالِ فضلاً عن الشُبهَة وهو تقوى خاصِّ الخاصِّ، وتقوىٰ مِن اللهِ وهو ترك الشُبُهاتِ فضلاً عن الحرامِ وهو تقوى الخاصِّ، وتقوى مِن خوف النارِ والعِقابِ وهو تركُ الحرامِ وهو تقوى العامّ».

٣. المائدة (٥): ٩٣.

النوع السابع: الغَدْرُ والخيانةُ

في المالِ أو العِرضِ أو الجاهِ. ويدخلُ تحتَه الذهابُ بحقوقِ الناسِ خُفيةً، وحبسُها من غيرِ عُسرٍ، وبالبخسِ في الوزنِ والكيلِ، وبالغشِّ بما يَخفَى، وغيرِ ذلك مـن التـدليساتِ المُـمَوّهةِ والتَلبيساتِ المُحرَّمةِ. وجميعُ ذلك من خباثةِ القوّة الشهويّةِ ورذائلِها، ومن الرذائـلِ المـهلكةِ وخَباثَتها. وقد وردت في ذمِّ الخيانةِ وأقسامها أخبارٌ كثيرةٌ، وجميعُ ما يدلُّ على ذمِّ الذهابِ بحقوقِ الناسِ وأخذِ أموالِهم بدونِ رضاهُم يَدُلُّ على ذمِّها.

وصــل

ضدّ الخيانة: الأمانة

وضدُّ الخيانةِ الأمانةُ، وقد وردت في مـدحِها وعِـظَمِ فـوائـدِها أخـبارٌ كـثيرةٌ، كـقولِ الصادقِ عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ لم يـبعَثْ نـبيّاً إلّا بِـصِدقِ الحــديثِ وأداءِ الأمـانةِ إلى البرِّ والفاجِرِ»[1]. وقوله عليه السلام: «لا تَغْتَرُّوا بِصلاتِهم ولا بصيامِهم، فإنّ الرجـلَ ربّمـا لَهِـجَ بـالصلاةِ والصومِ حتّى لو تركَه اسْـتَوْحَشَ، ولكـن اخـتَبِرُوهم بـصدقِ الحـديثِ وأداءِ الأمـانةِ»[2]. وقوله عليه السلام: «ثلاثةٌ لا عُذرَ فيها لأحدٍ: أداءُ الأمانةِ إلى البرِّ والفاجرِ، والوفاءُ بـالعهدِ إلى البرِّ والفاجِرِ، وبِرُّ الوالدين بَرَّينَ كانا أو فاجِرَينِ»[3]. وقوله عليه السلام:

> كان أبي يقول: أربعٌ من كنّ فيه كَمُلَ إيمانُهُ، وإن كان من قـرنِه إلى قـدمِه ذُنـوباً لم ينقصه ذلك، وهي: الصدقُ، وأداءُ الأمانةِ، والحياءُ، وحُسنُ الخُلُق.[4]

والأخبارُ في فضيلةِ الأمانةِ كثيرةٌ. فمن تأمَّلَ في ذمِّ الخيانةِ وإيجابِها الفـضيحةَ والعـارَ في الدنيا والعذابَ والنارَ في الآخرةِ، وفي فضيلةِ الأمانةِ وأدائِها إلى خيرِ الدنيا وسعادةِ الآخرةِ، سَهُلَ عليه تركُ الخيانةِ والاتّصافُ بالأمانةِ.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٠٤، باب الصدق وأداء الأمانة، ح ١.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١٠٤، باب الصدق وأداء الأمانة، ح ٢.

٣. الكافي، ج ٥، ص ١٣٢، باب أداء الأمانة، ح ١.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٩٩ ـ ١٠٠، باب حسن الخلق، ح ٣.

النوع الثامن: الخَوْضُ في الباطِل

وهو التكلُّمُ في المعاصِي والفجُورِ وحكايتُها، كحكاياتِ أحوالِ النساءِ، ومقاماتِ الفُسّاقِ، وتَنَعُّمِ الأغنياءِ، وتجبُّرِ الملوكِ ومَراسِمِهم المذمومةِ وأحوالِهم المكروهةِ، وأمثالِ ذلك. فكلّ ذلك من رداءةِ القوّةِ الشهويّةِ وخباثَتِها.

ثمّ لمّا كانت أنواعُ الباطلِ غيرَ محصورةٍ لكَثْرَتِها، فالخوضُ فيه أيضاً كذلك، وتكونُ له أنواعٌ غيرُ مُتناهِيَةٍ، ولا يُفتَحُ بابُ كلامٍ إلّا وينتهي إلى واحدٍ منها، فلا خلاصَ منه إلّا باقتصارِ الكلامِ على قدرِ الحاجةِ من مهمّات الدين والدنيا. وربّما وقَعَتْ من الرجلِ من أنواعِ الخوضِ في الباطلِ كلمةٌ تُهلِكُه وهو مُسْتَحْقِرٌ لها، فإنّ أكثرَ الخوضِ في الباطلِ حرامٌ، ولذا قال رسول الله ﷺ: «أعظمُ الناسِ خطايا يومَ القيامة أكثرُهم خوضاً في الباطلِ».[1] وإليه الإشارةُ بقولِه تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾[2].

ثمّ الخوضُ في الباطلِ هو ذكرُ محظُوراتٍ سَبقَ وجودُها بمجرّدِ شهوةِ النفسِ، من دونِ حاجةٍ داعيةٍ إليه، فلا مدخليّةَ له بمثلِ الغيبةِ والنميمةِ والفحشِ والمِراءِ والجدالِ وأمثالِها، ويدخُلُ فيه الخوضُ في حكاياتِ البِدَعِ والمذاهبِ الفاسِدَةِ، فإنّ الحديثَ عنها خوضٌ في الباطِلِ، وورد النَهيُ عنه.

---

١. إحياء علوم الدين، ج٣، ص١١٦، كتاب آفات اللسان.

٢. المدّثر (٧٤):٤٥.

النوع التاسع: التكلُّمُ بما لا يَعْني أو بالفُضولِ

والمرادُ بالأوّل: التكلُّمُ بما لا فائدةَ فيه أصلاً، لا في الدينِ ولا في الدنيا. والثاني ـ أعني فضولَ الكلامِ ـ أعمّ منه، إذ يتناولُ الخوضَ في مالا يعني والزيادةَ في ما يعني على قدرِ الحاجةِ. فإنّ من يعنيهِ أمرٌ ويتمكّنُ من تقريرِه وتأديتِه وتأديةِ مقصودِه بكلمةٍ واحدةٍ، ومع ذلك ذكر كلمتين، فالثانيةُ فضولٌ، أي فضلٌ عن الحاجةِ. ولا ريبَ في أنّ التكلُّم بما لا يعني وبالفضولِ مذمومٌ، وإن لم يكن فيه إثمٌ، وهو ناشئٌ عن رداءةِ القوّةِ الشهويّةِ، إذ الباعثُ عليه ليس إلّا مجرَّدُ تَشَهّي النفسِ وهواها.

والسرُّ في ذمّه: أنّه يُوجِب تَضييعَ الوقتِ، والمنعَ من الذكر والفِكرِ، وربّما يُبنَى لأجلِ تهليلةٍ أو تسبيحةٍ قصرٌ في الجنّةِ، وربّما يُنْفَحُ من نفحاتِ رحمةِ الله عندَ الفِكرةِ ما يعظُمُ جَدواهُ. فمن قَدرَ على أن يأخُذَ كنزاً من الكنوزِ، فأخذَ بدلَه مدرةً لا يَنتَفِعُ بها كان خاسراً. فمن ترك ذكرَ اللهِ والفِكرَ في عجائبِ قدرتِه، واشتغل بمباحٍ لا يعنيه، وإن لم يأثَمْ إلّا أنّه قد خَسِر، حيث فاتَه الربحُ العظيمُ بذكرِ اللهِ وفكرِه. فإنّ رأسَ مالِ العبدِ أوقاتُه، ومهما صرفَها إلى مالا يعنيهِ، ولم يدَّخِرْ بها ثواباً في الآخرةِ فقد ضَيّع رأسَ مالِه. على أنّ الغالِبَ تأدِيَةُ الخَوضِ في مالا يعني وفي الفضولِ إلى الخوضِ في الباطلِ، وربّما أدّى إلى الكذبِ بالزيادةِ والنقصانِ.

ولذا ورد في ذمّه ماورد، وورد أيضاً: «أنّ رسولَ الله ﷺ قال لبعضِ أصحابِه ـ وهو مريضٌ ـ: «أبشِر». فقالت أُمّهُ: هنيئاً لك الجنّةَ! فقال رسولُ الله ﷺ: «وما يُدرِيك؟ لعلّه

قال ما لا يعنِيه أو منعَ ما لا يُغنِيه؟»[١] يعني إنّما تَتَهنّأُ الجنّةُ لمن لا يُحاسَب، ومَنْ يتكلّم فيما لا يعنِيه حُوسِب عليه، وإن كان كلامُه مباحاً، فلا تَتَهنَّأُ له الجنَّةُ مع المناقشةِ في الحسابِ، فإنّه نوعٌ من العذابِ وروي: «أنّه قَدِم رهطٌ من بني عامرٍ على رسولِ الله ﷺ، فشرعوا بالمدحِ والثناءِ عليه. فقال ﷺ: قولوا قولَكم، ولا يستهوينّكم الشيطانُ!»[٢]. ومُرادُه ﷺ أنّ اللسانَ إذا أطلقَ الثناءَ ولو بالصدقِ، فيخشى أن يَستهوِيَه الشيطانُ إلى الزيادةِ المستغنَى عنها. وقال بعضُ الأكابرِ: «من كَثُرَ كلامُه كَثُر كَذِبُه»[٣].

وهنا بحوث:

البحث الأوّل: حدُّ التكلُّمِ بما لا يَعني

التكلّمُ بما لا يَعنِي وبالفُضُولِ لا تَنحَصِرُ أنواعُه وأقسامُه، لعدمِ تناهِيها، وإنّما حدُّه أن تتكلَّمَ بما لو سكتَّ عنه لم تأثَمْ، ولم تَتَضَرَّرْ في شيءٍ ممّا يتعلّقُ بك، ولم يُعطَّلْ شيءٌ من أُمورِكَ. مثاله: أن تحكيَ مع قومٍ أسفارَك، وما رأيتَ فيها من جبالٍ وأنهارٍ، وما وقع لك من الوقائعِ، وما استحسَنْتَهُ من الأطعمةِ والثيابِ، وما تعجَّبْتَ منه من مشايخِ البلادِ ووقائِعِهم.

فهذه أُمورٌ لو سكتَّ عنها لم تأثَم ولم تتضَرَّرْ، ولا تَتَصَوَّرُ فيها فائدةٌ دينيّةٌ ولا دنيويّةٌ لأحدٍ، فإذا بالغتَ في الاجتهادِ حتّى لا تمتزِجَ بحكايتِك زيادةٌ ونقصانٌ، ولا تزكِيَةُ نفسٍ من حيثُ التفاخر بمشاهدةِ الأحوالِ العظيمةِ، ولا اغتيابُ شخصٍ ولا مذمّةُ شيءٍ ممّا خلقَه اللهُ، فإنّك مع ذلك كلِّه مضيِّعٌ وقتَكَ.

ثمّ كما أنّ التكلُّمَ بما لا يَعْنِيكَ مذمومٌ، كذلك سؤالُك غيرَك عمّا لا يَعْنِيك مذمومٌ، بل هو أشدُّ

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١١٢، كتاب آفات اللسان.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١١٥، كتاب آفات اللسان.

٣. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١١٥، كتاب آفات اللسان، والكلام، عن الحسن البصري.

کم گوی وگزیده گوی چون دُر — تا ز اندك تو جهان شود پُر

یک شاخه گل دماغ پرور — از خرمن صد گیاه بهتر

ذماً، لأنّك بالسؤالِ مضيّعٌ وقتَك، وقد ألجأتَ أيضاً صاحبَك بالجوابِ إلى تضييعِ وقتِه.

وهذا إذا كان الشيءُ ممّا لا تتطرّق إلى السؤال عنه آفةٌ. ولو كان في جوابِه آفةٌ ـ كما هو الشأنُ في أكثرِ الأسئلةِ عمّا لا يعنيك ـ كنتَ آثماً عاصياً. مثلاً: لو سألتَ غيرَك عن عبادتِه، فتقول: هل أنت صائمٌ؟ فإن قال: نعم، كان مظهراً عبادتَه، فيدخل عليه الرياءُ، وإن لم يدخل الرياءُ سَقطَت عبادتُه ـ على الأقلّ ـ من دونِ عبادةِ السرِّ، وعبادةُ السرِّ تفضُلُ عبادةَ الجهرِ بدرجاتٍ. وإن قال: لا، كان كاذباً. وإن سكت كان مستحقراً إيّاكَ وتأذّيْتَ به. وإن احتالَ لمدافعةِ الجوابِ افتقرَ إلى تعبٍ وجهدٍ فيه. فقد عرَّضتَهُ بالسؤالِ إمّا للرياءِ والكذبِ، أو للاستحقارِ، أو التعبِ في حيلةِ الدفعِ.

وكذلك سؤالُك عن كلِّ ما يخفَى ويُستحيىَ من إظهارِه، أو عمّا يُحتَملُ أن يكونَ في إظهاره مانعٌ، كأنْ يحدّثَ به أحدٌ غيرُك، فتسألُه وتقولُ: ماذا تقول؟ وفيم أنتم؟ وكأنْ ترى إنساناً في الطريقِ فتقول: من أين؟ إذ ربّما يمنعُ مانعٌ من إظهارِ مقصودِه. ومن هذا القبيل سؤالُك غيرَك: لم أنت ضعيفٌ؟ أو: ما هذا الضعفُ أو الهزالُ الذي حدث بك؟ أو أيّ مرضٍ فيك؟ وأمثال ذلك.

وأشدّ من ذلك أن تخوّفَ مريضاً بشدّةِ مرضِه، وتقول: ما أشدَّ مرضَك وما أسوأَ حالَك! فإنّ جميعَ ذلك وأمثاله مع كونِه من فضولِ الكلامِ والخوضِ في ما لا يعني، يتضمّنُ إثماً وإيذاءً. وليس من مجرّدِ التكلّم بما لا يعني والفضولِ، وإنّما مجرّدُ ما لا يعنِي ما لا يتصوّر فيه إيذاءٌ وكسرُ خاطرٍ واستحياءٌ من الجوابِ، كما روي:

أنّ لقمانَ دخل على داودَ عليه السلام وهو يَسردُ الدرعَ، ولم يكن رآها قبل ذلك، فجعلَ يتعجّب ممّا يرى. فأراد أن يسألَه عن ذلك فمنعتْهُ الحكمةُ، فأمسك نفسَه ولم يسألْهُ. فلمّا فرغَ داودُ قام ولبِسَها، وقال: «نِعمَ الدرعُ للحربِ»! فقال لقمان: «الصمتُ حكمٌ وقليلٌ فاعلهُ».

وهذا وأمثاله من الأسئلةِ إذا لم يكن فيه ضررٌ وهتكُ سترٍ وإيقاعٌ في رياءٍ أو كذبٍ، فهو ممّا لا يعني، وتركُه من حسنِ الإسلام.

البحث الثاني: علاجُ الخوضِ فيما لا يعني

سببُ الخوضِ في ما لا يعني وفي فضولِ الكلامِ: إمّا الحِرصُ على معرفةِ مالا حاجةَ إليه، أو المباسطةُ بالكلامِ على سبيلِ التودُّدِ، أو تَزجِيَةُ الوقتِ بحكاياتِ أحوالٍ لا فائدةَ فيها. وكلُّ ذلك من رداءةِ قوّة الشهوةِ.

وعلاجُ ذلك من حيثُ العلم: أن يتذكَّرَ ذمَّه كما مرّ، ومدحَ ضدّه، أعني الصمتَ، وتركَه، كما يأتي، ويعلَم أنّ الموتَ بينَ يديه، وأنّه مسؤولٌ عن كلّ كلمةٍ، وأنّ أنفاسَه رأسُ مالِه، وأنّ لسانَه شبكةٌ يقدِرُ على أن يقتَنِصَ بها السعادةَ، فإهمالُه وتضييعهُ خسرانٌ.

ومن حيثُ العمل أن يعتزِلَ عن الناسِ مهما أمكنَ، ويُلزِمَ نفسَه السكوتَ عن بعضِ ما يعنِيه ليتعوَّدَ لسانهُ تركَ ما لا يعنِيه، وأن يقدِّمَ التأمُّلَ والتروِّي على كلِّ كلامٍ يريدُ أن يتكلَّمَ به، فإن كان فيهِ فائدةٌ دينيّةٌ أو دنيويّةٌ تكلّمَ به وإلّا ترَكَه. وكان بعضُهم يضعُ في فمه حجراً، خوفاً من التكلُّمِ بالفضولِ وما لا يعنِيه.

وصـل

ضدُّ التكلّمِ: الصمتُ

ضدُّ التكلُّم بِما لا يعنِيه وبالفضولِ وتركها إمّا بالصمتِ أو بالتكلُّمِ فيما يعنِيه ممّا يتعلّق بدينِه أو دنياه. وقد وردت أخبارٌ في المدحِ على خصوصِ تركِ ما لا يعنِي وفضولِ الكـلامِ، كـقولِ النبيّ ﷺ: «من حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يعنِيه»[1]. وقـوله ﷺ: «طـوبى لمـن أمسكَ الفضلَ من لسانِه، وأنفقَ الفضلَ من مالِه!»[2]. وانظُر كيفَ قَلبَ الناسُ الأمرَ في ذلك، فأمسكوا فضلَ المالِ وأطلقُوا فضلَ اللسان. ورُوي:

أنّه ﷺ قال ذاتَ يومٍ: «إنّ أوّل من يدخُلُ من هذا البابِ رجلٌ من أهلِ الجنّةِ». فلما دخل هذا الرجلُ، قالوا له: أخبِرْنا بأوثقِ عملِك في نفسِك ترجُو بِه. فقال: إنّي رجلٌ ضعيفُ العملِ، وأوثَقُ ما أرجُو اللهَ به سلامةُ الصدرِ وتركُ ما لا يعنيني[3].

وقال ﷺ لأبي ذرّ: «ألا أُعَلِّمُك بعملٍ خفيفٍ على البدنِ ثقيلٍ في الميزانِ». قـال: بـلى يارسولَ الله. قال: «هو الصمتُ، وحسنُ الخلقِ، وتركُ ما لا يعنِيك»[4].

---

١. بحار الأنوار، ج ٧١، ص٢٧٧، باب السكوت والكلام، ح ١٠.

٢. بحار الأنوار، ج٦٨، ص٢٨٧، باب السكوت والكلام، ذيل الحديث ٤٢.

٣. إحياء علوم الدين، ج٣، ص ١١٣.

٤. إحياء علوم الدين، ج٣، ص١١٣.

الباب السادس

فيما يتعلَّق بالقُوى

الثلاثِ أو باثنتينِ منها من الرذائل والفضائل

وكيفيّة العِلاج

أنواعُ الرذائلِ والفضائلُ والنتائجُ والآثارُ المتعلّقة بالقُوى الثلاث أو باثنتين منها

النوع الأوّل: الحسدُ

وهو تمنّي زوالِ نِعَمِ اللهِ تعالى عن أخيك المسلمِ ممّا له فيه صلاحٌ، فإن لم تُرِدْ زَوالَها عنه ولٰكن تريدُ لنفسِك مثلَها فهو غِبطةٌ ومُنافَسَةٌ. ثمّ إن كان باعثُ حسدِك مُجرَّدَ الحرصِ على وصولِ النعمةِ إلى نفسِك، فهو من رداءةِ القوّةِ الشهويّةِ. وإن كان باعثُه محضَ وصولِ المكروهِ إلى المحسودِ، فهو من رذائلِ القوّة الغضبيّةِ، ويكون من نتائجِ الحقدِ الذي هو من نتائجِ الغضبِ. وإن كان باعثُهُ مركّباً منهما، فهو من رداءةِ القوّتين.

وضدّه النصيحةُ وهي إرادة بقاءِ نعمةِ الله على أخيك المسلمِ ممّا له فيه صلاحٌ.

والمعيارُ في كونك ناصحاً: أن تريدَ لأخيكَ ماتريدُ لنفسِك، وتكرهَ له ماتكرهُ لنفسِك. وفي كونِك حاسداً: أن تريدَ له ماتكرَهُ لنفسِك، وتكرَهَ له ماتريدُ لنفسِك. وهاهنا بحوث:

البحث الأوّل: ذمّ الحسدِ

الحسدُ أشدُّ الأمراضِ وأصعبُها، وأسوأُ الرذائلِ وأخبَثُها، ويـؤدّي بـصاحبِه إلى عـقوبةِ الدنيا وعذابِ الآخرةِ، لأنّه في الدنيا لايخلُو لحظةً عن الحزنِ والألمِ، إذ هو يتألّمُ بكلِّ نعمةٍ يرى لغيرِه، ونِعَمُ الله تعالى غيرُ متناهيةٍ لاتنقطعُ عن عبادِه، فيدومُ حزنُه وتألُّمُهُ. فـوبالُ حسـدِه

يرجِعُ إلى نفسِه، ولا يضرُّ المحسودَ أصلاً، بل يوجِبُ ازديادَ حسناتِه ورفعَ درجاتِه من حيثُ إنّه يَعِيبهُ ويقول فيه ما لا يجوزُ في الشريعةِ، فيكون ظالماً عليه، فيحمِل بعضاً من أوزارِهِ وعصيانِه، وتُنقَل صالحاتُ أعمالِه إلى ديوانه، فحسدُه لايُؤثّرُ فيه إلّا خيراً ونفعاً.

ومع ذلك يكون في مقامِ التعانُدِ والتضادِّ مع ربِّ الأربابِ وخالقِ العبادِ، إذ هو الذي أفاضَ النِعَمَ والخيراتِ على البرايا كما شاء وأرادَ بمقتضى حكمتِه ومصلحتِه، فحكمتُه الحقّةُ الكامِلةُ أوجبت بقاءَ هذه النعمةِ على هذا العبدِ، والحاسدُ المسكينُ يريدُ زوالَها. وهل هو إلّا سخطُ قضاءِ اللهِ في تفضيلِ بعضِ عبادِه على بعضٍ، وتَمَنّي انقطاعِ فُيُوضاتِ اللهِ التي صدرَتْ عنه بحسبِ حكمتِه، وإرادةُ خلافِ ما أرادَ الله على مقتضى مصلحتِه؟! بل هو يريدُ نقصَه سبحانَه، وعدمَ اتّصافِهِ بصفاتِه الكماليّةِ، إذ إفاضةُ النعمِ منه سبحانَه في أوقاتِها اللائقةِ على محالِّها المستعدّةِ من صفاتِه الكماليّة التي عدمُها نقصٌ عليه تعالى، وإلّا لم يصدُرْ عنه، وهو يريدُ ثبوتَ هذا النقص.

ثمّ لتمنّيهِ زوالَ النعمِ الإلهيّةِ التي هي الوجوداتُ، ورجوعَ الشرورِ إلى الأعدامِ يكونُ طالباً للشرِّ ومحبّاً له. وقد صرّح الحكماءُ بأنّ من رضي بالشرّ، ولو بوصولِه إلى العدوِّ، فهو شرِّيرٌ. فالحسدُ شَرُّ الرذائلِ، والحاسدُ شرُّ الناسِ. وأيُّ معصيةٍ أشدُّ من كراهةِ راحةِ مسلمٍ من غيرِ أن يكونَ له فيها مضرّةٌ؟ ولذا ورد به الذمّ الشديدُ في الآياتِ والأخبارِ، قال اللهُ سبحانه في معرِضِ الإنكارِ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَاسَ عَلَىٰ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضلِهِ﴾[١]. وقال: ﴿وَدَّ كَثيرٌ مِـن أهلِ الكِتابِ أنْ يَرُدُّونَكمْ مِنْ بَعدِ إيمانِكُم كُفّاراً حَسَداً مِن عِند أنفُسِهِمْ﴾[٢]. وقال: ﴿إنْ تَمْسَسْكُم حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإنْ تُصِبكُم سَيِّئَةٌ يَفرَحوا بها﴾[٣].

وقال رسولُ الله ﷺ: «الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحَطَبَ»[٤]. وقال ﷺ: قال الله عزَّ وجَلَّ لموسى بنِ عمرانَ: «يابنَ عمرانَ، لا تَحْسُدَنَّ الناسَ على

---

١. النساء (٤): ٥٤.

٢. البقرة (٢): ١٠٩.

٣. آل عمران (٣): ١٢٠.

٤. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٥٧، باب الحسد، ح ٣٠.

ما آتيتُهم من فضلي، ولا تَمُدَّنَّ عينَيكَ إلى ذلك، ولا تُتبِعْهُ نفسَكَ؛ فإنَّ الحاسدَ ساخِطٌ لنعمي، صادٌّ لقسمي الذي قسمت بينَ عبادِي. ومن يكُ كذلك، فلستُ منه وليس منّي»[1].

وقال ﷺ: «لا تحاسَدُوا ولا تقاطَعُوا ولا تَدابَرُوا ولا تباغَضُوا، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانا»[2]. وقال ﷺ:

دبَّ إليكم داءُ الأُممِ من قبلِكم: الحسدُ والبغضاءُ، والبغضةُ هي الحالِقةُ، لا أقولُ حالِقةُ الشعرِ، ولكن حالقةُ الدينِ. والذي نفسُ محمّدٍ بيدِه، لا تدخلون الجنّةَ حتّى تُؤمِنُوا، ولن تُؤمِنُوا حتّى تَحابُّوا. ألا أُنبّئكُم بما يُثبتُ ذلك لكم؟ أَفشُوا السلامَ بينَكم.[3]

وقال أبو عبدِ اللهِ عليه السلام: «آفةُ الدينِ الحَسَدُ والعُجبُ والفَخرُ».[4] وقال عليه السلام: «إنّ المؤمنَ يغبِطُ ولا يَحسدُ، والمنافقُ يحسدُ ولا يَغبِطُ».[5] وقال:

الحاسدُ مُضِرٌّ بنفسِه قبلَ أن يضرَّ بالمحسودِ، كإبليسَ أورثَ بحسدِه لنفسِه اللعنةَ، ولآدمَ الاجتباءَ والهُدى والرفعَ إلى محلِّ حقائقِ العهدِ والاصطفاءِ. فكن محسوداً ولا تكن حاسداً، فإنّ ميزانَ الحاسدِ أبداً خفيفٌ بثقلِ ميزانِ المحسودِ، والرزقُ مقسومٌ، فماذا ينفعُ الحسدُ الحاسدَ، وماذا يضرُّ المحسودَ الحسدُ؟ والحسدُ أصلُه من عمى القلبِ والجحودِ بفضلِ الله تعالى، وهما جناحان للكفرِ، وبالحسدِ وقع ابنُ آدمَ في حسرةِ الأبدِ، وهلك مَهْلَكاً لا ينجُو منه أبداً، ولا توبةَ للحاسدِ، لأنّه مصرٌّ عليه معتقدٌ به مطبوعٌ فيه، يبدو بلا معارضٍ به ولا سببٍ، والطبعُ لا يتغيّرُ عن الأصلِ، وإن عُولِجَ[6].

---

١. الكافي، ج٢، ص٣٠٧، باب الحسد، ح٦.

٢. إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٨٧.

٣. المحجّة البيضاء، ج٥، ص٣٢٦.

٤. الكافي، ج٢، ص٣٠٧، باب الحسد، ح٥.

٥. الكافي، ج٢، ص٣٠٧، باب الحسد، ح٧.

٦. بحار الأنوار، ج٧٣، ص٢٥٥، باب الحسد، ح٢٣.

البحث الثاني: المنافسةُ والغِبطةُ

قد علمتَ أنّ المُنافَسَةَ هي تمنّي مثل ما للمغبوطِ، من غيرِ أن يريدَ زوالَه عنه، وليست مذمومةً، بل هي في الواجبِ واجبةٌ، وفي المندوبِ مندوبةٌ، وفي المباحِ مباحةٌ. قال الله سبحانه: ﴿وَفِى ذٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[١].

وعليها يُحمَلُ قولُ النبيِّ ﷺ: «لا حسدَ إلّا في اثنينِ: رجل آتاه اللهُ مالاً فسلّطه على هلكته في الحقّ. ورجل آتاه اللهُ علماً فهو يعمَلُ به ويُعَلِّمُهُ الناسَ»[٢]: أي لا غِبطةَ إلّا في ذلك. سُمِّيت الغِبطةُ حسداً كما يُسَمَّى الحسدُ منافَسةً، اتّساعاً لمقارَنَتِهما. وسببُ الغِبطةِ حبُّ النعمةِ التي للمغبوطِ، فإن كانت أمراً دينيّاً فسببُها حبُّ اللهِ وحبُّ طاعتِه، وإن كانت دنيويّةً فسببُها حبُّ مباحاتِ الدنيا والتنعُّمِ فيها. والأوّل لا كراهةَ فيه بوجهٍ، بل هو مندوبٌ إليه. والثاني وإن لم يكن حراماً إلّا أنّه ينقُصُ درجتَه في الدينِ، ويحجبُ عن المقاماتِ الرفيعةِ، لمنافاتِه الزهدَ والتوكُّلَ والرضىٰ.

ثمّ الغبطةُ لوكانت مقصورةً على مجرّدِ حبِّ الوصولِ إلى مثلِ ما للمغبوطِ، لكونه من مقاصِدِ الدينِ والدنيا، من دونِ حبِّ مساواتِه له وكراهةِ نقصانِه عنه، فلا حرجَ فيه بوجهٍ. وإن كان معه حبُّ المساواةِ وكراهةُ التخلُّفِ والنقصانِ فهنا موضعُ خطرٍ، إذ زَوالُ النقصانِ إمّا بوصولِه إلى نعمةِ المغبوطِ أو بزوالِها عنه، فإذا انسَدَّت إحدى الطَريقتين تكادُ النفسُ لا تنفكُّ عن شهوةِ الطريقةِ الأُخرى، إذ يَبْعُدُ أن يكونَ إنسانٌ مُريداً لمساواةِ غيرِه في النعمةِ فيعجزُ عنها، ثمّ لا ينفكُّ عن ميلٍ إلى زوالِها، بل الأغلبُ ميلُه إليه، حتّىٰ إذا زالت النعمةُ عنه كان ذلك عندَه أشهَى من بقائِها عليه، إذ بزوالِها يزولُ نقصانُه وتخلُّفُه عنه.

فإن كان بحيثُ لو أُلقِيَ الأمرُ إليهِ ورُدَّ إلى اختيارِه لَسَعَى في إزالةِ النعمةِ عنه، كان حاسداً حَسَداً مذموماً. وإن منعَه مانعُ العقلِ من ذلك السعيِ، ولٰكنّه وجَد من طبعِه الفرحَ والارتياحَ

---

١. المطففين (٨٣): ٢٦.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٣٣٢.

بزوالِ النعمةِ عن المغبوطِ، من غيرِ كراهةٍ لذلك ومجاهدةٍ لدفعِه، فهو أيضاً من مذمومِ الحسدِ، وإن لم يكن في المرتبة الأُولى. وإن كرِهَ ما يجدُ في طبعِهِ من السرورِ والانبساطِ بزوالِ النعمةِ بقوّةِ عقلِه ودينِه، وكان في مقامِ المجاهَدةِ لدفعِ ذلك عن نفسِه، فمقتضَى الرحمةِ الواسعةِ أن يُعفَى عنه؛ لأنّ دفعَ ذلك ليس في وسعِه وقدرتِه إلّا بمَشاقِّ الرياضاتِ. إذ مامن إنسانٍ إلّا ويرى من هو فوقَه من معارفِه وأقاربِه في بعضِ النعمِ الإلٰهيّةِ، فإذا لم يصل إلى مقامِ التسليمِ والرضىٰ كان طالباً لمساواتِه له فيه، وكارهاً عن ظهور نقصانِه عنه. فإذا لم يقدِر أن يصلَ إليه، مال طبعُه بلا اختيارٍ إلى زوالِ النعمةِ عنه، واهتزَّ وارتاحَ به حتّى ينزلَ هو إلى مساواتِه. وهذا وإن كان نقصاً تنحَطُّ به النفسُ عن درجاتِ المقرَّبين، سواء كان من مقاصِد الدنيا أو الدينِ، إلّا أنّه لكراهتِه له بقوّةِ عقله وتقواه وعدمِ العملِ بمقتضاهُ، يُعفَى عنه إن شاء الله، وتكونُ كراهتُه لذلك من نفسِه كفّارةً له.

وقد ظهر من تضاعيفِ ماذُكِر أنّ الحسدَ المذمومَ له مراتبُ أربع:

الأُولى: أن يحبَّ زوالَ النعمةِ عن المحسودِ وإن لم تَنتَقِلْ إليه، وهذا أخبثُ المراتبِ وأشدُّها ذمّاً.

الثانية: أن يحبَّ زوالَها لرغبتِه في عينِها، كرغبتِه في دارٍ حسنةٍ معيَّنَةٍ، ويحبَّ زوالَها من حيثُ توقُّف وصولِه إليها عليه، لا من حيثُ تنعُّم غيرِه بها. ويدلّ على تحريمِ هذه المرتبةِ وذمِّها قوله تعالى: ﴿وَلا تَتَمَنَّوا ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ﴾[1].

الثالثة: أنْ لا يشتهي عينَها بل يشتهي لنفسِه مثلَها، إلّا أنّه إن عجزَ عن مِثلها أحبَّ زوالَها عنه، كي لا يظهرَ التفاوتُ بينهما، ومع ذلك لو خُلِّي وطَبْعَهُ اجتهدَ وسعَى في زوالِها.

الرابعة: كالثالثة، إلّا أنّه إن اقتدرَ على إزالَتِها منعَه قاهرُ العقلِ أو غيرُه من السعيِ فيه، ولكنّه يهتزُّ ويرتاحُ بِهِ من غيرِ كراهةٍ من نفسِه لذلك الارتياحِ.

والغبطةُ لها مرتبتان:

الأُولى: أن يشتهيَ الوصولَ إلى مثلِ ما للمغبوطِ، من غيرِ ميلٍ إلى المساواةِ وكراهةٍ

---

١. النساء (٤): ٣٢.

للنقصانِ، فلا يحبُّ زوالَهَا عنه.

الثانية: أن يشتهيَ الوصولَ إليه مع ميلِه إلى المساواةِ وكراهتِه للنقصانِ، بحيث لو عَجزَ عن نيلِه وجدَ من طبعِه حبّاً خفيّاً لزوالِها عنه، وارتاحَ من ذلك إدراكاً للمساواةِ ودفعاً للنقصانِ، إلّا أنّه كان كارهاً لهذا الحبِّ، ومغضباً على نفسِه لذلك الارتياحِ، وربّما سمّيت هذه المرتبة بالحسد المَعْفُوِّ عنه. وكأنّه المقصود من قوله ﷺ:

ثلاثٌ لا ينفكُّ المؤمنُ عنهنَّ: الحسدُ، والظَّنُّ، والطِيَرَةُ... ثمّ قال: وله منهنّ مَخرَجٌ، إذا حسدتَ فلا تبغِ ـ أي إن وجدتَ في قلبِك شيئاً فلا تعمَل به، وكن كارِهاً له ـ وإذا ظننتَ فلا تحقّقْ، وإذا تَطَيَّرْتَ فامضِ[١].

البحث الثالث: بواعثُ الحسدِ

بواعثُ الحسدِ سبعةٌ:

الأوّل: خُبثُ النفسِ وشُحُّها بالخيرِ لعبادِ الله، فإنّك تجدُ في زوايا العالمِ من يُسَرُّ ويرتاحُ بابتلاءِ العبادِ بالبلايا والمِحَنِ، ويحزَنُ من حسنِ حالِهم وسعةِ عيشِهم. فمثله إذا وُصِفَ له اضطرابُ أُمورُ الناسِ وإدبارهُم، وفواتُ مقاصدِهم وتنغُّصُ عيشِهم، يَجِدُ من طبعِهِ الخبيثِ فرحاً وانبساطاً، وإن لم يكن بينَه وبينَهم عداوةٌ ولا رابطةٌ، ولم يوجِب ذلك تفاوتاً في حالِه من وصولِه إلى جاهٍ أو مالٍ أو غيرِ ذلك. وإذا وُصِف عندَه حُسنُ حالِ عبدٍ من عبادِ اللهِ وانتظامِ أُمورِه شَقَّ ذلك عليه، وإن لم يوجِبْ ذلك نقصاً في شيءٍ ممّا له. فهو يبخَلُ بنعمةِ اللهِ على عبادِه من دونِ قصدٍ وغرضٍ، ولا تصوُّرِ انتقالِ النعمةِ إليه، فيكون ناشئاً عن خُبثِ نفسِه ورَذالةِ طبعِه. ولذا يعسرُ علاجُه، لكونه مقتضَى خباثةِ الجِبِلَّةِ، وما يَقتضِيه الطبعُ والجِبِلَّةُ تَعسُرُ إزالَتُهُ، بخلافِ مايحدُث من الأسبابِ العارضةِ.

الثاني: العداوةُ والبغضاءُ. وهي أشدُّ أسبابِهِ، إذ كلُّ أحدٍ ـ إلّا أوحديٌّ من المجاهدين ـ إذا أصابت عدوَّه بليّةٌ فَرِحَ بذلك، إمّا لظنّها مكافأةً من اللهِ لأجلِه، أو لحبِّهِ طبعاً ضعفَه وهلاكَه.

---

١. المعجم الكبير، ج٣، ص٢٢٨، ح٣٢٢٧.

ومهما أصابَتْهُ نعمةٌ ساءَه ذلك، لأنّه ضدُّ مرادِه، وربّما تصوَّرَ لأجلِه أنّه لا منزلةَ له عندَ اللـهِ، حيث لم ينتَقِمْ من عدوِّهِ وأنعمَ عليه، فيحزَنُ لذٰلك.

الثالث: حبُّ الرئاسةِ وطلبُ المالِ والجاهِ. فـإنّ مـن غـلبَ عـليه حبُّ التـفرُّدِ والثَـناءِ ـ واسْتَفزَّهُ الفرحُ بما يُمدَحُ بِهِ من أنّه وحيدُ الدهرِ وفريدُ العصرِ في فنِّه، من شجاعةٍ أو علمٍ أو عبادةٍ أو صناعةٍ أو جمالٍ أو غيرِ ذلكَ ـ لو سمعَ بنظيرٍ له في أقصَى العالَمِ ساءَهُ ذٰلك، وارتـاحَ بموتِه أو زوالِ النعمةِ التي يشارِكُه فيها، ليكونَ فائقاً على الكلِّ في فنِّه، ومتفرِّداً بالمدحِ والثَناءِ في صفتِه.

الرابع: الخوفُ من فوتِ المقاصدِ. وذلك يختصّ بمتزاحِمَينِ على مقصودٍ واحدٍ؛ فـإنّ كـلَّ واحدٍ منهما يحسدُ صاحبَهُ في وصولِه إلى هذا المقصودِ طلباً للتفرُّد به، كـتحاسُدِ الضَرّاتِ في مقاصِدِ الزوجيّةِ، والإخوَةِ في نيلِ المنزلةِ في قلبِ الأبوين توصّلاً إلى مالِهما، والتلامذةِ لأُستاذٍ واحدٍ في نيلِ المنزلةِ في قلبِه، وندماءِ الملكِ وخواصِّهِ في نيلِ المنزلةِ والكرامةِ عندَه، والوعاظِ والفقهاءِ المتزاحمينَ على أهلِ بلدةٍ واحدةٍ في نيلِ القبولِ والمالِ عندَهم، إذا كان غرضُهم ذلك.

الخامس: التعزُّز. وهو أن يَثقُلَ عليه أن يَترَفَّعَ عليهِ بعضُ أقرانِه، ويَعلَمَ أنّـه لو أصـابَ بعضَ النعمِ يَستَكْبِرُ عليه ويَستَصْغِرُهُ، وهو لا يطيقُ ذلك لعزَّةِ نفسِه، فيحسُدُهُ لو أصابَ تلكَ النِعمةَ تعزُّزاً لنفسِه. فليس غرضُه أن يتكبَّر، لأنّه قد رضِيَ بمساواتِه، بل غـرضُه أن يـدفعَ كِبرَهُ.

السادس: التكبُّرُ. وهو أن يكونَ في طبعِهِ الترفُّعُ على بعضِ الناسِ، ويتوقَّع منه الانـقيادَ والمتابعةَ في مقاصِدِه، فإذا نال بعضَ النِعَمِ خاف ألّا يحتملَ تكبُّرَهُ ويترَفَّعَ عن خدمتِه، وربّما أرادَ مُساواته أو التفوّقَ عليه، فيعود مخدوماً بعدَ أن كان خادِماً، فيحسدُهُ في وصولِ النـعمةِ لأجلِ ذلك. وقد كان حسدُ أكثرِ الكفّارِ لرسولِ الله ﷺ من هذا القبيلِ، حيث قالوا: كيف يتقدَّمُ علينا غلامٌ فقيرٌ يتيمٌ؟ ﴿لَوْلا نُزِّلَ هذا القُرءانُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتينِ عَظيمٍ﴾[1].

السابع: التعجُّبُ. وهو أن يكونَ المحسودُ في نظرِ الحاسدِ حقيراً، والنعمةُ عظيمةً، فيَعْجَبُ

---

١. الزخرف (٤٣): ٣١.

من فوزِ مثلِه بمثلِها، فيحسدُهُ ويحبُّ زوالَها عنه، ومن هذا القبيلِ حسدُ الأُممِ لأنبيائِهم، حيث قالوا: ﴿ما أَنتُم إِلّا بَشَرٌ مِثلُنا﴾[١]، ﴿فَقالوا أَنُؤمِنُ لِبَشَرينِ مِثلِنا﴾[٢]، ﴿وَلَئِن أَطَعتُم بَشَراً مِثلَكُم إِنَّكُم إِذاً لَخاسِرونَ﴾[٣].

فَتَعَجَّبُوا من فوزِ من هو مثلُهم برتبةِ الوحي والرسالةِ، وحسدُوه بمجرّدِ ذلك، من دونِ قصدِ تكبّرٍ أو رئاسةٍ أو عداوةٍ أو غيرِها من أسبابِ الحسدِ.

وقد تجتمعُ هذه الأسبابُ أو أكثرُها في شخصٍ واحدٍ، فيَعظُمُ لذلك حسدُه، ويَقوَى قُوّةً لا يقدِرُ معها على المجاملةِ، فتظهرُ العداوةُ المُكاشَفةِ. وربّما قوِيَ الحسدُ بحيثُ يتمنَّى صاحبُه أن يزولَ عن كلِّ أحدٍ مايراهُ له من النعمةِ وينتقلَ إليه. ومثلُه لا ينفَكُّ عن الجهلِ والحرصِ، إذ هو يتمنّى استجماعَ جميعِ النِعَمِ والخيراتِ الحاصلةِ لجميعِ الناسِ له، ولا ريبَ في استحالةِ ذلك، ولو قُدِّرَ إمكانُه لايُمكِنُه الاستمتاعُ بها، فلو لم يكن حريصاً لم يَتَمَنَّ ذلك أصلاً، ولو كان عالِماً لدفعَ هذا التمنِّي بقوّتِه العاقِلة.

تنبيه: بعض الأسبابِ المذكورةِ، كما يقتضي أن يَتَمَنَّى زوالَ النعمةِ والسرورِ به كذلك يقتضي تمنِّيَ حدوثِ البليّةِ والارتياحِ منه، إلّا أنّ المعدودَ من الحسدِ هو الأوّل، والثاني معدودٌ من العداوةِ. فالعداوةُ أعمُّ منه، إذ هي تمنّي وقوعِ مطلقِ الضررِ بالعدوِّ، سواء كان زوالَ نعمةٍ أو حدوثَ بليّةٍ. والحسدُ تمنّي زوالِ مجرّدِ النِعمةِ.

البحث الرابع: لا تحاسُدَ بينَ علماءِ الآخرةِ والعارِفين

الأسبابُ المذكورةُ إنّما تَكثُرُ بينَ أقوامٍ تَجمَعُهم رَوابِطُ يجتمعونَ لأجلِها في مجالِس المخاطباتِ ويَتوارَدُونَ على الأغراضِ، فإذا خالفَ بعضُهم بعضاً في غَرَضٍ من أغراضِه أبغضَهُ وثَبتَ فيه الحقدُ، فعندَ ذلك يُريدُ استحقارَه والتكبُّرَ عليه، ويكونُ في صددِ مكافأتِه على المخالفةِ لغرضِه، ويكرهُ تمكُّنَهُ من النعمةِ التي تُوصِلُه إلى أغراضِه، فيتحقّق الحَسدُ. ولذا ترى

١. يس (٣٦): ١٥.

٢. المؤمنون (٢٣): ٤٧.

٣. المؤمنون (٢٣): ٣٤.

أنّه لا تحاسُدَ بينَ شخصَين في بلدتَينِ متباعِدتَينِ لِعدَمِ رابطةٍ بينَهما، إلّا إذا تجاوروا في محلٍّ واحدٍ، وتوارَدا على مقاصِدَ تظهَرُ فيها مُخالفَةٌ بينَهما فيحدثُ مِنهُما التباغضُ، وتثورُ منه بقيّة أسباب الحسد، وترى كلّ صنفٍ يحسدُ مثلَه دونَ غيره، لتوارُدِهما على المقاصِدِ، وتَزاحُمِهما على صنعةٍ واحدةٍ. فالعالِمُ يحسدُ العالمَ دونَ العابدِ، والتاجِرُ يحسدُ التاجرَ دونَ غيره، إلّا بسببٍ آخرَ سِوى الاجتماعِ على الحرفةِ، وهكذا يغمّ من اشتدَّ حرصُه على حبِّ الجاهِ وأحبَّ الصيتَ والاشتهارَ في جميع أطرافِ العالمِ وشاقَ التفرُّد بما هو فيه؛ فإنّه يحسدُ كلّ من في العالَمِ ممّن يشارِكُهُ في الفنِّ الذي يتفاخَرُ به.

ثمّ منشأ جميعِ ذلك حبُّ الدنيا؛ إذ منافعُها لضيقِها وانحصارِها تصيرُ محلَّ التَزاحُمِ والتَعارُكِ، بحيثُ لا يُمكِنُ وصولُ منفعةٍ منها ـ كمنصبٍ أو مالٍ ـ إلى أحدٍ إلّا بزوالِها عن الآخر. وأمّا الآخرةُ فلا ضيقَ فيها فلا تنازعَ بينَ أهلِها. ومثالُها في الدنيا العلمُ، فإنّه منزَّهٌ عن المُزاحَمَةِ، فمن يحبُّ العلمَ باللهِ وصفاتِهِ وأفعالِه ومعرفةِ النظامِ الجمليّ من البَدءِ إلى النهايةِ، لم يحسد غيرَه إذا عرف ذلكَ أيضاً، إذ العلمُ لا يَضِيقُ عن كثرةِ العالِمين، والمعلومُ الواحدُ يعرِفُهُ ألفُ ألفِ عالمٍ، ويفرَحُ كلُّ واحدٍ منهم بمعرفتِه ويلتذُّ به ولا ينقُصُ ما لديهِ بمعرفةِ غيرِه، بل يحصلُ بكثرةِ العارفينَ زِيادَةُ الأُنسِ وثمرةُ الإفادةِ والاستفادةِ، إذ معرفةُ اللهِ بحرٌ واسعٌ لا ضِيقَ فيه، وكلُّ علمٍ يزيدُ بالإنفاقِ وتشريكِ غيرِه من أبناء النوعِ، يصيرُ منشأً لزيادةِ اللذّةِ والبهجةِ.

وقِس على العلمِ التقرُّبَ والمنزلةَ عندَاللهِ وغيرَهما من النِعَمِ الأُخرويّة. فإنّ أجلَّ ما عندَ اللهِ من النعم وأعلى مراتبِ المنزلةِ والقُربِ عندَه تعالى لذّةُ لقائِه، وليس فيها ممانعةٌ ومزاحمةٌ، ولا يَضِيق بعضُ أهلِ اللقاءِ على بعضٍ، بل يزيدُ الأُنسُ بكثرتِهم.

وقد ظهر ممّا ذكر: أنّه لا تحاسُدَ بينَ علماءِ الآخرةِ، لأنّهم يلتَذُّونَ ويبتَهِجُونَ بكثرةِ المشاركينَ في معرفةِ الله وحبِّهِ وأُنسِهِ وإنّما يقعُ التَحاسُدُ بينَ علماءِ الدنيا، وهم الذين يقصدونُ بعلمِهم طلبَ المالِ والجاهِ. إذ المالُ أعيانٌ وأجسامٌ، إذا وقعت في يدِ واحدٍ خلَت عنها أيدي الآخرين. والجاه مِلكُ القلوبِ، وإذا امتلأ قلبُ شخصٍ بتعظيمِ عالم انصرفَ عن تعظيمِ الآخرِ، أو نقصَ عنه لا محالةَ، فيكون ذلك سبباً للتحاسدِ. وأمّا إذا امتلأ قلبُه من الابتهاجِ بمعرفةِ الله،

لم يمنع ذلك من أن يمتلئَ غيرُه به. فلو ملك إنسانٌ جميعَ ما في الأرضِ، لم يبقَ بعدَه مالٌ يملِكُه غيرُه لضيقِهِ وانحصارِه. وأمّا العلمُ فلا نهايةَ له، ومع ذلك لو ملكَ إنسانٌ بعضَ العلومِ، لم يمنع ذلك من تَملُّكِ غيرِه له.

فظهر أنّ الحسدَ إنّما هو في التَّوارُدِ على مقصودٍ مُضَيّقٍ عن الوفاءِ بالكلِّ، فلا حسدَ بينَ العارفين ولا بينَ أهل علّيّين، لعدمِ ضيقٍ ومُزاحمةٍ في المعرفةِ ونعيمِ الجنّةِ، ولذا قال اللهُ سبحانه فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[١].

بل الحسدُ من صفاتِ المسجونين في سجنِ السِجّينِ.

فيا حبيبي، إن كنتَ مُشفِقاً على نفسِكَ طالباً لعمارةِ رَمْسِكَ، فاطلُب نعمةً لا مُزاحَمَةَ فيها، ولَذَّةً لا مُكَدِّرَ لها. وما هي إلّا لذّةُ معرفةِ اللهِ وحُبِّه وأُنسِهِ، والانقطاعِ إلى جنابِ قدسِه. وإن كنتَ لا تلتَذُّ بذلك ولا تشتاقُ إليه، وتنحصرُ لذّاتُكَ بالأُمورِ الحِسّيَّةِ والوهميَّةِ، فاعلمَ أنّ جوهرَ ذاتِك معيوبٌ، وعن عالَمِ الأنوارِ محجوبٌ، وعن قريبٍ تُحشَرُ مع البهائمِ والشَياطِين، وتكونُ مغلولاً معهم في أسفلِ السافلينِ.

البحث الخامس: علاجُ الحسدِ

لمّا عُلِمَ أنّ الحسدَ من الأمراضِ المهلكةِ للنفوسِ، فاعلَم أنّ أمراضَ النفوسِ لا تَداوَى إلّا بالعلمِ والعملِ. والعلمُ النافعُ لمرضِ الحسدِ أن تعرِفَ أنّه يضُرُّكَ في الدينِ والدنيا، ولا يَضُرُّ محسودَك فيهما، بل ينتَفِعُ به فيهما. ومهما عرفت ذلكَ عن بصيرةٍ وتحقيقٍ، ولم تكن عدوّ نفسِك لا صديقَ عدوِّك، فارَقْتَ الحسدَ.

وأمّا أنّه يَضُرُّ بدينِكَ ويُؤدّي بك إلى عذابِ الأبدِ وعِقاب السَرْمَدِ فلِما عَلِمتَ من الآياتِ والأخبارِ الواردةِ في ذمِّه وعقوبةِ صاحبه، ولِما عرفتَ من كونِ الحاسدِ ساخطاً لقضاءِ اللهِ تعالى، وكارهاً لِنعمِه التي قَسَمها لعبادِه، ومنكراً لِعدلِه الذي أجراهُ في مُلكِه. ومثلُ هذا السُخطِ والإنكارِ لإيجابِهِ الضِدِّيَّةَ والعنادَ لخالِقِ العبادِ، كاد أن يزيلَ أصلَ التوحيدِ والإيمانِ،

---

١. الحجر (١٥): ٤٧.

فضلاً عن الإضرارِ بهما. على أنّ الحسدَ يوجبُ الغشَّ والعداوةَ بالمؤمنِ، وتركَ نصيحتِه وموالاتِه وتعظيمِه ومراعاتِه، ومفارقةَ أنبياءِ اللهِ وأوليائِه في حبِّهم الخيرَ والنعمةَ له، ومشاركةَ الشيطانِ وأحزابِه في فرحِهم بوقوعِ المصائب والبلايا عليه وزوالِ النِعم عنه. وهذه خبائثُ في النفسِ، تأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ.

وأمّا أنّه يضرُّكَ في الدنيا، لأنّك تتألّمُ وتتعذّبُ به، ولا تزالُ في تعبٍ وغمٍّ وكدٍّ وهمٍّ. إذ نِعَمُ اللهِ لا تَنقَطِعُ عن عبادِه ولا عن أعدائِك، فأنتَ تتعذّبُ بكلِّ نعمةٍ تراها لهم، وتتألّمُ بكلِّ بليّةٍ تَنصرِفُ عنهم، فتبقى دائماً مغموماً محزوناً، ضَيّقَ النفسِ مُنشَعِبَ القلبِ. فأنتَ باختيارِكَ تجُرُّ إلى نفسِكَ ما تُريدُ لأعدائِكَ ويريدُ أعداؤك لك، وما أعجبَ من العاقلِ أن يتعرّضَ لسُخطِ اللهِ ومقتِه في الآجلِ، ودوامِ الضَرَرِ والألمِ في العاجلِ، فيُهلِكُ دينَه ودنياهُ من غيرِ جدوىً وفائدةٍ.

وأمّا أنّه لا يضرُّ المحسودَ في دينِه ودنياهُ فظاهرٌ؛ لأنَّ النعمةَ لا تزولُ عنه بحسدِك، إذ ما قدّرَه اللهُ من النعمِ على عبادِه لابدّ أن يستَمِرَّ إلى وقتِه، ولا ينفعُ التدبيرُ والحيلةُ في دفعِه، لا مانعَ لما أعطاهُ ولا رادَّ لما قضاهُ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[1]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[2].

ولو كانت النعمُ تزولُ بالحسدِ، لم تَبقَ عليك وعلى كافّةِ الخلقِ نعمةٌ، لعدمِ خُلُوِّكَ وخُلُوِّهم عن الحسدِ، بل لم تبقَ نعمةُ الإيمانِ على المؤمنين، إذ الكفّارُ يحسدونَهم، كما قال الله سبحانه: ﴿وَدَّت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[3]. ولو تصوّرْتَ زوالَ النعمةِ عن محسودِك بحسدِك، وعدمَ زوالِها عنك بحسدِ حاسِدك، لكنتَ أجهلَ الناسِ وأشدَّهم غباوةً. نعم، ربّما صار حسدُك منشأً لانتشارِ فضلِ المحسودِ، كما قيل:

وإذا أرادَ اللهُ نَشرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لها لِسانَ حَسُودِ

فإذا لم تَزُلْ نعمتُه بحسدِك، لم يَضُرَّهُ في الدنيا، ولا يكونُ عليهِ إثمٌ في الآخرةِ.

وأمّا أنّه ينفعُه في الدينِ، فذلك ظاهرٌ من حيثُ كونه مظلوماً من جهتِك، لا سيّما إذا

---

١. الرعد (١٣): ٣٨.
٢. الرعد (١٣): ٨.
٣. آل عمران (٣): ٦٩.

أخرجَك الحسدُ إلى ما لا ينبغي من القولِ والفعلِ، كالغيبةِ، والبهتانِ، وهتكِ سِترِهِ، وإفشاءِ سِرِّهِ، والقدحِ فيه، وذكرِ مساوئِه. فتحتملُ بهذه الهدايا التي تُهديها إليه بعضاً من أوزارِه وعِصيانِه، وتنقُلُ شطراً من حَسَناتِك إلى ديوانِه، فيلقاكَ يومَ القيامةِ مفلساً محروماً من الرحمةِ، كما كنتَ تلقاهُ في الدنيا محروماً من النعمةِ. فأَضَفْتَ له نعمةً إلى نعمةٍ، ولنفسِك نِقمةً إلى نقمةٍ.

وأمّا أنّه ينفعُه في الدنيا، فهو أنّ أهمَّ أغراضِ الناسِ مساءَةُ الأعداءِ، وسوءُ حالهم، وكونُهم متألّمين معذّبين. ولا عذابَ أشدُّ ممّا أنت فيه من ألمِ الحسدِ. فقد فعلت بنفسِك ما هو غايةُ مرادِ حُسّادِك في الدنيا، وإذا تأمّلتَ هذا عرفتَ أنّ كلَّ حاسدٍ عدوُّ نفسِه وصديقُ عدوِّه. فمَن تأمّل في ذلك وتذكّر ما يأتي من فوائدِ النصيحةِ وحبِّ الخيرِ والنعمةِ للمسلمين، ولم يكن عدوَّ نفسه، فارقَ الحسدَ ألبَتَّةَ.

وأمّا العملُ النافعُ فيهِ، فهو أن يُواظِبَ على آثارِ النصيحةِ التي هي ضدُّه، بأن يُصَمِّمَ على أن يُكلِّفَ نفسَه بنقيضِ ما يقتضيهِ الحسدُ من قولٍ وفعلٍ، فإن بعثَه الحسدُ على التكبُّرِ عليه ألزَمَ نفسَه التواضُعَ له، وإن بعثَه على غِيبتِه والقَدحِ فيه كلَّفَ لِسانَه المدحَ والثَناءَ عليه، وإن بعثه على الغشِّ والخُرقِ بالنسبةِ إليه كلّف نفسَه بِحسنِ البِشرِ واللِّينِ معه، وإن بَعثَه على كفِّ الإنعامِ عنه ألزمَ نفسَه زيادتَه. ومهما فعل ذلك عن تكلُّفٍ وكرَّرَه وداوَم عليه، انقطعت عنه مادّةُ الحسدِ على التدريجِ. على أنّ المحسودَ إذا عرف منه ذلك طابَ قلبُه وأحبَّه، وإذا ظهر حبُّه للحاسِدِ زال حسدُه وأحبَّه أيضاً، فتتولَّدُ بينَهما المُوافقةُ، وتَرتَفِعُ عنهما مادّةُ المحاسدَةِ، وهذا هو المعالجةُ الكلّيّةُ لمطلقِ مرضِ الحسد.

والعلاجُ النافعُ لكلِّ نوعٍ منه أن يَقمَعَ سَبَبَهُ، من خبثِ النفسِ وحبِّ الرئاسةِ والكِبرِ وعزّةِ النفسِ وشدّةِ الحرصِ وغيرِ ذلك ممّا ذُكِر، وعلاجُ كلِّ واحدٍ من هذه الأسبابِ يأتي في محلِّه.

وصـل

ضدّ الحسد: النصيحة

قد عرفتَ أنّ ضدّ الحقدِ والحسدِ النصيحةُ، وهي إرادةُ بقاءِ نعمةِ اللهِ للمسلمينَ، وكراهةُ وصولِ الشرِّ إليهم. وقد تُطلَقُ في الأخبارِ على إرشادِهم إلى ما فيه مصلحتُهم وغِبطتُهم، وهو لازِمٌ للمعنى الأوّلِ. فينبغي أن نشيرَ إلى فوائدِها وما وردَ في مدحِها، تحريكاً للطالبين على المواظبةِ عليها ليرتَفِعَ بها ضدُّها.

اعلَم أنَّ من أحبَّ الخيرَ والنعمةَ للمسلمينَ كان شريكاً في الخيرِ، بمعنى أنّه في الثوابِ كالمُنعِمِ وفاعِلِ الخيرِ. وقد ثبتَ من الأخبارِ أنّ من لم يدرِكْ درجةَ الأخيارِ بصالحاتِ الأعمالِ ولكنّه أحبَّهم يكونُ يومَ القيامةِ محشوراً معهم، كما ورد: «إنّ المرءَ يُحشَرُ مع من أحبَّ»[1]. وقال رجلٌ بحضرةِ النبيِّ ـ بعد ما ذُكِرَت الساعةُ ـ: «ما أعدَدْتُ لها من كثيرِ صلاةٍ ولا صيامٍ، إلّا أنّي أحبُّ اللهَ ورسولَه». فقال ﷺ: «أنتَ مع من أحبَبْتَ»[2]. قال الراوي: فما فرحَ المسلمونَ بعدَ إسلامِهم كفرَحِهم يومئذٍ، إذ أكثرُ ثقتِهم كانت بحبِّ الله وبحبِّ رسولِه. ورُوي: أنّه قيل له ﷺ: الرجلُ يحبُّ المصلِّين ولا يصلِّي، ويحبُّ الصُوّامَ ولا يصومَ ـ حتّى عدّ

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٨١، باب أنّ العمل جزء الإيمان، ذيل الحديث ٢٩.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٢٩٥.

أشياءَ ـ فقال: «هو مع من أحبَّ»[١]. وبهذا المضمون وردَتْ أخبارٌ كثيرةٌ.

والأخبارُ الواردةُ في مدحِ خصوصِ النصيحةِ وذمِّ تَركِها، وفي ثوابِ تركِ الحسدِ وعظمِ فوائِده، أكثرُ من أن تُحصَى:

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: إنّ أعظمَ الناسِ منزلةً عندَالله يومَ القيامةِ أمشاهُم في أرضهِ بالنصيحةِ لخلقِه»[٢]. وعن أبي جعفرٍ عليه السلام قال: «قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: لِيَنصَحْ الرجلُ منكم أخاهُ كنصيحتِه لنفسِه»[٣]. وقال الصادقُ عليه السلام: «يجبُ للمؤمنِ على المؤمنِ النصيحةُ له في المشهدِ والمَغيبِ»[٤]. وقال عليه السلام: «عليك بالنصحِ للهِ في خلقِه، فلن تلقاهُ بعملٍ أفضل منه»[٥]. وبمضمونها أخبارٌ أُخرُ. وعن أبي عبدِالله عليه السلام قال: «قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: من سَعَى في حاجةٍ لأخيهِ فلم يَنصَحْهُ، فقد خانَ اللهَ ورسولَه»[٦]. والأخبارُ الأُخر بهذا المضمونِ أيضاً كثيرةٌ. ورُوي: «أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله شهِدَ لرجلٍ من الأنصارِ بأنّه من أهلِ الجنّةِ»[٧]، وكان باعثُه ـ بعد التفتيشِ ـ خُلُوَّهُ عن الغشِّ والحسدِ على خيرٍ أُعطِي أحداً من المسلمين. وروي:

> أنّ موسى عليه السلام لمّا تعجَّلَ إلى ربِّه، رأى في ظلِّ العرشِ رجلاً، فغبطه بمكانِه، وقال: إنّ هذا لكريمٌ على ربِّه. فسأل ربَّه أن يخبرَ باسمِه، فلم يُخبِرْهُ باسمِه، وقال: «أُحَدِّثُكَ عن عمله: كان لا يحسدُ الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فضلِه، وكان لا يعقُّ والدَيهِ، ولا يَمشِي بالنميمةِ».[٨]

وغاية النصيحة أن يحبَّ لأخيه مايحبُّ لنفسِه. وقال صلى الله عليه وآله: «لا يؤمنُ أحدُكم حتّى يحبَّ

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٩٨.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٨، باب نصيحة المؤمن، ح ٥.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٨، باب نصيحة المؤمن، ح ٤.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٨، باب نصيحة المؤمن، ح ٢.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٨، باب نصيحة المؤمن، ح ٦.
٦. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٢، باب من لم يناصح أخاه المؤمن، ح ١.
٧. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٣٢٥.
٨. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٣٢٦.

لأخيهِ مـا يحبُّ لنـفسِه»[١]. وقـال ﷺ: «إنّ أحـدَكـم مـرآةُ أخـيه، فـإذا رأى بـه شـيئاً فليُمِطْ عنه»[٢].

١. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٤٠٤.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٤٠٤.

النوع الثاني: الإيذاءُ والإهانةُ والاحتقارُ

ولا ريبَ في كونِ ذلك في الغالبِ مترتّباً على العداوةِ والحسدِ، وإن تَرَتَّبَ بعضُ أفرادِها في بعضِ الأحيانِ على مجرّدِ الطمعِ أو الحرصِ ليكون من رداءةِ القوّةِ الشهويّة، أو على مجرّدِ الغضبِ وسوءِ الخلقِ والكِبرِ، وإن لم يكن حقدٌ وحسدٌ. وعلى أيّ تقديرٍ لا شبهةَ في أنّ إيذاءَ المؤمنِ واحتقارَه محرّمٌ في الشريعةِ، مُوجِبٌ للهلاكِ الأبديِّ. قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ: «من آذى مؤمناً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى اللهَ، ومن آذى اللهَ فهو ملعونٌ في التوراةِ والإنجيلِ والزَبورِ والفُرقانِ»[2]. وفي خبرٍ آخرَ: «فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين»[3]. وقال ﷺ: «لا يحلُّ للمسلم أن يشيرَ إلى أخيه بنظرةٍ تُؤذِيه»[4]. وقال ﷺ:

ألا أُنبِئُكُم بالمؤمنِ! مَن ائتَمَنَهُ المؤمنون على أنفسِهم وأموالِهم. ألا أُنبِئُكم بالمسلم! من سَلِمَ المسلمونَ من لسانِه ويدِه. والمؤمنُ حرامٌ على المؤمنِ أن يظلِمَهُ أو يَخذُلَهُ أو يَغتابَهُ أو يدفَعَهُ دَفعةً[5].

---

١. الأحزاب (٣٣): ٥٨.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٥٠، باب من أخاف مؤمناً، ح ١٣.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٥٠، باب من أخاف مؤمناً، ذيل الحديث ١٣.

٤. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١٩٥.

٥. الكافي، ج ٢، ص ٢٣٥، باب المؤمن وعلاماته وصفاته، ح ١٩.

وقال الصادقُ عليه السلام: «قال اللهُ عزّوجلّ: لِيَأذَنْ بحربٍ منّي من آذى عبدِي المؤمنِ»[١].

وقال عليه السلام:

إذا كان يوم القيامةِ، نادى منادٍ: أين المؤذُونَ لأوليائي؟ فيقوم قومٌ ليس على وجوهِهم لحمٌ، فيقال: هؤلاء الذين آذَوا المؤمنين، ونصبوا لهم وعانَدُوهم وعَنَّفُوهم في دينِهم. ثمّ يُؤمَرُ بِهم إلى جَهَنَّمَ[٢].

وقال عليه السلام: «إنّ اللهَ تبارك وتعالى يقول: من أهان لي وليّاً فقد أرصدَ لِمُحاربتي، وأنا أسرَعُ شيءٍ إلى نُصرةِ أوليائي»[٣]. وقال عليه السلام: «قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: قال الله: قد نابذني من أذلَّ عبدِيَ المؤمن»[٤]. وقال عليه السلام: «من حقَرَ مؤمناً مسكيناً أو غيرَ مسكينٍ، لم يزل اللهُ حاقراً له ماقِتاً، حتّىٰ يرجِعَ عن مَحْقَرَتِهِ إيّاهَ»[٥]. وفي معناها أخبارٌ كثيرةٌ أُخرُ.

ومن عرفَ النسبةَ التي بين العلّةِ والمعلُولِ، والربطَ الخاصَّ الذي بينَ الخالقِ والمخلوقِ، يعلم أنّ إيذاءَ العبادِ وإهانَتَهُم يرجِعُ في الحقيقةِ إلى إيذاءِ اللهِ وإهانتِه، وكفاه بذلك ذمّاً، فيجبُ على كلِّ عاقلٍ أن يكونَ دائماً متذكّراً لذمِّ إيذاءِ المسلمينَ واحتقارِهم، ولمدحِ ضدِّهما من رفعِ الأذيّةِ عنهم وإكرامِهم، ويحافظُ نفسَه عن ارتكابِها، لئلّا يفتَضِحَ في الدنيا ويعذَّبَ في الآخرةِ.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٥٠، باب مَن أذى المسلمين واحتقرهم، ح ١.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٥١، باب من أذى المسلمين واحتقرهم، ح ٢.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٥١، باب من أذى المسلمين واحتقرهم، ح ٥.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٣٥١ ـ ٣٥٢، باب من أذى المسلمين واحتقرهم، ح ٦.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٣٥١، باب من أذى المسلمين واحتقرهم، ح ٤.

وصــل

ضدّ الإيذاء: كفُّ الأذى عن المسلمينَ

لا ريبَ في فضيلةِ أضدادِ ما ذُكِر وفَوائِدِها، من كـفِّ الأذى عـن المـؤمنينَ والمسـلمينَ وإكرامِهم وتعظيمِهم. والظواهرُ الواردةُ في مدحِ دفعِ الضَرَرِ وكفِّ الأذى عن الناسِ كـثيرةٌ، كقولِ النبيّ ﷺ: «من ردَّ عن قومٍ من المسلمين عاديةَ مـاءٍ أو نـارٍ وَجَـبَتْ له الجـنَّةُ»[1]. وقوله ﷺ: «أفضلُ المسلمينَ من سَلِمَ المسلمون من لسانِه ويدِهِ»[2].

وكذا الأخبارُ التي وردت في مدحِ إكرامِ المؤمنِ وتعظيمِه كثيرةٌ. قال الصادق عليه السلام: «قال اللهُ سبحانَه: ليأمَنْ غضبي مَن أكرمَ عبديَ المؤمنَ»[3] وقال رسول الله ﷺ: «من أكرمَ أخاهُ المسلمَ بكلمةٍ يلطفهُ بها، وفرّج عنه كُربَتَهُ، لم يَزَلْ في ظلِّ اللهِ الممدودِ عليه الرحمة ما كان في ذلك»[4]. وقال ﷺ: «أيّما مسلمٍ خدم قوماً من المسلمينَ إلّا أعطاهُ اللهُ مثلَ عددِهم خُدّاماً في الجنّةِ»[5]. وقال الصادق عليه السلام: «من أتاه أخوهُ المؤمنُ فأكـرمَهُ، فـإنّما أكـرمَ اللـهَ عزّ وجلّ»[6].

---

١. الكافي، ج ٥، ص ٥٥، باب بدون العنوان في كتاب الجهاد، ح ٣.

٢. كنز العمّال، ج ١، ص ١٥١، ح ٧٥٠.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٥٠، باب من أذى المسلمين واحتقرهم، ح ١.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٦، باب في ألطاف المؤمن وإكرامه، ح ٥.

٥. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٧، باب في خدمته، ح ١.

٦. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٦، باب في ألطاف المؤمن وإكرامه، ح ٣.

وقال عليه السلام لإسحاق بنِ عمّار: «أحسِن يا إسحاقُ إلى أوليائي ما استطعتَ، فما أحسنَ مؤمنٌ إلى مؤمنٍ ولا أعانَه إلّا خَمَشَ وجهَ إبليسَ وقَرَّحَ قلبَه»[١].

ثمّ ينبغي تخصيصُ بعضِ طبقاتِ الناسِ بزيادةِ التعظيمِ والإكرامِ، كأهلِ العلمِ والورعِ، لما وردَ من الحثِّ الأكيدِ في الأخبارِ على إكرامِهم والإحسانِ إليهم، وكذا ينبغي تخصيصُ ذي الشيبةِ المسلمِ بزيادةِ التوقيرِ والتكريمِ، وقد وردَ ذلك في الأخبارِ الكثيرةِ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «من عرف فضلَ كبيرٍ لسنِّهِ فوَقَّرَهُ، آمنه اللهُ من فزعِ يومِ القيامةِ»[٢]. والأخبارُ في هذا المضمونِ كثيرةٌ.

وكذا ينبغي تخصيصُ كريمِ القومِ بزيادةِ الإكرامِ، لقولِ النبيّ صلى الله عليه وآله: «إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرِمُوهُ»[٣].

وكذا تخصيصُ الذريّةِ العلويّةِ بزيادةِ الإكرامِ والتعظيمِ. قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «حقّت شفاعتي لمن أعانَ ذرّيتي بيدِه ولسانِه ومالِه»[٤]. وقال صلى الله عليه وآله: «أربعةٌ أَنَاهم شفيعٌ يومَ القيامةِ: المُكرِمُ لذرّيتي، والقاضي لهم حوائجَهُم، والساعي لهم في أُمورِهم عند ما اضطرُّوا إليه، والمحبُّ لهم بقلبِه ولسانِه»[٥]. وقال صلى الله عليه وآله: «أكرِمُوا أولادي، وحَسِّنُوا آدابي»[٦]. وقال صلى الله عليه وآله: «أكرِمُوا أولادي، الصالحونَ للهِ والطالحونَ لي»[٧]. والأخبارُ في فضلِ الساداتِ وثوابِ من يكرِمهُم ويُعِينُهم أكثرُ من أن تُحصَى.

إضرار المسلم: وإضرارُ المسلمِ قريبٌ من معنى إيذائِه، وربّما كان الإضرارُ أخصَّ منه، فما يدلّ على ذمِّه يدلُّ على ذمِّه، كقول النبيِّ صلى الله عليه وآله: «خَصلتان ليس فوقَها شيءٌ من الشرِّ:

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٧، باب في ألطاف المؤمن وإكرامه، ح ٩.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٢٥٨، باب في وجوب إجلال ذي الشيبة المسلم، ح ٢.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٦٥٩، باب إكرام الكريم، ح ١ و٢.
٤. مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٣٧٦، أبواب فعل المعروف، الباب ١٧، ح ٨.
٥. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٤٩، باب الشفاعة، ح ٥٣.
٦. مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٣٧٦، أبواب فعل المعروف، الباب ١٧، ح ٨.
٧. مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٣٧٦، أبواب فعل المعروف، الباب ١٧، ح ٨.

الشِركُ باللهِ تعالى، والضرُّ بعبادِ اللهِ»[١]. ولا ريبَ في أنّ إيصالَ النفعِ إلى المؤمنين من شرائفِ الصفاتِ والأفعالِ. والأخبارُ الواردةُ في فضيلتِه كثيرةٌ، قال رسول الله ﷺ: «الخلقُ عيالُ اللهِ، فأحبُّ الخلقِ إلى اللهِ مَن نفعَ عيالَ اللهِ، وأَدخلَ على أهلِ بيتِه سُروراً»[٢]. وسُئل ﷺ: «من أحبُّ الناسِ إلى الله؟ قال: أنفعُ الناسِ للناسِ»[٣]. وقال رسول الله ﷺ: «خصلتانِ من الخيرِ ليس فوقَهما شيءٌ من البرِّ: الإيمانُ باللهِ، والنفعُ لعبادِ اللهِ»[٤].

تنبيه: ذمُّ الظلمِ بالمعنى الأخصّ

اعلم أنّ الظلمَ قد يُرادُ بِهِ ما هو ضدُّ العدالةِ، وهو التعدّي عن الوسطِ في أيّ شيءٍ كان، وهو جامعٌ للرذائلِ بأسرِها، وهذا هو الظلمُ بالمعنى الأعَمِّ، وقد يُطلقَ عليه الجَورُ أيضاً، وقد يراد به ما يُرادِفُ الإضرارَ والإيذاءَ بالغيرِ، وهو يتناول قتلَه وضربَه وشتمَه وقذفَه وغيبَته وأخذَ مالِه قهراً ونهباً وغصباً وسرقةً، وغيرَ ذلك من الأقوالِ والأفعالِ المؤذيةِ. وهذا هو الظلمُ بالمعنى الأخصّ، وهو المرادُ إذا أُطلِقَ في الآياتِ والأخبارِ وفي عرفِ الناسِ. وباعثُه إن كانت العداوةُ والحسدُ يكونُ من رذائلِ قوّة الغضبِ، وإن كان الحرصُ والطمعُ في المالِ يكون من رذائلِ قوّةِ الشهوةِ. وهو أعظمُ المعاصي وأشدُّها عذاباً باتّفاقِ جميعِ الطوائفِ. ويدلّ على ذمّه ـ بعد ما وردَ في ذمِّ كلٍّ واحدٍ من الأُمورِ المندرجةِ تحتَه كما يأتي بعضُها ـ ما تكرّر في القرآنِ من اللعنِ على الظالمين، وكفاه ذمّاً أنّه تعالى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٥]. وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٦].

وقال رسولُ الله ﷺ: «إنّ أهونَ الخلقِ على اللهِ، مَن وَلِيَ أمرَ المسلمين فلم يعدِل

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٢٠٨.
٢. الكافي، ج ٢، ص ١٦٤، باب الاهتمام بأُمور المسلمين، ح ٦.
٣. الكافي، ج ٢، ص ١٦٤، باب الاهتمام بأُمور المسلمين، ح ٧.
٤. بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ١٣٧، باب ما جمع من مفردات كلمات الرسول ﷺ، ح ٢.
٥. الشورى (٤٢): ٤٢.
٦. إبراهيم (١٤): ٤٢.

لهم»[١]. وقال ﷺ: «جورُ ساعةٍ في حكمٍ أشدُّ وأعظمُ عندَ الله من معاصي تسعينَ سنة»[٢]. وقال ﷺ: «اتّقُوا الظلمَ، فإنّه ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ»[٣]. وقال ﷺ: «من خاف القِصاصَ كفَّ عن ظلمِ الناسِ»[٤]. وروي: «أنّه تعالى أوحى إلى داود: قل للظالمين لا تَذكُروني، فإنّ حقّاً عليّ أن أذكرَ من ذكرني، وإنّ ذكري إيّاهم أن ألعَنَهم»[٥]. وقال عليّ بن الحسين عليهما السلام لابنهِ أبي جعفر عليه السلام حين حضرَتْهُ الوفاةُ: «يا بنيَّ، إيّاك وظلمَ من لا يجدُ عليك ناصراً إلّا اللهَ»[٦]. وقال أبو جعفر عليه السلام: «ما من أحدٍ يظلِمُ بمظلمةٍ إلّا أخذَه اللهُ تعالى بها في نفسِه ومالِه»[٧].

ثمّ إنّ مُعينَ الظالِمِ، والراضِي بفعلِه، والساعي له في قضاءِ حوائـجِه وحـصولِ مـقاصده، كالظالمِ بعينِه في الإثمِ والعقوبةِ. قال الصادقُ عليه السلام: «العاملُ بالظلمِ، والمعينُ له، والراضي به، شركاءُ ثلاثتُهم»[٨]. وقال عليه السلام «من عذرَ ظالماً بظلمِه، سلّط اللهُ عليه من يظلِمُهُ، فـإن دعـا لم يُستَجَبْ له، ولم يأجرْه اللهُ على ظُلامتِه»[٩]. وقال رسولُ الله ﷺ: «شَرُّ الناس المُثَلِّثُ»، قيل: وما المثَلّثُ؟ قال: «الذي يسعى بأخيهِ إلى السلطانِ، فيُهلكُ نفسَه، ويُهلكُ أخاه، ويُهلكُ السلطانَ»[١٠]. وقال ﷺ: «من مشى مع ظالمٍ فقد أجرمَ»[١١]. وقال ﷺ:

إذا كان يوم القيامةِ، نادى منادٍ: أين الظَلَمَةُ وأَعوانُ الظلمةِ، ومن لاقَ لهم دواةً أو ربطَ لهم كيساً أو مدَّهم بِمَدَّةِ قَلَمٍ؟ فاحشرُوهم معهم[١٢].

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٥٢، باب أحوال الملوك والأُمراء، ح ٦١.
٢. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٥٢، باب أحوال الملوك والأُمراء، ح ٦١.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٢، باب الظلم، ح ١١.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٥، باب الظلم، ح ٢٣.
٥. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣١٩ ـ ٣٢٠، باب الظلم وأنواعه، ح ٤٢.
٦. الكافي، ج ٢، ص ٣٣١، باب الظلم، ح ٥.
٧. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٢، باب الظلم، ح ١٢.
٨. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٢، باب الظلم، ح ١٦.
٩. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٤، باب الظلم، ح ١٨.
١٠. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٧٧، باب الركون إلى الظالمين، ح ٣١.
١١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٧٧، باب الركون إلى الظالمين، ذيل الحديث ٣١.
١٢. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٨٠، باب الركون إلى الظالمين، ذيل الحديث ٤٢.

تذنيب: العدلُ بالمعنى الأخصّ

ضدُّ الظلمِ بالمعنى الأخصّ هو العدلُ بالمعنى الأخصّ، وهو الكفُّ عنه، ورفعُه، والاستقامةُ، وإقامةُ كلٍّ أحدٍ على حقِّه. والعدلُ بهذا المعنى هو المرادُ عند إطلاقِه في الآياتِ والأخبارِ، وفضيلتُه أكثرُ من أن تحصىَ. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ﴾[١]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ﴾[٢]. وقال رسولُ الله ﷺ: «عدلُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سبعينَ سنة، قيامُ ليلِها وصيامُ نهارِها»[٣]. وقال الصادق عليه السلام: «من أصبحَ ولا يهمُّ بظلمِ أحدٍ، غُفِر له ما اجترَمَ»[٤]. وقال عليه السلام: «من أصبحَ لا ينوي ظلمَ أحدٍ، غفرالله تعالى له ذنبَ ذلك اليوم، ما لم يَسفِكْ دماً أو يأكل مالَ يتيمٍ حراماً»[٥]. وقال عليه السلام: «العدلُ أحلى من الشَهْدِ، وألينُ من الزبدِ، وأطيبُ رِيحاً من المِسكِ»[٦].

وممّا يدلُّ على فضيلةِ العدلِ بهذا المعنى ما وردَ في ثوابِ ردِّ المَظالمِ. قال رسولُ الله ﷺ: «درهمٌ يَرُدُّهُ العبدُ إلى الخُصماءِ خيرٌ له من عبادةِ ألف سنة، وخيرٌ له من عِتقِ ألفِ رقبة، وخيرٌ له من ألفِ حِجّةٍ وعُمرةٍ»[٧]. وقال ﷺ: «من ردّ أدنى شيءٍ إلى الخصماءِ، جعل الله بينَه وبينَ النارِ ستراً كما بينَ السماءِ والأرضِ، ويكون في عدادِ الشهداء»[٨]. وقال ﷺ: «من أرضَى الخُصَماءَ من نفسِه، وَجَبَتْ له الجنّةُ بغيرِ حسابٍ، ويكون في الجنّةِ رفيقَ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ»[٩].

---

١. النحل (١٦): ٩٠.
٢. النساء (٤): ٥٨.
٣. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٥٢، باب أحوال الملوك والأُمراء، ح ٦١.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٢، باب الظلم، ح ٨.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢، باب الظلم، ح ٧.
٦. الكافي، ج ٢، ص ١٤٧، باب الإنصاف والعدل، ح ١٥.
٧. بحار الأنوار، ج ١٠٤، ص ٢٩٥، باب عقاب من أكل أموال الناس ظلماً.
٨. بحار الأنوار، ج ١٠٤، ص ٢٩٥، باب عقاب من أكل أموال الناس ظلماً.
٩. مستدرك الوسائل، ج ١٢، أبواب جهاد النفس، الباب ٧٨، ح ٣؛ راجع: بحار الأنوار، ج ١٠٤، ص ٢٩٥، باب عقاب من أكل أموال الناس ظلماً، ح ١٤.

النوع الثالث: إخافةُ المؤمنِ وإدخالُ الكَربِ في قلبِه

وهما شُعبتانِ من الإيذاءِ والإضرارِ، فيترتّبان غالباً على العداوةِ والحسدِ، وقد يـترتّبانِ على مجرّدِ الغضبِ أو سوءِ الخلقِ أو الطمعِ، وهما من رذائلِ الأفعالِ، والأخبارُ الواردةُ في ذمِّهما كثيرةٌ، كقولِ النبيّ ﷺ: «من نظر إلى مؤمنٍ نظرةً لِيُخيفَهُ بها، أخافه اللهُ تعالى يومَ لا ظِلَّ إلّا ظِلُّه»[1]. وقولِ الصادقِ عليه السلام:

من رَوَّعَ مؤمناً بسلطانٍ ليُصِيبَهُ منه مكروهٌ فلم يُصِبْهُ فهو في النارِ، ومن رَوَّعَ مؤمناً بسلطانٍ ليصيبَهُ منه مكروهٌ فأصابَه فهو مع فرعونَ وآلِ فرعونَ في النارِ[2].

وقوله عليه السلام:

من أدخلَ السرورَ على مؤمنٍ فقد أدخلَهُ على رسولِ الله ﷺ، ومن أدخلَه على رسولِ اللهِ ﷺ فقد وصلَ ذلك إلى اللهِ، وكذلك من أدخلَ عليه كرباً[3].

والأخبارُ الواردةُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٨، باب من أخاف مؤمناً، ح ١.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٨، باب من أخاف مؤمناً، ح ٢.
٣. الكافي، ج ٢، ص ١٩٢، باب من إدخال السرور على المؤمنين، ح ١٩٢.

وصـل

ضدّ إخافة المؤمن: إدخالُ السرورِ في قلبِ المؤمنِ

وضدُّ إخافةِ المؤمن إزالةُ الخوفِ عنه، وتفريجُ كَربِه، وإدخالُ السُرورِ في قلبِه. وهي من أعظمِ شُعَبِ النصيحةِ، ولا حدَّ للثوابِ المترتِّبِ عليها، كما نَطَقَت به الأخبارُ. قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من فَرَّجَ عن مغمومٍ أو أعانَ مظلوماً، غفر اللهُ له ثلاثاً وسبعينَ مغفرةً»[١]. وقال الصادقُ عليه السلام:

من أغاثَ أخاه المؤمنَ اللهفان اللهثانَ عندَ جهدِهِ، فنَفَّسَ كَربَتَهُ وأعانَه على نجاحِ حاجتِه، كتب اللهُ تعالى له بذلك اثنتين وسبعينَ رحمةً من اللهِ، يُعَجِّلُ له منها واحدةً يُصلِحُ بها أمرَ معيشَتِه، ويَدَّخِرُ له إحدى وسبعينَ رحمةً لأَفزاعِ يومِ القيامةِ وأهوالِه[٢].

وقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ أحبَّ الأعمالِ إلى اللهِ عزّ وجلّ إدخالُ السرورِ على المؤمنين»[٣]. وقال الباقرُ عليه السلام: «تَبَسُّمُ الرجلِ في وجهِ أخيه حسنةٌ، وصرفُه القَذَى عنه حسنةٌ، وما عُبِدَاللهُ بشيءٍ أحبّ إلى اللهِ من إدخالِ السرورِ على المؤمنِ»[٤].

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٢٠٨.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١٩٩، باب تفريج كرب المؤمن، ح ١.

٣. الكافي، ج ٢، ص ١٨٩، باب إدخال السرور على المؤمنين، ح ٤.

٤. الكافي، ج ٢، ص ١٨٨، باب إدخال السرور على المؤمنين، ح ٢.

النوع الرابع: ترك إعانةِ المسلمين

لا ريبَ في كونِه من رذائلِ الصفاتِ، ودليلاً على ضعفِ الإيمانِ. وما وردَ في ذمِّه من الأخبارِ كثيرٌ. وقال الصادقُ عليه السلام:

[١] أيّما رجلٍ من شيعتِنا أتاه رجلٌ من إخوانِه، فاستعانَ به في حاجةٍ فلم يُعِنْهُ وهو يَقدِر، إلّا ابتلاهُ الله تعالى بأن يقضيَ حوائجَ عدّةٍ من أعدائِنا، يُعَذِّبُه اللهُ عليها يومَ القيامةِ[١].

[٢] أيّما مؤمنٍ منعَ مؤمناً شيئاً ممّا يحتاجُ إليه وهو يقدِرُ عليه من عنده أو من عندِ غيرِه، أقامه الله عزّ وجلّ يومَ القيامةِ مُسْوَدّاً وجههُ، مُزْرَقَّةً عيناهُ، مَغلُولةً يداهُ إلى عنِقه، فيقال: هذا الخائنُ الذي خان اللهَ ورسولَه، ثمّ يُؤمَرُ به إلى النارِ[٢].

[٣] من كانت له دارٌ، فاحتاجَ مؤمنٌ إلى سكناها فمنعه إيّاها، قال الله تعالى: ياملائكتِي، أبَخِلَ عبدي على عبدي بِسُكنى الدنيا؟ وعزّتي وجلالي! لا يسكنُ جَنّاتي أبداً[٣].

[٤] من أتاهُ أخوهُ في حاجةٍ يقدِرُ على قضائِها فلم يقضِها له، سلّط الله عليه شجاعاً ينهَشُ إبهامَهُ في قبرِه إلى يومِ القيامةِ مغفوراً له أو معذّباً[٤].

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٦، باب من استعان به أخوه فلم يعنه، ح ٢.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٧، باب من منع مؤمناً شيئاً من عنده ...، ح ١.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٧، باب من منع مؤمناً شيئاً من عنده ...، ح ٣.
٤. الكافي، ج ٢، ص ١٩٤، باب قضاء حاجة المؤمن، ح ٥.

وصــل

ضدّ ترك إعانة المسلمين: قضاءُ حوائج المسلمينَ

ضدُّ هذه الرذيلةِ: قضاءُ حوائجِ المسلمينَ والسعيُ في إنجاحِ مقاصِدِهم. وهو من أعـظمِ أفرادِ النصيحةِ، ولا حدَّ لِـمثوبَتِهِ عندَاللهِ. قال رسولُ الله ﷺ: «من قضى لأخـيه المـؤمنِ حاجةً، فكأنّما عَبَدَاللهَ دهرَهُ»[1]. وقال الصادق عليه السلام:

[١] مَن قضى لأخيه المؤمنِ حاجةً، قضى الله تعالى له يـومَ القـيامةِ مـائةَ ألفِ حاجة، من ذلك أوّلها الجنّة، ومن ذلك أن يُدخِلَ قرابتَه ومعارِفَه وإخوانَه الجنَّةَ، بعد أن لا يكونوا نُصّاباً[2].

[٢] مَن طاف بالبيتِ طوافاً واحداً كُتِبَ اللهُ له ستَّةَ آلاف حَسَنة، ومحـا عـنه سِـتَّةَ آلاف سيّئة، ورفع له ستّةَ آلاف دَرَجة، وقضى له ستَّةَ آلاف حاجَة.[3] قلت له: جُعلت فداكَ! هذا الفضلُ كلّهُ في الطوافِ؟ قال: «نعم! وأُخـبِرُكَ بـأَفضلَ مـن ذلك: قـضاءُ حاجةِ المؤمنِ المسلمِ أفضلُ من طوافٍ، وطوافٍ وطوافٍ ... حتّىٰ بلغ عشراً»[4].

[٣] واللهِ لَرَسُولُ اللهِ أَسَرُّ بقضاءِ حاجةِ المؤمنِ إذا وصلَت إليه من صاحبِ الحاجةِ[5].

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣٠٢، باب قضاء حاجة المؤمن، ح ٤٠.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١٩٢ ـ ١٩٣، باب قضاء حاجة المسلمين، ح ١.

٣. الكافي، ج ٢، ص ١٩٤، باب قضاء حاجة المؤمن، ح ٦.

٤. الكافي، ج ٢، ص ١٩٤، باب قضاء حاجة المؤمن، ح ٨.

٥. الكافي، ج ٢، ص ١٩٥، باب قضاء حاجة المؤمن، ح ١٠.

النوع الخامس: المداهنةُ في الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ

وهو ناشيءٌ إمّا من ضعفِ النفسِ وصِغَرِها، أو من الطمعِ الماليّ ممّن يسامحُه، فيكون من رذائلِ القوّةِ الغضبيّةِ من جانبِ التفريطِ، أو من رذائلِ القوّةِ الشهويّةِ من جانِب الإفراطِ. وهو من المهلكاتِ التي يعمُّ فسادُها وضرُّها، ويَسرِي إلى معظَمِ الناسِ أثرُها وشرُّها. كيف ولو طُوِيَ بِساطُ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، اضمَحلَّت الدّيانةُ، وتَعَطّلَت النُبُوَّةُ، وعمَّت الفترةُ، وفشَت الضلالةُ، وشاعَت الجهالةُ، وضاعَت أحكامُ الدينِ، واندَرَسَتْ آثارُ شريعةِ ربِّ العالمين، وهلكَ العبادُ، وخرِبَت البلادُ، ولذا ترى وتسمعُ أنّ في كلِّ عصرٍ نهضَ بإقامة هذه السنّةِ بعضَ المؤيّدين، من غير أن تأخذَهم في اللهِ لومةُ لائمين، من أقوياءِ العلماءِ المتكفّلين لعلمِها وإلقائِها، ومن سُعَداءِ الأُمراءِ الساعين في إجرائِها وإمضائِها؛ ورغبَ الناسُ إلى ضروبِ الطاعاتِ والخيراتِ، وفُتِحَت عليهم بركاتُ الأرضِ والسماواتِ. وفي كلِّ قرنٍ لم يقُمْ بإحيائِها عالمٌ عاملٌ ولا سلطانٌ عادلٌ، استَشرَى الفسادُ، واتَّسَعَ الخَرَقُ، وخرِبَت البلادُ، واستَرْسَلَ الناسُ في اتّباعِ الشهواتِ والهَوى، وانْمَحَتْ أعلامُ الهدايةِ والتقوى.

ولأجلِ ذلك ورد الذمُّ الشديدُ في الآياتِ والأخبارِ على تركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ والمداهنةِ فيها، قال اللهُ سبحانَه: ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[1]. وقال رسولُ الله ﷺ: «ما من قومٍ عَمِلُوا بالمعاصي،

---

١. المائدة (٥): ٦٣.

وفيهم من يَقدِرُ أن يُنكِرَ عليهم فلم يَفعَلْ، إلّا يُوشكُ أن يَعُمَّهم اللهُ بـعذابٍ مـن عـندِه»[١]. وقال ﷺ: «إنّ الله تعالى لَيُبْغِضُ المؤمنَ الضعيفَ الذي لا دينَ له»، فقيل له: وما المؤمنُ الذي لا دينَ له؟ قال: «الذي لا ينهى عن المنكر»[٢]. وقال ﷺ: «لَتَأمُرُنَّ بالمعروفِ ولَتَنْهُنَّ عن المنكرِ، أو لَيُسْتَعمَلَنَّ عليكم شِرارُكم، فيدعو خيارُكم فلا يُستَجابُ لهم»[٣]. وقال ﷺ: «إنّ الله تعالى لَيَسْأَلُ العبدَ: ما منعكَ إذ رأيتَ المنكرَ أن تُنكِرَ؟»[٤]. وقـال ﷺ: «إنّ اللـه لا يُعذِّبُ الخاصّةَ بذنوبِ العامّةِ، حتى يَظهَرَ المنكرُ بينَ أظهُرِهم، وهم قادرون على أن يُنكِرُوهُ فلا يُنكِرُونَه»[٥]. وقال عليٌّ عليه السلام: «من ترك إنكارَ المنكرِ بقلبِه ويدِه ولسانِه، فهو مـيّتٌ بـينَ الأحياءِ»[٦]. وقال عليه السلام: «أَمَرَنا رسولُ اللهِ ﷺ أن نَلقَ أهلَ المعاصي بِوجُوهٍ مُكْفَهِرَّةٍ»[٧].

وقد وردت أخبارٌ بالمنعِ عن حضورِ مجـالسِ المـنكرِ إذا لم يُمكِـنْهُ دفـعُه والنَّهـيُ عـنه، ولو حضَر نَزَلَت عليه اللعنةُ. وعلى هذا لا يجـوزُ دخولُ بيتِ الظلمةِ والفَسَقَةِ، ولا حـضورَ المشاهدِ التي يشاهِدُ فيها المنكَر ولا يَقدِرُ على تغييرِه[٨]، إذ لا يجوز مشاهَدَةُ المنكرِ من غـيرِ حاجةٍ، اعتذاراً بأنّه عاجِزٌ. ولهذا اختارَ جماعةٌ من السلفِ العُزلَةَ، حذراً من مشاهدةِ المنكرِ في الأسواقِ والجامعِ والأعيادِ، مع عجزِهم عن التغييرِ.

ثمّ إذا كان الأمرُ في المداهنةِ في الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ بهذهِ المثابةِ، فـيعلم أنَّ الأمرَ بالمنكرِ والنهيَ عن المعروفِ كـ ـ حالُه. قال رسول الله ﷺ:

كيف بكم إذا فَسَدَت نِسا ؤُكم وفَسَقَ شبابُكم، ولم تأمرُوا بالمعروفِ ولم تَنهَوا عن المنكرِ؟ فقيل له ﷺ: ويكونُ ذلك يا رسولَ الله؟! قال: «نعم! وشرٌّ من ذلك!

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٤، ص ٩٨.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٥٩، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح ١٥.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٥٦، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح ٣.
٤. المحجّة البيضاء، ج ٤، ص ٩٩.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٤، ص ٩٩.
٦. بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٩٤، باب وجوب الأمر بالمعروف، ح ٩٦.
٧. الكافي، ج ٥، ص ٥٨ ـ ٥٩، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح ١٠.
٨. بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٩٦، باب النهي عن الجلوس مع أهل المعاصي.

كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكرِ ونَهيتُم عن المعروفِ ؟!» فقيل له: يـا رسـولَ اللـهِ، ويكونُ ذلك ؟! قال: «نعم! وشرٌّ من ذلك! كيف بكم إذا رأيتُم المـعروفَ مـنكراً والمنكرَ معروفاً ؟!»[١].

وفي رواية: «وعند ذلك يُبتَلَى الناسُ بفتنةٍ، يَصِيرُ الحَليمُ فيها حَيرانَ»[٢].

ومن تأمَّلَ في الأخبارِ والآثارِ، واطَّلَعَ على التـواريخِ والسِـيَرِ وقـصصِ الأُمـمِ السـالفةِ والقُرونِ الماضيةِ، وما حدثَت لهم من العقوباتِ، وضمَّ ذلك إلى التجربةِ والمُشاهدةِ في عصرِه، من ابتلاءِ الناسِ ببعضِ البلايا السماويّةِ والأرضيّةِ، يعلمُ أنّ كلَّ عقوبةٍ سماويّةٍ وأرضيّةٍ، من الطاعونِ والوباءِ، والقحطِ والغلاءِ، وحبسِ المياهِ والأمـطارِ، وتسـلُّطِ الظـالمين والأشرارِ، ووقوعِ القتلِ والغاراتِ، وحدوثِ الصواعِقِ والزلازِلِ، وأمثالِ ذلك، تكون مسبوقةً بـتركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ بينَ الناسِ.

---

١. الكافي، ج ٥، ص ٥٩، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح ١٤.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٤، ص ١٠٠.

وصـل
ضدّ المداهنة: السعيُ في الأمرِ بالمعروفِ

ضدُّ المداهنةِ في الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، هو السعيُ فيهما والتَشْمِيرُ لهما. وهـو أعظمُ مَراسِمِ الدينِ، والمُهِمُّ الذي بعثَ اللهُ لأجـلِه النـبيِّينَ، ونـصبَ مـن بـعدِهم الخـلفاءَ والأوصياءَ، وجعل نُوّابهم أُولي النفوسِ القدسيّةِ من العلماءِ. بل هو القطبُ الذي تدورُ عليه أرحيةُ المِلَلِ والأديانِ، وتَطَرُّقُ الاختلالِ فيه يُؤَدّي إلى سقوطِها عن الدورانِ. ولهذا ورد في مدحِه والترغيبِ عليه ما لا يُمكِنُ إحـصاؤُه مـن الآيـاتِ والأخـبارِ، قـال اللـهُ سـبحانَه: ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَـنْهَوْنَ عَـنِ ٱلْـمُنكَرِ وَأُولَـئِكَ هُـمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَـنِ ٱلْـمُنكَرِ﴾[2]. وقال: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾[3]. والقيامُ بالقسطِ: هـو الأمـرُ بـالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ. وقال أميرالمؤمنين عليه السلام:

> فمنهم المنكِرُ للمنكَرِ بقلبه ولسانِه ويدِه، فذلك المُستَكْمِلُ لِخِصالِ الخـيرِ. ومـنهم المنكِرُ بلسانِه وقلبِه، التارِكُ بيدِهِ، فذلك مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَينِ مـن خِـصالِ الخـيرِ

---

١. آل عمران (٣): ١٠٤.

٢. آل عمران (٣): ١١٠.

٣. النساء (٤): ١٣٥.

ومُضيِّعٌ خَصلَةً. ومنهم المنكرُ بقلبِه، والتارِكُ بيدِه ولسانِه، فذلك الذي ضَيَّعَ أشرفَ الخَصلتينِ من الثلاثِ وتَمَسَّكَ بواحدةٍ. ومنهم تارِكٌ لإنكارِ المنكرِ بلسانِه وقلبِه ويدِه، فذلك ميّتُ الأحياءِ. وما أعمالُ البرِّ كلُّها والجهادُ في سبيلِ اللهِ عندَ الأمْرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ إلّا كنَفْثَةٍ في بحرٍ لُجّيٍّ، وإنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ لا يُقرِّبانِ من أجلٍ ولا يَنقُصانِ من رزقٍ، وأفضلُ من ذلك كلمةُ عدلٍ عندَ إمامٍ جائرٍ [١].

وهاهنا أُمورٌ:

الأمر الأوّل: عدمُ اشتراطِ العدالةِ فيه

لا تُشتَرَطُ فيه العدالَةُ وائتمارُ الآمِرِ بما يأمُرُ به وانتهاءُ الناهي عمّا يَنْهَى عنه؛ لإطلاقِ الأدلّةِ، ولأنّ الواجبَ على فاعِلِ الحرامِ المشاهدِ فِعلَه من غيرِهِ أمرانِ: تركُه وإنكارُه، ولا يسقُطُ بتركِ أحدِهما وجوبُ الآخرِ، كيف ولو شرطَ ذلك لاقتضى عدمَ وجوبِ ذلك إلّا على المعصومِ، فينسدّ بابُ الحِسبةِ بالكلّيةِ.

وأمّا الإنكارُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [٢]، وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [٣] وما في حديث الإسراءِ من قرضِ مقارِيضِهم بالنارِ [٤]، فإنّما هو على عدمِ العملِ بما يأمرُ به ويقولُه، لا على الأمرِ والقولِ. وكذلك ما رُوي: «أنّ الله تعالى أوحى إلى عيسى: عِظ نفسَك، فإن اتّعظتَ فعِظِ الناسَ، وإلّا فاستحيِ مِنّي» [٥]. وقس على ذلك جميعَ ما وردَ من هذا القبيل.

---

١. نهج البلاغة، ص ٥٤٢، الحكمة ٣٧٤.
٢. البقرة (٢): ٤٤.
٣. الصف (٦١): ٢ ـ ٣.
٤. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٢٣، باب من وصف عدلاً ثمّ خالفه إلى غيره.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٤، ص ١١١.

الأمر الثاني: مراتِبُ الأمرِ بالمعروفِ

اعلم أنّ للأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ مَراتِب:

الأُولى: الإنكار بالقلبِ: بأن يُبغِضَه على ارتكابِ المعصيةِ.

الثانية: التعريفُ: بأن يعرِّفَ المُرتَكِبَ للمنكرِ بأنّه مَعصِيَةٌ، فإنّ بعضَ الناسِ قد يَرتَكِبُ بعضَ المعاصي لجهلِهم بأنّه معصيةٌ، ولو عَرَف كونَهَ معصيةً تَركَه.

الثالثة: إظهارُ الكراهةِ والإعراضِ والمُهاجَرةِ.

الرابعة: الإنكارُ باللسانِ: بالوعظِ والنُصحِ، والتخويفِ، والزجرِ، مُرتِّباً الأيسرَ فالأيسَر، إلى أن يَصِل إلى التعنيفِ بالقولِ والتغليظِ في الكلامِ. كقوله: «يا جاهلُ! يا أحمقُ! لا تُخالِفْ رَبَّكَ». وهاهنا شبكةٌ عظيمةٌ للشيطان، ربّما يصطادُ بها أكثرَ الوُعّاظِ. فينبغي لكلِّ عالمٍ ناصحٍ أن يراها بنورِ البصيرةِ، وهي أن يَحضُرَهُ الشيطان عندَ الوعظِ والإرشادِ ويُلْقِي في قلبِه تعزُّزَه وشرافتَهُ بالعلمِ، وذلّةَ من يَعِظُه بالجهلِ والخِسّةِ. فربّما يقصِدُ بالتعريفِ والوعظِ الإذلالَ والتجهيلَ، وإظهارَ شرفِ نفسِه بالعلمِ، وهذه آفةٌ عظيمةٌ تتضمَّن كِبراً ورياءً. وينبغي لكلِّ واعظٍ دَيِّنٍ أنْ لا يغفلَ عن ذلك، ويعرِفَ بنورِ بصيرتِه عُيوبَ نفسِه وقبح سريرتِه. وعلامةُ براءةِ نفسِه من هذه الآفةِ أن يكونَ اتّعاظُ ذلك العاصي بوعظِ غيرِه أو امتناعُه من المعصيةِ بنفسِه، أحبَّ إليه من اتّعاظِه بوعظِه.

الخامسة: المنعُ بالقهرِ مباشرةً ككسرِ آلاتِ اللهوِ، وإراقةِ الخمرِ، واستلابِ الثوبِ المغصوبِ منه وردِّه إلى صاحبِه.

السادسة: التهديدُ والتخويفُ: كقوله: «دع عنك هذا، وإلّا ضربتُك أو كسرتُ رأسَك» أو غيرَ ذلك مما يجوزُ له أن يفعلَ لو لم ينتهِ عن معصيتِه. ولا يجوزُ أن يهدِّدَهُ بما لا يجوزُ فعلُه، كقوله: «دع هذا وإلّا أضربُ عُنُقَكَ أو أضرِبُ وَلَدَكَ».

السابعة: مباشرةُ الضربِ باليدِ والرجلِ وغيرِ ذلك، من دونِ أن ينتهي إلى شهرِ سلاحٍ وجراحٍ.

الثامنة: الجرحُ بشهرِ بعضِ الأسلحةِ. وجوّزه سيّدنا المرتضى ﷺ من أصحابِنا وجماعةٌ،

والباقون اشترطوا إذنَ الإمامِ في ذلك[١]. إذ ربّما لا يقدِرُ عليه بنفسِه، ويحتاجُ فيه إلى أعـوانٍ وأنصارٍ يشهرونَ السلاحَ، وربّما يستمِدُّ الفاسقُ أيضاً بأعوانِه، فيُؤَدّي إلى المقاتلةِ والمحاربةِ وحدُوثِ فتنةٍ عظيمةٍ.

الأمر الثالث: ما ينبغي في الآمرِ بالمعروفِ والناهي عن المنكرِ

ينبغي لكلٍّ من الآمِرِ بالمعروفِ والناهي عن المنكرِ أن يكونَ حَسَنَ الخُلُقِ، صابراً حـلماً قويّاً في نفسِه، لئلا يَنزَعِجَ، ولا يَضطَرِب إذا قيل في حقِّه ما لا يليقُ به. فإنّ أكثرَ الناسِ أتباعُ الهوى، فإذا نُهُوا عمّا يميلونَ إليه شَقَّ ذلك عليهم، فـربّما أطـلَقُوا ألسِـنَتَهم في حـقِّ النـاهي، ويقولُون فيه ما لا يليقُ بشأنِه، وربّما تجاوَزُوا إلى سوءِ الأدبِ قولاً وفعلاً بالمشافهةِ.

وأن يكونَ رفيقاً بالناسِ، فإنّ الوعظَ بالرفقِ والملاءمةِ أوقعُ وأشدُّ تأثيراً في قلوبِ أكثرِ الناسِ.

وأن يكون قاطعاً للطمعِ عن الناسِ، فإنّ الطامعَ من الناسِ في أموالِهم أو إطلاقِ ألسِنَتِهم بالثناءِ عليه لا يقدِرُ على الحِسبَةِ، ولذا نُقِل:

أنّ بعضَ المشايخِ كان له سِنَّورٌ، وكان يأخذُ من قصّابٍ في جوارِه كلَّ يومٍ شيئاً من القِدِّ لِسِنَّورِهِ، فرأى على القصّابِ منكراً، فدخل الدارَ أوّلاً، وأخرجَ السنَّورَ، ثمّ جـاء ووعظ القصّابَ وشدَّد عليه القولَ، فقال القصّابُ: «لا يأكُلُ سنَّورُكَ شـيئاً بـعدَ ذلك»، فقال: «ما احْتَسَبْتُ عليكَ إلّا بعد إخراجِ السنَّورِ وقطعِ الطمعِ عنك»[٢].

الأمر الرابع: أنواعُ المنكراتِ

اعلم أنّ المنكراتِ إمّا محظورةٌ أو مكروهةٌ، والمألوفةُ منها في العاداتِ أكثرُ من أن تُحصَى.

فمنها: ما يكونُ غالباً في المساجدِ: كإساءةِ الصلاةِ، والإخلالِ ببعضِ أفعالِها، والتأخيرِ

---

١. راجع: جواهر الكلام، ج ٢١، ص ٣٨٣.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٣٣٤.

عن أوقاتِها، وإدخالِ النجاسةِ فيها، والتكلّمِ فيها بـأُمورِ الدنـيا والبـيعِ والشراءِ، ودخـولِ الصبيانِ والمجانين فيها مع اشتغالِهم باللهوِ واللعبِ، وقراءةِ القـرآنِ فـيها بـاللحنِ أو الغِـناءِ، ودخولِ النسوانِ فيها مع ظنٍّ تَطرُّقِ الريبةِ، ونظرِ الأجانبِ إليهنّ أو نظرِهنّ إليهم، ودخولِ الجُنُبِ أو الحائضِ فيها، وتغنّي المؤذنينَ بالأذانِ أو غيرِه ممّا يقرؤون، وتقديمِهم الأذانَ عـلى الوقتِ، ووعظِ من لا ينبغي أن يُمكَّنَ من الموعظةِ، كمن يكذِب في حديثِهِ أو يفتي بـالمسائلِ وليس أهلاً لها، أو يَظهَرُ من وعظِه كونُه مرائياً طالباً للجاهِ، وأمثالِ ذلك. فإنّ كلّ ذلك مـن المنكراتِ، بعضُها محظورةٌ وبعضُها مكروهةٌ، ينبغي لكلِّ مُطّلعٍ أن ينهَى عنها.

ومنها: ما يكون غالباً في الأسواقِ: من الكذبِ في المحاولاتِ والمعاملاتِ، وإخفاءِ العيبِ، والأيمانِ الكاذبةِ، والمُنازَعَةِ بالضربِ والشتمِ والطعنِ واللـعنِ وأمـثالِ ذلك، والتـبخّسِ في الكيلِ والميزانِ، والمعاملاتِ الفاسدةِ بأقسامِها على ما هو مقرَّرٌ في الفقهيّاتِ.

ومنها: ما يكون في الشوارعِ: كوضعِ الأساطينِ، وبناءِ الدكّاتِ متّصلة بالأبنيةِ المملوكةِ، وتَضيُّقِ الطرقِ على المارّةِ بوضعِ الأطعمةِ والأحطابِ ورَبطِ الدوابِّ فيها، ورشِّ الماءِ عـلى الطرقِ بحيث يُخشَى منه الزَلَقُ والسُقوطُ، وإرسالِ الماءِ من الميازيبِ المُخرَجةِ من الحائطِ إلى الطرقِ الضيّقَةِ، وغيرِ ذلك.

وقِسْ على ذلك منكراتِ الأسواقِ، ومجالسِ العـامّةِ، وربـاطاتِ الصـوفيّةِ، ودَواويـنِ السلاطينِ، وغيرِها، فإنّ أمثالَ ما ذُكِرِ من المنكراتِ يجبُ أن يُنْهَى عنها، فلو قام بالاحتسابِ والنهي عنها أحدٌ سقطَ الحَرَجُ على الباقين، وإلّا عَمَّ الحرجُ أهلَ البلدِ جميعاً. وأمثالَ ما ذُكِر إنّما هو من المنكراتِ اليسيرةِ الجزئيّةِ.

وأمّا المنكراتُ العظيمةُ: من البدعةِ في الدينِ، والقتلِ، والظلمِ، والزنا، واللواطِ، وشُربِ الخمرِ، وأنواعِ الغناءِ، والنظرِ إلى غيرِ المحارمِ، وأكلِ الحرامِ، والصلاةِ في الأماكنِ المـغصوبةِ، والوضوءِ والغسلِ من المياهِ المحرّمةِ، والتصرُّفِ في أموالِ الأوقافِ وغـصبِها، والمـعاملةِ مـع الظالمين، والجهلِ في الأُصولِ الاعتقاديّةِ والفُـروعِ الواجـبَةِ، وآفـاتِ اللسـانِ، فـلا يُمكِـنُ حَصرُها لكثرتِها، لا سيّما في أمثالِ زمانِنا، فلو أمكنَ لمؤمنٍ ديِّنٍ أن يُغيّرَ هذه المنكراتِ كلّاً أو

بعضاً بالاحتسابِ، فليس له أن يقعُدَ في بيتهِ، بل يجبُ عليه الخروجُ للنهي والتعليمِ. بل ينبغي لكلِّ مسلمٍ أن يبدأ بنفسِه فيصلِحها بالمواظبةِ على الطاعاتِ، وتركِ المحرّماتِ، ثمّ يُعَلِّمُ ذلك أهلَه وأقارِبَه، ثمّ يَتَعَدَّى بَعد الفراغِ منهم إلى جيرانهِ، ثمّ إلى أهلِ محلّتِه، ثمّ أهلِ بلدِه، ثمّ أهلِ السوادِ المكتَنِفِ بلدَه، ثمّ إلى غيرِهم، وهكذا الأقرب فالأَقرب إلى أقصى العالِم. فإن قام بـه الأدنى سقطَ عن الأبعدِ، وإلّا لَزِمَ الحَرَجُ على كلِّ قادرٍ عليه، قريباً كان أو بعيداً. ولا يَسقُطُ الحرجُ مادام يبقى على وجهِ الأرضِ جاهلٌ يُعرِض عن فروضِ دينِه، وهو قادرٌ على أن يسعَى إليه بنفسِه أو بغيرِه فيعلّمه فريضةً. وهذا شُغل شاغلٌ لمن يهمُّهُ أمرُ دينهِ يَشغَلُهُ عـن سـائِر المشاغلِ.

النوع السادس: الهِجرَةُ والتَباعُدُ

ولا ريبَ في كونهِ من نتائجِ العداوةِ والحقدِ، أو الحسدِ أو البخلِ. فيكونُ من رذائلِ قوّةِ الغضبِ أو الشهوةِ. وهو من ذمائمِ الأفعالِ. قال رسولُ الله ﷺ:

أيّما مسلمين تهاجرا، فمكثا ثلاثاً لا يصطَلِحانِ، إلّا كانا خارجَينِ من الإسلامِ، ولم يكن بينَهما ولايةٌ. فأيُّهما سبقَ الكلامَ لأخيهِ، كان السابقَ إلى الجنّةِ يَومَ الحسابِ[1].

وقال الباقر عليه السلام:

إنّ الشيطانَ يُغرِي بينَ المؤمنينَ ما لم يَرجِع أحدُهم عن دينهِ، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاهُ وتَمَدَّدَ، ثمّ قال: فُزْتُ. فرحمَ اللهُ امرءاً أَلَّفَ بينَ وَليّينِ لنا. يا معشرَ المؤمنينَ، تآلفُوا وتعاطَفُوا[2].

والأخبارُ الواردةُ في ذمّ الهجرةِ والتباعدِ كثيرةٌ.

فيجبُ على كلِّ طالبٍ لنجاةِ الآخرةِ أن يتأمَّلَ في أمثالِ هذه الأخبارِ، ثمّ يتذكّرَ ثوابَ ضدِّ ذلكَ وفوائِدَه، أعني التآلُفَ والتزاوُرَ بينَ الإخوانِ بنفسِه، فيحفظَ نفسَه من حصولِ الانقطاعِ والتباعدِ مع أحدِ إخوانِه، ولو حصلَ ذلك كَلَّفَ نفسَه المبادرةَ إلى زيارتِه وتألُّفِه، حتّى يغلِبَ على الشيطانِ ونفسِه الأمّارةِ، ويفوزَ بما يرجُوه المُتّقونَ من عظيمِ الأجرِ وجزيلِ الثوابِ.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٤٥، باب الهجرة، ح ٥.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٤٦، باب الهجرة، ح ٦.

وصــل
ضدّ التباعد: التزاوُرُ والتآلُفُ

قد أُشيرَ إلى أنّ ضدَّ التباعُدِ والهِجرانِ هو التزاوُرُ والتآلـُفُ، وهو مـن ثمـراتِ النـصيحةِ والمحبّةِ، وثوابُه أكثرُ من أن يُحصَى. عن أبي جعفرٍ عليه السلام قال:

[١] قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: حدّثني جبرئيلُ عليه السلام: أنّ اللهَ أهبطَ إلى الأرضِ ملكاً، فأقبَلَ ذلك الملكُ يَمشِي حتّىٰ وقع إلى بابٍ عليه رجلٌ يستأذِنُ علـى ربِّ الدارِ، فقال له الملك: ما حاجَتُكَ إلى ربِّ هذه الدارِ؟ قال: أخٌ لي مُسلِمٌ زُرْتُـهُ في اللـهِ تبارَكَ وتعالىٰ. فقال له الملكُ: ما جاءَ بكَ إلّا ذاكَ؟ فقال: ما جاءَني إلّا ذاكَ. قال: فإنّي رسولُ اللهِ إليك، وهو يُقرِئكَ السلامَ، ويقول: وجبت لك الجنّةُ. وقال الملك: إنّ اللهَ يقول: «أيّما مسلمٍ زار مسلماً فليس إيّاه زارَ، بل إيّاي زارَ، وثوابُه عَلَيَّ الجنّةَ»[١].

[٢] إنّ المؤمنَ ليخرُجُ إلى أخيه يَزورُه، فيوكّلُ اللهُ عزّ وجلّ بـه مـلكاً، فـيضعُ جناحاً في الأرضِ وجناحاً في السماءِ يظِلُّهُ، فإذا دخلَ إلى مـنزلِه، نـاداه الجـبّارُ تباركَ وتعالى: أيـّها العبدُ المُعَظِّمُ لِحقّي، المُتَّبِعُ لآثارِ نبيِّي، حقٌّ عـليَّ إعـظامُك، سلني أَعطِك، ادعُني أُجِبْك، اسكُتْ ابْتَدِئْكَ. فإذا انـصرَف شَـيَّعه المـلكُ يُـظِلُّه بجناحِه حتّى يدخلَ إلى منزِله، ثمّ يناديهِ تبارَك و تعالى: «أيُّها العبدُ المُعَظِّمُ لحقّي،

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٧٦، باب زيارة الإخوان، ح ٢.

حقٌّ عَلَيَّ إكرامُك، قد أوجبت لك جَنَّتي، وشَفَّعْتُكَ في عبادِي»[١].

[٣] أيُّما مؤمنٍ خرَج إلى أخيه يزورُه عارفاً بحقِّه، كتب اللهُ له بكلِّ خطوةٍ حَسَنةً، ومُـحِيت عنه سيِّئةٌ، ورُفِعت له درجةٌ، فإذا طرقَ البابَ فُتِحت له أبوابُ السماءِ، فإذا التقَيا وتصافَحا وتعانَقا، أقبلَ اللهُ عليهما بوجهِهِ، ثمّ باهَى بهما الملائكةَ، فيقول: «انظُروا إلى عبديَّ تزاوَرا وتَحابّا فيَّ، حَقٌّ عليَّ ألاّ أُعَذِّبَهما بالنارِ بعد ذا الموقفِ». فإذا انصرفَ شَيَّعه ملائكةٌ عددَ نَفَسِه وخُطاهُ وكَلامِه، يَحفَظُونه عن بلاءِ الدنيا وبوائقِ الآخرةِ إلى مثلِ تلك الليلةِ من قابلٍ، فإن ماتَ فيما بينَهما أُعفِي من الحسابِ، وإن كان المَزُورُ يعرِفُ من حقِّ الزائرِ ما عرَفه الزائرُ من حقِّ المَزُورِ كان له مثل أجرِه[٢].

والأخبارُ الواردةُ بهذه المضامينِ كثيرةٌ، والسرُّ في هذا الترغيبِ الشديدِ على تزاوُرِ المؤمنينَ وملاقاتِهم، كونُه دافعاً للحسدِ والعداوةِ، جالِباً للتأليفِ والمحبّةِ. وهو أعظمُ ما يَصلُح به أمرُ دُنياهم وعُقباهم. ولذا وردَ الثناءُ والمدحُ في الآياتِ والأخبارِ على نفسِ الأُلفةِ وانقطاعِ الوَحْشةِ، لا سيّما إذا كانت الرابطةُ هي التقوى والدينَ. وورد الذمُّ في التفرقةِ والتَوَحُّشِ، قال اللهُ سبحانه في مقامِ الامتنانِ على المؤمنين بنعمةِ الأُلفةِ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[٣]. وقال رسولُ الله ﷺ: «المؤمنُ إلفٌ مألوفٌ، ولا خيرَ في من لا يألَفُ ولا يُؤْلَفُ به»[٤].

وهذا هو السرُّ في الترغيبِ على التسليمِ والمصافَحةِ والمعانَقةِ. قال رسولُ الله ﷺ: «أولَى الناسِ باللهِ و برسولِه من بدأ بالسلامِ»[٥].

١. الكافي، ج ٢، ص ١٧٨، باب زيارة الإخوان، ح ١٢.
٢. الكافي، ج ٢، ص ١٨٣ ـ ١٨٤، باب المعانقة، ح ١.
٣. الأنفال (٨): ٦٣.
٤. الكافي، ج ٢، ص ١٠٢ باب حسن الخلق، ح ١٧.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٦٤٤، باب التسليم، ح ٣.

النوع السابع: قطعُ الرَحِمِ

وهو إيذاءُ ذوي اللُّحْمَةِ والقَرابةِ، أو عدمُ مُواساتِهم بما نالَه من الرفاهيةِ والثروةِ والخيراتِ الدنيويّةِ، مع احتياجِهم إليه. وباعثُه إمّا العداوةُ أو البخلُ والخِسّةُ، فهو من رذائلِ القوّةِ الغضبيّةِ أو الشهويّةِ، ولا ريبَ في كونِه من أعظمِ المهلكاتِ المفسدةِ للدنيا والدين، قال اللهُ سبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[1]. وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «أبغضُ الأعمالِ إلى اللهِ: الشركُ باللهِ، ثمّ قطيعةُ الرَحِمِ، ثمّ الأمرُ بالمنكرِ والنهيُ عن المعروفِ»[2]. وقال ﷺ: «لا تَقطَع رَحِمَكَ وإن قَطَعَتْكَ»[3]. وقال أميرالمؤمنين عليه السلام في خطبة:

أعوذُ باللهِ من الذنوبِ التي تُعَجِّلُ الفَناءَ. فقام إليه عبد الله بن الكوّاءِ اليشكريّ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أوَ تكونُ ذنوبٌ تُعَجِّلُ الفَناءَ؟ فقال: «نعم، ويلَكَ! قطيعةُ الرَحِمِ. إنّ أهلَ البيتِ لَيجتَمِعُون ويتَواسَونَ وهم فَجَرَةٌ فيرزقُهم الله، وإنّ أهلَ البيتِ لَيَتَفَرَّقُونَ ويَقطَعُ بعضُهم بعضاً فَيَحْرِمُهم اللهُ وهم أَتقياءُ»[4].

---

١. الرعد (١٣): ٢٥.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠، باب في أُصول الكفر وأركانه، ح ٤.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٤٧، باب قطيعة الرحم، ح ٦.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨، باب قطيعة الرحم، ح ٧.

وصلٌ

ضدُّ قطيعةِ الرحمِ: صلةُ الرحِمِ

وهو تَشرِيكُ ذوي اللُحمةِ والقراباتِ بما ناله من المالِ والجاهِ وسائِرِ خيراتِ الدنيا، وهو أعظمُ القرباتِ وأفضلُ الطاعاتِ، قال اللهُ سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ...﴾[1]. وقال: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[2]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ ـ إلى قوله: ـ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[3]. وقال رسولُ الله ﷺ:

أُوصِي الشاهدَ من أُمَّتي والغائبَ، ومن في أصلابِ الرجالِ وأرحامِ النساءِ، إلى يومِ القيامةِ: أن يَصِلَ الرحمَ وإن كانت منه على مَسِيرَةِ سنةٍ، فإنّ ذلك من الدينِ[4].

وقال ﷺ: «إنّ أعجلَ الخيرِ ثواباً صِلَةُ الرحمِ»[5]. وقال: «من سرّه النَساءُ في الأجَلِ، والزِيادةُ في الرزقِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[6]. وقال ﷺ: «الصدقةُ بعشرةٍ، والقَرضُ بثمانيةَ عشرَ،

---

١. النساء (٤): ٣٦.

٢. النساء (٤): ١.

٣. الرعد (١٣): ٢١ ـ ٢٢.

٤. الكافي، ج ٢، ص ١٥١، باب صلة الرحم، ح ٥.

٥. الكافي، ج ٢، ص ١٥٢، باب صلة الرحم، ح ١٥.

٦. الكافي، ج ٢، ص ١٥٢، باب صلة الرحم، ح ١٦.

وصلةُ الإخوان بعشرينَ، وصلةُ الرحمِ بأربعةٍ وعشرينَ»[١]. وقال ﷺ: «أفضلُ الفضائلِ: أن تَصِلَ من قطعَك، وتُعطِيَ من حرَمَكَ، وتعفُوَ عمَّن ظَلَمَكَ»[٢]. وقال الصادق عليه السلام:

صلةُ الرحمِ والبِرُّ ليُهوِّنانِ الحِسابَ ويَعصِمانِ من الذنوبِ، فَصِلُوا أرحامَكُم وبِرُّوا بإخوانِكم، ولو بِحُسنِ السلامِ ورَدِّ الجوابِ[٣].

تنبيه: المرادُ بالرحمِ الذي يَحرُمُ قَطعُه وتَجِبُ صِلَتُه، ولو وُهِب له شيءٌ لا يجوزُ الرجوعُ عنه، هو مُطلَقُ القَريبِ المعروفِ بالنَسبِ، وإن بَعُدَت النِسبةُ وجازَ النِكاحُ. والمرادُ بقطعِه أن يُؤذِيَهُ بالقولِ أو الفعلِ، أو كان له شدّةُ احتياجٍ إلى ما يَقدِرُ عليهِ زيادةً على قدرِ حاجتِه من سُكنى ومَلبُوسٍ ومأكولٍ فَيَمْنَعُه، أو أمكنَه أن يدفَعَ عنه ظُلْمَ ظالمٍ ولم يَفعَلْهُ، أو هاجَرَهُ غيظاً وحِقداً من دونِ أن يعودَهُ إذا مَرِض، أو يَزُورَه إذا قَدِمَ من سفرٍ، وأمثالِ ذلك. فإنّ جميع ذلك وأمثالِها قَطعٌ للرَحِمِ. وأضدادُها ــ من دفعِ الأذيّة، ومواساتِه بمالِه، وزيارتِه، وإعانتِه باللسانِ واليدِ والرِجلِ والجاهِ وغيرِ ذلك ــ صِلَةٌ.

ثمّ الظاهرُ تحقُّق الواسطةِ بينَ القطعِ والصلةِ، إذ كلُّ إحسانٍ ولو كان ممّا لا يحتاجُ إليه قريبُه وهو محتاجٌ إليه يُسمّى صِلةً، وعدمُه لا يُسَمَّى قَطعاً.

---

١. الكافي، ج ٤، ص ١٠، باب الصدقة على القرابة، ح ٣.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٢١٦.

٣. الكافي، ج ٢، ص ١٥٧، باب صلة الرحم، ح ٣١.

النوع الثامن: عقوقُ الوالِدَينِ

وهو أشدُّ أنواعِ قَطيعَةِ الرَحِمِ، إذ أخَصُّ الأرحامِ وأمَسُّها ما كان بالولادةِ، فيتضاعَفُ تأكُّدُ الحقِّ فيها، فهو كقطيعةِ الرحمِ، إمّا يكونُ ناشئاً من الحِقدِ والغيظِ، أو من البخلِ وحبِّ الدنيا، فيكونُ من رذائلِ إحدى قوّتي الغضبِ والشهوةِ. ثمّ جميعُ ما يدلُّ على ذمِّ قطيعةِ الرحمِ يدلُّ على ذمِّ العُقوقِ، ولكونه أشدَّ أنواعِ القطيعةِ وأفظعَها، وردت في خصوصِ ذمِّه آياتٌ وأخبارٌ أُخَر كثيرةٌ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾[1]. وقوله ﷺ: «من أصبحَ مُسخِطاً لأبَويهِ، أصبحَ له بابانِ مفتوحانِ إلى النارِ»[2]. وعن أبي جعفرٍ عليه السلام قال: «إنّ أبي عليه السلام نظر إلى رجلٍ ومعه ابنُه يمشِي والابنُ مُتَّكِئٌ على ذراعِ الأب، قال: فما كلَّمه أبي مَقْتاً له حتّى فارقَ الدنيا»[3]. وقال الصادق عليه السلام: «مَنْ نَظَرَ إلى أبويه نظرَ ماقتٍ وهما ظالمان له، لم يقبل الله له صلاة»[4].

والأخبارُ في ذمِّ العُقوقِ أكثرُ من أن تُحصَى. وقد ثبت من الأخبارِ والتجربةِ أنّ دعاءَ الوالدِ على ولدِه لا يُرَدُّ ويُستَجابُ ألبتَّةَ. ودلّت الأخبارُ على أنّ من لا ترضَى عنه أُمّه تشتدُّ عليه سَكَراتُ الموتِ وعذابُ القبرِ[5].

---

١. الإسراء (١٧): ٢٣.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٢١٦.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٤٩، باب العقوق، ح ٨.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٣٤٩، باب العقوق، ح ٥.

٥. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٧٥، باب برّ الوالدين والأولاد، ح ٦٧.

وصـل

ضدّ العقوق: بِرُّ الوالِدَينِ

ضدُّ العقُوقِ بِرُّ الوالدين والإحسانُ إليهما، وهو أفـضلُ القُـرُباتِ، وأشرفُ السـعاداتِ. ولذلك وردَ ما وردَ من الحثِّ عليه والترغيبِ إليه، قال الله سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[1]. وقال: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللهَ وَلاَ تُـشْرِكُوا بِـهِ شَـيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[2].

وقال رسولُ الله ﷺ: «بِرُّ الوالدينِ أفضلُ من الصلاةِ والصومِ والحجِّ والعمرةِ والجهادِ في سبيلِ الله»[3]. وقال ﷺ: «من أصبحَ مرضيّاً لأبـويهِ، أصـبح له بـابانِ مـفتوحانِ إلى الجنّةِ»[4] وعن أبي عبدالله عليه السلام قال:

إنّ رجلاً أتى إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله أوصِني. فقال: «لا تُشرِكْ بـاللهِ شـيئاً وإن حُـرِّقْتَ بـالنارِ وعُـذِّبْتَ إلّا وقـلبُكَ مُـطْمَئِنٌّ بـالايمانِ، ووالديك فأَطِعْهُما وبُرَّهُما حيّين كانا أو ميّتين، وإن أمراكَ أن تَخرُجَ من أهلِك ومالِك فافْعَلْ،

---

١. الإسراء (١٧): ٢٤.

٢. النساء (٤): ٣٦.

٣. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٢١٦.

٤. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٢١٦.

فإنّ ذلك من الإيمانِ»[١].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «جاء رجلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله فقال: يا رسولَ الله، من أبرُّ؟ قال: أُمَّكَ. قال: ثمّ من؟ قال: أُمَّكَ. قال: ثمّ من؟ قال: أُمَّكَ. قال: ثمّ من؟ قال: أباكَ»[٢] وأتاه رجلٌ آخر وقال:

إنّي رجلٌ شابٌّ نشيطٌ، وأُحِبُّ الجِهادَ، ولي والدةٌ تكرَهُ ذلك. فقال له النبيُّ صلى الله عليه وآله: ارجِعْ فكن مع والدتِك، فوالذي بعثني بالحقِّ! لأُنسُها بك ليلةً خيرٌ من جهادٍ في سبيلِ اللهِ سَنَةً[٣].

وقال أبو عبدالله عليه السلام:

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتته أُختٌ له من الرضاعةِ، فلمّا نَظَرَ إليها سُرَّ بها، وبَسَطَ ملحَفَتَه لها، فأجلَسَها عليها، ثمّ أقبل يُحَدِّثُها ويَضحَكُ في وجهِها، ثمّ قامَت فذهَبَت وجاءَ أخُوها، فلم يَصنَع به ما صَنَعَ بها، فقيل له: يا رسولَ اللهِ، صَنَعْتَ بأُختِه ما لم تَصنَع بِهِ وهو رُجُلٌ، فقال: «لأنّها كانت أبَرَّ بوالِدَيها مِنهُ»[٤].

والأخبارُ في ثوابِ بِرِّ الوالدينِ غيرُ محصورةٍ[٥]، فينبغي لكلِّ مؤمنٍ أن يكونَ شديدَ الاهتمامِ في تكريمِهما وتعظيمِهما واحترامِهما، ولا يُقصِّرُ في خِدمَتِهما، ويُحسِن صُحبَتَهما، وألّا يتركَهما حتّى يسألاهُ شيئاً ممّا يحتاجانِ إليه، بل يُبادِرُ إلى الإعطاءِ قبلَ أن يَفتقِرَ إلى السؤالِ، كما وردَ في الأخبارِ[٦] وإن أضجراهُ فلا يَقُل لهما أُفٍّ، وإن ضَرَباهُ لا يَعبِسْ وَجهُه، وقال لهما: «غفرَ اللهُ لكما»، ولا يملأُ عينيهِ من النظرِ إليهما إلّا برحمةٍ ورِقّةٍ، ولا يَرفَعُ صوتَه فوقَ صَوتِهما، ولا يَدَه فَوقَ أيدِيهما، ولا يَتَقَدَّمُ قُدّامَهُما، بل مهما أمكنَ له لا يَجلِسُ عندَهما، وكلّما بالَغَ في التَذَلُّلِ

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٥٨، باب البرّ بالوالدين، ح ٢.
٢. الكافي، ج ٢، ص ١٥٩ ـ ١٦٠، باب البرّ بالوالدين، ح ٩.
٣. الكافي، ج ٢، ص ١٦٣، باب البرّ بالوالدين، ح ٢٠.
٤. الكافي، ج ٢، ص ١٦١، باب البرّ بالوالدين، ح ١٢.
٥. راجع: الكافي، ج ٢، ص ١٥٧، باب البرّ بالوالدين، ح ١.
٦. الكافي، ج ٢، ص ١٥٧، باب البرّ بالوالدين، ح ١.

والتَخَضُّع كان أجرُه أزيدَ وثوابُه أعظمَ.

وبالجملة، إطاعَتُهما واجبةٌ وطلبُ رِضاهُما حَتمٌ، فليس للولدِ أن يَرتَكِبَ شيئاً من المباحاتِ والمستحبّاتِ بدونِ إذنِهما، ولذا أفتى العلماءُ بأنّه لا تجوزُ المُسافَرَةُ في طلبِ العلمِ إلّا بإذنِهما، إلّا إذا كان في طلبِ علمِ الفرائضِ، من الصلاةِ والصومِ وأُصولِ العقائِد، ولم يكن في بلدِه من يُعَلِّمُه، ولو كان في بلدِه من يُعَلِّمُه لم تَجُز المسافرةُ. وقد روي:

أنّ رجلاً هاجرَ من اليمنِ إلى رسولِ الله ﷺ وأرادَ الجهاد، فقال له: «ارجع إلى أبَوَيْكَ فاسْتَأْذِنْهما، فإن أذِنا فجاهِد، وإلّا فَبَرَّهُما ما استَطَعْتَ، فإنّ ذلك خيرُ ما كلّف به بعدَ التوحيدِ»[١].

وجاء آخرُ إليه للجهادِ، فقال: «ألكَ والدةٌ؟» قال: نعم! قال: «فالزَمْها، فإنّ الجنّةَ تحتَ قَدَمِها»[٢].

ولو وَقَعت بينَ الوالدين مُخالَفَةٌ، بحيثُ تَوَقَّفَ رِضىٰ أحدِهما على سُخطِ الآخرِ، فينبغي أن يجتَهِدَ في الإصلاحِ بينَهما بأيِّ طريقٍ أمكنَ، ولو بالعرضِ إلى فقيهِ البلدِ حتّى يَطلُبَهما ويَعِظَهُما ويُقيمَهُما على الوفاقِ، لِئلّا يَنكَسِرَ خاطِرُ أحدِهما منه.

واعلَم أنَّ حَقَّ كبيرِ الإخوَةِ على صغيرِهم عَظيمٌ، فينبغي محافَظَتُه. قال رسولُ الله ﷺ: «حقُّ كبيرِ الإخوَةِ على صغيرِهم كحقِّ الوالدِ على ولدِه»[٣].

تذنيب: حقُّ الجِوارِ قَريبٌ من حقِّ الرحم، إذ الجِوارُ يقتضي حقّاً وراءَ ما تَقتضيهِ أُخُوَّةُ الإسلامِ، فيستحِقُّ الجارُ المسلمُ ما يستحقُّه كلُّ مسلمٍ وزيادةً، فمن قصّر في حقِّه عداوةً أو بخلاً فهو آثِمٌ. قال رسولُ الله ﷺ:

الجيرانُ ثلاثةٌ: فمنهم من له ثلاثةُ حقوقٍ: حقُّ الجوارِ، وحقُّ الإسلامِ، وحقُّ القرابةِ. ومنهم من له حقّانِ: حقُّ الإسلامِ، وحقُّ الجوارِ. ومنهم من له حقٌّ واحدٌ:

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٤٣٧.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٤٣٧، حقوق الوالدين والولد.
٣. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٤٣٨، حقوق الوالدين والولد.

الكافرُ له حقُّ الجوارِ[١].

فانظر كيف أثبَتَ للكافِرِ حقَّ الجوارِ. وقال ﷺ: «من كان يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ، فلا يُؤذِي جارَه»[٢]. وقال ﷺ: «لا إيمانَ لمن لم يأمَن جارُه بوائِقَه»[٣]. وقيل له ﷺ: فلانةٌ تصومُ النهارَ وتَقومُ الليلَ وتتصدَّقُ، وتُؤذِي جارَها بلسانِها. فقال ﷺ: «لا خيرَ فيها، هي من أهلِ النارِ»[٤]. وعن عليّ ﷺ:

إنّ رسولَ الله ﷺ كتبَ بينَ المهاجرينَ والأنصارِ ومن لَحِقَ بهم من أهلِ يَثرِبَ: أنَّ الجارَ كالنفسِ، غيرُ مُضارٍّ ولا آثِمٍ، وحرمةُ الجارِ على الجارِ كحرمةِ أُمِّهِ[٥].

وقال ﷺ: «قال رسولُ الله ﷺ: ما آمن بي من باتَ شبعاناً وجارُه جائعٌ»[٦]. وقال:

إنّ يعقوبَ ﷺ لمّا ذهبَ عنه بنيامين، نادى: يارَبِّ أما ترحَمُني، أذهَبْتَ عَينَيَّ وأذهبتَ ابنيَّ؟ فأوحى اللهُ تباركَ وتعالى إليه: «لو أمَتُّهما لأحيَيْتُهما لك، أجمَع بينَك وبينَهما، ولكن تذكرُ الشاةَ التي ذبحتَها وشَوَيتَها وأكَلْتَ، وفلانٌ إلى جانِبِك صائمٌ لم تُنِلْهُ منها شيئاً»[٧].

وفي رواية أُخرى: فكان بعد ذلك يعقوبُ ينادي مناديه كلَّ غداةٍ ومساءٍ من منزلِه على فرسخٍ: «ألا من أرادَ الغداءَ أو العشاءَ فليأتِ إلى يعقوبَ!»[٨].

تتميم: معرفةُ الجوارِ موكولةٌ إلى العرفِ، فأيُّ دارٍ يُطلَقُ عليها الجارُ عرفاً تلزمُ مراعاةُ حقوقِ أهلِها. والمستفادُ من بعضِ الأخبارِ: أنّ كلَّ أربعين داراً من كلِّ واحدٍ من الجوانبِ الأربعةِ جيرانٌ. ثمّ لا ينحصِرُ حقُّ الجارِ في مجرّدِ كفِّ الأذى، إذ ذلك يستحقُّه كلُّ أحدٍ، بل

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٤٢٢، حقوق الوالدين والولد.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٦٦٧، باب حقّ الجوار، ح ٦.
٣. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٤٤٢؛ إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٢١٢.
٤. المحجّة البيضاء، ج ٢، ص ٤٢٣.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٦٦٦، باب حقّ الجوار، ح ٢.
٦. الكافي، ج ٢، ص ٦٦٨، باب حقّ الجوار، ح ١٤.
٧. الكافي، ج ٢، ص ٦٦٦ ـ ٦٦٧، باب حقّ الجوار، ح ٤.
٨. الكافي، ج ٢، ص ٦٦٧، باب حقّ الجوار، ح ٥.

لابدّ من الرفقِ وإهداءِ الخيرِ والمعروفِ، وتَشريكهِ فيما يَملِكُه ويحتاجُ إليه من المطاعمِ، كما ظهر من بعضِ الأخبارِ المتقدّمةِ. وينبغي أن يبدأَهُ بالسلامِ، ولا يُطيلَ معه الكلامَ، ولا يُكثِرَ عن حالِه السُؤالَ، ويعودَه في المرضِ، ويُعَزِّيَهُ في المصيبةِ، ويَقُومَ معه في العزاءِ، ويُهَنِّئَهُ في الفرحِ، ويَصفحَ عن زَلّاتِه، ويسترَ ما اطّلعَ عليهِ من عَوراتِه، ولا يُضايِقَهُ في وضعِ الجِذعِ على جدارِه، ولا في صبِّ الماءِ في ميزابِـه، ولا في مَـطرَحِ الترابِ في فـنائِه، ولا في المـرورِ عـن طـريقِه، ولا يَمنَـعَـهُ ما يحتاجُ إليه من الماعونِ، ويَغضَّ بَصَرَه عن حرمِه، ولا يغفلَ عن ملاحظةِ دارِه عندَ غيبتِه، ويتلَطَّفَ لأولادِه في كلمتِه، ويُرشِدَه إلى ما يُصلِحُه من أمـرِ ديـنِه ودنـياهُ، وإن استعانَ به في أمرٍ أعانَه، وإن استقرَضَهُ أقرضَه، ولا يستطيلُ عليه بالبناءِ فَيحجِبُ عنه الريحَ إلّا باذنِه، وإذا اشترى شيئاً من لذائذِ المطاعِمِ وطُرَفِها فَليُهْدِ له، وإن لم يفعلْ فَليُدْخِلْها بـيتَه سِرّاً، ولا يَخرُجُ بها أولادُه حتّى يَطَّلِعَ عليهـا بعضُ أولادِ جـارِه، فـيشتهِيهِ ويـنكسِرُ لذلك خاطِرُه.

النوع التاسع: طلبُ العثراتِ و تَـجَـسُّـسُ العيوبِ

ولا ريبَ في كونِه من نتائجِ العداوةِ والحسدِ، وربّما حدثَ في القوّةِ الشهويّةِ رداءةٌ تُوجِبُ الاهتزازَ والانبساطَ من ظهورِ عيبِ بعضِ المسلمينَ، وإن لم يكن عداوةً وحقداً، كما قيل:

وعَينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كَليلَةٌ ولكنَّ عينَ السُخْطِ تُبدِي المَساوِيا

ومن تَصَفَّحَ الآياتِ والأخبارَ يعلمْ أنّ من يَتَّبِع عيُوبَ المسلمينَ ويُظهِرها بين الناسِ أسوأُ الناسِ وأخبَثَهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[1]، و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]. وقال رسولُ الله ﷺ: «من أذاعَ فاحشةً كان كَمُبْتَدِئِها، ومن عَيَّرَ مؤمناً بشيءٍ لم يَمُتْ حتّى يَرتَكِبَه»[3]. وقال الباقر عليه السلام: «من أقربِ ما يكونُ العبدُ إلى الكفرِ أن يُؤاخِيَ الرجلُ الرجلَ على الدين، فيُحصِي عليه زَلّاتِه ليُعَيِّرَهُ بها يَوماً ما»[4].

وقال رسولُ الله ﷺ:

إنّ أسرعَ الخيرِ ثواباً البِرُّ، وأسرعَ الشرِّ عُقوبةً البَغيُ. وكفى بالمرءِ عيباً أن يُبصِرَ من الناسِ ما يَعمَى عنه، وأن يُعَيِّرَ الناسَ بما لا يَستطِيعُ تَركَه، وأن يُؤذِيَ جليسَه بما لا يَعنِيهِ[5].

---

١. الحجرات (٤٩): ١٢.

٢. النور (٢٤): ١٩.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٥٦، باب التعيير، ح ٢.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٣٥٥، باب من طلب عثرات المؤمنين وعوراتهم، ح ٦.

٥. الكافي، ج ٢، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠، باب من يعيب الناس، ح ١.

وصـل

ضدّ طلب العثرات: سترُ العيوبِ

ضدُّ كشفِ العيوبِ سترُها وإخفاؤُها، وهو من أعظمِ شُعَبِ النصيحةِ، ولا حدّ لثوابِه، كما يستفادُ من الأخبارِ الكثيرةِ. قال رسولُ الله ﷺ: «من سترَ على مسلمٍ ستره اللهُ في الدنيا والآخرةِ»[1]. وكفى بسترِ العيوبِ فضلاً أنّه من أوصافِ اللهِ سبحانَه، ومن شدّةِ اعتنائِه بسترِ الفواحِش أناطَ ثُبوتَ الزنا ـ وهو أفحشُها ـ بما لا يمكنُ اتّفاقُه إلّا نادراً. فانظر إلى أنّه تعالى كيفَ أسبلَ السترَ على العصاةِ من خلقِه في الدنيا، بتضييقِ الطُرُقِ المؤَدِّيَةِ إلى كشفِه. ولا تَظُنَّنَّ أنـّك تُحرَمُ هذا السترَ يومَ تُبلَى السرائرُ، فقد ورد في الحديثِ: «أنّ اللهَ تعالى إذا سترَ على عبدٍ عورتَه في الدنيا فهو أكرَمُ من أن يكشِفَها في الآخرةِ، وإن كشفَها في الدنيا فهو أكرَمُ من أن يكشِفَها في الأُخرى»[2]. فإذا كانت عنايةُ اللهِ سبحانَه في سترِ عيوبِ العبادِ بهذه المثابةِ، فأنّى لك أيّها المسكينُ المُبتَلى بأنواعِ العيوبِ والمعاصي، تسعى في كشفِ عيوبِ عبادِ الله، مع أنّك مثلُهم في الاتّصافِ بأنواعِ العيوبِ والعثراتِ! وتأمَّلْ أنـّه لو أظهرَ أحدٌ بعضَ فواحِشِكَ عندَ الناسِ كيفَ يَكونُ حالُك، فقِس عليه حالَ غيرِك ممّن تَكشِفُ أنتَ بعضَ فَواحِشِه. وقد ثبتَ ووَضحَ من الأخبارِ والتجربةِ: أنّ من يَفضَحُ يَفتَضِحُ. فياحبيبي، تَرَحَّـمْ على نفسِك وتَأَسَّ بِربِّكَ، فأسبِلِ السترَ على عيوبِ غيرِك.

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٣٧٥، في حقّ المسلم والرحم؛ كنز العمّال، ج ٣، ص ٢٥٠، ح ٦٣٩٣.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٣٧٦، في حقّ المسلم والرحم.

النوع العاشر: إفشاءُ السرِّ وإذاعتُه

وهو أعمُّ من كشفِ العيبِ، إذ السرُّ قد يكون عيباً وقد لا يكونُ بعيبٍ، ولكن في إفشائِه إيذاءٌ وإهانةٌ بحقِّ الأصدقاءِ أو غيرِهم من المسلمينَ، وهو من رذائلِ قـوّةِ الغـضبِ إن كـان منشأه العداوةُ، ومن رذائلِ قوّةِ الشهوةِ إن كان منشأه تَصَوُّرُ نفعٍ ماليّ، أو مُجَرَّدُ اهتزازِ النفسِ بذلك لخباثِتِها، وهو مذمومٌ منهيٌّ عنه.

قال رسولُ الله ﷺ: «إذا حدّث الرجلُ الحـديثَ ثم التَـفَتَ، فـهي أمـانةٌ»[1]. وقـال رسولُ الله ﷺ: «الحـديثُ بـينَكم أمـانةٌ»[2]. وورد: «أنَّ مـن الخـيانةِ أن تُحَـدِّثَ بـسرِّ أخِيكَ»[3]. وقال عبد الله بنُ سنانٍ للصادقِ عليه السلام: عورةُ المؤمِن على المـؤمن حـرامٌ؟ فـقال: «نعم»، قلت: تعني سِفْلَتَه؟ قال: «ليس حيثُ تَذهَبُ، إنّما هو إذاعةُ سِرِّه»[4].

١. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٣٢.
٢. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٣٢.
٣. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٣٢.
٤. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢١٤، باب تتبّع عيوب الناس، ح ٩.

وصلٌ

ضدّ إفشاء السرّ: كِتمانُ السرِّ

ضدُّ إفشاءِ السرِّ كِتمانُه، وهو من الأفعالِ المحمودةِ، وقد أُمِر بهِ في الأخبارِ.

قال أميرُ المؤمنين عليه السلام:

طُوبى لعبدٍ نُوَمَةٍ، لا يُؤْبَهُ له، يَعرِفُ الناسَ ولا يَعرفُهُ النـاسُ، يَـعرِفهُ اللـهُ مـنه برضوانٍ، أُولئك مصابيحُ الهُـدَى، تَنجَلي عنهم كلُّ فتنةٍ، ويُفتَحُ لهـم بـابُ كـلِّ رحمةٍ، ليسوا بالبُذُرِ المَذايِيعِ، ولا الجُفاةِ المُرائِينَ[1].

وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام:

قُولوا الخيرَ تُعرَفُوا به، واعمَلُوا الخيرَ تَكُونُوا من أهلِه، ولا تكونُوا عُجُلاً مَذايِيعَ، فإنّ خيارَكم الذين إذا نُظِرَ إليهم ذُكِر اللهُ، وشِرارُكُم المشّاؤونَ بالنميمةِ، المُفـرِّقُونَ بينَ الأحبّةِ، المُبتَغُونَ للبراءِ المعايِبَ[2].

تنبيه: النميمةُ تُطلَقُ في الأكثرِ على أنَ يَنِمَّ قولَ الغيرِ إلى المَقـُولِ فيه، كأن يقال: فلانٌ تَكلَّم فيك بكذا وكذا، أو فعلَ فيك كذا وكذا. وعلى هذا تكونُ نوعاً خاصّاً من إفشاء السرِّ وهَتكِ السترِ، وهو الذي يتضمَّنُ فساداً أو سِعايةً. وقد تُطلَق على ما لا يَختصُّ بالمَقـُولِ فيه، بل على

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٢٢٥، باب الكتمان، ح ١٢.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٢٢٥، باب الكتمان، ذيل الحديث ١٢.

كشفِ ما يُكرَهُ كَشفُه، سواءٌ كَرِهَ المَنقُولُ عنه أو المَنقُولُ إليهِ أو كَرِهَه ثالثٌ، وسواءٌ كان الكشفُ بالقولِ أو الكتابةِ أو بالرمزِ والإيماءِ، وسواءٌ كان المنقولُ من الأعمالِ أو من الأقوالِ، وسواءٌ كان ذلك عيباً ونُقصاناً على المَنقُولِ عنه أو لم يَكُن. وعلى هذا تكونُ مساويةً لإفشاءِ السرِّ وهتكِ السترِ. وحينئذٍ فكلُّ ما يُرى من أحوالِ الناسِ ولم يَرضَوا بإفشائِه، فإذاعتُه نميمةٌ. فاللازمُ على كلِّ مسلمٍ أن يسكُتَ عمّا يَطَّلعُ عليه من أحوالِ غيرِه، إلّا إذا كان في حكايتِه نَفعٌ لِمُسلمٍ أو دَفعٌ لِمَعصِيَةٍ. كما إذا رأى أحداً يَتناوَلُ مالَ غيرِه، فعليه أن يَشهَدَ به مُراعاةً لحقِّ المَشهُودِ له، وأمّا إذا رآه يُخفي مالاً لنفسِه، فحكايتُه نَميمةٌ وإفشاءٌ للسرِّ.

ثمّ الباعثُ على النميمةِ يكون غالباً إرادةَ السوءِ بالمَحْكِيِّ عنه، فيكون داخلاً تحتَ الإيذاءِ، وربّما كان باعثهُ إظهارَ المحبّةِ للمحكيِّ له، أو التفريجَ بالحديثِ، أو الخوضَ في الفضولِ. وعلى أيِّ تقديرٍ، لا ريبَ في أنَّ النميمَة أرذلُ الأفعالِ القبيحةِ وأشنَعُها. وما وردَ في ذمِّها من الآياتِ والأخبارِ لا يُحصَى كثرةً[١]، قال اللهُ سبحانه: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[٢] ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[٣] أي: النّمام المغتاب.

وقال رسولُ الله ﷺ: «لا يَدخُلُ الجَنَّةَ نَمّامٌ»[٤]. وقال ﷺ: «من أشاعَ على مسلمٍ كلمةً لِيَشِينَهُ بها في الدنيا بغيرِ حقٍّ، شانَه اللهُ في النارِ يومَ القيامة»[٥]. وقال ﷺ: «أيّما رجلٍ أشاعَ على رجلٍ كلمةً وهو منها بَريءٌ لِيَشِينَهُ بها في الدنيا، كان حقّاً على اللهِ أن يُذيبَهُ بها يومَ القيامةِ في النارِ»[٦]. وقال الباقر عليه السلام: «الجَنَّةُ مُحَرَّمَةٌ على المُغتابِينَ المَشّائِينَ بالنميمةِ»[٧].

ثمّ يلزمُ على من تُحمَلُ إليه النميمةُ ألّا يُصَدِّقَ النَّمّامَ؛ لأنّه فاسِقٌ، والفاسِقُ مردودُ

---

١. راجع: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٦٣، باب النميمة والسعاية.
٢. القلم (٦٨): ١١ـ١٣.
٣. الهمزة (١٠٤): ١.
٤. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٥٥.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٦.
٦. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٦.
٧. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٩، باب النميمة، ح ٢.

الشهادةِ بقولهِ تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[1]. وأن ينهاهُ عن ذلك، وينصحه ويُقبِّحَ له فعلَه، لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[2]. وأن يُبغِضَهُ في الله، لكونه مبغوضاً عندَه تعالى، وألّا يظُنَّ بأخيهِ سُوءاً بمُجرَّدِ قولِه، لقوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ﴾[3]. وألّا يَحمِلَ عَمَلَهُ على التجسُّسِ والبحثِ لتحقيقِ ما حُكِيَ له، لِقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[4]. وألّا يرضَى لنفسِه ما نَهى عنه النَّمامَ، فلا يَحكِي نَميمَتَهُ، فيقول: فلانٌ قد حَكَى كذا وكذا، فيكون به نَمّاماً ومُغتاباً. وروى محمّد بن فضيل عن الكاظمِ عليه السلام:

أنّه قال له عليه السلام: جُعِلتُ فداكَ، الرجلُ من إخواني يَبْلُغُني عنه الشيءُ الذي أكرَهُهُ فأسألُه عنه فيُنكِرُ ذلك، وقد أخبرني عنه قومٌ ثقاتٌ. فقال لي: «يا محمّد، كَذِّبْ سمعَك وبصرَك عن أخيكَ، فإن شَهِد عندك خمسونَ قسامة، فقال لك قولاً، فَصَدِّقْهُ وكَذِّبْهم، ولا تُذيعَنَّ عليه شيئاً تَشِينُه بِهِ وتَهدِمُ مُروءتَه، فتكونَ من الذين قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[5].

وقد روي عن أميرِ المؤمنين عليه السلام:

أنّ رجلاً أتاه يسعَى إليه برجلٍ، فقال: يا هذا، نحنُ نسألُ عمّن قلت، فإن كنتَ صادقاً مَقَتْناك، وإن كنتَ كاذباً عاقَبناك، وإن شئتَ أن نُقيلَكَ أقَلْناكَ. قال: أقِلْني يا أميرَ المؤمنين[6].

واعلم أنّ السعايةَ هي النميمةُ، بشرطِ كونِ المحكيِّ له من يُخافُ جانِبُه، كالسلاطينِ والأُمراءِ والحكماءِ والرؤساءِ وأمثالِهم، فهي أشدُّ أنواعِ النميمةِ إثماً ومعصيةً، وهي أيضاً تكونُ من العداوةِ ومن حبِّ المالِ وطمعِه، فتكونُ من رداءةِ القوّتين وخباثَتِها.

---

١. الحجرات (٤٩): ٦.
٢. لقمان (٣١): ١٧.
٣. الحجرات (٤٩): ١٢.
٤. الحجرات (٤٩): ١٢.
٥. الكافي، ج ٨، ص ١٤٧، ح ١٢٥. والآية في سورة النور (٢٤): ١٩.
٦. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٦٦، باب النميمة، ح ١٣.

النوع الحادي عشر: الإفسادُ بينَ الناسِ

وهو في الأكثرِ يحصُل بالنميمةِ، وإن لم تُوجِب كلُّ نميمةٍ إفساداً. ولا ريبَ في كونِه من المهلِكاتِ المُؤدِّيةِ إلى النارِ.

قال الله سبحانه: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصل ويُفسدون في الأرض أُولئك هم الخاسرون﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «إنّ فساد ذات البين هي الحالقة»[2].

---

١. البقرة (٢): ٢٧.

٢. كنز العمّال، ج ٣، ص ٥٨، ح ٥٤٨٠.

وصلٌ

ضدّ الإفساد: الإصلاح بين الناس

الإصلاحُ بينَ الناسِ أعظمُ أفرادِ النصيحةِ، ولا غايةَ لمثوبتِه عندَ الله. قال رسولُ الله ﷺ: «أفضلُ الصدقةِ إصلاحُ ذاتِ البينِ»[1]. وقال ﷺ: «اتّقوا اللهَ وأصلِحوا ذاتَ بينِكم، فإنّ اللهَ تعالى يُصلِح بينَ المؤمنين يومَ القيامةِ»[2]. وقال الصادقُ عليه السلام: «صدقةٌ يُحِبُّها اللهُ تعالى إصلاحُ بينَ الناسِ إذا تفاسَدُوا، وتقارُبُ بينَهم إذا تباعَدُوا»[3]. وقال عليه السلام للمفضّل: «إذا رأيتَ بين اثنينِ من شيعتِنا مُنازَعةً، فافْتَدِها من مالي»[4]. وقال عليه السلام لابنِ عمّار: «أبلِغْ عنّي كذا وكذا في أشياءَ أمرَ بها». فقال له ابن عمّار: فأُبلِغُهم عنك، وأقولُ عَنّي ما قلتُ لي وغيرَ الذي قلت؟ قال: «نعم! إنّ المُصلِحَ ليس بكذّابٍ»[5]. وقال عليه السلام: «المُصلِحُ ليس بكاذِبٍ»[6] يعني إذا تكلّم بما لا يُطابِق الواقعَ فيما يتوقّفُ عليه الإصلاحُ لم يُعَدَّ كَلامُه كَذِباً. وهذا يدلُّ على وجوبِ الإصلاحِ بينَ الناسِ، لأنّ تَركَ الكذبِ واجبٌ، ولا يَسقُطُ الواجِبُ إلّا بواجبٍ آكَدَ منه.

---

١. كنز العمّال، ج ٣، ص ٥٨، ح ٥٤٨٣.

٢. كنز العمّال، ج ٣، ص ٥٨، ح ٥٤٨٢.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩، باب الإصلاح بين الناس، ح ١.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩، باب الإصلاح بين الناس، ح ٣.

٥. الكافي، ج ٢، ص ٢١٠، باب الإصلاح بين الناس، ح ٧.

٦. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠، باب الإصلاح بين الناس، ح ٥.

النوع الثاني عشر: الشماتةُ

وهي إظهارُ أنّ ما حدثَ بغيرِه من البليّةِ والمصيبةِ إنّما هو من سوءِ فعلِه وإساءتِه، والغالبُ صدورهُ عن العداوةِ أو الحسدِ، وعلامتُه أن يكونَ مع فرحٍ ومَسرّةٍ، وربّما صدرَ عن رداءةِ القوّةِ الشهويّةِ، بأن يهتزَّ به ويميلَ إليه، مع جهلِه بمواقعِ القضاءِ والقدرِ، وإن لم يكن معه حقدٌ وحسدٌ. والتجربةُ والأخبارُ شاهدانِ على أنّ كلَّ من شَمتَ بمسلمٍ في مصيبةٍ لم يخرُجْ من الدنيا حتّى يُبتَلى بمثلِها ويَشمَتَ به غيرُه فيها. قال الصادق عليه السلام: «لا تُبدِي الشماتةَ لأخيكَ، فيرحمُهُ اللهُ ويُحِلُّها بك»[1]. وقال عليه السلام «من شمتَ بمصيبةٍ نزلت بأخيهِ لم يخرُجْ من الدنيا حتّى يفتَتِنَ»[2].

على أنّ كلّ بليّةٍ ومصيبةٍ تَرِدُ على مسلمٍ يمكن أن تكونَ كفّارَةً لذنوبِه أو باعثاً لرفعِ درجاتِه واعتلاءِ مرتبتِه في دارِ الآخرةِ. والدليلُ على ذلك: أنّ أعظمَ البلايا والمصائبِ موكّلةٌ بالأنبياءِ، ثمّ بالأولياءِ، ثمّ بالأمثلِ فالأمثلِ في درجاتِ الاعتلاءِ. ولا ريبَ في أنّ ورودَ المصائبِ والمحنِ عليهم ليس من سوءِ فعلِهم وإساءتِهم. فينبغي لكلِّ عاقلٍ أن يتأمّلَ:

أوّلاً: أنّ الشماتَةَ بمسلمٍ بمصيبةٍ لا ينفكّ في الدنيا من ابتلائِه بمثلِها.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٥٩، باب الشماتة، ح ١.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٥٩، باب الشماتة، ذيل الحديث ١.

وثانياً: أنّها إيذاءٌ لأخيهِ المسلمِ، فلا ينفكّ عن العذابِ في الآخرةِ.

وثالثاً: أنّ نزولَ هذه المصيبةِ به لا يدلُّ على سوءِ حالِه عندَ الله ،بل الأرجحُ دلالتُه على حسنِ حالِه وتَـقَـرُّبِه عندَ اللهِ سبحانه. فليحافِظْ على نفسِه عن إبداءِ الشماتـةِ لأحـدٍ مـن المسلمين، ويُخَوِّف من يراهُ من الشامتينَ عن عقوبةِ العاجلِ وعذابِ الآجلِ.

النوع الثالث عشر: المِراءُ والجدالُ والخصومةُ

اعلم أنّ المراءَ طعنٌ في كلامِ الغيرِ لإظهارِ خَلَلٍ فيه، من غيرِ غرضٍ سوى تحقيرِهِ وإهانتِه، وإظهارِ تَفَوُّقِهِ وكياستِه. والجدالُ مراءٌ يتعلّقُ بإظهارِ المسائلِ الاعتقاديّةِ وتقريرِها. والخصومةُ لجاجٌ في الكلامِ لاستيفاءِ مالٍ أو حقٍّ مقصودٍ، وهذه تكون تارةً ابتداءً وتارةً اعتراضاً، والمراءُ لا يكونُ إلّا اعتراضاً على كلامٍ سَبَقَ. فالمراءُ داخلٌ تحتَ الإيذاءِ، ويكون ناشِئاً من العداوةِ أو الحسدِ، وأمّا الجدالُ والخصومةُ، فربّما صدرا من أحدِهما أيضاً، وربّما لم يصدرا منه.

وحينئذ، فالجدالُ إن كان بالحقِّ ـ أي تعلّق بإثباتِ إحدى العقائِدِ الحقّةِ ـ وكان الغرضُ منه الإرشادَ والهدايةَ، ولم يكن الخصمُ لدوداً عنوداً، فهو الجدالُ بالأحسنِ، وليس مذموماً، بل ممدوحٌ معدودٌ من الثباتِ في الإيمان الذي هو من نتائجِ قوّةِ المعرفةِ وكبرِ النفسِ، قال اللهُ سبحانه: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1].

وإن لم يكن بالحقّ، فهو مذمومٌ اقتضَتْهُ العصبيّةُ أو حبُّ الغلبةِ أو الطمعُ الماليُّ، فيكون من رذائلِ القوّةِ الغضبيّةِ أو الشهويّةِ، وربّما أورثَ شكوكاً وشبهاتٍ تُضعِفُ العقيدةَ الحقّةَ، ولذا نَهى اللهُ سبحانه عنه وذمّ عليهِ، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا

---

١. العنكبوت (٢٩): ٤٦.

كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾[١] و ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾[٢].

والخصومةُ أيضاً إن كانت بحقٍّ، أي كانت ممّا يتوقّف عليه استيفاءُ مالٍ أو حقٍّ ثابتٍ، فهي ممدوحةٌ معدودةٌ من فضائلِ القوّةِ الشهويّةِ. وإن كانت بباطلٍ، أي تعلّقَتْ بما يدَّعيهِ كذباً أو بلا علمٍ ويقينٍ، فهي مذمومةٌ معدودةٌ من رذائِلها.

فالخصومةُ المذمومةُ تتناوَلُ المخاصمةَ فيما يعلمُ قطعاً عدمَ استحقاقِه، وفيما لا علمَ له بالاستحقاقِ، كخصومةِ وكيلِ القاضي؛ فإنّه قبل أن يَعرِف أنّ الحقّ في أيّ جانبٍ، يتوَكّلُ في الخصومةِ من أيّ جانبٍ كان، ويخاصِمُ من غيرِ علمٍ وإيقانٍ، فمثلُه خبّاطُ العشواتِ ورَكّابُ الشُبُهاتِ، يضرّ بالمسلمين بلا غرضٍ، ويتحمّلُ أوزارَ الغيرِ بلا عِوَضٍ، فهو أخسرُ الناسِ أعمالاً وأعظمُهم في الآخرةِ أوزاراً ونكالاً.

وتتناولُ أيضاً مخاصمةَ من يطلبُ حقَّه ولكنّه لا يقتَصِرُ على قدرِ الحاجةِ، بل يُظهِرُ اللَدَدَ والعنادَ في الخصومةِ قصداً للتسلُّطِ والإيذاءِ، ومن يَمزِجُ بخصومَتِهِ كلمةً مؤذيةً لا يحتاجُ إليها في إظهارِ الحقِّ وبيانِ الحجّةِ. ومن يحملُه على الخصومةِ محضُ العنادِ بقهرِ الخصمِ وكسرِه مع استحقارِه لذلك القدرِ من المالِ، وربّما صرّح بأنّ قصدي العنادَ والغلبةَ عليهِ وكسرَ عِرضِه، وإذا أُخذتُ منه هذا المالَ رميتُه ولا أُبالي، فمثلُه غرضُه اللَدَدُ واللجاجُ.

فتنحصرُ الخصومةُ الجائزةُ بمخاصمةِ المظلومِ الذي يَطلُب حقَّه وينصُرُ حجّتَه بطريقِ الشرعِ من غيرِ قصدِ عنادٍ وإيذاءٍ، مع الاقتصارِ على قدرِ الحاجةِ في الخصومةِ من دونِ أن يتكلّم بالزائدِ ولا بكلماتٍ مؤذيةٍ، ففعلهُ ليس بحرامٍ وإن كان الأولى تركُه ما وجد إليه سبيلاً، إذ ضبطُ اللسانِ في الخصومةِ على حدِّ الاعتدالِ مُتَعَذِّرٌ أو مُتَعَسِّرٌ، لأنّها تُوغِرُ الصدرَ، وتَهيجُ الغضبَ، وإذا هاج الغضبُ ذهبَ المُتنازَعُ فيه من البينِ، واشتدّ الحقدُ بين المتخاصِمَينِ حتّى يَحزَنَ كلُّ واحدٍ بِمَسَرَّةِ صاحِبه وَيَفرَحَ بمساءتِه. فالخصومةُ مبدأُ كلِّ شرٍّ، فينبغي ألّا يُفتَحَ

---

١. الحجّ (٢٢): ٨.

٢. الأنعام (٦): ٦٨.

بابُها إلّا عندَ الضرورةِ على قدرِ الضرورةِ، ولا يتعدّى عن الواجبِ؛ إذ أقلُّ درجاتِها تَشَوُّشُ الخاطِرِ، حتّى أنّه في الصلاةِ ليشتغِلُ بمخاصمةِ الخصمِ، ويتضَمَّنُ الطعنَ والاعتراضَ، أي التجهيلَ والتكذيبَ، إذ من يخاصِمُ غيرَه إمّا يُجهِّلُهُ أو يُكذِّبُه، فيكون آتياً بسوءِ الكلامِ، ويفوتُ به ضدُّه، أعني طيّبَ الكلامِ، مع ما ورد فيه من الثوابِ. وكذا الحالُ في المراءِ والجدالِ.

وبالجملة، المراءُ والجدالُ والخصومةُ ـ سوى ما استُثنِيَ ـ من ذمائمِ الأفعالِ ومباديُ أكثرِ الشرورِ والفتنِ، ولذا ورد بها الذمُّ الشديدُ في الأخبارِ. قال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «إيّاكم والمراءَ والخصومةَ، فإنّهما يُمرِضانِ القلوبَ على الإخوانِ، ويَنبُتُ عليهما النفاقُ»[١]. وقال الصادق عليه السلام: «لا تمارِيَنَّ حليماً ولا سفيهاً، فإنّ الحليم يغلِبُكَ والسفيهَ يُؤذِيكَ»[٢]. وقال عليه السلام: «إيّاك والمشادَّةَ، فإنّها تُورِثُ المعرَّةَ وَتُظهِرُ العورةَ»[٣]. وقال عليه السلام «إيّاكم والخصومةَ، فإنّها تَشغَلُ القلبَ، وتُورِثُ النفاقَ، وتُكسِبُ الضَغائِنَ»[٤].

فمن تأمّلَ في ما يدلُّ على ذمِّها وسوءِ عاقبتِها عقلاً ونقلاً ـ مع عدمِ ترتُّبِ فائدةٍ عليها، وتذكُّرِ ما ورد في مدحِ تركِها وفوائدِ ضدِّها، أعني طِيبَ الكلامِ ـ يسهُل عليه أن يتركَها ولا يَحُومَ حولَها.

تذنيب: طريقُ المعالجةِ في إزالةِ المراءِ والجدالِ والخصومةِ: أن يعلمَ أنّها تُوجِبُ التَباغُضَ والمباينةَ، وتزيلُ الأُلفةَ والمحبّةَ، وتقطَعُ الالتئامَ والوحدةَ. ولا ريبَ في أنّ قوامَ النظامِ الأصلحِ بالالتئامِ والوحدةِ، كما اقتضَتْهُ العنايةُ الإلهيّةُ والحكمةُ الأزليّةُ، والمباينةُ الراجعةُ إلى الكثرةِ تُنافِيها، ولا ينبغي للعاقلِ أن يرتكبَ ما يضادُّ فعلَ اللهِ وحكمتَه. وهذا هو العلاجُ العلميُّ، وأمّا العمليُّ فليواظِبْ على ضدِّ هذه الثلاثةِ، أعني طيبَ الكلامِ، ويكلّف نفسَه عليه حتّى يصيرَ ملكةً له وترتَفِع أضدادُها عنه بالمرّةِ.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٠، باب المراء والخصومة، ح ١.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٠١، باب المراء والخصومة، ح ٤.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٠١، باب المراء والخصومة، ح ٧.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٣٠١، باب المراء والخصومة، ح ٨.

وصــلٌ

ضدّ المراء: طيبُ الكلامِ

قد أُشيرَ إلى أنّ ضدَّ الرذائلِ الثلاثِ طيبُ الكلامِ، وما ورد في مدحِه وفي ثوابِ تركِها أكثرُ من أن يُحصَى. قال رسولُ الله ﷺ:

ثلاثٌ من لَقِيَ اللهُ تعالى بهنَّ دخلَ الجنّةَ من أيّ بابٍ شاء: مَنْ حَسُنَ خلقُه وخَشِيَ اللهَ في المغيبِ والمحضرِ، وتَرَكَ المراءَ وإن كان محقّاً[1].

وقال ﷺ: «الكلمةُ الطيّبةُ صدقةٌ»[2]. وروي:

أنّ عيسى عليه السلام مرّ به خنزيرٌ. فقال: «مرّ بسلامةٍ». فقيل له: يا روحَ الله، تقول هذا للخنزيرِ! فقال: «أكرَهُ أن أُعَوِّدَ لِساني الشرَّ»[3].

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٠، باب المراء والخصومة، ح ٢.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢١٣.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢١٣.

النوع الرابع عشر: السخريةُ والاستهزاءُ

وهو محاكاةُ أقوالِ الناسِ أو أفعالِهم أو صفاتِهم وخلقِهم، قولاً وفعلاً، أو إيماءً وإشارةً، على وجهٍ يُضحِكُ منه. وهو لا يَنفَكّ عن الإيذاءِ والتحقيرِ والتنبيهِ على العيوبِ والنقائصِ. وإن لم يكن ذلك بحضرةِ المستهزَأ به، فيتضمّنُ الغيبةَ أيضاً. وباعثُه إمّا العداوةُ أو التكبُّر واستصغارُ المستهزَأ به، فيكون من رذائِل القوّةِ الغضبيّةِ، أو قصدُ ضحكِ الأغنياءِ وتنشيطِ قلوبِهم، طمعاً في بعضِ أوساخِهم الملوَّثةِ، وأخذِ النبذِ من حطامِهم المحرّمةِ. ولا ريبَ في أنّه صفةُ من لا حظّ له في الدين، وشيمةُ أراذلِ أحزابِ الشياطين؛ لأنّهم يظهِرون أكاذيبَ الأقوالِ ويرتَكِبُونَ أعاجيبَ الأفعالِ، يَخلَعُونَ قلائدَ الحرّيّةِ عن الرقابِ، ويَهتِكُون أستارَ الحياءِ بمرأى من أُولي الألبابِ، يبتغون عيوبَ المؤمنين وعوراتِهم، ويظهرون نقائصَ المسلمينَ وعثراتِهم، يُقَلِّدون أفعالَ الأخيارِ على وجهٍ يضحَكُ الأشرارُ، ويحاكُون صفاتِ الأبرارِ على أفضحِ الوجوهِ في الأنظارِ.

ولا ريبَ في أنّ المرتكبَ لهذه الأفعالِ بعيدٌ عن الإنسانيةِ بمراحلَ، ومستوجبٌ لعقوبةِ العاجلِ وعذابِ الآجلِ، ولا يخلو ساعةً عن الصَغارِ والهوانِ، ولا وقعَ له في قلوبِ أهلِ الإيمانِ، وكفاه ذمّاً أنّه جعل تلك المعاصي الخبيثةَ وسيلةً لتحصيلِ المالِ أو الواقع في قلوبِ أبناءِ الدنيا، ويلزمُه عدم اعتقادِه بأنّ اللهَ سبحانه هو المتكفِّلُ لأرزاقِ العبادِ.

والطريقُ في دفعِه ـ بعد التأمّلِ في سوءِ عاقبتِه، ووخامةِ خاتمتِه، وفيما يلزمُه من الذلّةِ

والهوانِ في الدنيا ـ أن يبادرَ إلى إزالةِ العداوةِ والتكبّرِ إن كان باعثُه ذلك، وإن كان باعثُه تَنشيطَ قلوبِ أهل الدنيا طمعاً في مالِهم، فليعلم أنّ لكلِّ نفس ما قُدِّرَ لها من الأموالِ والأرزاقِ، يصلُ إليها من اللهِ سبحانَه ألبتةَ، فإنّ من يتّقِ اللهَ ويتوكّلْ عليه يجعلْ له مخرجاً ويرزُقْهُ من حيث لا يَحتَسِبُ، ويكون في الآخرةِ سعيداً. وإن أغواه الشيطانُ وحثّه على تحصيلِها من المداخلِ الخبيثةِ، لم يصِل إليه أكثرُ ممّا قدِّر له، وكان في الآخرة شقيّاً.

وليعلم أيضاً أنّ المتوكِّلَ على اللهِ والمتَّصِفَ بالحرّيّةِ، لا يبدِّلُ التوكُّلَ والحرّيّةَ بهذه الأفعالِ لأجلِ الوصولِ إلى بعضِ خبائثِ الأموالِ، فليعاتِبْ نفسَه ويَزجرْها بالمواعظِ والنصائحِ، ويتذكّر ما ورد في الشريعةِ من ذمِّ المستهزئين وتعذيبِهم يومَ القيامةِ بصورةِ الاستهزاءِ، قال اللهُ جلَّ شأنُه: ﴿لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾[1].

وقال ﷺ:

إنّ المستهزئين بالناسِ يُفتَحُ لأحدِهم بابٌ من الجنّةِ، فيقال: هَلُمَّ هَلُمَّ! فيجيءُ بكربِه وغمِّه، فإذا أتى أُغلِقَ دونَه، ثمّ يُفتَح له بابٌ آخر، فيقال: هَلُمَّ هَلُمَّ! فيجيءُ بكربِه وغمِّه، فإذا أتى أُغلِقَ دونَه، فما يزالُ كذلك حتّى يفتح له البابُ، فيقال له: هَلُمَّ هَلُمَّ! فما يأتيه[2].

ثمّ جميعُ ما ذُكِر إنّما هو في حقّ من يؤذِي الناسَ ويُهينُهم باستهزائِه وسُخريَتِه، وأمّا من جعل نفسَه مَسْخَرَةً ويسرُّ بأن يَهزِلَ ويَسخَرَ به، وإن كان هو ظالماً لنفسِه خارجاً عن شعارِ المؤمنين، حيث أهانَ نفسَه وأذلَّها، إلّا أنّ سخريةَ الغيرِ به من جملةِ المزاحِ، ويأتي ما يُذَمُّ منه وما يُحمَد، وإنّما المحرّم منه ما يُؤدّي إلى إيذائِه وتحقيرِه: بأن يُضحكَ على كلامِه إذا يَخبِط ولم يَنتَظِم، أو على أفعالِه إذا كانت مُشوَّشَةً، أو على صورتِه وخلقتِه إذا كان قصيراً أو طويلاً أو ناقصاً بعيبٍ من العيوبِ. فالضحكُ على جملةِ ذلك داخلٌ في السخريةِ المنهيِّ عنها.

وطريقُ علاجِه ـ بعد تذكُّرِ ما تقدَّم ـ أنّ استهزاءَه يوجِب خزيَ نفسِه يومَ القيامةِ عندَ اللهِ

---

١. الحجرات (٤٩): ١١.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٦.

وعندَ الملائكةِ والنبيّينَ وعندَ الناسِ أجمعينَ، فلو تفكّر في حسرتِه وحيائِه وخجلِه وخزيِه يومَ يحمِلُ سَيّئاتِ من استهزأ به ويُساقُ إلى النارِ، لأدهَشَه ذلك عن إخزاءِ غيرِه. ولو عرفَ حقيقَةَ حالِه يومَ القيامةِ، لكان الأولى له أن يضحكَ على نفسِه تارةً ويبكِي عَليها أُخرى، لأنّه باستهزائِه به عندَ بعضِ أراذلِ الناسِ عَرَّضَ نفسَه لأن يأخذَ بيدِه ذلك الغيرُ يومَ القيامةِ على ملأٍ من الناسِ ويسوقَه تحت السياطِ كما يُساقُ الحمارُ إلى النارِ مستهزِئاً به، مسروراً بخزيِه وتمكينِ الله تعالى إيّاه على الانتقامِ منه. فمن تأمّلَ في ذلك، ولم يكن عدوّاً لنفسِه، اجتنب عن السخريةِ والاستهزاءِ كلَّ الاجتنابِ.

النوع الخامس عشر: المزاح

وأصلُه مذمومٌ منهيٌّ عنه، وسببُه إمّا خفّةٌ في النفسِ، فيكون من رذائلِ القوّةِ الغضبيّةِ، أو ميلُ النفسِ وشهوتُها إليه، أو تَطييبُ خاطرِ بعضِ أهل الدنيا طمعاً في مـالِهم، فـيكونُ مـن رذائلِ القوّة الشهويّة. وسببُ الذمّ فيه: أنّه يُسقِطُ المهابةَ والوقارَ، وربّما أدّى إلى التـباغُضِ والوحشةِ والضغينةِ، وربّما انجرّ إلى الهزلِ والاستهزاءِ وأدخلَ صاحبَه في جملةِ المستهزإ بهم، وربّما صار باعِثاً لظهورِ العداوةِ ـ كما قيل ـ وربّما جرَّ إلى اللـعبِ، قـال رسـول اللـه ﷺ: «لا تُمارِ أخاك، ولا تُمازِحْهُ»[1]. وقال رسـولُ اللـه ﷺ: «إنّ الرجـلَ ليَـتَكلّمُ بـالكلمةِ فُيضحِكُ بها جلساءَهُ، يَهوِي بها أبعدَ من الثريّا»[2]. وقال: «لو تَعلَمُون ما أعلَم لبَكَيْتُم كثيراً ولَضَحِكتُم قليلاً»[3]، وهو يدلّ على أنّ الضحكَ علامةُ الغفلةِ عن الآخرةِ.

ثمّ المذمومُ من الضحكِ هو القَهْقَهَةُ، والتبسّم الذي ينكَشِفُ فيه السنُّ ولا يُسمَعُ الصوتُ ليس مذموماً، بل هو محمودٌ؛ لفعلِ النبيِّ ﷺ[4].

تذنيب: الحقُّ أنّ المذمومَ من المزاحِ هو الإفراطُ فيه والمُداوَمَةُ عـليه، أو مـا يـؤدّي إلى الكذبِ والغيبةِ وأمثالِها، ويُخرِج صاحبَه عن الحقّ. وأمّا القليلُ الذي يُوجِب انبساطَ خاطرٍ

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣١.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٢.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٢.

٤. راجع: الكافي، ج ٢، ص ٦٦٣، باب الدعابة والضحك.

وطيبةَ قلبٍ، ولا يتضمَّنُ إيذاءً ولا كذباً ولا باطلاً، فليس مذموماً؛ لقولِ رسولِ الله ﷺ: «إنّي لأمزحُ ولا أقولُ إلّا حقّاً»[١]. وقال ﷺ «لا تدخُلُ الجنّةَ عجوزٌ. فبكت العجوزُ. فقال: إنّكِ لستِ يومئذٍ بعجوزٍ»[٢] وجاءت امرأةٌ إليه وقالت: إنّ زوجي يدعُوك. فقال ﷺ: «زوجُكِ هو الذي بعينِه بياضٌ؟» قالت: واللهِ ما بعينِه بياضٌ. فقال: «بلى، إنّ بعينِه بياضاً». فقالت: لا واللهِ. فقال: «ما من أحدٍ إلّا بعينِه بياضٌ». وأراد به البياضَ المحيطَ بالحدقةِ[٣]. وكان ﷺ يدلَعُ لسانَه للحسينِ عليه السلام، فيرى لسانَه فيهشّ له[٤]. وقال لصهيب ـ وبه رمدٌ وهو يأكلُ التمرَ ـ: «أتأكلُ التمرَ وأنت أرمَدُ؟» فقال: إنّما آكلُ بالشقِّ الآخرَ، فتبسّم رسول الله حتّى بدت نواجِذُه[٥]. وكان نُعيمانُ الأنصاريّ رجلاً مزّاحاً، فإذا دخل المدينة شيءٌ نفيسٌ من اللباسِ أو المطاعمِ اشترى منه، وجاء بِهِ إلى رسولِ الله ﷺ ويقول: هذا أهديتُه لك. فإذا جاء صاحبُه يُطالبهُ بثمنِه، جاء به إلى رسولِ الله ﷺ، وقال يا رسولَ الله، أعطِه ثمنَ متاعِه، فيقولُ له النبيُّ ﷺ: «أو لم تهدِه لنا»؟ فيقول: لم يكن عندِي واللهِ ثمنُه، وأحببتُ أن تأكلَ منه، فيتبسّم رسولُ الله ويأمرُ لصاحبِه بثمنِه[٦].

وأمثالُ هذه المطايباتِ مرويّةٌ عن رسولِ الله ﷺ وعن الأئمّةِ عليهم السلام وأكثرُها منقولةٌ مع النسوانِ والصبيانِ، وكان ذلك معالجةً لضعفِ قلوبِهم، من غيرِ ميلٍ إلى هزلٍ ولا كذبٍ ولا باطلٍ، وكان صدورُ ذلك عنهم أحياناً وعلى الندرةِ، ومثلُهم كانوا يقدرون على المزاحِ مع عدمِ خروجِهم عن الحقِّ والاعتدالِ، وأمّا غيرُهم فإذا فُتِح بابُ المزاحِ فربّما وقع في الإفراطِ والباطلِ. فالأولى لأمثالِنا تركُه مطلقاً.

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٢.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٤.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٤.

٤. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٤.

٥. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٤.

٦. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٤.

النوع السادس عشر: الغِيبةُ

وهي أن يذكرَ الغَيرَ بما يكرهُه لو بلغَه، سواءٌ كان ذلك بنقصٍ في بدنِه أو في أخلاقِه أو في أقوالِـه، أو في أفـعالِه المـتعلّقةِ بـدينهِ أو دنـياه، بـل وإن كـان بـنقصٍ في ثـوبِه أو دارِه أو دابّتِه.

والدليلُ على هذا التعميمِ ـ بعد إجماعِ الأُمّةِ على أنّ من ذَكر غيرَه بما يكرهُه إذا سمعَه فهو مغتابٌ ـ ما رُوي عن رسولِ الله ﷺ أنّه قال: «هل تدري ما الغيبةُ؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «ذِكرُك أخاك بما يكرهُ»، قيل له: أرأيتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟ قال: «إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتبتَهُ، وإن لم يكن فيه فقد بَهتَّهُ»[1]. عن عائشة قالت: «إنّي قلت لامرأةٍ مرّةً وأنا عندَ النبيِّ ﷺ: إن هذهِ لَطويلةُ الذيلِ. فقال لي: الفظي الفظي! فَلَفَظْتُ مضغَةَ لحم»[2]. وقد روي: «أنّ أحدَ الشيخين قال للآخر: إنّ فلاناً لَنَؤُومٌ، ثمّ طلبا أدماً من رسولِ الله ليأكلا به الخبزَ. فقال ﷺ: قد ائْتَدَمْتُمَا. فقالا: مـا نـعلمُه. فـقال: بـلى! إنّـكما أكـلتُما مـن لحـمِ صاحبِكما»[3]. وقال ﷺ: «هو أن تقولَ لأخِيك في دينِه ما لم يفعَلْ، وتَبُثَّ عليه أمـراً قـد ستَرَهُ اللهُ عليه لم يقَم عليهِ فيه حدٌّ»[4]. وقال ﷺ: «الغيبةُ أن تقولَ في أخِيك ما ستَرَهُ اللـه

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٢٢، باب الغيبة، ذيل الحديث ١.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٢٥٧.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٢٦٠.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٣٥٧، باب الغيبة والبهت، ح ٣.

عليه، وأمّا الأمرُ الظاهرُ فيه، مثل الحدّةِ والعجلةِ، فلا»[١]. وقال الكاظمُ عليه السلام: «من ذكر رجلاً من خلفِه بما هو فيه ممّا عَرَفهُ الناسُ لم يَغتَبْهُ، ومن ذكرَهُ من خلفِه بما هو فيهِ ممّا لا يعرفهُ الناسُ اغتابه، ومن ذكره بما ليسَ فيه فقد بَهَتَهُ»[٢].

ويأتي أنّ المجاهرَ بمعصيتِه غيرَ ساترٍ لها، لا غيبةَ له فيها.

والحاصلُ: أنّ الإجماعَ والأخبارَ متطابقانِ على أنّ حقيقةَ الغيبةِ هو «أن يذكرَ الغير بما يكرهُه إذا سمعَه» سواءٌ كان ذلك بنقصٍ في نفسِه أو بدنِه، أو في دينِه أو دنياه، أو فيما يتعلّق به من الأشياءِ.

وهاهنا بحوثٌ:

البحث الأوّل: لا تنحصرُ الغيبةُ باللسانِ

اعلم أنّ الغيبةَ لا تنحصِرُ باللسانِ، بل كلُّ ما يُفهِم نقصانَ الغيرِ، ويُعَرِّفُ ما يكرَهُه فهو غيبةٌ، سواء كان بالقولِ أو الفعلِ، أو التصريحِ أو التعريضِ، أو بالإشارةِ والإيماءِ، أو بالغمزِ والرمزِ، أو بالكتابةِ والحركةِ، ولا ريبَ في أنّ الذكرَ باللسانِ غيبةٌ محرّمةٌ، لتفهيمِه الغيرَ نقصانَ أخيك وتعريفِه بما يكرهُه، لا لكونِ المفهِمِ والمعرِّفِ لساناً، فكلّ ما كان مفهِماً ومعرِّفاً فهو مثلُه.

فالغيبةُ تتحقّق بإظهارِ النقصِ بالفعلِ والمحاكاةِ، كمشيةِ الأعرجِ، بل هو أشدّ من الغيبةِ باللسانِ؛ لأنّه أعظمُ في التصويرِ والتفهيمِ منه. وبالإيماءِ والاشارةِ، وقد رُوي: «أنّه دخلت امرأةٌ على عائشة، فلمّا ولّت، أومأت بيدِها أنّها قصيرةٌ. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: قد اغتبتِها»[٣]. وبالكتابة، إذ القلمُ أحدُ اللسانين. وبالتعريضِ كأن يقول: الحمدُ للهِ الذي لم يبتَلِنا بالدخولِ على الظلمةِ، والتبذُّلِ في طلبِ الجاهِ والمالِ، أو يقول: نعوذُ بالله من قلّةِ الحياءِ، ونسألُه أن يعصِمَنا منه، معرِّضاً في كلّ ذلك بمن ارتكَب ذلك، فيذكره بصيغةِ الدعاءِ. وربّما قدّم مدحَ من يُريدُ غِيبتَه، ثمّ أَتبعَه بإظهارِ عيبِه، كأن يقول: لقد كان فلانٌ حسنَ الحالِ، ولكنّه

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٥٨، باب الغيبة والبهت، ح ٧.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٥٨، باب الغيبة والبهت، ح ٦.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٢٤، باب الغيبة، ذيل الحديث ١.

ابتُليَ بما ابتُلي به كلُّنا من سوءِ الحالِ. وهو جمعٌ بين الرياءِ والغيبةِ، ومدحِ نفسِه بالتشبُّهِ بالصلحاءِ في ذمِّ أنفسِهم.

ومن المغتابين المنافقين من يُظهِرُ في مقامِ غيبةِ مسلمٍ الاغتمامَ والحزنَ من سوءِ حالِه، كأن يقول: لقد ساءني ما جرى على صديقِنا فلانٍ من الإهانةِ والاستخفافِ، أو ارتكابِه معصيةَ كذا، فنسألُ الله أن يجعَله مُكرماً أو يصلحَ حالَه. أو يقول: قد ابتُلي ذلك المسكينُ بآفةٍ عظيمةٍ، تاب الله علينا وعليه. وهو كاذبٌ في ادّعائِه الحزنَ والكآبةَ، وفي إظهارِ الدعاءِ، إذ لو اغتمَّ لأغتمَّ بإظهارِ ما يكرهُه أيضاً، ولو قصدَ الدعاءَ لأخفاهُ في خلواتِه، فإظهارُ الحزنِ والدعاءِ شيءٌ من خبثِ سريرتِه، وهو يظنُّ أنّه شيءٌ من صفاءِ طويته. هكذا يلعبُ الشيطانُ بمن ليس له قوّةُ البصيرةِ بمكايدِ اللعينِ وتلبيساتِه، فيسخرُ بهم ويضحكُ عليهم، ويُحبِطُ أعمالَهم بمكايده، وهم يحسبون أنّهم يحسنونَ صنعاً. وربّما ذكر بعضُ المغتابين عيبَ مسلمٍ ولم يَتَنَبَّهْ له بعضُ الحاضرين، فيقولُ إسماعاً له وإعلاماً لما يقوله: «سبحانَ اللهِ! ما أعجبَ هذا!» حتّى يتوجَّهَ إليه ويعلمَ ما يُريد، فيستعملُ اسمَ اللهِ آلةً لتحقيقِ خُبثِه.

ثمّ المستمعُ للغيبةِ أحدُ المغتابين، كما وردَ به الخبرُ. وقد دلّ على ذلك أيضاً ما تقدّمَ من حديثِ الشيخين، وما رُوي:

أنّه ﷺ لمّا رجم ماعِزاً في الزنا، قال رجلٌ لآخر: هذا أقعصَ[1] كما يقعصُ الكلبُ. فمرّ النبيُّ ﷺ معهما بجيفةٍ، فقال: «انهَشا من هذهِ الجيفةِ». فقالا: يا رسولَ الله، ننهَشُ جيفةً! فقال: «ما أصبتُما من أخيكما أنتنُ من هذه»[2].

فجمع بينَهما، مع أنّ أحدَهما كان قائلاً والآخرُ مستمعاً.

وهو إمّا لا يسرُّ باستماعِها، إلّا أنّه لا ينكرُها باللسانِ ولا يكرهُها بالقلبِ، أو يَسُرُّ ويَفرحُ باستماعِها، إلّا أنّ النفاقَ والتزهُّدَ حملاه على عدمِ التصديقِ، وربّما منع منها رياءً وتزهُّداً، مع كونِه مشتهياً لها بقلبِه، وربّما توصّل بالحيلِ المرغّبةِ للمغتابِ في زيادةِ الغيبةِ، مع التباسِ الأمرِ

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦، باب الغيبة.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

عليه بأنّه يشتهيها، مثل أن يُظهِرَ التعجُّبَ ويقول: عجبتُ منه ما عَلِمْتُ أنّـه كـذلك، ومـا عرفتُه إلى الآن إلّا بالخيرِ، وكنت أحسبُ فيه غيرَ هذا عافانا الله من بلائِه. فإنّ ذلك تصديقٌ للمغتابِ، وباعثٌ لزيادةِ نشاطِه في الغيبةِ، فكأنّه يستخرجُ منه الغيبةَ بهذا الطريقِ.

والحاصلُ: أنّ المستمعَ لا يخرجُ عن إثمِ الغيبةِ إلّا بأن يُنكِرَ بلسانِه، أو يقطَعَ الكلامَ بكلامٍ آخرَ، أو يقومَ من المجلِس، وإن لم يقدر على شيءٍ من ذلك، فلينكِر بقلبِه. وإن قال بـلسانِه: اسكُت، وهو يشتهِيه بقلبِه فذلك نفاقٌ، ولا يُخرِجُه من الإثمِ ما لم يكرَهْهُ بقلبِه. ومـع عـدم الخوفِ لا يكفي أن يشيرَ باليدِ أو حاجبِه أو جبينِه، أي اسكُت، إذ ذلك استقحارٌ للمذكورِ، مع أنّه ينبغي أن يُعَظِّمَهُ فيذبّ عنه صريحاً. قال النبيّ ﷺ: «من أُذِلَّ عندَه مؤمنٌ وهو يَقدِرُ على أن يَنتَصِرَ له فلم يَنصُرْهُ، أذلَّه اللهُ يومَ القيامةِ على رؤوسِ الخلائقِ»[1]. وقـال ﷺ: «من ردّ عن عرضِ أخيه بالغيبِ، كان حقّاً على اللهِ أن يردّ عن عرضِه يومَ القيامةِ»[2]. وقال: «من ذبَّ عن عِرضِ أخيهِ بالغيبِ، كان حقّاً على الله أن يعتقَه من النارِ»[3]. وقال: «من ردَّ عن عِرضِ أخيه، كان له حجاباً من النارِ»[4]. وقال:

من تَطَوّل على أخيه في غيبتِه، سمعها عنه في مجلسٍ فردَّها ردّ اللهُ عنه ألفَ بابٍ من الشرّ في الدنيا والآخرةِ، وإن لم يَرُدَّها وهو قادرٌ على ردِّها، كان عليه كَوِزرِ مـن اغتابَه سبعينَ مرّةً[5].

وقال الباقر عليه السلام:

من اغتِيبَ عندَه أخوهُ المؤمنُ فنصرَه وأعانَه نصرهَ اللهُ في الدنيا والآخرةِ، ومن لم ينصُرْهُ ولم يَدفَعْ عنه وهو يقدِرُ على نصرتِه وعونِه خفضهُ اللهُ في الدنيا والآخرةِ[6].

وبهذه المضامينِ أخبارٌ كثيرةٌ أُخر.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٢٦، باب الغيبة، ذيل الحديث ١.
٢. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٢٦، باب الغيبة، ذيل الحديث ١.
٣. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٢٦، باب الغيبة، ذيل الحديث ١.
٤. السنن الكبرى، ج ٨، ص ٢٩٠، ح ١٦٦٨٤.
٥. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٤٧، باب الغيبة، ح ١٠.
٦. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٥٥، باب الغيبة، ح ٣٨.

البحث الثاني : بَواعِثُ الغيبةِ

اعلم أنّ باعثَ الغيبةِ ـ غالباً ـ إمّا الغضبُ أو الحقدُ أو الحسدُ، فيكون من نتائجِها، ومن رذائِل قوّةِ الغضبِ، وله بواعثُ أُخرُ:

الأوّل: السُخريةُ والاستهزاءُ: فإنّ ذلك كما يجرِي في الحضورِ يجري في الغيبةِ أيضاً، وقد عرفتَ أن منشأَهما ماذا.

الثاني: اللعبُ والهزلُ والمطايَبةُ: فيذكرُ غيرَه بما يُضحِك الناسَ عليه على سبيلِ التعجُّبِ والمحاكاةِ. ويأتي أنّ باعثَ الهزلِ والمزاحِ ماذا، وأنّه متعلّقٌ بالقوّةِ الشهويّةِ.

الثالث: إرادةُ الافتخارِ والمباهاةِ: بأن يرفعَ نفسَه بتنقيصِ غيرِه، فيقول: فلانٌ لا يعلمُ شيئاً. وغرضُه أن يُثبِتَ في ضمنِ ذلك فضلَ نفسِه وأنّه أفضلُ منه. وظاهرٌ أنّ منشأ ذلك التكبُّرُ أو الحسدُ، فيكونُ أيضاً من رذائلِ القوّةِ الغضبيّةِ.

الرابع: أن يُنسَبَ إلى شيءٍ من القبائحِ، فيريدُ أن يَتَبَرَّأَ منه بذكرِ الذي فعله، وكان اللازمُ عليه أن يُبَرِّئَ نفسَه منه، ولا يتعرّضَ للغيرِ الذي فعله وقد يذكُر غيره بأنّه كان مشارِكاً له في الفعلِ، ليتمهّدَ بذلك عُذرُ نفسِه في فعلِه، وربّما كان منشأُ ذلك صغرَ النفسِ وخبثَها.

الخامس: مرافقةُ الأقرانِ ومساعدتُهم على الكلامِ، حذراً عن تنفُّرِهم واستثقالِهم إيّاه لولاه، فيساعدُهم على إظهارِ عيوبِ المسلمين وذكرِ مساوئِهم ظنّاً منه أنّه مجاملةٌ في الصحبةِ، فيهلكُ معهم. وباعث ذلك أيضاً صغرُ النفسِ وضَعفُها.

السادس: أن يستشعرَ من رجلٍ أنّه سيذكر مساوئَه، أو يُقَبِّحَ حالَه عندَ مُحتَشَمٍ، أو يشهدَ عليه بشهادةٍ، فيبادرُه قبلَ ذلك باظهارِ عداوتِه، أو تقبيحِ حالِه، لِيَسقُطَ أثرُ كلامِه وشهادتِه. وربّما ذكره بما هو فيه قطعاً، بحيثُ ثبتَ ذلك عند السامعين ليَكذِبَ عليه بعدَه، فيُرَوِّجُ كَذِبَه بالصدقِ الأوّلِ ويستشهدُ به ويقول: ليس الكذبُ من عادتي، فإنّي أخبرتُكم قبلَ ذلك من أحوالِه كذا وكذا، فكان كما قلتُ، فهذا أيضاً صدقٌ كسابقِه. وهذا أيضاً منشؤهُ الجبنُ وضعفُ

النفسِ.

السابع: الرحمةُ، وهو أن يحزنَ ويغتمَّ بسببِ ما ابتُلي به غيرُه، فيقول: المسكينُ فلانٌ قد غمّني ما ارتكبَه من القبحِ، أو ما حدَث به من الإهانةِ والاستخفافِ فيكون صادقاً في اغتمامِه، إلّا أنّه لما ذكر اسمَه وأظهرَ عيبَه صار مُغتاباً، وقدكان له الاغتمامُ بدونِ ذكرِ اسمِه وعيبِه ممكناً، فأوقعه الشيطانُ فيه ليُبطِلَ ثوابَ حُزنِه ورحمتِه.

الثامن: التعجّبُ من صدورِ المنكَرِ والغضبُ للهِ عليه، بأن يرى منكراً من إنسانٍ أو يَسمعَه، فيقولُ عند جماعةٍ: ما أعجَبَ من فلانٍ أن يَتعارفَ مثلَ هذا المنكرِ! أو يغضب منه، فيظهر غضبَه واسمَه ومُنكَرَه، فإنّه وإن كان صادقاً في تعجُّبِه من المنكرِ وغضبِه عليه، لكن كان اللازمُ أن يتعجّبَ منه ويغضبَ عليه، ولكنّه لا يُظهِرُ اسمَه عندَ من لم يَطّلِع على ما صدر منه من المنكَرِ، بل يُظهِر غضبَه عليه بالنهي عن المنكرِ والأمرِ بالمعروفِ من غيرِ أن يُظهِرَه لغيرِه، فلمّا أوقعَه الشيطانُ في ذكرِه بالسوءِ صار مُغتاباً، وبطلَ ثوابُ تعجُّبِه وغضبِه، وصار آثماً من حيثُ لا يدري.

وهذه الثلاثةُ الأخيرَةُ ممّا يَغْمُضُ دَركُها؛ لأنّ أكثَرَ الناسِ يَظنُّون أنّ الرحمةَ والتعجُّبَ والغضبَ إذاكان للهِ كان عذراً في ذكرِ الاسمِ، وهو خطأٌ محضٌ؛ إذ المرخَّصُ في الغيبةِ حاجاتٌ مخصوصةٌ لا مندوحةَ فيها عن ذكرِ الاسمِ دونَ غيرِها.

البحث الثالث: ذمُّ الغيبةِ

لمّا علمتَ حقيقةَ الغيبةِ وبواعِثَها، فاعلم أنّها أعظمُ المهلِكاتِ وأشدُّ المعاصي، وقد نصّ اللهُ سبحانَه على ذمِّها في كتابِه، وشَبَّه صاحبَها بآكلِ لحمِ الميتةِ، فقال: ﴿ولا تَجسَّسُوا ولا يَغْتبْ بَعضُكُم بَعضاً، أيُحبُّ أحَدُكُم أنْ يأكُلَ لَحمَ أخيهِ مَيْتاً فَكرِهتُموهُ﴾[١].

قال ﷺ: «مررتُ ليلةَ أُسريَ بي على قومٍ يخمِشُون وجوهَهم بأظافيرِهم، فقلت:

---

١. الحجرات (٤٩): ١٢.

ياجبرئيلُ، من هؤلاء؟ قال: الذين يغتابونَ الناسَ، ويقعونَ في أعراضِهم»[١]. وخطب يوماً حتّى أسمعَ العواتِقَ في بيوتِها، فقال:

يا معشرَ من آمنَ بلسانِه ولم يؤمنْ بقلبِه لا تغتابُوا المسلمين، ولا تَتَّبِعُوا عوراتِهم، فإنّ من تَتَبَّعَ عورةَ أخيهِ يَتَتَبَّعُ اللهُ عورتَه حتّى يَفضَحَهُ [ولو] في جوفِ بيتِه[٢].

وقال الصادقُ عليه السلام: «من قال في مؤمنٍ مارأَتْهُ عيناهُ وسمعَتْهُ أذناهُ، فهو من الذين قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذينَ يُحِبُّونَ أن تَشِيعَ الفاحِشَةُ في الذين آمَنُوا لَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ﴾»[٣]. وقال عليه السلام:

من رَوى على مؤمنٍ روايةً يُرِيدُ بها شَينَهُ وهدمَ مُروءتِهِ ليسقُطَ من أعينِ الناسِ، أخرجَهُ اللهُ من ولايتِه إلى ولايةِ الشيطانِ، فلا يقبلُه الشيطانُ[٤].

والأخبارُ الواردةُ في ذمّ الغيبةِ ممّا لا يكادُ يُمكِن حَصرُها، والعقلُ أيضاً حاكِمٌ بأنّها أخبثُ الرذائِل. وقد كان السلفُ لايرون العبادةَ في الصومِ والصلاةِ، بل في الكفِّ عن أعراضِ الناسِ؛ لأنّه كان عندَهم أفضلُ الأعمالِ، ويرون خلافَه صفةَ المنافقين، ويعتقدون أنّ الوصولَ إلى المراتِب العاليةِ في الجنّةِ يتوقّفُ على تَركِ الغيبةِ. وما أقبحَ بالرجلِ المسلمِ أن يغفلَ عن عيوبِ نفسِه، ويتجسَّسَ على عيوبِ إخوانِه، ويُظهِرَها بين الناسِ، فما بالُه يُبصِرُ القَذَى في عينِ أخيه، ولا يُبصِرُ الجِذعَ في عينِ نفسِه.

فيا حبيبي، إذا أردتَ أن تذكُرَ عيوبَ غيرِك فاذكُر عيوبَك، وتَيَقَّنْ بأنّك لن تُصيبَ حقيقةَ الإيمانِ حتّى لا تعيبَ الناسَ بعيبٍ هو فيك، وحتّى تبدأَ بإصلاحِ ذلك العيبِ. وإذا كان شغلُك إصلاحَ عيوبِ نفسِك، كان شغلُك في خاصّةِ نفسِك، ولم تكن لك فرصةٌ للاشتغالِ بغيرِك، وحينئذ كنتَ من أحبِّ العبادِ إلى الله، لقولِ النبيّ صلى الله عليه وآله: «طوبى لمن شغلَه عيبُه عن عيوبِ الناسِ!»[٥].

---

١. بحار الأنوار، ج٧٥، ص٢٢٢، باب الغيبة، ذيل الحديث ١.

٢. المحجّة البيضاء، ج٥، ص٢٥١ ـ ٢٥٢.

٣. الكافي، ج٢، ص٣٥٧، باب الغيبة والبهت، ح ٢، والآية ١٩ من سورة النور (٢٤).

٤. الكافي، ج٢، ص٣٥٨، باب الرواية على المؤمن، ح ١.

٥. بحار الأنوار، ج٧٥، ص٢٢٩، باب الغيبة، ذيل الحديث ١.

واعلم أنّ عجزَ غيرِك في الاجتنابِ عن ذلك العيبِ وصعوبةَ إزالتِه عليه كعجزِك عن الاجتنابِ عنه إن كان ذلك العيبُ فعلاً اختيارياً، وإن كان أمراً خَلْقياً فالذمّ له ذمٌّ للخالقِ تعالى. فإنّ من ذمّ صنعةً فقد ذمّ صانِعَها. قيل لبعضِ الحكماءِ: يا قبيحَ الوجهِ! فقال: «ما كان خَلقُ وجهي إليّ فأُحَسِّنَه». ولو فُرِض براءَتُك عن جميعِ العيوبِ، فَلْتَشْكُرِ اللهَ ولا تُلوِّثْ نفسَك بأعظمِ العيوبِ، إذ أكلُ لحومِ الميتاتِ أشدُّ العيوبِ وأقبحُها، مع أنّك لو ظننتَ خلوَّكَ عن جميعِ العيوبِ لكنتَ أجهلَ الناس، ولا عيبَ أعظمُ من مثلِ هذا الجهلِ.

ثمّ ينبغي أن يعلم المغتابُ أنّ الغيبةَ تُحبِط حسناتِه وتزيدُ في سيّئاتِه، لما ثبتَ من الأخبارِ الكثيرةِ: أنّ الغيبةَ تنقُلُ حسناتِ المغتابِ يومَ القيامةِ إلى من اغتابَه، وإن لم تكن له حسنةٌ نُقِل إليه من سيّئاتِه. قال رسولُ الله ﷺ:

يؤتَى بأحدِكم يومَ القيامةِ، فيُوقَفُ بين يدي اللهِ تعالى، ويُدفَع إليه كتابُه، فلا يرى حسناتِه، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي، فإنّي لا أرى فيه طاعتي، فيقول له: إنّ ربّك لا يَضِلُّ ولا ينسى، ذهب عملُك باغتيابِ الناسِ. ثمّ يؤتى بآخرَ ويُدفَع إليه كتابُه، فيرى فيه طاعاتٍ كثيرةً، فيقول: إلهي ما هذا كتابي، فإنّي ما عَمِلتُ هٰذه الطاعاتِ، فيقول له: إنّ فلاناً اغتابَكَ فَدُفِعَتْ حسناتُه إليك[١].

والحاصلُ: أنّ العاقلَ ينبغي أن يتأمّل في أنّ من يغتابُه إن كان صديقاً ومُحِبّاً له، فإظهارُ عيوبِه وعثراتِه بعيدٌ عن المُروءةِ والإنصافِ. وإن كان عدوّاً له، فَتَحَمُّلُ خطاياهُ ومعاصِيه ونقلُ حسناتِه إلى ديوانِه غايةُ الحماقةِ والجهلِ.

البحث الرابع: علاجُ الغيبةِ

الطريقُ في علاجِ الغيبةِ وتركِها، أن يتذكّر أوّلاً ما تقدّمَ من مفاسِدِها الأُخرويّة، ثمّ يتذكّرَ مفاسِدَها في الدنيا، فإنّه قد تَصِلُ الغيبةُ إلى من اغتِيب، فتصيرُ منشأً لعداوتِه أو لزيادةِ عَداوتِه، فيتعرّضُ لإيذاءِ المغتابِ وإهانتِه، وربّما انجرّ الأمرُ بينهما إلى ما لا يمكنُ تداركُه من

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٥٩، باب الغيبة، ح ٥٣.

الضربِ والقتل وأمثالِ ذلك. ثمّ يتذكّرَ فوائدَ أضدادِها ـ كما نشيرُ إليها ـ وبعد ذلك فليُراقِبْ لسانَه، ويُقدِّمِ التَرَوِّي في كلِّ كلامٍ يريد أن يَتكلَّمَ به، فإن تَضمَّنَ غيبةً سكتَ عنه، وكلّفَ نفسَه ذلك على الاستمرارِ، حتّى يَرتفعَ عن نفسِه الميلُ الجليُّ والخفيُّ إلى الغيبةِ.

والعمدةُ في العلاج أن يقطعَ أسبابَها المذكورةَ، وقد تقدّم علاجُ الغضبِ والحقدِ والحسدِ والاستهزاءِ والسخريةِ، ويأتي طريقُ العلاجِ في الهزلِ والمطايبةِ والافتخارِ والمباهاةِ.

البحث الخامس: مُسَوِّغاتُ الغيبةِ

لمّا عرفتَ أنّ الغيبة «ذكرُ الغيرِ بما يكرَهُه لو سَمِعَه»، فاعلم أنّ ذلك، إنّما يحرُم إذا قَصَدَ به هتكَ عرضِه، والتفكُّهَ بهِ، أو إضحاكَ الناسِ منه. وأمّا إذا كان ذلك لغرضٍ صحيحٍ لا يمكنُ التوصُّلُ إليه إلّا به فلا يَحرُم. والأغراضُ الصحيحةُ المُرَخِّصَةُ له أُمورٌ:

الأوّل: التظلُّمُ عندَ من له رتبةُ الحكمِ وإحقاقُ الحقوقِ، كالقضاةِ والمفتينَ والسلاطينَ، فإنّ نسبةَ الظلمِ والسوءِ إلى الغيرِ عندَهم لاستيفاءِ الحقِّ جائزٌ، لقولِ النبيِّ ﷺ: «لصاحبِ الحقِّ مقالٌ»[1]، وقولهِ ﷺ: «ليُّ الواجدِ يُحِلُّ عِرضَهُ وعُقوبَتَه»[2]. وعدمِ إنكارِه ﷺ على قولِ هند بحضرته: إنّ أبا سفيانَ رجلٌ شحيحٌ لايُعطيني ما يكفيني إيّاي وولدي، أفآخذُ من غيرِ علمِه؟ وقولِه ﷺ لها: «خذي مايكفيكِ وولدكِ بالمعروفِ»[3].

الثاني: الاستعانةُ على رفعِ المنكرِ وردّ المعاصِي إلى الصلاحِ، وإنّما يُستباحُ بها ذكرُ مساءَتِه بالقصدِ الصحيحِ لا بدونِه.

الثالثُ: نُصحُ المستشيرِ في التزويجِ، وإيداعِ الأمانةِ، وأمثالِهما كذلك جرحُ الشاهدِ والمفتي والقاضي إذا سُئِل عنهم، فله أن يذكُرَ مايعرِفُه من عدمِ العدالةِ والأهليّةِ للإفتاءِ والقضاءِ، بشرطِ صحّةِ القصدِ وإرادةِ الهدايةِ وعدمِ باعثِ حسدٍ أو تلبيسٍ من الشيطانِ. وكذلك تَوَقّي المسلمينَ من الشرِّ والضررِ أو سرايةِ الفسقِ والبدعةِ، فإنّ من رأى عالماً أو غيرَه من المؤمنين

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٠.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٠.
٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧١.

يتردَّدُ إلى ذي شرٍّ أو فاسقٍ أو مبتدعٍ، وخاف أن يتضرَّرَ ويتعدّى إليه الفسقُ والبدعةُ بمصاحبتِه، يجوز له أن يكشفَ له مايَعرِفهُ من شرِّهِ وفسقِه وبدعَتِه، بشرطِ كونِ الباعثِ مجرّدَ خوفِ وصولِ الشرّ والفسادِ أو سرايةِ الفسقِ والبدعةِ إليه. قال رسولُ الله ﷺ: «أترَعَوُونَ عن ذكرِ الفاجرِ حتّى لا يعرفَه الناسُ؟ اذكُروه بما فيه يحذرُه الناسُ»[١]. ومن جملةِ مايدخلُ في تحذيرِ المسلمين وتَوَقّيهم من الشرِّ والضررِ إظهارُ عيبٍ يعلمُه في مبيعٍ وإن كرهَه البائعُ حفظاً للمشتري من الضررِ، مثل أن يشتري عبداً، وقد عرفه بالسرقةِ أو الفسقِ أو عيبٍ آخرٍ، أو فرساً وقد عرفه بكونِه مالَ الغيرِ، فله أن يُظهِرَ ذلك، لاستلزامِ سكوتِه ضرراً على المشتري.

الرابع: ردُّ من ادّعى نسباً ليس له.

الخامس: القدحُ في مقالةٍ أو دعوى باطلةٍ في الدين.

السادس: الشهادةُ على فاعلِ المحرّمِ حِسبَةً.

السابع: ضرورةُ التعريفِ، فإنّه إذاكان أحدٌ معروفاً بلقبٍ يُعرِبُ عن عيبٍ وتوقَّفَ تعريفُه عليه، لم يكن إثمٌ في ذكرِه بشرطِ عدمِ إمكانِ التعريفِ بعبارةٍ أُخرى، لفعلِ الرواةِ والعلماءِ في الأعصارِ والأمصارِ؛ فإنّهم يقولون: روى الأعمشُ والأعرجُ وغيرُ ذلك، لأنّ الغالبَ صيرورتُه بحيثُ لايكرَهُه صاحبُه.

الثامن: كونُ المقولِ فيه مستحقّاً للاستخفافِ، لتظاهُرِهِ وتجاهُرِه بفسقٍ، كالظلمِ والزنا وشربِ الخمرِ وغيرِ ذلك، بشرطِ عدم التعدّي عمّا يتظاهَرُ به، إذ لو ذكرهُ بغيرِ ما يتظاهرُ به لكان آثماً، وأمّا إذا ذكر منه مجرّدَ ما يتجاهَرُ به فلا إثمَ عليه، إذ صاحبه لا يستنكِفُ من ذكرِه، وربّما يتفاخَرُ به ويقصدُ إظهارَه. ومع قطعِ النظرِ عن ذلك فالأخبار دالّةٌ عليه، كما تقدّمَ جملةٌ منها. وقال رسولُ الله ﷺ: «من ألقَى جِلبابَ الحياءِ من وجهِه فلا غيبةَ له»[٢]. وقال ﷺ: «ليس لفاسقٍ غيبةٌ»[٣].

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٣٢، باب الغيبة، ذيل الحديث ١؛ المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧١.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٣٣، باب الغيبة، ذيل الحديث ١؛ المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧١، بيان الأعذار المرخّصة في الغيبة.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٣٣، باب الغيبة، ذيل الحديث ١.

البحث السادس: كفّارةُ الغيبةِ

كفّارةُ الغيبةِ ـ بعد التوبةِ والندمِ للخروجِ عن حقِّ اللهِ ـ أن يخرجَ من حقِّ من اغتابَه. وطريقُ الخروجِ من حقّه، إن كان ميّتاً أو غائباً لم يمكن الوصولُ إليه، أن يكثرَ له من الاستغفارِ والدعاءِ، ليحسبَ ذلك يومَ القيامةِ من حسناتِه ويقابِلَ بها سيّئةَ الغيبةِ. وإن كان حيّاً يمكن الوصولُ إليهِ ولم تبلُغ إليه الغيبة، وكان في بلوغِها إليه مَظِنّةُ العداوةِ والفتنةِ فليكثِرْ له أيضاً من الدعاءِ والاستغفار من دون أن يخبره بها. وإن بلغت إليه أو لم تبلُغْه، ولم يكن في بلوغِها ظنّ الفتنةِ والعداوةِ، فَليَسْتَحِلَّهُ معتذراً متأسّفاً مبالِغاً في الثناءِ عليه والتوددِ إليه، ولْيُواظِبْ على ذلك حتّى يُطَيِّبَ قلبَه ويُحِلَّهُ، فإن لم يَطِب قلبُه من ذلك ولم يُحِلَّه، كان اعتذارُه وتوددُه حسنةً يقابِلُ بها سيّئةَ الغيبةِ في القيامةِ.

والدليلُ على هذا التفصيلِ قولُ الصادقِ عليه السلام: «وإن اغتبتَ فَبَلَغَ المغتابَ فاستَحِلَّ منه، فإن لم تَبْلُغْهُ لم تَلحقْهُ فاستَغْفِرِ الله»[1]. وذلك لأنّ في الاستحلالِ مع عدمِ البلوغِ إليه إثارةُ للفتنةِ وجلبُ الضغائنِ. وفي حكمِ من لم يَبلُغْهُ من لم يقدِرْ على الوصولِ إليه بموتٍ أو غيبةٍ. وعلى هذا **فقولُ** النبي صلى الله عليه وآله: «كفّارةُ من اغتبتَهُ أن تستغفرَ له»[2]، **محمولٌ** على صورةِ عدمِ إمكانِ الوصولِ إليه، أو إمكانِه مع إيجابِ الإعلامِ والاستحلالِ لإثارةِ الفتنةِ والعداوةِ.

وقوله صلى الله عليه وآله:

> من كانت لأخيهِ عندَه مظلمةٌ في عِرضٍ أو مالٍ، فَلْيَتَحلّلها منه من قبلِ أن يأتيَ يومٌ ليس هناك دينارٌ ولا درهمٌ، إنّما يُؤخَذُ من حسناتِه، فإن لم تكن له حسناتٌ أُخِذ من سيّئاتِ صاحبه فزيدَت على سيّئاتِه[3].

محمولٌ على صورة البلوغِ أو عدمِ البلوغِ، مع عدمِ إيجابِ الإعلامِ والاستحلالِ فتنةً وعداوةً.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٤٢، باب الغيبة، ذيل الحديث ٤.
٢. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٤٢، باب الغيبة، ذيل الحديث ٤.
٣. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٤٣، باب الغيبة، ذيل الحديث ٤؛ المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٣، باب كفّارة الغيبة.

تتميم: البهتان

قد ظهر ممّا تقدّمَ أنّ البهتانَ أن تقولَ في مسلمٍ مايكرَهُهُ ولم يكُنْ فيه، فإن كان ذلك في غيبتِه كان كذباً وغيبةً، وإن كان بحضورِه كانَ أشدَّ أنواعِ الكذبِ. وعلى أيِّ تقديرٍ فهو أشدُّ إثماً من الغيبةِ والكذبِ، قالَ الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَكسِبْ خَطيئةً أوْ إثماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقدْ احتَمَلَ بُهتاناً وَإثماً مُبيناً﴾[١]. وقال رسول الله ﷺ: «من بهتَ مؤمناً أو مؤمنةً، أو قال فيه ما ليس فيه، أقامَهُ اللهُ على تلٍّ من نارٍ، حتّى يخرجَ ممّا قالَه فيه»[٢]. وقال الصادقُ عليه السلام: «من بهتَ مؤمناً أو مؤمنةً بما ليسَ فيه، بَعثَهُ اللهُ عزّ وجلّ في طينةِ خَبالٍ، حتّى يخرجَ ممّا قال»، قلت: وما طينةُ خبالٍ؟ قال: «صديدٌ يخرجُ من فروجِ المُومِساتِ»[٣].

ثمّ ماورد في ذمِّ اللسانِ وكونه شرَّ الأعضاءِ ومنبعَ أكثرِ المعاصي يدلُّ على ذمِّ الغيبةِ والبهتانِ، كما يدلُّ على ذمِّ جميعِ آفاتِ اللسانِ ممّا تقدّم: من الفحش واللعن، والطعن، والسخريّة وغير ذلك، وما يأتي من الكذبِ، والمزاحِ، والخوضِ في الباطِل. وفضولِ الكلامِ، وغيرِ ذلك.

---

١. النساء (٤): ١١٢.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٩٤، باب التهمة والبهتان، ح ٥.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩، باب الغيبة والبهت، ح ٥.

وصل

ضدّ الغِيبة: المدحُ

الغيبةُ لمّا كانت راجعةً إلى الذمّ فضدُّها المدحُ ودفعُ الذمّ، والبهتانُ لما كان كذباً فضدُّه الصدقُ. وكما أنّ لكلٍّ واحدةٍ من آفاتِ اللسانِ ممّا مرّ وممّا يأتي ضدّاً خاصّاً، فكذلك لجميعِها ضدٌّ واحدٌ عامٌّ هو الصمتُ، كما أُشِيرَ إليه فيما سبقَ أيضاً. وضدُّ البهتانِ ـ أعني الصدقَ ـ يأتي في مقامِ بيانِ الكذِب. وأمّا الضدُّ العامُّ للكلِّ، فقد يأتي في موضعِه مع مايدلُّ بعمومِهِ على ذمِّ جميعِ آفاتِ اللسانِ. فهنا نشيرُ إلى بيانِ المدحِ وما يُحمَدُ منه، حتّى يكون ضدّاً لها وفضيلةً للقوّةِ الغضبيّةِ أو الشهويّةِ، وما يذمُّ منه حتّى يكونَ رذيلةً لإحداهما، فنقول:

لا ريبَ في أنّ مدحَ المؤمنِ في غيبتِه وحضورِه ممدوحٌ مندوبٌ إليه، لكونِه إدخالاً للسرورِ عليه، وقد عُلِم مدحُه وثوابُه، ولما وردَ من أنّ رسولَ الله ﷺ أثنى على أصحابِه، وأنّه قال لجماعةٍ ـ لمّا أثنَوا على بعضِ الموتى ـ: «وَجَبَتْ لكم الجنّةُ، وأنتم شهداءُ اللهِ في الأرضِ»[1]. ولما وردَ من:

أنّ لبني آدمَ جُلَساءُ من الملائكةِ، فإذا ذكرَ أحدُ أخاه المسلمَ بخيرٍ، قالت الملائكةُ: ولك مثلُه، وإذا ذكره بسوءٍ، قالت الملائكةُ: يا ابنَ آدمَ المستورَ عورتُه، اربَعْ على

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٤.

نفسِك! واحمَدِ اللهِ إذ ستَرَ عورَتَك[١].

ولٰكنّه ليس راجحاً مندوباً على الإطلاقِ، بل إذا سَلِم من آفاتِه، وهي أن يَكونَ صدقاً لا يُفرِطُ المادحُ فيه بحيثُ ينتهي إلى الكذب، وألّا يكون المادحُ فيه مرائياً منافقاً، بأن يكونَ غرضُه إظهارَ الحبِّ مع عدمِ كونِه محبّاً في الواقعِ سواءٌ كان صادقاً فيما ينسبُه إليه من المدح أم لا، وألّا يمدَحَ الظالمَ والفاسقَ وإن كان صادقاً فيما يقولُ في حقِّه، لأنّه يَفرَحُ بمدحِه، وإدخال الفرحِ على الظالمِ أو الفاسقِ غيرُ جائزٍ، قال رسول الله ﷺ: «إنّ اللهَ ليغضبُ إذا مُدِحَ الفاسِقُ»[٢]. فالظالمُ الفاسقُ ينبغي أن يُذَمَّ لِيَغْتَمَّ، ولا يُمدَحُ لِيفرَحَ. وألّا يقولَ ما لا يتحقّقُه ولا سبيلَ له إلى الاطّلاعِ عليه.

وهٰذه الآفةُ إنّما تتطرّقُ في المدحِ بالأوصافِ المطلَقةِ والخفيّةِ، كقولِك: إنّه تقيٌّ وَرِعٌ زاهدٌ خيِّرٌ، أو قولِكَ: إنّه عدلٌ رضيٌّ، وأمثالِ ذلك؛ لتوقُّفِ الصدقِ في ذلك على قيامِ الأدلّةِ والخبرةِ الباطنةِ، وتحقُّقُهما في غايةِ الندرةِ. فالغالبُ أنّ المدحَ بأمثالِ ذلك يكونُ من غيرِ تحقُّقٍ وتثبُّتٍ. وألّا يُحدِثَ في الممدوحِ كبراً أو إعجاباً يوجبانِ هلاكَه، ولا رِضىً عن نفسِه يُوجِبُ فُتورَهُ عن العملِ، إذ من أُطلِقَت الألسنةُ بالثناءِ عليه يَرضَى عن نفسِه، ويظنُّ أنّه قد أدركَ، وهذا يُوجِبُ فُتورَه عن العملِ، إذ المُتَشمِّرُ له إنّما هو من يرى نفسَه مُقصِّراً، ولذٰلك قال رسولُ اللهِ ﷺ لرجلٍ مدحَ بحضرتِه رجلاً آخر: «ويحَك! قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِك، لو سمِعها ما أفلَحَ»[٣]. وقال ﷺ: «إذا مدحتَ أخاك في وجهِه، فكأنّما أمررتَ على حلقِه المُوسَى»[٤]. وقال أيضاً لمن مدحَ رجلاً: «عَقَرْتَ الرجلَ عَقَرَكَ اللهُ!»[٥]. وقال ﷺ: «لو مشى رجلٌ إلى رجلٍ بسكّينٍ مُرهَفٍ، كان خيراً له من أن يُثنِيَ عليهِ في وجهِه»[٦].

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٤.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٣.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٣.

٤. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٣.

٥. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٣.

٦. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

والسرُّ في هٰذهِ الأخبارِ: أنّ المدحَ يُوجِبُ الفُتورَ عن العملِ، أو الكـبرَ أو العُـجبَ، وهـو مهلكٌ، كقطعِ العنقِ والعقرِ وإمرارِ الموسى أو السكّينِ على الحلقِ، فإن سلم المدحُ عن الآفاتِ المذكورةِ المتعلّقةِ بالمادحِ والممدوحِ كان ممدوحاً، وإلّا كان مذموماً. وبذٰلك يحصل الجمعُ بين ماوردَ في مدحِه ـ كما تقدّم ـ وما وردَ في ذمِّه.

فاللازمُ على المادحِ أن يحترزَ عمّا تقدمَ من الآفاتِ المتعلّقةِ به، وعلى الممدوحِ أن يحترزَ من آفةِ الكبرِ والعجبِ والفتورِ والرياءِ، بأن يعرفَ نفسَه ويتذكّرَ خطرَ الخـاتمة، ولا يـغفلَ عـن دقائقِ الرياءِ، ويُظهِرَ كراهةَ المـدحِ، وإليه الإشـارةُ بـقوله ﷺ: «احـثُوا الترابَ في وجـوهِ المدّاحينَ»[١].

وبالجملةِ، اللازمُ على الممدوحِ ألّا يتفاوتَ حالُه بالمدحِ، وهذا فرعُ معرفةِ نفسِه وتـذكُّرِ ما لا يَعرِفُهُ المادحُ من عثراتِه. وينبغي أن يُظهِرَ أنّه ليس كما عرفُوه، قال بعضُ الصالحينَ لمّـا أُثنِي عليه: «اللهمّ إنّ هؤلاء لا يعرِفُوني وأنتَ تَعرِفُني»[٢]. وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام لما أُثنِيَ عليه: «اللهمّ اغفر لي ما لا يعلَمون، ولا تُؤاخِذني بما يقولُون، واجعلني خيراً ممّا يَظنُّونَ»[٣].

ثمّ الظاهرُ عدمُ المؤاخذةِ والإثمِ بالانبساطِ والارتياحِ بالمدحِ، لكونِ النفوسِ مجبولةً على الفرحِ والسرورِ بنسبةِ الكمالِ إليها، ولٰكن بشرطِ أن يكرهَ من نفسِه ذلك الارتياحَ، ويـقهَرَ نفسَهُ ويُعاتِبَها على ذلك، ويجتَهِدَ في إزالةِ ذلك عنها، إذ مقتضى العقلِ الفرحُ بوجودِ الكمالِ فيه لا بنسبتِه إليه، فما يُنسَب إليه منه إن كان موجوداً فيه فينبغي أن يكون فرحُه به لا بنسبتِه إليه، إذ الانبساطُ بتصريحِ رجلٍ بأنّك صاحبُ هذا الكمالِ حمـقٌ وسَفَهٌ. وإن لم يكن موجوداً فـيه فاللازمُ أن يحزَنَ ويغضَبَ، لكونه استهزاءً لا مدحاً. والحاصلُ: أنّ العاقلَ ينبغي ألّا يَسُرَّ بمدحِ الغيرِ ولا يحزَنَ بذمِّه، إذ من مَلَكَ ياقوتةً شريفةً حمـراءَ أيُّ ضررٍ عليه إذا قـال رجـلٌ: إنّهـا خَرَزَةٌ، وإذا ملك خرزةً أيُّ فائدةٍ له إذا قال: إنّها ياقوتةٌ.

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٥؛ بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٩٤، باب النهي عن المدح والرضىٰ به، ح ١.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٥.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٥؛ راجع: نهج البلاغة، ص ٤٨٥، الحكمة ١٠٠.

النوع السابع عشر: الكذب

وهو إمّا في القولِ، أي الإخبارُ عن الأشياءِ على خلافِ ماهي عليه، وصدورُه إمّا عن العداوةِ أو الحسدِ أو الغضبِ، فيكون من رذائلِ قوّةِ الغضبِ. أو من حبِّ المالِ والطمعِ، أو الاعتيادِ الحاصلِ من مخالطةِ أهلِ الكذبِ، فيكون من رذائلِ قوّةِ الشهوةِ.

وإمّا في الأعمالِ، وهو أن تدلَّ أعمالُه الظاهرةُ على أمرٍ في باطنِه لايَتَّصِفُ هو به، أي لا يكونُ باطنُه مثلَ ظاهرِه ولا خيراً منه. وهذا غيرُ الرياءِ، لأنّ المرائيَ هو الذي يقصدُ غيرَ اللهِ تعالى في أعمالِه، وربَّ واقفٍ على هيئةِ الخشوعِ في صلاتِه ليس يقصدُ به مشاهدةَ غيرِه سبحانَه، ولٰكنّ قلبَهُ غافلٌ عن اللهِ وعن الصلاةِ، فمن نظر إلى مايصدرُ عن ظاهرِه من الخشوعِ والاستكانةِ يظنّ أنّه بشَراشرِهِ منقطعٌ إلى جنابِ ربّهِ وحذف ماسواه عن صحيفةِ قلبِه، وهو بكلّيّته عنه تعالى غافلٌ وإلى أمرٍ من أُمورِ الدنيا مُتَوَجِّهٌ.

وإمّا في مقاماتِ الدينِ، كالكذبِ في الخوفِ والرجاءِ، والزهدِ والتقوى، والحبِّ والتعظيمِ، والتوكُّلِ والتسليمِ، وغيرِ ذلك من الفضائلِ الخلقيّةِ، فإنّ لها مبادئَ يُطلَقُ الاسمُ بظهورِها، ثمّ لها حقائقُ ولوازمُ وغاياتٌ والصادقُ المحقّقُ من نالَ حقائقَها ولوازمَها وغاياتِها، فمن لم يبلُغْها كان كاذباً فيها. مثلاً الخوفُ من اللهِ تعالى له مبدأٌ هو الإيمانُ به سبحانَه، وحقيقةٌ هو تألُّمُ الباطنِ واحتراقُه، ولوازِمُ وآثارٌ هي اصفرارُ اللونِ وارتعادُ الفرائصِ وتكدُّرُ العيشِ وتقسُّمُ الفكرِ وغيرُ ذلك، وغايات هي الاجتنابُ عن المعاصي والسيّئاتِ والمواظبةُ على الطاعاتِ

والعباداتِ. فمن آمنَ باللهِ تعالى صدق عليه كونُه خائفاً منه خوفاً يُطلَق عليه الاسمُ، إلّا أنّه إن لم تكن معه حرقةُ القلبِ وتكدُّرُ العيشِ والتشمُّرُ للعملِ كان خوفاً كاذباً، وإن كان معه ذلك كان خوفاً صادقاً، أي بالغاً درجةَ الحقيقةِ. قال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «إيّاكم والكذبَ، فإنّ كلَّ راجٍ طالبٌ، وكلَّ خائفٍ هاربٌ»[١]: أي لا تكذبوا في ادّعائكم الرجاءَ والخوفَ من اللهِ، وذلك لأنّ كلَّ راجٍ طالبٌ لما يرجو ساعٍ في أسبابِه، وأنتم لستم كذلك، وكلَّ خائفٍ هاربٌ ممّا يخافُ منه، مجتنِبٌ ممّا يُقرِّبُه منه، وأنتم لستم كذلك. وهاهنا بحوث:

البحث الأوّل: ذمُّ الكذبِ

الكذبُ أقبحُ الذنوبِ وأفحشُها، وأخبثُ العيوبِ وأشنعُها، قال اللهُ سبحانه: ﴿إنّما يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذينَ لايُؤْمِنونَ﴾[٢]. ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً في قُلوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقونَه بِما أَخْلَفوا اللهَ ماوَعَدوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبونَ﴾[٣]. وقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله:

المؤمنُ إذا كذبَ من غيرِ عذرٍ لعنه سبعونَ ألف ملكٍ وخرجَ من قلبِه نَتْنٌ حتّى يبلغَ العرشِ، فيلعنُه حَمَلةُ العرشِ، وكتبَ اللهُ عليه بتلك الكذبةِ سبعينَ زِنيَةً، أهونُها كمن زنى مع أُمِّه[٤].

وقال صلى الله عليه وآله:

رأيتُ كأنّ رجلاً جاءني، فقال لي: قم، فقُمْتُ معه، فإذا أنا برجلين: أحدُهما قائمٌ، والآخرُ جالسٌ، وبيدِ القائمِ كَلُّوبٌ[٥] من حديدٍ يُلقِمُه في شدقِ الجالسِ فيجذبُه حتّى يبلغَ كاهِلَه، ثمّ يجذِبُه فيُلْقِمُه الجانبَ الآخرَ فيمدُّه، فإذا مدّه رجعَ الآخرُ كما

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٤٣، باب الكذب، ح ٢١.
٢. النحل (١٦): ١٠٥.
٣. التوبة (٩): ٧٧.
٤. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٦٣، باب الكذب، ح ٤٨.
٥. قال ابن الأثير: «وفي حديث الرؤيا: ـ وإذا قائمٌ بكلّوبٍ من حديد ـ: الكلّوب، بالتشديد: حديدة مُعوجّة الرأس». النهاية، ج ٤، ص ١٩٥، «ك. ل. ب».

كان، فقلت للّذي أقامني: ماهذا؟ فقال: هذا رجلٌ كذّابٌ، يُعَذَّب في قبرِه إلى يومِ القيامةِ[١].

وقال ﷺ: «إنّ العبدَ ليكذبُ الكذبةَ فيتباعدُ الملكُ منه مسيرةَ ميلٍ من نَتْنِ ما جاء به»[٢]. وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «لايجدُ العبدُ طعمَ الايمانِ حتّى يَترُكَ الكذبَ، هزلَه وجدَّه»[٣]. وقال عليّ بنُ الحسينِ عليهما السلام: «اتّقوا الكذبَ الصغيرَ منه والكبيرَ في كلِّ جدٍّ وهزلٍ؛ فإنّ الرجلَ إذا كذبَ في الصغيرِ اجترأ على الكبيرِ»[٤]. وقال أبو جعفر عليه السلام: «إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعل للشرِّ أقفالاً، وجعل مفاتيحَ تلك الأقفالِ الشرابَ، والكذبُ شرٌّ من الشرابِ»[٥].

والأخبارُ الواردةُ في ذمّ الكذبِ أكثرُ من أن تُحصَى.

وأشدُّ أنواعِ الكذبِ إثماً ومعصيةً الكذبُ على اللهِ وعلى رسوله وعلى الأئمّةِ، وكفاه ذمّاً أنّه يُبطِلُ الصومَ، ويُوجِبُ القضاءَ والكفّارةَ على الأقوى. قال الصادقُ عليه السلام: «إنّ الكذبةَ لَتُفطِّرُ الصائمَ»، قال الراوي: وأيُّنا لا يكونُ ذلك منه، قال: «ليس حيث ذهبتَ، إنّما الكذبُ على اللهِ تعالى وعلى رسولِه وعلى الأئمّةِ عليهم السلام»[٦]. وقال عليه السلام: «الكذبُ على اللهِ وعلى رسولِه وعلى الأوصياءِ عليهم السلام من الكبائر»[٧].

البحث الثاني: مُسَوِّغاتُ الكذبِ

الكذبُ حرامٌ؛ لما فيه من الضررِ على المخاطَبِ أو على غيرِه، أو لإيجابِه اعتقادَ المخاطبِ خلافَ الواقعِ، فيصيرُ سبباً لجهلِه. وهذا القسمُ مع كونِه أهونَ الدرجاتِ وأقلَّها إثماً مُحرَّمٌ أيضاً، إذ إلقاءُ خلافِ الواقعِ على الغيرِ وسببيّةُ جهلِه غيرُ جائزٍ، إلّا أنّه إذا كان ممّا يتوقّف عليه

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٤١.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٤٢.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٤٠، باب الكذب، ح ١١.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٨، باب الكذب، ح ٢.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩، باب الكذب، ح ٣.
٦. الكافي، ج ٢، ص ٣٤٠، باب الكذب، ح ٩.
٧. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٤، باب معنى الكبيرة والصغيرة، ح ١٩.

تحصيلُ مصلحةٍ مهمّةٍ، ولم يمكن التوصُّلُ إليها بالصدقِ زالت حرمتُه وارتفعَ إثمُه. فإن كـانت المصلحةُ ممّا يجبُ تحصيلُها، كإنقاذِ مسلمٍ من القتلِ والأسرِ، أو حفظِ عرضِه أو مالِه المحترمِ، كان الكذبُ فيه واجباً. وإن كانت راجحةً غيرَ بالغةٍ حدَّ الوجوبِ، فالكذبُ لتحصيلِها مباحٌ أو راجحٌ مثلُها، كالإصلاحِ بينَ الناسِ والغلبةِ على العدوِّ في الحربِ، وتطييبِ خاطرِ امرأتِـه واسترضائِها. وقد وردت الأخبارُ المتكثِّرَةُ بجوازِ الكِذبِ إذا توقَّف عليه تحصيلُ هٰذه المقاصِد الثلاثةِ. كما روي:

أنّ رسولَ الله ﷺ لم يُرَخِّص في شيءٍ من الكَذِب إلّا في ثلاثٍ: الرجـلُ يـقولُ القولَ يريدُ بهِ الإصلاحَ، والرجلُ يقول القولَ في الحربِ، والرجلُ يُحَدِّثُ امرأتَـه والمرأةُ تُحَدِّثُ زوجَها[١].

وقال ﷺ: «ليس بكذّابٍ من أصلحَ بينَ اثنينِ فقال خيراً»[٢]. وقال ﷺ: «كلُّ الكذبِ يُكتَب على ابنِ آدمِ إلّا رجلٌ كذبَ بينَ رجلينِ يُصلِحُ بينَهما»[٣] وقـال ﷺ: «كـلُّ الكـذبِ مكتوبٌ كذباً لا محالةَ، إلّا أن يكذبَ الرجلُ في الحربِ، فإنّ الحربَ خـدعةٌ، أو تكـونَ بـين رجلين شحناءُ فيصلحُ بينَهما، أو يُحَدِّثُ امرأتَـه يُـرضِيها»[٤]. وقـال ﷺ: «لا كـذِبَ عـلى المصلحِ»[٥]. وقال الصادق عليه السلام:

كلُّ كذبٍ مسؤولٌ عنه صاحبُه يوماً إلّا كذباً في ثلاثة: رجلٌ كايدَ في حروبِه فهو موضوعٌ عنه. أو رجلٌ أصلحَ بينَ اثنين يلقَ هذا بغيرِ ما يلقَ به هذا يريد بـذلك الإصلاحَ مابينهما. أو رجلٌ وعدَ أهلَه شيئاً وهو لا يريدُ أن يُتِمَّ لهم[٦].

وقال عليه السلام:

---

١. المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٤٤؛ بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥٣، باب الكذب، ذيل الحديث ٢٠.
٢. كنز العمال، ج ٣، ص ٦٣١، ح ٨٢٥٢؛ بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤، باب الكذب، ذيل الحديث ٢٠.
٣. المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٤٥؛ بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥٤، باب الكذب، ذيل الحديث ٢٠.
٤. المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٤٥؛ بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥٤، باب الكذب، ذيل الحديث ٢٠.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٣٤٣، باب الكذب، ح ٢٢.
٦. الكافي، ج ٢، ص ٣٤٢، باب الكذب، ح ١٨.

الكلامُ ثلاثةٌ: صدقٌ وكذبٌ، وإصلاحٌ بينَ الناسِ، قيل له: ما الإصلاحُ بينَ الناسِ؟ قال: «تسمعُ في الرجلِ كلاماً يبلغُه فيُخْبِثُ نفسَه، فتلقاه وتقول: قد سمعتُ من فلانٍ فيك من الخيرِ كذا وكذا، خلافَ ماسمعتَ منه»[١].

وهٰذه الأخبارُ وإن اختصَّتْ بالمقاصدِ الثلاثةِ، إلّا أنّ غيرَها من المقاصدِ الضروريّةِ التي فوقَها أو مثلَها في المصلحةِ تلحقُها من بابِ الأولويّةِ أو اتّحادِ الطريقِ. والأخبارُ التي وردت في ذمِّ هتكِ السرِّ وكشفِ العيوبِ والفواحِش تفيدُ وجوبَ القولِ بعدمِ الاطّلاعِ وإن كان مُطَّلِعاً مع كونِه كذباً، فلا إثمَ على أحدٍ بصدورِ الكذبِ عنه إذا كان وسيلةً إلى شيءٍ من المقاصدِ الصحيحةِ الضروريّةِ له أو لغيرِه من المسلمين، فإن أخذَه ظالمٌ وسألَهُ عن مالِه فله أن ينكرَ، وإن أخذه سلطانٌ وسأله عن فاحشةٍ ارتكَبها بينَه وبينَ اللهِ فله أن يُنكِرَ، وإن سُئل عمّا يعلمُه عن عيبِ أخيه أو سرِّه فله أن يُنكِرَهُ، ولو وقع بين اثنينِ فسادٌ فله أن يكذبَ توسّلاً إلى الإصلاحِ بينَهما. وإن كانت امرأتُه لا تُطيعُه إلّا بوعدِ ما لا يقدِرُ عليه، يجوز أن يَعِدَها في الحالِ تطييباً لقلبِها، وإن لم يكن صادقاً في وعدِه. ويلحقُ بالنساءِ الصبيانُ، فانّ الصبيَّ إذا لم يرغَبْ فيما يؤمَرُ به من الكتابةِ وغيرِها إلّا بوعدٍ أو وعيدٍ وتخويفٍ، كان ذلك جائزاً وإن لم يكن في نيّتِه الوفاءُ به. وكذا لو تكدّر منه إنسانٌ وكان لا يطيبُ قلبُه إلّا بالاعتذارِ إليه بإنكار ذنبٍ وإظهارِ زيادةِ تودّدٍ، كان ذلك جائزاً وإن لم يكن صدقاً.

والحاصلُ: أنّ الكذبَ لدفعِ ضررٍ أو شرٍّ أو فسادٍ جائزٌ، بشرطِ صحّةِ القصدِ. وقد ورد:[٢] أنّ الكذبَ المباحَ يُكتَب ويُحاسَب عليه لتصحيحِ قصدِه، فإن كان قصدُه صحيحاً يُعفَى عنه وإلّا يؤاخَذُ به. فينبغي أن يَجتهِدَ في تصحيحِ قصدِه، وأن يحترِزَ عنه مالم يُضطَرَّ إليه، ويقتصرَ فيه عَلى حدِّ الواجبِ، ولا يتعدَّى إلى مايُستغنَى عنه.

ولا ريبَ في أنّ مايجبُ ويضطرُّ إليه هو الكذبُ لأُمورٍ في فواتِها محذورٌ وإضرارٌ، وليس كلُّ الكذبِ لزيادةِ المالِ والجاهِ وغيرِ ذلك ممّا يُستغنَى عنه فإنّه محرَّمٌ قطعاً، إذ فواتُه لا يوجِبُ

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٤١، باب الكذب، ح١٦.

٢. راجع: بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥١ ـ ٢٦٤، باب الكذب؛ المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٤٧.

ضرراً وفساداً وإعداماً للموجود بل إنّما يوجِبُ فواتَ حظٍّ من حظوظِ النفسِ. وكذلك فتوى العالمِ بما لا يُحَقِّقُهُ وفتوى من ليس له أهليّةُ الافتاءِ؛ إظهاراً للفضلِ أو طلباً للجاهِ والمالِ، بل هو أشدُّ أنواعِ الكذبِ إثماً وحرمةً، لأنّه مع كونه كذباً لما يستغنَى عنه، كـذبٌ عـلى اللـهِ وعـلى رسولِه.

فالكذبُ إذا كان وسيلةً إلى مايُستغنَى عنه حرامٌ مطلقاً، وإذا كان وسيلةً إلى ما لا يُستغنَى عنه ينبغي أن يُوازَنَ محذورُ الكذبِ مع محذورِ الصدقِ، فَيُترَكُ أشدُّهما وقعاً في نظرِ الشرعِ. وبيانُ ذلك: أنّ الكذبَ في نفسِه محذورٌ، والصدقَ في المواضعِ المذكورةِ يُوجِب محذوراً، فينبغي أن يُقابَلَ أحدُ المحذورين بالآخَر، ويُوازَنا بالميزانِ القسطِ، فإن كان محذورُ الكذبِ أهونَ من محذورِ الصدقِ فله الكذبُ، وإن كان محـذورُ الصـدقِ أهـونَ وجب الصـدقُ، وقـد يـتقابَلُ المحذورانِ بحيثُ يتردَّدُ فيهما، وحينئذٍ فالميلُ إلى الصدقِ أولى، إذ الكذبُ أصلُه الحرمةُ، وإنّما يُباحُ بضرورةٍ أو حاجةٍ مهمّةٍ، وإذا شكّ في كونِ الحاجةِ مهمّةً لزمَ الرجوعُ إلى أصلِ التحريمِ.

تنبيه: التَورِيَةُ والمبالغةُ

كلُّ موضعٍ يجوزُ فيه الكذبُ إن أمكنَ عدمُ التصريحِ به والعدولِ إلى التعريضِ والتوريةِ، كان الأولى ذلك. وما قيل:[١] «إنّ في المعاريضِ لمندوحةً عن الكذبِ، وإنّ فيها ما يُغنِي الرجلَ عن الكذبِ»، ليس المرادُ به أنّه يجوز التعريضُ بدون حاجةٍ واضطرارٍ، إذ التعريضُ بالكذبِ يقومُ مقامَ التصريحِ به، لأنّ المحذورَ من الكذبِ تفهيمُ الشيءِ على خلافِ ما هو عليه في نفسِه، وهذا موجود في الكذبِ بالمعاريضِ. فالمرادُ أنّ التعريضَ يجوزُ إذا اضطُرَّ الإنسانُ إلى الكذبِ، ومَسَّت الحاجةُ إليه، واقتضَتْهُ المصلحةُ في بعضِ الأحوالِ في تأديبِ النساءِ والصبيانِ ومـن يجري مجراهُم، وفي الحذرِ عن الظلمةِ والأشرارِ في قتالِ الأعداءِ. فمن اضـطُرّ إلى الكـذبِ في شيءٍ من ذلك فهو جائزٌ له، لأنّ نُطقَه فيه إنّما هو على مقتضى الحقِّ والدينِ، فهو في الحـقيقةِ صادقٌ، وإن كان كلامُه مفهماً غيرَ ما هو عليه، لصدقِ نيّتِه وصـحّةِ قـصدِه وإرادتِـه الخـيرَ

---

١. القائل ابن عباس وغيره، أُنظر: إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٤٩؛ بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥٦، باب الكذب.

والصلاحَ. فمثلُ هذا النطقِ لايكون خارجاً عن حقيقةِ الصدقِ، إذ الصدقُ ليس مقصوداً لذاتِه، بل للدلالةِ على الحقِّ، فلا يُنظَرُ إلى قالَبِه وصورتِه، بل إلى معناهُ وحقيقتِه. نعم، ينبغي له في هٰذه المواضعِ أن يعدِلَ إلى المعاريضِ ماوجدَ إليه سبيلاً يصدقُ اللفظُ حينئذٍ أيضاً وإن كان متشاركاً مع التصريحِ في تفهيمِ الشيءِ على خلافِ ماهو عليه في الواقعِ. وقد كان رسولُ الله ﷺ إذا توجّه إلى سفر ورّاه بغيرِه[1]، لئلّا ينتهيَ الخبرُ إلى الأعداءِ فيقصدونَه.

وممّا يدلُّ على جوازِ التعريضِ مع صحّةِ النيّةِ، مارُوي في الاحتجاج:

أنّه سُئل الصادقُ عليه السلام عن قولِ الله تعالى في قصّةِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿قال بَلْ فَعَلَهُ كَبيرُهُم هذا فَاسألُوهُم إنْ كانُوا يَنطِقونَ﴾[2]، قال: «ما فعله كبيرُهم وما كذبَ إبراهيمُ». قيل: وكيف ذلك؟ فقال: «إنّما قال إبراهيمُ فاسألوهم إن كانوا ينطِقُونَ، أي إن نطقوا فكبيرُهم فَعَلَ، وإن لم يَنطِقُوا فلم يفعَل كبيرُهم شيئاً. فما نطقُوا وما كذبَ إبراهيمُ عليه السلام». وسُئل عن قوله تعالى: ﴿أيَّتها العيرُ إنَّكم لَسارِقُونَ﴾[3]. قال: «إنّهم سرقوا يُوسُفَ من أبيهِ، ألا ترى أنّه قال لهم حين قالوا: ماذا تفقِدُون؟ قالوا: نَفقِدُ صُواعَ الملكِ، ولم يقولوا: سَرَقْتُم صواعَ الملكِ. إنّما سرقوا يوسفَ من أبيه». وسُئل عن قولِ إبراهيمَ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً في النُّجُومِ * فَقالَ إنّي سَقيمٌ﴾[4] قال: «ما كان إبراهيمُ سقيمَاً وما كذب، إنّما عنى سقيماً في دينِه، أي مرتاداً»[5].

وطريقُ التعريضِ والتوريةِ: أن يخبرَ المتكلِّمُ المخاطِبَ بلفظٍ ذي احتمالَينِ أحدُهما غيرُ مطابقٍ للواقعِ وأظهرُ في المقامِ فيحملُه المخاطَب عليه، وثانيهما مطابقٌ له يريدُه المتكلِّمُ، كما ظهر من خبرِ الاحتجاج. ومن أمثلتِه: أنّه إذا طلبك ظالمٌ وأنتَ في دارِك ولا تريدُ الخروجَ إليه، أن تقولَ لأحدٍ أن يضع إصبَعَهُ في موضعٍ ويقول: ليس هاهنا. وإذا بلغ عنك شيءٌ إلى رجلٍ

١. المحجّة البيضاء، ج٨، ص١٤٢.

٢. الأنبياء (٢١): ٦٣.

٣. يوسف (١٢): ٧٠.

٤. الصافات (٣٧): ٨٨ـ ٨٩.

٥. الاحتجاج، ج٢، ص٢٥٦ـ ٢٥٧.

وأردتَ تَطييبَ قلبِه من غيرِ أن تكذِبَ، تقول له: إنّ اللهَ ليعلَمُ ماقلتُ من ذلك من شيءٍ، على أن تكونَ لفظةُ «ما» عندَك للإبهامِ، وعند المستمعِ للنفيِ. وقد ظهر ممّا ذُكِر: أنّ كلّ تـعريضٍ لغرضٍ باطلٍ كالتصريحِ في عدمِ الجوازِ، لأنّ فيه تقريراً للغيرِ على ظنٍّ كاذبٍ. نعم، قد تُباحَ المعاريضُ لغرضٍ خفيفٍ، كتطييبِ قلبِ الغيرِ بالمزاحِ،كقولِ النبي ﷺ : «لاتـدخلُ الجـنّة عجوزٌ» و «في عينِ زوجِك بياضٌ» و «نحمِلُك على ولدِ بعيرٍ»[١] وقِس عليه أمثالَ ذلك.

ومن الكذبِ الذي يجوزُ ولا يوجبُ الفسقَ، ماجرت به العادة في المبالغةِ، كقولِك: قلت لك كذا مائةَ مرّة، وطلبتك مائةَ مرّة، وأمثالِ ذلك لأنّه لايرادُ بذلك تفهيمُ المرّاتِ بعددِها، بل تفهيمُ المبالغةِ. فإن لم يكن طلبَه إلّا مرّةً واحدةً كان كاذباً، وإن كان طلبَهُ مرّاتٍ لا يُـعتادُ مـثلُها في الكثرةِ فلا يأثمُ، وإن لم تبلُغْ مائةً.

ومن الكذبِ الذي لا إثمَ عليه مايكونُ في أنواعِ المجـازِ والاسـتعاراتِ والتشـبيهاتِ، إذ الغرضُ تفهيمُ نوعٍ من المناسبةِ والمبالغةِ، لا دعوى الحقيقةِ والمساواةِ من جميعِ الجهاتِ.

ومن الكذبِ الذي جرت العادةُ به ويُتساهَلُ فيه، قولُ الرجلِ إذا قـيل له: كـل الطـعامَ: «لا أشتهيه»، مع كونِه مشتهياً له. وهذا منهيٌّ عنه كما تدلُّ عليه بعضُ الأخبارِ،[٢] إلّا إذا كان فيه غرضٌ صحيحٌ. وما جرت العادةُ به قولُ الرجلِ: «الله يعلم» فيما لا يعلمُه، وهو أشدُّ أنـواعِ الكذبِ، قال عيسى ﷺ: «إنّ من أعظمِ الذنوبِ عندَ اللهِ أن يـقولَ العـبدُ: إنّ الله يـعلَم لمـا لا يعلم»[٣]. ومن الكذبِ الذي عَظُم ذنبُه ويُـتساهَلُ فـيه، الكـذبُ في حكـايةِ المـنامِ، قـال رسولُ الله ﷺ : «إنّ من أعظمِ الفريةِ أن يَدَّعيَ الرجلُ إلى غيرِ أبيه، أو يُرِيَ عينَيهِ في المنام ما لم يَرَ، أو يقولَ عليَّ مالم أقُلْ»[٤]. وقال ﷺ : «من كذبَ في حلمٍ، كُلِّفَ يومَ القيامةِ أن يَعقِدَ بين شَعرَتينِ»[٥].

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٤.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص٢٥٨، باب الكذب، ذيل الحديث ٢٠؛ المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٥٠.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص٢٥٨، باب الكذب، ذيل الحديث ٢٠؛ المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٥٠.

٤. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص٢٥٨، باب الكذب، ذيل الحديث ٢٠.

٥. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص٢٥٨، باب الكذب، ذيل الحديث ٢٠.

تذنيب: شهادةُ الزورِ، اليمينُ الكاذبُ، خلفُ الوعدِ

من أنواع الكذبِ وأفحشِها: شهادةُ الزورِ، واليمينُ الكاذبُ، وخُلفُ الوعدِ.

ويدلّ على ذمِّ الأوّلِ قولُه تعالى في صفةِ المؤمنينَ: ﴿وَالّذينَ لايَشهدُونَ الزُّورَ وَإذا مرُّوا بِاللّغوِ مَرّوا كِراماً﴾[١]. وقولُ النبيِّ ﷺ: «شاهدُ الزورِ كعابدِ الوثنِ»[٢].

وعلى ذمِّ الثاني قولُ النبيِّ ﷺ: «التُجّارُ هم الفُجّارُ!» فقيل: يارسولَ الله، أليس اللهُ قد أحلَّ البيعَ؟ فقال: «نعم! ولكنّهم يحلِفُون فيأثمونَ، ويُحدِّثون فيكذِبون»[٣]. وقولُه ﷺ: «ثلاثُ نفرٍ لايكلّمهُم الله يومَ القيامةِ ولا ينظرُ إليهم ولا يُزكّيهِم: المنّان بعطيّتِهِ، والمنفقُ سلعتَه بالحلفِ الفاجرِ، والمَسبِلُ إزاره»[٤]. وقولُه ﷺ: «ماحلف حالفٌ باللهِ فأدخل فيها مثل جناح بعوضةٍ، إلّا كانت نكتةً في قلبِه إلى يومِ القيامةِ»[٥]. وقولُه ﷺ: «ثلاثٌ يَشنأُهُم اللهُ: التاجرُ أو البائع الحلّافُ، والفقيرُ المختالُ، والبخيلُ المنّانُ»[٦].

وعلى ذمِّ الثالثِ قولُ النبيِّ ﷺ: «من كان يؤمنُ باللهِ وباليومِ الآخرِ فَليَفِ إذا وعدَ»[٧].وقول الصادق عليه السلام:

عِدَةُ المؤمنِ أخاهُ نذرٌ لاكفّارةَ له، فمن أخلفَ فَبِخُلْفِ اللهِ تعالى بَدَأَ ولِمَقْتِهِ تعرَّضَ، وذلك قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا لِمَ تَقولُونَ ما لا تَفعَلُونَ * كَبُرَ مَقتاً عِندَ اللهِ أنْ تَقولُوا ما لا تَفعَلون﴾»[٨].

وقال رسولُ الله ﷺ:

---

١. الفرقان (٢٥): ٧٢.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٤٠.
٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٤٠.
٤. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٤٠.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٤٠.
٦. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٤٠.
٧. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٤، باب خلف الوعد، ح ٢.
٨. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤، باب خلف الوعد، ح ١ والآية في سورة الصف (٦١): ٢ ـ ٣.

أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً، ومن كانت فيه خَلّةٌ منهنَّ كانت فيه خَلّةٌ من النفاقِ حتّى يَدَعَها: إذا حَدَّثَ كذبَ، وإذا وَعَدَ أخلفَ، وإذا عـاهدَ غَـدَرَ، وإذا خـاصمَ فَجَرَ[1].

فمن وعدَ وكان عندَ الوعدِ عازماً على ألّا يَفِيَ، أو كان عازماً على الوفاءِ وتَرَكَهُ بدونِ عذرٍ، فهو منافقٌ. وأمّا إن عنَّ له عذرٌ من الوفاءِ، لم يكن منافقاً وآثماً. وإن جرى عليه ماهو صورةُ النفاق، فالأَولى أن يحترزَ عن صورةِ النفاقِ أيضاً كما يحترزُ عن حقيقتِه، وذلك بألّا يجزمَ في الوعدِ، بل يعلّقُه على المشيئةِ ومثلِها.

إيقاظ: علاجُ الكذبِ

طريقُ معالجةِ الكذبِ: أوّلاً: أن يتأمّل في ماورد في ذمِّهِ من الآياتِ والأخبارِ، ليعلمَ أنّه لو لم يترُكْهُ لأدركَهُ الهلاكُ الأبديُّ. ثمّ يتذكّرُ أنّ كلَّ كاذبٍ ساقطٌ عن القلوبِ في الدنيا ولا يعتنِي أحدٌ بقولِه، وكثيراً ما يفتضِحُ عندَ الناسِ بظهورِ كذبِه. ومن أسبابِ افتضاحِه أنّ الله سبحانَه يُسلِّطُ عليه النسيانَ، حتّى أنّه لو قال شيئاً ينسَى أنّه قالَه، فيقولُ خلافَ ماقاله، فَيفتضِحُ. وإلى ذلك أشار الصادقُ عليه السلام بقوله: «إنّ ممّا أعانَ اللهُ به على الكذّابين النسيان»[2].

ثمّ يتأمّلُ في الآياتِ والأخبارِ الواردةِ في مدحِ ضدّهِ، أعني الصدقَ كما يأتي، وبعدَ ذلك إن لم يكن عدوّاً لنفسِه فليُقَدِّمِ التروّيَ في كلِّ كلامٍ يريدُ أن يَتكلَّمَ به، فـإن كـان كـذباً يـتركُه، ولْيَجْتَنِبْ مُجالَسَةَ الفسّاقِ وأهلِ الكذبِ، ويجالِس الصلحاءَ وأهلَ الصدقِ.

---

١. إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٣٣.

٢. الكافي، ج٢، ص٣٤١، باب الكذب، ح١٥.

وصــلٌ

ضدّ الكذب: الصدقُ

ضدّ الكذبِ الصدقُ. وهو أشرفُ الصفاتِ المرضيّةِ، ورئيسُ الفضائلِ النفسيّةِ، وما ورد في مدحِه وعظمِ فائدتِه من الآياتِ والأخبارِ ممّا لا يمكنُ إحصاؤُه، قال اللهُ سبحانَه: ﴿اتّقوا اللهَ وكونُوا مَعَ الصَّـادقينَ﴾[1]. وقـال: ﴿الصَّـابِرينَ وَالصَّـادِقِين وَالقـانِتينَ وَالمُـنْفِقِينَ والمُسـتَغفرينَ بِالأسْحارِ﴾[2]. وقال رسولُ الله ﷺ:

> تَقَبَّلُوا إليَّ بِسِتٍّ أَتَقَبَّلْ لكم بالجنَّةِ: إذا حدّثَ أحدُكـم فـلا يَكـذِبْ، وإذا وَعَـدَ فلا يُخلِفْ، وإذا ائْتُمِنَ فلا يَخُنْ، وغضُّوا أبـصارَكـم، وكـفُّوا أيـديَكم، واحـفظُوا فروجَكم[3].

وعن الصادقين عليهما السلام: «أنّ الرجلَ ليصدقُ حتّى يكتبَه اللهُ صدّيقاً»[4]. وعن الصـادقِ عليه السلام قال: «كونُوا دعاةَ الناسِ بالخيرِ بغيرِ ألسنَتِكُم، لِيَرُوا منكم الاجـتهادَ والصـدقَ والورعَ»[5]. وعنه عليه السلام: «من صدق لسانُه زَكىَ عملُه، ومن حَسُنَت نيّتُهُ زِيدَ في رزقِه، ومن حَسُن بِرُّهُ بأهلِ

---

١. التوبة (٩): ١١٩.

٢. آل عمران (٣): ١٧.

٣. إحياء علوم الدين، ج٣، ص ١٣٥.

٤. الكافي، ج٢، ص ١٠٥، باب الصدق وأداء الأمانة، ح ٨.

٥. الكافي، ج٢، ص ١٠٥، باب الصدق وأداء الأمانة، ح ١٠.

بيتِه مُدَّ له في عمرِه»[١]. وعنه ﷺ قال: «لاتَنظُروا إلى طولِ ركوعِ الرجلِ وسجودِه، فإنَّ ذلك شيءٌ اعتادَه، ولو تركَه لاستوحش لذلك، ولكن انظُروا إلى صدقِ حـديثِه وأداءِ أمـانتِه»[٢]. وعنه ﷺ قال: «إنّ الله لم يبعث نبيّاً إلّا بصدقِ الحديثِ وأداءِ الأمانةِ إلى البَرِّ والفاجِرِ»[٣].

وقد وردت بهذهِ المضامينِ أخبارٌ كثيرةٌ أُخر.

ومن أنواعِ الصدقِ الصِدقُ في الشهادةِ، وهو ضدّ شهادةِ الزورِ. والصدقُ في اليمين، وهـو ضدُّ الكذبِ فيه. والوفاءُ بالعهدِ، وهو ضدُّ خُلفِ الوعدِ. وهذا القسمُ من الصدقِ، أعني الوفاءَ بالعهدِ، أفضلُ أنواعِ الصدقِ القوليِّ وأحبُّها، ولذا أثنى اللهُ تعالى على نبيِّه إسماعيلَ به، وقال: ﴿إنّه كانَ صادِقَ الوَعدِ وَكانَ رَسولاً نَبيّاً﴾[٤]. ورُوِي: «أنّه بايعَ رجلٌ رسولَ اللهِ ﷺ ووعدَه أن يأتيَه في مكانِه ذلك، فنسِيَ وعدَه في يومِه وغدِه، وأتاهُ في اليومِ الثالثِ وهو في مكانِه»[٥]. وقال رسول الله: «العِدَةُ دَينٌ»[٦]. وقال ﷺ: «الوأيُ ـ أي الوعدُ ـ مثل الدينِ أو أفضلُ»[٧].

تكميل: أقسامُ الصدقِ

الصدقُ كالكذبِ له أنواعٌ سِتّةٌ:

الأوّل: الصدقُ في القولِ، وهو الإخبارُ عن الأشياءِ على ما هي عليه. وكمالُ هـذا النـوعِ بتركِ المعاريضِ من دونِ ضرورةٍ؛ حذراً من تفهيمِ الخـلافِ وكسبِ القـلبِ صـورةً كـاذبةً، ورعايةِ معناهُ في ألفاظِه التي يُناجي بها الله سبحانه، فمن قال: ﴿وَجَّهتُ وجـهِي للّـذي فـطرَ السماواتِ والأرضَ﴾ وفي قلبِه سواهُ، أو قال: ﴿إيّاك نعبدُ﴾ وهو يعبدُ الدنيا بتقيُّدِ قلبه بها، إذ كلّ

١. الكافي، ج ٢، ص ١٠٥، باب الصدق وأداء الأمانة، ح ١١.
٢. الكافي، ج ٢، ص ١٠٥، باب الصدق وأداء الأمانة، ح ١٢.
٣. الكافي، ج ٢، ص ١٠٤، باب الصدق وأداء الأمانة، ح ١.
٤. مريم (١٩): ٥٤.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٨.
٦. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٨.
٧. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٧.

من تقيَّد قلبُه بشيءٍ فهو عبدٌ له، كما دلّت عليه الأخبارُ[١]، فهو كاذبٌ.

الثاني: الصدقُ في النيّةِ والإرادةِ، ويرجِعُ ذلك إلى الإخلاصِ، وهو تمحيصُ النيّةِ وتخليصُها للهِ، بألّا يكونَ له باعِثٌ في طاعاتِه، بل في جميعِ حركاتِه وسكناتِه إلّا الله. فالشوبُ يُبطِلُه ويُكذِّبُ صاحبَه.

الثالث: الصدقُ في العزمِ، أي الجزمُ على الخيرِ: فإنّ الإنسانَ قد يُقدِّمُ العزمَ على العملِ، ويقول في نفسِه: إن رزقني اللهُ كذا تصدَّقتُ منه كذا، وإن خلَّصني اللهُ من تلك البليّةِ فعلتُ كذا. فإن كان في باطِنه جازماً على هذا العزمِ، مُصمِّماً على العمل بِمقتضاهُ فعزمُه صادقٌ، وإن كان في عزمِه نوعُ مَيلٍ وضعفٍ وتردُّدٍ كان عزمُه كاذباً، إذ التردُّدُ في العزيمةِ يضادُّ الصدقَ فيها، وكان الصدقُ هنا بمعنى القوّةِ والتماميّةِ.

الرابع: الصدقُ في الوفاءِ بالعزمِ: فإنّ النفسَ قد تسخُو بالعزمِ في الحالِ، إذ لا مشقّةَ في الوعدِ، فإذا حان حينُ العملِ بمقتضاهُ هاجَت الشهواتُ وتعارضَت مع باعثِ الدينِ، وربّما غلبَتْهُ بحيثُ انحلّت العزيمةُ ولم يتّفقِ الوفاءُ بمتعلّقِ الوعدِ، وهذا يضادُّ الصدقَ فيه، ولذلك قال اللهُ سبحانَه: ﴿رِجالٌ صَدَقوا ماعاهَدُوا اللهَ عَليه﴾[٢].

الخامس: الصدقُ في الأعمالِ: وهو تَطابُقُ الباطنِ والظاهرِ، واستواءُ السريرةِ والعلانيّةِ، أو كونُ الباطنِ خيراً من الظاهرِ، بألّا تدلَّ أعمالُه الظاهرةُ على أمرٍ في باطنِه لا يتّصفُ هو به، لا بأن يترِكَ الأعمالَ، بل بأن يستَجِرَّ الباطنَ إلى تصديقِ الظاهرِ.

ومن جملةِ هذا الصدقِ: موافقةُ القولِ والفعلِ، فلا يقولُ ما لا يفعلُ ولا يأمرُ بما لا يعملُ. فَمن وَعظَ ولم يتَّعِظْ في نفسِه كان كاذباً. ومن هنا قال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «إنّي واللهِ ما أحُثُّكم على طاعةٍ إلّا وأسبِقُكم إليها، ولا أنهاكُم عن معصيةٍ إلّا وأتناهَى قَبلَكم عنها»[٣].

السادس: الصدقُ في مقاماتِ الدينِ: من الصبرِ، والشكرِ، والتوكّلِ، والحبِّ، والرجاءِ، والخوفِ، والزهدِ، والتعظيمِ، والرضىٰ والتسليمِ، وغيرِ ذلك. وهو أعلى درجاتِ الصدقِ

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٤٢؛ إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٣٨٨.

٢. الأحزاب (٣٣): ٢٣.

٣. نهج البلاغة، ص ٢٥٠، الخطبة ١٧٥؛ بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ١٩١، بابٌ في علمه عليه السلام، ح ٧٥.

وأعزُّها، فمن اتّصفَ بحقائقِ هٰذه المقاماتِ ولوازِمها وآثارِها وغاياتِها فهو الصدّيقُ الحقُّ، ومن كان له فيها مجرّد ما يُطلَقُ عليه الاسمُ دونَ اتّصافِه بحقائقها وآثارِها وغاياتِها فهو كاذبٌ فيها. أما ترى أنّ مَن خاف سلطاناً أو غيرَه كيف يصفرُّ لونُه ويَتعذّرُ عليه أكلُه ونومُه ويَتنغَّصُ عليه عيشُه ويتفرّقُ عليه فِكرُه وتَرتَعِدُ فرائِصُه وتتزلزلُ أركانُه وجوانِبهُ؟ وقد ينزحُ عن وطنِه ويفترقُ عن أهلِه وولدِه، فيستبدلُ بالأُنسِ الوَحشةَ، وبالراحةِ التعبَ والمشقّةَ، فيتعرّضُ للأخطارِ ويختارُ مشقّة الأسفارِ، كلُّ ذلك من دركِ المحذورِ. فمثلُ هذا الخوفِ هو الخوفُ الصادقُ المحقَّقُ. ثمّ إنَّ من يدّعي الخوفَ من اللهِ أو من النارِ، ولا يظهرُ عليه شيءٌ من ذلك عند إرادةِ المعصيةِ وصدورِها عنه، فخوفُه خوفٌ كاذبٌ. قال النبيّ ﷺ: «لم أر مثلَ النارِ نامَ هارِبُها، ولم أرَ مثلَ الجنّةِ نامَ طالِبُها»[١].

ثمّ لا غايةَ لهٰذهِ المقدّماتِ حتّى يمكنَ لأحدٍ أن ينالَ غايتَها، بل لكلِّ عبدٍ منها حظٌّ بحسبِ حالِه ومرتبتِه.

تنبيه: اللسانُ أضرُّ الجوارِحِ

اعلم أنّ أكثرَ ماتقدّمَ من الرذائلِ المذكورةِ في هذا المقامِ من الكذبِ والغيبةِ والبهتانِ والشماتةِ والسخريةِ والمزاحِ وغيرِها، وفي المقامِ الثالث ـ أعني التكلّمَ بما لا يعني والفضولَ والخوضَ في الباطلِ ـ من آفاتِ اللسانِ وهو أضرُّ الجوارحِ بالإنسانِ، وأعظمُها إهلاكاً له، وآفاتُه أكثرُ من آفاتِ سائرِ الأعضاءِ، وهي وإن كانت من المعاصي الظاهرةِ، إلّا أنّها تؤدّي إلى مساويْ الأخلاقِ والملكاتِ. إذ الأخلاقُ إنّما ترسُخُ في النفسِ بتكريرِ الأعمالِ، والأعمالُ إنّما تصدُرُ من القلبِ بتوسُّطِ الجوارحِ، وكلُّ جارحةٍ تصلُحُ لأن تصدُرَ منها الأعمالُ الحسنةُ الجالبةُ للأخلاقِ الجميلةِ، وأن تصدُرَ منها الأعمالُ القبيحةُ المورِثةُ للأخلاقِ السيّئةِ، فلابدّ من مراعاةِ القلبِ والجوارحِ معاً بصرفِهما إلى الخيراتِ ومنعِهما من الشرورِ. وعمدةُ ما تصدُرُ منه الذمائمُ الظاهرةُ المؤدّيةُ إلى الرذائلِ الباطنيّةِ هو اللسانُ، وهو أعظمُ آفةٍ للشيطانِ في استغواءِ

---

١. إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٣٩٢؛ نهج البلاغة، ص ٧١، الخطبة ٢٨.

نوعِ الإنسانِ، فمراقبتُه أهمُّ، ومحافظَتُه أوجَبُ وألزمُ.

والسرّ فيه ـ كما قيل[١] ـ: أنّه من نعمِ اللهِ العظيمةِ، ولطائفِ صنعِه الغريبةِ، فإنّه وإن كان صغيراً جِرمُه، عظيمٌ طاعتُه وجُرمُه، إذ لا يتبيّنُ الإيمانُ والكفرُ إلّا بشهادتِه، ولا يُهتَدى إلى شيءٍ من أُمورِ النشأتينِ إلّا بدلالتِه، وما من موجودٍ أو معدومٍ إلّا وهو يتناولُه ويتعرّضُ له بإثباتٍ أو نفيٍ، إذ كلُّ مايتناولُه العلمُ يعبّرُ عنه اللسانُ إمّا بحقٍّ أو باطلٍ، ولا شيءَ إلّا والعلمُ يتناوَلُه.

وهٰذه خاصيّةٌ لا توجدُ في سائرِ الأعضاءِ، إذ العينُ لا تصلُ إلى غيرِ الألوانِ والصورِ، والأُذنُ لا تصلُ إلى غيرِ الأصواتِ، واليدُ لا تصلُ إلى غيرِ الأجسامِ، وكذا سائرُ الأعضاءِ. واللسانُ رحبُ الميدانِ وسيعُ الجولانِ، ليس له مَرَدٌّ، ولا لمجالِه منتهى ولا حَدٌّ، فله في الخيرِ مجالٌ رحبٌ، وفي الشرِّ ذيلٌ سحبٌ، فمن أطلَقَ عَذَبَةَ اللسانِ وأهملَه مُرخَى العنانِ سلكَ به الشيطانُ في كلِّ ميدانٍ، وأوقعَه في أوديةِ الضلالةِ والخذلانِ، وساقه اللهُ إلى شفا جرفٍ هارٍ، إلى أن يَضطرَّه إلى الهلاكِ والبوارِ، ولذٰلك قال سيّدُ الرسلِ ﷺ: «هل يكُبُّ الناسَ على مناخرِهم في النار إلّا حصائدُ ألسنتِهم؟»[٢]. فلا يُنجَى من شرِّ اللسانِ إلّا أن يُقيَّدَ بلجامِ الشرعِ، ولا يُطلَقَ إلّا فيما ينفعُ في الدنيا والآخرةِ، ويُكَفَّ عن كلِّ ما تُخشَى غائلتُه في العاجلةِ والآجلةِ. وعِلمُ ما يُحمَدُ إطلاقُ اللسانِ فيه أو يُذَمُّ غامضٌ عزيزٌ، والعملُ بمقتضاهُ على من عرفه ثقيلٌ عسيرٌ، وهو أَعصَى الأعضاء على الإنسانِ، إذ لا تعبَ في تحريكِه ولامؤونةَ في إطلاقِه، فلا يجوزُ التساهلُ في الاحترازِ عن آفاتِه وغوائلِه، وفي الحذرِ عن مصائدِه وحبائلِه.

والآياتُ والأخبارُ الواردةُ في ذمّه وفي كثرةِ آفاتِه وفي الأمرِ بمحافظتِه والتحذيرِ عنه كثيرةٌ، وهي بعمومِها تدلُّ على ذمِّ جميعِ آفاتِه ممّا مرَّ وممّا يأتي. قال الله سبحانه: ﴿ما يَلفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلّا لَدَيهِ رَقيبٌ عَتيدٌ﴾[٣]. وقال: ﴿لاخيرَ في كَثيرٍ مِنْ نجواهُم، إلّا مَنْ أمرَ بصَدَقَةٍ أو مَعرُوفٍ أو

١. راجع: المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١١٥، باب الصمت وحفظ اللسان، ح ١٤.

٣. ق (٥٠): ١٨.

إصلاحٍ بَينَ النَّاسِ﴾[١].

وقال رسولُ الله ﷺ: «من يتكفّلُ لي بما بينَ لَحْيَيْهِ ورجليهِ، أتكفَّلُ له بالجنّةِ»[٢]. وقيل له ﷺ: «ما النجاةُ؟ قال: إملكْ عليكَ لسانَكَ»[٣]. وقال له رجل: «ما أخوَفُ ما تَخافُ عليَّ؟ فأخذَ بلسانِه، وقال: «هذا»[٤]. وقال ﷺ: «لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُه حتّى يستقيمَ لسانُه»[٥]. وقال ﷺ: «من لم يحسبْ كلامَه من عملِه، كَثُرتْ خطاياهُ وحَضَرَ عذابُه»[٦]. وقال ﷺ:

> يعذِّبُ اللهُ اللسانَ بعذاب لا يعذِّبُ به شيئاً من الجوارحِ، فيقول: أي ربِّ! عذَّبتني بعذابٍ لم تعذِّبْ به شيئاً من الجوارحِ. فيقال له: خَرَجَت منك كلمةٌ بلغت مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، فسُفِكَ بها الدمُ الحرامُ، وانتُهِبَ بها المالُ الحرامُ، وانتُهِكَ بها الفرجُ الحرامُ. وعزّتي وجلالي! لأُعَذِّبَنَّكَ بعذابٍ لا أُعذِّبُ به شيئاً من الجوارح![٧]

فزِنْ كلامَك، واعرِضْهُ على العقلِ والمعرفةِ، فإن كان للهِ وفي اللهِ فتكلَّمْ، وإن كان غيرُ ذلك فالسكوتُ خيرٌ منه، وليس على الجوارحِ عبادةٌ أخفُّ مؤونةً وأفضلُ منزلةً وأعظمُ قدراً عندَ الله من كلامٍ فيه رضى اللهِ عزَّ وجلَّ ولوجهِه ونشرِ آلائِه ونعمائِه في عبادِه.

تتميم: لمّا علمتَ كونَ اللسانِ شرَّ الأعضاءِ، وكثرةَ آفاتِه وذمِّه، فاعلَم أنّه لا نجاةَ من خطرِه إلّا بالصمتِ، وقد أُشِير فيما سبق: أنّ الصمتَ ضدٌّ لجميعِ آفاتِ اللسانِ، وبالمواظبة عليه تزولُ كلُّها، وهو من فضائِل قوّةِ الغضبِ أو الشهوةِ، وفضيلتُه عظيمةٌ وفوائدُه جسيمةٌ؛ فإنّ

---

١. النساء (٤): ١١٤.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٢.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٢؛ إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٠٩.

٤. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٢.

٥. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٣.

٦. الكافي، ج ٢، ص ١١٥، باب الصمت وحفظ اللسان، ح ١٥.

٧. الكافي، ج ٢، ص ١١٥، باب الصمت وحفظ اللسان، ح ١٦.

فيه جمعَ الهمِّ، ودوامَ الوقارِ، والفراغَ للعبادةِ والفكرِ والذكرِ، والسلامةِ من تبعاتِ القولِ في الدنيا، ومن حسناتِه في الآخرةِ، ولذا مدحه الشرعُ وحثَّ عليه، قال رسولُ الله ﷺ: «من صَمَتَ نجا»[١]. وقال: «الصمتُ حكمٌ، وقليلٌ فاعلُه»[٢]. وقال ﷺ: «من كفَّ لسانَه سترَ اللهُ عورَتَه»[٣]. وقال ﷺ: «ألا أخبِرُكم بأيسرِ العبادة وأهونِها على البدنِ. الصمتُ وحسنُ الخلقِ»[٤]. وقال ﷺ: «رحم اللهُ عبداً تكلَّمَ خيراً فغَنِمَ، أو سكت عن سوءٍ فسَلِمَ»[٥]. وقال ﷺ: «اخزنْ لسانَك إلّا من خير، فإنّك بذلك تغلِبُ الشيطانَ»[٦]. وقال ﷺ: إذا رأيتم المؤمنَ صموتاً وقوراً فادنُوا مِنه، فإنّه يُلَقَّنُ الحكمةَ»[٧]. وجاء رجلٌ إليه ﷺ فقال:

يا رسولَ الله أوصني. قال: «احفظْ لسانَك». قال: يا رسولَ الله أوصني. قال: «احفظْ لسانَك». قال: يا رسولَ الله أوصني. قال: «احفظْ لسانَك. ويحَكَ، وهل يكُبُّ الناسَ على مناخرِهم في النارِ إلّا حصائدُ ألسنتِهم ؟»[٨].

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «كان أبوذرّ يقول: يا مبتغي العلمِ، إنّ هذا اللسانَ مفتاحُ خيرٍ ومفتاحُ شرٍّ، فاختِمْ على لسانِك كما تختِمُ على ذهبِكَ ووَرِقِكَ». وقال عليه السلام: «إنّما شيعتُنا الخُرسُ»[٩]. وقال عليه السلام: «في حكمة آلِ داودَ: على العاقلِ أن يكونَ عارفاً بزمانِه، مقبِلاً على شأنِه، حافِظاً للسانِه»[١٠]. وقال عليه السلام: «لا يزالُ العبدُ المؤمنُ يُكتَبُ محسِناً ما دام ساكتاً، فإذا تكلّم كُتِبَ محسناً أو مُسيئاً»[١١]. وقال عليه السلام: «النومُ راحةٌ للجسدِ، والنطقُ راحةٌ للروحِ،

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٢.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٢.
٣. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٤.
٤. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٤.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٤.
٦. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٥.
٧. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٥.
٨. الكافي، ج ٢، ص ١١٥، باب الصمت وحفظ اللسان، ح ١٤.
٩. الكافي، ج ٢، ص ١١٤، باب الصمت وحفظ اللسان، ح ١١.
١٠. الكافي، ج ٢، ص ١١٦، باب الصمت وحفظ اللسان، ح ٢٠.
١١. الكافي، ج ٢، ص ١١٦، باب الصمت وحفظ اللسان، ح ٢١.

والسكوتُ راحةٌ للعقلِ»[١]. وقال عليه السلام: «الصمتُ كنزٌ وافرٌ، وزينُ الحـلـيمِ وسـترُ الجـاهل»[٢].
وقال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «احفظْ لسانَك تَعِزَّ ولا تُمَكِّنِ الناسَ من قيادِك فَتَذِلَّ رقبتُك»[٣].
وقال عليه السلام:

من علاماتِ الفقهِ: الحلمُ، والعلمُ، والصمتُ، إنّ الصمتَ بابٌ من أبوابِ الحكمةِ، إنّ الصمتَ يُكسِبُ المحبّةَ، إنّه دليلٌ على كلِّ خيرٍ[٤].

وقال عليه السلام: «كان الرجلُ من بني إسرائيلَ إذا أراد العبادةَ صَمَتَ قبلَ ذلك بعشرِ سنينَ»[٥].

---

١. بحار الأنوار، ج ٧١، ص٢٧٦، باب السكوت، ح٦.
٢. بحار الأنوار، ج ٧١، ص٢٨٨، باب السكوت، ح ٥٠.
٣. الكافي، ج ٢، ص١١٣، باب الصمت وحفظ اللسان، ح٤.
٤. الكافي، ج ٢، ص١١٣، باب الصمت وحفظ اللسان، ح١.
٥. الكافي، ج ٢، ص١١٦، باب الصمت وحفظ اللسان، ح١٨.

النوع الثامن عشر: حبُّ الجاهِ والشهرةِ

والمرادُ بالشهرةِ: انتشارُ الصيتِ. ومعنى الجاهِ: مِلكُ القلوبِ وتسخيرُها بالتعظيمِ والإطاعةِ والانقيادِ له. وبعبارة أُخرى: قيامُ المنزلةِ في قلوبِ الناسِ. وإنَّما تصيرُ القلوبُ مملوكةً مُسَخَّرةً للشخصِ، باشتمالِها على اعتقادِ اتّصافِه بكمالٍ حقيقيٍّ، أو بما تظنُّه كمالاً، من علمٍ وعبادةٍ، أو ورعٍ وزهادةٍ، أو قوّةٍ وشجاعةٍ، أو بذلٍ وسخاوةٍ، أو سلطنةٍ وولايةٍ، أو منصبٍ ورئاسةٍ، أو غنى ومالٍ، أو حسنٍ وجمالٍ، أو غير ذلك ممّا يعتقدُه الناسُ كمالاً.

وتسخيرُ القلوبِ وانقيادُها على قدرِ اعتقادِها، وبحسبِ درجةِ ذلك الكمالِ عندَها، فبقدرِ ما يعتقدُ أربابُ القلوبِ تُذعِنُ له قلوبُهم، وبقدرِ إذعانِها تكونُ قدرتُه عليهم، وبقدرِ قدرتِه يكونُ فرحُه وحبُّه للجاهِ. ثمّ تلك القلوبُ تبعثُ أربابَها على المدحِ والثناءِ فإنّ المعتقدَ للكمالِ لايسكتُ عن ذكرِ مايعتقدُه فيُثني عليه، وعلى الخدمةِ والإعانةِ فإنّه لا يبخلُ ببذلِ نفسِه في طاعتِه بقدرِ اعتقادِه، وعلى الإيثارِ وتركِ المنازعةِ والتعظيمِ والتوقيرِ والابتداءِ بالسلامِ، وتسليمِ الصدرِ في المحافلِ والتقديمِ في جميعِ المقاصدِ.

تنبيه: حبُّ الجاهِ والشهرةِ إن كان من حيثُ إيجابهما الغلبةَ والاستيلاءَ حتى ترجِعَ حقيقةً إلى حبِّهما، وكان طالبُهما طالباً لهما، فهو من رذائلِ قوّة الغضبِ. وإن كان من حيثُ التوصّلُ بهما إلى قضاءِ الشهواتِ وحظوظِ النفسِ البهيميّةِ، فهو من رذائلِ قوّة الشهوةِ. وإن كان من الحيثيّتين فهو من رذائلِهما بالاشتراكِ، بمعنى مدخليّةِ كلٍّ منهما في حدوثِ خصوصِ هٰذه

الصِفة. والأصلُ اشتراكُ القوّتين في حدوثِ حبِّ الجاهِ والشهرةِ، كما ذكرناه في جملة ما يتعلّق بهما معاً. وهاهنا بحوثٌ:

البحث الأوّل: ذمُّ حبِّ الجاهِ والشُهرةِ

اعلم أنّ حبَّ الجاهِ والشهرةِ من المهلكاتِ العظيمةِ، وطالبَها طالبُ الآفاتِ الدنيويّةِ والأُخرويّةِ، ومن اشتهر اسمُه وانتشر صِيتُه لا يكادُ أن تسلمَ دنياه وعقباهُ، إلّا من شهرهُ اللهُ لنشرِ دينِه من غيرِ تكلّفِ طلبٍ للشهرةِ منه. ولذا ورد في ذمِّها مالا يمكِنُ إحصاؤه من الآياتِ والأخبارِ: قال اللهُ سبحانه: ﴿تِلكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجعَلُها لِلَّذينَ لايُريدُونَ عُلوّاً في الأَرْضِ ولا فَساداً﴾[1] و ﴿مَنْ كانَ يُريدُ الحَياةَ الدُّنيا وَزينَتَها نُوَفِّ إليهِمْ أعمالَهُمْ فيها وَهُمْ فِيها لايُبخَسونَ أُولئِكَ الَّذينَ لَيسَ لَهُمْ في الآخِرَةِ إلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ ماصَنَعوا فيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعمَلونَ﴾[2]. وهذا بعمومِه متناولٌ لحبِّ الجاهِ، لأنّه أعظمُ لذّةٍ من لذّاتِ الحياةِ الدنيا وأكبرُ زينةٍ من زينتِها.

وقال رسولُ الله ﷺ: «حبُّ الجاهِ والمالِ يُنبِتانِ النفاقَ في القلبِ كما يُنبِتُ الماءُ البقلَ»[3]. وقال ﷺ «ما ذئبانِ ضاريانِ أُرسِلا في زَريبةِ غَنمٍ بأكثرَ فساداً من حبِّ الجاهِ والمالِ في دينِ الرجلِ المسلمِ»[4]. وقال ﷺ: «حسبُ امرئٍ من الشرِّ ـ إلّا من عصمهُ الله ـ أن يشيرَ الناسُ إليه بالأصابعِ»[5]. وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «تَبذَّلْ ولا تَشتهِرْ، ولا ترفعْ شخصَك لِتُذكَرَ، وتعَلَّمْ واكتمْ، واصمتْ تسلَمْ، تَسرُّ الأبرارَ وتَغيظُ الفجّارَ»[6]. وقال الباقرُ عليه السلام: «لا تطلُبَنَّ الرئاسةَ ولا تكن ذَنَباً، ولا تأكُلْ الناسَ بنا فيفقرَكَ اللهُ»[7]. وقال الصادقُ عليه السلام: «إيّاكم وهؤلاءِ الرؤساءَ

---

١. القصص (٢٨): ٨٣.

٢. هود (١١): ١٥ ـ ١٦.

٣. بحار الأنوار، ج٧٥، ص٢٠٥، باب ذي اللسانين، ذيل الحديث ١٢؛ المحجّة البيضاء، ج٦، ص١١٢.

٤. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١١٢؛ إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢٧٨.

٥. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٠٨؛ إحياء علوم الدين، ج٣، ص ٢٧٥.

٦. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٠٨؛ بحار الأنوار، ج٢، ص٣٧، ح٥١.

٧. الكافي، ج٢، ص٢٩٨، باب طلب الرئاسة، ح٥.

الذين يَتَرَأَّسُونَ، فواللهِ ماخفَقَت النعالُ خلفَ رجلٍ إلّا هَلَك وأهْلَكَ» [١]. وقال عليه السلام:

أترى لا أعرِفُ خيارَكم من شرارِكم؟ بلى واللهِ، إنّ شرارَكم من أحبَّ أن يُوطأَ عَقِبُه، إنّه لابدّ من كذّابٍ أو عاجزِ الرأيِ [٢].

والأخبارُ بهذه المضامينِ كثيرةٌ، ولكثرةِ آفاتِها لايزالُ أكابرُ العلماءِ وأعاظمُ الأتقياءِ يفِرّونَ منها فرارَ الرجلِ من الحيّةِ السوداءِ.

ومن فسادِ حبِّ الجاهِ: أنَّ من غلب على قلبِه حبُّ الجاهِ، صار مقصورَ الهمِّ على مراعاةِ الخلقِ، مشغوفاً بالتودُّدِ إليهم والمراءاةِ لأجلِهم، ولا يزالُ في أقوالِه وأفعالِه مُتلَفِّتاً إلى ما يُعَظِّمُ منزلتَه عندَهم، وذلك بذرُ النفاقِ وأصلُ الفسادِ، ويجرُّ لامحالةَ إلى التساهلِ في العباداتِ والمراءاةِ بها، وإلى اقتحامِ المحظوراتِ للتوصُّلِ بها إلى اقتناصِ القلوبِ، ولذلك شبَّهَ رسولُ اللهِ حبَّ الشرفِ والمالِ وإفسادَهما للدينِ بذئبينِ ضاريينِ، وقال: «إنّه يُنبتُ النفاقَ كما يُنبتُ الماءُ البقلَ» [٣]، إذ النفاقُ هو مخالفةُ الظاهرِ للباطنِ بالقولِ والفعلِ، وكلُّ من طلب المنزلةَ في قلوبِ الناسِ يضطرُّ إلى النفاقِ معهم، وإلى التظاهُرِ بخصالٍ حميدةٍ هو خالٍ عنها، وذلك عينُ النفاقِ.

البحث الثاني: الجاهُ أحبُّ من المالِ

إنّ لِملكِ القلوبِ ترجيحٌ على ملكِ المالِ بوجوهٍ:

الأوّل : أنّ المالَ معرَّضٌ للتلفِ والزوالِ.

الثاني: أنّ التوصُّلَ بالجاهِ إلى المالِ أيسرُ من التوصُّلِ بالمالِ إلى الجاهِ، فالعالمُ أو الزاهدُ الذي تقرَّرَ له جاهٌ في القلوبِ، لو قصد اكتسابَ المالِ تيسَّرَ له بسهولةٍ، لأنّ أموالَ أربابِ القلوبِ مسخَّرةٌ للقلوبِ، ومبذولةٌ لمن أذعَنَتْ له بالانقيادِ واعتَقَدَتْ فيه أوصافَ الكمالِ. وأمّا الخسيسُ العاري عن الكمالِ إذا ظفرَ بكثرةٍ من المالِ ولم يكن له جاهٌ يحفَظُ به مالَه وأراد أن يتوصَّلَ به إلى الجاهِ، لم يتيسَّرْ له.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٢٩٧، باب طلب الرئاسة، ح ٣.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٢٩٩، باب طلب الرئاسة، ح ٨.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٠٥، باب ذي اللسانين، ذيل الحديث ١٢.

الثالث: أنّ مِلكَ القلوبِ يَسري وينمُو ويتزايدُ من غيرِ حاجةٍ إلى تعبٍ ومشقّةٍ، إذ القلوبُ إذا أذعنَتْ لِشخصٍ واعتقَدَتْ اتّصافَه بعلمٍ أو عملٍ أو غيرِه، أفصَحَت الألسنةُ بما فيها لا محالةَ، فيصفُ ما يعتقدُه لغيرِه وهو أيضاً يُذعِنُ به ويصِفُهُ لآخرَ. فلا يزالُ يستطارُ في الأقطارِ، ويسري من واحدٍ إلى واحدٍ، إلى أن يجتمعَ معظمُ القلوبِ على التعظيمِ والقبولِ. وأمّا المالُ، فمن ملكَ شيئاً منه فلا يقدِرُ على استنمائِه إلّا بتعبٍ ومقاساةٍ. ولهٰذه الوجوهِ تُستَحْقَرُ الأموالَ في مقابَلَةِ عظمِ الجاهِ وانتشارِ الصيتِ وانطلاقِ الألسنةِ بالمدحِ والثناءِ.

البحث الثالث: لابدَّ للإنسانِ من جاهٍ

كما أنّه لابدَّ من أدنَى مالٍ لضرورةِ المطعمِ والملبسِ والمسكنِ، ومثلُه ليس بمذمومٍ، فكذٰلك لابدّ من أدنى جاهٍ لضرورةِ المعيشةِ مع الخلقِ، إذ الإنسانُ كما لا يستغني عن طعامٍ يتناوَلُه، فيجوزُ أن يحبَّ الطعامَ والمالَ الذي يباعُ به الطعامُ، فكذٰلك لايستغني عن خادمٍ يخدِمُه ورفيقٍ يُعِينُه. إذ الجاهُ كالمالِ وسيلةٌ إلى الأغراضِ، فلا فرقَ بينَهما، إلّا أنّ هذا يقضي ألّا يكونَ المالُ والجاهُ محبوبين بأعيانِهما بل من حيث التوصُّلُ بهما إلى غيرِهما. ولا ريبَ في أنّ كلَّ ما يُرادُ به التوصُّلُ إلى محبوبٍ فالمحبوبُ هو المقصودُ المتوسَّلُ إليه دونَ الوسيلةِ.

وَمَثَلُ هذا الحبِّ مَثَلُ حبِّ الإنسانِ أن يكونَ في دارِه بيتُ الخلاءِ لقضاءِ حاجتِه، ولو استغنى عن قضاءِ الحاجةِ ولم يضطرَّ إليه، كَرِهَ اشتمالَ دارِه على بيتِ الخلاءِ.

ثمّ حبُّهما بأعيانِهما وإن كان مذموماً مرجوحاً، لكنّه لايُوصَفُ صاحبُه بالفسقِ والعصيانِ مالم يحمِلْهُ الحبُّ على مباشرةِ معصيةٍ، ومالم يتوصّلْ إلى اكتسابِهما بكذبٍ وخداعٍ وتلبيسٍ، كأن يُظهِرَ للناسِ قولاً أو فعلاً اعتقدوا لأجلِه اتّصافَه بوصفٍ ليس فيه، مثل العلمِ والورعِ أو علوِّ النسبِ، وبذٰلك يطلبُ قيامَ المنزلةِ في قلوبِهم. ومالم يتوصّل إلى اكتسابِهما بعبادةٍ، إذ التوصُّلُ إلى المالِ والجاهِ بالعبادةِ جنايةٌ على الدينِ وهو حرامٌ، وإليه يرجِعُ معنى الرياءِ المحظورِ.

وأمّا طلبُهما بصفةٍ هو مُتَّصِفٌ بها، فهو مباحٌ غيرُ مذمومٍ، وذلك كقولِ يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْني

على خَزائِنَ الأرضِ إنّي حَفيظٌ عَليمٌ﴾[١]. حيث طلب المنزلةَ في قلبِ الملكِ بكونِه حفيظاً عليماً، وكان صادقاً في قوله. وكذا طلبُها بإخفاءِ عيبٍ من عيوبِه ومعصيةٍ من معاصيهِ، حتّى لا يعلمه فلا تزولُ به منزلتُه في قلبِه، مباحٌ غيرُ مذمومٍ، إذ حفظُ السترِ على القبائحِ جائزٌ، بل لا يجوزُ هتكُ السترِ وإظهارُ القبيحِ، وهذا ليس فيه كذبٌ وتلبيسٌ بل هو سدٌّ لطريقِ العلمِ بما لا فائدةَ للعلمِ به، كالّذي يخفي عن السلطانِ أنّه يَشرَبُ الخمرَ ولايُلقِي إليه أنّه وَرِعٌ، فإنّ قولَه إنّه وَرِعٌ تلبيسٌ، وعدمَ إقرارِهِ بالشربِ لا يوجِبُ اعتقادَ الورعِ، بل يمنعُ العلمَ بالشربِ، وهو جائزٌ شرعاً وعقلاً.

البحث الرابع: الكمال الحقيقيُّ في العلمِ والقدرةِ والمالِ والجاهِ

لمّا عرفتَ أنّ المحبوبَ عندَ الإنسانِ هو العلمُ والقدرةُ والمالُ والجاهُ لكونِها كمالاً، فاعلَم أنّه اشتبه الأمرُ عليهِ بإغواءِ الشيطانِ، حيث التبسَ عليه الكمالُ الحقيقيُّ بالوهميِّ، وتَيَقَّنَ بكونِ جميعِ ذلك كمالاً وأحبَّه. إذ التحقيقُ أنّ بعضَها كمالٌ حقيقيٌّ وبعضَها كمالٌ وهميٌّ لا أصلَ له، والسعيُ في طلبِه جهلٌ وخسرانٌ وتضييعُ وقتٍ وخِذلانٌ.

بيانُ ذلك: أنّه لاريبَ في عدمِ كونِ المالِ والجاهِ كمالاً، لأنّ القدرةَ والاستيلاءَ على أعيانِ الأموالِ بوجوهِ التصرُّفِ، وعلى القلوبِ والأبدانِ بالتسخيرِ والانقيادِ ينقطعُ بالموتِ، فمن ظنّ ذلك كمالاً فقد جَهِل. فالخلقُ كلُّهم في غمرةِ هذا الجهلِ، فإنّهم يظنُّونَ أنّ القدرةَ على الأجسادِ بِقَهرِ الحشمةِ، وعلى أعيانِ الأموالِ بسَعَةِ الغِنَى، وعلى تعظيمِ القلوبِ بسعةِ الجاهِ كمالٌ. ولمّا اعتقدوا كونَ ذلك كمالاً أحبُّوه، ولمّا أحبُّوه طلبُوه، ولمّا طلبُوه شُغِلُوا به وتهالَكُوا عليه، فنسوا الكمالَ الحقيقيَّ الذي يُوجِبُ القربَ من اللهِ، أعني العلمَ والحريّةَ كما يأتي. فهؤلاء هم الذين اشتَرَوا الحياةَ الدُّنيا بالآخِرَةِ، فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذابُ ولا هُمْ يُنْصَرُونَ، وهم الذينَ لم يَفهَمُوا قولَه تعالى: ﴿المالُ وَالبَنُونَ زينَةُ الحَياةِ الدُّنيا وَالباقياتُ الصالحاتُ خَيرٌ عندَ رَبِّكَ ثَواباً﴾[٢]. فالعلمُ

---

١. يوسف (١٢): ٥٥.

٢. الكهف (١٨): ٤٦.

والحريّةُ وفضائلُ الأخلاقِ هي الباقياتُ الصالحاتُ التي تبقَ كمالاً للنفسِ بعد خرابِ البدنِ، والمالُ والجاهُ هو الذي ينقضي على القربِ، وهو كما مثّلَه اللهُ تعالى حيث قال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أنزلناهُ مِنَ السَّماءِ فاختَلَطَ بِهِ نَباتُ الأرْضِ...﴾[١]. وكلُّ ما تذروه رياحُ الموتِ فهو زهرةُ الحياةِ الدنيا، وكلُّ ما لا يقطعُه الموتُ فهو من الباقياتِ الصالحاتِ.

فقد ظهر أنّ كمالَ القدرةِ بالمالِ والجاهِ كمالٌ وهميٌّ لا أصلَ له، وأنَّ من قصرَ الوقتَ على طلبِه وظنّه مقصوداً فهو جاهلٌ، إلّا قدرَ البُلغةِ منه إلى الكمالِ الحقيقيِّ.

وأمّا العلمُ، فلا ريبَ في كونِ ماهو حقيقةُ العلمِ كمالاً حقيقياً، إذ الكمالُ الحقيقيُّ هو الذي يُقَرِّبُ من يَتَّصِفُ به من اللهِ ويبقى كمالاً للنفسِ بعدَ الموتِ. ولا شكَّ في أنّ العلمَ باللهِ وبصفاتِه وأفعالِه وحكمتِه في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ وترتيبِ الدنيا والآخرةِ وما يتعلّق به هو المقرِّبُ للعبدِ إلى اللهِ، إذ هو علمٌ ثابتٌ لا يقبَلُ التغييرَ والانقلابَ، إذ معلوماتُه أزليّةٌ أبديّةٌ وليس لها تغييرٌ وانقلابٌ، حتّى يتغيّر العلمُ بتغيُّرِها مثل التغيُّراتِ التي يتغيّرُ العلمُ بها بتغيُّرِها وانقلابِها، كالعلمِ بكونِ زيدٍ في الدارِ.

فهو علمٌ ثابتٌ أزلاً وأبداً من دونِ تغيُّرٍ واختلافٍ، كالعلمِ بجوازِ الجائزاتِ ووجوبِ الواجباتِ واستحالةِ المستحيلاتِ. فهٰذا العلمُ ـ أعني معرفةَ اللهِ ومعرفةَ صفاتِه وأفعالِه ـ هو الكمالُ الحقيقيُّ الذي يبقى بعدَ الموتِ وينطوي فيه العلمُ بالنظامِ الجملي الأصلحِ وجميعُ المعارفِ المحيطةِ بالموجوداتِ وحقائقُ الأشياءِ، إذ الموجوداتُ كلّها من أفعالِه، فمن عرفها من حيث هي فعلُ الله ومن حيث ارتباطِها بالقدرةِ والإرادةِ والحكمةِ، كانت هذه المعرفةُ من تكملةِ معرفةِ اللهِ التي تبقى كمالاً للنفسِ بعد الموتِ، وتكونُ نوراً للعارفين بعدَ الموتِ يسعَى بين أيديهم وإيمانِهم: ﴿يقولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لنا نُورَنا﴾[٢] وهي رأسُ مالٍ يوصِلُ إلى كشفِ مالم ينكَشِفْ في الدنيا، كما أنّ من معه سراجٌ خفيٌّ، فإنّه يجوز أن يصيرَ ذلك سبباً لزيادةِ النورِ بسراجٍ آخرَ يقتبِسُ منه، فيكملُ النورُ بذٰلك النورِ الخفيِّ على سبيلِ الاستتمامِ. ومن ليس معه أصلُ السراجِ لا مطمعَ له في

١. يونس (١٠): ٢٤.
٢. التحريم (٦٦): ٨.

ذلك. فمن ليس له أصلُ معرفةِ اللهِ لم يكن له مطمعٌ في هذا النورِ، بل هو في «ظُلُماتٍ في بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ من فَوْقِهِ مَوْجٌ من فوقِهِ سَحابٌ، ظُلُماتٌ بَعضُها فَوْقَ بَعْضٍ»[١].

وما عدا هٰذه المعرفةِ من المعارفِ، إمّا لافائدةَ فيه أصلاً كمعرفةِ الشعرِ وأنسابِ العربِ ومثل ذلك، أوله منفعةٌ في معرفةِ اللهِ كمعرفةِ لغةِ العربِ والتفسيرِ والفقهِ والأخبارِ، ومعرفةِ طريقِ تزكيةِ النفسِ التي تفيدُ استعداداً لقبولِ الهدايةِ إلى معرفةِ الله، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾[٢] و ﴿وَالَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾[٣].

فهو من حيثُ إنّه وسيلةٌ إلى معرفةِ اللهِ وإلى تحصيلِ الحريّةِ ممّا لابدّ منه بالعَرَضِ.

ثمّ إنّ المعرفةَ التي هي كمالٌ حقيقيٌّ للإنسانِ ليس كمالَ العلمِ وغايتَه، إذ لا يُتَصَوَّرُ كمالُ العلمِ ونهايتُه إلّا للواجبِ تعالى، إذ كمالُ العلمِ إنّما يتحقّقُ بأُمورٍ ثلاثةٍ:

الأوّل: أن يحيطَ بكلِّ المعلوماتِ، ولايتحقّق ذلك في علمِ البشرِ. إذ ما أُوتِي من العِلمِ إلّا قليلاً، بل العلمُ الذي يحيطُ بجميعِ المعلوماتِ هو علمُ اللهِ تعالى، وعلمُ العبدِ إنّما يتحقّق ببعضِ المعلوماتِ، وكلّما كانت معلوماتُهُ أكثرَ كان علمُه أقربَ إلى علمِ اللهِ تعالى.

الثاني: ان يتعلّقَ بالمعلومِ على ماهو به، ويكونَ المعلومُ منكشفاً واضحاً في غايةِ الانكشافِ والوضوحِ، بحيث لايقبلُ انكشافاً أتمَّ منه. وهذا أيضاً غيرُ ممكنِ التحقيقِ في حقِّ الإنسانِ، إذ علمُه لايخلو عن كُدرَةٍ وإبهامٍ، بل الكشفُ التامُّ الذي هو غايةُ الظهورِ والانجلاءِ مختصٌّ بعلمِ اللهِ تعالى، إذ معلوماتُه مكشوفةٌ بأتمِّ أنواعِ الكشفِ على ما هي عليها، وعلمُ العبد له بعض مراتبِ الانكشافِ، فكلّما كان أجلَى وأوضحَ وأتقنَ وأوفقَ للمعلومِ في تفاصيلِ صفاته، كان أقربَ إلى علمِ الله.

الثالث: أن يكونَ باقياً أبدَ الآبادِ، بحيثُ لايتغيّرُ ولا يزولُ. وهذا أيضاً مختصٌّ بعلمِ اللهِ تعالى، إذ علمُه تعالى باقٍ لايتصوَّرُ أن يختلِفَ ويتغيَّرَ ويزولَ، وعلمُ الإنسان يتغيّرُ ويزولُ، فكلّما كان علمُه بمعلوماتٍ لاتقبلُ التغيّرَ والانقلابَ، كان أقربَ إلى علمِ اللهِ تعالى.

---

١. إشارة إلى الآية ٤٠ من سورة النور (٢٤).

٢. الشمس (٩١): ٩.

٣. العنكبوت (٢٩): ٦٩.

هذا، ومن الكمالاتِ للإنسانِ: التحلّي بفضائلِ الأخلاقِ والصفاتِ، لإيجابِها صفاءَ النفسِ المؤدّيَ إلى البهجةِ الدائمةِ والحريّةِ، أعني الخلاصَ من أسرِ الشهواتِ وغمومِ الدنيا والاستيلاءِ عليها بالقهرِ، تشبُّهاً بالملائكةِ الذين لا تستغرقُهم الشهوةُ ولا يستهويهِم الغضبُ؛ إذ رفعُ آثارِ الشهوةِ والغضبِ من النفسِ كمالٌ حقيقيٌّ، لأنّه من صفاتِ الملائكةِ. ومن صفاتِ الكمالِ للهِ سبحانَه عدمُ تطرُّقِ التغييرِ والتأثيرِ على حريمِ كبريائِه، فمن كان عن التغيُّرِ والتأثُّرِ بالعوارِض أبعدَ كان إلى اللهِ أقربَ.

وأمّا القدرةُ، فقد قال بعضُ العلماءِ:

أمّا القدرةُ فليس فيها كمالٌ حقيقيٌّ للعبدِ؛ إذ القدرةُ الحقيقيّةُ للهِ، وما يحدثُ من الأشياءِ عقيبَ إرادةِ العبدِ وقدرتِه وحركتِه، فهي حادثةٌ بإحداثِ اللهِ تعالى. نعم، له كمالٌ من جهةِ القدرةِ بالإضافةِ إلى الحالِ، وهي وسيلةٌ إلى كمالِ العلمِ، كسلامةِ أطرافِه وقوّةِ يدِه للبطشِ، ورجلِه للمشي، وحواسِّه للإدراكِ، فإنّ هٰذه القوىٰ آلةٌ للوصولِ به إلى حقيقةِ كمالِ العلمِ، وقد يحتاجُ في استيفاءِ هٰذه القوى إلى القدرةِ بالمالِ والجاهِ للتوصُّلِ به إلى المطعمِ والملبسِ، وذلك إلى قدرٍ معلومٍ، فإن لم يستعمِلْهُ للوصولِ به إلى معرفةِ اللهِ فلا خيرَ فيه ألبتّةَ، إلّا من حيثُ اللذّةُ الحاليّةُ التي تنقضي على القربِ، ولا طريقَ للعبدِ إلى اكتسابِ كمالِ القدرةِ الباقيّةِ بعد موتِه، إذ قدرتُه على كلِّ شيءٍ من الأرضيّاتِ، كالمالِ والأبدانِ والنفوسِ، تنقطعُ بالموتِ.[1]

وأنت خبيرٌ بأنّ تحقُّقَ نوعِ قدرةٍ للعبادِ ممّا لا ريبَ فيه، وإن كانت أسبابُها وأصلُها من اللهِ سبحانَه، إلّا أنّ القدرةَ على الأُمورِ الدنيويّةِ الفانيةِ كالمالِ والأشخاصِ وغيرِ ذلك، ليست كمالاً حقيقيّاً، لزوالِها بالموتِ. نعم، الحقُّ ثبوتُ القدرةِ النفسيّةِ للعبدِ، أعني تأثيرَ نفسِه في غيرِه من الكائناتِ تأثيراً روحانيّاً معنويّاً، كما هو ظاهرٌ من تأثيرِ بعضِ النفوسِ في الإنسانِ والحيوانِ والنباتِ والجمادِ بأنواعِ التأثيراتِ. ومثلُ هٰذه القدرةِ تبقى للنفوسِ بعدَ الموتِ، ولذا ترى أنّ

---

١. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٢٣.

مـن يسـتغيثُ بـبعضِ النـفوسِ الكـاملةِ مـن الأمـواتِ يـرى مـنها عـجائبَ التأثـيراتِ والاستفاضاتِ، فما ذكره بعضُ العلماءِ من عدمِ بقاءِ قدرةٍ للنفوسِ بعدَ الموتِ محلُّ النظرِ.

وقد ظهر بما ذُكِر: أنّ الكمالَ الحقيقيَّ للإنسانِ هو العلمُ الحقيقيُّ وفضائلُ الأخلاقِ والحريّةُ والقدرةُ.

البحث الخامس: علاجُ حبِّ الجاهِ

اعلم أنّ علاجَ حبِّ الجـاهِ مركَّبٌ من علمٍ وعملٍ. وعلاجُه العلميُّ: أن يعلمَ أنّ السـببَ الذي لأجلِه أحبَّ الجاهَ ـ وهو كمالُ القدرةِ على أشخاصِ الناسِ وعلى قلوبِهم ـ إن صفا وسَلِم فآخرُه الموتُ، فليس هو من الباقياتِ الصالحاتِ بل لو سجدَ له كلُّ من على وجهِ الأرضِ إلى خمسينَ سنة أو أكثرَ لابدّ من موتِ الساجدِ والمسجودِ له، ويكون حالُه كحالِ من مات قبلَه من ذوي الجاهِ مع المتواضعين له. ولا ينبغي للعاقلِ أن يتركَ بمثلِ ذلك الدينَ الذي هو الحياةُ الأبديّةُ التي لا انقطاعَ لها. ومن فهمَ الكمالَ الحقيقيَّ والكمالَ الوهميَّ ـ كما سبق ـ صَغُرَ الجاهُ في عينِه، إلّا أنّ ذلك إنّما يصغُرُ في عينِ من ينظرُ إلى الآخرةِ كأنـّه يشاهدُها ويستحقرُ العـاجلةَ ويكونُ الموتُ كالحاصلِ عندَه، وأبصارُ أكثرِ الخلقِ ضعيفةٌ مقصورةٌ عـلى العـاجلةِ لا يمـتدُّ نورُها إلى مشاهدةِ العواقبِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُّنيا والآخِرَةُ خَيرٌ وأبقى﴾[1]. وقال: ﴿كَلّا بَلْ تُحِبُّونَ العاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾[2].

فمن هذه مرتبتُه، فينبغي أن يعالجَ قلبَه من حبِّ الجاهِ بمعرفةِ الآفـاتِ العـاجِلةِ، وهـو أن يتفكَّرَ في الأخطارِ التي يستهدِفُ لها أربابُ الجاهِ في الدنيا، فإنّ كلَّ ذي جاهٍ محسودٌ مـقصودٌ بالإيذاءِ، وخائفٌ على الدوامِ على جاهِه، ولا يزالُ في الاضـطرابِ والخـوفِ مـن أن تـتغيّرَ منزلتُه في القلوبِ. مع أنّ قلوبَ الناسِ أشدُّ تغيّراً وانقلاباً من القدرِ في غليانِه، وهي مردَّدةٌ بينَ الإقبالِ والإعراضِ، فكلُّ ما يُبنَى على قلوبِ الخلقِ يضاهِي ما يُبنَى على أمواجِ البحرِ فـإنّه

---

١. الأعلى (٨٧): ١٦ ـ ١٧.

٢. القيامة (٧٥): ٢٠ ـ ٢١.

لاثباتَ له. والاشتغالُ بمراعاةِ القلوبِ وحفظِ الجاهِ ودفعِ كيدِ الحسّادِ ومنعِ أذى الأعداءِ اشتغالٌ عن اللهِ وتعرُّضٌ لمقتِه في العاجلِ والآجلِ، وكلُّ ذلك غمومٌ عاجلةٌ مكدِّرةٌ للذّةِ الجاهِ، فلا يبقى في الدنيا أيضاً مَرْجُوُّها بِمَخُوفِها، فضلاً عمّا يفوتُ في الآخرةِ. فبهٰذا ينبغي أن تُعالَجَ البصيرةُ الضعيفة. وأمّا من نفذت بصيرتُه وقَوِيَ إيمانُه فلا التفاتَ له إلى الدنيا. فهذا هو العلاجُ العلميُّ.

وأمّا العلاجُ العمليُّ: فإسقاطُ الجاهِ عن قلوبِ الخلقِ بالأُنسِ بضدِّ الجاهِ الذي هو الخمولُ ويَقنَعُ بالقَبولِ من الخالق. وأقوى العلاجِ لقطعِ الجاهِ الاعتزالُ عن الناسِ والهجرةُ إلى مواضعِ الخمولِ، لا مجرّدَ الاعتزالِ في بيتِه في البلدةِ التي هو فيها مشهورٌ، لأنّ المعتزلَ في بيتِه في البلدةِ التي هو فيها مشهورٌ عندَ أهلِها لا يخلُو بسببِ عزلتِه عن حبِّ المنزلةِ التي تترسّخُ له في القلوبِ، فربّما يظنُّ أنّه ليس محبّاً لذٰلك الجاهِ وهو مغرورٌ، وإنّما سكنَتْ نفسُه لأنّها ظَفِرَتْ بمقصودِها، ولو تغيّرَ الناسُ عمّا اعتقدوا فيه وذَمُّوه أو نسبُوه إلى أمرٍ غيرِ لائقٍ، ربّما جَزِعَت نفسُه وتألّمَتْ وتَوَصَّلَتْ إلى الاعتذارِ من ذلك وإماطةِ ذلك الغبارِ عن قلوبِهم، وربّما يحتاجُ في إزالةِ ذلك عن قلوبِهم إلى كذبٍ وتلبيسٍ ولا يبالي به، وبه يتبيّنُ أنّه بعدُ محبٌّ للجاهِ والمنزلةِ، ولا يمكنُه ألّا يحبَّ المنزلةَ في قلوبِ الناسِ مادام يطمعُ في الناسِ، ولا يُقطَعُ الطمعَ عن الناسِ إلّا بالقناعةِ. فمن قنعَ استغنَى عن الناسِ، وإذا استغنَى لم يشتغل قلبُه بالناسِ ولم يكن لقيامِ منزلتِه في القلوبِ وزنٌ عندَه، بل من لم يطمعْ في الناسِ وكان من أهلِ المعرفةِ، كان الناسُ عندَه كالبهائمِ، فكيف يكونُ طالباً لقيامِ منزلتِه في قلوبِهم؟!

والحاصلُ: أنّ الغالبَ والباعثَ على قيامِ المنزلةِ في قلوبِ الناسِ هو الطمعُ منهم، ولذا ترى أنّك لا تطلبُ قيامَ منزلتِك في قلوبِ من في أقصى المشرقِ أو المغربِ، لعدمِ طمعٍ لك فيهم، ثمّ ينبغي أن يستعينَ على المعالجةِ بالأخبارِ الواردةِ في ذمِّ الجاهِ، كما مرّ، وفي مدحِ الخمولِ، كما يأتي.

وصلٌ

ضدّ حبّ الجاه: حُبُّ الخُمولِ

ضدُّ حبِّ الجاهِ والشهرةِ حبُّ الخُمولِ، وهو شعبةٌ من الزهدِ، كما أنّ حبَّ الجاهِ شعبةٌ من حبِّ الدنيا. فحبُّ الدنيا والزهدُ ضدّانِ.

والخُمولُ من خصالِ الموقِنين، وقد كانت طوائفُ العرفاءِ المتوحِّدينَ ومن يماثلُهم من سلفِنا الصالحينَ محبّينَ له طالِبينَ إيّاه، وكلُّ من عرفَ اللهَ وأحبَّه وأنِسَ به كان محبّاً للخمولِ متوحِّشاً من الجاهِ وانتشارِ الصيتِ. وقد وردت بمدحِه أخبارٌ كثيرةٌ، كقولِ رسولِ الله ﷺ:

[١] إنّ اليسيرَ من الرياءِ شركٌ، وإنّ اللهَ يحبُّ الأتقياءَ الأخفياءَ، الذين إذا غابُوا لم يُفقَدُوا وإذا حضرُوا لم يُعرَفُوا قلوبُهم مصابيحُ الهدى يَنجُونَ من كلِّ غبراءَ مظلمةٍ [١].

[٢] إنّ أهلَ الجنّةِ كلُّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرينِ لا يُؤبَهُ له، الذين إذا استأذَنُوا على الأُمراءِ لم يُؤذَن لهم، واذا خطبوا النساءَ لم يُنكَحُوا، وإذا قالوا لم يُنصَت لهم. حوائجُ أحدِهم تتَلَجْلَجُ في صدرِهِ، لو قُسِم نورُه يومَ القيامةِ على الناسِ لَوَسِعَهم [٢].

ومن اطّلع على أحوالِ أكابرِ الدينِ والسلفِ الصالحينَ من إيثارِهم الخمولَ على الجاهِ والشهرةِ والغلبةِ، ثمّ في ماوردَ في مدحِهما من الأخبارِ، تيقّنَ بأنّهما من أوصافِ المؤمنين، ولابدّ للمؤمنِ من الاتّصاف بهما.

---

١. المحجّة البيضاء، ج٦، ص ١١٠.

٢. المحجّة البيضاء، ج٦، ص ١١٠.

النوع التاسعَ عَشَرَ: حبُّ المدحِ وكراهةُ الذمِّ

وهما من نتائجِ حبِّ الجاهِ، ومن المهلكاتِ العظيمةِ، إذ كلُّ محبٍّ للمدحِ والثناءِ خائفٌ من الذمِّ، يجعل أفعالَه وحركاتِه على مايوافقُ رضى الناسِ، رجاءً للمدحِ وخوفاً من الذمِّ. فيختارُ رضى المخلوقِ على رضى الخالقِ، فيرتكِبُ المحظوراتِ ويتركُ الواجباتِ، ويتهاونَ في الأمـرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، ويتعدَّى عن الإنصافِ والحقِّ، وكلُّ ذلك من المهلكاتِ، وليس للمؤمنِ أن يحومَ حولَها، بل المؤمنُ من لم يُؤثِرْ قطّ رضى المخلوقِ على رضىٰ الخالقِ، ولا تأخُذُه في اللهِ لومةُ لائمٍ. ولعظمِ فسادِ حبِّ المدحِ وبغضِ الذمِّ ورد في ذمِّهما ما ورد في الأخبارِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنّما هلك النـاسُ بـاتّباعِ الهـوى وحبِّ الثـناءِ»[1]. وقـال ﷺ: «رأسُ التواضعِ أن تكرَهَ أن تُذكَرَ بالبرِّ والتقوىٰ»[2]. وقال ﷺ لمّا مدح رجلٌ آخرَ: «ويحَك، قَطَعْتَ ظهرَه، ولو سَمِعَك ما أفلحَ إلى يومِ القيامةِ»[3]. وقال ﷺ: «ألا لا تمادَحُوا، وإذا رأيتُم المدّاحينَ فاحثُوا في وُجوهِهِم الترابَ»[4].

وهاهنا بحوثٌ:

---

١. إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢٧٨.

٢. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٣٧.

٣. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٣٣.

٤. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٣٣.

البحث الأوّل: مراتبُ حبِّ المدحِ وكراهةِ الذمِّ

اعلم أنّ لحبِّ المدحِ وكراهةِ الذمِّ مرتبتين: أُولاهما: أن يفرحَ بالمدحِ ويشكرَ المادحَ، ويغضبَ من الذمِّ ويحقِدَ على الذامِّ، ويكافئه أو يحبّ مكافأتَه. وهذا حالُ أكثرِ الخلقِ، ولا حدَّ لأتَمِّها وأُخراهما: أن يفرحَ باطنهُ ويرتاحَ للمادحِ، ولكن يحفظُ ظاهرَه من إظهارِ السرورِ، ويتبغّضُ في الباطنِ على الذامِّ، ولٰكن يمسِكُ لسانَه وجوارحَه عن مكافأته. وهذه وإن كانت نقصاناً، إلّا أنّها بالنظر إلى الأُولى كمالٌ.

وباعتبارٍ آخرَ، لحبِّ المدحِ درجاتٌ:

الأُولى: أن يتمنّى المدحَ وانتشارَ الصيتِ بحيثُ يتوصّلُ إلى نيلِها بكلِّ ممكنٍ، حتّى يرائِيَ بالعباداتِ ولا يبالِي بمفارقةِ المحظوراتِ، لاستمالةِ قلوبِ الناس واستنطاقِ ألسنتِهم بالمدحِ. وهذا من الهالكينَ.

الثانية: أن يريدَ ذلك ويطلبَهُ بالمباحاتِ لا بالعباداتِ وارتكابِ المحظوراتِ، وهذا على شفاجُرُفِ الهلاكِ. إذ حدودُ الكلامِ والأعمالِ التي يستميلُ بها القلوبَ لايمكنُه أن يضبطَها، فيوشكُ أن يقعَ فيما لا يحلُّ له ليتوصَّلَ به إلى نيلِ المدحِ. فهو قريبٌ من الهالكين.

الثالثة: ألّا يريدَ المدحَ ولا يسعى لطلبِه، ولكن إذا مُدِحَ سُرَّ وارتاحَ، من غيرِ وجدانِ كراهةٍ في نفسِه لهٰذا السرورِ والارتياحِ. وهذا أيضاً نقصانٌ، وإن كان أقلَّ إثماً بالإضافةِ إلى ما قبلَه.

الرابعة: أن يُسَرَّ ويرتاحَ، ولكن كَرِهَ هذا السرورَ والارتياحَ، وكلّفَ قلبَه كراهةَ المدحِ وبغضَه، وهو في مقامِ المجاهدةِ، ولعلَّ اللهَ يسامحُه إذا بذلَ جهدَه. ومع ذلك لم يقدِر على ربطِ نفسِه على كراهةِ المدحِ دائماً.

البحث الثاني: أسبابُ حبِّ المدحِ

حبُّ المدحِ والثناءِ له أسبابٌ:

الأوّل: شعورُ النفسِ بكمالِها، فإنّ الكمالَ لمّا كان محبوباً فمهما شعرَتْ النفسُ بكمالِها ارتاحَت واهتَزَّت وتَلذَّذَت، والمدحُ يُشعِرُ نفسَ الممدوحِ بكمالها.

الثاني: أنّ المدحَ يدلُّ على أنّ قلبَ المادحِ ملكُ الممدوحِ، وأنّه مريدٌ له معتقدٌ فيه ومسخَّرٌ تحت مشيئتِه، ومِلكُ القلوبِ محبوبٌ، والشعورُ بحصولِه لذيذٌ، ولذٰلك تعظمُ اللذّةُ مهما صدرت ممّن تتّسِعُ قدرتُه وينتفعُ باقتناصِ قلبِه كالملوكِ والأكابِر. ولضدِّ هٰذه العلّةِ يكرَهُ الذمَّ ويتألّمُ القلبُ به.

الثالث: أنّ المَدح سببُ اصطيادِ قلبِ كلِّ من يسمعُه، لا سيّما إذا كان المادحُ ممّن يُعتنَى بقولِه. وهذا يختصُّ بمدحٍ يقع على الملأ.

الرابع: أنّ المدحَ يدلُّ على حشمةِ الممدوحِ واضطرارِ المادحِ إلى إطلاقِ اللسانِ بالثناءِ عليه طوعاً أو قهراً، والحشمةُ محبوبةٌ لما فيها من الغلبةِ والقدرةِ، فشعورُ النفسِ بها يورِثُ لذّةً، وهٰذه اللذّةُ تحصلُ وإن علم الممدوحُ أنّ المادح لا يعتقدُ بما يقولُه، إذ ما يطلبُه يحصلُ منه. ولضدّ هٰذه العلّةُ يُبغِضُ الذمَّ أيضاً.

البحث الثالث: علاجُ المدحِ وكراهةُ الذمِّ

إذا علم أنّ حبَّ المدحِ وكراهةَ الذمِّ من المهلكاتِ، فيجب أن يبادِرَ إلى العلاجِ.

وعلاجُ الأوّل: أن يلاحظَ أسبابَه، ويعلمَ أنّ شيئاً منها لا يصلُحُ حقيقةً لأن يكونَ سبباً له. أمّا استشعارُ الكمالِ بالمدحِ، فلأنّ المادحَ إن صدقَ فليكن الفرحُ من فضلِ اللهِ حيث أعطاهُ هٰذه الصفاتِ، وإن كذبَ فينبغي أن يغمَّه ذٰلكَ ولا يفرحُ بِهِ لأنّه استهزاءٌ به، مع أنّ الفرَح مطلقاً في صورةِ الصدقِ من السفاهةِ، إذ الوصفُ الذي مُدح به إن كان ممّا لا يستحقُّ الفرحَ به، كالثروةِ والجاهِ وغيرِهما من المطالبِ الدنيويّةِ، فالفرحُ به من قلّةِ العقلِ، لأنّها كمالاتٌ وهميّةٌ لا أصل لها. وإن كان ممّا يستحقّ الفرحَ به كالعِلم والورعِ، فالفرحُ إنّما هو لكونِه مقرّباً إلى اللهِ، وهذا فرعُ حسنِ الخاتمةِ وهو غيرُ معلومٍ. ففي الخوفِ من خطرِ الخاتمةِ شغلٌ شاغلٌ من الفرحِ بكلّ شيءٍ. وأمّا دلالةُ المدحِ على تسخيرِ قلبِ المادحِ وكونِه سبباً لتسخيرِ قلبِ من يسمعُه، فحبُّ ذلك يرجِعُ إلى حبِّ الجاهِ والمنزلةِ في القلوبِ، وقد سبق طريقُ معالجتِه. وأمّا دلالتُه على الحشمةِ، فإنّها ليست إلّا قدرةٌ عارضةٌ ناقصةٌ لا ثباتَ لها، والعاقلُ لا يفرحُ بمثلِها.

وأمّا علاجُ الثاني ـ أعني كراهةَ الذمِّ ـ فيُعلَمُ بالمقايسةِ على علاجِ حبِّ المدحِ. والقولُ الوجيزُ فيه: أنّ من يذمُّكَ إن كان صادقاً وقصدَه النصحُ والإرشادُ، فلا ينبغي أن تبغضَه وتغضبَ عليه، بل ينبغي أن تفرحَ وتجتهدَ في إزالةِ الصفةِ المذمومةِ عن نفسِك، وما أقبَحَ بالمؤمنِ أن يغضبَ على من يحسِنُ إليه ويريد هدايتَه! وإن كان قصدَه الإيذاءُ والتعنُّتُ، فلا ينبغي لك أيضاً أن تبغِضَه وتكرَه ذلك، لأنّه أرشدكَ إلى عيبِك إن كنتَ جاهلاً به، وذكَّرَك إيّاه إن كنتَ غافلاً عنه، وقَبَّحَهُ في عينِك إن كنت متذكِّراً له. وعلى التقاديرِ قد استفدتَ منه ماتنتفِعُ به، وينبغي لك أن تغتَنِمَه وتبادرَ إلى إزالةِ عيبك.

وإن كان كاذباً مفترياً عليك بما أنتَ منه بريءٌ، فينبغي لك أيضاً ألّا تكرَهَ ذلك ولا تشتَغِلَ بذمِّه، لأنّك وإن خلوتَ من ذلك العيبِ إلّا أنّك لاتخلُو من عيوبٍ أُخر مساويةٍ له وأفحشَ منها، فاشكرِ اللهَ تعالى على أنّه سترها ولم يُطْلِعْ أحداً عليها، ودفعها بذكرِ ما أنت منه بريءٌ، مع أنّه كفّارةٌ لبقيّةِ مساوئِكَ. ومن ذمَّك أهدَى إليك حسناتِه وجَنى على دينِه، حتّى سقط من عينِ الله وأهلكَ نفسَه بافترائِه عليك، فما بالُكَ تحزَنُ بحطِّ ذنوبِك وإهداءِ الحسناتِ إليك؟ ولِمَ تغضبُ عليه، مع أنّ اللهَ سبحانَه غضبَ عليه وأبعدَه من رحمتِه؟ فإنّ ذلك كافٍ لانتقامِك منه.

وصلٌ

ضدُّ حبِّ المدحِ: إمّا كراهة المدح وحبُّ الذمّ، أو مساواتهما

ضدُّ حبِّ المدحِ وكراهةِ الذمِّ: إمّا كراهةُ المدحِ وحبُّ الذمِّ، أو مساواتُهما عندَه بحيثُ لا تَسُرُّهُ المدحةُ ولا تغمُّهُ المذمَّةُ. وقد تقدّم بعضُ الأخبارِ الدالّةِ على ذمِّ من لم يَتَّصِف بالحالةِ الأُولى. وهي وإن كانت نادرةَ الوجودِ، إذ ما أقلَّ على بسيطِ الأرضِ ـ لا سيّما في هٰذهِ الأعصارِ ـ من تَستَوِي عنده المدحةُ والمذمّةُ، فضلاً عمّن يكرَهُ المدحَ ويُسَرُّ بالذمِّ، إلّا أن تحصيلَها ممكنٌ إذ كلُّ من عرفَ أنّ المدحَ مضرٌّ بدينِه وقاصمٌ لظهره، فلابدّ أن يكرهَهُ ويبغِضَ المادحَ لو كان عاقلاً مُشفقاً على نفسِه. وكذا من عرفَ أنّ الذامَّ له يُرشِدُه إلى عيوبِه ويُهدِي إليه بعضَ حسناتِه، لابدّ أن يحبَّهُ ويُسَرَّ بذمّه.

وأمّا الحالةُ الثانيةُ، فهي أُولى درجاتِ الكمالِ، ومن لم يتَّصِفْ بها فهو ناقصٌ. فالاتِّصافُ بها لازمٌ على كلِّ مؤمنٍ. وربّما ظنَّ بعضُ الناسِ اتّصافَه بها، مع كونِه فاقداً لها. فمن ظنّ ذلك من نفسِه، فلابدّ أن يمتحنَ نفسَه بعلاماتِها، حتّى يظهرَ له صدقُ ظنِّه وكذبُه. وعلاماتُه: ألّا يكونَ سعيُه ونشاطُه في قضاءِ حوائجِ المادحِ أكثرَ منها في قضاءِ حوائجِ الذامِّ، وألّا يتفاوتَ همُّه وحزنُه لأجلِ موتِهما وابتلائِهما بمصيبةٍ، وألّا تكونَ ذلّةُ المادحِ أخفَّ في قلبِه وعينِه من ذلّةِ الذامِّ، وألّا يكونَ جلوسُ الذامِّ عندَهُ أثقلَ ولا قيامُه أهونَ من جلوسِ المادحِ وقيامِه. وبالجملةِ: أن يستويا عندَه من كلِّ وجهٍ. فمن وجد من نفسِه استواءَهما في جميعِ الجهاتِ، فهو ممّن يتساوَى عندَه المدحُ والذمُّ.

النوع العشرون: الرياءُ

وهو طلبُ المنزلةِ في قلوبِ الناسِ بخصالِ الخيرِ أو مايدلُّ عليها من الآثارِ. فهو من أصنافِ الجاهِ، إذ هو طلبُ المنزلةِ في القلوبِ بأيِّ عمل اتَّفَقَ، والرياءُ طلبُ المنزلةِ بأدائه خصالَ الخيرِ أو مايدلُّ على الخيرِ. ثمّ خصالُ الخيرِ تَشمَلُ أعمالَ البِرِّ بأسرِها، وهي أعمُّ من العاداتِ إن خصّت العبادة بمثلِ الصلاةِ والصومِ والحجِّ والصدقةِ وأمثالِ ذلك، ومساوقةٌ لها إن أُريدَ بالعبادةِ كلُّ فعلٍ يُقصَدُ به التقرّبُ ويَترتَّبُ عليه الثوابُ. إذ على هذا كلُّ عملٍ من أعمالِ الخيرِ سواء كان من الواجباتِ أو المندوباتِ أو المباحاتِ في الأصلِ إذا قَصَد به القربةَ كان طاعةً وعبادةً، وإن لم يقصدْ به ذلك لم يكنْ عبادةً ولا عملَ خيرٍ، ولو كان مثلَ الصلاةِ. وربّما خُصَّ الرياءُ عادةً بطلبِ المنزلةِ في القلوبِ بالعبادةِ بالمعنى الأخصِّ.

والمرادُ بالآثار الدالّةِ على الخيريّةِ هي كلُّ فعلٍ ليس في ذاتِه بِرّاً وخيراً، وإنّما يستدلّ به على الخيريّةِ.

وهي إمّا متعلّقةٌ بالبدنِ، كإظهار النحولِ والصفارِ ليستدلَّ بهما على قلّةِ الأكلِ أو الصومِ وسهرِ الليلِ، ويوهِم بذلك شدّةَ الاجتهادِ وعِظَمَ الحزنِ على أمرِ الدينِ، وغلبةَ الخوفِ من اللهِ ومن أهوالِ الآخرةِ. وكخفضِ الصوتِ ليستدلَّ به على أنّ وقارَ الشرعِ قد خفضَ صوتَه... وقس عليها غيرَها من الأُمورِ المتعلّقةِ بالبدنِ، الدالّةِ على الخيريّةِ قصداً إلى تحصيلِ المنزلةِ في قلوبِ الناسِ، وكلُّ ذلك يضرُّ بالدينِ ويُنافي الورعَ واليقينَ.

أو متعلّقةٌ بالزيِّ والهيئةِ كحلقِ الشاربِ، وإطراقِ الرأسِ في المشيِ، والهدوءِ في الحركةِ، وأبقاءِ أثرِ السجودِ في الجبهةِ، ولبسِ الصوفِ أو الثوبِ الخشنِ أو الأبيضِ، وتعظيمِ العمامةِ ولبسِ الطيلسانِ والدرّاعةِ، وأمثالِ ذلك ممّا يدلُّ على العلمِ والتقوى أو الانخلاعِ عن الدنيا.

والمراؤون من أهلِ الدينِ بالزيِّ واللباسِ على طبقاتٍ: منهم من يَرى طلبَ المنزلةِ بالثيابِ الخشنةِ، ومنهم من يرى بالثيابِ الفاخرةِ، ومنهم من يرى بالوسخةِ، ومنهم من يراه بالنظيفةِ، وللناسِ فيما يعشَقُونَ مذاهِبُ.

وأمّا أهلُ الدنيا فلا ريبَ في أنّهم يراؤون في اللباسِ بلبسِ الثيابِ النفيسةِ وركوبِ المراكبِ الرفيعةِ وأمثالِ ذلك.

أو متعلّقةٌ بالقولِ والحركاتِ كإظهارِ الغضبِ والأسفِ على المنكراتِ ومقارفةِ الناسِ للمعاصي، ليستدلَّ بها على حمايتِه للدينِ وشدّةِ اهتمامِه على الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، مع أنّ قلبَه لم يكن متأثّراً عن ذلك. وكإرخاءِ الجفونِ وتنكيسِ الرأسِ عند الكلامِ وإظهارِ الهدوءِ والسكونِ في المشيِ، ليستدلَّ بذلك على وقارِه. وربّما أسرعَ المرائي في المشي إلى حاجةٍ، فإذا اطّلَع عليه واحدٌ رجع إلى الوقارِ خوفاً من أن يُنسَبَ إلى عدمِ الوقارِ، فإذا غاب الرجلُ عاد إلى عجلتِه.

أو مُتعلّقةٌ بغيرِ ذلك كمن يتكلّفُ أن يَكثُرَ الزائرونَ له والواردونَ عليه لاسيّما من العلماءِ والعبّادِ والأُمراءِ؛ لِيقالُ: إنّ أهلَ الدينِ والعظماءَ يتبرّكون بزيارتِه.

وهاهنا بحوث:

البحث الأوّل: ذمُّ الرياءِ

الرياءُ من الكبائرِ الموبقَةِ والمعاصي المهلِكةِ وقد تعاضَدَت الآياتُ والأخبارُ على ذمِّه، قال سبحانَه: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[1].

---

١. الماعون (١٠٧): ٤ ـ ٧.

وقال سبحانه: ﴿يُراؤُونَ النَّاسَ ولا يَذكُرُونَ اللهَ إلّا قليلاً﴾[١] وقال: ﴿كالّذي يُنفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ﴾[٢]. وقال رسولُ الله ﷺ:

«إنّ أخوَفَ ما أخافُ عليكم الشِركُ الأصغرُ» قالوا: وما الشركُ الأصغرُ؟ قال: «الرياءُ، يقول اللهُ عزّ وجلّ يومَ القيامةِ للمرائينَ إذا جازَى العبادَ بأعمالِهم: اذهَبوا إلى الذينَ كنتُم تُراؤون لهم في الدنيا فانظُروا هل تَجِدُونَ عندَهم الجزاءَ»[٣].

وقال ﷺ: «إنّ المرائيَ ينادَى عليهِ يومَ القيامةِ: يافاجرُ ياغادرُ يامرائي، ضلَّ عملُكَ وحَبِطَ أجرُكَ، اذهَب فخذْ أجرَكَ ممّن كنتَ تعمَلُ له»[٤]. وكان ﷺ يبكي، فقيل له: مايبكِيكَ؟ قال: «إنّي تخوّفتُ على أُمّتي الشِركَ، أما إنّهم لا يعبدونَ صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولكنّهم يُراؤونَ بأعمالِهم»[٥]. وقال ﷺ:

سيأتي على الناسِ زمانٌ تَخبُثُ فيهِ سرائِرُهم وتحسُنُ فيه علانِيَتُهم طمعاً في الدنيا، لا يريدونَ به ماعندَ ربِّهم، يكونُ دينُهم رياءً لا يخالِطُهم خوفٌ، يَعُمُّهم اللهُ بعقابٍ فيدعونَه دعاءَ الغريقِ فلا يَستجِيبُ لهم[٦].

وقال: «إنّ المَلَكَ لَيَصْعَدُ بعملِ العبدِ مبتَهِجاً به، فإذا صعد بحسناتِه يقول الله عزَّ وجلّ: اجعلُوها في سِجِّين، إنّه ليس إيّايَ أرادَ به»[٧]. وقال الباقرُ عليه السلام:

«الإبقاءُ على العملِ أشدُّ من العمل»، قيل: وما الإبقاءُ على العمل؟ قال: «يَصِلُ الرجلُ بصلةٍ ويُنفِقُ نفقةً لله وحدَه لا شريكَ له فتُكتَب له سرّاً، ثمّ يذكرُها فتُمحَى فتُكتَب له علانيةً، ثمّ يذكرُها فتُمحَى فتكتَبُ له رِياءً»[٨].

---

١. النساء (٤): ١٤٢.

٢. البقرة (٢): ٢٦٤.

٣. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٤٠.

٤. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٤١.

٥. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٤١.

٦. الكافي، ج٢، ص٢٩٦، باب الرياء، ح١٤.

٧. الكافي، ج٢، ص٢٩٤ ـ ٢٩٥، باب الرياء، ح٧.

٨. الكافي، ج٢، ص٢٩٦ ـ ٢٩٧، باب الرياء، ح١٦.

وقال الصادق عليه السلام: «قال الله تعالى: أنا خيرُ شريكٍ فمن عمل لي ولغيري فهو لمن عَمِلَ له غيري»[١].

وعن أبي عبدِ الله عليه السلام في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن كانَ يَرجُو لِقاءَ رَبّه فَليعْملْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشرِكْ بِعبادَةِ رَبّه أحَداً﴾[٢] قال:

الرجلُ يَعمَلُ شيئاً من الثوابِ لا يَطلُبُ به وجهَ اللهِ إنّما يطلبُ تزكيةَ الناسِ يشتهي أن يَسمَعَ به الناسُ، فهٰذا الذي أشركَ بعبادةِ رَبّه ـ ثمّ قال: ـ ما من عبدٍ أسرَّ خيراً فذهبت الأيّامُ أبداً حتّى يُظهِرَ اللهُ له خيراً، وما من عبدٍ يُسِرُّ شرّاً فذهبت الأيّامُ حتّى يُظهِرَ اللهُ له شرّاً[٣].

وكفى للرياءِ ذمّاً أنّه يُوجِب الاستحقارَ للهِ وجعلَه أهونَ من عبادِه الضعفاءِ الذين لا يَقدِرُون علىٰ نفعٍ ولا ضرٍّ، إذ من قصدَ بعبادةِ اللهِ عبداً من عبيدِه فلا ريبَ في أنَّ ذلك لأجلِ ظنِّه بأنّ هذا العبدَ أقدرُ على تحصيلِ أغراضِه من اللهِ، وأنّه أولى بالتقرُّبِ إليهِ منه تعالى. وأيُّ استحقارٍ بمالكِ الملوكِ أشدّ من ذلك.

البحث الثاني: أقسامُ الرياءِ

الرياءُ إمّا في العباداتِ أو في غيرِها والأوّل حرامٌ مطلقاً، وصاحبُه ممقوتٌ عندَ الله، وهو يُبطِل أصلَ العبادةِ؛ لأنّ الأعمالَ بالنيّاتِ والمرائي بالعبادةِ لم يقصد امتثالَ أمرِ اللهِ بل قصدَ إدراكَ مالٍ أو جاهٍ أو غرضٍ آخرَ من الأغراضِ، فلايكون ممتثلاً لأمرِ الله خارجاً عن عهدةِ التكليفِ. ثمّ مع بطلانِ عبادتِه وعدمِ خروجِه عن عهدةِ التكليفِ يكون له إثمٌ على حِدَةٍ لأجلِ الرياءِ، كما دلّت عليه الآياتُ والأخبارُ. فيكون أسوأَ حالاً ممّن تركَ العبادةَ رأساً. كيف لا والمرائي بالعبادةِ جَمَعَ بينَ الاستهزاءِ باللهِ والتلبيسِ والمكرِ؛ لأنّه خَيّلَ إلى الناسِ أنّه مطيعٌ للهِ من أهلِ الدين وليس كذٰلك.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٩٩، باب الرياء، ح ٣٢.
٢. الكهف (١٨): ١١٠.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤، باب الرياء، ح ٤.

وأمّا الرياءُ بغيرِ العباداتِ، فقد يكونُ مذموماً، وقد يكونُ مباحاً، وقد يكون مستحبّاً، وقد يكون واجباً. إذ يجبُ على المؤمِن صيانةُ عِرضِهِ وألّا يَفعَلَ مايُعابُ عليه. فلا يليقُ بذوي المروءاتِ أن يرتَكِبُوا الأُمورَ الخسيسةَ بأنفسِهم عند مشاهدةِ الناسِ وإن جاز لهم ذلك في الخلوةِ. ومن زيّنَ نفسَه باللباسِ أو غيرِه في أعينِ الناسِ حذراً من لومِهم واستثقالِهم أو استقذارِهم إيّاه كان ذلك مباحاً له، إذ الحذرُ من ألمِ الذمِّ غيرُ مذمومٍ، إلّا أنّ ذلك يختلفُ باختلافِ الأزمنةِ والبلادِ والأشخاصِ من العبادِ، فربّما كان بعضُ أقسامِ الرياءِ بغيرِ العباداتِ مذموماً بالنظرِ إلى وقتٍ أو شخصٍ أو بلدٍ غيرَ مذمومٍ بالنظرِ إلى آخرَ. روي:

أنّ رسولَ اللهِ ﷺ أراد يوماً أن يخرجَ على أصحابِه، فكان يَنظرُ في حبٍّ من الماءِ ويُسَوِّي عمامتَه وشعرَهُ، فقيل له: أ وتفعلُ ذٰلكَ يارسولَ الله؟ فقال: «نعم، إنّ اللهَ تعالى يحبُّ من العبدِ أن يَتزيّنَ لإخوانِه إذا خرج إليهم»[١].

وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «يَتزيّنُ أحدُكم لأخيهِ المسلمِ كما يَتزيّنُ للغريبِ الذي يُحِبُّ أن يراهُ في أحسنِ الهيئةِ»[٢]. وقال الصادق عليه السلام: «الثوبُ النقيُّ يكبِتُ العدوَّ»[٣]. ورُوي:

أنّه عليه السلام نظر إلى رجلٍ من أهلِ المدينةِ قد اشترى لعيالِه شيئاً وهو يحمِلُه، فلمّا رآه الرجلُ اسْتَحْيَى منه، فقال عليه السلام: «اشتريتَه لعيالِك وحملتَه إليهم، أمّا واللهِ لولا أهلُ المدينةِ لأحْبَبْتُ أن اشتريَ لعيالي الشيء ثمّ أحملَهُ إليهم»[٤].

أراد عليه السلام لولا مخافةُ أن يعيبُوه على ذلك لفَعَلَ مثلَ فعلِه، إلّا أنّه لمّا كان في زمان يُعابُ عليه بمثلِه لم يَجُزْ له أن يرتَكِبَه. ولمّا لم يكن ذلك ممّا يعابُ عليه في زمنِ أميرِ المؤمنين عليه السلام كان يرتكِبُه، وكان ذلك منقبةً له وتعليماً. فظهر أنّ ارتكابَ بعضِ الأُمورِ وعدمَ ارتكابِ بعضِ الأفعالِ قد يكون رياءً محبوباً وقد يكون رياءً مذموماً.

---

١. إحياء علوم الدين، ج ١، ص ١٣٧.

٢. الكافي، ج ٦، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠، باب التجمّل وإظهار النعمة، ح ١٠.

٣. الكافي، ج ٦، ص ٤٤١، باب اللباس، ح ١.

٤. الكافي، ج ٢، ص ١٢٣، باب التواضع، ح ١٠.

البحث الثالث: السرورُ بالاطّلاعِ على العبادةِ

من كان قصدُه إخفاءَ الطاعةِ والإخلاصَ لله، فإذا اتّفقَ اطّلاعُ الناسِ على طاعتِه فلا بأسَ بالسرورِ به، من حيثُ علمُه بأنّ اللهَ أطلَعَهم عليهِ وأظهَرَ الجميلَ من حالِه، فيستدلُّ به على حسنِ صنعِ اللهِ به من حيثُ إنّه سترَ الطاعةَ والمعصيةَ، واللهُ تعالى أبقى معصيتَه على السترِ وأظهرَ طاعَته، فيكونُ فرحُه بجميلِ نظرِ اللهِ وفضلِه له لا بمدحِ الناسِ وقيامِ المنزلةِ في قلوبِهم، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضلِ اللهِ وبِرحمتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفرَحُوا﴾[١]. وكأنّه ظهر له بظهورِ طاعتِه أنّه عندَ اللهِ مقبولٌ ففرِحَ به. أومن حيث استدلالُه بإظهارِ اللهِ الجميلَ وسترِه القبيحَ في الدنيا، أنّه كذٰلك يفعلُ به في الآخرة. قال رسول الله ﷺ: «ما سترَ اللهُ على عبدٍ في الدنيا إلّا سَترَ اللهُ عليهِ في الآخرةِ»[٢]. فالأوّل فرحٌ بالقبولِ في الحالِ من غيرِ ملاحظةِ المستقبلِ، وهذا التفاتٌ إلى المستقبلِ. أو من حيث ظنُّه برغبةِ المطّلعينِ في الاقتداءِ في الطاعةِ، فيتضاعفُ بذٰلك أجرُه، إذ يكون له أجرُ السرِّ بما قصدَه أوّلاً، وأجرُ العلانيةِ بما أظهَرَهُ آخراً، ومن اقتدى الناسُ بهِ في طاعةٍ فله أجرُ أعمالِ المقتدينَ به من غيرِ أن يَنقُصَ من أُجورِهم شَيءٌ. أو من حيث فرحُه بطاعةِ المطّلعينَ لله في مدحِهم وحبِّهم للمطيع، وميلِ قلوبِهم إلى الطاعةِ، إذ من الناسِ من يمقتُ أهلَ الطاعةِ ويحسدُهم أو يستهزئُ بهم وينسبهُم إلى الرياءِ، فهذا فرحٌ بحسنِ إيمانِ عبادِ اللهِ. وعلامةُ الإخلاصِ فيه: أن يكونَ سرورُه بمدحِهم غيرَه مثلَ سرورِه بمدحِهم إيّاه. ويدلُّ على عدمِ البأسِ بالسرورِ فيما ذكر ماروي:

أنّه سُئِلَ الباقرُ عليه السلام عن الرجلِ يَعمَلُ الشيءَ من الخيرِ فيراه إنسانٌ فَيَسُرُّهُ ذلك، قال: «لا بأسَ، مامن أحدٍ إلّا وهو يُحبُّ أن يُظهِرَ اللهُ له في الناسِ الخيرَ إذا لم يكن صَنَعَ ذلك لذٰلك»[٣].

ثمّ كما لا بأسَ بالسرورِ من ظهورِ الطاعاتِ للمقاصدِ المذكورةِ، فكذٰلك لا بأسَ بكتمانِ المعاصي واغتمامِه باطّلاعِ الناسِ عليها لأسبابٍ نذكرُها، بل الحقُّ رجحانُ الكتمانِ ومزيّتُه بعدَ

---

١. يونس (١٠): ٥٨.

٢. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٨٥.

٣. الكافي، ج٢، ص٢٩٧، باب الرياء، ح١٨.

ارتكابِها، إذ كلُّ إنسانٍ ـ إلّا من عصمَه اللهُ ـ لا يخلُو من ذنوبٍ باطنةٍ، لا سيّما ما يَختلِجُ ببالِه من الأماني الباطلةِ والأُمورِ الشهويّةِ، واللهُ مطّلعٌ عليها وهي مخفيّةٌ عن الناسِ، والسعيُ في إخفائِها وكراهةُ ظهورِها جائزٌ بل راجحٌ، بشرطِ ألّا يكونَ باعثُ إخفائِها قصدَ أن يَعتقِدُوا فيه الورعَ والصلاحَ، بل كان الباعثُ:

١. إمّا كونُ السترِ مأموراً به.

٢. أو كونُ الهتكِ وإظهارِ المعاصي منهيّاً عنه. قال رسولُ الله ﷺ: «من ارتكبَ شيئاً من هذه القاذوراتِ فَلْيَسْتُرْهُ بسترِ اللهِ تعالى»[١]. ويُعرَفُ صدقُ ذلك بكراهةِ ظهورِها عن غيرِه.

٣. أو كونُ ظهورِ المعاصي موجباً لذمِّ الناسِ، والذمُّ يُؤلِمُ القلبَ ويَشغَلُهُ عن طاعةِ اللهِ، ويَصُدُّه عن الاشتغالِ بتحصيلِ ماخُلِقَ لأجلِه. ولكونِ التألُّمِ بالذمِّ جِبلّيّاً غيرَ ممكنِ الدفعِ بسهولةٍ يكون إخفاءُ ماظهورُه يُؤدّي إلى حدوثه جائزاً. نعم، كمالُ الصدقِ استواءُ المدحِ والذمِّ، إلّا أنّ ذلك قليلٌ جداً، وأكثرُ الطباعِ تتألّمُ بالذمِّ، لما فيهِ من الشعورِ بالنقصانِ. وربّما كان التألُّمُ بالذمِّ ممدوحاً إذا كان الذامُّ من أهلِ البصيرةِ في الدين، فإنّ ذمَّهُ يدُلُّ على وجودِ نُقصانٍ فيه، فينبغي أن يتألَّمَ منه ويَتَشمَّرَ لدفعِه.

٤. أو كونُ الناسِ شُهداءَهُ يومَ القيامةِ ـ كما ورد ـ فيجوزُ الاخفاءُ لئلّا يشهدوا عليهِ يومَ القيامةِ.

٥. أو خوفُ أن يُقصَدَ بشرٍّ أو سوءٍ إذا عُرِف ذنبُه.

٦. أو خوفُ صيرورةِ الذامِّ عاصياً بذمِّه، وهذا من كمالِ الإيمانِ، ويُعرَفُ بتسويةِ ذمِّه وذمِّ غيرِه.

٧. أو خوفُ سقوطِ وقعِ المعاصي من نفسِه، أو اقتداءِ الغيرِ بهِ فيها، وهٰذه العلّة هي المبيحةُ لإظهارِ الطاعةِ، ويختصّ ذلك بمن يُقتدَى به من الأئمّةِ وأمثالِهِم. وهٰذه العلّة ينبغي أن يُخفِيَ العاصي معصيتَه عن أهلِه وولدِه أيضاً، لئلّا يَقتدُوا به فيها.

٨. أو حبُّه محبّةَ الناسِ له لا للتوسُّلِ بها إلى الأغراضِ الدنيويّةِ، بل ليستَدِلَّ بها على محبّةِ

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ١٨٥ ـ ١٨٦؛ بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥٤، باب الكذب، ذيل الحديث ٢٠.

اللهِ تعالى له، لأنّ من أحبَّه الله تعالى جَعَلَه محبوباً في قلوبِ الناسِ.

٩. أو مجرّدُ الحياءِ من ظهورِ قبائحِه، وهو غيرُ خوفِ الذمِّ والقصدِ بالشرِّ؛ إذ هو من فضائلِ الأخلاقِ ومن كريمِ الطبعِ، قال رسولُ الله ﷺ: «الحياءُ خيرٌ كلُّه»[١]. وقال الصادق عليه السلام: «الحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ»[٢]. وقال ﷺ: «الحياءُ لا يأتي إلّا بالخيرِ»[٣]. وقال: «إنّ اللهَ تعالى يحبُّ الحَيِيَّ الحليمَ»[٤]. ومن صدرَ عنه فسقٌ ولم يبالِ بظهورِه للناسِ، فقد جمع إلى الفسقِ الهتكَ وعدمَ الحياءِ ـ أعني الوقاحةَ ـ فهو أسوأُ حالاً ممّن يفسُقُ ويَستَحْيِي فيسترُه.

البحث الرابع: متعلّقاتُ الرياءِ

الرياءُ إمّا بأصلِ الإيمانِ، وهو إظهارُ الشهادتين مع التكذيبِ باطناً، وهذا هو كفرُ النفاقِ، وقد كان في صدرِ الإسلامِ كثيراً، وقلّ ما يوجدُ في أمثالِ زمانِنا، وإن كَثُرَ فيه إنكارُ بعضِ ضروريّاتِ الدينِ، كالجنّةِ والنارِ والثوابِ والعقابِ واعتقادِ طيِّ بساطِ أحكامِ الشرعِ باطناً، ميلاً إلى قولِ الملاحدةِ وأهلِ الإباحةِ، مع إظهارِ الخلافِ ظاهراً، وهذا أيضاً معدودٌ من كفرِ النفاقِ، وصاحبهُ ينسَلُّ عن الدينِ مخلَّدٌ بالنارِ. وصاحبُ كفرِ النفاقِ مطلقاً أسوأُ حالاً من الكافرِ المحاربِ، لأنّه جمع بينَ الكفرِ الباطنِ والنفاقِ الظاهرِ.

أو بأُصولِ العباداتِ مع التصديقِ بأصلِ الدينِ، كأن يصلّيَ في الملأ دونَ الخلوةِ، ويصومَ مع اطّلاعِ الناسِ عليه ويفطِرَ بدونِه، ومثلُه وإن لم ينسَلَّ من أصلِ الدينِ، إلّا أنّه شرُّ المسلمينِ، لترجيحِه الخلقَ على الخالقِ، وكونِ التقرُّبِ إليهم أحبَّ من التقرُّبِ لديهِ، وكونِ خوفِه من ذمِّهم أشدَّ من خوفِه من عقابِه سبحانَه.

أو بالنوافلِ والسننِ، وهذا أيضاً مذمومٌ مهلِكٌ، ولكنّه دونَ ما قبلَه، لأنّ صاحبَه وإن قَدَّم مدحَ الخلقِ على مدحِ الخالقِ، إلّا أنّه لم يقدِّمْ خوفَ ذمِّهم على خوفِ عقابِه، لعدمِ ترتُّبِ عقابٍ

---

١. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٨٧؛ بحار الأنوار، ج٧١، ص٣٣٥، باب الحياء، ح١٥.

٢. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٨٧.

٣. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٨٧.

٤. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٨٧.

على تركِ النافلةِ.

أو بأوصافِ العبادةِ الواجبةِ أو المستحبّةِ، كفعلِ ما في تركهِ نقصانٌ أو كراهة، أو تركِ ما في فعلِه أحدُهما، أو بزياداتٍ خارجةٍ عن نفسِ النوافلِ، كحضورِه الجماعةَ قبلَ القومِ وقصدِه الصفَّ الأوّل، وأمثالِ ذلك. وكلُّ ذلك مذمومٌ، إلّا أنَّ بعضَه أشدُّ من بعضٍ.

البحث الخامس: بواعثُ الرياءِ

باعثُ الرياءِ إمّا التمكُّنُ من المعصيةِ، كإظهارِ الورعِ والتقوى لِتُفَوَّضَ إليه الحكومةُ والقضاءُ، لينالَ الجاهَ والاستيلاءَ، ويَحكُمَ بالجورِ، ويأخُذَ الرُّشا؛ أو تُسَلَّمَ إليه الودائعُ والصدقاتُ وأموالُ اليتامى وأمثالُ ذلك، فيأخذُ لنفسِه منها مايَقدِرُ عليه. وكحضورِه مجالسَ العلمِ والوعظِ والتعزيةِ لملاحظةِ النسوانِ والصبيانِ، وهذا أشدُّ درجاتِ الرياءِ إثماً.

ويَقرُب منه إظهارُ الديانةِ والتقوى ليدفعَ عن نفسِه تهمةَ مااقترفَهُ من الجرائمِ، أو نيل حظٍّ مباحٍ من حظوظِ الدنيا، كالاشتغالِ بالوعظِ والتذكيرِ والإمامةِ والتدريسِ وإظهارِ الصلاحِ والورعِ، لتستبْذَلَ له الأموالُ وتَرغَبَ في تزويجِه النسوانُ، أو خوف أن يُنظَرَ إليه بعينِ النقصِ والحقارةِ، أو يُنسَبَ إلى الكسالةِ البطالةِ، كتركِ العجلةِ والضحكِ بعد اطّلاعِ الناسِ عليه، خوفاً من أن يُعرَفَ باللهوِ والهزلِ ويُستَحقَرَ، وكالقيامِ للتهجُّدِ وأداءِ النوافلِ إذا وقعَ بينَ المتهجّدينَ والمتنفِّلينَ لئلّا يُنسَبَ إلى الكسالةِ، ولو خَلا بنفسِه لم يَتَنَفَّلْ مطلقاً. وكذا الامتناعُ من الأكلِ والشربِ في اليومِ الذي يُصامُ فيه تطوّعاً، وتصريحُه بأنّي صائمٌ، خوفاً من أن يُنسَبَ إلى البطالةِ، وربّما لم يُصَرِّحْ بكونه صائماً، بل يقول: لي عذرٌ، وحينئذٍ قد جمع بين رياءين: الرياءِ بكونه صائماً، والرياءِ بكونه مخلصاً غيرَ مراءٍ. ثمّ إن ألجأَتْهُ الكسالةُ والشهوةُ إلى عدمِ القيامِ إلى النوافلِ وعدمِ الصبرِ عن الأكلِ والشربِ، ذكر لنفسِه عذراً، تصريحاً أو تعريضاً، كأن يعلّلَ التركَ بمرضٍ أو ضعفٍ أو شدّةِ العطشِ أو تطييبِ خاطرِ فلان، وقس عليها غيرَها من الكلماتِ والأعذارِ، فانّها لا تَسبِقُ إلى اللسانِ إلّا لرسوخ عرقِ الرياءِ في النفسِ. والمُخلِصُ لايريدُ غيرَ اللهِ والتقرُّبَ إليهِ، ولا يعتَنِي بالخلقِ وحصولِ المنزلةِ في قلوبِهم، فإن لم يَصُمْ

لم يُحِبَّ أن يعتقدَ غيرُه فيه ما يخالِفُ علم اللهِ ليكون مُلَبِّساً، وإن صامَ قَنِع بعلمِ اللهِ ولم يشرِكْ فيه غيرَه. ثمّ هٰذه البواعثُ لمّا كان بعضُها صادراً من رداءةِ قوّةِ الغضبِ، وبعضُها من رداءةِ قوّةِ الشهوةِ، فيكونُ بعضُ أنواعِ الرياءِ من رذائلِ الأُولى وبعضُها من رذائلِ الثانيةِ.

تنبيه: الرياءُ جليٌّ وخفيٌّ. والجليُّ: ما لا يبعثُ على العملِ لولا قصدُ الثوابِ. والخفيُّ: مالا يبعثُه بمجرّدِه إلّا أنّه يخفِّفُ العملَ الذي أُريدَ به التقرُّبُ في الخلوةِ، ويُعرَفُ بالسرورِ إذا اطّلعَ عليه الناسُ، لا للمقاصدِ المتقدّمةِ بل لطلبِ نوعِ منزلةٍ في قلوبِ الناسِ، ويتوقّعُ التعظيمَ والتوقيرَ وقضاءَ الحوائجِ منهم ووجدانَ الاستبعادِ من نفسِه لو قُصِّرَ في احترامِه، كأنّ نفسَه تتقاضَى الإكرامَ والاحترامَ على الطاعةِ التي أخفاها مع أنّه لم يطّلِعْ عليه أحدٌ. ولا شكّ أنّ هذا التقاضي لاينفكُّ عن شَوبِ خفيٍّ من الرياءِ أخفى من دبيبِ النملِ، ولو كان عندَه وجودُ الطاعةِ كعدمِها في كلِّ مايتعلّق بالخلقِ وقَنِعَ بعلمِ اللهِ فيها لم يكن لهٰذا التوقُّعِ وجهٌ. فعلامةُ خُلوصِ العملِ من الرياءِ ألّا يجدَ تفرقةً بينَ أن يطّلِعَ على عبادتِه إنسانٌ أو بهيمةٌ، ومهما وجدَ تفرقَةً في ذلك فلا يكونُ مُنفكّاً عن توقُّعِ ما عند الناسِ في طاعتِه، وذلك ممّا يُحبِطُ العملَ.

البحث السادس: كيف يُفسِدُ الرياءُ العملَ

لو عقد العملَ على الإخلاصِ واستمرَّ إلى الفراغِ لم يُحبِطْهُ السرورُ بظهورِه بعدَه لا من قبلِه، كما دلّ عليه بعضُ الظواهرِ السالفةِ، ولا يَعصِي بِهِ أيضاً إن كان لأجلِ أحدِ المقاصدِ السالفةِ. ويُكتَبُ له معصيةً إن كان لظنِّه حصول منزلةٍ له في القلوبِ. ولو كان ظهورُه بعدَه من نفسِه بالتحدُّثِ مع الرغبةِ والسرورِ بذٰلك، فربّما قيل بإحباطِه العملَ، إذ حبُّ التحدُّثِ به يدلُّ على أنّ قلبَه عندَ العبادةِ لَمْ يَخْلُ عن عقدٍ خفيٍّ من الرياءِ.

ولو عَقَدَ العملَ على الإخلاصِ، وورد في أثنائِه واردُ السرورِ باطّلاعِ بعضِ الناسِ عليه، فإن لم يكن باعثاً على العملِ ومُؤَثّراً فيه بحيثُ لو لم يحدُثْ لأتمَّ العملَ على الإخلاصِ من غيرِ فُتورٍ، وكان أيضاً لأحدِ المقاصدِ الصحيحةِ المتقدّمةِ، فلا بَطلانَ ولا إثمَ، لما تقدّم من الأخبارِ. وإن لم يكن باعثاً ولٰكن لم يكن لشيءٍ من المقاصدِ المذكورةِ، بل كان لظنِّه نيلَ الجاهِ أو المالِ

بالظهورِ. فالحقُّ بطلانُ العملِ وكونُه آثماً للعموماتِ السالفةِ. وإن كان باعثاً ومؤثّراً فهو الرياءُ المحرّمُ، سواء كان غالباً على قصدِ التقرُّبِ أو مساوياً له أو مغلوباً عنه، فيحبط العملُ وعليه الإعادةُ لو كان فريضةً، لما تقدّم من العموماتِ، ولقولِه ﷺ: «العملُ كالوعاءِ، إذا طابَ آخرُه طابَ أوّلُه»[1]. ثمّ هذا في العمل المركّب الذي له أجزاء، وتتوقّفُ صحّتُه على صحّةِ كلٍّ واحدٍ منها، كالصومِ والصلاةِ والحجِّ.

وأمّا العملُ الذي كلُّ جزءٍ منه منفردٌ، كالصدقةِ والقراءةِ، فما يطرأ من الرياءِ في أثنائِه إنّما يفسدُ الباقيَ دونَ الماضي، فطروؤُه فيه في الأثناءِ بالنسبةِ إلى الماضي كطروئِه بعدَ الفراغِ في الأوّلِ. وهذا حكمُ الرياءِ الطارئ بعدَ عقدِ الطاعةِ على الإخلاصِ أو قبلَه، سواءٌ لم يرجِع عنه حتّى يتمَّها، أو ندمَ بعدَه في الأثناءِ أيضاً ورجع واستغفرَ.

البحث السابع: شوائبُ الرياءِ مبطلةٌ للعمل

لمّا كان المناطُ في الأعمالِ ـ صحّةً وفساداً ـ هو القصدُ والنيّةُ؛ إذ الأعمالُ بالنيّاتِ، ولكلِّ امرئٍ ما نوى[2]، فكلُّ عملٍ تدخلُه شوائبُ الرياءِ فهو فاسدٌ، سواء وقع سرّاً أو علانيةً، وكلُّ عملٍ كان خالصاً للهِ وأمِنَ صاحبُه من دخولِ الرياءِ فيه فلا بأسَ بإسرارِه ولا بإظهارِه. ثمّ لو تعلّق قصدٌ صحيحٌ بإظهارِ نفسِ العملِ أو التحدُّثِ به بعدَ الفراغِ منه، كترغيبِ الناسِ في الخيرِ وتنبيهِهم على الاقتداءِ به فيه، كان إظهارُه أفضلَ من إسرارِه بشرطِ عدم اشتمالِه على رياءٍ أو فسادٍ آخرَ، كإهانةِ الفقيرِ في التصدُّقِ. ولو اشتملَ على شيءٍ من ذلك، كان إسرارُه أفضلَ من إعلانِه، وبذلك يُجمَعُ بين الأقوالِ والأخبارِ.

والحاصلُ: أنّه متى انفكّ القلبُ عن شوائبِ الرياءِ، بحيث يتمُّ الإخلاصُ على وجهٍ واحدٍ في الحالتين، فما فيه القدوةُ وهو العلانيةُ أفضلُ. ومهما حصلت فيه شوائبُ الرياءِ لم ينفعْهُ اقتداءُ غيرِه، لكونِه مهلكاً له، فالسرُّ أفضلُ منه. فعلى من يُظهِرُ العملَ أن يعلمَ أو يظنَّ أنّه يُقتدَى به،

---

١. المحجّة البيضاء، ج٦، ص١٦٧.

٢. تهذيب الأحكام، ج٤، ص١٨٦، ح٥١٩؛ منية المريد، ص ١٣٣.

وأن يراقبَ قلبَه لئلّا يكونَ فيه حبُّ الرياءِ الخفيِّ، فربّما أظهر العملَ لعذرِ الاقتداءِ وكان في نفسِه قصدُ التجمُّلِ بالعملِ وكونِه مقتدىً به، وهذا حالُ كلِّ من يُظهِرُ العملَ إلّا من أيّده الله بقوّةِ النفسِ وخُلوصِ النيّة، فلا ينبغي لضعيفِ النفسِ أن يخدعَ نفسَه فيُضِلُّ ويَضِلُّ ويُهلِكُ ويَهلِكُ من حيث لا يَشعُرُ. فإنّ الضعيفَ مثالُه مثالُ الغريقِ الذي يعلمُ سباحةً ضعيفةً، فينظر إلى جماعةٍ من الغرقى فيرحمهم، وأقبلَ عليهم ليُنَجِّيهم، فَتَشَبَّثُوا به، وهلكَ وهلكوا. وهذه المواضعُ مزالُّ أقدامِ العلماءِ والعبّادِ، فإنّهم يتشبَّهون بالأقوياءِ في الإظهارِ ولا تقوى قلوبُهم على الإخلاصِ، فتَحبَطُ أجورُهم بالرياءِ. ودركُ ذلك غامضٌ جدّاً لا يبلُغُه إلّا الخائضون في غمراتِ علمِ الأخلاقِ. ويُعرَف الخلوصُ في ذلك بألّا يتفاوتَ حالُه باقتداءِ الناسِ به وبغيرِه من أقرانِه وأمثالِه، فإن كان قلبُه أميلَ إلى أن يكونَ هو المقتدَى به، فإظهارُ العملَ غيرُ خالٍ عن شوائبِ الرياءِ.

إيقاظ: لمّا عرفتَ أنّ المناطَ في صحّةِ الأعمالِ وفسادِها هو القصدُ والنيّةُ، فاعلَمْ أنّ كلَّ عملٍ لم يكن خالصاً لوجهِ اللهِ وأُريدَ به غيرُه سبحانَه ينبغي أن يُترَكَ ويُعرَضَ عنه، وإن كان خالصاً له تعالى مقصوداً على قصدٍ صحيحٍ، لاينبغي تَركُه لمجرّدِ بعضِ الوساوسِ والخواطرِ الشيطانيّةِ. فإنّ الشيطانَ يدعو أوّلاً إلى تركِ العملِ فإن لم يُجَبْ يدعُو إلى الرياءِ، فإذا أيِس منه يقول: هذا العملُ ليس خالصاً، بل هو رياءٌ، فأيُّ فائدةٍ منه؟!

ثمّ الأعمالُ إمّا من الطاعاتِ اللازمةِ التي لا تعلُّقَ لها بالغيرِ، كالصلاةِ والصومِ والحجِّ وأمثالِها. أو من الطاعاتِ المتعدّيةِ التي لها تعلُّقٌ بالخلقِ، كالإمامةِ والقضاءِ والحكومةِ والإفتاءِ والوعظِ والتذكيرِ والتعليمِ والتدريسِ وإنفاقِ المالِ وغيرِ ذلك.

وأمّا القسم الثاني: المتعلّق بالخلقِ ـ أعني إمامةَ الصلاةِ والقضاءَ والتدريسَ والإفتاءَ والوعظَ والإرشادَ وأمثالَ ذلك ـ فأخطارُها عظيمةٌ، ومثوبتُها جسيمةٌ. فمن له أهليّة ذلك من حيث العلم ـ إن كان ذا نفسٍ قويّةٍ لاتعتني بالناسِ ولا تُزعِجُها وساوِسُ الخنّاسِ، وله معرفةٌ تامّةٌ بعظمةِ ربِّه وقدرتِه وسائرِ صفاتِه الكماليّةِ، بحيث شَغَلَه ذلك عن الالتفاتِ إلى الخلقِ وما في أيديهم حتّى يُرائِيَ لأجلِهم أو يختارَ رضاهم على رضى ربِّه ـ فالأولى لمثلِه ألّا يَترُكَ هذه

المناصِبَ ليفوزَ بمثوبتِها العظيمةِ. وإن كان ذا نفسٍ ضعيفةٍ، كخيطٍ مرسَلٍ في الهواءِ تُفيئُها الريحُ مرّةً هٰكذا ومرّةً هٰكذا، فهو لا يأمَنُ الرياءَ وسائِرَ أخطارِها. فاللازِمُ لمثلِه تركُها. ولذٰلك كان أهلُ اليقينِ من السلفِ يَتدافعونَ هٰذه المناصبَ ما وجدوا إليه سبيلاً. وورد َماوردَ من الأخبارِ في عظمِ خطرِها وكثرةِ آفاتِها ولزومِ التثبُّتِ والاحتياطِ لمن يُزاوِلُها، وما وردَ من الوعيدِ الشديدِ في حقِّ علماءِ السوءِ، يكفي للزومِ الحذرِ عن فتنِ العلمِ وغوائلِه.

تنبيه: لمّا عرفتَ حقيقةَ الرياءِ، تَعلَم أنّه إذا صار عَملُ بعضِ الصالحين أو قولُهم محرّكاً لغيرِهم على الاشتغالِ بالطاعةِ لم تكن هٰذه الطاعةُ رياءً إذا عُقِدت على الخلوصِ، وإن لم يكن هذا الغيرُ ليفعلَ هٰذه الطاعةَ إذا لم يشاهِدْها من بعض الصالحين أو لم يسمَعْها منه. فمن لم تكن عادتُه التهجُّدَ وبات مع قوم متهجّدين في موضعٍ، فإذا قاموا للتهجُّدِ انبعَثَ نشاطُه للموافقةِ ووافَقَهم في التهجُّدِ، ولم يكن ذلك رياءً بعد أن يكونَ قصدُه منه الثوابَ والتقرُّبَ إلى اللهِ، إذ كلُّ مؤمنٍ راغبٌ في عبادةِ اللهِ وفي قيامِ الليلِ، ولٰكن قد تعوقُه العوائقُ وتمنعُه الغفلةُ. فإذا شاهد قوماً يتهجّدون ربّما صارَت مشاهدةُ طاعتِهم سبباً لزوالِ غفلتِه، كما يصيرُ قولُهم ووعظُهم سبباً لذٰلك، فيتحرّك باعثُ الدينِ دونَ الرياءِ ويدعوه إلى موافقتِهم. وربّما كان الموضعُ ممّا ليس فيه عائِقٌ، فيغتَنِمُ الفرصةَ ويبعثُه مافيه من الإيمانِ إلى الطاعةِ. وقس على التهجُّدِ غيرَه: من الصومِ، والتصدُّقِ، والقراءةِ، والذكرِ، وغيرِها من أعمالِ البِرِّ.

البحث الثامن: علاجُ الرياءِ

لمّا كانت الأسبابُ الباعثةُ على الرياءِ هي حبّ لذّةِ المدحِ والفرار من ألمِ الذمِّ والطمع بما في أيدي الناسِ، فالطريقُ في علاجِه أن يقطَعَ هٰذه الأسبابَ. وقد تقدَّمَ طريقُ العلاجِ في قطعِ الأوَّلَين، ويأتي طريقُ إزالةِ الثالثِ. وما نذكُرُه هنا من العلاجِ العلميِّ للرياءِ، هو أن يعلَمَ أنّ الشيءَ إنّما يُرغَبُ فيه لكونِه نافعاً، وإذا علم أنّه ضارٌّ يعرِضُ عنه ألبتّةَ. وحينئذٍ فينبغي لكلِّ مؤمنٍ أن يتذكّر مضرَّةَ الرياءِ وما يفوتُه من صلاحِ قلبِه وما يُحرَمُ منه في الحالِ من التوفيقِ وفي الآخرةِ من المنزلةِ عندَ اللهِ، وما يتعرَّضُ له من المقتِ والعذابِ. ومتى تذكَّر ذلك وقابَل

مايَحصُلُ له في الدنيا من الناسِ الذين راءَى لأجلِهم بما يفوتُه في الآخرةِ من ثوابِ الأعمالِ، تركَ الرياءَ لامحالةَ. مع أنّ العملَ الواحدَ ربّما تترجّحُ به كفّةُ حسناتِه لوخلُص، فإذا فسد بالرياءِ حُوِّل إلى كفّةِ السيّئاتِ، فتترجّحُ به ويَهوي إلى النارِ. هذا مع أنّ المرائِيَ في الدنيا مُتَشَتِّتُ الهمِّ مُتَفرِّقُ البالِ بسببِ ملاحظةِ قلوبِ الناسِ، فإنّ رضاهم غايةٌ لاتُدرَكُ، وكلُّ ما يرضى به فريقٌ يسخطُ به فريقٌ، ومن طلب رضاهم في سخطِ الله سَخِطَ الله عليه وأسخطَهم أيضاً. ثمّ أيُّ غرضٍ له في مدحِهم وإيثارِ ذمِّ اللهِ لأجلِ مدحِهم، ولايزيدُه مدحُهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعُه يومَ فقرِه وفاقتِه وهو يومُ القيامةِ؟!

ومن كان رياؤُه لأجلِ الطمعِ بما في أيدي الناسِ، ينبغي أن يعلَمَ أنّ الله هو المسخِّرُ للقلوبِ بالمنعِ والإعطاءِ، وأنَّ الخلقَ مُضْطَرُّون فيه، ولا رازِقَ إلّا اللهُ، ومن طَمِعَ في الخلقِ لم يَخْلُ عن الذلِّ والخِسَّةِ، وإن وصل إلى المرادِ لم يَخلُ عن المنّةِ والمهانةِ. وإذا قَرَّرَ ذلك في نفسِه ولم يكن منكِراً لأمسِه زالت غفلتُه، وفَتَرَتْ عن الرياءِ رغبتُه، وأقبلَ على اللهِ بقلبِه، وانقطَعَ بشراشرِه إلى جنابِ ربِّه. ويكفيه أن يعلمَ أنّ الناسَ لو عَلِمُوا مافي باطنِه من قصدِ الرياءِ وإظهارِ الإخلاصِ لَمَقَتُوهُ، وسيكشِفُ الله عن سرِّهِ حتّى يُبَغِّضَهُ إليهم، ولو أخلصَ للهِ لكشفَ اللهُ لهم إخلاصَه وحبَّبَهُ إليهم وسَخَّرَهم له، وأطلقَ ألسِنَتَهم بمدحِه وثنائِه، مع أنّه لا يحصُلُ له كمالٌ بمدحِهم ولا نُقصانٌ بذمِّهم.

وأمّا العلاجُ العمليُّ، فهو أن يُعَوِّدَ نفسَه إخفاءَ العباداتِ وإغلاقَ الأبوابِ دونَها، كما تُغلَقُ الأبوابُ دونَ الفواحشِ، حتّى يقنَعَ قلبُه بعلمِ اللهِ واطّلاعِه على عبادتِه، ولا تُنازِعه النفسُ إلى طلبِ علمِ غيرِ اللهِ به. وذلك وإن شقَّ في بدايةِ المجاهدةِ، لٰكن إذا صَبَرَ عليه مدّةً بالتكلُّفِ سقط عنه ثقلُه وهان عليه بتواصلِ ألطافِ الله وما يمدُّ به عبادَهُ من حسنِ التوفيقِ والتأييدِ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مابِقَومٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأنفُسِهِم﴾[1]. فمن العبدِ المجاهدةُ ومن اللهِ الهدايةُ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المُحسنينَ﴾[2].

---

١. الرعد (١٣): ١١.
٢. التوبة (٩): ١٢٠.

تتميم: القالعُ مغارسَ الرياءِ من قلبِه بقطعِ الطمعِ واستحقارِ مدحِ الناسِ وذمِّهم ربّما لا يتركُه الشيطانُ، لاسيّما في أثناءِ العبادةِ، فعارضَه بخطراتِ الرياءِ ونزعاتِه، حتّى أحدَثَ في قلبِه ميلاً خفيّاً إلى الرياءِ وحبّاً له. والحقُّ أنّ ذلك ليس من الرياءِ المحرَّمِ، ولا تفسُدُ به العبادةُ، مع كونِه كارهاً لهٰذا الميلِ والحبِّ. فوسوسةُ الشيطانِ وميلُ النفسِ لا يضرّانِ مع ردِّهما بالكراهةِ والإباءِ، إذ الوساوِسُ والخواطرُ والتذكُّراتُ والتخيُّلاتُ المهيِّجةُ للرياءِ من الشيطانِ، والميلُ والرغبةُ بعدَ تلك الخواطرِ من النفسِ، والإباءُ والكراهةُ من الإيمانِ ومن آثارِ العقلِ، فلا يضرُّ ما من النفسِ والشيطانِ إذا قوبل بما من العقلِ والإيمان.

ثمّ الطرقُ المتصوَّرَةُ في دفعِ خطراتِ الرياءِ في أثناءِ العبادةِ مع كراهتِها أربعٌ:

الأُولى: أن يشتغلَ بمجادلةِ الشيطانِ في ردِّ نَزَعاتِه، ويُطِيلَ معه الجِدالَ.

الثانية: أن يقتَصِرَ على تكذيبِ الشيطانِ ودفعِه من غيرِ اشتغالٍ بمجادلتِه.

الثالثة: ألّا يشتغلَ بتكذيبِه أيضاً، بل يكتفي بما قَرَّر في عقدِ ضميرِه من كراهةِ الرياءِ وكذبِ الشيطانِ، فيستمرُّ على ما كان عليه مستصحِباً له غيرَ مشتغلٍ بالمخاصمةِ والتكذيبِ.

الرابعة: أن يزيدَ فيما هو فيه من الإخلاصِ والاشتغالِ باللهِ، أو ما يؤدّي إليهما، كإخفاءِ العبادةِ والصدقةِ غيظاً للشيطانِ، لأنّ ذلك يغيظُ الشيطانَ ويُوجِبُ يأسَه، ومهما عَرَفَ من العبدِ هٰذه العادةَ كفَّ عنه خوفاً من أن يزيدَ في حسناتِه.

ولا ريبَ في أنّ الاشتغالَ بالمجادلةِ والتكذيبِ وإطالتَهما يمنعُ الحضورَ ويصُدُّ عن التوجُّهِ إلى اللهِ، وهو نقصانٌ لأهلِ السلوكِ. فالصوابُ لكلِّ مؤمنٍ أن يقرِّرَ دائماً في عقدِ ضميرِه كراهيةَ الرياءِ وتكذِيبَ الشيطانِ، ويَعزِمَ أبداً على أنّه إذا تهجَّم عليه الشيطانُ وعارضَه بنزغاتِ الرياءِ زاد ما هو فيه ممّا يغيظُ الشيطانَ ويوجِبُ يأسَه. فإذا حَدَثَت خطراتُ الشيطانِ في الأثناءِ، اكتفى ممّا عقدَ عليه أوّلاً مستصحِباً له، وزاد في الإخلاصِ وما يؤدّي إليه، فإنّ ذلك يُوجِبُ قُنوطَ الشيطانِ. وإذا عرفَ الشيطانُ العبدَ بهٰذه الصفةِ لا يَتَعَرَّضُ له لئلّا يزيدَ فيما يَغِيظُه. وينبغي لكلِّ مؤمنٍ أن يكونَ هذا ديدنُه في جميعِ الصفاتِ والملكاتِ، مثلاً إذا حصل اليقينُ والعقيدةُ الجازمةُ بالمبدأ وصفاتِه الكماليّةِ، وقرّر ذلك في نفسِه، وأثبت في قلبِه كراهيةَ

الشكِّ وخُطُورِ الوساوسِ، فإذا حدث بعضُ الوساوسِ في أثناءِ عبادةٍ أو غيرِها، ينبغي ألّا يشتغلَ بطولِ المجاهدةِ مع الشيطانِ، ويكتفيَ بما تقرّرَ في قلبه من اليقينِ وكراهيةِ الشكِّ والوسوسةِ، معتقداً بأنّ هٰذه الوساوسَ لا أصلَ لها ولا عبرةَ بها. وكذا إذا قرّر في نفسه النصيحةَ للمسلمينِ وكراهيةَ الحسدِ، فإذا أوقعَ الشيطانُ نزغاتِ الحسدِ في قلبه، ينبغي ألّا يلتفِتَ إليها، ويستصحِبَ ما كان عليه من النصيحةِ والكراهةِ، وقس عليها سائرَ الصفاتِ والأخلاقِ.

ثمّ مَثَلُ من يشتَغِلُ بطولِ المجاهدةِ مع الشيطانِ مَثَلُ من قصدَ مجلِساً من مجالسِ العلمِ والوعظِ لينالَ فائدةً وهدايةً فعارضَه ضالٌّ فاسقٌ ودعاه إلى مجلسِ فسقٍ فأبى وأنكَر عليه، فإذا عرفَ الضالُّ إباءَهُ اشتغل بالمجادلةِ معه، وهو أيضاً يساعدُه على ذلك ليردَّ ضلالَه، ظانّاً أنّ ذلك مصلحَته، مع أنّه غرضُ الضالِّ إذ قَصْدُه من المجادلةِ أن يُؤَخِّرَه عن نيلِ مقصودِه. ومَثَلُ من يَشتَغِلُ بالتكذيبِ مثل من لايشتَغِلُ بالقتالِ مع الضالِّ بعدَ دعوتِه إلى مجلسِ الضلالِ، بل وقف بقدرِ أن يدفعَ في منحرِه، وذهب مستعجلاً، ففرح الضالُّ بقدر توقُّفِه للدفعِ. ومَثَلُ من يكتَفِي بعقدِ الضميرِ مثلُ من لم يَلتفِتْ إلى الضالِّ بعدَ دعوتِه أصلاً، واستمرّ على ما كان عليه من المشيِ. ومَثَلُ من يزيدُ فيما كان له من الإخلاصِ أو ما يؤدّي إليه مثل من يزيدُ في عجلتِه بعد دعوتِه ليغيظَه. ولاريبَ في أنّ الضالَّ يمكنُ أن يعاودَ الجميعَ في الدعوةِ إلى الضلالةِ إذا مرُّوا عليهِ مرّةً أُخرى إلّا الأخير، مخافةَ أن يزدادَ فائدةً باستعجالِه.

وصـلٌ

ضدّ الرياء: الإخلاصُ

ضدُّ الرياءِ الإخلاصُ، وهوَ تجريدُ القصدِ عن الشوائبِ كلِّها. فمن عَمِل طاعةً رياءً فـهو مراءٍ مطلقٌ، ومن عمِلها وانضمَّ إلى قصدِ القربةِ قصدُ غرضٍ دنيويٍّ انضماماً غيرَ مستقلٍّ فعملُه مشوبٌ غيرُ خالصٍ، كقصدِ الانتفاعِ بالحِمْيَةِ من الصومِ، وقصدِ التخلُّصِ من مؤونةِ العبدِ أو سوءِ خلقِه من عتقِه، وقصدِ صحّةِ المزاحِ أو التخلُّصِ من بعضِ الشرورِ والأحزانِ من الحجِّ، وقصدِ العزّةِ بينَ الناسِ أو سهولةِ طلبِ المالِ من تعلُّمِ العلمِ، وقصدِ النظافةِ والتبرُّدِ وطـيبِ الرائحةِ من الوضوءِ والغسل، والتخلُّصِ عن إبرامِ السائلِ من التصدُّقِ عليهِ، وهٰكذا. فمتى كان باعثُ الطاعةِ هو التقرّب ولٰكن انضافَت إليه خطرةٌ من هٰذه الخـطراتِ، خـرج عـملُه مـن الإخلاصِ. فالإخلاصُ تخليصُ العملِ عن هٰذه الشوائبِ كلِّها، كثيرِها وقليلِها. والمخلِصُ من يكونُ عملُه لمحضِ التقرُّبِ إلى اللهِ سبحانَه، من دون قصدِ شيءٍ آخرَ أصلاً.

وهنا أمران:

الأمر الأوّل: مدحُ الإخلاصِ

الإخلاصُ منزلٌ من منازلِ الدينِ، ومقامٌ من مقاماتِ الموقنين. وهو الكـبريتُ الأحـمـرُ، وتوفيقُ الوصولِ إليه من اللهِ الأكبرِ، ولذا ورد في فضيلتِه ماورد من الآياتِ والأخبارِ، قال

اللهُ تعالى: ﴿وَما أُمروا إلّا ليَعبُدوا اللهَ مُخلصينَ لَهُ الدِّينَ﴾[١] و ﴿ألا للهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾[٢] و ﴿إلّا الَّذينَ تابُوا وأَصلَحُوا وَاعتَصمُوا باللهِ وأَخلَصُوا دِينَهُمْ للهِ﴾[٣] و ﴿فَمَن كانَ يَرجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيعمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشرِكْ بِعبادَةِ رَبِّهِ أحَداً﴾[٤]. نزل فيمن يعمَلُ للهِ ويحبُّ أن يُحمَدَ عليه. وفي الخبر القـدسيّ: «الإخلاصُ سرٌّ من أسراري، استودعتُه قلبَ من أحـببتُ مـن عـبادِي»[٥]. وقـال رسـولُ الله ﷺ: «أخلِص العملَ يُجزِئْكَ منه القليلُ»[٦]. وقال ﷺ: «ما من عبدٍ يخلصُ العملَ لله تعالى أربعين يوماً إلّا ظهرت ينابيعُ الحكمةِ من قلبِه على لسانِه»[٧]. وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «طوبى لمن أخلصَ لله العبادةَ والدعاءَ، ولم يشغَلْ قلبَه بما ترى عيناهُ، ولم ينسَ ذكرَ الله بما تسمَعُ أُذناهُ، ولم يحزَنْ صدرُه بما أُعطِي غيرُه!»[٨]. وقال الصادقُ عليه السلام في قولِ اللهِ عـزّ وجـلّ: ﴿لِيَبلُوَكم أيُّكم أحسَنُ عَملاً﴾[٩]:

ليس يعني أكثرَكم عملاً، ولكن أصوبَكم عملاً. وإنّما الإصابةُ خشيةُ اللهِ والنـيّةُ الصادقةُ ـ ثمّ قال: ـ الإبقاءُ على العملِ حتّى يخلُصَ أشـدُّ مـن العـملِ، والعـملُ الخالصُ الذي لا تريدُ أن يحمَدَكَ عليه أحدٌ إلّا اللهُ عزَّ وجلّ، والنيّةُ أفضلُ مـن العملِ، ألا وإنّ النيّةَ هي العملُ، ثمّ تلا قولَه عزّ وجلّ: ﴿قل كلٌّ يعمل على شاكلته﴾: يعني على نيّته[١٠].

ومن تأمّل في هٰذه الأخبارِ وفي غيرِها ممّا لم يُذكَر يـعلَم أنّ الإخـلاصَ رأسُ الفـضائلِ ورئيسُها، وهو المناطُ في قبولِ الأعمالِ وصحّتِها، ولا عبرةَ بعملٍ لا إخلاصَ معه، ولا خلاصَ

١. البيّنة (٩٨): ٥.
٢. الزمر (٣٩): ٣.
٣. النساء (٤): ١٤٦.
٤. الكهف (١٨): ١١٠.
٥. المحجّة البيضاء، ج٨، ص ١٢٥.
٦. المحجّة البيضاء، ج٨، ص١٢٦.
٧. المحجّة البيضاء، ج٨، ص١٢٦.
٨. الكافي، ج ٢، ص١٦، باب الإخلاص، ح ٣.
٩. الملك (٦٧): ٢.
١٠. الكافي، ج ٢، ص١٦، باب الإخلاص، ح ٤، والآية في سورة الإسراء (١٧): ٨٤.

من الشيطانِ إلّا بالإخلاصِ، لقوله: ﴿إلّا عِبادَكَ مِنهُمُ المُخلَصينَ﴾[١]. وما ورد في الإسرائيليّاتِ من حكايةِ العابدِ والشيطانِ والشجرةِ مشهورٌ وفي الكتبِ مسطورٌ[٢].

الأمر الثاني: آفاتُ الإخلاصِ

الآفاتُ التي تكدِّرُ الإخلاصَ وتشوِّشُهُ لها درجاتٌ في الظهورِ والخفاءِ أجلاها الرياءُ الظاهرُ، وهو ظاهرٌ. ثمّ تحسينُ العبادةِ والسعيُ في الخشوعِ فيها في الملأ دونَ الخلوةِ ليتأسّى به الناسُ، ولو كان عملُه هذا خالصاً للهِ لم يترُكْه في الخلوةِ، إذ من يرى الخشوعَ وحسنَ العبادةِ خيراً لا يرتَضي لغيرِه تركَه، فكيف يرتضِي ذلك لنفسِه في الخلوةِ؟ ثمّ تحسينُها في الخلوةِ أيضاً بقصدِ التسويةِ بينَ الخلوةِ والملأ، وهذا من الرياء الغامضِ، لأنّه حسَّن عبادتَه في الخلوةِ ليُحَسِّنَها في الملأ فلا يكونُ فرقٌ بينَهما في التفاتِه فيهما إلى الخلقِ، إذ الإخلاصُ الواقعيُّ أن تكونَ مشاهدةُ الخلقِ لعبادتِه كمشاهدةِ البهائمِ لها، من دونِ تفاوتٍ أصلاً. فكأنّ نفسَه لا تسمَحُ بإساءةِ العبادةِ بينَ أظهرِ الناسِ، ثمّ يستحيي من نفسِه أن يكونَ في صورةِ المرائين، ويظنُّ أنّ ذلك يزولُ باستواءِ عبادتِه في الخلوةِ والملأ، وليس كما ظَنَّه، إذ زوالُ ذلك موقوفٌ على عدمِ التفاتِه إلى الخلقِ في الملأ والخلوةِ كما لا يلتَفِتُ إلى الجماداتِ فيهما مع أنّه مشغولُ الهمِّ بالخلقِ فيهما جميعاً.

وأخفاها أن يقولَ له الشيطانُ ـ وهو في العبادةِ في الملإ بعدَ يأسِه عن المكايد السابقةِ ـ: «أنت واقفٌ بين يدي اللهِ سبحانه، فتفكَّر في جلالِه وعظمتِه، واستحيِ من أن يَنظُرَ إلى قلبِك وهو غافلٌ عنه، فَيَحضُرُ بذلك قلبُه وتَخشَع جوارِحُه». وهذا أخفى مكائدِ الشيطانِ وخداعِه. ولو كانت هذه الخطرةُ ناشئةً عن الإخلاصِ لما انفكّت عنه في الخلوةِ ولم يخصَّ خطورَها بحالةِ حضورِ غيرِه، وعلامةُ الأمنِ من هذه الآفةِ: أن يكونَ هذا الخاطرُ ممّا يألفُه في الخلوةِ كما يألفُه في الملإ، ولا يكون حضورُ الغيرِ سبباً لحضورِه، كما لا يكون حضورُ بهيمةٍ سبباً له، فما دام العبدُ

---

١. الحجر (١٥): ٤٠.

٢. راجع: إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٣٧٧؛ المحجة البيضاء، ج ٨، ص ١٢٦.

يفرّقُ في أحوالِه وأعمالِه بين مشاهدةِ إنسانٍ ومشاهدةِ بهيمةٍ، فهو بعدُ خارجٌ عن صفوِ الإخلاصِ مُدَنَّسُ الباطنِ بالشركِ الخفيِّ من الرياءِ، وهذا الشركُ أخفى في قلبِ ابنِ آدمَ من دبيبِ النملةِ السوداءِ في الليلةِ الظلماءِ على الصخرةِ الصمّاءِ، كما وردَ به الخبر، ولا يسلَم منه إلّا من عصمَه الله بخفيِّ لطفِه، إذ الشيطانُ ملازمٌ للمتشمّرين لعبادةِ اللهِ، لا يغفلُ عنهم لحظةً ليحملَهُم على الرياءِ في كلِّ واحدٍ من أفعالِهم وأعمالِهم.

تتميم: الحقُّ ـ كما أُشيرَ إليه ـ أنّ الشوبَ الممزوجَ بالإخلاصِ إن كان من المقاصدِ الصحيحةِ الراجحةِ شرعاً، لم يُبطِلْ العملَ والإخلاصَ ولم يَنقُص الأجرَ والثوابَ، إذ نيّةُ الخيراتِ المتعدّدةِ تُوجِبُ تضاعُفَ الثوابِ بحسبِها. وإن كان من الأغراضِ الدنيويّةِ الراجعةِ إلى حبِّ جاهٍ أو طمعِ مالٍ فهو مُبطلٌ للعملِ والثوابِ، سواء كان الباعثُ الدينيُّ أضعفَ من الباعثِ النفسيِّ أو مساوياً له أو أقوى منه، لظواهرِ الأخبارِ المتقدّمة. ومع إبطالِه العملَ، يترتّبُ عليه عقابٌ على حِدَةٍ أيضاً؛ إذ الرياءُ في العبادةِ في نفسِه منهيٌّ عنه محرّمٌ، سواء كان هو الباعِث وحدَه أو انضمّ إلى نيّةِ التقرُّبِ انضماماً مستقلّاً أو غيرَ مستقلٍّ، فمن ارتكبه كان آثماً لأجلِ الرياءِ في نفسِه وتاركاً للعبادةِ من حيث دخول الرياءِ فيها، فإن كانت واجبةً ترتّب إثمٌ آخرُ على تركِها إلّا أن يُسقِطَه بقضائِها. وإن كانت مستحبّةً لم يلزَم قضاؤها ولم يترتّب إثمٌ على تركِها، بل كان إثمُها منحصراً بما يترتّبُ على الرياءِ في نفسِه. ثمّ الإثمُ المترتّبُ على الرياءِ المحضِ أشدُّ وأغلظُ من المترتّبِ على الرياءِ الممزوجِ بالقربةِ، ويتزايدُ إثمُ الممزوجِ بحسب ازديادِ قوّةِ باعثِ الرياءِ بالنظرِ إلى باعثِ الإخلاصِ، ويَنقُصُ بحسبِ نقصان ذلك.

وعلى ماذكرناه، فما انعقد عليه إجماعُ الأئمّةِ من أنّ من خرج حاجّاً ومعه تجارةٌ صحّ حجُّه وأُثيبَ عليه، مع أنّ سفرَه ليس خالصاً للحجِّ، فالوجهُ فيه أنّ التجارةَ تَعرُّضٌ للرزقِ، وهو أيضاً عبادةٌ. وقد تقدّم أنّ نيّة الخيراتِ المتعدّدةِ موجبةٌ لتضاعُفِ الثوابِ بحسبِها.

النوع الحادي والعشرون: النفاق

وهو مخالفةُ السرِّ والعلنِ، سواء كان في الإيمانِ أو في الطاعاتِ أو في المعاشَراتِ مع الناسِ، وسواء قصد به طلبَ الجاهِ والمالِ أم لا. وعلى هذا فهو أعمُّ من الرياءِ مطلقاً، وإن خصّ بمخالفةِ القلبِ واللسانِ أو بمخالفةِ الظاهرِ والباطنِ في معاملَةِ الناسِ ومصاحَبَتِهم، فبينَهما عمومٌ وخصوصٌ من وجهٍ. وبالجملةِ: هو بجميعِ أقسامِه مذمومٌ محرّمٌ، قال رسولُ الله ﷺ: «من كان له وجهانِ في الدنيا، كان له لسانانِ من نارٍ يومَ القيامةِ»[1]. وقال ﷺ: «تجدُونَ من شرِّ عبادِ اللهِ يومَ القيامة ذا الوجهين: الذي يأتي هؤلاءِ بوجهٍ وهؤلاءِ بوجهٍ»[2]. وقال الباقر عليه السلام: «لبئس العبدُ عبدٌ يكون ذا وجهين وذا لسانين، يُطرِي أخاه شاهداً ويأكلُه غائباً، إن أُعطِيَ حسدَه، وإن ابتُلِيَ خذَلَه»[3].

ثمّ لا يخفى أنّ الدخولَ على المتعادِيَين والمجاملةَ مع كلٍّ منهما قولاً وفعلاً لا يوجِبُ كونَه منافقاً ولا ذا لسانين إذا كان صادقاً؛ إذ الواحدُ قد يصادقُ متعاديين، ولكن صداقةٌ ضعيفةٌ، إذ الصداقةُ التامّة تقتضي معاداة الأعداءِ. وكذا من ابتُلِي بذي شرٍّ يخافُ شرَّه، يجوزُ أن يجامِلَه ويتَّقِيَهُ ويُظهِرَ له في حضورِه من المدحِ والمحبّةِ مالم يعتَقِدْ به قلبُه، وهو معنى المداراةِ، وهو وإن

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٠.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٠.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣، باب ذي اللسانين، ح ١.

كان نفاقاً إلّا أنّه جائزٌ شرعاً للعذرِ، قال الله سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾[١]. ورُوي:

أنّه استأذن رجلٌ على رسولِ الله ﷺ فقال: «ائذنوا له، فبئس رجلُ العشيرةِ». فلمّــا دخل ألانَ له القولَ حتّى ظنّ أنّ له عنده منزلةً. فلمّا خرج قيل له: لمّا دخل قلتَ الذي قلت، ثمّ ألَنْتَ له القولَ؟! فقال: «إنّ شرَّ الناسِ منزلةً عندَ اللــهِ يــومَ القيامةِ من أكرمَهُ الناسُ اتّقاءً لشرِّه»[٢].

ويدلُّ على جوازِ ذلك جميعُ أخبارِ التقيّةِ وأخبارُ المداراةِ. وفي خبرٍ: «ماوَقَى المرءُ به عِرضَه فهو له صدقةٌ»[٣]. ثمّ جوازُ ذلك إنّما إذا اضطُرَّ إلى الدخولِ على ذي الشرِّ ومدحِهِ مَظِنّة الضررِ، أمّا لو كان مستغنياً عن الدخولِ والثناءِ أو عن أحدِهما، ومع ذلك أبدى بلسانِه ماليس في قلبِه من المدحِ، فهو نفاقٌ محرّمٌ.

ثمّ ضدُّ النفاقِ استواءُ السرِّ والعلانيةِ، أو كونُ الباطنِ خيراً من الظاهرِ، وهو من شرائفِ الصفاتِ، وكأنّ الاتّصافَ به والاجتنابَ من النفاقِ أهمُّ مقاصدِ المؤمنين من الصدرِ الأوّلِ.

---

١. المؤمنون (٢٣): ٩٦.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٢.

٣. إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٣٠٧.

النوع الثاني والعشرون: الغُـرورُ

وهو سُكُونُ النفسِ إلىٰ ما يوافِقُ الهوىٰ، ويميلُ إليه الطبعُ عن شُبهةٍ وخُدعةٍ من الشَيطانِ. فَمَنِ أعتقدَ أنّه علىٰ خيرٍ إمّا في العاجلِ أو في الآجلِ عن شُبْهةٍ فاسدةٍ، فهو مغرورٌ. ولمّا كانَ أكثرُ الناسِ ظانّين بأنفُسِهم خيراً، ومُعتقدينَ بصحّةِ ماهم عليه من الأعمالِ والأفعالِ وخَيْرِيّتِهِ، مع أنّهم مُخطِئون فيه، فهمْ مَغْرورونَ، مثلاً مَنْ يأخذُ المالَ الحرامَ وَيُنفِقُها في مصارفِ الخيرِ، كبناءِ المساجدِ والمدارسِ والقناطرِ والرباطاتِ وغيرِها، يظنُّ أنّ هذا خيرٌ له وسعادَةٌ، مع أنّه محضُ الغرورِ، حيثُ خدعَهُ الشيطانُ وأراه ماهو شَرٌّ لهُ خيراً، وكـذا الواعـظُ الذي غَـرَضُه الجـاهُ والقَبولُ من موعظتِه، يظنُّ أنّه في طاعة الله، مع أنّه في المعصية بغُرورِ الشيطانِ وخدعتِه.

ثمّ لا ريبَ في أنّ سُكونَ النفسِ إلىٰ ما يُوافقُ الهوىٰ، ويميلُ الطبعُ إليه عن شُبهةٍ ومخـيّلةٍ، مركّبٌ من أمرين:

أحدُهما: اعتقادُ النفسِ بأنّ هذا خيرٌ له مع كونِه خلافَ الواقعِ.

وثانيهما: حبُّها وطلبُها باطناً لمقتضياتِ الشهوةِ أو الغضبِ. فإنَّ الواعِظَ إذا قَصَدَ بـوعظِه طلبَ الجاهِ والمنزلَةِ معتقِداً أنّه يجلِبُ به الثوابَ، تكونُ له رغبةٌ إلى الجاهِ واعتقادٌ بكونِه خيراً له، إذ الغنيّ إذا أمْسَكَ مالَه ولم يُنفِقْهُ في مصارفِه اللازِمَـةِ، وواظبَ عـلىٰ العـبادَةِ مـعتقِداً أنّ مواظَبَتَهُ علىٰ العبادةِ تكفي لنجاتِه وإنْ كان بخيلاً، يكونُ له حُبٌّ للمالِ واعتقادٌ بأنّه على الخيرِ.

وهاهنا بحثان:

البحث الأوّل: ذمُّ الغُـرورِ

الغُرورُ والغَفْلَةُ مَنْبَعُ كلِّ هَلَكَةٍ وأُمُّ كلِّ شَـقاوةٍ، ولذا وردَ فـيه الذمُّ الشـديدُ في الآيـاتِ والأخبارِ. قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾[1] و ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾[2]، وقـال رسولُ الله ﷺ: «حبّذا نومُ الأكياسِ وفِطْرُهم، كيف يغبنون سهـرَ الحـمقىٰ واجـتهادَهم، ولَمثقالُ ذرّةٍ من صاحبِ تقوىٰ ويَـقينٍ أفـضلُ مـن مِـلْءِ الأرضِ مـن المـغترّين»[3]. وقـال الصادق عليه السلام:

المغرورُ في الدنيا مسكـينٌ، وفي الآخـرةِ مَـغْبونٌ؛ لأنّـه بـاعَ الأفْـضَلَ بـالأدنىٰ، ولا تعجَبْ من نفسِك، فربّما اغترَرْتَ بمالِكَ وصِحّةِ جَسدِك أنْ لَعَلّكَ تبقىٰ... وربّما اغتررتَ بجمالكَ ومُنْيَتِكَ وإصابَتِكَ مأمولَكَ وهواك، فظَنَنْتَ أنّكَ صادقٌ ومُصيبٌ. وربّما اغترَرْتَ بما تُري الخلق من الندم علىٰ تَقْصيرِك في العبادةِ، ولعلّ اللهَ يعلَمُ من قَلْبِكَ بخلافِ ذلك. وربّما أقَمْتَ نفسَك علىٰ العبادةِ مُتَكلِّفاً والله يُريدُ الإخـلاصَ. وربّما افتخَرْتَ بعلمكَ ونَسَبِكَ، وأنت غافلٌ عن مُضْمَراتِ ما في غَيبِ الله تعالىٰ. وربّما تَوَهّمْتَ أنّكَ تدعو الله وأنتَ تدعو سواهُ. وربّما حسبتَ أنّكَ ناصِحٌ للخلقِ وأنتَ تريدُهم لنفسِكَ أنْ يَميلوا إليكَ. وربّما ذَمَمْتَ نفسَك وأنتَ تمدَحُها على الحقيقةِ[4].

البحث الثاني: طوائفُ المغرورين

اعلمْ أنّ فِرَقَ المغترّينَ كثيرةٌ، وجهاتِ غُرورِهم ودرجاتِه مختلفةٌ، وما من طائفةٍ في العالَمِ مشتركينَ في وصفٍ مجتمعينَ علىٰ أمرٍ، إلّا ويوجَدُ فـيهم فِـرَقٌ مـن المـغترّينَ. إلّا أنّ بَـعْضَ

---

١. لقمان (٣١): ٣٣؛ فاطر (٣٥): ٥.

٢. الحديد (٥٧): ١٤.

٣. المحجة البيضاء، ج ٦، ص ٢٩١.

٤. مصباح الشريعة، ص ٢١٢، الباب ٣٦.

الطوائفِ كلّهم مُغْتَرّونَ، كالكُفّارِ والعُصاةِ والفُسّاقِ، وبعضُهم يُوجَدُ فيهم المغرورُ وغيرُ المغرورِ، وإنْ كان معظمُ كلِّ طائفةٍ أربابَ الغُرورِ. ونحنُ نُشيرُ إلىٰ مجارِي الغُرورِ، وإلىٰ غُرورِ كلِّ طائفةٍ، ليتمَكَّنَ طالبُ السعادةِ من الاحترازِ عنه، إذ مَنْ عَرَفَ مداخِلَ الآفاتِ والفسادِ ومجاريها يمكنُهُ أنْ يأخذَ منها حِذْرَهُ، ويبني علىٰ الجزْمِ والبصيرةِ أمرَهُ. فنقولُ:

الطائفةُ الأُولىٰ: الكفّارُ

وهم مغرورونَ بأسْرِهم، وهمْ مابينَ مَنْ غَرّتْهُ الحياةُ الدنيا، وبينَ مَنْ غَرّهُ الشيطانُ باللهِ، وأمّا الذين غَرّتْهم الحياةُ الدنيا، فباعثُ غُرورِهم قياسان نَظَمَهُما الشيطانُ في قُلوبِهم:

أوّلُهما: أنّ الدنيا نَقْدٌ والآخرةَ نَسِيئَةٌ، والنَقْدُ خيرٌ من النسيئةِ.

وثانيهما: أنَّ لذّاتِ الدنيا يقينيّةٌ ولذّاتِ الآخِرَةِ مشكوكٌ فيها، واليقينيُّ خيرٌ من المشكوكِ، فلا يُتْرَكُ به. وهذهِ أقيسةٌ فاسِدَةٌ، تَشْبَهُ قياسَ إبليسَ، حيث قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1].

وعلاجُ هذا الغُرورِ ـ بعدَ تحصيلِ اليقينِ بوجودِ الواجبِ تعالىٰ وبحقيّةِ النبيّ ﷺ، وهو في غايةِ السهولةِ لوضوحِ الطُرُقِ والأدلّةِ ـ إمّا: أنْ يَتَّبِعَ مُقتضىٰ إيمانِه ويُصَدِّقَ الله تعالىٰ في قوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾[2] و ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[3] و ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[4] و ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَـٰعُ الْغُرُورِ﴾[5] و ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾[6].

وإمّا: أنْ يَعرِفَ بالبرهانِ فسادَ القياسينِ، حتّىٰ يزولَ عن نفسهِ ما تأدّيا إليه من الغُرورِ.

وأمّا المغْرورُونَ بالله، وهم الذين يُقَدّرون في أنْفُسِهم ويقولونَ بألسنتِهم: إنْ كانَ للهِ معادٌ

---

١. الأعراف (٧): ١٢؛ ص (٣٨): ٧٦.

٢. النحل (١٦): ٩٦.

٣. الأعلى (٨٧): ١٧.

٤. القصص (٢٨): ٦٠.

٥. آل عمران (٣): ١٨٥.

٦. لقمان (٣١): ٣٣.

فنحنُ فيه أوفَرُ حظّاً وأسعدُ حالاً من غيرنا، كما أخْـبرَ اللـه سـبحانه عـن قـول الرجـلينِ المتحاورَيْنِ، إذ قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾[١].

وباعثُ ذلك: ما ألقىٰ الشيطانُ في رُوعِهم من نظرهم مرّةً إلىٰ نِعَمِ الله عليهم في الدنيا فيقيسونَ عليها نِعْمَةَ الآخرةِ، ويَنظرونَ إلىٰ تأخيرِ الله العذابَ عنهمْ فيقيسونَ عليه عذابَ الآخـرةِ، كـما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[٢].

ومرّةً ينظرون إلىٰ المؤمنين وهم فقراءُ محتاجونَ، فيقولون: لو أحبّهم اللهُ لأحسنَ إليهم في الدنيا ولو لم يحبّنا لما أحسنَ إلينا فيها، فلمّا لم يُحْسِنْ إليهم في الدنيا وأحسنَ إلينا فيها فيكونُ محبّاً لنا ولا يكونُ محبّاً لهم، فيكونُ الأمرُ في الآخرةِ كذلك، كما قال الشاعر:

كما أحْسَنَ اللهُ فيما مَضىٰ		كذلِكَ يُحْسِنُ فيما بَقِي

ولا ريبَ في أنّ كُلَّ ذلك خيالاتٌ فاسدةٌ وقياساتٌ باطلةٌ، فإنَّ مَنْ ظنَّ أنّ النِعَمَ الدنيويّةَ دليلُ الحبِّ والإكرامِ فقدِ اغترّ بالله، إذ ظنّ أنّه كريمٌ كما أخبر الله تعالىٰ عنه بقوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾[٣].

وعلاجُ هذا الغرورِ: أنْ يعرفَ أنّ إقبالَ الدنيا دليلُ الهوانِ والخُذْلانِ دون الكرامةِ والإحسانِ، والتجرّدُ منها سببُ الكرامةِ والقُربِ إلى الله سبحانه. والطريقُ إلىٰ هذه المعرفةِ: إمّا ملاحظةُ أحوالِ الأنبياءِ والأولياءِ وغيرهما من طوائفِ العُرفاءِ وفِرَقِ الأتقياءِ، أو التدبُّرُ في الآياتِ والأخبار. قال الله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[٤] و ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾[٥] ... إلىٰ غير ذلك من الآياتِ والأخبارِ.

---

١. الكهف (١٨): ٣٦.
٢. المجادلة (٥٨): ٨.
٣. الفجر (٨٩): ١٥ ـ ١٦.
٤. المؤمنون (٢٣): ٥٥ ـ ٥٦.
٥. آل عمران (٣): ١٧٨.

ومنشأُ هذا الغُرور: الجهلُ بالله وبِصفاتِه، فإنَّ مَنْ عَرفَهُ لا يأمنُ مكرَهُ ولا يغترُّ به بأمثالِ هذهِ الخيالاتِ الفاسدةِ، ويَنظُرُ إلىٰ قارونَ وفرعونَ وغيرِهما من الملوكِ والجبابرةِ، كيف أحسنَ اللهُ إليهم ابتداءً ثمّ دمَّرَهُم تدميراً، وقد حذّرَ اللهُ عبادهَ من مكْرِهِ واستدراجِه فقال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَـٰسِرُونَ﴾[1].

الطائفةُ الثانيةُ: العصاةُ والفسّاقُ من المؤمنينَ

وسَبَبُ غرورِهم وغفلتِهم: إمّا بعضُ بواعثِ غرورِ الكافرينَ ـ كما تقدّمَ ـ أو ظنُّهم أنّ اللهَ تعالىٰ كريمٌ ورحمتُهُ واسعةٌ ونعمتُهُ شامَلةٌ، وأينَ معاصي العبادِ في جَنْبِ بحار رحمتِه، ويقولون: إنّا موحّدونَ ومؤمنونَ، فكيفَ يُعذّبُنا مع التوحيدِ والإيمان، ويُقرّرونَ ظنّهم بما وردَ في فضيلةِ الرجاءِ. وربّما اغترّ بعضُهم بصلاحِ آبائِهم وعلوّ رُتْبَتِهم، كاغترارِ بعضِ العلويّينَ بنَسبِهم مع مخالفَتِهم سيرةَ آبائِهم الطاهرينَ في الخوفِ والوَرَعِ. وعلاجُ هذا الغُرورِ: أنْ يعرفَ الفَرْقَ بين الرجاءِ الممدوحِ والتمنّي المذموم، ويَعلمَ أنّ غرورَهُ ليس رجاءً ممدوحاً، بل هو تمنٍّ مذمومٌ، كما قال رسولُ الله ﷺ: «الكيّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعَمِلَ لما بعدَ الموتِ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هَواها وتَمنّىٰ علىٰ الله»[2]. فإنّ الرجاءَ لا يَنفَكُّ عن العملِ؛ إذ مَنْ رجا شيئاً طَلَبَهُ ومَنْ خافَ شيئاً هَرَبَ منه، وكما أنّ الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو لم ينكَحْ، فهو مَغْرورٌ أحمقُ، كذلك مَنْ رجا رحمةَ الله ولم يتركِ المعاصي، أو تركَها ولم يعملْ صالحاً، فهو مَغْرورٌ جاهلٌ، كيفَ وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَـٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ﴾[3].

الطائفةُ الثالثةُ: أهلُ العلمِ

والمغترّون منهم فرقٌ:

فمنهم مَن اقتصرَ من العلم علىٰ علم الكلامِ والمجادَلَةِ ومعرفةِ آدابِ المناظَرَةِ، ليتفاخرَ في

---

١. الأعراف (٧): ٩٩.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٩٢.

٣. البقرة (٢): ٢١٨.

أنديةِ الرجالِ ويتفوّق على الأقرانِ والأمثالِ، من غيرِ أن يكونَ له في العقائدِ قَدَمٌ راسِخٌ أو مذهَبٌ واحدٌ، بل يختارُ تارةً ذاكَ وتارةً هذا، وتكونُ عقيدتُه كخيطٍ مُرْسَلٍ في الهواء تُـفيئُه الريحُ مرّةً هكذا ومرّةً هكذا، ومع ذلك يظنُّ بغرورِهِ أنّه أعرفُ الناسِ وأعلَمُهم بالله وبصفاتِهِ.

ومنهم مَن اقْتَصرَ من العلمِ علىٰ عِلْمِ النحو واللغةِ، أو الشِعرِ أو المـنطِقِ، واغترّ به وأفنىٰ عمرَه فيها، وزَعَمَ أنَّ علمَ الشريعةِ والحكمَةِ موقوفٌ عليها، ولم يعلمْ أنّ ماليس مطلوباً لذاتهِ ويكونُ وسيلةً إلىٰ ما هو مقصودٌ لذاته يجبُ أنْ يَقتَصرَ عليه بقَدْرِ الضرورةِ، والتعمّقُ فيه إلىٰ درجاتٍ لا تتناهىٰ فضولُ مستغنىً عنها، وموجبٌ للحرمانِ عمّا مقصودٌ لذاتِه.

ومنهم مَن اقتصَرَ علىٰ فَنِّ المعاملاتِ من الفقهِ، وأعْرَضَ عن علم العقائدِ والأخلاقِ، بل عن فنّ العباداتِ من الفقهِ، وأهملَ تفقُّدَ قلبهِ ليتخلّىٰ عن رذائلِ الأخلاقِ ويـتحلّىٰ بـفضائلِ الملَكاتِ وتفقُّدَ جَوارحِهُ وحفظَها عن المعاصي وإلزامها الطاعات.

ومنهم مَنْ حصّلَ فنَّ العباداتِ أيضاً، بل أحْكَمَ العلومَ الشرعيّةَ بأسرها وتَـعمَّقَ فـيها واشتغَلَ، ولكنْ تركَ العلمَ الإلهيّ وعلمَ الأخلاقِ، ولم يحفَظِ الباطنَ والظاهرَ عـن المـعاصي، ولم يُعمِّـرْها بالطاعاتِ.

ومنهم مَنْ أحكَم جميعَ العلومِ من العقليّةِ والشرعيّةِ، وتعمّقَ فيها واشتغلَ بهـا، إلّا أنّـه أهْملَ العملَ رأساً، أو واظبَ علىٰ الطاعاتِ الظاهرةِ وأهمَلَ صفاتِ القَلْبِ، وربّما تَفَقَّدَ صفاتِ القلْبِ وأخلاقَ النفسِ أيضاً، وجاهدَ نفسَه في التبرّؤ عنها، وقلَعَ من قلبه منابتَها الجليّةَ القويّة، ولكنْ بَقيَتْ في زوايا قَلْبه خَفايا من مكائدِ الشيطانِ، وخَـبايا وتَـلْبيساتِ النـفس مـاَ دَقَّ وغمضَ مَدْرَكُهُ فلا يَتفطَّنُ بها.

وجميعُ هؤلاءِ غافلُونَ مغرورونَ، إذ كان اعتقادُهم أنّهم علىٰ خيرٍ وسعادةٍ، وإنْ كانَ بينهم تفاوُتٌ من حيثُ الضعفِ والشدَّةِ، إذ سعادةُ النفسِ وخَلاصُها عن العذاب لا تَحصلُ إلّا بمعرفةِ الله تعالىٰ ومعرفةِ صفاتِه وأفعاله وأحوالِ النشأةِ الآخِرةِ، والعلمِ برذائلِ الأخلاقِ وشَرائِفِها، ثمّ تهذيبِ الباطنِ بفضائلِ الأخلاقِ وعمارَةِ الظاهر بصوالحِ الطاعاتِ والأعمالِ، فكلُّ مَنْ يَعلَمُ بعضَ العلومِ وتَرَكَ ماهو المهمُّ من العلم ـ أعني معرفةَ سُلوكِ الطريقِ وقَطْعَ عقباتِ النفسِ التي

هي الصفاتُ المذمُومةُ المانعةُ عن الوصولِ إلىٰ الله ـ وظنَّ أنّه علىٰ خيرٍ كان مغروراً، وإذا ماتَ مُلَوَّثاً بتلكَ الصفاتِ كان محجوباً عن الله، فمن تَرَكَ العِلْمَ المُهِمَّ واشتغلَ بغيرِه، فهو كمنْ له مَرَضٌ خاصٌّ مُهلِكٌ فاحتاجَ إلىٰ تَعَلُّمِ الدواءِ واستعمالِه، فاشتغلَ بِتَعَلُّمِ مرضٍ آخرَ يُضادُّ مرضَهُ في المعالجةِ، كما أنّ مَنْ أحكَمَ العلومَ بأسرِها وتركَ العملَ، مثل المريض الذي تَعلَّمَ دواءَ مَرَضِهِ وكَتَبَهُ، وهو يقرؤهُ ويُعلّمهُ المرضى ولا يَستعملُه قطُّ لنفسهِ، فإنّه لا ريبَ في أنّ مجرّدَ تعلُّمِ الدواءِ لا يشفيهِ، فلو ظنَّ أنَّ مجرَّدَ تَعَلُّمِ الدواءِ يَكْفيهِ ويَشفيهِ فهو مَغْرورٌ، فكذلكَ مَنْ أحكمَ عِلْمَ الطاعاتِ ولم يَعْمَلْها، وأحْكَمَ عِلْمَ المعاصي ولم يَجْتَنِبْها، وأحْكَمَ عِلْمَ الأخلاقِ ولم يُزَكِّ نَفْسَهُ عن رَذائِلها ولم يتّصِفْ بِفضائِلها، فهو في غايةِ الغُرورِ، إذ قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّـٰهَا﴾[1]. ولم يقلْ: قد أفلحَ مَنْ عَلِمَ طَريقَ تزكيتِها.

ثمّ من هذه الطائفةِ فرقةٌ مُتّصِفةٌ برذائلِ الأخلاقِ، والغُرورِ أدّىٰ بهم إلىٰ حيثُ ظنّوا أنّهم منفكّون عنها، وأنّهم أرفعُ عند الله مِنْ أنْ يبتليَهم بها، وإنّما يبتلي بها العوامّ دونَ مَنْ بلغَ مبلغَهم في العلم. ثمّ إذا ظهرتْ عليه مخايلُ الكِبْرِ والرئاسةِ وطلَبَ العلوّ والشرفَ قال: ما هذا تكبُّراً، وإنّما هو طلبُ إعزازِ الدينِ، وإظهارِ شَرَفِ العلمِ، وإرغامِ أنْفِ المخالفينَ. ومهما ظهَرَتْ منه آثارُ الحسدِ، وأطلقَ لسانهَ بالغيبةِ في أقرانِه، ومَنْ ردّ عليه شيئاً من كلامِه، لم يَظُنَّ بنفسِه أنّ ذلكَ حَسَدٌ، بل يقولُ: إنّ هذا غضبٌ للحقّ وردٌّ على المبطِلِ في عداوتِهِ وظُلْمِه، مع أنّه لو طعنَ في غيرِه من أهلِ العلمِ، ورَدّ عليه قوله، ومنعَ من منصبه، لم يكنْ غضبُه مثلَ غضبِه الآنَ، بل ربّما يفرحُ به، ولو كان غضبُه للحِقّ لا للحسَدِ علىٰ أقرانِهِ وخبثِ باطنِه، لاستوىٰ غضبُه في الحالينِ. وإذا خطَر له خاطرُ الرياءِ قال: غَرضي من إظهارِ العلمِ والعملِ اقتداءُ الخَلقِ بي، ليهتَدُوا إلىٰ دينِ الله ويتخلّصُوا مِنْ عِقابِ الله. وَلا يتأمّلُ المغرورُ أنَّهُ ليس يَفرحُ باقتداءِ الناسِ بغيرِهِ كما يفرحُ باقتدائِهم به، ولو كانَ غرضُه صلاحَ الخَلقِ لفرحَ بصلاحِهم علىٰ يدِ مَنْ كان، وربّما يتذكّرُ هذا ومعَ ذلك لا يُخليه الشيطان، بل يقولُ: إنّما ذلك؛ لأنّهم إذا اهتدَوا بي كان الأجرُ والثوابُ لي، ففرحي إنّما هو بثوابِ الله لا بقبولِ الخَلقِ، هذا ما يظنّ بنفسِه، واللهُ مطّلعٌ

---

١. الشمس (٩١): ٩.

علىٰ سريرتِه، إذ رُبّما كان باطِنُه في الخباثةِ بحيثُ لو عَلِم قطعاً بأنّ ثوابَه في الخمولِ وإخـفاءِ العلمِ والعملِ أكثرُ من ثوابِهِ في الإظهارِ، لاحتالَ مع ذلك في إظهارِ رِئاسَةٍ، من تـدريسٍ أو وعظٍ أو إمامةٍ أو غيرِ ذلك.

وربّما كان بعضُهم إمامَ قومٍ يظنّ أنّه علىٰ خيرٍ وباعثٌ لترويج الدين وإعلاءِ الكلمةِ ومقيمٌ بشِعارِ الإسلامِ، ومع ذلك لو أمّ غيرُه ممّنْ هو أعلَمُ وأورَعُ منه في مسجده، أو يتخلّفُ بعضُ مَنْ يقتدي به عن الاقتداءِ به، قامتْ عليه القيامةُ، وربّما لم يكنْ باعثُه علىٰ الحـركةِ إلىٰ المسـجدِ للإمامةِ مجرّدَ التقرُّبِ والامتثالِ لأمرِ الله، بل كان الباعثُ محضَ حبِّ الجاهِ والرئاسةِ واعتقادَ العامّةِ، أو مُرَكّباً منه ومن نِيّةِ الثواب. وربّما اتّخذَ بعضُهم الإمامةَ شُغْلاً ووسيلةً لأمرِ المعاشِ، ومع ذلك يظُنّ أنّه مشتغِلٌ بأمرِ الخيرِ، والظاهرُ في أمثالِ زمانِنا نُدُورُ الإمامِ الذي كان قصدُهُ من الإمامةِ مجرّدَ التقرُّبِ إلى الله، من دونِ وجودِ شيءٍ من حُبّ طلبِ المنزلةِ في القلوبِ، أو تحصيلِ المالِ، أو دفعِ بعضِ الشُرورِ عن نفسِه في زوايا قلبِه، ولو وُجِدَ مثلُه فهو القُدْوَةُ الذي يجبُ أن تُشَدَّ الرحالُ من المواضعِ البعيدةِ إليه لِيُقْتَدَىٰ به، ومثلُه كـلّما وجـدَ في نـفسِهِ قَـصْدَ التقرُّبِ والثوابِ في الذهابِ إلىٰ المسجدِ للإمامةِ ذهبَ، ولو لم يجدْ ذلكَ من نفسِه تَخَلّفَ، وصلّىٰ منفرداً، وهو الذي يستوي عنده اقتداءُ الناسِ به وعدمُه، ويسـتوي عـنده كَـثْرَةُ المـقتدينَ وَقِلّتُهم، بل يكونُ حالُه عند صلاتِه وهو إمامٌ لجمٍّ غفيرٍ كحالِهِ عندَ صلاتِهِ مُنفرِداً، من دون أن يجِدَ في نفسِهِ تفاوُتاً في الحالين.

وبالجملةِ، أصنافُ غُرورِ أهلِ العلم ـ سيّما في هذه الأعصار ـ كثيرةٌ، والمـتأمِّلُ يَـعلمُ أنّ الغرورَ أو التلبيسَ أو غيرَهما من ذمائِمِ الأفعالِ انـتهىٰ في بـعضهم إلىٰ أنّ وجـودَهم مُـضِرٌ بالإسلامِ والمسلمين وموتُهم أنفعُ للإيمانِ والمؤمنين، لأنّهم دجّالو الديـنِ وقـوّامـو مـذهب الشياطين، ومَثَلُهم كما قال عيسىٰ بنُ مريمَ عليه السلام: «العالم السوءِ كصخرةٍ وقعتْ في فمِ الوادي، فلا هي تشرَبُ الماءَ ولا هي تَتْرُكُ الماءَ يتخلّصُ إلى الزرعِ»[1].

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٣١٥.

الطائفةُ الرابعةُ: أهلُ العبادةِ والعملِ والمَغْرُورُونَ منهم فِرَقٌ كثيرةٌ:

فمنهم: مَنْ غلبتْ عليه الوَسوسَةُ في إزالةِ النجاسةِ وفي الوضوءِ، فيبالغُ فيه ولا يـرتضي الماءَ المحكومَ بالطهارةِ في فتوى الشرع، ويُقدِّرُ الاحتمالاتِ البعيدةَ الموجبةَ للنجاسةِ، وإذا آلَ الأمرُ إلى الأكلِ وأخذِ المالِ قدّرَ الاحتمالاتِ الموجبةَ للحلّ، بل ربّما أكلَ الحرامَ المحضَ وقدّرَ له محمَلاً بعيداً لحلّه، ولو انقلبَ هذا الاحتمالُ من الماءِ إلىٰ الطعامِ لكانَ أشبهَ بسيرةِ أكابرِ الأولياءِ. ثمّ من هؤلاءِ مَنْ يخرجُ إلى الإسرافِ في صبّه الماءَ وربّما بالغَ عند الوضوءِ في التخليلِ وضربِ إحدىٰ يديه علىٰ وجههِ أو يدهِ الأُخرىٰ، ولا يدري هذا المغرورُ أنّ هذا العملَ إنْ كان مع اليقينِ بحصولِ ما يلزمُ شرعاً فهو تضييعٌ للعمرِ الذي هو أعزُّ الأشياءِ فيما له مَنْدوحَةٌ عنه، وإن كان بدونه بل يحتاط في التخليلِ ليحصلَ الجزمُ بوصولِ الماءِ إلى البشرةِ، فما باله يَتَيَقَّنُ بوصول الماءِ إلى البشرةِ في الغُسلِ بدونِ هذه المبالغةِ والاحتياطِ، مع أنّ حُصولَ القطعِ بـإيصال المـاءِ إلى البشرَةِ في الغسلِ ألزمُ وأوجَبُ. ثمّ ربّما لم يكنْ له مبالغةٌ واحتياطٌ في الصلاةِ وسائرِ العباداتِ، وانحصرَ احتياطُهُ ومبالغتهُ بالوضوءِ، زاعماً أنّ هذا يكفي لنجاتِه، فهو مغرورٌ في غايةِ الغُرور.

ومنهم: مَن اغترّ بالصلاةِ فغلبتْ عليه الوَسْوَسَةُ في نيّتها، فلا يدعُهُ الشيطانُ حتّىٰ يعقدَ نيّةً صحيحةً، بل يُشَوِّشُ عليه حتّىٰ تفوتَه الجماعةُ أو فضيلةُ الوقت، وقد يُوسْوسُ في التكبيرِ حتّىٰ يُغيّرَ صيغتَها لشدّةِ الاحتياطِ فـيه، يـفعل ذلك في أوّل صـلاتِه ثمّ يَـغفلُ في جمـيع صـلاتِه، ولا يُحْضِر قَلْبَه، ويغترّ بذلك، ويظنّ أنّهُ إذا أتعبَ نفسَه في تصحيح النيّة فهو علىٰ خيرٍ. وربّما غلبتْ علىٰ بعضِهم الوَسْوَسَةُ في دقائقِ القراءةِ، وإخراجِ حروفِ الفاتحةِ وسائرِ الأذكارِ عـن مخارجِها، فلا يزالُ يَحتاطُ في التشديداتِ وتصحيحِ المخارجِ والتمـييزِ بـين مخـارجِ الحـروفِ المتقاربةِ، من غيرِ اهتمامٍ فيما عدا ذلك، من حُضورِ القلبِ والتفكيرِ في معاني الأذكارِ، ظنّاً منه أنّه إذا صحّت القراءةُ فالصلاةُ مقبولةٌ، وهذا أقبحُ أنواعِ الغُرورِ.

ومنهم: مَن اغترّ بالصومِ، وربّما صام الأيامَ الشريفةَ، بل صام الدهرَ، ولم يحفظْ لسانَه عن

الغِيبَةِ، ولا بَطْنَه عن الحرامِ عند الإفطار، ثمّ يظنّ بنفسه الخيرَ، وذلك في غايةِ الغُرور.

ومنهم: مَن اغترّ بقراءةِ القرآنِ، فيهذُّهُ هذّاً، وربّما يختمُ في اليوم والليلة مرّةً، فيجري به لسانه، وقلبُه مردّدٌ في أودية الأماني، وربّما أسرعَ في القراءةِ غايةَ السرعةِ، ويظنّ أنّ سُرْعَةَ اللسانِ من الكمالاتِ، ويتفاخرُ به على الأمثالِ والأقرانِ.

ومنهم: مَن اغترّ ببعضِ النوافلِ، كصلاةِ الليل، أو مجرّد غسل الجمعةِ، أو أمثال ذلك، من غير اعتدادٍ بالفرائضِ، زاعماً أنّ المواظبةَ علىٰ مجرّدِ هذه النافلةِ يُنجيه في الآخرةِ، فهو أيضاً من المغرورينَ.

ومنهم: مَنْ تَزَهَّدَ وقَنَعَ بالدونِ من المطعمِ والملبَسِ والمسكَنِ، ظانّاً أنّه أدركَ رُتْبَةَ الزهّادِ، ومع ذلك راغبَ في الرئاسةِ باشتهارهِ بالزهدِ، فهو تَركَ أهونَ المهلكين بأعظَمِها، إذْ حبُّ الجاهِ أشدُّ فساداً من حُبّ المال. ولو تَركَ الجاهَ وأخذَ المالَ لكانَ أقربَ إلىٰ السلامةِ، فهو مغرورٌ إذْ ظنَّ أنّه من الزهّادِ، ولم يعرِفْ أنّ منتهىٰ لذّاتِ الدنيا الرئاسةُ، وهو يُحبُّها، فكيفَ يكونُ زاهداً؟

ثمّ أكثرُ المتلبّسينَ بلباسِ العارفينَ ـ مع كذبِهم فيما يدّعونه، ونُقْصانِهم في طريق السلوكِ، وجَهْلِهم بحقيقةِ الأمرِ، وعدمِ قَطْعِهم جُلّ المقامات ـ يَتَشبَّهونَ بالصادِقينَ من العُرفاءِ في زِيّهم وهيئَتِهم وآدابِهم، ومراسِمِهم وألفاظِهم، ظانّين أنّهم بهذا التشبُّه يَصِلونَ إلى مراتِبِهم، فهيهات هيهات! إنّ الوصولَ إلىٰ درجةِ كلّ أحدٍ إنّما تَحصلُ بالاتّصاف بأوصافِه الباطنةِ والتخلّقِ بأخلاقِهِ النفيسة، دون التشبُّهِ به في حالاتِه الظاهرةِ.

وصلٌ

ضدّ الغُرور: الفَطانة والعلم والزُهد

قد عرفتَ أنّ الغُرورَ مُرَكّبٌ من الجهلِ وحُبِّ مقتضياتِ الشهوةِ والغَضَبِ، فضدّهُ الفطانةُ والعلمُ والزهدُ، فمن كان فَطِناً كيّساً عارفاً بربّه ونفسِهِ وبالآخرةِ والدنيا ـ وعالِماً بكيفيّةِ سلوكِ الطريقِ إلى الله وبما يقرِّبُه إليه وبما يُبعِدُهُ عنه، وعالماً بآفاتِ الطريقِ وعَقباتِه وغوائِلِه ـ اجتنَبَ عن الغُرورِ ولم يغرّهُ الشيطانُ في شيءٍ منَ الأُمورِ. إذ من عرفَ نفسَهُ بالذلّ والعبوديّةِ وبكونِهِ غريباً في هذا العالم أجنبيّاً من هذهِ الشهواتِ البهيميّةِ، عرفَ كونَ هذهِ الشهواتِ مُضِرّةً له، وأنّ الموافِقَ له طبعاً هو معرفةُ الله والنظرُ إلىٰ وجهِهِ، فلا تَسكُنُ نفسُه إلىٰ شهواتِ الدنيا. ومن عرفَ ربّهُ وعرفَ الدنيا والآخرةَ ولذّاتِها وعدمَ النسبةِ بينهما ثارَ في قلبِهِ حبُّ اللهِ والرغبةُ إلىٰ دارِ الآخرةِ والانزجار عن الدنيا ولذّاتِها، وإذا غلبتْ هذه الإرادةُ علىٰ قلبه صحّتْ نيّتهُ في الأُمورِ كلّها. وما دامت الدنيا أحبَّ إليه من الآخرةِ وهوى نفسهِ أحبَّ إليه من رضى الله، لم يمكنْه الخلاصُ من الغرور. قال الصادق عليه السلام:

> واعلم أنّكَ لن تخرجَ من ظلماتِ الغرورِ والتمنّي إلّا بصدقِ الإنابة إلى الله، والإخباتِ له، ومعرفةِ عيوبِ أحوالِكَ، وإنْ كنتَ راضياً بما أنتَ فيه فما أحدٌ أشقىٰ بعملِكَ منك وأضيَع عمراً، فأورثتَ حسرةً يومَ القيامة[1].

1. مصباح الشريعة، ص ٢١٥، الباب ٣٦.

النوع الثالث والعشرون: طول الأمل

وهو أنْ يقدّرَ ويعتقدَ بقاءَه إلىٰ مدّةٍ متمادية، مع رغبتهِ في جميع توابع البقاءِ من المالِ والأهل والدارِ وغيرِ ذلك، وهو من رذائلِ قوّتي العاقلةِ والشهوةِ، إذ الاعتقادُ المذكورُ راجعٌ إلى الجهلِ المتعلّقِ بالعاقِلَةِ، وحبّه لجميع توابعِ البقاءِ وميلهِ إليه من شُعَبِ حُبّ الدنيا. وجهله راجعٌ إلىٰ تعويله: إمّا علىٰ شبابه، فيستبعدُ قُربَ الموتِ مع الشبابِ، أو علىٰ صحّتهِ وقُـوّتهِ، ويَسـتبعدُ مجيءَ الموتِ فُجأةً، ولا يتأمّلُ في أنّ ذلكَ غيرُ بعيدٍ، ولو سلم بعده فالمرضُ فجأةً غيرُ بعيدٍ، إذ كلّ مرضٍ إنّما يقعُ فجأةً، وإذا مرضَ لم يكنِ الموتُ بعيداً. ولو تفكّر هذا الغافلُ، وعلم أنّ الموتَ ليس له وقتٌ مخصوصٌ، من شباب وشيبٍ وكهولةٍ، ومن شتاءٍ وخريفٍ وصيفٍ وربيعٍ، وليلٍ ونهارٍ، وحَضَرٍ وسَفَرٍ؛ لكان دائماً مستشعراً غيرَ غافلٍ عنه، وعظُمَ اشتِغالُهُ بالاستِعدادِ له. لكنّ الجهلَ بهذه الأُمورِ وحبَّ الدنيا بَعثاهُ على الغفلةِ وطولِ الأمل، فهو أبداً يظنُّ أنّ الموتَ بـين يديه، ولا يقدّرُ نزولَه ووقوعَه فيه، ويُشَيّعُ الجنائزَ ولا يقدّرُ أن تُشَيَّعَ جنازتُه؛ لأنّ هذا قـد تكرّر عليه، وألِفَهُ بتكرّر مشاهدةِ موتِ غيره. وأمّا موتُ نفسه، فلم يألفْه ولا يتصوّرُ أنْ يألفَهُ؛ لأنّه لم يقعْ، وإذا وقَع لا يقعُ دفعةً أُخرىٰ بعده، فهو الأوّلُ وهو الآخِرُ.

وأمّا حبّه لتوابع البقاءِ: من المالِ والدارِ والمراكبِ والضِياعِ والعَقارِ، فراجعٌ إلى الأُنس بها والالتذاذِ بها في مدّةٍ مديدةٍ، فيثقلُ علىٰ قلبه مفارقتُها، فيمنعُ قلبه عن التفكُّرِ في الموت الذي هو سببُ مفارقتِها، إذ كلّ مَنْ كرهَ شيئاً يدفعُهُ عن نفْسِهِ.

وصلٌ
ضدّ طول الأمل: قِصَرُ الأملِ

ضدُّ طولِ الأملِ قِصَرُهُ، وهو من شِعارِ المؤمنينَ ودِثارِ الموقِنين، ولذا ورد في الأمر به والنهيِ عن ضدّهِ ما وردَ، قال رسول الله ﷺ:

إذا أصبحتَ فلا تحدّثْ نفسَك بالمساءِ، وإذا أمسيتَ فلا تحدّثْ نفسَكَ بالصباحِ، وخذ من دُنياكَ لآخرتِكَ، ومنْ حياتِكَ لموتِكَ، ومن صحّتِكَ لسَقَمِكَ، فإنّكَ لا تدري ما اسمكَ غداً[1].

وقال ﷺ «أكُلُّكُم يحبُّ أن يدخلَ الجنَّةَ»؟ قالوا: نعم يا رسول الله! قال: «قصّروا من الأملِ، واجعلوا آجالَكم بين أبصارِكم، واستحيُوا من اللهِ حقَّ الحياءِ»[2]. وهاهنا أُمور:

الأمر الأوّل: ذكرُ الموتِ مقصّرٌ للأملِ

ذكرُ الموتِ يُقَصّرُ الأملَ ويدفعُ طولَه، ويوجِبُ التجافيَ عن دارِ الغُرورِ والاستعدادَ لدارِ الخلودِ، ولذا وردَ في فضيلتِه والترغيب فيه أخبارٌ كثيرةٌ، قال رسول الله ﷺ:

«أكثروا ذكرَ هادِمِ اللذّاتِ»، قيل: وما هو يارسول الله؟ قال: «الموتُ، فما ذكَرَهُ

---

1. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٩٩، باب حبّ الدنيا...، ح ٥٨.
2. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٢٤٦.

عبدٌ على الحقيقةِ في متعةٍ إلّا ضاقتْ عليه الدنيا، ولا في شِدّةٍ إلّا اتّسعَتْ عليه»[١].

الأمر الثاني: العَجَبُ ممّن يَنْسى الموتَ

عجباً لقومٍ نَسَوا الموتَ وغفلُوا عنه، وهو أظهَرُ اليقينيّاتِ والقطعيّاتِ في العالم، وأسرعُ الأشياءِ إلىٰ بني آدم، قال الله سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[٢] و ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَـٰعُ الْغُرُورِ﴾[٣]. وقال أميرُ المؤمنينعليه السلام: «ما أنْزَلَ الموتَ حقَّ منزلتهِ من عَدَّ غداً من أجَلِه»[٤]. وقال: «لو رأى العبدُ أَجَلَهُ وسُرْعَتَهُ إليه، لأبغضَ العملَ من الدنـيا»[٥]. وقال الصادقعليه السلام: «ما من أهلِ بيتِ شَعَرٍ ولا وَبَرٍ إلّا ومَلَكُ الموتِ يَتَصَفَّحُهُ كلَّ يـومٍ خمسَ مرّاتٍ»[٦].

الأمر الثالث: الموتُ أعظمُ الدواهي

اعلمْ أنّ الموتَ داهيةٌ من الدواهي العظمىٰ، ومنْ كُلّ داهيةٍ أشدُّ وأدهىٰ، وهو من الأخطار العظيمة والأهوالِ الجسيمةِ، فمن عَلِمَ أنَّ الموتَ مصرعُهُ والترابَ مَضْجَعُهُ، والقبرَ مقرُّهُ وبطنَ الأرضِ مستقرُّهُ، والدودَ أنيسُهُ والعقاربَ والحيّاتِ جليسُه، فجديرٌ أنْ تطولَ حسرتُهُ وتدومَ عبرتُهُ، وتنحصِرَ فيه فكرتُه وتعظمَ بليّتهُ، وتشتدّ لأجْلِه رزيّتُهُ، ويرىٰ نفسَه في أصحابِ القبورِ ويعدَّها من الأموات، إذ كلُّ ما هو آتٍ قريبٌ، والبعيدُ ما ليس بآتٍ، وحقيقٌ ألّا يكونَ ذكرُه وفكرُه وغمُّه وهمُّه وقوله وفعلُه وسعيُه وجدُّه إلّا فيه وله، قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «لو أنّ

---

١. المحجة البيضاء، ج ٨، ص ٢٤٢.
٢. النساء (٤): ٧٨.
٣. آل عمران (٣): ١٨٥.
٤. الكافي، ج ٣، ص ٢٥٩، باب النوادر، ح ٣٠.
٥. الكافي، ج ٣، ص ٢٥٩، باب النوادر، ح ٣٠، وفيه: «من طلب الدنيا».
٦. الكافي، ج ٣، ص ٢٥٦، باب النوادر، ح ٢٢.

البهائم يعلمونَ ما تعلمونَ ما أكلتُم منها سميناً»[١]. وقال ﷺ لقومٍ يتحدّثونَ ويضحكون: «أُذكروا الموتَ، أما والذي نفسي بيده، لو تعلمون ما أعلمُ لضحكتُم قليلاً ولَبَكَيتُم كثيراً»[٢].

ثمّ غَفْلَةُ الناسِ عن الموتِ لِقِلّةِ فِكرِهم فيه وذِكرِهم له، ومَنْ يذكرُهُ ليس يذكُرُه بقلبٍ فارغٍ، بل بقلبٍ مشغولٍ بشهواتِ الدنيا وعلائقها، فلا يَنفَعُ ذِكْرُهُ في قلبِهِ. فالطريقُ فيه: أنْ يُفرِّغَ القلبَ عن كلِّ شيءٍ إلّا عن ذكرِ الموتِ الذي بين يديهِ، كالذي يُريدُ أنْ يُسافرَ إلىٰ بلدٍ بعيدٍ وبينهما مفازةٌ خَطِرَةٌ، أو بحرٌ عظيمٌ لابدّ أنْ يركبَهُ، فإنّه لا يَتفكّرُ إلّا فيه، ولو تَفكّرَ في الموتِ بهذا الطريقِ وتكرّرَ منه ذلك، لأثّر ذكرُهُ في قلبِهِ، وعند ذلك يقلّ فرحُهُ وسرورُهُ بالدنيا، وتَنْزَجِرُ نفسُه عنها، وينكسِرُ قلبُه، ويستعدُّ لأجَلِهِ. فملازمة هذه الأفكار وأمثالها، مع دخولِ المقابرِ وتشييعِ الجنائزِ ومشاهدةِ المرضىٰ، تجدّدُ ذكرَ الموتِ في قلبِه، حتّىٰ يغلِبَ عليه بحيث يصيرُ الموتُ نصبَ عينيه، وعند ذلك ربّما يستعدّ له ويتجافىٰ عن دار الغرورِ. وأمّا الذكرُ بظاهرِ القلبِ وعذبةِ اللسانِ فقليلُ الجدوىٰ في التنبيهِ والإيقاظِ. ومهما طاب قلبُه بشيءٍ من أسبابِ الدنيا، فينبغي أن يتذكّرَ في الحالِ أنّه لابدَّ من مفارقتهِ، كما نقل: أنَّ بعضَ الأكابرِ نظر يوماً إلىٰ دارِه فأعجبَه حُسنُها، فبكىٰ وقال: واللهِ لولا الموتُ لكنتُ بها مسروراً.

الأمر الرابع: المبادَرةُ إلى الحسناتِ

من علاماتِ قِصرِ الأملِ وذكرِ الموتِ: المبادرةُ إلى الحسناتِ واشتياقُ الخيراتِ، ولذا وردَ فيه الترغيبُ والحذرُ عن آفةِ التأخيرِ، قال رسولُ الله ﷺ: «اغتنِمْ خمساً قبلَ خمسٍ: شبابَكَ قبلَ هَرَمِكَ، وصحّتَكَ قبل سَقَمِكَ، وغِناكَ قبل فَقْرِكَ، وفراغَكَ قبل شغلِكَ، وحياتَكَ قبل موتِكَ»[٣]. وكان ﷺ إذا أحسّ من أصحابه غفلةً وغِرّةً، نادىٰ فيهم بصوتٍ عالٍ: «أتَتْكُمُ المنيّةُ، إمّا بشقاوةٍ أو بسعادةٍ»[٤].

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٢٤٠.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٢٤١.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٢٥٠.

٤. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٢٥٠.

النوع الرابع والعشرون: الوقاحة

وهو عدمُ مبالاةِ النفسِ، وعدمُ انفعالها من ارتكابِ المحرّمات الشرعيّةِ والعقليّةِ أو العرفيّةِ.

وضدّها الحياءُ، وهو انحصارُ النفسِ وانفعالهُا من ارتكابِ المحرّمات الشرعيّة والعقليّةِ والعاديةِ حَذَراً من الذمّ واللّومِ، وهو أعمّ من التقوىٰ، إذِ التقوىٰ اجتنابُ المعاصي الشرعيّةِ، والحياءُ يَعُمّ ذلك، واجتنابَ ما يقبّحُهُ العقلُ والعرفُ أيضاً. فهو من شرائفِ الصفاتِ النفسيّةِ، ولذا وردَ في فضلهِ ما ورد، قال الصادق عليه السلام: «الحياءُ من الإيمانُ، والإيمانُ في الجنّة»[1]. وقال عليه السلام: «الحياءُ والعفافُ والعيّ، أعني عيَّ اللسانِ لا عيَّ القلبِ من الإيمانِ»[2]. وقال عليه السلام: «لا إيمانَ لمن لا حياءَ له»[3].

ثمّ حقيقةُ الحياءِ هو الانفعالُ عن ارتكابِ ما يُذمُّ شرعاً أو عقلاً أو عُرْفاً. فالانفعالُ عن غير ذلك حُمْقٌ، فإنّ الانفعالَ عن تحقيقِ أحكام الدينِ أو الخمودَ عمّا ينبغي شرعاً وعقلاً لا يعدُّ حياءً بل حُمقاً، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحياءُ حياءان: حياءُ عقلٍ وحياءُ حُمقٍ، فحياءُ العقلِ هو العلمُ وحياءُ الحُمقِ هو الجهلُ»[4].

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٠٦، باب الحياء، ح ١.
٢. الكافي، ج ٢، ص ١٠٦، باب الحياء، ح ٢.
٣. الكافي، ج ٢، ص ١٠٦، باب الحياء، ح ٥.
٤. الكافي، ج ٢، ص ١٠٦، باب الحياء، ح ٦.

النوع الخامس والعشرون: الإصرارُ علىٰ المعصيةِ

وهو إمّا ناشئٌ من رداءةِ إحدى القوّتينِ وخروجِها عن إطاعةِ العاقلَةِ، أو عن رداءتِهما معاً، فيكونُ من رذائلِ القوّتين، وكلّ ما يدلّ علىٰ ذمِّ مطلَقِ المعصيةِ أو علىٰ ذمِّ خصوصِ أفرادها المعيّنةِ يدلُّ علىٰ ذمّ الإصرارِ علىٰ المعصيةِ بطريقٍ أولىٰ وأوكدَ. والأخبارُ الواردةُ في ذمِّ خُصوصِ أفرادِ المعاصي ربّما يظفرُ بجملةٍ منها في هذا الكتابِ عند ذكرِ كلِّ معصيةٍ، وأمّا الأخبارُ الواردةُ في ذمِّ مطلقِ الذنبِ والمعصيةِ فكثيرةٌ جداً. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تُبدِيَنَّ عن واضحةٍ وقد عمّتْكَ الأعمالُ الفاضحَةُ، ولا تأمنِ البياتَ وقد عملتَ السيّئاتِ»[1]. وقال الباقر عليه السلام: «إنّ اللهَ قضىٰ قضاءً حتماً ألّا يُنْعِمَ علىٰ العبدِ بنعمةٍ فيسلبَها إيّاهُ حتّىٰ يُحدِثَ العبدُ ذنباً يستحقّ بذلك النِقمَةَ»[2]. وقال عليه السلام: «ما من شيءٍ أفسدُ للقلبَ من خطيئتهِ، إنّ القلبَ لَيُواقِعُ الخطيئةَ، فما يزالُ به حتّىٰ يغلبَ عليه، فيصيرَ أعلاه أسفلَه»[3]. وقال عليه السلام: «إنّ العبدَ ليذنبُ الذنبَ فيُزْوَى عنه الرزقُ»[4]. وقال الصادقُ عليه السلام: «يقولُ الله تعالىٰ: إنّ أدنىٰ ما أصنعُ بالعبد إذا آثَرَ شهوتَهُ علىٰ طاعتي أنْ أحرِمَه لذيذَ مناجاتي»[5]. وقال عليه السلام: «إنّ الرجلَ يُذنبُ

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٢٦٩، باب الذنوب، ح ٥.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٢٧٣، باب الذنوب، ح ٢٢.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٢٦٨، باب الذنوب، ح ١.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٢٧٠، باب الذنوب، ح ٨.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٩٦.

الذنبَ فيحرَمُ صلاةَ الليل، وإنّ العملَ السيِّءَ أسرعُ في صاحبه من السكّين في اللحم»[١].

والأخبارُ في هذا المعنىٰ أكثر من أن تُحصىٰ، ولا يتوهّم أحدٌ أنّه يمكنُ ألّا يَصِلَ إليه أثرُ الذنبِ ووبالهُ، فإنّ هذا محالٌ، فإنّه لم يتجاوزْ عن الأنبياءِ في تركِهم الأولىٰ. فكيفَ يتجاوزَ عن غيرهم في كبائرِ المعاصي. نعم، كانت سعادتُهم في أنْ عوجِلوا بالعقوبةِ ولم يؤخّروا إلى الآخرة، والأشقياء يُمهلُونَ ليزدادوا إثماً، ويعذّبوا في الآخرة عذاباً أكبرَ وأشدَّ. أما سمعتَ أنّ أباكَ آدمَ قد أُخرجَ من الجنّةِ بتركهِ الأولىٰ؟ حتّىٰ روي:

أنّه لمّا أكلَ الشجرةَ تطايرتِ الحللُ عن جَسَدهِ وبدتْ عورتُه، وجاءَ جبرئيلُ عليه السلام وأخذ التاجَ من رأسهِ وخلّىٰ الإكليل عن جنبيه، ونودي من فوقِ العرشِ: اهبِطا من جِواري، فإنّه لا يجاورُني مَنْ عصاني، فالتفتَ آدمُ إلىٰ حوّاءَ باكياً، وقال: «هذا أوّل شؤمِ المعصيةِ، أُخرجنا من جوارِ الحبيب»[٢].

فإنْ كانت مؤاخذتُه في نهي تنزيهٍ مع حبيبهِ وصفيّه هكذا، فكيفَ معاملتُه مع غيره في ذنوبٍ لا تُحصىٰ.

١. الكافي، ج ٢، ص ٢٧٢، باب الذنوب، ح ١٦.

٢. انظر: الدرّ المنثور، ج ١، ص ١٤١.

وصلٌ
ضدّ الإصرار: التوبةُ والمحاسبة والمراقبة

ضدُّ الإصرار التوبةُ، وهي الرُجوعُ من الذنبِ القوليّ والفعليّ والفكريّ. وبعبارةٍ أُخرىٰ: هي تنزيهُ القلبِ عن الذنبِ والرجوعُ من البُعْدِ إلى القُرب. وبعبارةٍ أُخرىٰ: تركُ المعاصي في الحالِ والعزمُ علىٰ تركها في الاستقبالِ، وتدارُكُ ما سبقَ من التقصيرِ. فالعلمُ والندمُ والقصدُ المتعلّقُ بالتركِ في الحالِ والاستقبالِ والتلافي للماضي، ثلاثةُ معانٍ مترتّبةٍ في الحصولِ، يُطلقُ اسمُ التوبةِ علىٰ مجموعِها، وربّما أُطلقتِ التوبةُ علىٰ مجرّدِ الندمِ، وجُعِلَ العلمُ كالسابقِ والمقدّمةِ، والتركُ كالثمرةِ والتابعِ للمتأخّرِ، وإلى هذا الاعتبارِ يشيرُ قوله ﷺ: «الندمُ توبةٌ»[1]، إذ لا يخلو الندمُ عن علم أوجبه وأثمرهُ، أو عن عزمٍ تتبعُه وتتلُوه، فيكونُ الندمُ محفوفاً بطرفيه، أعني ثمرتَه ومثمرَه. قال الصادق عليه السلام:

> التوبةُ حبلُ الله ومَدَدُ عنايته، ولابدَّ للعبدِ من مُداومةِ التوبةِ علىٰ كلّ حالٍ، وكُلُّ فِرْقةٍ من العبادِ لهم توبةٌ: فتوبةُ الأنبياءِ من اضطرابِ السِرّ، وتوبةُ الأولياءِ من تلوين الخَطَراتِ، وتوبةُ الأصفياءِ من التنفيس، وتوبةُ الخاصِّ من الاشتغال بغَيرِ الله، وتوبةُ العامِّ من الذُنوبِ، ولكلّ واحدٍ منهم معرفةٌ وعِلمٌ في أصلِ تَوبَتهِ ومنتهىٰ أمرِه، وذلك يطولُ شرحُه هنا.

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٤.

وأمّا توبةُ العامِّ، فأنْ يغسِلَ باطنَه من الذنوبِ بماءِ الحسْرةِ، والاعترافِ بجِناياتِه دائماً، واعتقادِ النَدَم علىٰ ما مضىٰ، والخوفِ علىٰ مابقي من عُمره، ولا يستصغرُ ذنوبَهُ فيحمِلهُ ذلك إلى الكَسَل، ويُديمُ البُكاءَ والأسفَ علىٰ ما فاتَهُ من طاعةِ الله، ويَحبِسُ نفسَه عن الشهواتِ، ويستغيثُ إلى الله تعالىٰ ليحفظَهُ علىٰ وفاءِ توبتِه ويَعصِمَه عن العودِ إلىٰ ما سلفَ، ويُروّضُ نفسَه في مَيدان الجِهاد والعبادةِ، ويقضي عن الفوائتِ مِن الفرائض، ويَرُدُّ المظالمَ، ويعتزِلُ قُرناءَ السوءِ، ويَسْهرُ ليلَهُ ويَظْمأُ نهارَهُ، ويَتفكّرُ دائماً في عاقبتِهِ، ويَستعينُ بالله تعالىٰ سائِلاً منه الاستقامةَ في سَرّائِه وضَرّائِه، ويَثبُتُ عند المِحَنِ والبلاء كَي لا يَسقُطَ عن درجةِ التوّابين، فإنّ في ذلك طهارةً مِن ذُنوبِه، وزيادةً في عملِه، ورفعةً في درجاتِه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَـٰذِبِينَ﴾[1].[2]

ولنذكر ما يتعلّق بالبحث في أُمور:

الأمر الأوّل: وجوبُ التوبةِ

التوبةُ عن الذنوبِ بأسْرِها واجبةٌ: بالإجماعِ، والنقلِ، والعقلِ:

أمّا الإجماعُ فلا ريبَ في انعقادِه. وأمّا النقلُ، فكقوله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[4].

وأمّا العقلُ فهو أنّ من عِلمَ معنى الوجوبِ ومعنى التوبةِ فلا يَشُكُّ في ثُبوتِهِ لها.

بيان ذلك: أنّ معنى الواجبِ وحقيقَتِهِ هو ما يَتوقّفُ عليه الوصولُ إلىٰ سعادةِ الأبدِ والنجاةِ من هلاكِ السرمَدِ، ولولا تعلّقُ السعادةِ والشقاوَةِ بفعلِ الشيءِ وتركِهِ لمْ يكنْ معنى لوجوبِهِ،

---

١. العنكبوت (٢٩): ٣.

٢. مصباح الشريعة، ص ٤٣٤ ـ ٤٣٦، الباب ٧٩؛ بحار الأنوار، ج ٦، ص ٣١، باب التوبة، ح ٣٨.

٣. النور (٢٤): ٣١.

٤. التحريم (٦٦): ٨.

فالواجبُ ماهو وسيلةٌ وذريعةٌ إلىٰ سعادَةِ الأبدِ. ولا ريبَ في أنّه لا سعادةَ في دارِ البقاءِ إلّا في لقاءِ الله والأُنسِ به، فكلُّ مَنْ كانَ محجوباً عن اللقاءِ والوصالِ محروماً عن مشاهَدَةِ الجلالِ والجمالِ، فهو شقيٌّ لا محالةَ، محترقٌ بنارِ الفراقِ ونارِ جهنّمَ. ثمّ لا مُبَعِّدَ عن لقاءِ الله إلّا اتباعُ الشهواتِ النفسيّة والغضبُ والأُنسُ بهذا العالمِ الفاني، والإكبابُ علىٰ حبِّ مالابدَّ من مفارَقَتِهِ قطعاً، ويعبَّرُ عن ذلك بالذنوب. ولا مقرِّبَ من لقاءِ الله إلّا قطعُ علاقةِ القلبِ من زُخْرفِ هذا العالمِ، والإقبالُ بالكلّيّةِ على الله، طلباً للأُنسِ به بدوامِ الذكرِ، والمحبّةِ له بدوامِ الفكرِ في عظمتِهِ وجلالِه وجمالِهِ علىٰ قَدْرِ طاقته. ولا ريبَ في أنّ الانصرافَ عن طريقِ البُعدِ الذي هو الشقاوةُ واجبٌ للوصولِ إلى القُربِ الذي هو السعادةُ، ولا يتمُّ ذلك إلّا بالتوبةِ التي هي عبارةٌ عن العلمِ والندمِ والعزمِ، وما لا يتمُّ الواجبُ إلّا به فهو واجبٌ، فالتوبةُ واجبةٌ قطعاً.

تذنيب: كيف لا تكونُ التوبةُ عن المعاصي واجبةً، مع أنّ العلمَ بضررِ المعاصي وكونها مَهْلَكَةً من أجزاءِ الإيمانِ ووجوبِ الإيمانِ ومّما لا ريبَ فيه، والعالِمُ بهذا العلمِ إذا لم يعملْ به فكما لا يعلمُه أو ينكرُهُ فلا يكونُ له هذا الجزءُ من الإيمانِ، لأنّ كلَّ علم يرادُ ليكونَ باعثاً على العملِ، فلا يقعُ التفصّي عن عهدتِه ما لمْ يصِرْ باعِثاً، فالعلمُ بضررِ الذنوبِ إنّما أُريد ليكونَ باعثاً علىٰ تركِها، فمن لم يتركْها فهو فاقدٌ لهذا الجزءِ من الإيمانِ، وهو المرادُ بقولِ النبيّ ﷺ: «لا يزني الزاني حينَ يزني وهو مؤمنٌ»[1]، وما أرادَ به نفيَ الإيمانِ بالله ووحدانيّتِهِ وصفاتِه وكتبِهِ ورُسلِهِ، فإنّ ذلك لا يُنافي الزنىٰ والمعاصيَ، وإنّما أرادَ به نفيَ الإيمان بالله لكَونِ الزنىٰ مبعداً عن الله وموجباً لسخطِهِ، وليس الإيمانُ باباً واحداً، بل هو ـ كما وردَ ـ نيّفٌ وسبعونَ باباً، أعلاها الشهادتان وأدناها إماطةُ الأذىٰ عن الطريق[2]، فكلّ إيمانٍ لم يثبتْ في النفسِ أصْلُهُ ولم تنتشرْ في الأعمالِ فروعُهُ، لم يثبُتْ علىٰ عواصفِ الأهوالِ عند ظهورِ ناصيةِ مَلَكِ الموتِ وخِيفَ عليه سوءُ الخاتمةِ، فالمحجوبُ عن الإيمان الذي هو شُعَبٌ وفروعٌ سيُحجَبُ في الخاتمةِ عن الإيمان

1. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٣.
2. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٣.

الذي هو أصلٌ. فمساواةُ العاصي والمطيعِ في اسم المؤمنِ كمساواةِ شجرةِ القَرعِ وشجرةِ الصُنوبَرِ في اسمِ الشجرةِ، وإنّما يظهرُ الفرقُ إذا عصفَتِ الرياحُ القويّةُ، فعند ذلك تنقطعُ أُصولُ شجرةِ القرعِ وتتناثَرُ أوراقُها، وتبقىٰ شجرةُ الصنوبرِ ثابتةً علىٰ أصلها وفرعِها. ومثلُ العاصي الذي لا يخافُ الخلودَ في النارِ لأجل معصيته اتّكالاً علىٰ إيمانه بالتوحيدِ والرسالةِ، كَمثَل الصحيحِ الذي يأكلُ الأغذيةَ المضِرَّةَ والسموماتِ ولا يخافُ الموتَ اتّكالاً علىٰ صحّته. فكما تؤدّى صحّةُ هذا الصحيحِ بتناولهِ السُموماتِ والأغذيةِ إلى المرضِ والمرضُ إلىٰ الموتِ، فكذلك تُؤدّى ذنوبُ العاصي إلىٰ سوءِ الخاتمة وسوءُ الخاتمةِ إلى الخُلودِ في النارِ. فالمعاصي للإيمان كالسموماتِ والمأكولاتِ المضرّةِ للأبدانِ.

فالبَدارَ البَدارَ معاشرَ إخواني إلىٰ التوبةِ! قبلَ أنْ تعملَ سمومُ الذنوبِ بروحِ إيمانِكم عملاً لا ينفعُ بعده الاحتماءُ، ويخرجُ الأمرُ فيه عن أيدي أطبّاءِ القلوبِ، فلا ينفعُ حينئذٍ وعظُ الواعظين ونصحُ الناصحين، وتحقُّ عليكم كلمةُ العذاب، وتدخلونَ تحتَ عموم قولهِ تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1] و ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[2] وغير ذلك من الآيات.

ثمّ مقتضى الأدلّةِ المذكورةِ: كونُ التوبةِ واجبةً علىٰ الفورِ، فيجبُ على كلّ مسلم أن يتوبَ عن ذنوبه فوراً، ولا يجوزُ له التأخيرُ. قال لقمانُ لابنه: «يا بُنيّ لا تُؤخّرِ التوبةَ، فإنّ الموتَ يأتي بغتةً»[3]. ومَنْ تركَ المبادرةَ إلى التوبةِ بالتسويفِ كان بين خطرينِ عظيمينِ: أحدُهما: أنْ تتراكمَ الظُلمةُ علىٰ قلبهِ منَ المعاصي حتّىٰ يصيرَ دِيناً وطبعاً فلا يقبلُ المحوَ. والثاني: أن يُعاجِلَهُ المرضُ أو الموتُ فلا يجدُ مهلةً للاشتغالِ بالمحوِ. ولذلك وردَ: أنّ أكثرَ صياحِ أهلِ النارِ من التسويفِ[4]، فما هُلِكَ إلّا بالتسويفِ.

---

١. يس (٣٦): ٩.

٢. البقرة (٢): ٧.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٢٢.

٤. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٢.

الأمر الثاني: عمومُ وجوبِ التوبةِ

وجوبُ التوبةِ يعُـمُّ الأشخاصَ والأحوالَ، فلا ينبغي أنْ يَنفَكَّ عنه أحدٌ في حالةٍ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً﴾[1] وهو يعمُّ الكلَّ في الكُلِّ. وممّا يدلُّ علىٰ وجوبِها على الكُلِّ: أنّ كُلَّ فردٍ من أفرادِ الناسِ إذا بلغَ سنَّ التمييزِ والتكليفِ قامَ القتالُ والنزاعُ في مملكةِ بدنِه، بـين الشهواتِ جنودِ الشياطين وبين العقولِ أحزابِ الملائكة.

وكُلُّ نَـفَـسٍ من العمرِ جوهَرَةٌ نفيسةٌ لا عِوَضَ لها، لإيـصالِها العـبدَ إلىٰ سـعادةِ الأبـدِ وإنقاذِها إيّاه من شقاوةِ السَرمدِ، وأيُّ جوهرٍ أنْفَسُ من هذا، فمَـن ضـيّعَها في الغـفلةِ خـسِرَ خُسراناً مبيناً، ومَنْ صرفَها في معصيةٍ فقد هلكَ هلاكاً أبديّاً. وقد قيلَ:

إنّ لله تعالىٰ إلىٰ عبدِهِ سرّين يُسِرُّهما إليه علىٰ سبيل الإلهام:

أحدُهما: إذا خرجَ من بطنِ أُمّه يقوله له: عبدي، قد أخرجتُكَ إلى الدنـيا طـاهراً لطيفاً، واستودعتُكَ عُمرَكَ وائتمنتُكَ عليه، فانظرْ كيف تحفظُ الأمانةَ، وانظرْ كيف تلقاني.

والثاني: عند خروجِ رُوحِهِ يقول: عبدي، ماذا صـنعتَ في أمـانتي عـندكَ، هـل حفظتَها حتّىٰ تلقاني علىٰ العهدِ فألقاكَ على الوفاءِ؟ أو أضعتَهـا فألقاكَ بـالمطالبةِ والعقابِ؟[2]

وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِـعَهْدِكُمْ﴾[3] و ﴿وَالَّـذِينَ هُـمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[4].

تذنيبٌ: التوبةُ عن بعضِ المعاصي واجبةٌ بفتوىٰ الشرع، بمـعنىٰ أنّ التـاركَ لهـذه التـوبةِ والمرتكبَ لهذهِ المعاصي يكونُ معذّباً بالنار، وهذا الوجوبُ يشتركُ فيه كافّةُ الخلقِ، وتكليفُ الجميع به لا يوجبُ فساداً في النظامِ الكلّي.

---

١. النور (٢٤): ٣١.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٢، نقلاً عن بعض العارفين.

٣. البقرة (٢): ٤٠.

٤. المؤمنون (٢٣): ٨؛ المعارج (٧٠): ٣٢.

وأمّا التوبةُ عن بعضٍ آخرَ منها، كالخواطرِ والهمَمِ الطارئةِ علىٰ القلبِ، والقصورِ عن معرفةِ كُنْهِ جلالِ الله وعظمتِهِ، وأمثالِ ذلك، فليس واجباً بهذا المعنىٰ؛ لمنافاته انتظام العالم. إذ لو كُلِّف الخلقُ كلُّهم أنْ يتّقوا الله حقَّ تُقاتِه، لتركوا المعايشَ ورَفَضُوا الدنيا بالكليّةِ، وذلك يؤدّي إلىٰ بطلانِ التقوىٰ رأساً؛ لأنّه إنْ فسدَتِ المعايشُ لم يتفرّغ أحدٌ للتقوىٰ. فالتوبةُ عن كلّ ما هو المرجوحُ ليستْ واجبةً بهذا الاعتبارِ، بل هي واجبةٌ بمعنىٰ آخرَ، وهو ما لابدّ منهُ للوصولِ به إلىٰ غايةِ القُربِ إلى الله، وإلى المقام المحمودِ والدرجاتِ العليا، فمن رضي بأصل النجاةِ وقنعَ به لم تكنْ هذه التوبةُ واجبةً عليه، ومَنْ طلبَ الوصولَ إلىٰ ما ذُكِرَ وجبتْ عليه هذه التوبةُ وجوباً شرطيّاً، بمعنىٰ توقُّفِ مطلوبهِ عليه، كما جرتْ عليه طوائفُ الأنبياء والأولياءِ وأكابرُ العُرفاءِ والعلماءِ، ولأجلِهِ رفَضُوا لذّاتِ الدنيا بالكلّيّةِ. وعلىٰ هذا فما وردَ من استغفارِ الأنبياءِ والأوصياءِ وتوبتِهم إنّما هو منْ تركِ دوامِ الذكرِ وغفلتِهم عن مقامِ الشهودِ والاستغراقِ لاجلِ اشتغالِهِم بالمباحاتِ، لا عن ذنوبٍ كذنوبنا، لتعاليهم وتقدُّسِهم عن ذلك. قال الصادق عليه السلام:

> إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله كان يتوبُ إلى الله ويستغفرُهُ في كلّ يومٍ وليلةٍ مائةَ مرّةٍ من غيرِ ذنبٍ. إنّ الله تعالىٰ يخصّ أولياءَهُ بالمصائبِ، ليأجرَهم عليها من غيرِ ذنبٍ[1].

يعني كذنوبِنا، فإنّ ذنبَ كلِّ أحدٍ إنّما هو بحسبِ قَدْرِهِ ومنزِلَتِهِ عند الله. وبمضمونه أخبارٌ أُخرُ.

الأمر الثالث: لابدّ من العمل بعدَ التوبةِ

لا يكفي في تدارُكِ الشهواتِ والتوبةِ عن الذنوبِ مجرّدُ تركِها في المستقبل، بل لابدّ من محوِ آثارِها التي انطبعتْ في جوهرِ النفسِ بنورِ الطاعاتِ، إذ كلُّ شهوةٍ ومعصيةٍ صدرتْ من الإنسانِ ارتفعتْ منها ظُلمةٌ إلىٰ قلبهِ، كما ترتفعُ من نفسِ الإنسانِ ظُلمةٌ إلىٰ وجهِ المرآةِ الصقيلةِ، فإنْ تراكمتْ ظلمةُ الشهواتِ والمعاصي صارتْ رَيْناً، كما يصير بخارُ النَفَسِ في وجهِ

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٤٥٠، باب نادر (مِن كتاب الإيمان والكفر)، ح ٢؛ المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٨.

المرآةِ عند تراكُمِهِ خبثاً، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

فإذا تراكمَ الرينُ صارَ طبعاً، فيطبعُ علىٰ قلبِهِ، كما أنّ الخبثَ في وجهِ المرآةِ إذا تراكمَ وطالَ زمانُه غاصَ في جِرمِ الحديدِ وأفسَدهُ، وصارَ بحيثُ لا يقبلُ التصقيلَ بعده. فالتائبُ من الذنوبِ لابدَّ له من محوِ تلكَ الآثارِ التي انطبعتْ منها في نفسِهِ، ولا يكفي مجرّدُ تركِها في المستقبلِ، وإليه الإشارةُ بقوله ﷺ: «أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها»[٢]. فإذنْ لا يستغني العبدُ في حالٍ من أحوالِهِ من محوِ آثارِ السيّئاتِ عن قلبه بمباشرةِ حسناتٍ تضادُّ آثارُها آثارَ تلك السيّئاتِ؛ لقوله ﷺ: «اتّقِ اللهَ حيثُ كنتَ»[٣]؛ ولأنّ المرضَ يُعالجُ بضدِّهِ.

وينبغي أنْ تكونَ التوبةُ عن قربِ عهدٍ بالخطيئةِ، بأنْ يتندّمَ عليها ويمحوَ آثارَها قبل أنْ يتراكمَ الرينُ على القلبِ فلا يقبلُ المحوَ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾[٤] أي عن قُربِ عهدٍ بعملِ السوءِ. وقال: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾[٥].

الأمر الرابع: فضيلةُ التوبةِ

اعلم أنّ التوبةَ أوّلُ مقاماتِ الدين، ورأسُ مالِ السالكين، ومفتاحُ استقامةِ السائلين، ومطلعُ التقرُّبِ إلىٰ ربِّ العالمينَ، ومدحُها عظيمٌ، وفضلُها جسيمٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٦] وقال رسول الله ﷺ: «التائبُ حبيبُ الله، والتائبُ من الذنبِ كمن لا ذنبَ له»[٧]. وقال الباقر عليه السلام: «إنّ اللهَ تعالىٰ أشدُّ فرحاً بتوبةِ عبدهِ من رجلٍ أضلَّ راحلَتَهُ وزادَهُ في ليلةٍ ظلماءَ فوجدَها، فاللهُ أشدُّ فرحاً بتوبةِ عبدهِ من ذلك الرجلِ براحلَتِهِ

---

١. المطفّفين (٨٣): ١٤.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٩.
٣. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٣٥.
٤. النساء (٤): ١٦.
٥. النساء (٤): ١٧.
٦. البقرة (٢): ٢٢٢.
٧. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٧.

حين وجدَها»[١]. وقال عليه السلام:

إذا تابَ العبدُ توبةً نصوحاً، أحبَّهُ الله فَسَترَ عليه»، فقلتُ: وكيفَ يستر عليه؟ قال: «يُنْسي مَلَكَيْه ما كانا يكتبانِ عليه، ويُوحي إلىٰ جَوارِحِهِ وإلىٰ بقاعِ الأرضِ أن أُكتُمي عليه ذنوَبه، فيلقى الله عزّ وجلّ حين يلقاهُ وليس شيءٌ يشهدُ عليه بشيءٍ من الذنوبِ»[٢].

وقال أبو الحسن عليه السلام: «أحبُّ العبادِ إلى الله المنيبون التوّابون»[٣].

الأمر الخامس: قبولُ التوبةِ

التوبةُ المستجمِعَةُ لشرائِطها مقبولةٌ بالإجماع، ويدلُّ عليه قولُه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[٤]. وقوله تعالىٰ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾[٥]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[٦]. وقولُ النبيّ صلى الله عليه وآله: «لو عَمِلْتُمُ الخطايا حتّىٰ تبلُغَ السماءَ ثمّ ندمتمْ، لتابَ الله عليكم»[٧]. وقال الباقر عليه السلام لمحمّد بن مسلم:

ذنوبُ المؤمنِ إذا تابَ منها مغفورةٌ له، فليعملِ المؤمنُ لما يستأنفُ بعد التوبةِ والمغفرةِ، أمّا والله إنّها ليستْ إلّا لأهلِ الإيمانِ»، فقال له: فإنْ عادَ بعد التوبةِ والاستغفارِ من الذنوبِ، وعادَ في التوبةِ؟ قال: «يا محمد بن مسلم، أترىٰ العبدَ المؤمنَ يندَمُ علىٰ ذنبهِ ويستغفرُ منه ويتوبُ ثمّ لا يقبلُ الله توبتَهُ؟!»، قال: فإنّه فعلَ ذلك مِراراً، يذنبُ ثمّ يتوبُ ويَستغفرُ، فقال: «كلّما عادَ المؤمنُ بالاستغفارِ والتوبةِ عادَ الله عليه بالمغفرةِ، وإنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ يقبلُ التوبةَ ويعفو عن السيّئاتِ،

١. الكافي، ج ٢، ص ٤٣٥، باب التوبة، ح ٨.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٤٣٦، باب التوبة، ح ١٢.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٤٣٢، باب التوبة، ح ٣، وفيه: «المُفَتَّنُون التوّابون».
٤. الشورى (٤٢): ٢٥.
٥. المؤمن (٤٠): ٣.
٦. النساء (٤): ١١٠.
٧. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٢٤.

فإيّاكَ أنْ تُقَنِّطَ المؤمنَ من رحمةِ الله»[١].

وقوله ﷺ: «إذا بلغتِ النفسُ هذه وأهوىٰ بيده إلىٰ حلقِهِ لم تكنْ للعالِمِ توبةٌ، وكانتْ للجاهلِ توبةٌ»[٢].

الأمر السادس: طُرُقُ التوبةِ عن المعاصي

اعلم أنّ ما عنه التوبةُ هي الذنوبُ، وكيفيّةُ الخروجِ عنها تنقسمُ إلىٰ أقسامٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: تَرْكُ الطاعاتِ الواجبةِ: من الصلاةِ، والصومِ، والزكاةِ، والخُمسِ، والكفّارةِ وغيرِها، وطريقُ التوبةِ عنها: أنْ يجتهدَ في قضائِها بقَدْرِ الإمكانِ.

وثانيها: المحرّماتُ التي بين العبدِ وبينَ الله، أعني المنهيّات التي هي حقوقُ الله: كشُربِ الخمرِ، وضربِ المزاميرِ، والكذبِ، وطريقُ التوبةِ عنها: أنْ يندمَ عليها، ويوطّنَ قلبَهُ علىٰ تركِ العودِ إلىٰ مثلها أبداً.

وثالثها: الذنوبُ التي بينه وبين العبادِ، وهي المعبَّرُ عنها بحقوقِ الناسِ، والأمرُ فيها أصعبُ وأشكلُ، وهي إمّا في المال، أو في النفسِ، أو في العِرضِ، أو في الحُرمةِ، أو في الدينِ:

فما كان في المالِ: يجبُ عليه أن يردَّهُ إلىٰ صاحبه إنْ أمكنَهُ، فإنْ عَجِزَ عن ذلك لعدمٍ أو فقْرٍ، وَجَبَ أن يستحلَّ منه، وإنْ لم يحلَّه أو عجزَ عن الإيصال لغيبةِ الرجلِ غيبةً منقطعةً أو موتِه وعدمِ بقاءِ وارثٍ له، فليتصدّقْ عنه إن أمكنَهُ، وإلّا فعليه بالتضرُّعِ والابتهالِ إلى الله أن يرضيَهُ عنه يومَ القيامةِ، وعليه بتكثيرِ حسناتِه وتكثيرِ الاستغفارِ له، ليكونَ يومَ القيامةِ عِوَضاً عن حقّه، إذ كلُّ مَنْ له حقٌّ علىٰ غيره لابدّ أن يأخذَ يومَ القيامةِ عوضاً عن حقّه، إمّا بعضُ طاعاته أو بتحمُّلِ هذا الغيرِ بعضَ سيّئاتهِ.

وما كان في العِرض: بأنْ شَتَمَهُ، أو قذفَهُ، أو بهتَهُ، أو اغتابَه، فحقُّهُ أنْ يكذّبَ نفسَهُ عند مَنْ قال ذلك لديه، ويَستحِلَّ من صاحبه مع الإمكانِ، إنْ لم يَخَفْ تهديدَه وزيادةَ غيظِه

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٤٣٤، باب التوبة، ح ٦.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٤٤٠، باب فيما أعطى الله آدم ﷺ وقت التوبة، ح ٣.

وهيجانَ فتنتِه من إظهارِه، فإنْ خافَ ذلك فليُكثِرِ الاستغفارَ له، ويبتهلْ إلى الله أنْ يُرْضِيَهُ عنه يومَ القيامةِ.

وما كان في الحرمةِ: بأنْ خانَ مسلماً في أهله وولده أو نحوهما، فلا وجهَ للاستحلالِ، إذ إظهارُ ذلك يورثُ الغيظَ والفتنةَ، فاللازمُ لمثِله أنْ يُكثرَ التضرُّعَ والابتهالَ إلى الله المتعالِ، ويواظبَ على الطاعاتِ والخيراتِ الكثيرةِ لمن خانَهُ في مقابلةِ خيانَتِه، وإنْ كان حيّاً فلْيُفرِّحْه بالإحسانِ والإنعامِ وبذلِ الأموالِ، ويُكرِمْه بالخدمةِ وقضاءِ الحوائجِ، ويَسْعَ في مهمّاته وأغراضِه.

وما كان في الدين: بأنْ نسبَ مسلماً إلى الكُفْرِ أو الضَلالةِ أو البدعةِ، فلْيُكذِّبْ نفسَه بينَ يدي مَنْ قال ذلك عندَه، ويستحلَّ من صاحبِه مع الإمكانِ، وبدونِه فليستغفرْ له ويُكثِرْ الابتهالَ إلى الله ليرضيَهُ عنه يومَ القيامةِ.

ومجملُ ما يلزمُ في التوبةِ عن حقوقِ الناسِ: إرضاءُ الخصومِ مع الإمكان، وبدونه التصدّقُ وتكثيرُ الحسناتِ والاستغفارُ، والرجوعُ إلى الله بالتضرّعِ والابتهالِ، ليرضيَهم عنه يومَ القيامةِ، ويكونَ ذلك بمشيّةِ الله، فلعلّه إذا علم الصدقَ من قلبِ عبدِه، ووجدَ ذُلَّهُ وانسكارَه، تَرحَّمَ عليه وأرضىٰ خصماءَهُ من خزانةِ فضلِه، فلا ينبغي لأحدٍ أن ييأسَ من رَوْحِ الله.

الأمر السابع: تكفيرُ الصغائرِ ومعنى الكبائرِ

اِعلم أنّ صاحبَ الشرعِ قسّمَ الذنوبَ إلىٰ كبيرةٍ وصغيرةٍ، وحكَم بأنّ اجتنابَ الكبائرِ يكفّرُ الصغائرَ، وأنّ الصلواتِ الخمسَ لا تكفّرُ الكبائرَ وتكفّرُ الصغائرَ. قال الله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[١]. وقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[٢]. وقال رسولُ الله ﷺ: «الصلواتُ الخمسُ والجمعةُ تكفّرُ ما بينهنّ إنِ اجتنبتَ الكبائر»[٣] واجتنابُ الكبيرةِ إنّما يكفّرُ الصغيرةَ إذا اجتنبَها مع القُدرةِ والإرادةِ.

---

١. النساء (٤): ٣١.

٢. النجم (٥٣): ٣٢.

٣. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٧.

ثمّ الكبيرةُ من حيثُ اللفظِ مبهمٌ ليس له موضوعٌ خاصٌّ في اللغةِ ولا في الشرعِ والعرفِ، لأنّ الكبيرَ والصغيرَ من المضافاتِ، وما من ذنبٍ إلّا وهو كبيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما دونَه، وصغيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما فوقَه. وقد اختلفَ العلماءُ في تعيينِ الكبائرِ اختلافاً لا يكادُ يُرجىٰ زوالُه. واختلفتِ الرواياتُ فيها أيضاً.

والأظهرُ بالنظرِ إلى الرواياتِ وإلى الجمع بينها كون الكبيرةِ عبارةً عمّا تُوُعِّدَ بالنارِ علىٰ فعلِه أو ما وَرَدَ في نصِّ الكتابِ النهيُ عنه، ويعني بوصفِه بالكبيرةِ: أنّ العقوبةَ بالنارِ عظيمةٌ، أو أنّ تخصيصَه بالذكرِ في القرآن يُدلُّ علىٰ عِظَمِه، ويمكنُ أن يقال: إنّ الشّرعَ لم يَعيِّنْها، وأبهمَها ليكونَ العبّادُ علىٰ وجلٍ منها، فيجتنبون جميعَ الذنوبِ، كما أبهمَ ليلةَ القدرِ ليعظُمَ جدُّ الناسِ في طلبِها، ويواظبوا في ليالٍ متعدّدَةٍ على العباداتِ، وكما أبهمَ الاسمَ الأعظمَ ليواظبوا علىٰ جميع أسماءِ الله.

والحاصلُ: أنّ كلَّ مالا يتعلّقُ به حكمٌ في الدنيا جازَ أن يتطرّقَ إليه الإبهام، والكبيرةُ على الخصوصِ لا حكمَ لها في الدنيا من حيثُ إنّها كبيرةٌ، فإنّ موجباتِ الحدودِ معلومةٌ بأساميها، وإنّما حكمُ الكبيرةِ أنّ اجتنابَها يكفِّرُ الصغائرَ وأنّ الصلواتِ الخمسَ لا تكفّرُها، وهذا أمرٌ يتعلّقُ بالآخرةِ، والإبهامُ أليقُ به، حتّىٰ يكونَ الناسُ علىٰ وَجَلٍ وحَذَرٍ، فلا يتجرّؤون علىٰ الصغائرِ اعتماداً على الصلواتِ الخمسِ واجتنابِ الكبائرِ.

الأمر الثامن: الصغائرُ قد تكونُ كبائرَ

اعلم أنّ الصغيرة قد تكبُرُ بأسبابٍ:

أحدُها: الإصرارُ والمواظبةُ، ولذلك قال الصادق عليه السلام: «لا صغيرةَ مع الإصرارِ، ولا كبيرةَ مع الاستغفارِ»[١]. والسرُّ فيه: أنّ الصغيرةَ لقلّةِ تأثيرِها لا تؤثّرُ في القلب بإظلامِه مرّةً أو مرّتين، ولكن إذا تَكَرَّرَتْ وتراكمتْ آثارُها الضعيفةُ صارتْ قويّةً وأثّرتْ على التدريج في القلب، وذلك كما أنّ قطراتٍ من الماءِ تقعُ على الحجرِ علىٰ توالٍ فتؤثّرُ فيه، وذلك القَدْرُ من الماءِ لو صُبَّ

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٢٨٨، باب الإصرار على الذنب، ح ١.

عليه دفعةً لم يؤثّرْ. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «خيرُ الأعمالِ أدومُها، وإن قَلَّ»[١]. وإذا كان النافعُ هو الطاعةُ الدائمةُ وإنْ قلّتْ، فكذلك الضارُّ هو السيّئةُ الدائمةُ وإنْ قلّتْ. ثمّ معرفةُ الإصرارِ موكولٌ إلى العُرفِ. قال الباقرُ عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢]: «الإصرارُ: أن يذنِبَ الذنبَ، فلا يستغفرُ ولا يُحدّثُ نفسَه بتوبةٍ، فذلك الإصرار»[٣].

وثانيها: استصغارُ الذنبِ، فإنّ العبدَ كلّما استعظَمَهُ من نفسِه صَغُرَ عند الله، وكلّما استصغَرَهُ كَبُرَ عندَ الله؛ لأنّ استعظامَه يصدُرُ عن نفورِ القلبِ عنه وكراهتِهِ له، وذلك النفورُ يمنعُ من شدّةِ تأثُّرِهِ به؛ واستصغارَهُ يصدرُ عن الألفِ به، وذلك يُوجبُ شدّةَ الأثرِ في القلبِ. والقلبُ هو المطلوبُ تنويرُهُ بالطاعاتِ والمحذورُ تسويدُهُ بالسيّئاتِ؛ ولذلك لا يؤاخَذُ بما يجري عليه في الغفلةِ، لعدم تأثُّرِهِ به، ولذلك وردَ في الخبرِ: «إنّ المؤمنَ يرىٰ ذنبَه كالجبل فوقَهُ يخافُ أنْ يقعَ عليه، والمنافقَ يرىٰ ذنبَه كذبابٍ مرَّ علىٰ أنفِهِ فأطارَه»[٤]. وقال رسول الله ﷺ: «اتّقوا المحقّراتِ من الذنوبِ، فإنّها لا تُغفَرُ»، قيل: وما المحقّراتُ؟ قال: «الرجلُ يُذنِبُ الذنبَ، فيقولُ: طوبىٰ لي لو لم يكنْ غيرَ ذلك»[٥]. وروي:

أنّه ﷺ نزلَ بأرضٍ قَرْعاءَ، فقال لأصحابِهِ: «ائتونا بالحطبِ» فقالوا: يا رسول الله، نحن بأرضٍ قرْعاءَ ما بها من حطبٍ، قال: «فليأتِ كلُّ إنسانٍ بما قَدِرَ عليه». فجاؤوا به حتّىٰ رمَوا بين يديه بعضَهُ علىٰ بعضٍ، فقال ﷺ: «هكذا تجتمعُ الذنوبُ، إيّاكم والمحقّراتِ من الذنوبِ؛ فإنّ لكلّ شيء طالباً، ألا وإنّ طالبَها يكتبُ ﴿مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[٦]»[٧].

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٥٨.
٢. آل عمران (٣): ١٣٥.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٢٨٨، باب الإصرار على الذنب، ح ٢.
٤. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٥٩.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٢٨٧، باب استصغار الذنب، ح ١.
٦. إشارة إلىٰ قوله سبحانه ﴿ونكتبُ ما قدّموا...﴾ في سورة يس (٣٦): ١٢.
٧. الكافي، ج ٢، ص ٢٨٨، باب استصغار الذنوب، ح ٣.

وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[١]. وقال الصادق عليه السلام: «إنّ اللهَ يُحبّ العبدَ أنْ يَطلُب إليه في الجرمِ العظيمِ، ويُبغِضُ العبدَ أنْ يستخفَّ بالجُرمِ اليسيرِ»[٢].

والسرُّ في عِظَمِ الذنبِ في قلبِ المؤمنِ: كونهُ عالماً بجلالِ الله وكبريائه، فإذا نظرَ إلىٰ عِظَمِ مَنْ عُصِي به رأى الصغيرَ كبيراً. ولذلك قال بعضُ الصحابةِ للتابعين: «إنّكم تعملونَ أعمالاً هي أدقُّ في أعينِكم من الشعرِ، وكنّا نعدُّها علىٰ عهدِ رسول الله من الموبقاتِ»[٣].

وثالثها: أنْ يأتي بالصغائرِ ولا يبالي بفعلها، اغتراراً بسترِ الله عليه، وحِلْمِهِ عنه، وإمهالهِ إيّاهُ، ولا يعلمُ أنّه إنّما يُمْهَلُ مَقْتاً ليزدادَ بالإمهال إثماً، فتَزْهَقُ أنفسُهم وهم كافرون[٤]. فمنْ ظنَّ أنَّ تمكُّنَهُ من المعاصي عنايةٌ من الله به، فهو جاهلٌ بمكامنِ الغرورِ، وآمِنٌ من مكرِ الله الذي لا يأمنُ منه إلّا الكافرون[٥].

ورابعها: السرورُ بالصغيرةِ واعتدادُ التمكُّنِ من ذلك نعمةً، والغفلةُ عن كونها نقمةً وسببَ الشقاوةِ، فكلّما غلبتْ حلاوةُ الصغيرةِ عند العبدِ كبُرتْ وعظمَ أثرُها في تسويد قلبه، فمن مزّقَ عرضَ مسلمٍ وفضحَهُ وخجّلهُ، أو غبنَهُ في ماله في المعاملةِ، ثمّ فرِحَ به، ويقول: أما رأيتني كيفَ مزّقتُ عرضَهُ؟ وكيف فضحتُه؟ وكيف روَّجْتُ عليه الزيفَ؟ كانتْ معصيتُهُ أشدَّ ممّا إذا لم يفرحْ بذلك وتأسّفَ عليه، إذ الذنوبُ مُهلكاتٌ، وإذا ابتُلِي بها العبدُ فينبغي أنْ يتأسّفَ من حيثُ إنّ العدُوَّ ـ أعني الشيطانَ ـ ظفرَ به وغلبَ عليه، لا أنْ يفرحَ بغلبةِ العدوّ عليه، فالمريضُ الذي يفرحُ بانكسارِ إنائه الذي فيه دواؤه لتخلّصِه من ألم شُربِهِ، لا يُرجىٰ شفاؤه.

وخامسها: أن يُذنِبَ ويُظهِرَ ذنبَهُ بأن يَذكُرَهُ بعد إتيانه، أو يأتي به في مَشهَدِ غيرِه، فإنّ ذلك خيانةٌ منه على الله الذي أسدَلَهُ عليه، وتحريكٌ للرغبةِ والشرِّ فيمنْ أسمعَهُ ذنبَهُ أو أشهدَهُ

---

١. لقمان (٣١): ١٦.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٤٢٧، باب الاعتراف بالذنوب والندم عليها، ح ٦.

٣. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٣٢.

٤. إشارة إلى الآية ٥٥ من سورة التوبة (٩).

٥. إشارة إلى الآية ٩٩ من سورة الأعراف (٧).

فعلَهُ، فهما خيانتان انضمَّتا إلىٰ خيانته فتغلّظَتْ به، فإنِ إنضافَ إلىٰ ذلك الترغيبُ للغير فيه والحملُ عليه وتهيئةُ الأسبابِ له صارتْ خيانتُهُ رابعةً، وتفاحشَ الأمرُ. وهذا لأنّ منْ صفاتِ الله

أنّه يُظهِرُ الجميلَ ويستُرُ القبيحَ ولا يَهتِكُ السترَ، فالإظهارُ كفرانٌ لهذه النعمةِ، قال رسول الله ﷺ: «المستَترُ بالحسنَةِ تَعدِلُ سبعينَ حسنةً، والمذيعُ بالسَّيئَةِ مخذولٌ، والمستَتِرُ بها مغفورٌ له»[١]. وقال الصادقُ عليه السلام: «مَنْ جاءَنا يلتمسُ الفقهَ والقرآنَ وتفسيرَهُ فدعوهُ، ومَنْ جاءَنا يُبدي عورةً قد سَتَرَها الله فنَحُّوهُ»[٢].

وسادسُها: أنْ يكونَ الآتي بالصغيرةِ عالماً يقتدي به الناسُ، فإذا فعلَهُ بحضرةِ الناسِ أو بحيثُ اطّلعوا عليه، كبُرَ ذنْبُه، وذلك كلبسِهِ الذهبَ والإبريسمَ، وأخذِهِ مالَ الشُّبْهةِ، وإطلاقِهِ اللسانَ في أعراضِ الناسِ، ونحو ذلك. فهذه ذنوبٌ يُقتدَىٰ بالعالمِ فيها ويُتْبَعُ عليها، فيموتُ ويبقىٰ شرُّهُ مستطيراً في العالمِ، فطوبىٰ لمن إذا ماتَ ماتتْ معه ذنوبُهُ، وفي الخبرِ: «مَنْ سَنَّ سنّةً سيّئةً فعليهِ وِزْرُها ووِزْرُ مَنْ عملَ بها لا ينقصُ من أوزارِهم شيء»[٣]، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾[٤]، والآثارُ: ما يلحقُ الأعمالَ بعد انقضاءِ العملِ. فعلى العالمِ وظيفتان: إحداهما تركُ الذنبِ، والأُخرىٰ إخفاؤهُ، وكما تتضاعفُ أوزارُ العالمِ علىٰ السيّئاتِ إذا اتُّبِعَ فيها، فكذلك يتضاعفُ ثوابُهُ على الحسناتِ إذا اتُّبِعَ.

الأمر التاسع: شُروطُ كمالِ التوبةِ

يُشتَرَطُ في تمامِ التوبةِ وكمالها بعد تدارُكِ كلِّ معصيةٍ بما مرّ: من طول الندمِ، وقضاءِ العباداتِ، والخروجِ عن مظالم العبادِ، وطولِ البكاءِ والحزنِ والحسرةِ، وإسكابِ الدموعِ، وتقليلِ الأكلِ، وارتياضِ النفسِ، ليذوبَ عن بدنِهِ كلُّ لحمٍ نبتَ من الأغذيةِ المحرّمةِ

١. الكافي، ج ٢، ص ٤٢٨، باب ستر الذنوب، ح ٢.
٢. بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٢٣٥، باب العلّة التي من أجله لا يكفّ الله المؤمنين عن الذنب، ح ١.
٣. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٣٣.
٤. يس (٣٦): ١٢.

والمشتبهةِ، قال أميرُ المؤمنينَ عليه السلام لمن قال بحضرَتِه: أستغفرُ الله:

ثكلتْكَ أُمُّكَ، أتدري ما الاستغفارُ؟ إنّ الاستغفارَ درجةُ العلّيّينَ، وهو اسمٌ واقعٌ علىٰ ستّةِ معانٍ:

أوّلُها: الندمُ علىٰ ما مضىٰ.

والثاني: العزمُ علىٰ تركِ العَوْدِ عليه أبداً.

والثالثُ: أن تُؤدّيَ إلى المخلوقينَ حقوقَهم حتّىٰ تلقى اللهَ أملسَ ليس عليكَ تبعَةٌ.

والرابعُ: أنْ تعمَدَ إلىٰ كلّ فريضةٍ عليك ضيّعتَها تؤدّي حقَّها.

والخامسُ: أن تَعْمَدَ إلى اللحمِ الذي نَبَتَ علىٰ السُحْتِ فتُذيبَهُ بالأحزانِ حتّىٰ يَلْصَقَ الجلدُ بالعظمِ وينشأ منهما لحمٌ جديدٌ.

والسادس: أنْ تُذيقَ الجسمَ ألمَ الطاعةِ كما أذقتَهُ حلاوةَ المعصيةِ، فعند ذلك تقولُ: أستغفرُ الله[١].

الأمر العاشر: مراتبُ التوبةِ

اعلم أنّ التائبَ إمّا يتوبُ عن المعاصي كلّها ويستقيمُ على التوبةِ إلىٰ آخِرِ عمرِهِ، فيتداركُ ما فرّطَ، ولا يعودُ إلىٰ ذُنوبه، ولا تصدُرُ عنه معصيةٌ إلّا الزلّاتِ التي لا يخلو عنها غيرُ المعصومين، وهذه التوبةُ هي التوبةُ النصوحُ، والنفسُ التي صاحبُها هي النفسُ المطمئنّةُ التي تَرجِعُ إلىٰ ربّها راضيةً مرضيّةً، أو يتوبُ عن كبائرِ المعاصي والفواحشِ ويستقيمُ علىٰ أُمّهات الطاعاتِ، إلّا أنّه ليس ينفَكُّ عن ذنوبٍ تصدُرُ عنه في مجاري أحواله غفلةً وسهوةً وهفوةً، لا عن محض العمدِ وتجريدِ القصدِ، وإذا أقدمَ علىٰ ذنبٍ لامَ نفسَه، ونِدمَ وتأسّفَ، وجدّدَ عزمَهُ علىٰ ألّا يعودَ إلىٰ مثلِهِ، ويتشمّرُ للاحترازِ عن أسبابه التي تؤدّي إليه، والنفسُ التي هذه مرتبتُها هي النفسُ اللوّامةُ التي خيرُها يغلبُ علىٰ شرِّها، ولها حسنُ الوعدِ من اللهِ تعالىٰ بقوله:

---

١. نهج البلاغة، ص ٥٤٩ ـ ٥٥٠، الحكمة ٤١٧.

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾[١]. وإلىٰ مثلِها الإشارةُ بقوله ﷺ: «خيارُكم كلُّ مُفتَّنٍ توّابٍ»[٢]. ومَنْ يُؤْيِسُ مِثْلَ هذا عن النجاةِ ووصولِه إلىٰ درجةِ التائبين فهو ناقصٌ، ومَثَلُهُ مَثَلُ الطبيبِ الذي يُؤْيِسُ الصحيحَ من دوام الصحّة بما يتناولُهُ من الفواكِه مرّةً أو مرّتين، ومثَلُ الفقيهِ الذي يُؤْيِسُ المتفقّهَ عن نيلِ درجةِ الفقهاءِ بفتورِه عن التكرارِ في أوقاتٍ نادرةٍ. ولا ريبَ في نقصانِه.

فالعالمِ حقُّ العالمِ هو الذي لا يُؤيسُ الخلْقَ من درجاتِ السعاداتِ بما يتّفِقُ لهم من الفتراتِ ومفارقَةِ السيّئاتِ المختطفاتِ، إذ أمثالُ الفتراتِ وما يصدرُ عن السهوِ والغفلاتِ لا يُفسِدُ النفسَ ولا يُبطِلُها بحيثُ لا تقبلُ الإصلاحَ، أو يتوبُ ويستمرّ على الاستقامةِ مدّةً ثمّ تغلبُه الشهوةُ في بعضِ الذنوبِ، فيقدمُ عليه عمداً وقصداً، لِعجزِه عن قهرِ الشهوةِ وقمعِها، إلّا أنّه مع ذلك مواظبٌ على الطاعاتِ، وتاركٌ لأكثرِ الذنوبِ مع القدرَةِ والشهوَةِ، وإنّما قهرَهُ بعضُ الشهواتِ بحيثُ يغفَلُ عند هيجانِها ويرتكبُ مقتضاها من دون مجاهدةٍ وندامةٍ، وعند قضاءِ هذه الشهوةِ والفراغِ عنها يتندّمُ، ويقولُ سأتوبُ عنها، لكنّ نفسَهُ تُسوّلُ له، ويسوّفُ توبتَه يوماً بعد يومٍ، والنفسُ التي هذه درجتُها هي التي تُسمّى النفسَ المسوّلةَ المسؤولَ صاحبُها، وإليها الإشارةُ بقوله تعالىٰ: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾[٣].

فنجاتُها من حيثُ مواظبتِه على الطاعاتِ وكراهتِه لما يتعاطاهُ مرجوٌّ، فعسى اللهُ أنْ يتوبَ عليها، ولكنْ يُخافُ عليها من حيثُ تسويفِها وتأخيرِها، فربّما اختطفَها الموتُ قبلَ التوبةِ، ويقعُ أمرُها في المشيئة، فيدخلُ في زُمْرَةِ السعداءِ، أو يسلكُ في سلكِ الأشقياء. أو يتوبُ ويجري مدّةً علىٰ الاستقامةِ، ثمّ يعودُ إلى الذنوبِ عمداً وقصداً، من غير أن يُحدِّثَ نفسَهُ بالتوبةِ، ومن غيرِ أنْ يتأسّفَ ويتندّمَ، بل يَنهمِكَ انهماكَ الغافلِ في الذنوبِ واتّباعِ الشهواتِ، وهذا معدودٌ من المُصِرِّينَ، ونفسه محسوبةٌ من النفوسِ الأمّارةِ بالسوءِ الفرّارةِ من الخيرِ.

---

١. النجم (٥٣): ٣٢.

٢. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٤٤. رواه عن أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام؛ المحجة البيضاء، ج ٧، ص ٨٠.

٣. التوبة (٩): ١٠٢.

تنبيه: اعلم أنّ مَنْ تابَ ولا يثقُ من نفسِه بالاستقامةِ على التوبةِ فلا ينبغي أنْ يمنَعهُ ذلك عن التوبةِ، علماً منه أنّه لا فائدةَ فيه، فإنّ ذلك من غُرورِ الشيطانِ، ومن أين له هذا العلمُ، فلعلّهُ يموتُ تائباً قبل أنْ يعودَ إلى الذنبِ.

وأمّا الخوفُ من العودِ، فليتداركْهُ بتجريدِ القصدِ وصدقِ العزمِ، فإنْ وَفَىٰ به فقد نال مطلَبَهُ، وإلّا فقد غُفِرَتْ ذنوبُهُ السابقةُ كلّها وتخلّصَ منها، وليس عليه إلّا هذا الذنبُ الذي أحدثَهُ الآن. فينبغي ألّا تُترَكَ حركةُ اللسانِ بالاستغفارِ، ويجتهدَ في إضافةِ حركةِ القلبِ إليها، ويتضرّعَ إلى الله أن يُشْرِكَ القلبَ مع اللسانِ في اعتيادِ الخيرِ.

الأمر الحادي عشر: علاجُ الإصرارِ على الذنوبِ

اعلم أنّ الطريقَ إلىٰ تحصيل التوبةِ، والعلاجَ لحلِّ عُقدةِ الإصرارِ على الذنوبِ: أن يتذكّرَ ما وردَ في فضلِها ويتذكَّرَ قُبْحَ الذنوبِ وشدّةَ العقوبةِ عليها، وما وردَ في الكتاب والسُنّةِ من ذمّ المذنبينَ والعاصينَ، ويتأمّلَ في حكاياتِ الأنبياءِ وأكابرِ العُبّادِ، وما جرىٰ عليهم من المصائبِ الدنيويّةِ، بسببِ تركِهم الأولىٰ وارتكابِهم بعضَ صغائرِ المعاصي. وأنْ يعلمَ أنّ كلَّ ما يُصيبُ العبدَ في الدنيا من العقوبةِ والمصائبِ فهو بسببِ معصيَتِهِ ـ كما دلّت عليه الأخبارُ الكثيرةُ ـ ويتذكّرَ ما ورَدَ من العقوباتِ علىٰ آحادِ الذُنوب: كالخمرِ، والزنىٰ، والسرقةِ، والقتلِ، والكِبْرِ، والحسدِ، والكذبِ، والغيبةِ، وأخذِ المالِ الحرامِ وغيرِ ذلك من آحادِ المعاصي ممّا لا يمكنُ حصرُهُ، ثمّ يتذكّرَ ضعفَ نفسِهِ وعجزَها عن احتمالِ عذاب الآخرةِ وعقوبةِ الدنيا، ويتذكَّرَ خساسةَ الدنيا وشرفَ الآخرةِ، وقربَ الموتِ ولذّةَ المناجاةِ مع تركِ الذنوبِ، ولا يغترَّ بعدمِ الأخذِ الحالي، إذ لعلّه كان من الإملاءِ والاستدراجِ. فمن تأمَّلَ في جميع ذلك وَعِلمَ ذلك علىٰ سبيل التحقيق انبعثتْ نفسُه للتوبةِ ألبتّةَ، إذ لو لم ينزعجْ إلى التوبةِ بعد ذلك، فهو إمّا معتوهٌ أحمقُ أو غيرُ معتقدٍ بالمعادِ، وينبغي أنْ يجتهدَ في قلعِ أسبابِ الإصرارِ من قلبِه: أعني الغرورَ، وحُبَّ الدنيا، وحُبَّ الجاهِ، وطولَ الأملِ، وغيرِ ذلك.

الأمر الثاني عشر: الإنابة

اعلم أنّ الإنابةَ هي الرجوعُ عن كلّ شيء ممّا سوى الله، والإقبالُ على الله تعالىٰ بالسرّ والقولِ والفعلِ، حتّىٰ يكونَ دائماً في فكرِهِ وذكرِهِ وطاعتِهِ، فهو غايةُ درجاتِ التوبةِ وأقصىٰ مراتِبها. قال الله سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[1] و ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[2].

وإنابةُ العبدِ تتمّ بثلاثةِ أُمور:

الأوّلُ: أنْ يتوجّهَ إليه بشراشرِ باطنهِ حتّىٰ يَستغرِقَ قلبُه في فكرِه.

الثاني: ألّا يكونَ خالياً عن ذكرِهِ وذكرِ نِعَمِهِ ومواهبِهِ وذكرِ أهلِ حبّه وتقرّبه.

الثالث : أنْ يواظبَ علىٰ طاعاتهِ وعباداتهِ مع خُلوصِ النيّة.

الأمر الثالث عشر: المحاسبةُ والمراقبةُ

اعلم أنّ المحاسبةَ والمراقبةَ قريبةٌ من التوبة في ضدّيتِها من وجهٍ للإصرارِ على الذنوبِ، ومثلها في كونها من ثمراتِ الخوفِ والحبِّ وتعلّقِها بقوّتي الشهوةِ والغضبِ وكونِها من فضائلها، فنحنُ نشيرُ هنا إلىٰ ما يتعلّقُ بها من بيانِ حقيقتِها وفضيلتِها والأعمالِ التي تتوقّفُ تماميّتُها عليها:

المحاسبة: أن يُعيِّنَ في كلّ يومٍ وليلةٍ وقتاً يُحاسبُ فيه نفسَهُ بموازنةِ طاعاتهِ ومعاصيهِ، ليعاتبَ نفسَه، ويقهرَها لو وجدَها في هذا اليوم والليلة مقصّرةً في طاعةٍ واجبةٍ، أو مرتكبةً لمعصيةٍ، ويشكرَ الله سبحانه لو أتتْ بجميع الواجباتِ ولم تصدرْ منها معصيةٌ، ويزيدَ الشكرَ لو صدرَ منها شيءٌ من الخيرات والطاعاتِ المندوبة.

والمراقبةُ: أن يلاحظَ ظاهِرَهُ وباطنَهُ دائماً، حتّىٰ لا يُقدِمَ علىٰ شيء من المعاصي، ولا يتركَ شيئاً من الواجباتِ ليتوجّهَ عليه اللومُ والندامةُ وقتَ المحاسبةِ. هذا هو المعنىٰ الظاهرُ للمحاسبةِ والمراقبةِ، ويأتي اعتبارُ أُمورٍ وأعمالٍ أُخَرَ فيه عرفاً.

---

١. الزمر (٣٩): ٥٤.

٢. المؤمن (٤٠) ١٣.

ثمّ اعلم أنّ الكتابَ والسُنّة وإجماعَ الأُمّةِ دالةٌ علىٰ ثُبوتِ المحاسبةِ يومَ القيامةِ، وحصولِ التدقيقِ والمناقشةِ في الحساب، والمطالبةِ بمثاقيل الذرِّ من الأعمالِ والخطراتِ واللحظاتِ، قال الله سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[١] و ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾[٢] و ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٣] و ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤].

وورد بطرقٍ متعدِّدَةٍ: أنّ كلّ أحدٍ في يوم القيامةِ لا يرفَعُ قَدَماً عن قدمٍ حتّىٰ يُسألَ عن عمرِهِ فيما أفناه، وعن جسدِهِ فيما أبلاهُ، وعن مالِهِ من أينَ اكتسبهَ وفيما أنفقه[٥]. فمن حاسبَ نفسَه قبل أنْ يُحاسَبَ، وطالبَها في الأنفاسِ والحركاتِ، وحاسبَها في الخطراتِ واللحظاتِ، ووَزَنَ بميزانِ الشرعِ أعمالَهُ وأقوالَهُ، خَفَّ في القيامةِ حسابُهُ، وحَضَرَ عند السؤالِ جوابُهُ، وحَسُنَ منقلبُهُ ومآبُه. ومَنْ لم يُحاسِبْ نفسَهُ دامتْ حسراتُه، وطالتْ في عرصاتِ القيامةِ وقفاتُهُ، وقادَتْهُ إلى الخزي سيّئاتُهُ، قال الله سبحانه: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[٦]. والمرادُ بهذا النظرِ: المحاسبةُ على الأعمالِ. وقال رسول الله ﷺ: «حاسِبُوا أنفسَكم قبل أن تُحاسَبُوا، وزِنُوها قبل أن تُوزَنوا»[٧]. وقال الصادق عليه السلام:

إذا أرادَ أحدُكم ألّا يسألَ ربَّهُ شيئاً إلّا أعطاهُ فليَيأَسْ من الناسِ كلِّهم، ولا يكونُ له رجاءٌ إلّا من عندِ الله تعالى، فإذا علِمَ اللهُ تعالىٰ ذلك من قلبِهِ لم يسألْه شيئاً إلّا أعطاهُ، فحاسَبُوا أنفسَكم قبل أن تُحاسَبُوا عليها؛ فإنّ للقيامةِ خمسين موقِفاً، كلّ موقفٍ مقامُ ألفِ سنةٍ. ثمّ تلا: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ

---

١. الأنبياء (٢١): ٤٧.
٢. آل عمران (٣): ٣٠.
٣. البقرة (٢): ٢٨١؛ آل عمران (٣): ١٦١.
٤. الحجر (١٥): ٩٢ـ٩٣.
٥. بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٥٨، ٢٦١، باب محاسبة العباد، ح ١ و ١١.
٦. الحشر (٥٩): ١٨.
٧. بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٦١، باب محاسبة العباد، ح ١١.

سَنَةٍ﴾[١].

وتفريعُ المحاسبةِ على الأمرِ باليأس عن الناسِ والرجاءِ من الله، يدلُّ على أنّ الإنسانَ إنّما يرجو الناسَ من دونِ الله في عامّةِ أمرِه وهو غافلٌ عن ذلك، وأنّ عامّةَ المحاسباتِ إنّما ترجِعُ إلىٰ ذلك، وذكرُ الوقوفِ في مواقفِ يوم القيامةِ على الأمر بمحاسبةِ النفسِ يدلّ علىٰ أنّ الوقفاتِ هناك إنّما تكونُ للمحاسباتِ، فمَنْ حاسبَ نفسَه في الدنيا يوماً فيوماً لم يحتجْ إلىٰ تلك الوقفاتِ في ذلك اليوم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾[٢]، وقال الكاظم عليه السلام: «ليس منّا مَنْ لم يُحاسِبْ نفسَه في كُلِّ يومٍ، فإنْ عَمِلَ حسنةً استزادَ الله تعالىٰ، وإنْ عَمِلَ سيّئةً استغفرَ الله منها وتاب إليه»[٣]. وفي بعض الأخبار: «ينبغي أن يكونَ للعاقلِ أربع ساعاتٍ: ساعة يُحاسبُ فيها نفسه»[٤].

الأمر الرابع عشر: مقاماتُ مرابطةِ العقلِ للنفسِ

اعلم أنّ العقلَ بمنزلةِ تاجرٍ في طريقِ الآخرةِ، ورأسَ ماله العمرُ، وقد استعانَ في تجارتهِ هذهِ بالنفسِ، فهي بمنزلةِ شريكِهِ أو غلامِهِ الذي يتّجِرُ في ماله، وربحُ هذه التجارةِ تحصيلُ الأخلاقِ الفاضلةِ والأعمالِ الصالحةِ الموصلةِ إلىٰ نعيم الأبدِ وسعادةِ السرمدِ، وخسرانُها المعاصي والسيّئاتُ المؤدّيةُ إلى العذابِ المقيم في دركاتِ الجحيم. أو نقول: رأسُ مالِ العبدِ في دينِه الفرائضُ، وربحُه النوافلُ والفضائلُ، وخُسرانُه المعاصي. وموسمُ هذه التجارةِ مدّةُ العمرِ، وكما أنّ التاجرَ يشارِطُ شريكَه أوّلاً، ويراقبُه ثانياً، ويحاسبُه ثالثاً، وإنْ قصّرَ في التجارة ـ بالخيانة والخُسران وتضييع رأسِ المال ـ يعاتبُه ويعاقبُه ويأخذُ منه الغرامةَ، كذلك العقلُ يحتاجُ في مشاركةِ النفسِ إلىٰ أنْ يرتكبَ هذه الأعمالَ، ومجموعُ هذه الأعمالِ يُسمّىٰ بـ«المحاسبةِ والمراقبةِ» تسميةَ الكلِّ باسم بعضِ أجزائه، وقد يُسمّىٰ «مرابطةً» أيضاً.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٧٣، باب مراتب النفس، ح ٢٦، والآية في سورة المعارج (٧٠): ٤.
٢. الأنبياء (٢١): ٤٧.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٤٥٣، باب محاسبة العمل، ح ٢.
٤. بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٧١ ـ ٧٢، باب مواعظ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ح ١.

فأوّلُ الأعمالِ في المرابطةِ: المشارَطَةُ، وهي أنْ يشارِطَ النفسَ ويأخذَ منها العهدَ والميثاقَ في كلِّ يومٍ وليلةٍ مرّةً ألّا يرتكبَ المعاصيَ، ولا يَصدُرَ منها شيءٌ يوجِبُ سخطَ الله، ولا يقصّرَ في شيءٍ من الطاعاتِ الواجبةِ، ولا يترُكَ ما تيسّر له من الخيراتِ والنوافلِ. والأَولىٰ أن يكونَ ذلك بعد الفراغِ عن فريضةِ الصبحِ وتعقيباتِها، فيخاطبُ النفسَ ويقول لها: يا نفسُ، مالي بضاعةٌ سوى العمرِ، ومهما فَنِيَ فَنِيَ رأسُ المالِ، ووقعَ اليأسُ عن التجارة وطلبِ الربحِ، وهذا اليومُ الجديدُ، وقد أمهلني الله فيه بعظيمِ لُطفِه، ولو توفّاني لكنتُ أتمنّى أنْ يُرجعَني إلىٰ الدنيا يوماً واحداً لأعملَ صالحاً، فاحسبي أنّكِ توفّيتِ ثمّ رُدِدْتِ، فأياكِ أنْ تضيّعي هذا اليومَ. وبعدَ هذا التذكّرِ يُخاطبُ نفسَه ويقول: اجتهدي اليومَ في أنْ تُعمّري خزائنَكِ، ولا تَدَعِيها فارغةً عن كنوزِكِ التي هي أسبابُ مُلكِكِ، ولا تَركَني إلى الكسلِ والبطالةِ فيفوتَكِ من درجاتِ العِليّينَ ما يُدركُهُ غيرُكِ فتُدرِكَكِ الحسرةُ والغَبْنُ يوم القيامةِ إن دخلتِ الجنّةَ، إذ ألَمُ الغبنِ والحسرةِ وانحطاطِ الدرجةِ مع وجودِ ما فوقَها من الدرجاتِ غير المتناهيةِ التي نالها أبناءُ نوعِك ممّا لا يُطاقُ.

ثمّ يستأنفُ لها وصيّةً في أعضائه السبعة: أعني العينَ، والأُذُنَ، واللسانَ، والفرجَ، والبطنَ، واليدَ، والرِجلَ، ويسلّمُها إليها؛ لأنّها رعايا خادمةٌ لها في التجارةِ، ولا تتمُّ أعمالُ هذه التجارةِ إلّا بها، فيوصيها بحفظِ هذه الأعضاءِ عن المعاصي التي تصدرُ عنها، وبإعمالِ كلٍّ منها فيما خُلِقَ لأجلِه، ثمّ يُوصيها بالاشتغالِ بوظائفِ الطاعاتِ التي تَتَكرّرُ عليه في اليوم والليلةِ، وبالنوافلِ والخيراتِ التي تقدرُ عليها، وهذه شروطٌ يُفتَقرُ إليها كلَّ يومٍ، لكن إذا اعتادتِ النفسُ بتكرُّرِ المشارَطَةِ والمراقبةِ بالعملِ بها والوفاءِ بحقِّها استغنىٰ عن المشارَطَةِ فيها، وإن اعتادتْ بالعملِ في بعضِها لم تكنْ حاجةٌ إلى المشارَطَةِ فيه، وبقيت الحاجةُ إليها في الباقي. وكلّ مَنْ يَشتغلُ بشيءٍ من أعمالِ الدنيا: من ولايةٍ، أو تجارةٍ، أو تدريسٍ، أو أمثالِ ذلكَ: لا يخلو كلَّ يومٍ منه من مهمٍّ جديدٍ، وواقعةٍ حادثةٍ لها حكمٌ جديدٌ، ولله عليه فيها حقٌّ، فعليه أن يجدّدَ الاشتراطَ علىٰ نفسهِ بالاستقامةِ عليها والانقيادِ للحقّ في مجاريها، وينبغي أنْ يوصيَها بالتدبُّرِ في عاقبةِ كلِّ أمرٍ يرتكبُهُ في هذا اليوم والليلةِ. وهذه الوصيّةُ عمدةُ الوصايا ورأسُها. وقد روي:

أنّ رجلاً أتى النبيّ ﷺ وقال: يا رسول الله، أوصني، فقال له: «فهل أنتَ مستوصٍ إن أنا أوصيتُكَ؟» حتّىٰ قال له ذلك ثلاثاً، وفي كلّها يقول الرجلُ: نعم يارسول الله، فقال له رسولُ الله ﷺ: «إذا هَمَمْتَ بأمرٍ فتدبَّرْ عاقبتَهُ، فإنْ يكُ راشداً فأمضِه، وإن يكُ غيّاً فانْتَهِ»[1].

ويظهرُ من هذا الخبرِ: أنّ التأمُّلَ في عاقبةِ كلّ أمرٍ أعظَمُ ما يحصلُ به النجاة، فينبغي أن يؤكّدَ العهدَ والميثاقَ في ذلك على النفسِ ويحذّرَها عن الأعمالِ، ويَعِظَها كما يوعَظُ العبدُ المتمرّدُ الآبقُ؛ فإنَّ النفسَ بالطبع متمرّدةٌ عن الطاعاتِ، مستعصيةٌ عن العبوديّة، ولكنَّ الوعظَ والتأديبَ يؤثّر فيها، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وثانيها: المراقبةُ: وهو أنْ يُراقبَ نفسهَ عند الخوضِ في الأعمال، فيلاحظَها بالعينِ الكالئةِ، فإنّها إن تُرِكَتْ طغتْ وفسدتْ، ثمّ يراقبُ الله في كلّ حركةٍ وسكونٍ، بأنْ يعلمَ أنّ الله تعالىٰ مطّلعٌ على الضمائرِ، عالمٌ بالسرائرِ، رقيبٌ علىٰ أعمالِ العبادِ، قائمٌ علىٰ كلّ نفسٍ بما كسبتْ، وأنّ سرَّ القلبِ في حقّهِ مكشوفٌ، كما أنّ ظاهرَ البشرةِ للخلقِ مكشوفٌ، بل أشدّ من ذلك، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[3] و ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾[4].

وثالثها: المحاسبةُ بعد العملِ، فإنّ العبدَ كما يختارُ وقتاً في أوّل كلّ يومٍ ليشارطَ فيه النفسَ علىٰ سبيل التوصيةِ بالحقّ، ينبغي له أن يختارَ وقتاً في آخرِ كلِّ يومٍ ليطالبَ النفسَ فيه بما أوصىٰ به، ويحاسِبَها علىٰ جميع حركاتِها وسكناتِها، كما يفعلُ التجّارُ في آخر كلّ سنةٍ مع الشركاءِ. وهذا أمرٌ لازمٌ علىٰ كلّ سالكٍ لطريقِ الآخِرَةِ معتقدٍ للحسابِ في يومِ القيامةِ. وقد وردَ في الأخبار: «أنّ العاقلَ ينبغي أنْ يكونَ له أربعُ ساعاتٍ: ساعةٌ يناجي فيها ربّه، وساعةٌ يُحاسبُ فيها نفسَهُ، وساعةٌ يتفكّرُ في صُنعِ الله، وساعةٌ يخلو فيها للمطعمِ والمشرَبِ»[5]. ولذلك

١. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ١٥٤؛ إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٨٥.
٢. الذاريات (٥١): ٥٥.
٣. النساء (٤): ١.
٤. العلق (٩٦): ١٤.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ١٦٤.

كان الصدرُ الأوّلُ من الخائفين ومَنْ تقدّمنا من سلفِنا الصالحين في غاية السعي والاهتمام في محاسبةِ النفسِ.

ثمّ كيفيّةُ المحاسبةِ بعدَ العملِ: أنْ يُطالبَ نفسَه أوّلاً بالفرائضِ التي هي بمنزلةِ رأسِ مالِه، فإنْ أدَّتْها علىٰ وجهِها شكرَ الله عليه ورَغَّبَها في مثلِها، وإن فوّتَتْها من أصلها طالبها بالقضاء، وإنْ أدّتْها ناقصةً كلّفها بالجبران بالنوافلِ، وإن ارتكَبَ معصيةً اشتغلَ بعتابِها وتعذيبِها ومعاقبتِها، واستوفىٰ منها ما يتداركُ به ما فرّطَ، كما يَصنعُ التاجرُ بشريكه. وكما أنّه يُفتّشُ في حسابِ الدنيا عن الحبّةِ والقِيراطِ والنَقيرِ والقطمير، فيحفَظُ مداخلَ الزيادةِ والنقصانِ حتّىٰ لا يُغبَنَ في شيءٍ منها، كذلك ينبغي أن يُفتّشَ عن أفعالِ النفسِ ويُضيّقَ عليها، ولْيتّقِ غائلتَها وحيلتَها، فإنّها خدّاعةٌ مكّارةٌ ملبّسةٌ، فليطالبْها أوّلاً بتصحيح الجوابِ عن جميعِ ما تكلّم به طولَ نهارِهِ، وليتكفّلَ بنفسه من الحساب قبل أن يتولّاه غيرُه في صعيدِ القيامةِ، ثمّ بتصحيح الجوابِ عن جميعِ أفعاله وأحواله: من نظرِهِ، وقيامِهِ، وقعودِهِ، ونومِهِ، وأكلِهِ، وشُربِهِ، حتّىٰ عن سكوتِهِ لِمَ سَكَتَ، وعن سكونِهِ لِمَ سكنَ، وعن خَواطِرِهِ، وأفكارِهِ، وصفاتِهِ النفسيّة، وأخلاقِهِ القلبيّة.

ورابعها: وهو آخر مقاماتِ المرابَطَةِ **معاتبةُ النفسِ** ومعاقَبَتُها علىٰ تقصيرِها، والمجاهدةُ بتكليفِها الطاعاتِ الشاقّةَ، وإلزامِها الرياضاتِ الشديدةَ، فإنّه إذا حاسبَ نفسَهُ فوجدَها خائنةً في الأعمالِ، مرتكبةً للمعاصي، مقصّرةً في حقوقِ الله، متوانيةً بحكم الكسلِ والبطالةِ في شيءٍ من الفضائلِ، فلا ينبغي أنْ يُهمِلَها، إذ لو أهملَها سهُلَ عليه مقارفةُ المعاصي، وأَنِسَ بها بحيثُ يَعسُرُ بعد ذلك فطامُها عنها.

فينبغي للعاقل أن يُعاتِبَها أوّلاً ويقول: أُفٍّ لكِ يا نفسُ، أهلكتني وعن قريبٍ تُعذّبينَ في النارِ مع الشياطين والأشرارِ، فيا أيّتها النفسُ الأمّارةُ الخبيثةُ، أما تستحيين. ويحكِ يا نفسُ، جرأتُكِ علىٰ معصيةِ الله إنْ كانتْ لاعتقادِكِ أنّه لا يراكِ فما أعظمَ كفرَكِ! وإنْ كانتْ مع علمِكِ باطّلاعِهِ عليكِ فما أشَدّ وقاحتَكِ وأقلّ حياءَكِ! وما أعجبَ نِفاقَكِ وكثرَةَ دعاويكِ الباطلةَ! فإنّكِ تدّعين الإيمانَ بلسانكِ، وأثرُ النفاقِ ظاهرٌ عليكِ، فتنبّهي عن رَقْدتِكِ وخذي حذرَكِ، لو أنّ يهوديّاً أخبركِ في ألذّ أطعِمَتِكِ بأنّه يضرُّكِ لصبرتِ وتركتِهِ، ولو أخبركِ طفلٌ بعقربٍ في

ثوبكِ لنزعتِه، فقول الله وقولُ أنبيائه المؤيّدين بالمعجزاتِ وقول الأولياء والحكماءِ والعلماءِ أقلُّ تأثيراً عندكِ من قول يهوديّ أو طفلٍ؟! فلا يزالُ يكرّر عليها أمثالَ هذه المواعظِ والتوبيخاتِ والمعاتباتِ، ثمّ يعاقبُها ويلزمُها ما يشقّ عليها من وظائفِ العباداتِ والتصدُّقِ بما يحبّه، جبراً لما فاتَ منها وتداركاً لما فرّطَ فيها.

وطريقُ العلاجِ في إلزامِ النفس ـ بعد تقصيرِها في العملِ علىٰ هذه العقوباتِ وربطِها علىٰ تلك الطاعاتِ الشاقّةِ والرياضاتِ ـ أمران:

الأوّل: تذكّر ما وردَ في الأخبار من فضيلةِ رياضةِ النفسِ ومخالفتِها، والاجتهادِ في الطاعةِ والعبادةِ ووظائفِ الخيراتِ، قال الصادق عليه السلام: «طوبىٰ لعبدٍ جاهدَ في الله نفسَه وهواهُ! ومَنْ هزمَ جندَ هواهُ ظفرَ برضاءِ الله»[1]، ومَنْ جاوزَ عقلُه نفسَه الأمّارةَ بالسوءِ بالجهدِ والاستكانةِ والخضوعِ علىٰ بساطِ خدمةِ الله تعالىٰ فقد فازَ فوزاً عظيماً، ولا حجابَ أظلمُ وأوحَشُ بين العبدِ وبين اللهِ تعالىٰ من النفسِ والهوىٰ، وليس لقتلِها وقطعِها سلاحٌ وآلةٌ مثلُ الافتقارِ إلى اللهِ، والخشوعِ والظمأ بالنهارِ، والسهرِ بالليلِ، فإنْ ماتَ صاحبهُ ماتَ شهيداً، وإنْ عاشَ واستقامَ أدّته عاقبته إلى الرضوانِ الأكبرِ، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

وإذا رأيتَ مجتهداً أبلغَ منكَ في الاجتهادِ، فوبّخْ نفسَكَ ولُمها وعيِّرْها، تحثيثاً على الازديادِ عليه، واجعلْ لها زِماماً من الأمر، وعِناناً من النهي، وسُقْها كالرائضِ للفارةِ الذي لا يذهبُ عليه خُطوةٌ من خُطواتهِ إلّا وقد صحّ أوّلُها وآخرُها، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله يُصلّي حتّىٰ تورّمتْ قدماهُ، ويقول: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً»[3].

الثاني: مصاحبةُ أهل السعي والاجتهادِ في العبادةِ، ومجالسةُ المجاهدين المرتاضِينَ الذينَ لا يَنفكّونَ ساعةً من مشاقِّ الطاعاتِ والعباداتِ وإلزامِ نفوسِهم علىٰ ضروبِ النكالِ والعقوباتِ، فملاحظةُ أحوالهمِ ومشاهدةُ أعمالِهم أقوىٰ باعثٍ للاقتداءِ بآثارِهم وأفعالِهم، حتّىٰ

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٦٩، باب مراتب النفس، ح ١٥.

٢. العنكبوت (٢٩): ٦٩.

٣. بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٤٠، باب احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على اليهود، ح ١.

قال بعضُهم: «إذا اعترتْني فترةٌ في العباداتِ، نظرتُ إلىٰ بعضِ العبّادِ واجتهادِهِ في العبادةِ فكنتُ بعدَ ذلك أعملُ أُسبوعاً» ومَنْ لاحظَ حكاياتِهم وسَمِعَ أحوالَهم واطّلعَ علىٰ كيفيّةِ اجتهادِهم في طاعةِ الله، يعلمُ أنّهم عبّادُ الله وأحبّاؤهُ وأنّهم ملوكُ الجنّةِ. قال بعضُ أصحابِ أميرِ المؤمنين عليه السلام:

صلّينا خلفَهُ الفجرَ، فلمّا سلّم انتقل إلىٰ يمينه وعليه كآبة، فمكثَ حتّىٰ طلعتِ الشمسُ، ثمّ قلَبَ يدهَ وقال: «واللهِ لقد رأيتُ أصحابَ محمّدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم وما أرىٰ اليوم شيئاً شَبَهَهُم، وكانوا يُصبحونَ شُعْثاً غُبْراً صُفراً، فقد باتوا لله سُجّداً وقياماً، يتلونَ كتابَ الله عزّ وجلّ، ويراوحونَ بين أقدامِهم وجباهِهم، وكانوا إذا ذكَرُوا الله مادوا كما يميدُ الشجرُ في يوم الريحِ، وهملَتْ أعينُهم حتّىٰ تبلَّ ثيابُهم، وكأنَّ القومَ باتوا غافلين»[1].

وكان أُوَيس القَرني يقول في بعض الليالي: «هذه ليلةُ الركوع»، فيُحيي الليلَ كلَّهُ في ركعةٍ، ويقولُ في بعضِها: «هذه ليلةُ السجودِ» فيُحيي الليلَ كلَّه في سجدةٍ.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٧٢ ـ ٧٣، باب ما جمع من جوامع كلامه عليه السلام، ح ٤٠.

النوع السادس والعشرون: الغَفْلَةُ

وهي فُتورُ النفْسِ عن الالتفاتِ والتوجُّهِ إلىٰ مافيه غرضُها ومطلبُها، إمّا عاجِلاً أو آجِلاً. وضِدُّها: النيّةُ. وتُرادِفُها: الإرادةُ والقصْدُ. والنيّةُ في العباداتِ مع انضمامِ التقرُّبِ إليها تُسمّىٰ إخلاصاً.

ثمّ المتبادرُ من الموافقِ للغرضِ والمطلوبِ لمّا كانَ ماهو كذلك عند العقلاءِ وأربابِ البصيرةِ، فيكونُ المرادُ منه ماهو مرغوبٌ ومطلوبٌ في نفسِ الأمرِ وما تحصيلهُ خيرٌ وسعادةٌ، وبهذا الاعتبارِ تكونُ الغفلةُ بإطلاقها مذمومةً والنيّةُ ممدوحةً. فلو ذُمَّتِ الغفلةُ بإطلاقِها ومُدِحتِ النيّةُ كذلك، كان بهذا الاعتبارِ. والآياتُ والأخبارُ الواردةُ في ذمِّ الغفلةِ خارجةٌ بهذا الاعتبارِ، كما وصفَ اللهُ الغافلينَ وقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1]. وقال: ﴿أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْغَـٰفِلُونَ﴾[2].

تنبيهٌ: الغفلةُ بالمعنىَ المذكور أعمّ من أنْ تكونَ فتور النفس وخُمودها عن الانبعاث إلىٰ ما يراه موافقاً للغرض مع الجهل بالموافق والملائم، أو مع العلم به ومع النسيان عنه، أو مع التذكّر له، وربّما خصّ في عرف أهل النظر بصورةِ الذهولِ وعدمِ التذكُّرِ. ثمّ الكسالةُ والبطالةُ قريبٌ من الغفلةِ بالمعنىَ العامّ، وربّما فرّق بينهما ببعضِ الاعتباراتِ.

---

١. الفرقان (٢٥): ٤٤.

٢. الأعراف (٧): ١٧٩.

تتميم: الغفلةُ والكسالةُ عمّا ينبغي تحصيلهُ من أُمورِ الدنيا والدين توجبُ الحرمانَ عـن سعادةِ الدارينِ، إذِ الإهمالُ في رعايةِ أمر المـعيشةِ ومـصالحِها يـؤدّي إلىٰ هـلاكِ الشـخصِ وانقطاعِ النوعِ، والغفلةُ عن اكتساب المـعارفِ والأخـلاقِ الفـاضلةِ وعـن أداءِ الفـرائـضِ والنوافلِ تنجرّ إلىٰ إبطال غايةِ الإيجادِ، أعني بلوغَ كلّ شخصٍ إلىٰ كمالِه المستعدّ له.

وصــل
ضدّ الغفلة: النيّة والإرادة

قد عرفتَ أنّ ضِدَّ الغفلةِ النيّةُ، وهي انبعاثُ النفسِ وتوجُّهها إلىٰ ما يراهُ موافقاً لغرضِها، وأنّ النيّةَ والإرادةَ والقصدَ عباراتٌ متواردةٌ علىٰ معنىً واحدٍ، وهي واسطة بين العلم والعملِ، إذ مالم يُعلم أمرٌ لم يقصدْ، ومالم يُقْصَدْ لم يفعلْ، فالعلم مقدّم على النيّة، والعمل ثمرتُها وفرُعها.

وقد ظهر: أنّ المحرِّكَ الأوّلَ هو الغرضُ المطلوبُ ـ أعني المقصودَ المَنْويَّ بعد تعلُّقِ العـلمِ به ـ وهو الباعثُ الأوّلُ، وينبعثُ منه الشوقُ وهو الباعثُ الثاني، ويتولَّدُ منه القصدُ والنـيّةُ وهو الباعثُ الثالثُ المحرّكُ للقُدرةِ الباعثُ لانتهاضِها علىٰ تحريكِ الأعضاءِ إلىٰ جانبِ العملِ.

وهاهنا أُمورٌ:

الأمر الأوّل: تأثيرُ النيّةِ على الأعمالِ

العملُ غرضُهُ الباعثُ، أي باعثُهُ الأوّلُ، إمّا واحدٌ: كالقيام للإكرام، أو للهربِ من السـبع المتهجّم عليه. أو متعدّد مع استقلالِ كلِّ واحدٍ بالباعثيّة متساوياً أو متفاوتاً: كالتصدّقِ للفقرِ والقرابةِ بالنظر إلىٰ مَنْ ينتهضُ فيه كلُّ واحدٍ بانفراده سبباً للإعطاء أو بدون استقلالٍ واحدٍ لو انفردَ، بل المستقلُّ المجموعُ، كالمثالِ المذكورِ بالنظرِ إلىٰ مَنْ يعطي ماله قريبَهُ الفقيرَ ويمتنعُ عندَ الانفرادِ، أي لا يُعطي قريبَهُ الغنيَّ، ولا الأجنبيَّ الفقيرَ. أو مع استقلالِ بعضٍ دونَ بعضٍ: بأنْ

يكونَ للثاني تأثيرٌ بالإعانةِ والتسهيلِ دونَ البعثِ والتحصيلِ.

ثمّ تتعدّدُ الجزاءُ بتعدُّدِ البواعثِ، إنْ خيراً فخيرٌ: كالدخولِ في المسجدِ لزيارةِ الله، ولانتظارِ الصلاةِ، والاعتكافِ والانزواءِ والتجرُّدِ للذكرِ، وتركِ الذنوبِ، وملاقاةِ الأتقياءِ وإخوانه المؤمنينَ، واستماعِ المواعظِ وأحكامِ الدينِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ؛ وإنْ شرّاً فشرٌّ: كالقعودِ فيه للتحدُّثِ بالباطلِ، وملاحظةِ النساءِ، والمناظرةِ للمباهاةِ والمراءاة.

وربّما كان بعضُ البواعثِ خيراً وبعضُها شرّاً: كالتصدّق للثوابِ والرياءِ، ودخولِ المسجدِ لبعضِ البواعثِ الأُوَلِ، وبعضِ البواعثِ الثانيةِ، والعملُ الذي باعثُه من هذا القسمِ قد ظهرَ حكمُهُ في بابِ الإخلاصِ.

ثمّ باعثُ العملِ المباحِ إنْ كانَ خيراً يجعلُه عبادةً، كالتطيّبِ يومَ الجمعةِ لإقامة السُنّةِ، وتعظيمِ المسجدِ واليومِ، ودفعِ الأذىٰ بالنتنِ، والأكلِ لقوّة العباداتِ، والترفّه بنومةٍ أو دعابةٍ مباحةٍ لردِّ نشاطِ الصلاةِ. وإنْ كان شرّاً يجعلُه معصيةً، كالتطيّب للتفاخُرِ بإظهارِ الثروةِ، والتزيّنِ للزنا. ولا يؤثّر في الحرام، فلا يباحُ شربُ الخمرِ لموافقةِ الأقرانِ والإخوانِ. فالمعاصي لا تتغيّرُ موضوعاتُها بالنيّةِ، بخلافِ الطاعاتِ والمباحاتِ، فإنّها بالنيّةِ الصحيحةِ تصيرُ أقربَ القُربات، وبالفاسدةِ تصيرُ أعظمَ المهلكاتِ، فما أعظمَ خسرانَ مَنْ يغفلُ عن النيّةِ، ويتعاطى الأعمالَ تعاطيَ البهائمِ المهملةِ علىٰ قصدِ حظوظِ النفسِ أو على السهوِ والغفلةِ، وقد كانتْ غايةُ سعي السلفِ أنْ يكونَ لهم في كلّ شيءٍ نيّةٌ صحيحةٌ، حتّىٰ في أكلِهم وشربِهم ونومِهم ودخولِهم الخلاءَ.

ولا ريبَ في إمكانِ تصحيحِ النيّةِ في كلّ مباحٍ، بحيثُ يترتّبُ عليه الثوابُ، بل يمكنُ تصحيحُ النيّةِ في كلّ نقصانٍ ماليّ وعرضيّ، فإنّ مَنْ تَلِفَ له مالٌ، فإنْ قال: هو في سبيلِ الله، كان له أجرٌ، وإنْ سرقهُ أحدٌ أو غصبَهُ يمكنُ أن ينويَ كونَهُ من ذخائرِ الآخرةِ، وإذا بلغَهُ اغتيابُ غيرِهِ له فيمكنُ أن يُطيّبَ خاطرَه بأنّه سيحملُ عليه سيّئاتِه وينقلُ إلىٰ ديوانِه حسناتِه. فإيّاك أنْ تستحقِرَ شيئاً من نيّاتك وخطراتِ قلبكَ، ولا تقدمُ علىٰ عملٍ إلّا بنيّة صحيحةٍ، فإنْ لم تحضرْكَ النيّةُ توقّفْ، إذ النيّةُ لا تدخلُ تحتَ الاختيارِ، وقد قيل: «إنّ مَنْ دعا

أخاهُ إلىٰ طعامٍ بدونِ رغبةٍ باطنةٍ في إجابتهِ، فإنْ أجابه فعليه وزرانِ: النفاقُ، وتعريضُهُ أخاهُ لما يكرهُهُ لو علمهُ، وإن لم يُجبْهُ ولم يأكلْ فعليهِ وزرٌ واحدٌ هو النفاقُ». فلابدّ للعبدِ من خالصِ النيّةِ في كلّ حركةٍ وسكونٍ؛ لأنّه إذا لم يكنْ كذلك كان غافلاً، والغافلونَ قد وصفَهم الله تعالىٰ فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[١].

وصاحبُ خالصِ النيّة صاحبُ القلبِ السليم، قال الصادق عليه السلام:

صاحبُ النيّة الصادقةِ صاحبُ القلبِ السليم؛ لأنّ سلامةَ القلبِ من هواجسِ المحذوراتِ بتخليصِ النيّة لله في الأُمورِ كلِّها، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢].

ثمّ النيّةُ تبدو من القلبِ علىٰ قَدْرِ صفاءِ المعرفةِ وتختلفُ علىٰ حسبِ اختلافِ الأوقاتِ في معنىٰ قوّتهِ وضعفهِ، وصاحبُ النيّة الخالصةِ نفسُه وهواه مقهورتانِ تحتَ سلطانِ تعظيمِ الله تعالىٰ والحياءِ منه، وهو من طبعهِ وشهوتهِ ومُنْيَتِهِ، نفسُه في تعبٍ والناسُ منه في راحةٍ[٣].

الأمر الثاني: النيّةُ روحُ الأعمالِ وحقيقتها

النيّةُ روحُ الأعمالِ وحقيقتُها، والجزاءُ يكونُ حقيقةً عليها، فإنْ كانتْ خالصةً لوجهِ الله تعالىٰ كانتْ ممدوحةً، وكان جزاؤها خيراً وثواباً، وإن كانت مشوبةً بالأغراضِ الدنيويّة كانتْ مذمومةً، وكان جزاؤها شرّاً وعقاباً، قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[٤].

والمرادُ بالإرادةِ: النيّةُ، لترادفِهما. وقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم:

إنّما الأعمالُ بالنياتِ، ولكلّ امرئٍ مانوىٰ، فمن كانتْ هجرتُهُ إلى الله ورسولهِ

---

١. الفرقان (٢٥): ٤٤.
٢. الشعراء (٢٦): ٨٨ ـ ٨٩.
٣. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢١٠، باب النيّة وشرائطها، ح ٣٢؛ مصباح الشريعة، ص ٤٠ ـ ٤٢، الباب ٤.
٤. الأنعام (٦): ٥٢.

فهجرتُهُ إلىٰ الله ورسولِه، ومَنْ كانتْ هجرتُه إلىٰ دنيا يصيبُها أو امرأةٍ يتزوّجُها فهجرتُه إلىٰ ما هاجرَ إليه[١].

وإنّما قال ذلك حينَ قيلَ له: إنّ بعضَ المهاجرينَ إلىٰ الجهادِ ليستْ نيّتُهُ من تلك الهجرةِ إلّا أخذَ الغنائم من الأموالِ والسبايا أو نيلَ الصيتِ عندَ الاستيلاءِ، فبيّنَ صلى الله عليه وآله: أنّ كلّ أحدٍ ينالُ في عملِه ما يبغيه، ويصلُ إلىٰ ما ينويه، كائناً ما كان، دنيويّاً كان أو أُخرويّاً. وهذا الخبرُ ممّا يعدّه المحدّثونَ من المتواتراتِ وهو أوّلُ ما يُعلّمونه أولادَهم، وكانوا يقولون: «إنّه نصفُ العلم».

ولمّا خرجَ صلى الله عليه وآله إلىٰ غزوة تبوك، قال:

«إنّ بالمدينةِ أقواماً، ما قطعْنا وادياً، ولا وطأنا موطِئاً يغيظُ الكفّارَ، ولا أنفقنا نفقةً، ولا أصابتنا مخمصةٌ، إلّا شاركونا في ذلك وهم في المدينةِ»، قالوا: وكيفَ ذلك يارسول الله، وليسوا معنا!؟ فقال: «حسبُهم العذرُ، فشاركونا بحسنِ النيّة»[٢].

وفي الخبر:

إنّ رجلاً من المسلمين قُتلَ في سبيل الله بأيدي بعضِ الكفّار، وكان يُدعى بين المسلمين قتيلَ الحمارِ، لأنّه قاتلَ رجلاً من الكافرينَ نيّةَ أنْ يأخذَ حمارَهُ وسَلَبَهُ، فقُتلَ علىٰ ذلك فأُضيفَ إلىٰ نيّته[٣].

وفي أخبارٍ كثيرةٍ: «مَنْ همّ بحسنةٍ ولم يعملْها كُتب له حسنةٌ»[٤]. وقد ورد: «إذا التقى المسلمانِ بسيفهما، فالقاتلُ في النارِ، وكذا المقتولُ، لأنّه أرادَ قتلَ صاحبِه»[٥]. وقال الصادق عليه السلام:

وإنّما خُلّدَ أهلُ النار في النار؛ لأنّ نيّاتِهم كانت في الدنيا أنْ لو خُلّدوا فيها أنْ يعصوا الله تعالىٰ أبداً، وإنّما خُلّد أهل الجنّة في الجنّة؛ لأنّ نيّاتِهم كانتْ في الدنيا أن لو بقوا

---

١. منية المريد، ص ١٣٣؛ المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ١٠٣؛ بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢١٢، باب النيّة، ح ٣٨، مع اختلافٍ ما.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ١٠٤.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ١٠٤.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٤٢٨، باب من يهمّ بالحسنة أو السيّئة، ح ١؛ التوحيد، ص ٤٠٨، باب الأمر والنهي، ح ٧.

٥. بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٢١، باب أقسام الجهاد، ح ١٠.

فيها أنْ يُطيعوا الله أبداً، فبالنيّاتِ خُلّد هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾[١]. قال: «على نيّتهِ»[٢].

وأمثالُ هذه الأخبارِ أكثرُ من أن تُحصىٰ. وأيّ شُبهةٍ في أنّ عِمادَ الأعمالِ النيّاتُ، والعملُ مفتقرٌ إلى النيّة ليصيرَ خيراً، والنيّةُ في نفسِها خيرٌ وإنْ تعذّرَ العمل، وعونُ الله تعالىٰ للعبد علىٰ قَدْر النيّةِ، فمن تمّتْ نيّتهُ تمّ عونُ الله له، وإنْ نقصتْ نقصَ بقَدْره، فَرُبَّ عملٍ صغيرٍ تُعظّمه النيّةُ، وربّ عملٍ كبيرٍ تُصغِّرُهُ النيّةُ، ولذلك كان السلفُ يتعلّمون النيّةَ للعملِ كما يتعلّمونَ العملَ.

الأمر الثالث: عبادةُ الأحرار والأُجراءِ والعبيدِ

قد ظهرَ ممّا ذُكرَ: أنّه لا يُحسَبُ من عبادةِ الله ولا يُعَدُّ من طاعةِ الله بحيثُ يترتّبُ عليه الأجرُ في الآخرةِ إلّا ما يرادُ التقرُّبُ إلى الله والدارِ الآخرةِ، أي يرادُ به وجهَ الله من حيث هو، من دونِ غرضٍ آخرَ من الأغراضِ الدنيويّةِ، أو يرادُ به التوصّلُ إلىٰ ثوابِه، أو الخلاصُ من عقابِه، فمَنْ أرادَ بعبادتِه محضَ وجهِ الله، وأخلصَها له لكونهِ أهلاً للعبادةِ، ولمحبّتِه له لما عرفَهُ بجلالهِ وجمالهِ وعظمتهِ ولطفِ فِعالهِ، فأحبّه واشتاقَ إليه، ولا يُريدُ سواه، ولا يَبتهجُ بغيرِ حُبّهِ وأُنسِهِ، فيفرحُ بعبادتهِ وتوجيه قلبه إليه بطاعتهِ: فجزاؤه أنْ يحبّه اللهُ ويجتبيه، ويُقرّبهُ إلىٰ نفسهِ وبدنهِ قُرْباً معنويّاً ودُنوّاً روحانيّاً، كما قال في حقّ بعضِ مَنْ هذا صفتُهُ: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَئَابٍ﴾[٣].

وإلىٰ هذة المرتبة أشارَ أميرُ المؤمنينعليه السلام بقوله: «إلهي ما عبدتُك خوفاً من ناركَ ولا طمعاً في جنّتكَ، ولكنْ وجدتُكَ أهلاً للعبادةَ فعبدْتُك»[٤].

وأمّا مَنْ غرضُه نَيلُ الثوابِ والخلاصُ من العقابِ، نظراً إلىٰ أنّه لم يعرفْ من اللهِ سوىٰ كونهِ إلهاً صانعاً للعالم قادراً قاهراً عالماً، وأنّ له جنّةً يُنَعِّمُ بها المطيعينَ، ونـاراً يُعذّبُ بها

١. الإسراء (١٧): ٨٤.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٨٥، باب النيّة، ح ٥.
٣. ص (٣٨): ٢٥ و ٤٠.
٤. بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٤١، باب عبادته وخوفه، ح ٤.

العاصين، فعبَدَهُ ليفوزَ بجنّتهِ أو يتخلّصَ من ناره: فجزاؤهُ بمقتضىٰ نيّته أنْ يُدخِلَه جنّتَهُ، ويُنجِيَه من نارِه؛ لأنّ جزاء الأعمال علىٰ حسب النيّات، كما أخبر اللهُ تعالىٰ عنه في غير موضع من كتابهِ، فإنّ لكلّ امرئ ما نوىٰ[1]. وأكثرُ الناسِ تتعذّرُ منهمُ العبادةُ ابتغاءً لوجهِ الله وتقرُّباً إليه؛ لأنّهم لا يعرفونَ من الله تعالىٰ إلّا المرجوّ والمخوفَ، فغايةُ مرتبتهم أنْ يتذكّروا النارَ ويحذّروا أنفسَهم عقابَها، ويتذكّروا الجنّةَ ويُرغّبوا أنفسَهم ثوابَها، وخصوصاً مَنْ كان ملتفتاً إلى الدنيا، فإنّه قلّما تنبعثُ له داعيةٌ إلىٰ فعلِ الخيراتِ لينالَ بها ثوابَ الآخرةِ، فضلاً عن عبادتِه علىٰ نيّة إجلال الله تعالىٰ لا ستحقاقِهِ الطاعةَ والعبوديّةَ، فإنّه قلَّ مَنْ يفهمُها فضلاً عمّن يتعاطاها، فلو كُلّفَ بها لكان تكليفاً بما لا يُطاق.

وليس معنىَ الإخلاص في العبادةِ إلّا عدم كونِها مشوبةً بشوائبِ الدنيا والحظوظِ العاجلةِ للنفسِ، كمدحِ الناسِ، ونيل المال، والخلاصِ من النفقةِ لعتقِ العبدِ ونحو ذلك، وظاهر أنّه لا تنافيه إرادةُ الجنّةِ والخلاصِ من النار بما وُعِدَ في الآخرةِ، وإنْ كانَ من جنس المألوفِ في الدنيا. ولو كان مثلُ هذه النيّات مفسدةً للعبادات لكانَ الترغيبُ والترهيبُ والوعدُ والوعيدُ عبثاً، إذ كلُّ ما وعدَ به الجنّة وأوعدَ عليه النارَ ممّا رغّب ووعّد به ورهّبَ وأوعدَ عليه، وما وردَ في الترغيبِ والترهيبِ والوعدِ والوعيدِ من الآياتِ والأخبار أكثرُ من أن يُحصىٰ، قال الله سبحانه: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾[2].

ثمّ كيف يمكنُ للعبدِ الضعيفِ الذليلِ المهينِ الذي لا يملكُ لنفسهِ نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياةً ولا شيئاً ممّا ينفعُهُ ويُؤذيه، أنْ يستغنيَ عن جلبِ النفعِ لنفسهِ أو دفعِ الضررِ عنها من مولاه. وممّا يدلّ صريحاً علىٰ ما ذكرناه قولُ الصادق عليه السلام:

العبادُ ثلاثةٌ: قومٌ عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً، فتلك عبادةُ العبيدِ. وقومٌ عبدوا الله تبارك وتعالىٰ طلبَ الثوابِ، فتلكَ عبادةُ الأُجَراءِ. وقومٌ عبدوا الله عزّ وجلّ حبّاً

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢١٠، باب النيّة، ح ٣٢؛ وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤٩، أبواب مقدّمة العبادات، الباب ٥، ح ١٠.
٢. الأنبياء (٢١): ٩٠.

له، فتلكَ عبادةُ الأحرارِ، وهي أفضلُ العبادة[١].

وهذا يدلّ علىٰ أنّ العبادةَ على الوجهين الأوّلين لا تخلو من فضل أيضاً، فضلاً عن أن تكونَ صحيحةً. نعم، لا ريبَ في أنّ العبادةَ على الوجهِ الأخيرِ لا نسبةَ لمنزلتِها ودرجتِها إلىٰ درجةِ العبادةِ على الوجهين الأوّلين.

الأمر الرابع: نيّةُ المؤمن خيرٌ من العملِ

لمّا عرفتَ أنّ النيّةَ روحُ العمل وحقيقتُه، وتوقُّفَ نفعِ العملِ عليها دون العكسِ، وكونَ الغرضِ الأصلي من العملِ تأثيرُ القلبِ بالميلِ إلى الله تعالىٰ وتوقّفِه على النيّة، فهي خيرٌ من العملِ، بمعنىٰ أنّ العملَ إذا حُلِّلَ إلىٰ جزئيه يكونُ جزؤُه القلبيّ أعني النيّةَ خيراً من جزئِه الجسماني، أعني ما يصدرُ من الجوارحِ، والثوابُ المترتّب عليه أكثرُ من الثوابِ المترتّبِ عليه، ولذا قال الله سبحانه: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾[٢].

فإنّ المقصودَ من إراقة دمِ القربانِ ميلُ القلبِ عن حبّ الدنيا، وبذلُها إيثاراً لوجهِ الله، دونَ مجرّد الدمِ واللحمِ، وميلُ القلبِ إنّما يحصلُ عند جزم النيّةِ والهمّ، وإنْ عاقَ عن العملَ عائقٌ، ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾[٣]، والتقوىٰ صفةُ القلبِ. ولذا وردَ: أنّ مَنْ هَمَّ بحسنةٍ ولم يعملْها كُتبتْ له حسنة، لأنّ همَّ القلبِ هو ميلُه إلى الخيرِ وانصرافُه عن الهوىٰ، وهو غايةُ الأعمالِ الحسنةِ، وإنّما الإتمام بالعملِ يزيدُها تأكيداً، وبما ذكر ظهرَ معنىٰ الحديثِ المشهورِ: «نيّة المؤمنِ خيرٌ من عمله، ونيّةُ الكافرِ شرٌّ من عملِه، وكلّ عاملٍ يعملُ علىٰ نيّته»[٤].

وحاصلهُ: أنّ كلَّ طاعةٍ تتضمّنُ نيّةً وعملاً، وكلٌّ منهما من جملةِ الخيراتِ، وله أثرٌ في المقصودِ، وتكونُ النيّةُ خيراً من العملِ وأثرُها أكثرَ من أثره. والغرضُ: أنّ للمؤمنِ اختياراً في

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٨٤، باب العبادة، ح ٥.
٢. الحجّ (٢٢): ٣٧.
٣. الحجّ (٢٢): ٣٧.
٤. الكافي، ج ٢، ص ٨٤، باب النيّة، ح ٢.

النيّةِ وفي العملِ، فهما عملان، والنيّةُ من الجملةِ خيرُهما، أي النيّة التي هي جزءٌ من طاعتهِ خيرٌ من عملهِ الذي هو جزؤها الآخرُ.

والوجهُ في كون النيّةِ خيراً من العمل وراجحةً عليه في الثواب: أنّه لا ريبَ في أنّ المقصودَ من الطاعاتِ شفاءُ النفسِ وسعادتُها في الآخرةِ وتنعُّمُها بلقاءِ الله سبحانه، والوصولُ إلى اللقاءِ موقوفٌ علىٰ معرفةِ الله وحبّه وأُنسه، وهي موقوفةٌ علىٰ دوامِ الفكرِ والذكرِ الموجِبينِ لانقطاع النفْسِ من شهواتِ الدنيا وتَوَجُّهِها إلى الله سبحانه، فإذا حصلَ بمجرّدِ المعرفةِ الحاصلةِ من الفكرِ مَيْلٌ وتوجّهَ إلى الله تعالىٰ كان ضعيفاً غيرَ راسخٍ، وإنّما يترسّخُ ويتأكّدُ بالمواظَبةِ علىٰ أعمالِ الطاعاتِ وتركِ المعاصي بالجوارحِ، لأنّ بينَ النفْسِ وبينَ الجوارح علاقةً يتأثّر لأجلها كلٌّ واحدٍ منها عن الآخر، فيرىٰ أنّ العضوَ إذا أصابتْه جِراحةٌ تتألّمُ بها النفسُ، وأنّ النفسَ إذا تألّمتْ بعلمِها بموتِ عزيزٍ أو بهجومِ أمرٍ مخوفٍ تأثّرتِ الأعضاءُ وارتعدتِ الفرائصُ، فالطاعاتُ التي هي فعلُ الجوارحِ إنّما شُرعتْ للتوصُّلِ بها إلىٰ صفةِ النفس، أعني التوجُّهَ والميلَ إلى الله سبحانه، فالنفْسُ هي الأصلُ والمتبوعُ والأميرُ، والجوارحُ كالخدمِ والأتباعِ، وصفاتُ القلبِ هي المقصودةُ لذاتها، وأفعال الجوارحِ هي المطلوبةُ بالعرضِ، لكونها مؤكّدةً وموجبةً لرسوخِ النفْسِ ـ أعني الميلَ والنيّةَ والتوجُّهَ ـ ولا ريبَ في أنّ ماهو المقصودُ بالذاتِ خيرٌ ممّا هو مقصودٌ بالعرضِ، وثوابَهُ أعظمُ من ثوابهِ.

ومن المعاني الصحيحةِ للحديث: أنّ المؤمنَ بمقتضىٰ إيمانهِ ينوي خيراتٍ كثيرةً لا يُوفَّقُ لعمَلِها، إمّا لعدمِ تمكّنِه من الوصول إلىٰ أسبابها، أو لعدمِ مساعدةِ الوقتِ علىٰ عملِها، أو لممانَعةِ رذيلةٍ نفسانيّة عنها بعد الوصولِ إلىٰ أسبابها، كالذي ينوي إنْ آتاهُ الله مالاً أن يُنفقَهُ في سبيلهِ، ثمّ لمّا آتاهُ يمنعُه البخلُ عن الإنفاقِ، فهذا نيّتهُ خيرٌ من عملهِ. وأيضاً المؤمنُ ينوي دائماً أنْ تقعَ عباداتُه علىٰ أحسنِ الوجوهِ، لأنّ إيمانَه يقتضي ذلكَ، ثمّ إذا اشتغلَ بها لا يتيسّرُ له ذلك، ولا يأتي بها كما يريدُ، فما ينويه دائماً خيرٌ ممّا يعملُ به في كلّ عبادةٍ. وإلىٰ هذا أشارَ الباقرُ عليه السلام حيثُ قال: «نيّةُ المؤمنِ خيرٌ من عملهِ، وذلك لأنّه ينوي الخيرَ مالا يُدرِكُه، ونيّة الكافر شرٌّ من

عملِهِ، وذلك لأنّ الكافرَ ينوي الشرّ ويأملُ من الشرّ ما لا يُدرِكُه»[١]. وقيل للصادق عليه السلام:

سمعتُك تقول:نيّةُ المؤمنِ خيرٌ من عملِهِ، فكيفَ تكونُ النـيّةُ خـيراً مـن العـمل؟ قال عليه السلام: «لأنّ العملَ إنّما كان رياءً للمخلوقينَ، والنيّة خالصةٌ لربِّ العالمينَ، فيُعطي عزّ وجلّ على النيّة ما لا يُعطي علىٰ العمل[٢] ـ ثمّ قال: ـ إنّ العبدَ لينوي من نهارِهِ أنْ يُصلّي بالليل فتغلبُه عينُه فينامُ، فيثبتُ اللهُ له صلاتَهُ ويكتبُ نَفَسَهُ تسبيحاً ويجعلُ نومَهُ صدقة»[٣].

وبعضُ الأخبارِ المتقدّمةِ يعضدُ ذلك ويؤكّدُهُ أيضاً.

تتميم: الطريقُ في تخليصِ النيّة في الطاعاتِ تقويةُ إيمانِهِ بالشرع، وتقويةُ إيمانه بعظمِ ثوابِ الطاعاتِ مع خُلوصِ النيّة، وإذا قوي إيمانُه فربّما انبعثَ من نفسِهِ رغبةً إلىٰ فعلِ الطاعة مـع خُلوصِ النيّةِ.

١. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٩٠، باب النيّة، ذيل الحديث ٢.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٩٠، باب النيّة، ذيل الحديث ٢ وص ٢٠٦، ح ١٨.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٩٠، باب النيّة، ذيل الحديث ٢ وص ٢٠٦، ح ١٩.

النوع السابع والعشرون: الكَـراهة وعدم الرغبة

والكراهة هي نفرةُ الطبعِ عمّا لا يخلو عن إيلامٍ وإتعابٍ، فإذا قويَتْ سُمّيتْ مقتاً. وضـدّها الحبُّ، وهو مَيْلُ الطبعِ إلى الشيءِ الملذِّ، فإنْ تأكّدَ ذلك الميلُ وقَوِيَ سُمّي عشقاً.

ثمّ اعلم أنّ عدمَ الرغبةِ والغفلةِ والكراهةِ والبعدِ أُمورٌ متناسبةٌ مترتّبةٌ بعضُها علىٰ بعضٍ، وكذا أضدادُها ـ أعني الشوقَ والنيّةَ والحبَّ والأُنسَ ـ أُمورٌ متناسبةٌ يـترتّبُ بـعضُها عـلىٰ بعضٍ، فنحنُ هنا نشيرُ إجمالاً إلىٰ معانيها والفرقِ بيَنها، ثمّ نـذكرُها مـفصّلةً عـلىٰ الترتـيبِ، فنقولُ:

قد عرفتَ أنّ الغفلةَ والنيّةَ ضدّانِ، وهما عبارتان عن عدمِ انبعاثِ النفْسِ وانـبعاثِها إلىٰ مافيه غرضُها الملائمُ إمّا عاجلاً أو آجلاً، وأمّا عدمُ الرغبةِ والشوقُ فهما أيضاً ضدّان ومبدآن للغفلة والنيّة.

بيان ذلك: أنّ معنىٰ عدم الرغبةِ ظاهرٌ، والشوقُ عبارةٌ عن الرغبةِ إلى الشيء الذي لم يصل إليه وكان مفقوداً عنه بوجهٍ، فالشوقُ لا يخلو عن ألمِ المـفارقَةِ، ولو زالتِ المـفارقةُ وحـصلَ الوِصالُ انتفى الشوقُ. ثمّ فَرْقُ الشوقِ عن النيّةِ ظاهرٌ، فإنّ الشوقَ مجرّدُ الرغبةِ إلى الشيءِ من دونِ اعتبارِ انبعاثِ النفْسِ إلىٰ طلبهِ في مفهومه، والنيّةُ هي الانبعاثُ المذكورُ، فالشوقُ مبدأُ النيّةِ، والنيّةُ مترتّبةٌ عليه، وبذلك يظهر الفرقُ بين ضدّيهما أيضاً، أعني عدمَ الرغبةِ والغفلةَ.

وأمّا الكراهةُ والحبُّ: فقد عرفتَ أنّهما عبارتانِ عن نفرةِ الطبعِ عن المؤلم، وعن مـيلهِ إلى

المُلِذّ، سواءٌ انبعثتِ النفسُ إلى طلبِهِ أم لا. وبهذا يفترقُ الحبّ عن النيّةِ، فإنّ النيّةَ هي انبعاثُ النفسِ، وهو مغايرٌ لمجرّدِ الميل، بَلِ الميلُ منشأٌ للانبعاثِ، وسواءٌ حصلَ الوصولَ إلى المُلِذّ أم لا. وبهذا يفترقُ عن الشوقِ، فإنّ الشوقَ يعتبرُ في مفهومِهِ عدمُ الوصولِ، فالشوقُ والإرادةُ لا ينفكّان عن الحبّ، والحبّ يكونُ مقارِناً لهما ألبتّةَ. فإذا حصلَ الوصولُ إلى المطلوبِ زالَ الشوقُ والإرادةُ وبقي الحبُّ بدونِهما.

وبما ذُكِرَ يظهرُ الفرقُ بين الكراهةِ وبينَ عدم الرغبةِ والغفلةِ.

وأمّا الأُنسُ: فهو عبارةٌ عن استبشارِ النفسِ بما يلاحظُه من المطلوبِ المحبوبِ بعد الوصولِ واستحكامِه ورُسوخِه، والبعدُ عبارةٌ عن عدمِ الوصولِ إلى المحبوبِ أو الوصولِ إلىٰ ما لا يُستَبْشَرُ ولا يُبْتَهَجُ بملاحظتِهِ، لعدمِ الرغبةِ إليه أو للتنفّرِ عنه. فالحبّ منشأُ الأُنسِ، والأُنسُ يترتَّبُ عليه، وهو غايةُ المحبّةِ، فلا يخلو أُنسٌ عن المحبّةِ، والمحبّةُ قد تكونُ بدونه. ثمّ المحبوبُ إنْ كان ممّا يُسْتَحْسنُ حبُّهُ وطلبُهُ شرعاً وعقلاً، كان ما يتعلّقُ به من الشوقِ والإرادةِ والحبّ والأُنس من الفضائلِ وأضدادُها من الرذائلِ. وإنْ كان ممّا يُذَمّ حبُّه وطَلَبُهُ شرعاً وعقلاً كان بالعكسِ.

وصلٌ

ضدُّ الكراهةِ وعدمِ الرغبة: الحبُّ والشوقُ

الشوقُ عبارةٌ عن الميلِ والرغبةِ إلى الشيءِ عند غيبتهِ، فإنّ الحاصلَ الحاضرَ لا يُشتاقُ إليه، إذ الشوقُ طلبٌ يسوقُ إلىٰ نيلِ أمرٍ، والموجودُ لا يُطلبُ، فالشوقُ لا يُتَصَوّرُ إلّا إلىٰ شيءٍ أُدرك من وجهٍ ولم يُدْرَكْ من وجهٍ، فما لا يُدْرَكُ أصْلاً لا يُشتاقُ إليه، إذ لا يُتَصوّرُ أنْ يَشتاقَ أحدٌ إلىٰ شخصٍ لم يَرهُ ولم يَسمَعْ وصْفَهُ. وما أُدرِكَ بكمالِهِ لا يشتاقُ إليه أيضاً، إذ المداومُ لمشاهدةِ المحبوبِ، والواصلُ إليه من جميع الوجوهِ لا يُتصوّرُ أن يكونَ له شوقٌ. فالشوقُ يختصُّ تعلُّقُه بما أُدرِكَ من وجهٍ دونَ وجهٍ، وهذا إنّما يكونُ بأحدِ وجهين:

أحدهما: أنْ يتّضحَ الشيءُ اتّضاحاً ما، ولم يُستَكْمَلِ الوضوحُ، فاحتاجَ إلى استكمالِهِ، فيكونُ الشوقُ إلىٰ ما بقي من المطلوبِ ممّا لم يحصلْ. مثالُ ذلك: أنّ مَنْ غابَ عنه معشوقُه، وبقي في قلبهِ خيالُه، يَشتاقُ إلى استكمالِ خيالهِ بالرؤيةِ، ومَنْ رأىٰ معشوقَهُ في ظلمةٍ، بحيثُ لا تنكشفُ له حقيقةُ صورَتهِ، يشتاقُ إلىٰ استكمالِ رؤيتهِ بإشراقِ الضوءِ عليه، فلو رآهُ بتمامِ الرُؤيةِ انتفى الشوقُ، كما أنّه لو انمحىٰ عن قلبهِ ذكرُهُ وخيالهُ ومعرفتُهُ حتّىٰ نَسِبَهُ لم يعقلْ وجودَهُ.

ثانيهما: أنْ يُدرِكَ بعضَ كمالاتِ المحبوبِ، ووَصَلَ إليهِ، وعلمَ إجمالاً أنّ له كمالاتٍ أُخَرَ، ولم يُدْرِكْها ولم يَصِلْ إليها، فيكونُ له شوقٌ إلىٰ إدراك تلكَ الكمالاتِ. مثال ذلك: أن يَرىٰ وجْهَ

محبوبِهِ، ولا يَرىٰ شعرَهُ ولا سائرَ أعضائِه، فيشتاقُ إلىٰ رؤيةِ ذلك.

وهاهنا أُمورٌ:

الأمر الأوّل: أفضلُ مراتبِ الشوقِ

أفضلُ مراتبِ الشوقِ هو الشوقُ إلى الله سبحانه وإلىٰ لقائِه، وهي المظِـنّةُ إلى الوصـولِ إليه، وإلىٰ حُبّه وأُنسِهِ والتقرُّبِ لديه، وهو رأسُ مالِ السـالكينَ، ومـفتاحُ أبـوابِ السـعادةِ للطالبين. والوجهان الموجِبان للشوقِ متصوّران في حقّ الله، بل هما ثابتان وملازمان لجميع العارفين، فلا يخلو عارفٌ من الشوقِ إلى الله.

أمّا الوجهُ الأوّلُ: فلأنّ ما اتّضح للعارفينَ من الأُمورِ الإلهيّة وإنْ بلغَ غايةَ الوضوحِ، فكأنّه من وراءِ سترٍ رقيقٍ، فلا يكونُ متّضحاً غايةَ الاتّضاح، بل يكونَ مُشوباً بشوائبِ التخيّلاتِ المكدّرةِ للمعلوماتِ والمانعةِ عن ظهورِها اليقيني.

وأمّا الثاني: فلأنّ الأُمورَ الإلهيّة لا نهايةَ لها، وإنّما ينكشفُ لكُلّ عارفٍ بعضُها، وتبقىٰ أُمورٌ غيرُ متناهيةٍ خَفِيّةٌ عنهُ، والعارفُ يعلمُ أنّ ما غابَ عن علمِهِ من المعلوماتِ أكثرُ ممّا حضرَ، فلا يزالُ متشوّقاً إلىٰ أن يحصلَ له من المعلوماتِ المتعلّقةِ بعظمةِ الله وجلالِهِ وصفاتِهِ وأفعاله بما لا يعرفُها أصلاً، لا معَ الوضوحِ ولا معَ الإبهامِ والإجمال.

الأمر الثاني: أقسامُ الحبِّ بحسبِ مبادِئِه

اعلم أنّ أسبابَ الحبّ ومبادءَه لما كانت متعدّدةً مختلفةً فينقسمُ الحبُّ لأجلها علىٰ أقسام:

الأوّل: حبُّ الإنسانِ وجودَ نفسِهِ وبقاءَهُ وكمالَهُ، وهو أشدُّ أقسام الحبِّ وأقواها، لأنّ المحبّةَ إنّما تكونُ بقَدْرِ الملاءمةِ والمعرفةِ، ولا شيءَ أشدُّ ملاءمةً لأحدٍ من نفسِهِ، ولا هو بشيءٍ أقوىٰ معرفةً منه بنفسِهِ، ولهذا جُعِلتْ معرفةُ نفسِه مفتاحاً لمعرفةِ ربّه[1]. وكيفَ لا يكونُ حبُّ الشيءِ لذاتِهِ أقوى المراتبِ، مع أنّ الحبَّ كلّما صارَ أشدَّ جُعِلَ الاتّحادُ بين المحبّ والمحبوبِ أوكدَ وأبلغَ؟

---

١. كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» (بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٢، باب استعمال العلم و...).

وأيُّ اتّحادٍ أشدُّ من الوحدةِ ورفع الاثنينيّة بالمرّة، كما بين الشيءِ ونفسه، فالمحبُّ والمحبوبُ واحدٌ. وسببُ الحبّ غريزةٌ في الطباعِ بحكم سُنّةِ الله: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[١].

ومعنىٰ حبّه لنفسهِ كونُه محبّاً لدوامِ وجودهِ، ومُكْرِهاً لعدمِهِ وهلاكِهِ. فالبقاءُ ودوامُ الوجودِ محبوبٌ، والعدمُ ممقوتٌ، ولذا يبغضُ كلُّ أحدٍ الموتَ، لظنّه أنّه يوجبُ انعدام كلّهِ أو بعضهِ. ولذا لو اختطفَ من غيرِ ألمٍ وتعبٍ، وأُميتَ من غيرِ ثوابٍ وعقابٍ، كانَ كارِهاً لذلكَ. وكما أنّ دوامَ الوجودِ محبوبٌ فكذلك كمالُ الوجودِ محبوبٌ؛ لأنّ فاقدَ الكمالِ ناقصٌ، والنقصُ عدمٌ بالإضافةِ إلىٰ القَدْرِ المفقودِ. فالوجودُ محبوبٌ في أصلِ الذاتِ وبقائِهِ وفي صفاتِ كمالِهِ، والعدمُ ممقوتٌ فيها جميعاً.

ثمّ محبّة الأولادِ على التحقيقِ ترجعُ إلىٰ هذا القسم؛ لأنّ الرجلَ إنّما يحبُّ ولدهُ ويتحمّلُ المشاقَّ لأجلِهِ، وإن لم يصلْ منه إليه نفعٌ وحظٌّ؛ لعلمه بأنّه خليفتُه في الوجودِ بعد عدمِهِ، فكأنّ بقاءَهُ نوعُ بقاءٍ له. فَلِفَرْطِ حبّه لبقاءِ نفسهِ يحبُّ بقاءَ مَنْ هو قائمٌ مقامه وبمنزلةِ جزءٍ منه. لمّا عجزَ من الطمع في بقاءِ نفسهِ، ولعدمِ كونِ بقائه هو بقاؤهُ بعينه يكون بقاءُ نفسهِ أحبَّ إليه من بقاءِ ولدِه لو كان طبعُه باقياً على اعتدالِهِ. وكذلك حبّه لأقاربه وعشيرته يرجعُ إلىٰ حبّه لكمالِ نفسه، فإنّه يرىٰ نفسَهُ كبيراً قويّاً لأجلِهم، متجمّلاً بسببهم، إذ العشيرةُ كالجناحِ المكمّلِ للإنسانِ[٢].

الثاني: حبُّه لغيره لأجلِ أنّه يلتذّ منه لذّةً حيوانيّةً، كحبّ الإنسانِ المأكولاتِ والملبوساتِ. والسببُ الجامعُ في هذا القسمِ هو اللذّةُ، وهو سريعُ الحصولِ وسريعُ الزوالِ، وأضعفُ المراتبِ، لخساسةِ سببِهِ وسرعةِ زوالِهِ.

الثالث: حبّه للغيرِ لأجل نفعِهِ وإحسانِهِ، فإنّ الإنسانَ عبدُ الإحسان، وقد جُبِلَت النفوسُ علىٰ حبِّ مَنْ أحسنَ إليها وبُغضِ مَنْ أساءَ إليها، ولذا قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «اللهمّ لا تجعلْ لفاجرٍ عليَّ يداً فيحبّه قلبي»[٣]. فالسبَبُ الجامعُ في هذا القسم هو النفعُ والإحسانُ، وهذان

---

١. الأحزاب (٣٣): ٦٢؛ الفتح (٤٨): ٢٣.

٢. انظر إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٢٩٨؛ المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ١١.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ١١.

القسمان عند التحقيقِ يرجعانِ إلى القسمِ الأوّلِ، لأنّ المحسِنَ من أمدّ بالمالِ والمعونةِ وسائرِ الأسبابِ الموصلةِ إلىٰ دوامِ الوجودِ وكمالِ الوجودِ، وسببُ اللذّةِ باعثٌ لحصولِ الحظوظِ التي بها يتهيّأُ الوجودُ.

والفرقُ أنّ الأعضاءَ، والصحّةَ، والعلمَ، والطعامَ، والشرابَ، محبوبةٌ لأنّ بها كمالُ وجودهِ وهي عينُ الكمالِ. وأمّا الطبيبُ الذي هو سببُ الصحّةِ، والعالمُ الذي هو سببُ العلمِ، ومُعطي الطعامَ والشرابَ، فمحبوبون لا لذواتهم، بل من حيث إنّهم وسائلُ إلىٰ ما هو محبوبٌ لذاتهِ؛ فإذنْ يرجعُ الفرقُ إلىٰ تفاوتِ الرتبةِ، والكلّ يرجعُ إلىٰ محبّةِ الإنسانِ نفسَهُ، فمن أحبَّ المحسنَ لإحسانهِ فما أحبّ ذاتهَ تحقيقاً، بل أحبّ إحسانَه، ولو زالَ إحسانهُ زالَ حبُّه مع بقاءِ ذاتهِ، ولو نقصَ نقصَ الحبُّ، ولو زادَ زادَ. وبالجملةِ، يتطرّقُ إلىٰ حبّه الزيادةُ والنقصانُ بحسب زيادةِ الإحسانِ ونقصانهِ.

الرابع: أنْ يحبَّ الشيءَ لذاتهِ، لا لحظٍّ ينالهُ منه وراءَ ذاتهِ، بل تكونُ ذاتهُ عينَ حظّهِ، وهذا هو الحبُّ الحقيقيّ البالغُ الذي يُوثقُ به، وذلك كحبّ الجمالِ والحُسْنِ، فإنّ كلَّ جمالٍ محبوبٌ عند مُدْرِكِهِ، وذلك لعينِ الجمالِ؛ لأنّ إدراكَ الجمالِ عينُ اللذّة، واللذّةُ محبوبةٌ لذاتِها لا لغيرِها. ولا تَظُنَّنَّ أنّ حُبّ الصورِ الجميلةِ لا يُتَصوّرُ إلّا لأجلِ قضاءِ الشهوةِ، فإنّ قضاءَ الشهوةِ لذّةٌ حيوانيّةٌ، قد يحبّ الإنسانُ الصورَ الجميلةَ لأجلها، وإدراكُ نفسِ الجميلةِ لذّةٌ أُخرىٰ روحانيّة تكون محبوبة لذاتِها، ولا ريبَ في أنّ حبَّ الصورِ الجميلةِ بالجهةِ الأُولىٰ مذمومٌ، وبالجهةِ الثانيةِ ممدوحٌ، والعشقُ الذي يقعُ لبعضِ الناسِ من استحسانِ الصورِ الجميلةِ يكونُ مذموماً إنْ كان سببُه اللذّةَ الشهويّةَ الحيوانيّةَ، ويكونُ ممدوحاً إن كان سببُه الابتهاجَ بمجرّدِ إدراكِ الجمالِ، ولأجلِ التباسِ السببِ في هذا العشقِ اختلفَ العقلاءُ في مدحِهِ وذمّهِ، وكيف ينكرُ حبُّ الصورِ الجميلة لنفسِ جمالها من دون قصدِ حظٍّ آخرَ، مع أنّ الخُضرَةَ والماءَ الجاري محبوبانِ لا لتؤكلَ الخضرةُ ويُشربَ الماءُ، أو يُنالُ منهما حظٌّ سوىٰ نفسِ الرؤيةِ، وقد كان رسولُ الله ﷺ تُعجبُهُ الخضرَةُ والماءُ الجاري،[1] والطباعُ الصافيةُ السليمةُ قاضيةٌ باستلذاذِ النظرِ إلى

١. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ١٢.

الأنوار والأزهارِ والأطيارِ المليحةِ الألوانِ الحسنةِ النفسِ المناسبةِ الشكلِ، حتّى الإنسانُ لتَنفرجُ عنه الغمومُ بمجرّدِ النظرِ إليها من دونِ قصدِ حظٍّ آخرَ منها. فإنّ أكثرَ خصالِ الخيرِ يُدْرَكُ بالعقلِ بنورِ البصيرةِ الباطنة، إذ يقال: هذا خُلُقٌ حَسَنٌ، وهذا علمٌ حسنٌ، وهذه سيرةٌ حسنةٌ، ولا يُدرَكُ شيءٌ من هذه الصفاتِ بالحواسّ، بل يُدرَكُ بالبصيرةِ الباطنةِ، وكلُّ هذه الخصالِ المدرَكُ حسنُها بالعقلِ محبوبةٌ بالطبع، والموصوفُ بها أيضاً محبوبٌ عند مَنْ عرفَ صفاتِه.

وممّا يدلُّ علىٰ تحقُّقِ الجمالِ المدرَكِ بالعقلِ وكونهِ محبوباً: أنّ الطباعَ السليمةَ مجبولةٌ علىٰ حبِّ الأنبياءِ والأئمّةِ عليهم السلام مع أنّهم لم يشاهدوهم، حتّىٰ أنّ الرجلَ قد تجاوزَ حبُّه لصاحبِ مذهبِه حدّ العشقِ، فيحمله ذلك علىٰ أنْ ينفقَ جميعَ أموالِهِ في نُصرةِ مذهبِهِ والذّبِّ عنه، ويخاطرَ بروحِهِ في قتالِ مَنْ يطعنُ في إمامِهِ أو متبوعِهِ، مع أنّه لم يشاهدْ قطُّ صورتَهُ ولم يسمعْ كلامَهُ، فما حمله على الحبّ هو استحسانه بصفاته الباطنة: من الورعِ، والتقوىٰ، والتوكّلِ، والرضى، وغزارةِ العلمِ، والإحاطةِ لمدارك الدين، وانتهاضِه لإفاضةِ علم الشرعِ، ونشرِهِ هذه الخيراتِ في العالم، وجملتُها ترجعُ إلى العلمِ والقُدرَةِ، إذ جميعُ الفضائلِ لا تخرجُ عن معرفةِ حقائقِ الأُمورِ والقُدرةِ علىٰ حملِ نفسِهِ عليها بقهرِ الشهواتِ، وهما ـ أعني العلمَ والقدرة ـ غيرُ مدركين بالحواسّ، مع أنّهما محبوبان بالطبعِ. ومن الشواهدِ على المطلوبِ: أنّ الناسَ لما وَصفُوا حاتماً بالسخاءِ أحبّته القلوبُ حبّاً ضروريّاً، من دون نظرهم إلىٰ صُورته المحسوسةِ، ومن غيرِ حظٍّ ينالونَهُ منه، بل كلُّ مَنْ حُكِيَ عنهُ بعضُ خصالِ الخيرِ وصفاتِ الكمالِ غَلَبَ على القلوبِ حبُّهُ، مع عدمِ مشاهدتِهِ ويأسِ المحبّينَ من انتشارِ خَيرِهِ وإحسانِهِ إليهم، ومَنْ كانتْ بصيرتهُ الباطنةُ أقوىٰ من حواسّه الظاهرةِ، ونورُ العقل أغلبَ عليه من آثارِ الحواسّ الحيوانيّةِ، كان حبّه للمعاني الباطنةِ أكثرَ من حبّهِ للمعاني الظاهرةِ، فشتّانَ بين مَنْ يحبُّ نقشاً على الحائط لجمالِ صورتهِ الظاهرةِ، وبين مَنْ يحبُّ سيّدَ الرسلِ صلى الله عليه وآله وسلم لجمالِ صورتهِ الباطنةِ.

الخامس: محبّتُه لمنْ بينه وبينَهُ مناسبةٌ خفيّةٌ، أو مجانسةٌ معنويّةٌ، فربُّ شخصين تتأكّدُ

المحبّة بينهما من غيرِ ملاحظةِ جمالٍ، ولا طمعٍ في جاهٍ ومالٍ، بل بمجرّدِ تناسبِ الأرواحِ، كما قال النبيّ ﷺ: «الأرواحُ جُنودٌ مجنّدةٌ، فما تعارفَ منها ائتلفَ، وما تناكرَ منها اختلفَ»[١].

السادس: محبّتُهُ لمن حصلَ بينَه وبينَهُ الألفُ والاجتماعُ في بعضِ المواضعِ، لا سيّما إذا كان من المواضعِ الغريبةِ، كالسفنِ والأسفارِ البعيدةِ. والسببُ فيه: كونُ أفرادِ الإنسانِ مجبولةٌ على المؤانسةِ مع التلاقي والاجتماعِ، ولكونِ المؤانسةِ مركوزةٌ في طبيعةِ الإنسانِ سُمّي إنساناً، فهو مشتقٌّ من الأُنس دونَ النسيان ـ كما ظُنَّ ـ والمؤانسةُ لا تنفكُّ عن المحبّةِ، وربّما كان حصولُ المؤانسةِ والحبِّ بين أهلِ البلدِ ـ أو بينهم وبين أهلِ القُرىٰ، أو بين أهلِ البلادِ المتباعدةِ والمواضعِ المختلفةِ، من جملةِ أسرارِ الأمرِ بالجمعةِ والجماعةِ، وصلاةِ العيدين، والحجّ ـ الباعثَ لاجتماعِ عمومِ الخلائقِ في موقفٍ واحدٍ.

السابع: محبّته لمن يشاركهُ في وصفٍ ظاهرٍ، كميلِ الصبيّ إلى الصبيّ لصباه، والشيخِ إلى الشيخ لشيخوختهِ، والتاجرِ إلى التاجرِ لتجارتهِ، وهكذا ... فإنّ كلَّ شخصٍ مائلٌ إلىٰ مَنْ يشاركهُ في وصفهِ وصنعتهِ وشغلهِ وحرفتهِ، والسببُ الجامعُ فيه هو الاشتراكُ في الوصفِ والصنعةِ.

الثامن: حُبّ كلّ سببٍ وعلّةٍ لمسبّبه ومعلولهِ وبالعكسِ، فإنّ المعلولَ لمّا كانَ مثالاً من العلّة، ومترشّحاً عنها ومنبجساً منها، ومناسباً لها لكونهِ من سِنْخها، فالعلّةُ تحبّه لأنّه فرعُها وبمنزلةِ بعضِ أجزائها التي كانت منطويةً فيها، والمعلولُ يحبّها لأنّها أصلُه وبمنزلةِ كلّه الذي كان محتوياً عليه، فكان كلّاً منهما في حبّه للآخر يحبّ نفسَهُ.

ثمّ السببُ إن كانَ علّةً حقيقيّةً موجِدةً، تكونُ سببيّتُه أقوىٰ في حصولِ المحبّة والاتّحادِ ممّا إذا كانَ علّةً معدّةً. فأقوىٰ أقسام المحبّةِ ما يكونُ للواجبِ سبحانه بالنسبةِ إلىٰ عبادهِ، وبعد ذلك لا محبّة أقوىٰ من محبّةِ العبادِ العارفينَ بالنسبةِ إليه سبحانه، فإنّ محبّتَهم له من حيثُ كونهِ مُوجِداً مُخرجاً لهم من العدم الصرفِ إلى الوجودِ، ومُعطياً لهم ما احتاجوا إليه في النشأتين، ومن حيثُ إنّه تعالىٰ تامّ فوقَ التمام في الذاتِ والصفاتِ الكماليّةِ، والنفسُ بذاتها مشتاقةٌ إلى

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ١٥.

الكمال المطلقِ، وهذه المحبّة فرعُ المحبةِ ولا تحصلُ بدونها، ولذا قال سيّد الرسلِ ﷺ: «ما اتّخذ اللهُ وليّاً جاهلاً قطّ»[١]. وحبّ الأب لابنه وبالعكس نسبةُ هذا القسمِ، من حيثُ إنّ الأبَ سببٌ ظاهرٌ لوجودِ الابن، وإنْ لم يكنْ سبباً حقيقيّاً، بل علّةً معدّةً له، فيحبُّهُ؛ لأنّه يراهُ بمنزلةِ نفسهِ، ويظنُّه مثالاً من ذاتهِ، ونسخةً نقلَتْها الطبيعةُ من صورَتِه، وكذا المحبّةُ التي بين المعلّم والمتعلّمِ من هذا القسمِ؛ لأنّ المعلّمَ كالسببِ القريبِ للحياةِ الروحانيّة للمتعلّم وإفاضةِ الصورةِ الإنسانيّةِ عليه، كما أنّ الأبَ كالسبب لحياتهِ الجسمانيّةِ ورتبتهِ الصوريّة، فهو والدٌ روحاني له، وبقَدْر شرافة الروحِ على الجسمِ يكونُ المعلّمُ أشرفَ من الأبِ.

وعلىٰ هذا ينبغي أنْ يكونَ حبُّ النبيّ ﷺ وأوصيائه الراشدين عليهم السلام أوكدَ من جميعِ أقسامِ الحبّ بعد محبّة اللهِ سبحانه، لأنّه المعلّمُ الحقيقيّ والمكمّلُ الأوّلُ، ولذا قال ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتّىٰ أكونَ أحبّ إليه من نفسهِ وأهلهِ وولدِهِ»[٢].

التاسع: محبّةُ المتشاركينَ في سببٍ واحدٍ بعضهم لبعضٍ، كمحبّةِ الإخوان والأقاربِ. وكلّما كان السببُ أقربَ كانتِ المحبّةُ أوكدَ، ولذا تكونُ محبّةُ الأخوينِ أشدَّ من محبّةِ أبناء الأعمامِ مثلاً، ومَنْ عرفَ اللهَ وانتسابَ الكلّ إليه، وبلغَ مقامَ التوحيدِ، وعرفَ النسبةَ والربطَ الخاصّ الذي بينَ اللهِ وبين مخلوقاتهِ، يحبّ جميعَ الموجوداتِ من حيثُ اشتراكهِ معها في الموجدِ الحقيقي[٣]. ثمّ قد يجتمعُ بعضُ أسبابِ المحبّة أو أكثرُها في شخصٍ واحدٍ، فيتضاعفُ الحبُّ، كما لو كان لرجلٍ ولدٌ جميلُ الصورةِ، حسنُ الخُلقِ، كاملُ العلمِ، حسنُ التدبيرِ، محسنٌ إلىٰ والدهِ وإلى الخَلْقِ، كان حبُّ والده له في غايةِ الشدَّةِ، لاجتماعِ أكثرِ أسبابِ الحبّ فيه، وربّما أحبّ شخصاً آخرَ لوجودِ بعضِ أسبابِ الحبّ فيه من دون عكسٍ؛ لعدم تحقّق سببٍ من أسبابِ الحبِّ فيه، وقد تختلفُ فيهما أسبابُ الحبّ، فيحبُّ كلٌّ منهما الآخرَ من جهةٍ، وتكونُ قوّةُ الحبِّ بقَدْرِ قوّةِ السببِ، فكلّما كانَ السببُ أكثرَ وأقوىٰ كان الحبُّ أشدَّ وأوكَدَ.

---

١. كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ج ٢، ص ٢٣٥، ح ٢١٨٥.

٢. منية المريد، ص ٢٤١.

٣. به جهان خرّم از آنم كه جهان خرّم از اوست عاشقم بر همه عالم كه همه عالم از اوست

الأمر الثالث: لا محبوبَ حقيقةً إلّا اللهُ تعالى

اعلم أنّه لا مستحقّ للحبّ غيرُ الله سبحانه، ولا محبوبَ بالحقيقةِ عند ذوي البصائرِ إلّا هو، ولو كان غَيرُه تعالىٰ قابلاً للحبّ وموضعاً له فإنّما هو من حيثُ نسبتهِ إليه تعالىٰ، فمَنْ أحبَّ غيرَه تعالىٰ لا من حيثُ نسبتِهِ إليه، فذلك لجهلِهِ وقُصورِه، في معرفةِ الله، وكيفَ يكونُ غيرُهُ سبحانه من حيث هو ـ لا من جهةِ انتسابهِ إليه ـ مُستَحقّاً للحبّ، وهو في نفسِهِ مع قطعِ النظر عنه تعالىٰ وعن انتسابه إليه ليسَ إلّا العدمُ، والعدمُ كيف يصلحُ للحبِّ؟ فينبغي أن يكونَ حبُّه لعمومِ الخلقِ بعمومِ النسبةِ، أي من حيثُ إنّها منه تعالىٰ، وآثارُه ومعلولاتُهُ وأضواؤه وأظلاله، ولخصوصِ بعضِ الخواصّ الذين لهم خصوصيّة نسبةٍ إليه تعالىٰ كـالحبّ والأُنسِ والمـعرفةِ والإطاعةِ لخصوص النسبةِ أيضاً.

وممّا يوضّح المطلوبَ: أنّ جميعَ أسبابِ الحبِّ مجتمعةٌ في حقّ الله تعالىٰ، ولا توجدُ في غيره حقيقةً، ووجودُها في حقّ غيرِهِ وَهْمٌ وتخيُّلٌ ومجازٌ محضٌ لا حقيقةَ له.

أمّا السببُ الأوّلُ: أعني محبّةَ النفسِ، فمعلومٌ أنّ وجودَ كلِّ أحدٍ فرعٌ لوجودِ ربّه وظلٌّ له، ولا وجودَ له من ذاتهِ، بل هو من حيثُ ذاته ليسَ إلّا محض وعدم صرف.

وأمّا السببُ الثاني والثالثُ: أعني الالتذاذَ والإحسانَ، سواءٌ كان متعدّياً إلى الحبّ أم لا: فمعلومٌ أنّه لا لذّةَ ولا إحسانَ إلّا من الله تعالىٰ، ولا محسنَ سوى الله، فإنّه خالقُ الإحسـان وذويه، وفاعلُ أسبابهِ ودواعيهِ، وكلّ محسنٍ فهوَ حسنةٌ من حسناتِ قُدرتهِ وحُسنِ فِعالهِ، وقطرةٌ من بحارِ كمالهِ وأفضاله.

وأمّا السبب الرابع: أعني الحسنَ والجمالَ والكمالَ، فلا ريبَ في أنّه تعالىٰ هـو الجـميلُ بذاتهِ والكاملُ بذاتهِ، وهو الجمالُ الخالصُ، والكمالُ المطلقُ، وحقيقتُهما منحصرةٌ بـه تـعالىٰ. وما يوجدُ في غيره تعالىٰ من الجمالِ والكمالِ لا يخلو عن شوائبِ الخَلَلِ والنقصانِ، إذ النقصُ شاملٌ لجميع الممكناتِ، وإنّما تتفاوتُ في درجاتِ النقصِ. وقد عرفتَ أنّ الجمالَ المعنويّ أقوىٰ من الجمالِ الصوري، ومَنْ كانَ من أهل البصيرةِ والكمالِ يكونُ حبّهُ للجمالِ الباطنِ المعنويّ أكثرَ وأقوىٰ من حُبّهِ للجمال الصوريّ، وحقيقةُ الجمالِ المعنوي الذي هو وجـوبُ الوجـودِ،

وكمالُ العلم والقدرةِ، والاستيلاءُ على الكلّ، واستنادُ الجميع إليه، منحصرٌ بالله تعالىٰ. فإذا كان الجمالُ المشوبُ بالنقص محبوباً، فكيف لا يكون الجمالُ الخالصُ البحت الذي لا يُتَصَوَّرُ جمالٌ فوقَه محبوباً!؟ بل المحبوبُ حقيقة ليس إلّا هو.

وأمّا السبب الخامس: أعني المناسبةَ الخفيّةَ والمجانسةَ المعنويّة، فلا ريب في أنّ للنفسِ الناطقةِ الإنسانيّة مناسبة مجهولةً خفيّةً مع باريها وموجدِها، إذ هي شعلةٌ من شعلاتِ جلالِه، وبارقةٌ من بوارقِ جمالِه، ولذا قال الله سبحانه: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[١] و ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢].

إذ لم يستحقّ آدمُ خلافةَ الله إلّا بتلكَ المناسبةِ، وبهذه المناسبةِ ينقطعُ العبدُ إلىٰ ربّه، ويعرفُه عند ابتلائهِ بمصيبةٍ وبليّةٍ، وهذه المناسبةُ لا تظهرُ ظهوراً تامّاً إلّا بالمواظبةِ على النوافلِ بعد إحكامِ الفرائضِ، كما قال اللهُ تعالىٰ: «لا يزالُ العبدُ يتقرّبُ إليّ بالنوافلِ حتّىٰ أُحبّهُ، فإذا أحبَبْتُهُ كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به، وبصرَهُ الذي يبصرُ به، ولسانَهُ الذي ينطقُ به»[٣].

وقد ظَهرَ ممّا ذُكرَ: أنّ أسبابَ الحبِّ بجملتِها متظاهرةٌ في حقّ الله تعالىٰ تحقيقاً لا مجازاً، وفي أعلى الدرجاتِ لا أدناها. فهوَ المستحقّ لأصلِ المحبّةِ وكمالِها، ولا متعلّقَ للمحبّة إلّا هو، إلّا أنّه لا يعرفُ ذلك إلّا العارفونَ من أوليائهِ وأحبّائه، كما قال سيّدُ الشهداء عليه السلام في دعاء عرفةَ بقوله: «وأنتَ الذي أزلتَ الأغيارَ عن قلوبِ أحبّائك، حتّىٰ لم يحبّوا سواكَ، ولم يلجأوا الىٰ غيرك».[٤]

نيست در لوح دلم جز الف قامت يار چه كنم حرف دگر ياد نداد استادم

الأمر الرابع: ردّ المنكرين لحبِّ الله تعالى

قد ظهر ممّا ذُكرَ ثبوتُ حقيقةِ المحبّة ولوازمِها من الشوقِ والأُنسِ لله تعالىٰ، وأنّه المستحقّ للحبّ دونَ غيره، وبذلك ظهرَ فسادُ زعمِ مَنْ أنكرَ إمكانَ حصولِ محبّةِ العبدِ لله تعالىٰ، وقال:

---

١. الإسراء (١٧): ٨٥.

٢. البقرة (٢): ٣٠.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٥٢، باب من آذى المسلمين واحتقرهم، ح ٧ و ٨.

٤. مفاتيح الجنان، دعاء يوم عرفة.

لا معنىٰ لها إلّا المواظبةُ علىٰ طاعةِ الله، وأمّا حقيقةُ المحبّةِ فمحالٌ إلّا مع الجنسِ والمِثْلِ.

ولمّا أنكروا المحبّةَ، أنكروا الأُنسَ والشوقَ ولذّةَ المناجاةِ وسائرَ لوازمِ الحبّ وتوابعهِ، ويدلّ علىٰ فسادِ هذا القول مضافاً إلىٰ ما ذُكِرَ إجماعُ الأُمّةِ علىٰ كونِ الحبّ لله ولرسولهِ فرضاً، وما وردَ في الآياتِ والأخبارِ والآثارِ من الأمرِ به والمدحِ عليه، واتّصافِ الأنبياءِ والأولياءِ به، وحكاياتِ المحبّين، وقد بلغتْ من الكثرَةِ والصراحةِ حدّاً لا يقبلُ الكذبَ والتأويلَ، فمن شواهدِ القرآنِ قوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[1] و ﴿وَالَّذِينَ ءامَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ﴾[2].

وأمّا الأخبار الواردةُ والآثار فقد قال رسولُ الله ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتّىٰ يكونَ الله ورسولهُ أحبَّ إليه ممّا سواهما»[3]. وقال ﷺ: «الحبُّ من شروطِ الإيمانِ»[4]. وقال ﷺ: «أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمةٍ، وأحبّوني لحبّ اللهِ»[5]. وأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ عليه السلام:

يا ابنَ عمرانَ، كذبَ مَنْ زعمَ أنّه يُحبُّني فإذا جَنّه الليلُ نامَ عنّي، أليسَ كلّ محبٍّ يحبُّ خلوةَ حبيبه، ها أنا ذا ـ يا ابن عمرانَ ـ مطّلعٌ علىٰ أحبّائي، إذا جنّهم الليل حوّلتُ أبصارَهم إليّ من قلوبهم، ومثّلْتُ عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدَةِ، ويكلّموني عن الحضورِ. يا ابنَ عمرانَ، هبْ لي من قَلْبِكَ الخُشوعَ، ومن بَدنِكَ الخضوعَ، ومن عينِكَ الدموعَ في ظُلَمِ الليلِ، فإنّكَ تجدني قريباً[6].

وفي أخبار داودَ:

قلْ لعباديَ المتوجّهينَ إلى محبّتي: ما ضرّكم إذا احتجبتمْ عن خلقي إذ رفعتُ الحجابَ فيما بيني وبينَكم حتّىٰ تنظروا إليّ بعيونِ قلوبِكم، وما ضرّكم ما زويتُ عنكم من الدنيا إذ بسطتُ ديني لكم، وما ضرّكُم مسخطةُ الخلقِ إذا التمستُمُ

---

١. المائدة (٥): ٥٤.

٢. البقرة (٢): ١٦٥.

٣. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٢٩٤.

٤. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٢٩٤.

٥. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٢٩٤.

٦. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٤ ـ ١٥، باب حبّ الله، ح ٢.

رضاي[١].

وفيها أيضاً: «يا داودُ إنّك تزعُم أنّكَ تحبّني، فإنْ كنتَ تُحبُّني فأخرجْ حبَّ الدنيا عن قلبِكَ، فإنّ حبيّ وحُبَّها لا يجتمعانِ في قلبٍ»[٢]. وقال أميرُ المؤمنينعليه السلام: «فهبني يا إلهي وسيّدي ومولاي وربّي صبرتُ علىٰ عذابكَ، فكيفَ أصبرُ عن فراقِكَ»[٣]. وفي مناجاة سيّد الساجدينعليه السلام:

وألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك يُسارعونَ، وبابَك علىٰ الدوام يطرقونَ، وإيّاكَ في الليلِ والنهارِ يعبدونَ، وهم من هيبتكَ مُشفقُونَ. الذين صفّيتَ لهم المشاربَ، وبلّغتَهمُ الرغائبَ، وأنجحتَ لهم المطالبَ، وقَضيتَ لهم من وصلكَ المآربَ وملأتَ لهم ضمائرَهم من حبّكَ، ورويتَهم صافي شرابكَ، فبكَ إلىٰ لذيذِ مناجاتكَ وصَلوا، ومنكَ علىٰ أقصىٰ مقاصدِهم حصلوا... ولا تقطعْني عنكَ، ولا تباعدْني منكَ، يا نعيمي وجنّتي، و يا دنياي وآخرتي[٤].

إلهي، مَنْ ذا الذي ذاقَ حلاوةَ محبّتِكَ فرامَ منكَ بدلاً، ومَنْ ذا الذي أنسَ بقربكَ فابتغىٰ عنك حِوَلاً! إلهي، فاجعلني ممّنْ اصطفيتَه لقُربكَ وولايتِكَ، وأخلصتَهُ لودِّكَ ومحبّتِكَ، وشوّقْتهُ إلىٰ لقائكَ، ورضّيتَه بقضائكَ، ومنحتَهُ بالنظرِ إلىٰ وَجْهِكَ، وحَبَوتَهُ برضاكَ، وأعَذْتَهُ من هجرِكِ... وَهيّمْتَ قلبَهُ لإرادَتِكَ، واجتبيتَهُ لمشاهدَتِكَ، وأخليتَ وَجْهَهُ لكَ، وفرّغْتَ فؤادَه لحبّكَ... اللهمّ اجعلنا ممّن دأبُهم الارتياحُ إليكَ والحنينُ، ودهرَهم الزفرةُ والأنينُ، وجباهُهُم ساجدةٌ لعظَمتِكَ، وعيونُهمُ ساهرةٌ في خدمتكَ، ودموعُهُم سائلةٌ من خَشيتِكَ، وقلوبُهم معلّقةٌ بمحبّتِكَ، وأفئدَتُهم منخلعةٌ من مَهابتِكَ، يا مَنْ أنوارُ قُدسِه لأبصارِ مُحبّيه رائقةٌ، وسُبحاتُ نورِ وجههِ لقلوبِ عارفيهِ شائقةٌ. يا مُنىٰ قلوبِ المشتاقينَ، ويا غايةَ

١. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٦١.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٦١.

٣. مفاتيح الجنان، دعاء كميل بن زياد النخعي.

٤. بحار الأنوار، ج ٩٤، ص ١٤٧، باب أدعية المناجاة؛ مفاتيح الجنان، مناجاة المريدين.

آمالِ المحبّين، أسألُكَ حُبَّكَ وحبَّ مَنْ يُحبّكَ وحبَّ كلِّ عملٍ يُوصلُ إلىٰ قُربِكَ، وأنْ تجعلكَ أحبَّ إليّ ممّنْ سواك[١].

وقال الصادقُ عليه السلام:

حبُّ الله إذا أضاءَ علىٰ سرّ عبدٍ أخلاهُ عن كلّ شاغلٍ وكلّ ذكرٍ سوى الله، والمحبّ أخلصُ الناسِ سرّاً لله، وأصدقُهم قولاً، وأوفاهم عهداً، وأزكاهم عملاً، وأصفاهم ذكراً، وأعبدُهم نفساً، تتباهىٰ الملائكةُ عند مناجاتهِ، وتفتخرُ برؤيتهِ، وبه يُعمِّرُ اللهُ بلادَهُ، وبكرامته يكرمُ الله عبادَه، ويعطيهم إذا سألوهُ بحقّهِ، ويدفعُ عنهم البلايا برحمتهِ، ولو علمَ الخلقُ ما محلّهُ عند الله ومنزلتُهُ لديهِ ما تقرّبوا إلى الله إلّا بترابِ قدميهِ[٢].

الأمر الخامس: الطريقُ إلى الرؤيةِ واللقاءِ

الطريقُ إلىٰ تحصيل محبّةِ الله وتقويتِها أمران:

أحدُهما: تطهيرُ القلبِ من شواغل الدنيا وعلائقِها، والتبتُّلُ إلى الله بالذكرِ والفكرِ، ثمّ إخراجُ حبِّ غيرِ اللهِ من القلبِ، إذ القلبُ مثلُ الإناءِ الذي لا يَسَعُ الماءَ ـ مثلاً ـ ما لم يخرجْ منه الخلّ. وما جعلَ اللهُ لرجلٍ من قلبينِ في جوفه[٣]. وكمالُ الحبّ في أنْ يحبَّ اللهَ بكلّ قلبهِ، وما دامَ يلتفتُ إلىٰ غيره، فزاويةٌ من قلبه مشغولةٌ بغيرِهِ، وبقَدْرِ ما يشتغلُ بغيرِ الله ينقصُ منه حبُّ الله، إلّا أن يكونَ التفاتُه إلىَ الغيرِ من حيثُ إنّه صُنْعُ الله تعالىٰ وفِعلُهُ، ومظهرٌ من مظاهرِ أسماءِ الله تعالىٰ، وإلىٰ هذا التجريدِ والتفريدِ الإشارَةُ بقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾[٤].

وثانيهما: تحصيلُ معرفةِ الله وتقويتُها وتوسيعُها وتسليطُها على القلب.

والأوّل ـ أعني قطعَ العلائقِ ـ بمنزلةِ تنقيةِ الأرضِ من الحشائشِ. والثاني ـ أي المعرفةُ ـ

---

١. بحار الأنوار، ج ٩٤، ص ١٤٨ ـ ١٤٩، باب أدعية المناجاة.
٢. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٣، باب حبّ الله، ح ٢٣.
٣. إشارة إلىٰ الآية ٤ من سورة الأحزاب (٣٣).
٤. الأنعام (٦): ٩١.

بمنزلة البذرِ فيها، ليتولّدَ منه شَجرُ المحبّةِ.

ثمّ لتحصيلِ المعرفةِ طريقان:

أحدهما: الأعلىٰ، وهو الاستدلالُ بالحقّ علىَ الخلْقِ، وذلك بأن يُعْرَفَ اللهُ باللهِ، وبه يُعرَفُ غيرُهُ، أي أفعالهُ وآثارُه. وإلىٰ هذا أُشيرَ في الكتاب الإلهي بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١]. وهذا الطريقُ غامضٌ، وفهمهُ صعبٌ على الأكثرين.

وثانيهما: هو الأدنىٰ، الاستدلالُ بالخَلْقِ على الحقّ سبحانه، وهذا الطريق في غايةِ الوضوح، وأكثرُ الأفهام تتمكّنُ من سلوكهِ، وهو متّسعُ الأطرافِ، ومتكثّرُ الشعوبِ والأكنافِ، إذ ما من ذرّةٍ من أعلى السماوات إلىٰ تخومِ الأرضينَ إلّا وفيها عجائبُ آياتٍ وغرائبُ بيّناتٍ، تدلّ علىٰ وجودِ الواجبِ وكمالِ قُدرَتهِ وغايةِ حكمتهِ ونهايةِ جلالهِ وعظمتهِ، وذلك ممّا لا يتناهىٰ. ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[٢].

وعدمُ وصولِ بعضِ الأفهام من هذا الطريق إلىٰ معرفةِ الله مع وضوحهِ، إنّما هو للإعراض عن التفكّرِ والتدبّرِ والاشتغالِ بشهواتِ الدنيا وحظوظِ النفس.

الأمر السادس: تفاوتُ المؤمنين في محبّة اللهِ تعالى

اعلم أنّ المؤمنينَ جميعاً مشتركونَ في أصل محبّة الله لاشتراكِهم في أصلِ الإيمان، ولكنّهم متفاوتونَ في قدرها، وسببُ تفاوُتهم أمران:

أحدُهما: اختلافُهم في المعرفةِ وحبُّ الدنيا، فإنّ أكثرَ الناس ليس لهم من معرفةِ الله إلّا ما قرعَ أسماعَهم من كونهِ متّصِفاً بصفاتِ كذا وكذا، من دون وصولٍ إلىٰ حقيقةِ معناها؛ وإلى اعتقادِهم بأنّ الموجوداتِ المشاهدةِ صادرةٌ عنه، من غير تدبُّرٍ في عجائبِ القدرةِ وغرائبِ الحكمةِ المودَعةِ فيها. وأمّا العارفونَ فلهم الخوضُ في بحرِ التفكّرِ والتدبُّرِ في أنواع المخلوقاتِ، واستخراجِ ما فيها من الحِكَمِ الخفيّة، والمصالحِ العجيبةِ، التي كلّ واحدٍ منها كمشعلةٍ في إزالةِ

---

١. فصّلت (٤١): ٥٣.

٢. الكهف (١٨): ١٠٩.

ظلمةِ الجهلِ، والهدايةِ إلىٰ كمالِ عظمةِ الله، ونهايةِ جلاله وكبريائه. فمَثَلُ الأكثرين كمثَلِ عاميّ أحبَّ عالماً بمجرّد استماعهِ أنّه حسنُ التصنيفِ، من دون علمٍ ودرايةٍ بما في تصانيفه، فتكونُ له معرفةٌ مجملةٌ، ويكونُ له بحسنه ميلٌ مجملٌ. ومَثَلُ العارفين كمثَلِ عالمٍ فتّشَ عن تصانيفهِ، واطّلعَ علىٰ مافيها من دقائقِ المعاني وبلاغةِ العباراتِ. ولا ريبَ في أنّ العالمَ بجملته صنعُ الله وتصنيفُه، فمن عرفَ ذلك مجملاً تكونُ له بحسبه محبّةٌ مجملةٌ، ومن وقفَ علىٰ مافيه من عجائبِ القدرةِ ودقائقِ الحكمةِ تكونُ له غايةُ الحبِّ، وكلّما ازدادتْ معرفتُهُ بوجوهِ الحكمِ والمصالحِ المودعَةِ في كلّ مخلوقٍ ازدادَ حبُّهُ، فمن اعتقدَ أنّ ما تبنيه النحلُ من البيوتِ المسدّسةِ إنّما هو بإلهامِ اللهِ تعالىٰ إيّاها، من غيرِ استعدادٍ لفهمِ الحكمةِ في اختيارِ الشكلِ المسدّسِ علىٰ سائرِ الأشكالِ، لا يكونُ في معرفةِ الله وإدراكِ عظمتهِ وحكمتهِ كمن يفهمُ ذلك ويتيقّنهُ. ثمّ كما أنّ دقائقَ الحِكَم وعجائبَ القدرةِ غيرُ متناهيةٍ، ولا يمكنُ لأحدٍ أنْ يحيطَ بها، وإنّما ينتهي كلٌّ إلىٰ ما يستعدُّ له، فينبغي أن تكونَ مراتبُ الحبّ أيضاً غيرَ متناهيةٍ، وكلُّ عبدٍ ينتهي إلىٰ مرتبةٍ تقتضيها معرفتُهُ.

وثانيهما: اختلافُهم في الأسباب المذكورة للحبِّ، فإنّ مَنْ يحبُّ اللهَ لكونه منعماً عليه ومحسناً إليه، ضعفتْ محبّتُهُ لتغيُّرها بتغيُّر الإنعام والإحسان، ولا يكونُ حبّهُ في حالة البلاءِ كحبّه في حالةِ الرخاءِ والنعماءِ. وأمّا مَنْ يحبُّه لذاتهِ، أو بسببِ كمالهِ وجمالهِ ومجدهِ وعظمتهِ، فإنّه لا يتفاوتُ حبُّهُ بتفاوتِ الإحسان إليه.

الأمر السابع: علائمُ محبّةِ اللهِ تعالى

محبّةُ العبدِ لله سبحانه له علاماتٌ:

الأُولىٰ: أنْ يُحبَّ لقاءَهُ في دار السلام، ولتوقُّفهِ على الموت يحبُّ الموتَ ويتمنّاه؛ إذ كلُّ مَنْ يحبُّ شيئاً يُحبُّ لقاءَه ووصلَهُ، وإذا علم أنّه يمتنعُ الوصولُ إليه إلّا بالارتحالِ من الدنيا بالموتِ أحبَّ الموتَ لا محالةَ، وكيفَ يثقُلُ على المحبّ أنْ يسافِرَ من وطنِهِ إلىٰ مستقرِّ محبوبهِ ليتنعّمَ بمشاهدَتِهِ؟ ولذا قال حذيفةُ عند مَوْتِهِ: «حبيبٌ جاء علىٰ فاقةٍ، لا أفلحَ اليوم مَنْ ندمَ».

قال بعضُ الأكابر: «لا يكرهُ الموتَ إلّا مريبٌ، لأنّ الحبيبَ لا يَكرهُ لقاءَ الحبيبِ على كُلِّ حالٍ».

الثانية: أنْ يُؤْثِرَ مرادَ الله سبحانَه علىٰ مرادِهِ، إذ المحبُّ لا يخالفُ هوىٰ محبوبِهِ لهوىٰ نفسِه، كما قيل:

أُريدُ وصالَهُ ويُريدُ هَجْري		فأتركُ ما أُريدُ لما يُريدُ

فمن كان محبّاً لله يمتثلُ أوامرهُ ويجتنبُ نواهيَهُ، ويحترزُ عن اتّباعِ الشهواتِ، ويدعُ الكسالةَ والبطالةَ، ولا يزالُ مواظباً علىٰ طاعتهِ وانقيادِهِ، ويكونُ مبتهجاً متنعّماً بالطاعةِ ولا يشغلُها، ويسقطُ عنه تعبها.

الثالثة: ألّا يغفلَ عن ذكرِ الله سبحانَه، بل يكونُ دائماً مستهتراً بذكرِهِ؛ إذ مَنْ أحبّ شيئاً أكثرَ ضرورةً ذكرَه وذكرَ ما يتعلّقُ به.

الرابعة: ألّا يحزنَ ولا يتألّمَ عن فقدِ شيءٍ، ولا يفرحَ بوجودِ شيءٍ، سوىٰ ما يُقَرِّبُه إلى الله أو يبعّدهُ عنه؛ فلا ينبغي أنْ يحزَنَ ويجزَعَ في المصائبِ، ولا يسرُّ بنيلِ المقاصدِ الدنيويّةِ، ولا يتأسّفُ علىٰ ما يفوتُهُ إلّا علىٰ ما فاتَ منه من طاعةٍ مقرّبةٍ إلىٰ محبوبِهِ، أو علىٰ صدورِ معصيةٍ مبعّدةٍ، أو علىٰ ساعةٍ خلتْ عن ذكر الله والأُنس به.

الخامسة: أن يكونَ مشفِقاً رؤوفاً علىٰ عبادِ الله، رحيماً علىٰ أوليائِه، وشديداً علىٰ أعداء الله، كارهاً لمن يخالفُهُ ويعصيه، إذ مقتضىَ الحبّ الشفقةُ والمحبّةُ لأحبّاءِ المحبوبِ والمنسوبينَ إليه، والبغضُ لأعدائِهِ ومخالفيه.

السادسة: أنْ يكونَ في حُبّه خائفاً متذلّلاً تحتَ سلطانِ العظمةِ والجلالِ، وليس الخوفُ مضاداً للحبّ، كما ظُنّ، إذ إدراكُ العظمةِ يوجِبُ الهيبةَ، وإدراكُ الجمالِ يوجِبُ الحبَّ، ولخصوصِ المحبّينَ خوفَ الإعراضِ، وخوفَ الحجابِ، وخوفَ الإبعادِ، وخوفَ الوقوفِ، وسلبَ المزيدِ. وقال بعضُ العرفاءِ:

مَنْ عبدَ الله بمحضِ المحبّةِ من غيرِ خوفٍ هلكَ بالبسطِ والإدلالِ، ومَنْ عبدَهُ من طريقِ الخوفِ من غيرِ محبّةٍ انقطعَ عنه بالبُعدِ والاستيحاشِ، ومن عبدَهُ من

طريقها أحبّهُ الله، فقرّبهُ ومكّنهُ وعلّمه[١].

السابعة: كتمانُ الحبِّ والشوقِ والبعد من إظهارهِ ومن إظهارِ الوجدِ واجتنابِ الدعـوىٰ، تعظيماً للمحبوبِ وإجلالاً له، وهيبةً منه وغيرةً علىٰ سرِّهِ، فإنَّ الحبَّ سِرٌّ من أسرارِ المحبوبِ، فلا ينبغي إفشاؤه. ولأنّه ربّما يدخلُ في الدعوىٰ ما يجاوزُ حدّ الواقع، فيكونُ من الافتراءِ، وتعظُمُ به العقوبةُ في العُقبىٰ والبليّة في الدنيا. وقد جمع بعض العارفين علامات المحبِّ في أبياتٍ فقال:

لا تُــخْـدَعَنَّ فـللمحبِّ دلائـلُ　　ولديـهِ مـن تُحَـفِ الحـبيبِ وسـائلُ
مـنها تَـنَـعُّـمُـهُ بِـمُـرِّ بـلائِـهِ　　وسُرُورُهُ في كـلِّ مـاهو فـاعلُ
فـالمنعُ مـنه عـطيّةٌ مـقبولةٌ　　والفَـقرُ إكـرامٌ وبـرٌّ عـاجلُ
ومـن الدلائـلِ أنْ تـرىٰ مِـنْ عـزمِه　　طـوعَ الحـبيبِ وإنْ ألحَّ العـاذلُ
ومـن الدلائـلِ أنْ يُـرىٰ مُـتَبسِّماً　　والقـلبُ فـيه مـن الحـبيبِ بـلابلُ
ومـن الدلائـلِ أن يُـرى مـتفهّماً　　لكـلامِ مَـنْ يَحـظى لديـهِ سـائلُ
ومـن الدلائـلِ أن يُـرىٰ مـتقشّفاً　　مُـتَحفِّظاً عـن كـلِّ مـاهو قـائلُ

❋❋❋

ومـن الدلائـلِ أن تـراهُ مشـمّراً　　في خِـرقَتينِ عـلىٰ شُطُوطِ السـاحلِ
ومـن الدلائـل حـزنُه ونحـيبُهُ　　خـوفَ الظـلامِ فمـا له مـن عـاذلِ
ومـن الدلائـل أن تـراهُ بـاكـياً　　أنْ قـد رآه عـلىٰ قـبيحٍ فـاعلِ
ومـن الدلائـل أن تـراه راضـياً　　بِـمَليكِـهِ في كـلِّ حكـمٍ نـازلِ
ومـن الدلائـل زهـدُهُ فـيما تـرىٰ　　مـن دارِ ذلٍّ والنـعيمِ الزائـلِ
ومـن الدلائـل أنْ تـراهُ مسـلِّماً　　كـلَّ الأُمـورِ إلى المـليكِ العـادلِ
ومـن الدلائـل ضحكُهُ بـين الورىٰ　　والقـلبُ محـزونٌ كـقلبِ الشـاكـلِ
ومـن الدلائـلِ أن تـراهُ مسـافراً　　نحـوَ الجـهادِ وكـلِّ فـعلٍ فـاضلِ

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٧٦ ـ ٧٧.

الأمر الثامن: حبُّ اللهِ لعبدهِ

اعلم أنّ شواهدَ الكتابِ والسُنّة ناطقةٌ بأنّ الله سبحانه يحبُّ العبدَ، كقوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[١] و ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾[٢] و ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٣] و ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٤].

وقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يُعطي الدنيا مَنْ يُحبُّ ومَنْ لا يُحبُّ، ولا يُعطي الإيمانَ إلّا مَنْ يُحبّ»[٥]. وقال ﷺ: «إذا أحبّ الله عبداً ابتلاهُ، فإنْ صبرَ اجتباهُ، وإنْ رَضِيَ اصطفاه»[٦]. وقال: «مَنْ أكثرَ ذكرَ الله أحبّهُ الله»[٧]. وقال ﷺ حاكياً عن الله:

لا يزالُ العبدُ يتقرّبُ إليّ بالنوافلِ حتّىٰ أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به، وبصَـرَهُ الذي يبصرُ به، ولسانَهُ الذي ينطقُ به[٨].

وقال: «إذا أحبّ اللهُ عبداً، جعلَ له واعظاً من نفسهِ، وزاجراً من قلبه، يأمرهُ وينهاهُ»[٩].

الأمر التاسع: الحبُّ في الله والبغضُ في الله

اعلم أنّ الأخبارَ متظاهرةٌ في مدح الحبِّ في الله والبغضِ في الله وعِظَمِ فضيلتِه وثوابِه.

أمّا الأخبارُ: كقول النبيّ ﷺ:

ودُّ المؤمنِ للمؤمنِ في الله أعظمُ شُعَبِ الإيمان، ألا ومَنْ أحبّ في الله، وأبغضَ في الله، وأعطىٰ في الله، ومنعَ في الله، فهو من أصفياءِ الله[١٠].

---

١. المائدة (٥): ٥٤.
٢. الصفّ (٦١): ٤.
٣. البقرة (٢): ٢٢٢.
٤. آل عمران (٣): ٣١.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٦٣ ـ ٦٤.
٦. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٣٢٩.
٧. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٣٢٧.
٨. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٢٧؛ الكافي، ج ٢، ص ٣٢٥، باب من آذى المسلمين، ح ٧ و ٨.
٩. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٦٧.
١٠. الكافي، ج ٢، ص ١٢٥، باب الحبّ في الله، ح ٣.

وقال ﷺ لأصحابه:

«أيُّ عُرىٰ الإيمان أوثقُ؟» فقالوا: الله ورسوله أعلمُ، فقال بعضُهم: الصلاةُ، وقال بعضُهم: الزكاةُ، وقال بعضُهم: الصيامُ، وقال بعضُهم: الحَجُّ والعمرةُ، وقال بعضُهم: الجهادُ، فقال رسول الله ﷺ: «لكلّ ما قلتُم فضلٌ وليس به، ولكنْ أوثقُ عُرىٰ الإيمان الحبُّ في الله والبغضُ في الله، وتوالي أولياءِ الله والتبرُّؤ من أعداءِ الله»[١].

وقال سيّدُ الساجدينَ عليه السلام:

إذا جمعَ اللهُ عزّ وجلّ الأوّلين والآخِرينَ، قام منادٍ فنادىٰ ليُسمِعَ الناسَ، فيقول: أين المتحابّون في الله؟ قال: فيقومُ عنقٌ من الناسِ، فيقالُ لهم: اذهبوا إلى الجنّة بغيرِ حسابٍ. قال: فتَلقّاهمُ الملائكةُ، فيقولون: إلىٰ أين؟ فيقولونَ: إلى الجنّة بغيرِ حسابٍ، فيقولونَ: أيّ حزبٍ أنتم من الناسِ؟ فيقولون: نحنُ المتحابّون في الله. قال: فيقولونَ: وأيُّ شيءٍ كانت أعمالُكُم؟ قالوا: كنّا نحبُّ في الله ونبغضُ في الله. قال: فيقولون: نِعمَ أجْرُ العاملين[٢].

وقال الباقرُ عليه السلام:

إذا أردتَ أن تعلم أنّ فيكَ خيراً، فانظر إلىٰ قلبكَ، فإنْ كان يحبُّ أهلَ طاعةِ الله ويبغضُ أهلَ معصيتهِ ففيكَ خيرٌ والله يُحبُّكَ، وإذا كان يُبغضُ أهلَ طاعةِ الله ويحبُّ أهلَ معصيتهِ فليس فيكَ خيرٌ واللهُ يُبغضُكَ. والمرءُ مع مَنْ أحبّه[٣].

والأخبار بهذه المضامين كثيرة[٤].

وإذا عرفتَ ذلك، فلنشر إلىٰ معنى الحبّ في الله البغضِ في الله فنقول:

الحبُّ الذي بين إنسانين، إمّا يحصلُ بمجرّد الصحبة الاتّفاقيّة، كالصحبةِ بحسب الجوارِ، أو بحسبِ الاجتماع في سوقٍ، أو مدرسةٍ، أو سفرٍ، أو أمثال ذلك، ومعلومٌ أنّ مثلَ هذا الحبِّ ليس

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٢٥ ـ ١٢٦، باب الحبّ في الله، ح ٦.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١٢٦، باب الحبّ في الله، ح ٨.

٣. الكافي، ج ٢، ص ١٢٦، باب الحبّ في الله، ح ١١.

٤. أُنظر الكافي، ج ٢، باب الحبّ في الله والبغض في الله؛ بحار الأنوار، ج ٧٠، باب حبّ الله.

من الحبّ في الله، بل هو الحبُّ بحسبِ الاتّفاقِ، أو لا يحصلُ بمجرّدِ ذلك، بل له سببٌ وباعثٌ آخر، وهذا علىٰ أربعة أقسامٍ:

الأوّل: أن يُحبّ إنسانٌ إنساناً لذاته، لا ليتوصّلَ به إلىٰ محبوبٍ ومقصودٍ وراءه بأن يكونَ هو في ذاتِهِ محبوباً عنده، بمعنىٰ أنّه يلتذُّ برؤيتِهِ ومعصيتِه، ومشاهدةِ أخلاقه، لاستحسانِهِ له، فإنّ كلّ جميلٍ لذيذٌ في حقّ مَنْ أدركَ جمالَهُ، وكلّ لذيذٍ محبوبٌ، واللـذّةُ تـتبعُ الاسـتحسانَ، والاستحسانُ يتبعُ المناسبةَ والموافقةَ والملائمة بين الطباع. ثمّ ذلك المستحسَنُ، إمّا أنْ يكـونَ جمالَ الصورةِ، وكمالَ العقلِ، وغزارةَ العلمِ، وحسنَ الأخلاقِ والأفعالِ. ومعلومٌ أنّ هذا القسمَ من الحبِّ لا يدخلُ في الحبّ لله، بل هو حبٌّ بالطبع وشهوةُ النفسِ، لذا يتصوّرُ ممّن لا يؤمنُ بالله، إلّا أنّه إنِ اتّصلَ به غرضٌ مذمومٌ صار مذموماً، وإلّا فهو مباحٌ لا يوصفُ بمدحٍ وذمٍّ.

الثاني: أن يحبّهُ لا لذاتِهِ، بل لينالَ منه محبوباً وراءَ ذاتِهِ، وكانت لهذا المحبوبِ فائدةٌ دنيويّةٌ، ولا ريبَ في أنّ كلّ ما هو وسيلة إلى المحبوبِ محبوبٌ، وعدم كون هذا الحبّ من جملة الحبّ في الله ظاهرٌ.

الثالثُ: أنّ يحبّهُ لا لذاتِه، بل لغيرِهِ، وذلكَ الغيرُ راجعٌ إلىٰ حظوظه في الآخرةِ دونَ الدنيا، وذلك كحبّ التلميذِ الأُستاذَ، لأنْ يتوسّل به إلىٰ تحصيلِ العلمِ وتحسينِ العملِ، ومقصودُه من العلمِ والعملِ سعادةُ الآخرةِ. وهذا الحبّ من جملةِ الحبّ في الله، وصاحبُهُ مـن محـبّي اللـه، وكذلك حبُّ الأُستاذ للتلميذِ؛ لأنّه يتلقّفُ منه العلمَ، وينالُ بواسطتِهِ مرتبةَ التعليم، ويَترقّىٰ به إلىٰ درجةِ التعظيمِ في ملكوتِ السماءِ. قال عيسىٰ عليه السلام: «مَنْ علمَ وعَمِلَ وعلّم، فذلك يُـدعىٰ عظيماً في ملكوتِ السماء»[1] ولا يتمّ التعظيمُ إلّا بمتعلّم، فهو إذن آلةٌ في تحصيلِ هذا الكمالِ، فإنْ أحبّه لأنّه آلةٌ إذ جعلَ صدرَهُ مزرعةً لحرثِه، فهو محبٌّ لله.

بل التحقيقُ: أنّ كلَّ مَنْ يحبُّ أحداً لصنعتِهِ، أو فعله الذي يوجبُ تقرُّبَهُ إلى الله، فهو من جملةِ المحبّين في الله، كحبِّ مَنْ يتولّىٰ له إيصالَ الصدقةِ إلى المستحقّين، وحبِّ طباخ يحسـنُ صنعتَهُ في الطبخ لأجلِ طبخِهِ لمن يُضيفُهُ تقرّباً إلى الله، وحبِّ مَنْ يُنفقُ عليه ويواسيه بكسوتِهِ

---

١. منية المريد، ص ١٢١.

وطعامهِ ومسكنِهِ وجميعِ مقاصدهِ التي يقصدها في الدنيا، ومقصودُهُ من ذلك الفراغ لتحصيلِ العلمِ والعبادةِ، وحُبِّ مَنْ يخدمهُ بنفسه من غسلِ ثيابه وكنسِ بيته وطبخِ طعامِهِ وأمثالِ ذلك من حيثُ أنّه يفرِّغُه لتحصيل العلمِ والعملِ، وقِسْ علىٰ ما ذُكرَ أمثاله. والمعيارُ أنّ كلّ مَنْ أحبّ غيرهَ من حيث توسّلهِ لأجلهِ إلىٰ فائدةٍ أُخرويّة فهو محبٌّ لله وفي الله.

الرابع: أنْ يحبَّهُ للهِ وفي الله، لا لينالَ منه علماً أو عملاً، أو يتوسّلَ به إلىٰ أمرٍ وراءَ ذاته، وذلك بأنْ يحبَّهُ من حيثُ إنّه متعلّقٌ بالله ومنسوبٌ إليه، إمّا بالنسبةِ العامّة التي ينتسب بها كلُّ مخلوقٍ إلى الله، أو لأجلِ خصوصيّة النسبةِ أيضاً، من تقرّبه إلى الله، وشدّة حبّه وخدمته له تعالىٰ.

ولا ريب في أنّ من آثارِ غلبةِ الحبِّ أن يتعدّىٰ من المحبوبِ إلىٰ كلّ مَنْ يتعلّقُ به ويناسبهُ ولو من بعدٍ، فمن أحبّ إنساناً حبّاً شديداً أحبّ محبَّ ذلك الإنسانِ وأحبَّ محبوبَه ومَنْ يخدمهُ ومَنْ يمدحُه ويُثني عليه أو يُثني عليه محبوبه، وأحبَّ أنْ يتسارعَ إلىٰ رضى محبوبهِ، كما قيل:

أمرُّ علىٰ الديارِ ديارِ ليلىٰ أُقبّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حُبُّ الديارِ شغفْنَ قلبي ولكنْ حبُّ مَنْ سكنَ الديارا

وأمّا البغضُ في الله، فهو أن يبغضَ إنسانٌ إنساناً لأجل عصيانهِ لله ومخالفتهِ له تعالىٰ، فإنّ مَنْ يحبُّ في الله لابدّ وأن يبغضَ في الله، فإنّكَ إن أحببتَ إنساناً لأنّه مطيعٌ لله ومحبوبٌ عنده، فإنْ عصاه لابدّ أن تبغضَهُ، لأنّه عاصٍ فيه وممقوتٌ عند الله، قال عيسىٰ عليه السلام: «تحبّبوا إلى الله ببغضِ أهلِ المعاصي، وتقرّبوا إلى الله بالتباعُدِ عنهم، والتمسوا رضى الله بسخطِهم»[1].

وينبغي ألّا يتركَ أوّلاً النصيحةَ، والأمر بالمعروفِ، والنهيَ عن المنكرِ، وتغليظَ القولِ في الوعظِ والإرشادِ، لا سيّما إذا كان العاصي ممّن بينه وبينه صحبةٌ متأكّدةٌ. ثمّ العاصي إن كان ممّن له صفاتٌ محمودةٌ، كالإيمانِ والعلمِ والسخاءِ والعبادةِ والطاعةِ أو أمثالِ ذلك، ينبغي أنْ يكونَ مبغوضاً لأجلِ معصيتهِ ومحبوباً لأجلِ صفتِهِ المحمودةِ، وهذا كما أنّ مَنْ وافقكَ في غرضٍ وخالفكَ في آخرَ تكونُ معه علىٰ حالةٍ متوسّطةٍ بين الترددِ إليه والتوحُّشِ عنه، فلا تبالغْ في

١. بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٣٠، باب ٢١، مواعظ عيسى عليه السلام، ح ٥.

إكرامه مبالغتكَ في إكرام مَنْ يوافقُكَ في جميع أغراضِكَ، ولا تبالغْ في إهانتهِ مبالغَتَكَ في إهانةِ مَنْ خالفَكَ في جميع أغراضِكَ.

تذنيبٌ: العُزلةُ

اعلم أنّ مَنْ بلغَ مقامَ الأُنسِ غلبَ علىٰ قلبهِ حبُّ الخلوةِ والعزلةِ عن الناسِ؛ لأنّ المخالطةَ مع الناسِ تشغلُ القلبَ عن التوجّهِ التامِّ إلى الله. فلابدَّ لنا من بيانِ أنّ الأفضلَ من العُزلةِ والمخالطةِ أيّهما، فإنّ العلماءَ في ذلك مختلفون، والأخبارَ أيضاً في ذلك مختلفةٌ، ولكلّ واحدٍ منهما أيضاً فوائدُ ومفاسدُ.

فالصحيح أن يقال: إنّ الأفضليّة فيهما تختلفُ بالنظرِ إلى الأشخاصِ والأحوالِ والأزمانِ والأمكنةِ. فينبغي أن ينظرَ إلىٰ كلّ شخصٍ وحالهِ، وإلىٰ خليطهِ، وإلىٰ باعثِ مخالطتهِ، وإلىٰ ما يحصلُ بمخالطتهِ من فوائدِ المخالطةِ، وما يفوتُ لأجلها من فوائدِ العُزلةِ، ويوازنُ بين ذلكَ، حتّىٰ يظهرَ الأفضلُ والأرجحُ. ولاختلافِ ذلك في حقّ الأشخاصِ، بملاحظةِ الأحوالِ والفوائدِ والآفاتِ، ربّما يظهرُ ـ بعد التأمّل ـ أنّ الأفضلَ لبعضِ الخلقِ العُزلةُ التامّةُ، ولبعضهم المخالطةُ، ولبعضهمِ الاعتدالُ في العُزلةِ والمخالطةِ.

النوع الثامن والعشرون: السخطُ

السخطُ فيما يخالفُ هواهُ من الوارداتِ الإلهيّة والتقديراتِ الربانيّةِ، ويرادفهُ الإنكارُ والاعتراضُ، وهو من شعبِ الكراهةِ لأفعالِ الله، وهو ينافي الإيمانَ والتوحيدَ. وما للعبدِ العاجز الذليلِ المهينِ الجاهلِ بمواقع القضاءِ والقدرِ والغافلِ عن مواردِ الحكمِ والمصالحِ، والاعتراضِ والإنكارِ والسخطِ لأفعال الخالق الحكيم العليم الخبير! وأنّىٰ للعبدِ ألاّ يرضىٰ بما يرضىٰ به ربُّه! ولعمري إنّ من يعترضْ علىٰ فعلِ الله فهو أشدّ الجهلاءِ، ومن لم يرضَ بالقضاءِ فليسَ لحمقهِ دواءٌ، وقد وردَ في الخبرِ القدسي: «أنا الله لا إلهَ إلاّ أنا، من لم يصبرْ علىٰ بلائي، ولم يشكرْ علىٰ نعمائي، ولم يرضَ بقضائي، فليتّخذْ ربّاً سوائي»[1].

وبالجملةِ، من عرفَ أنّ العالَمَ بجميعِ أجزائهِ، من الجواهرِ والأعراضِ، صادر عنه علىٰ وجهِ الحكمةِ والخيريّةِ، وأنّهُ النظامُ الأصلحُ الذي لا يتصوّرُ فوقَه نظامٌ، ولو تغيّرَ جُزءٌ منه علىٰ ماهو اختلّتِ الأصلحيّةُ والخيريّةُ؛ وعرفَ اللهَ بالربوبيّة، وعَرَفَ نفسَهُ بالعبوديّةِ، يعلمُ أنّ السخطَ والإعراضَ وعدمَ الرضى بشيءٍ ممّا يردُ، يكونُ غايةَ الجهلِ والخطرِ، ولذلكَ لم يكنْ أحدٌ من الأنبياءِ يقولُ قطُّ في أمرٍ: ليتَ كان كذا، حتّىٰ قال بعض أصحابِ النبيّ ﷺ:

خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي لشيءٍ فعلتُهُ: لم فعلتَ، ولا لشيءٍ لم أفعلْهُ: لِمَ لَمْ تفعلْهُ، ولا قال في شيءٍ كانَ: ليتَهُ لمْ يكنْ، ولا في شيءٍ لم يكنْ:

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٣٤٥.

ليتَهُ كانَ. وكانَ إذا خاصمني مخاصِمٌ من أهلِهِ، يقول: دعوهُ، لو قُضي شيءٌ لكانَ[١].

تتميمٌ: الحزنُ

وهو التحسّرُ والتألُّمُ لِفَقْدِ محبوبٍ أو فوتِ مطلوبٍ. وهو أيضاً كالاعتراضِ والإنكارِ مترتّبٌ على الكراهةِ للمقدّراتِ الإلهيّةِ.

وسببُ الحزنِ شِدّةُ الرغبةِ في المشتهياتِ الطبيعيّةِ، والميلُ إلىٰ مقتضياتِ قوّتي الغضبِ والشهوةِ، وتَوقُّعُ البقاءِ للأُمورِ الجسمانيّةِ.

وعِلاجُه أنْ يعلمَ أنّ مافي عالمِ الكونِ والفسادِ من الحيوانِ والنباتِ والجمادِ والعروضِ والأموالِ في معرضِ الفناءِ والزوالِ، وليس فيها ما يقبلُ البقاءَ، وما يبقىٰ ويدومُ هو الأُمورُ العقليّةُ والكمالاتُ النفسيّةُ المتعاليةُ عن حيطةِ الزمانِ وحوزةِ المكانِ وتصرّفِ الأضدادِ وتطرّقِ الفسادِ. وإذا تيقّنَ بذلك زالتْ عن نفسهِ الخيالاتُ الفاسِدَةُ والأمانيُّ الباطلةُ. فلا يتعلّقُ قلبُهُ بالأسبابِ الدنيويّةِ، ويتوجّهُ بشراشِرِهِ إلىٰ تحصيلِ الكمالاتِ العقليّةِ، والمجاورَةِ للأنوارِ المقدّسةِ الثابتةِ، فيصلُ إلىٰ مقامِ البهجةِ والسرورِ، ولا تلحقُهُ أحزانُ عالمِ الزورِ، كما أُشيرَ إليه في الكتابِ الإلهي بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

وفي أخبارِ داودَعليه السلام: «يا داودُ، ما لأوليائي والهمّ بالدنيا؟ إنّ الهمَّ يُذْهِبُ حلاوةَ مناجاتي من قلوبِهم، إنّ محبّي من أوليائي أن يكونوا روحانيّين لا يغتمّون»[٣].

والحاصِلُ أنّ حبّ الفانياتِ والتعلُّقَ بما من شأنِه الفواتُ خلافُ مقتضى العقلِ، وحرامٌ على العاقلِ أنْ يفرحَ بوجودِ الأُمورِ الفانية، أو يحزنَ بزوالِها. ولقد قال سيّد الأوصياءِ (عليه آلافُ التحيّةِ والثناءِ): «مالعليّ ولنَعيم يَفْنىٰ؟ ولَذّةٍ لا تبقىٰ؟!»[٤].

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٣٤٦.

٢. يونس (١٠): ٦٢.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٨٨.

٤. نهج البلاغة، ص ٣٤٧، الخطبة ٢٢٤.

بل ينبغي أن يُرضيَ نفسه بالموجودِ، ولا يغتمَّ بالمفقودِ، ويكونَ راضياً بما يَرِدُ عليه من خيرٍ وشرٍ. وقد وردَ في الآثارِ: «أنّ الله تعالىٰ بحكمتِهِ وجَلالِه، جعلَ الرَوْحَ والفَرحَ في الرضى واليقينِ»[١].

ثمّ العجبُ من العاقلِ أَنْ يَحْزَنَ من فقد الأُمورِ الدنيويّة مع أنّه يعلمُ أنَّ الدنيا دارُ الفناء، وزخارِفَها متَنَقِّلَةٌ بين الناس، ولا يمكنُ بقاؤها لأَحدٍ، وجميعَ الأسبابِ الدنيويّةِ ودائعُ الله تنتقِلُ إلى الناسِ علىٰ سبيل التبادُلِ والتناوُبِ.

فينبغي لكلّ عاقلٍ ألّا يُعَلّقَ قلبَهُ بالأُمورِ الفانيةِ حتّىٰ يحزنَ بفقدِها[٢].

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٧٥، باب فضل اليقين، ح ٢.

٢. تكـلّف، گـر نـباشد خـوش تـوان زيست   تــعلّق، گــر نــباشد خــوش تــوان مــرد

وصلٌ

ضدّ السخطِ: الرضى

الرضى تركُ الاعتراضِ والسخطِ باطناً وظاهراً، قولاً وفعلاً، وهو من ثمراتِ المحبّةِ ولوازِمِها؛ إذِ المحبُّ يَستحسِنُ كلّ ما يصدرُ عن محبوبه، وصاحبُ الرضى يستوي عندهُ الفقرُ والغنىٰ، والراحةُ والعناءُ، والبقاءُ والفناءُ، والعزُّ والذلُّ، والصحّةُ والمرضُ، والموتُ والحياةُ، ولا يرجِّحُ بعضَها علىٰ بعضٍ، ولا يثقلُ شيءٌ منها علىٰ طبعِهِ، إذ يرىٰ صدورَ الكلّ من الله سبحانه، وقد رسخَ حبُّه في قلبه، بحيثُ يحبُّ أفعالَهَ، ويُرجّحُ علىٰ مرادِهِ مرادَه تعالىٰ، فيرضىٰ لكلّ ما يكونُ ويردُ. وصاحبُ الرضى أبداً في رَوحٍ وراحةٍ، وسرورٍ وبهجةٍ؛ لأنّه يشاهدُ كُلَّ شيءٍ بعينِ الرضى، وينظرُ في كلّ شيءٍ إلىٰ نورِ الرحمةِ الإلهيّةِ، وسرِّ الحكمةِ الأزليّة، فكأنّ كلَّ شيءٍ حصلَ على وفقِ مراده وهواه.

وفائدةُ الرضى، عاجلاً فراغُ القلبِ للعبادةِ والراحةِ من الهمومِ، وآجلاً، ورضوانُ الله والنجاةُ من غضبهِ تعالىٰ.

وهاهنا أُمورٌ:

الأمر الأوّل: فضيلةُ الرضى

الرضى بالقضاءِ أفضلُ مقاماتِ الدين، وأشرفُ منازلِ المقرّبين، وهو بابُ الله الأعظمِ،

ومَنْ دخلَهُ دخلَ الجنّةَ. قال الله سبحانه: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[١]. وعن النبيّ ﷺ:

أنّه سألَ طائفةً من أصحابه: «ما أنتم؟» فقالوا: مؤمنونَ، فقال: «ما علامةُ إيمانِكم؟» فقالوا: نصبرُ على البلاءِ، ونشكرُ عند الرخاءِ، ونَرضىٰ بمواقعِ القضاءِ، فقال: «مؤمنونَ وربِّ الكعبةِ!»[٢].

وفي خبرٍ آخرَ، قال: «حكماءُ علماءُ، كادوا من فِقهِهم أن يكونوا أنبياءَ»[٣]. وقال ﷺ: «أعطوا اللهَ الرضى من قلوبِكم، تظفروا بثوابِ فقركم»[٤]. وقال ﷺ:

إذا كان يومُ القيامةِ، أنبتَ الله تعالى لطائفةٍ من أُمّي أجنِحَة، فيطيرونَ من قبورِهم إلى الجنانِ، يسرحونَ فيها، ويتنعّمونَ فيها كيفَ شاؤوا، فتقولُ لهم الملائكةُ: هل رأيتم حساباً؟ فيقولونَ: ما رأينا حساباً. فتقول لهم: هل جُزتُمُ الصراطَ؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً. فتقول لهم: هل رأيتُم جهنّمَ؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً. فتقولُ الملائكةُ: من أُمّةِ مَنْ أنتم؟ فيقولونَ: من أُمّةِ محمّد ﷺ. فتقول: ناشدناكم الله، حدّثونا ما كانت أَعمالُكم في الدنيا؟ فيقولون: خصلتانِ كانتا فينا، فبلّغَنا اللهُ هذه المنزلةَ بفضلِ رحمتِه، فيقولون: وما هما؟ فيقولونَ: كنّا إذا خلونا نستحي أنْ نعصيَهُ، ونرضىٰ باليسيرِ ممّا قسّم لنا، فتقولُ الملائكةُ: يحقُّ لكم هذا[٥].

وقال الصادقُ عليه السلام: «إنّ اللهَ بعدلِه وحكمتِهِ وعلمِهِ، جعلَ الرَوحَ والفرَحَ في اليقينِ والرضى عن الله تعالى، وجعلَ الهمَّ والحزنَ في الشكّ والسخطِ»[٦]. وقال الصادقُ عليه السلام: «أعلمُ الناسِ بالله أرضاهم بقضاءِ الله»[٧]. وقال عليه السلام:

قال الله عزّ وجلّ: «عبدي المؤمنُ، لا أصرفُهُ في شيءٍ إلّا جعلتُه خيراً له،

---

١. المائدة (٥): ١١٩؛ التوبة (٩): ١٠٠؛ المجادلة (٥٨) ٢٢؛ البيّنة (٩٨): ٨.

٢. المحجّة البيضاء، ج٨، ص٨٧.

٣. المحجّة البيضاء، ج٨، ص٨٧.

٤. المحجّة البيضاء، ج٨، ص ٨٨.

٥. المحجّة البيضاء، ج٨، ص ٨٨.

٦. المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٨٨؛ الكافي، ج ٢، ص ٥٧، باب فضل اليقين، ح ٢، بتفاوتٍ يسير.

٧. الكافي، ج ٢، ص ٦٠، باب الرضىٰ بالقضاء، ح ٢.

فَلْيَرْضَ بقضائي، ولْيَصْبِرْ علىٰ بلائي، ولْيَشْكُرْ نعمائي، اكتبْهُ يا محمّد من الصدّيقين عندي»[١].

وقيل له عليه السلام: بأيّ شيءٍ يَعلمُ المؤمنُ أنّه مؤمنٌ؟ قال: «بالتسليم لله، والرضى فيما وردَ عليه من سرورٍ أو سخطٍ»[٢]. وقال الكاظم عليه السلام: «ينبغي لمن غفلَ عن الله، ألّا يستبطئَه في رزقِهِ، ولا يتّهِمَهُ في قضائهِ»[٣].

الأمر الثاني: رضى الله تعالىٰ

قد ظهرَ من بعضِ الأخبارِ المذكورةِ: أنّ رضى الله سبحانه من العبد يتوقّفُ علىٰ رضى العبدِ عنه تعالىٰ، فمن فوائدِ رضى العبدِ بقضاءِ الله وثمراتِه رضى الله سبحانه عنه، وهو أعظمُ السعاداتِ في الدارينِ، وليس في الجنّةِ نعيمٌ فوقَه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾[٤]. وورد في تفسيرِ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٥]:

أنّه يؤتى لأهل الجنّةِ في وقتِ المزيدِ ثلاثُ تحفٍ من عندِ ربِّ العالمينَ ليس في الجِنان مثلُها:

إحداها: هديّةُ الله، ليس عندهم في الجِنان مثلُها، وذلك قولهُ تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٦].

والثانيةُ: السلامُ عليهم من ربّهم، فيزيد ذلك على الهديّة، وهو قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[٧].

والثالثةُ: يقول الله تعالى: «إنّي عنكم راضٍ»، وهو أفضلُ من الهديّةِ والتسليمِ،

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٦١، باب الرضىٰ بالقضاء، ح ٦.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٦٣، باب الرضىٰ بالقضاء، ح ١٢.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٦١، باب الرضىٰ بالقضاء، ح ٥.
٤. التوبة (٩): ٧٢.
٥. ق (٥٠): ٣٥.
٦. السجدة (٣٢): ١٧.
٧. يس (٣٦): ٥٨.

وذلك قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾[١]، أي من النعيم الذي هم فيه.[٢]

الأمر الثالث: هل يناقضُ الدعاءُ ونحوُه الرضى

اعلم أنّ الدعاءَ غيرُ مناقضٍ للرضى، وكذلك كراهيةُ المعاصي، ومقتُ أهلِها، وحسمُ أسبابِها، والسعي في إزالتها بالأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، والخروجُ من بلدٍ ظهرتْ فيه المعاصي. وقد زعمتْ طائفةٌ من أهلِ البطالةِ والغرورِ أنّ جميعَ ذلك يخالفُ الرضى، إذ كلُّ ما يقصدُ ردّه بالدعاء وأنواعُ المعاصي والفجور والكفرُ من قضاءِ الله وقَدَرِه، فيجبُ للمؤمنِ أنْ يرضىٰ به. وقد رأوا السكوتَ على المنكراتِ مَقاماً من مقاماتِ الرضى وَسَمَّوْهُ حسنَ الخلقِ، وهذا جهلٌ بالتأويل، وغفلةٌ عن أسرارِ الشريعةِ ودقائِقها.

أمّا الدعاءُ، فلا ريبَ في أنّا قد تُعبِّدْنا به، وقد كثرتْ أدعيةُ الأنبياءِ والأئمّةِ، وكانوا على أعلىٰ مقاماتِ الرضى. وتظاهرتِ الآياتُ، وتواترتِ الأخبارُ في الأمرِ بالدعاءِ وفوائِدهِ وعظمِ مدحِهِ، وأثنى الله سبحانه علىٰ عبادهِ الداعينَ، حيث قال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾[٣] و﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٤] و﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[٥]. وهو يوجبُ صفاءَ الباطنِ، وخشوعَ القلبِ، ورِقّةَ النظرِ، وتَنَوُّرَ النفسِ وتجلّيها. وقد جعلَهُ اللهُ تعالىٰ مفتاحاً للكشفِ، وسبباً لتواترِ مزايا اللُّطْفِ والإحسانِ. وهو أقوى الأسبابِ لإفاضةِ الخيراتِ والبركاتِ من المبادئ العاليةِ.

الأمر الرابع: طريقُ تحصيلِ الرضى

الطريقُ إلىٰ تحصيلِ الرضى؛ أن يعلمَ أنّ ماقَضى الله سبحانه له هو الأصلحُ بحاله، وإنْ لم يبلغْ فهمُه إلىٰ سِرِّهِ فيه. مع أنّ السخطَ والكراهةَ لا يفيدُ شيئاً ولا يتبدّلُ به القضاءُ. فإنّ ما

---

١. التوبة (٩): ٧٢.

٢. المحجّة البيضاء، ج٨، ص٨٧.

٣. الأنبياء (٢١): ٩٠.

٤. المؤمن (٤٠): ٦٠.

٥. البقرة (٢): ١٨٦.

قُدِّرَ يكونُ، ومالم يُقَدَّرْ لم يكنْ، وحسرةُ الماضي وتدبير الآتي يُذهبانِ بتركهِ الوقتَ بلا فائدةٍ، وتبقىٰ تبعةُ السخطِ عليه. فينبغي أنْ يُدهشَهُ الحبُّ لخالِقِهِ عن الإحساس بالألم، كما للعاشقِ، وأنْ يُهوّنَ عليه العلمُ بعِظَمِ الثواب التعبَ والعناءَ ـ كما للمريض والتاجرِ المتحمّلينِ شدّةَ الحجامةِ والسفرِ ـ فيفوّضُ أمرَه إلى الله، إنّ الله بصيرٌ بالعباد.

تتميمٌ: التسليمُ

اعلم أنّ التسليمَ، ويُسمّىٰ تفويضاً أيضاً، قريبٌ من الرضى، بل هو فوقَ الرضى، لأنّه عبارةٌ عن تركِ الأعراضِ في الأُمورِ الواردةِ عليه، وحوالتِها بأسرها إلى الله، مع قطعِ تعلّقِه عليها بالكلّيّةِ، بمعنىٰ ألّا يكونَ طبعُه متعلّقاً بشيءٍ منها. فهو فوقَ الرضى، إذ في مرتبةِ الرضى كلّ ما يفعلُ اللهُ به يوافقُ طبعَه، فالطبعُ ملحوظٌ ومنظورٌ له، وفي مرتبةِ التسليم يجعل الطبعَ وموافَقتَهُ ومخالَفتَهُ كلَّها موكولةً إلى الله سبحانه. وفوقَ مرتبةِ التوكُّلِ أيضاً، إذ التوكّلُ ـ كما يأتي ـ عبارةٌ عن الاعتمادِ في أُموره علىٰ الله، فهو بمنزلةِ توكيلِ اللهِ في أُمورِه، وكأنّه يجعلُ الله تعالىٰ بمثابةِ وكيلِه، فيكونُ تعلّقُه بأُمورِه باقياً، وفي مرتبةِ التسليمِ يقطع العلاقة من الأُمورِ المتعلّقةِ به بالكلّيّةِ.

النوع التاسع والعشرون: عدمُ الاعتمادِ على الله تعالى

عدمُ الاعتماد أو ضعفُهُ في أُمورِه على الله، والوثوقُ بالوسائطِ، والنـظرُ إليهـا فـيها، مـن الرذائل.

وسببُه: إمّا ضعفُ اليقينِ، أو ضعفُ القلبِ، أو كـلاهما. فـهو مـن رذائـلِ قـوّتي العـاقلةِ والغضبِ. ولا ريبَ في أنّـه من المهلكاتِ العظيمةِ، وينافي الإيمانَ، بل هو من شُعَبِ الشركِ. ولذا وردَ في ذمّه من الآياتِ والأخبارِ ما ورَدَ. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1]. وفي أخبار داودعليه السلام:

> ما اعتصمَ عبدٌ من عبادي بأحدٍ من خلقي عرفتُ ذلك من نيّته، إلّا قطعتُ أسبابَ السماواتِ من يديهِ، وأسَختُ الأرضَ من تحته، ولم أُبالِ بأيّ وادٍ هلك[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ اغترّ بالعبيدِ أذلّه اللهُ»[3].

فينبغي للمؤمنِ أنْ يتخلّىٰ عنه باكتسابِ ضدِّه، أعني التوكُّلَ، كما يأتي.

---

١. الأعراف (٧): ١٩٤.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٦٣، باب التفويض إلى الله والتوكّل عليه، ح ١.

٣. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٤٠٨.

وصـلٌ

ضدُّ عدم الاعتماد: التوكّلُ

التوكّلُ اعتمادُ القلبِ في جميعِ الأُمورِ على الله. وبعبارةٍ أُخرىٰ: حوالةُ العبدِ جميعَ أُمورِهِ على الله. وبعبارةٍ أُخرىٰ: هو التبرّؤ من كلّ حولٍ وقوّة، والاعتمادُ علىٰ حولِ الله وقوّتِه. وهو موقوفٌ على أن يعتقدَ اعتقاداً جازماً بأنّه لا فاعلَ إلّا اللهُ، وأنّه لا حولَ ولا قوّة إلّا بالله، وأنّ له تمامَ العلمِ والقُدْرَةِ علىٰ كفايةِ العبادِ، ثمّ تمامَ العطفِ والعنايةِ والرحمةِ بجملة العبادِ والآحاد، وأنّه ليس وراءَ منتهى قدرتِه قُدْرَةٌ، ولا وراءَ منتهىٰ علمِهِ علمٌ، ولا وراءَ منتهىٰ عنايتِهِ عنايةٌ. فمن اعتقدَ ذلك اتّكلَ قلبُهُ لا محالةَ على الله وحدَهُ، ولم يلتفتْ إلىٰ غيره، ولا إلىٰ نفسِه أصلاً. ومَنْ لم يجدْ ذلك من نفسِه، فسببُه إمّا ضعفُ اليقينِ، أو ضعفُ القلبِ ومرضُه باستيلاءِ الجبنِ عليه وانزعاجِه بسبب الأوهامِ الغالبةِ عليه. فإنَّ القلبَ الضعيفَ ينزعجُ تبعاً للوهْمِ، وطاعةً له من غير نقصان في اليقين، كانزعاجِهِ أن يبيتَ مع ميّتٍ في قبرٍ أو فراشٍ، مع يقينهِ بأنّه جمادٌ في الحالِ لا يُتَصَوّرُ منه إضرارٌ، فلا ينبغي أن يخافَ منه ويفرَّ عنه، كما لا يفرُّ من سائر الجمادات. وكذا مَنْ كان ضعيفَ القلبِ وتناولَ العسلَ ـ مثلاً ـ فشَبَّهَ العسلَ بين يديه بالعذرةِ، فربّما نَفَرَ طبعُه لضعفِ قلبِهِ، وتعذّرَ عليه أن يتناوَلَهُ، مع يقينه بأنّه عسلٌ ولا مَدْخَلِيّةَ للعذرةِ فيه. فالتوكُّلُ لا يتمُّ إلّا بقوّةِ اليقينِ وقوّةِ القلبِ جميعاً، إذ بهما يحصلُ سكونُ القلبِ وطُمَأْنينتُه. فالسكونُ في القلبِ شيءٌ آخرُ، واليقينُ شيءٌ آخرُ. فكم من يقينٍ لاطمأنينةَ معه، كما قال

تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[١]. فالتمس أنْ يشاهدَ إحياءَ الميّتِ بعينهِ ليـثبتَ اليقينُ في خياله، فإنّ النفسَ تتبعُ الخيالَ وتطمئنُّ به، ولا تطمئنُّ باليقينِ في ابتداءِ أمرِهِ إلى أنْ تبلغَ درجةَ النفسِ المطمئنّةِ، وذلك لا يكونُ في البدايةِ.

ولنذكر ما يتعلّق بالتوكّل في أُمورٍ:

الأمر الأوّل: فضيلةُ التوكُّلِ

التوكّلُ منزلٌ من منازلِ السالكينَ ومقامٌ من مقاماتِ الموحّدينَ، بل هو أفضلُ درجـاتِ الموقنينَ. ولذا وَرَدَ في مدحهِ وفضلهِ وفي الترغيبِ فيه ما وردَ من الكتابِ والسُنّة، قال اللـه تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٢] و ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٣] و ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْـمُـتَوَكِّلِينَ﴾[٤] و ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٥] و ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّـلْ عَـلَى اللهِ فَـإِنَّ اللهَ عَـزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٦].

أي عزيزٌ لا يَذِلُّ من استجارَ به، فلا يضيع مَنْ لاذَ بجنابهِ، وحكيمٌ لا يقصّرُ عن تدبيرِ مَنْ توكّلَ على تدبيرِه. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ انقطعَ إلى الله، كفاهُ اللهُ كُلَّ مؤونةٍ، ورَزَقَهُ من حيث لا يحتسِبُ. ومَنْ انقطعَ إلى الدنيا، وكَلَهُ الله إليها»[٧]. وقال ﷺ: «مَنْ سرّه أنْ يكـونَ أغنى الناسِ، فليكنْ بما عند الله أوثقَ منه بما في يده»[٨]. وقال ﷺ: «لو أنّكم تتوكّلونَ على الله حقّ توكُّلِهِ، لرُزِقتم كما تُرزَقُ الطيورُ، تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً»[٩]. وقال الصادق عليه السلام:

---

١. البقرة (٢): ٢٦٠.

٢. المائدة (٥): ٢٣.

٣. آل عمران (٣): ١٢٢، ١٦٠؛ المائدة (٥) ١١؛ التوبة (٩): ٥١.

٤. آل عمران (٣): ١٥٩.

٥. الطلاق (٦٥): ٣.

٦. الأنفال (٨): ٤٩.

٧. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٧٩.

٨. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٣٧٩.

٩. المحجّة البيضاء، ج٧، ص ٣٧٩.

[١] أوحى الله إلى داودَ: «ما اعتصمَ بي عبدٌ من عبادي دونَ أحدٍ من خلقي، عرفتُ ذلك من نيّته، ثمّ تكيدُه السماواتُ والأرضُ ومَنْ فيهنَّ، إلّا جعلتُ له المخرجَ من بينهنّ»[١].

[٢] إنّ الغنىٰ والعزَّ يجولانِ، فإذا ظفرا بموضع التوكُّلِ أوطَنا[٢].

[٣] أيّما عبدٍ أقبلَ قِبَلَ ما يحبّ الله تعالى أقبلَ اللهُ قِبَلَ ما يحبُّ، ومَنْ اعتصمَ بالله عصمَهُ اللهُ، ومَنْ أقبلَ اللهُ قِبلَه وعصمَهُ، لم يبالِ لو سقطتِ السماءُ على الأرضِ، أو كانت نازلةً نزلتْ على أهلِ الأرضِ فتشملُهم بليّةٌ، كان في حزب الله بالتقوىٰ من كلّ بليّةٍ، أليس الله تعالى يقولُ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[٣].

الأمر الثاني: درجاتُ التوكّلِ

للتوكُّلِ في الضعفِ والقوّةِ ثلاثُ درجاتٍ:

الأُولىٰ: أن يكونَ حالهُ في حقّ اللهِ والثقةِ بعنايتِه وكفالتِه كحالِه بالثقةِ بالوكيلِ، وهذه أضعفُ الدرجاتِ، ويكثرُ وقوعها ويدومُ مدّةً مديدةً، ولا ينافي أصلَ التدبيرِ والاختيارِ، بل ربّما زاولَ كثيراً من التدبيراتِ بسعيهِ واختياره. نعم ينافي بعضَ التدبيراتِ، كالتوكّل علىٰ وكيلِه في الخصومةِ، فإنّه يتركُ تدبيرَه من غيرِ جهةِ الوكيل، ولكن لا يتركُ التدبيرَ الذي أشارَ إليه وكيلُهُ، ولا التدبيرَ الذي عرفَهُ من عادتِه وسنّتِه دون تصريح إشارتِه.

الثانية: أن تكونَ حالُه مع الله كحالِ الطفلِ مع أُمّه، فإنّه لا يعرفُ غيرَها، ولا يفزعُ إلّا إليها، ولا يعتمدُ إلّا عليها. فإنْ رآها تعلّقَ في كلّ حالٍ بذيلها، وإن وردَ عليه أمرٌ في غيبتها كان أوّلُ سابقٍ لسانهِ: يا أُمّاه!

والفرقُ بين هذا وسابقِهِ، أنّ هذا متوكّلٌ قد فَنِيَ في موكّلِهِ عن توكّلِهِ، أي ليس يلتفتُ قلبُه

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٦٣، باب التفويض إلى الله والتوكّل عليه، ح ١.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٦٤ ـ ٦٥، باب التفويض إلى الله والتوكّل عليه، ح ٣.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٦٥، باب التفويض إلى الله والتوكّل عليه، ح ٤. والآية في سورة الدخان (٤٤): ٥١.

إلى التوكُّل، بل التفاتُه إنّما هو إلى المتوكّلِ عليه فقط، فلا مجالَ في قلبه لغيرِ المتوكّلِ عليه. وأمّا الأوّلُ فتوكّلٌ بالكسبِ والتكلُّفِ، وليس فانياً عن توكّله، أي له التفاتٌ إلىٰ توكّلِه، وذلك شغلٌ صارفٌ عن ملاحظةِ المتوكّلِ عليه وحدَهُ، وهذا أقلُّ وقوعاً ودواماً من الأوّل، إذ حصولُه إنّما هو للخواصّ، وغايةُ دوامه أن يدومَ يوماً أو يومين، وينافي التدبيراتِ، إلّا تدبيرَ الفزعِ إلى الله بالدعاءِ والابتهالِ، كتدبيرِ الطفلِ في التعلّقِ بأُمّه فقط.

الثالثة: وهي أعلى الدرجاتِ، أن يكونَ بين يدي الله في حركاته وسكناتِه مثل الميّتِ بين يدي الغاسلِ، بأن يرىٰ نفسَهُ ميّتاً، وتحرّكهُ القدرةُ الأزليّةُ كما يحرّكُ الغاسلُ الميّتَ. وهو الذي قَوِيَتْ نفسُه، ونال الدرجةَ الثالثةَ من التوحيدِ.

والفرقُ بينه وبين الثاني، أنّ الثاني لا يتركُ الدعاءَ والتضرّعَ، كما أنّ الصبيّ يفزعُ إلى أُمّه ويصيحُ ويتعلّقُ بذيلها ويعدو خلفَها، وهذا ربّما يتركُ الدعاءَ والسؤالَ ثقةً بكرمه وعنايتِه، فهذا مثال صبيّ علم أنّه إن لم يرضَ بأُمّه، فالأُمُّ تطلبهُ، وإن لم يتعلّقْ بذيلها فهي تحملُه، وإن لم يسأل اللبنَ فهي تسقيه.

ثمّ توكّل العبدَ على الله قد يكونُ في جميع أُمورِه، وقد يكونُ في بعضِها. وتختلفُ درجاتُ ذلك بحسب كثرةِ الأُمورِ المتوكّلِ فيها وقلّتها. وقال الكاظم عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1]:

التوكُّلُ على الله درجاتٌ، منها أنْ تتوكّلَ على الله في أُمورِكَ كُلِّها، فما فعل بكَ كنتَ عنه راضياً، تعلم أنّه لا يأْلوكَ خيراً وفضلاً، وتعلمُ أنّ الحكمَ في ذلك له، فتوكَّلْ على الله بتفويضِ ذلك إليه، وثِقْ به فيها وفي غيرِها[2].

ولعلّ سائرَ درجاتِ التوكُّلِ أنْ يتوكّلَ على الله في بعضِ أُموره دونَ بعضٍ، وتعدّد الدرجاتِ حينئذ بحسبِ كثرةِ الأُمور المتوكَّلِ فيها وقلّتها.

---

١. الطلاق (٦٥): ٣.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٢٥، باب التفويض إلى الله والتوكّل عليه، ح ٥.

الأمر الثالث: السعي لا ينافي التوكُّلَ

اعلم أنّ الأُمورَ الواردةَ على العبادِ إمّا أن تكونَ خارجةً عن قُدرةِ العبادِ ووسعِهم، بمعنى أنّه لا تكونُ لها أسبابٌ ظاهرةٌ قطعيّة أو ظنيّة لجلبِها أو دفعِها، أو تكونُ لها أسبابٌ جالبةٌ لها أو دافعةٌ إيّاها، إلّا أنَّ العبدَ لا يتمكّنُ منها.

فمقتضى التوكّلِ فيها تركُ السعي بالتمحّلاتِ والتدبيراتِ الخفيّةِ، وحَوالتُها علىٰ ربّ الأربابِ، ولو دبّر في تغييرها بالتمحّلاتِ والتكلّفاتِ، لكان خارجاً عن التوكُّل رأساً، أو لا تكونُ خارجةً عن قدرتِهم، بمعنىٰ أنّ لها أسباباً قطعيّةً أو ظنيّةً يمكنُ للعبدِ أن يحصِّلَها ويتوصّلَ بها إلىٰ جلبِها أو دفعها. فالسعيُ في مثلها لا ينافي التوكّلَ، بعد أن يكونَ وثوقُه واعتمادُه بالله دونَ الأسبابِ.

فمن ظنّ أنّ معنى التوكّلِ تَرْكُ الكسبِ بالبدن، وتركُ التدبيرِ بالعقل رأساً، والسقوطُ على الأرض كالخرقةِ الملقاةِ، فقد أبعدَ عن الحقّ، لأنّ ذلك محرّمٌ في الشرع الأقدسِ. فإنّ الشارعَ كلّفَ الإنسانَ بطلبِ الرزقِ بالأسباب التي هداه الله إليها، من زراعةٍ أو تجارة أو صناعةٍ أو غير ذلك ممّا أحلّه الله، وكلّفه بأن يدفعَ عن نفسه الأشياءَ المؤذيةَ بالتوسُّلِ إلى الأسباب المعيّنة لدفعِها.

وكما أنّ العباداتِ أُمورٌ أمَرَ اللهُ تعالى عبادَه بالسعي فيها، ليحصلَ لهم بها التقرُّبُ إليه والسعاداتُ في دارِ الآخرةِ، فكذلك طلبُ الحلالِ ودفعُ الضررِ والألمِ عن النفسِ والأهلِ والعيالِ أُمورٌ أمرَهُم الله تعالى بها ليحصلَ لهم بها التوسّلُ إلى العباداتِ وما يؤدّي إلى التقرّبِ والسعادةِ. ولكنّه سبحانه كلَّفهم أيضاً بألّا يثقوا إلّا به، ولا يعتمدوا على الأسباب.

كما أنّه سبحانَه كلّفهم بألّا يتّكلوا علىٰ أعمالهم الحسنةِ، بل علىٰ فضلِه ورحمتِه، فمعنى التوكّلِ المأمورِ به في الشريعةِ: اعتمادُ القلبِ على الله في الأُمورِ كلّها، وانقطاعُه عمّا سواه. ولا ينافيه تحصيلُ الأسبابِ إذا لم يسكنْ إليها، وكان سكونه إلى الله سبحانه دونها مجوّزاً في نفسِهِ أن يؤتيهُ الله مطلوبَهُ من حيث لا يحتسبُ، دونَ هذه الأسبابِ التي حصلَها، وأن يقطعَ الله هذه الأسبابَ عن مسبّباتها.

الأمر الرابع: الأسبابُ التي لا ينافي السعيُ إليها التوكّلَ

الأسبابُ التي لا ينافي تحصيلُها ومزاولتُها للتوكّلِ، هي الأسبابُ القطعيّة أو الظنيّةُ، وهي التي يقطعُ أو يظنُّ بارتباطِ المسبّبات بها بتقدير الله ومشيّته ارتباطاً مطّرداً لا يتخلّفُ عنها، سواء كانتْ لجلبِ نفعٍ أو لدفعِ ضرّ منتظَرٍ أو لإزالةِ آفةٍ واقعةٍ، وذلك كمدّ اليدِ إلى الطعام للوصول إلىٰ فيه، وحملِ الزادِ للسفرِ، واتخاذِ البضاعةِ للتجارةِ، وأخذِ السلاحِ للعدوّ، والادّخارِ لتجدُّدِ الاضطرارِ، والتداوي لإزالةِ المرضِ، والتحرُّزِ عن النوم في ممرِّ السيلِ ومسكنِ السباعِ وتحتَ الحائطِ المائلِ، وغلقِ الباب، وعقلِ البعيرِ، وتركِ الطريقِ الذي يُقطَع أو يُظَنّ وجودُ السارقين أو السباعِ الضارَّةِ فيه، وقسْ عليها غيرَها.

وأمّا الأسبابُ الموهومةُ، كالرُقيةِ، والطيرةِ، والاستقصاءِ في دقائقِ التدبيرِ، وإبداءِ التمحّلاتِ لأجل التبديلِ والتغييرِ، فيبطلُ بها التوكّلُ، لأنّ أمثالَ ذلك ليستْ بأسبابٍ عند العقلاءِ، وليستْ ممّا أمرَ اللهُ تعالىٰ بها، بل وردَ النهيُ عنها، على أنّ المأمورَ به الإجمالُ في الطلبِ وعدمُ الاستقصاءِ. وقال الصادق عليه السلام:

> ليكنْ طلبُ المعيشةِ فوقَ كسبِ المضيّعِ، ودونَ طلبِ الحريصِ، الراضي بدنياه المطمئنِّ إليها، ولكنْ أنزلْ نفسَكَ من ذلك بمنزلةِ المُنصِفِ المتعفّفِ، ترفعْ نفسَكَ عن منزلةِ الواهنِ الضعيفِ، وتكتسبْ ما لابُدَّ منه، إنّ الذين أُعطوا المالَ ثمّ لم يَشكروا لا مالَ لهم[1].

وقال عليه السلام: «إذا فتحتَ بابكَ، وبسطْتَ بساطكَ، فقد قضيتَ ما عليكَ»[2].

الأمر الخامس: اعقلْ وتوكّلْ

اعلم أنّ التوكّلَ لا يبطُلُ بالأسبابِ المقطوعةِ والمظنونةِ، مع أنّ اللهَ قادرٌ على إعطاءِ المطلوبِ بدون ذلك؛ لأنّ اللهَ سبحانه ربط المسبّباتِ بالأسبابِ، وأبى أنْ يُجرِيَ الأشياءَ إلّا

---

١. الكافي، ج ٥، ص ٨١، باب الإجمال في الطلب، ح ٨.
٢. الكافي، ج ٥، ص ٧٩، باب الإبلاء في طلب الرزق، ح ١.

بالأسبابِ. ولذا لما أهمل الأعرابي بعيرَه، وقال: توكّلتُ على الله، قال له النبيّ ﷺ: «اِعقلْها وتوكّلْ»[١]. وقال الله تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[٢]. وقال في كيفيّة صلاة الخوف: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾[٣]. وقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾[٤]. وروي:

أنّ زاهداً من الزُهّادِ، فارقَ الأمصارَ وأقامَ في سفحِ جبلٍ، فقال: لا أسألُ أحداً شيئاً حتّىٰ يأتيَني ربّي برزقي. فقعدَ سبعاً، فكاد يموتُ، ولم يأتِه رزقٌ، فقال: يارب! إنْ أحييتني فأتني برزقي الذي قسمتَ لي، وإلّا فاقبضني إليك. فأوحى الله تعالى إليه: «وعزّتي وجلالي! لا أرزقُكَ حتّىٰ تدخلَ الأمصارَ، وتقعدَ بين الناسِ». فدخلَ المصرَ فأقامَ، فجاء هذا بطعامٍ وهذا بشرابٍ، فأكلَ وشربَ. فأوجسَ في نفسه ذلك، فأوحى الله إليه: «أردتَ أن تُذهِبَ حكمتي بزُهدِكَ في الدنيا، أما علمتَ أنّي أرزقُ عبدي بأيدي عبادي أحبُّ إليّ من أن أرزقَه بيدِ قدرتي؟»[٥]

الأمر السادس: طريقُ تحصيلِ التوكُّلِ

الطريقُ إلىٰ تحصيلِ التوكّلِ ـ بعد تقويةِ التوحيدِ والاعتقادِ بأنّ الأُمورَ بأسرِها مستندةٌ إليه سبحانَه، وليس لغيره مدخليّةٌ فيها ـ أنْ يتذكّرَ الآياتِ والأخبارَ المذكورةَ الدالّةَ علىٰ فضيلتِه ومدحِه، وكونه باعثَ النجاةِ والكفايةِ، ثمّ يتذكّرَ أنّ اللهَ سبحانه خلقَهُ بعد أنْ لم يكنْ موجوداً، وأوجدَهُ من كتمِ العدمِ، وهيّأ له ما يحتاجُ إليه، وهو أرأفُ بعبادِه من الوالدةِ بولدها، وقد ضمِنَ بكفايةِ مَنْ توكّلَ عليه، فيستحيلُ أنْ يُضيّعَهُ بعد ذلك ولا يكفيَهُ مؤونتَهُ، ولا يوصلَ إليه ما يحتاجُ إليه، ولا يدفعَ عنه ما يؤذيه، لتقدّسِهِ من العجزِ والنقصِ والخُلفِ والسَهو.

وينبغي أن يتذكّرَ الحكاياتِ التي فيها عجائبُ صنعِ الله في وصولِ الأرزاقِ إلىٰ صاحبِها،

---

١. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٤٢٦.

٢. النساء (٤): ٧٠.

٣. النساء (٤): ١٠٢.

٤. الأنفال (٨): ٦٠.

٥. إحياء علوم الدين، ج٤، ص٢٦٦.

وفي دفعِ البلايا والأسواء عن بعض عبيده، والحكاياتِ التي فيها عجائبُ قهرِ الله في إهلاكِ أموالِ الأغنياءِ وإذلالِ الأقوياءِ، وكم من عبدٍ ليس له مالٌ وبضاعةٌ ويرزقُه اللهُ بسهولةٍ، وكم من ذي مالٍ وثروةٍ هلكتْ بضاعتُه أو سُرِقتْ وصارَ محتاجاً، وكم من قويٍّ صاحبِ كثرةٍ وعدّةٍ وسطوةٍ صارَ عاجزاً ذليلاً بلا سببٍ ظاهرٍ، وكم من ذليلٍ عاجزٍ صار قويّاً واستولىٰ علىٰ الكلِّ. ومَنْ تأمّلَ في ذلك يعلمُ أنّ الأُمورَ بيد اللهِ، فيلزمُ الاعتمادُ عليه والثقةُ به.

والمناطُ أنْ يعلمَ أنّ الأُمورَ لو كانت بقدرةِ الله سبحانه من غير مدخليّةٍ للأسباب والوسائطِ فيها، فعدمُ التوكُّلِ عليه سبحانه والثقةُ بغيره غايةُ الجهلِ، وإنْ كانتْ لغيرِه سبحانه من الوسائطِ والأسباب مدخليّةٌ، فالتوكّلُ من جملةِ أسبابِ الكفايةِ وإنجاحِ الأُمورِ؛ إذ السمعُ والتجربةُ شاهدان بأنّ مَنْ توكَّلَ عليه وانقطعَ إليه كفاهُ اللهُ كلَّ مؤونةٍ. فكما أنّ شربَ الماءِ سببٌ لإزالةِ العطشِ، وأكلَ الطعامِ سببٌ لدفعِ الجوعِ، فكذا التوكُّلُ سبَبٌ رتّبهُ مُسَبِّبُ الأسباب لإنجاحِ المقاصدِ وكفايةِ الأُمور.

وعلامةُ حصولِ التوكُّلِ ألّا يضطربَ قلبُه، ولا يبطلَ سكونُه بفقدِ أسباب نفعه.

النوع الثلاثون: الكفرانُ

بعد ما تعرف حقيقةَ الشكر وكونه متعلّقاً بأيّ القوى، تعرف بالمقايسةِ حقيقةَ الكفرانِ وكونَه من رذائلِ القوى؛ فإنَّه عبارةٌ عن الجهلِ بكونِ النعمِ من الله، أو عدمُ الفرح بالمنعمِ والنعمة من حيث إيصالها إلى القرب منه، أو تركُ استعمالِ النعمةِ فيما يحبّهُ المنعمُ. أو استعمالها فيما يكرهُهُ.

ثمّ الأفعالُ المتّصِفَةُ بالكُفرانِ، بعضُها يوجبُ نقصانَ القُربِ وانحطاطَ المنزلةِ، وبعضُها يُخرِجُ بالكُلّيّة عن حدودِ القربِ إلىٰ عالم البُعدِ الذي هو أُفقُ الشياطين. ولذلك يوصفُ بعضُها ـ في لسان الفقه ـ بالكراهةِ وبعضُها بالحظرِ. وقد سُومِحَ في الفقه حيثُ جعل فيه بعضُ هذه المكارهِ مكروهةً غيرَ محظورةٍ، مع أنّ جميعَها عدولٌ عن العدلِ، وكُفرانٌ للنعمةِ، ونقصانٌ عن الدرجةِ المبلغةِ إلى القُربِ؛ لأنّ الخطابَ به إنّما هو إلى الذين انغمسوا في ظُلماتٍ أعظمَ من أنْ تظهرَ أمثالُ هذهِ الظلماتِ بالإضافةِ إليها. فإنّ المعاصي كلّها ظُلماتٌ، إلّا أنّ بعضَها فوقَ بعضٍ، فَيتمَحــَّقُ بعضُها في جنبِ البعضِ.

ولذا ترى أنّ السيّدَ يعاتبُ عبدَهُ إذا استعملَ سكّينه بغير إذنه، ولكنْ لو قتلَ بهذه السكّينِ أعزَّ أولادِهِ لم يبقَ لاستعمالِ السكّينِ بغيرِ إذنهِ حكمٌ ونكايةٌ في نفسه. ولذا جميع هذه المكارهِ موصوفةٌ عند أربابِ القلوبِ بالحظر، ولا يتسامحونَ في شيءٍ ممّا راعاهُ الأنبياءُ والأولياءُ من الآدابِ.

وصلٌ
ضدُّ الكفرانِ: الشُّـكر

الشكرُ هو عرفانُ النعمةِ من المنعم، والفرحُ به، والعملُ بمـوجبِ الفـرحِ بـإضمارِ الخـير، والتحميدُ للمنعمِ، واستعمالُ النعمةِ في طاعتِهِ. أمّا المعرفةُ فبأنْ تعرفَ أنّ النعمَ كلَّها من اللهِ، وأنّه هو المنعمُ، والوسائط مسخّراتٌ من جهته. ولو أنعمَ عليكَ أحدٌ، فهو الذي سخّرهُ لكَ، وألقىٰ في قلبِهِ من الاعتقاداتِ والإراداتِ ما صارَ به مضطرّاً إلى الإيصال إليك، فمن عرفَ ذلك، حَصَّلَ أحدَ أركانِ الشكرِ لله، وربّما كان مجرّدُ ذلك شكراً، وهو الشكرُ بالقلب. كما روي: «أنّ موسىٰ قال في مناجاتِهِ: إلهي، خلقتَ آدمَ بيدكَ، وأسكنتَهُ جَنّتَكَ، وزوّجتَهُ حوّاءَ أمتَكَ، فكيف شَكَرَكَ؟ فقال: عَلِمَ أنّ ذلك منّي، فكانت معرفتُهُ شكراً»[1].

ثمّ هذه المعرفةُ فوقَ التقديسِ وفوقَ بـعضِ مـراتبِ التـوحيدِ، وهمـا داخـلان فـيها. إذ التقديسُ تنزيهُهُ سبحانَه عن صفاتِ النقصِ، والتوحيدُ قصرُ المقدّسِ عليه، والاعترافُ بعدمِ مقدّس سواهُ. وهذه المعرفةُ هي اليقينُ بأنَّ كُلَّ ما في العالمِ موجودٌ مـنه، والكُـلُّ نـعمةٌ مـنه، فينطوي فيها مع التقديسِ والتوحيدِ كمالُ القدرَةِ والانفرادِ بالفعل. وأمّا الفرحُ بالمنعمِ مع هيئةِ الخضوعِ والتواضُعِ، فهو أيضاً من أركانِ الشكرِ، بل كما أنّ المعرفةَ شكرٌ قلبيٌّ برأسه، فهو أيضاً في نفسِهِ شكرٌ بالقلبِ، وإنّما يكونُ شُكراً إذا كان فرحُه بالمنعمِ أو بالنعمةِ لا من حيثُ إنّه نعمةٌ

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٨٣.

ومالٌ ينتفعُ به ويلتذّ منه في الدنيا، بل من حيثُ إنّه يقدرُ بها على التوصُّل إلى القربِ من المنعمِ، والنزولِ في جوارِه، والنظرِ إلىٰ وجهه على الدوام.

وأمارتُه ألّا يفرحَ من الدنيا إلّا بما هو مزرعةُ الآخِرةِ ومُعينه عليها، ويحزنُ بكلّ نعمةٍ تلهيهِ عن ذكرِ الله وتصدُّهُ عن سبيله، لأنّه ليس يُريدُ النعمةَ لذاتِها، بل من حيثُ إنّها توصِلُه إلىٰ مجاورَةِ المنعمِ وقربِه ولقائِه. وأمّا العملُ بموجبِ الفرحِ الحاصلِ من معرفةِ المنعمِ، فهو القيامُ بما هو مقصودُ المنعم ومحبوبهُ، وهو يتعلّقُ بالقلبِ واللسانِ والجوارحِ. أمّا المتعلّقُ بالقلبِ فقصدُهُ الخيرُ وإضمارُهُ لكافّةِ الخلق. وأمّا المتعلّق باللسانِ فإظهارُ الشكرِ لله بالتحميداتِ الدالّةِ عليه. وأمّا المتعلّقُ بالجوارحِ، فاستعمالُ نعمِ اللهِ في طاعتهِ والتوقّي من الاستعانةِ بها علىٰ معصيتهِ، حتّىٰ أنّ من جملةِ شُكْرِ العينينِ أن يسترَ كُلّ عيبٍ يراهُ من مسلمٍ، ومن جملةِ شكرِ الأُذنين أن يسترَ كلَّ عيبٍ يسمعُهُ من مسلمٍ، فيدخلُ هذا وأمثالهُ في جملةِ شكرِ نعمةِ هذه الأعضاءِ. بل قيل: مَنْ كفرَ نعمةَ العينِ ولم يستعمِلْها فيما خُلِقتْ لأجلِه كَفَرَ نعمةَ الشمسِ أيضاً، إذ الإبصار إنّما يتمُّ بها، وإنّما خُلِقَتا ليبصِرَ بهما ما ينفعُهُ في دينِه ودنياه، ويقي بهما ما يضرّهُ فيهما. بل المرادُ من خلقِ السماءِ والأرضِ وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعينَ الخلقُ بها على الوصولِ إلى الله، ولا وصولَ إليهِ إلّا بمحبّتِه والأُنسِ به في الدنيا، والتجافي عن الدنيا وغرورِها ولذّاتها وعلائقها، ولا أُنسَ إلّا بدوامِ الذكرِ ولا محبّةَ إلّا بالمعرفةِ الحاصلةِ بدوامِ الفكرِ، ولا يمكنُ الذكرُ والفكرُ إلّا ببقاءِ البدنِ، ولا يبقى البدنُ إلّا بالأرضِ والماءِ والهواءِ والنارِ، ولا يتمُّ ذلك إلّا بخلقِ الأرض والسماءِ وخلقِ سائرِ الأشياءِ، وكلّ ذلك لأجلِ البدنِ. والبدنُ مطيّةُ النفسِ. والنفسُ الراجعةُ إلى الله هي المطمئنّةُ بطولِ العبادةِ والمعرفةِ، فكلّ مَن استعملَ شيئاً في غيرِ طاعةِ الله فقد كفَرَ نعمةَ الله في جميع الأسبابِ التي لابدّ منها لإقدامه علىٰ تلك المعصية.

ثمّ بما ذكرناه، وإن ظهرَ أنّ حقيقةَ الشكرِ ملتئمةٌ من الأُمور الثلاثة، إلّا أنّه قد يُطلقُ الشكرُ علىٰ كلّ واحدٍ أيضاً، كما قال الصادق عليه السلام: «شكرُ كلِّ نعمةٍ وإنْ عظمتْ أنْ تحمدَ الله عليها»[١]،

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٩٥، باب الشكر، ح ١١.

وقال عليه السلام: «شكرُ النعم اجتنابُ المحارم، وتمامُ الشكرِ قولُ الرجل: الحمدُ للهِ ربِّ العالمين»[١].

[١] وسُئل عنه عليه السلام: هلْ للشكرِ حَدٌّ إذا فعله العبدُ كان شاكراً؟ قال: «نعم» قيل: ما هو؟ قال: «يحمدُ الله علىٰ كلّ نعمةٍ عليه في أهلٍ ومالٍ وإنْ كان فيما أنعم عليه في مالهِ حقٌّ أدّاهُ، ومنه قوله جلّ وعزّ: ﴿سُبْحَـٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[٢]. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْـمُنْزِلِينَ﴾[٣]. وقوله: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَـٰناً نَصِيراً﴾[٤]»[٥].

[٢] كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله إذا وردَ عليه أمرٌ يسرُّهُ، قال: الحمدُ لله علىٰ هذه النعمةِ. وإذا وردَ عليه أمرٌ يغتمُّ به، قال: الحمدُ لله علىٰ كلِّ حالٍ[٦].

[٣] إذا ذكرَ أحدُكم نعمةَ الله، فليضعْ خدّهُ علىٰ التُرابِ شُكراً لله، فإنْ كان راكباً فلينزلْ وليضعْ خدّهُ على التُراب، وإن لم يكنْ يقدِرُ على النزولِ للشهرةِ فليضعْ خدّهُ علىٰ قربوسه[٧]، وإنْ لم يقدرْ فلْيضعْ خدّهُ علىٰ كفِّهِ، ثمّ ليحمدِ اللهَ علىٰ ما أنعمَ عليه[٨].

ثمّ الشكرُ باللسانِ لإظهارِ الرضى من الله، ولذا أمرَ به. وقد كان السلفُ يتساءلونَ بينهم، ونيّتهم استخراج الشكرِ لله، ليُوجَرَ كلُّ واحدٍ من الشاكرِ والسائلِ. وقد روي:

أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال لرجلٍ: «كيفَ أصبحتَ؟» فقال: بخيرٍ. فأعادَ عليه السؤالَ، فأعادَ عليه الجوابَ، فأعادَ السؤالَ ثالثةً، فقال: بخيرٍ، أحمدُ اللهَ وأشكرُهُ. فقال صلى الله عليه وآله: «هذا الذي أردتُ منك»[٩].

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٩٥، باب الشكر، ح ١٠.
٢. الزخرف (٤٣): ١٣.
٣. المؤمنون (٢٣): ٢٩.
٤. الإسراء (١٧): ٨٠.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٩٥ ـ ٩٦، باب الشكر، ح ١٢.
٦. الكافي، ج ٢، ص ٩٧، باب الشكر، ح ١٩.
٧. القَرَبوس: حنو السرج، أي قسمه المقوّس المرتفع من قدّام المقعد ومن مؤخّره.
٨. الكافي، ج ٢، ص ٩٨، باب الشكر، ح ٢٥.
٩. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

ولنذكر ما يتعلّق بالشكر في أُمور:

الأمر الأوّل: فضيلةُ الشكرِ

الشكرُ أفضلُ منازلِ الأبرارِ، وعمدةُ زادِ المسافرينَ إلىٰ عالمِ الأنوار، وهو موجبٌ لدفعِ البلاءِ وازديادِ النعماءِ. وقد وردَ به الترغيبُ الشديدُ، وجعلَهُ الله سبَباً للمزيدِ. قال الله سبحانه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [١] و ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [٢] و ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [٣] و ﴿وَسَنَجْزِي الشَّٰكِرِينَ﴾ [٤].

ولكونِه غايةَ الفضائلِ والمقاماتِ، ليس لكلّ سالكٍ أن يصلَ إليه، بل ليس الوصولُ إليه إلّا لأوحَديّ من كُمّلِ السالكينَ. ولذا قال الله ربّ العالمين: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [٥]. وكفىٰ به شرفاً وفضلاً أنّه خُـلُـقٌ من أخلاق الربوبيّة، كما قال الله سبحانه: ﴿وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [٦]. وهو فاتحةُ كلامِ أهلِ الجنّةِ وخاتمتُهُ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [٧]. وقال: ﴿وَآخِرُ دَعْوَٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ [٨]. وقال السجّادُ عليه السلام: «إنّ الله سبحانهَ يحبّ كُلَّ عبدٍ حزينٍ، ويحبّ كُلّ عبدٍ شكورٍ» [٩]. وقال الباقر عليه السلام:

كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله عند عائشةَ ليلتَها، فقالتْ: يا رسولَ الله، لِمَ تُتْعِبُ نفسَك وقد غفرَ الله لكَ ما تقدّمَ من ذنبكَ وما تأخَّرَ؟ فقال: «يا عائشةُ! ألا أكونُ عبداً شكوراً؟ ...» قال: وكان يقوم على أطرافِ أصابع رجليه، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ: ﴿طه *

١. النساء (٤): ١٤٧.
٢. إبراهيم (١٤): ٧.
٣. البقرة (٢): ١٥٢.
٤. آل عمران (٣): ١٤٥.
٥. سبأ (٣٤): ١٣.
٦. التغابن (٦٤): ١٧.
٧. الزمر (٣٩): ٧٤.
٨. يونس (١٠): ١٠.
٩. الكافي، ج٢، ص٩٩، باب الشكر، ح ٣٠.

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾[1] .[2]

وقال الصادق عليه السلام:

[١] ما أنعم الله علىٰ عبدٍ من نعمةٍ فَعَرفَها بقلبهِ وحَمِدَ الله ظاهراً بلسانِه، فتمّ كلامُه، حتّىٰ يُؤمرَ له بالمزيدِ[3].

[٢] وتمامُ الشكرِ الاعترافُ بلسانِ السرِّ، خاضعاً لله بالعجزِ عن بلوغ أدنىٰ شكرِهِ، لأنّ التوفيقَ للشكرِ نعمةٌ حادثةٌ يجبُ الشكرُ عليها، وهي أعظمُ قدراً وأعزّ وجوداً من النعمةِ التي من أجلِها وفّقتْ له، فيلزمُك علىٰ كلّ شكرٍ شكرٌ أعظمُ منه، إلىٰ ما لا نهاية له، مستغرِقاً في نعمِهِ، قاصراً عاجزاً عن دركِ غايةِ شكرِه[4].

ثمّ كما أنّ الشكرَ من المنجياتِ الموصلةِ إلىٰ سعادةِ الأبدِ وزيادةِ النعمةِ في الدنيا، فضدّهُ ـ أعني الكفرانَ ـ من المهلكاتِ المؤدّيةِ إلىٰ شقاوةِ السرمدِ وعقوبةِ الدنيا وسلبِ النعمِ. قال الله سبحانه: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[5] و ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[6]. وقال الصادق صلوات الله عليه «اشكرْ من أنعمَ عليك، وأنعِمْ علىٰ مَنْ شكرَكَ، فإنّه لا زوالَ للنعماءِ إذا شُكِرَتْ، ولا بقاءَ لها إذا كُفِرَتْ، الشكرُ زيادةٌ في النعمِ، وأمانٌ من الغِيَرِ»[7]، أي من التغيير.

الأمر الثاني: الشكرُ نعمةٌ يجبُ شكرُها

لمّا كانت حَقيقةُ الشكرِ عبارةٌ عن عرفانِ كلّ النعمِ من الله مع صرفِها في جهةِ محبّةِ الله،

---

١. طه (٢٠): ١ ـ ٢.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٩٥، باب الشكر، ح ٦.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٩٥، باب الشكر، ح ٩.

٤. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٥٢، باب الشكر، ح ٧٧؛ مصباح الشريعة، ص ٥٣ ـ ٥٩، الباب ٦.

گر سر هر موی من يابد زبان شكرهای تو نيايد در بيان

(معراج السعادة، ص ٤١٦)

٥. النحل (١٦): ١١٢.

٦. الرعد (١٣): ١١.

٧. الكافي، ج ٢، ص ٩٤ باب الشكر، ح ٣.

فالشكرُ علىٰ كلّ نعمةٍ أن تعرفَ كونَها من الله وتصرفَها في جهةِ محبّتِه. ولا ريبَ في أنّ هذه المعرفةَ والصرفَ أيضاً نعمةٌ من الله، إذ جميعُ ما نتعاطاهُ باختيارِنا نعمةٌ من الله؛ لأنّ جوارحَنا وقدرتَنا وإرادتَنا ودواعِيَنا وإفاضةَ المعارفِ علينا، وسائرَ الأُمورِ التي هي أسبابُ حركاتِنا، بل نفسُ حركاتِنا، من الله.

وعلىٰ هذا فالشكرُ علىٰ كلّ نعمةٍ نعمةٌ أُخرىٰ من الله تحتاجُ إلىٰ شكرٍ آخرَ، وهو أن يعرفَ أنّ هذا الشكرَ أيضاً نعمةٌ من الله سبحانه، فيفرحُ به ويعملُ بمقتضىٰ فرحِـهِ. وهـذه المـعرفةُ والفرحُ تحتاجُ إلىٰ شكرٍ آخرَ. وهكذا، فلابدّ من الشكرِ في كلّ حالٍ، وليس يمكن أن تـنتهي سلسلةُ الشكرِ إلىٰ ما لا يحتاجُ إلىٰ شكرٍ.

فغايةُ شكرِ العبدِ أنْ يعرفَ عجزَهُ عن أداءِ حقِّ شكرِه تعالىٰ. ويشهد بذلك ما أوحىٰ إلىٰ داودَ، حيث سأله: «يا ربّ كيفَ أشكرُكَ وأنا لا أستطيعُ أنْ أشكرَكَ إلّا بنعمةٍ ثانيةٍ من نعمِكَ». وفي لفظ آخر: «وشكري لكَ نعمةٌ أُخرىٰ منكَ، وتوجبُ عليّ الشكرَ لكَ». فقال: «إذا عرفتَ هذا فقد شكرتَني»[١]. وفي خبرٍ آخر: «إذا عرفتَ أنّ النِعمَ منّي، رضِيتُ عنكَ بذلك شكراً»[٢]. وروي: أنّ السجّادَ عليه السلام كان إذا قرأ هذه الآية ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[٣] يـقول: «سبحانَ مَنْ لم يجعلْ في أحدٍ من معرفةِ نعمِهِ إلّا المعرفةَ بالتقصيرِ عن معرفتِها!»[٤].

كما لم يجعلْ في أحدٍ من معرفةِ إدراكِهِ أكثرَ من العلم بأنّه لا يدْركهُ، فشكرُهُ تعالىٰ معرفةُ العارفينَ بالتقصيرِ عن معرفةِ شكرِهِ، فجعلَ معرفتَهم بالتقصيرِ شُكراً، كما عَلِمَ عِلْمَ العارفين بأنّهم لا يُدركونَه، فجعلَهُ إيماناً، علماً منه أنّه قد وسع العبادَ فلا يتجاوزُ ذلك.

الأمر الثالث: المدركُ لتميزِ محابّ الله عن مكارهِه

لمّا عرفتَ أنّ الشكرَ عبارةٌ عن استعمال نعم الله فيما يحبّه، والكفرانَ عبارةٌ عن نقيضِ ذلك ـ

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٥٢.

٣. إبراهيم (١٤): ٣٤.

٤. الكافي، ج ٨، ص ٣٢٢، ح ٥٩٢.

أعني تركَ استعمالِها فيه أو استعمالها فيما يكرهُه ـ فلابدَّ من معرفةِ ما يحبُّه وما يكرهُهُ، وتمييزُ مَحابِّه عن مَكارهِهِ، حتّىٰ يتمكّنَ من أداءِ الشكرِ وتركِ الكفرانِ، لتوقّفهما علىٰ معرفتهما وتمييزهما. وهذا التمييزُ والتعريفُ له مدركان:

أحدهما: الشرعُ، فإنّه كشفَ عن جميع ما يحبّهُ وما يكرهُهُ، وعبّر عن الأوّل بالواجباتِ والمندوباتِ، وعن الثاني بالمحرّماتِ والمكروهاتِ.

فمعرفةُ ذلك موقوفةٌ علىٰ معرفةِ جميع أحكام الشرعِ في أفعال العبادِ، فمن لم يطّلعْ علىٰ حكمِ الشرعِ في جميع أفعاله، لم يمكنهُ القيامُ بحقّ الشكر.

وثانيهما: العقلُ والنظرُ بعين الاعتبارِ؛ فإنّ العقلَ متمكّنٌ ـ في الجملة ـ من أنْ يدركَ بعضَ وجوهِ الحكمِ في بعضِ الموجوداتِ. فإنّ الله سبحانه ما خلقَ شيئاً في العالم إلّا وفيه حِكَمٌ كثيرةٌ، وتحتَ كلّ حكمةٍ مقصودٌ ومصلحةٌ، وهذا المقصودُ والمصلحةُ هو محبوبُ الله تعالىٰ فمن استعملَ كلّ شيء على النحو الذي يُؤدّي إلى المقاصدِ المطلوبة وعلى الجهةِ التي خلقَ لها فقد شكرَ نعمَ الله تعالىٰ، وإن استعمل شيئاً على النحو الذي لم يؤدّ إلى المقصودِ منه أو في جهةٍ غيرِ الجهةِ التي خُلقَ لها فقد كفرَ نعمةَ الله.

ثمّ ما عدا الإنسانَ من الأشياءِ المجرّدةِ والماديّةِ، الروحانيّةِ والجسمانيّةِ، جاريةٌ علىٰ وفقِ الحكمةِ، ومستعملةٌ ذواتها وأجزاؤها وما يتعلّقُ بها على الوجهِ الذي هو مقتضىٰ المصلحةِ المقصودةِ منها. وأمّا الإنسانُ، فلكونهِ محلّ الاختيارِ ومجراه، فقد يجري ويستعملُ الأشياءَ التي يتمكّن من استعمالِها علىٰ خلافِ ذلك، فيكون كافراً بنعمةِ الله سبحانه. فمن ضربَ غيرَه بيده فقد كفرَ نعمةَ الله في اليد، إذ خُلقتْ له اليدُ ليدفعَ بها عن نفسهِ ما يُؤذيه، ويأخذَ ما ينفعُه، لا ليُهلكَ به غيرَه. ومَنْ نظرَ إلىٰ وجهِ غيرِ المحرمِ فقد كفرَ نعمةَ العينِ؛ لأنّها خلقتْ ليبصرَ بها ما ينفعُه في دينه ودنياه، ويتّقي بها ما يضرّه فيهما. ومَن ادّخر الدراهمَ والدنانيرَ وحبسهما فقد كفرَ نعمةَ الله فيهما.

وإذا عرفتَ ذلك، فقسْ عليه جميعَ أفعالِكَ وأعمالِكَ وحركاتِكَ وسكناتِكَ؛ فإنّ كلَّ فعلٍ يصدرُ منكَ إمّا شكرٌ أو كفرانٌ لا يُتصوّرُ أنْ ينفكّ عنهما، مثلاً لو استنجيتَ باليمين، فقد كفرتَ

نعمةَ اليدين، إذ خلقَ الله اليدين وجعلَ إحداهما أقوىٰ، واستحقَّ الأقوى لرجحانهِ التفضيلَ، وتفضيلُ الناقصِ عليه عدولٌ عن العدلِ. وهذا التفضيلُ إنّما يُتصوّرُ بأنّ تصرفَ الأقوىٰ في الأفعال الشريفةِ، كأخذِ المصحفِ وأكلِ الطعامِ، وتصرفَ الأضعفَ في الأعمال الخسيسةِ، كإزالةِ النجاسةِ، فمن خالَفَ ذلك فقد عدلَ عن العدلِ وأبطلَ الحكمَةَ وكفرَ النعمةَ.

وكذلك إنِ استقبلتَ القبلةَ عند قضاءِ الحاجةِ، فقد كفرتَ نعمةَ الله في خلقِ الجهاتِ وخلقِ سعةِ العالمِ؛ لأنّه خلقَ الجهاتِ متعدّدةً متّسعةً، وشرَّفَ بعضَها بأنْ وضعَ فيها بيته، فينبغي استقبالُهُ بالأفعالِ الشريفةِ، كالصلاةِ والجلوسِ للذكرِ والاغتسالِ والوضوءِ، دون الأفعال الخسيسةِ، كقضاءِ الحاجة ورمي البُزاقِ، فمن قضىٰ حاجتَهُ أو رمىٰ بُزاقَهُ إلىٰ جهةِ القبلةِ فقد ظلمَها وكفرَ نعمةَ الله.

وكذلك مَنْ كسرَ غُصناً من شجرةٍ من غيرِ حاجةٍ مهمّةٍ، ومَنْ غير غرضٍ صحيحٍ، فقد كفرَ نعمةَ الله في خلقِ الأشجارِ وفي خلقِ اليد. أمّا اليدُ فلأنّها لم تخلقْ للعبثِ، بل للطاعةِ المعيّنةِ عليها. وأمّا الشجرُ؛ فلأنّ الله تعالىٰ خلقَهُ، وخلقَ له العروقَ وساقَ إليه الماءَ، وخلقَ فيه قُوّةَ الاغتذاءِ والنماءِ ليبلغَ مُنتهى نُشُوئِهِ فينتفعَ به عبادُهُ، فكسْرُهُ قبل منتهىٰ نُشُوئِهِ لا علىٰ وجهٍ ينتفعُ به عبادُهُ مخالفةٌ لمقصودِ الحكمَةِ وعدولٌ عن العدالةِ. نعم إنّ كانَ له غرضٌ صحيحٌ في كسرِهِ فلهُ ذلك. إذ الشجرُ والحيوانُ جُعلا فداءين لأغراضِ الإنسانِ، فإنّهما جميعاً فانيان هالكان. فإفناءُ الأخسِّ في بقاءِ الأشرفِ مدّةً ما أقربُ إلى العدلِ من تضييعهما جميعاً. وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾[١].

وقد ظهرَ ممّا عرفتَ من توقُّفِ كُلّ نعمةٍ علىٰ نعمٍ كثيرةٍ متسلسِلةٍ، إلى أنْ ينتهي إلى الله، واتّصالِ البعضِ بالبعضِ ووقوعِ الارتباطِ والترتُّبِ بينهما: أنّ مَنْ كفرَ نعمةَ اللهِ فقد كفرَ كلَّ نعمةٍ في الوجودِ، فمنْ نظرَ إلىٰ غير محرم ـ مثلاً ـ فقد كفرَ. ففتحُ العينِ نعمةُ الله في الأجفانِ، ولا تقومُ الأجفانُ إلّا بالعين، ولا العينُ إلّا بالرأسِ، ولا الرأسُ إلّا بجميعِ البدنِ، ولا البدنُ إلّا

١. الجاثية (٤٥): ١٣.

بالغذاءِ، ولا الغذاءُ إلّا بالماءِ والأرضِ والهواءِ والمطرِ والغيمِ والشمسِ والقمرِ وسائرِ الكواكبِ، ولا يقومُ شيءٌ من ذلك إلّا بالسماواتِ ولا السماواتُ إلّا بالملائكةِ. فإنّ الكلَّ كالشيءِ الواحدِ، يرتبطُ البعضُ منه بالبعضِ ارتباطَ أعضاءِ البدنِ بعضِها ببعضٍ. فإذن قد كفرَ كلَّ نعمةٍ في الوجود، من ابتداء الثرىٰ إلىٰ منتهى الثُريّا. وحينئذ لا يبقىٰ جمادٌ ولا نباتٌ ولا حيوانٌ، ولا ماءٌ ولا هواءٌ، ولا كوكبٌ ولا فلكٌ ولا ملكٌ، إلّا يلعنُهُ. ولذلكَ وردَ في الأخبار: «إنّ البقعةَ التي يجتمع فيها الناسُ، إمّا تلعنُهم إذا تفرّقوا، أو تستغفرُ لهم»[1]. وكذلك وردَ: «إنّ الملائكةَ يلعنونَ العُصاةَ»[2]. وورد: «إنّ العالمَ يستغفرُ له كلُّ شيء، حتّى الحوتُ في البحرِ»[3]. وأمثال هذه الأخبارِ الدالّةِ علىٰ ما يُفيدُ المرادَ خارجة بطرقها عن الإحصاءِ، وكُلّ ذلك إشارةٌ إلىٰ أنّ العاصي بتطريفة واحدةً يجني علىٰ جميع المُلكِ والملكوتِ.

ثمّ جميعُ ما ذكرناهُ إنّما يتعلّقُ بجزءٍ من المطعم، فاعتبرْ ما سواه. ثمّ تأمّلْ هل يمكنُ أنْ يخرجَ أحدٌ عن عهدةِ الشكرِ؟ كيف ولله في كلّ طرفةٍ علىٰ كلّ عبدٍ من عبيده نِعمٌ كثيرةٌ خارجةٌ عن الإحصاء؟ فإنّ في كلّ نَفَسٍ ينبسطُ وينقبضُ نعمتين، إذ بانبساطهِ يخرجُ الدُخانُ المحترقُ من القلبِ، ولو لم يخرجْ هلكَ، وبانقباضهِ يجتمعُ روحُ الهواءِ إلى القلبِ، ولو لم يدخلْ نسيمُ الهواء فيه لانقطعَ قلبُه وهلكَ. ولمّا كان اليومُ والليلةُ أربعاً وعشرين ساعةً، وفي كلّ ساعةٍ يوجدُ ألفُ نفَسٍ تخميناً، وإذا اعتبرتَ ذلك وقستَ عليه سائرَ النعم، يكونُ عليكَ في كلّ يومٍ وليلةٍ آلافُ أُلوفِ نعمةٍ في كلّ جزءٍ من أجزاءِ بدنِكَ، بل في كلّ جزءٍ من أجزاءِ العالم، وكيف يمكنُ إحصاءُ ذلك، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[4]. وورد: «أنّ مَنْ لم يعرفْ نعمةَ الله إلّا في مطعمهِ ومشربهِ، فقد قلّ علمُه وحضر عذابه»[5]. فالبصيرُ لا تقع عينُه في العالم علىٰ شيءٍ، ولا يلمُّ خاطرُه بموجود، إلّا ويتحقّقُ أنّ لله فيه نعمةً عليه.

---

١. المحجّة البيضاء، ج٦، ص٢١٦.

٢. المحجّة البيضاء، ج١، ص ٢٣ ـ ٢٤.

٣. المحجّة البيضاء، ج٧، ص ٢١٦.

٤. إبراهيم (١٤) ٣٤.

٥. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٢١٧.

الأمر الرابع: الأسبابُ الصارفةُ للشكرِ

اعلم أنّ السببَ الصارفَ لأكثرِ الخلقِ عن الشكرِ، إمّا قصورُ معرفتِهم بأنّ النِعَمَ كلَّها من الله سبحانه، أو قصورُ معرفتِهم وإحاطتِهم بصنوفِ النعمِ وآحادِها، أو جهلُهم بحقيقةِ الشكرِ وكونِه استعمالَ النعمةِ في إتمامِ الحكمةِ التي أُريدتْ بها، وظنُّهم أنّ حقيقةَ الشكرِ مجرّدُ أنْ يقولوا بلسانِهم: الحمدُ لله أو الشكرُ لله، أو الغفلةُ الناشئةُ عن غلبةِ الشهوةِ واستيلاءِ الشيطانِ بحيثُ لا يتنبّهونَ للقيام بالشكرِ، كما في سائرِ الفضائلِ والطاعاتِ، أو عدمُ احتسابِهم ـ للجهلِ ـ ما يعمّ الخلقَ ويشملُهم في جميع الأحوالِ من النعمِ نعمةً.

ولذلك لا يشكرونَ علىٰ جملةٍ من النعمِ، لكونها عامّةً للخلق، مبذولةً لهم في جميع الحالاتِ. فلا يرىٰ كلُّ واحدٍ لنفسه اختصاصاً بها، فلا يعدّها نعمةً. وتأكّد ذلك بإلْفِهم واعتيادِهم بها، فلا يتصوّرون خلافَ ذلك، ويظنّونَ أنّ كُلّ إنسان يلزمُ أن يكونَ علىٰ هذه الأحوالِ. فلذلك تراهم لا يشكرونَ الله علىٰ روحِ الهواءِ، ووفورِ الماء، وصحّةِ البصرِ والسمعِ، وأمثال ذلك. ولو أخذَ بحقّهم، حتّى انقطعَ عنهم الهواءُ، وحُبسوا في بيت حمّام فيه هواءٌ حارّ، أو بئرٍ فيها هواءٌ تقبل رطوبة الماء، ماتوا. فإنْ ابتُلِيَ واحدٌ بشيءٍ من ذلك، ثمّ نجا منه، ربّما قدّرَ ذلك نعمةً وشكرَ الله عليه. وكذا البصير، إذا عميَتْ عينُه ثمّ أُعيدَ عليه بصرُهُ عدّه نعمةً وشكرَهُ، ولو لم يبتلِ بالعمىٰ وكان بصيراً دائماً كان غافلاً عن الشكر. وهذا غايةُ الجهلِ، إذ شكرهم صار موقوفاً على أن تُسلبَ منهم النعمةُ ثمّ تُردُّ عليهم في بعضِ الأحوالِ، مع أنّ النعمةَ في جميعِ الأحوالِ أولىٰ بالشكرِ. فلمّا كانتْ رحمةُ الله واسعةً قد عمّتِ الخلقَ في جميع أحوالِهم لم يعدَّها الجاهلونَ نعمةً. ومثلهم كمثلِ العبدِ السوءِ الذي لو لم يُضرَبْ بطرَ وتركَ الشكرَ، وإذا ضُربَ في غالبِ الأحوالِ تركَ ساعة شكرَ المولىٰ علىٰ ذلك. ومَنْ تأمّلَ يعلمُ أنّ نعمةَ الله عليه في شُربةِ ماءٍ عند عطشهِ أعظمُ من مُلْكِ الأرضِ كلّها. كما نقل:

إنّ بعضَ العلماءِ دخلَ علىٰ بعضِ الخلفاءِ، وفي يده كوزُ ماءٍ يشربُه، فقال له: عظني. فقال: لو لم تُعْطَ هذه الشربةَ إلّا بِبذْلِ أموالِكَ ومُلْكِكَ كلِّه، ولو لم تعطهُ بقيت

عطشاناً، فهل تعطيه؟ قال: نعم! قال: فكيف تفرحُ بملْكٍ لا يُساوي شُربةَ ماء![١]

هذا مع أنّ كلّ عبدٍ لو أمعنَ النظرَ في حالهِ لرأىٰ من الله نعمةً أو نِعَماًكثيرةً تخصّه لا يشاركهُ فيها أحدٌ، أو يشاركهُ يسيرٌ من الناس، إمّا في العقل، أو في الخلق، أو في الورع والتقوىٰ، أو الدين، أو في صورته وشخصه، أو أهلهِ وولدِهِ، أو مسكنِه وبلدِه، أو رفقائهِ وأقاربهِ، أو عزّهِ وجاههِ، أو طولِ عمرهِ وصحّةِ جسمهِ، أو غيرِ ذلك من محابّه. بل نقول: لو كان أحدٌ لا يكون مخصوصاً بشيءٍ من ذلك، فلا ريبَ في أنّه يعتقدُ في نفسهِ اختصاصَهُ ومزّيتَهُ في بعضِ هذه علىٰ سائرِ الخلقِ، فإنّ أكثرَ الناس يعتقدونَ كونَهم أعقلَ الناس، أو أحسنَ أخلاقاً منهم، مع أنّ الأمرَ ليس كذلك. ولذلكَ لا يشكونَ من نقصانِ العقل كما يشكونَ من قلّةِ المالِ، ولا يسألونَ الله أنْ يعطيَهم العقلَ كما يسألونَ منه زيادةَ المالِ، ويرىٰ من غيره عيوباً يكرهُها وأخلاقاً يذمُّها، ولا يرىٰ ذلك منْ نفسهِ.

وإذاكان الأمرُ هكذا، فأنّى له لا يشكرُ الله علىٰ ذلك مع قطعِ النظرِ عن النعمِ العامّة؟ ولو لم يكنْ لشخصٍ من نِعمِ الله إلّا الأمنُ والصحّةُ والقوّةُ، لعظمتِ النعمةُ في حقّهِ، ولم يخرجْ عن عُهدَةِ الشكرِ. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أصبحَ آمناً في سربهِ، معافىً في بدنه، وعنده قوتُ يومهِ، فكأنّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرِها»[٢]. ومهما فَتّشْتَ الناسَ لوجدتَهم يشكونَ عن أُمورٍ وراءَ هذه الثلاثِ، مع أنّها وبالٌ عليهم. بل لو لم تكنْ للإنسانِ نعمةٌ سوى الإيمانِ الذي به وصولُه إلى النعيمِ المقيمِ والملكِ العظيمِ، لكانَ جديراً به أنْ يستعظمَ النعمةَ ويصرفَ في الشكرِ عُمرَه. بل ينبغي للعاقل ألّا يفرحَ إلّا بالمعرفةِ واليقينِ والإيمانِ. ونحنُ نعلمُ من العلماءِ من لو سُلّم إليه جميعُ ما دخلَ تحتَ ملوكِ الأرضِ من الشرقِ إلى الغربِ، من أموال وأتباعٍ، وأنصارٍ وبلدانٍ وممالكَ، بدلاً عن عُشْرِ عشيرٍ من علمه لم يأخذْه؛ لرجائهِ أنّ نعمةَ العلمِ تُفضي به إلى قُربِ الله تعالىٰ في الآخرةِ. بل لو سُلّمَ إليه جميعُ ذلك عوضاً عن لذّةِ العلمِ في الدنيا، مع نيلهِ في

١. المحجّة البيضاء، ج٧، ص٢١٩.

٢. إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٧٠.

الآخرةِ ما يرجوهُ لم يأخذْه ولم يرضَ به؛ لعلمه بأنّ لذّةَ العلم دائمةٌ لا تنقطعُ، وثابتةٌ لا تُسرقُ ولا تُغصبُ، وصافيةٌ لا كدورةَ فيها، بخلافِ لذّاتِ الدنيا.

الأمر الخامس: طريقُ تحصيلِ الشكرِ

الطريقُ إلىٰ تحصيلِ الشكرِ أُمورٌ:

الأوّلُ: المعرفةُ والتفكّرُ في صنائعِه تعالىٰ، وضروبِ نعمهِ الظاهرةِ والباطنةِ والعامّةِ والخاصّةِ.

الثاني: النظرُ إلى الأدنى في الدنيا وإلىٰ الأعلىٰ في الدين.

الثالث: أن يحضرَ المقابرَ، ويتذكّرَ أنّ أحبَّ الأشياءِ إلى الموتى وأهمَّ سؤالِهم ودعائِهم من الله أنْ يُردّوا إلى الدنيا، ويتحمّلوا ضروبَ الرياضاتِ ومشاقّ العباداتِ في الدنيا؛ ليتخلّصوا في الآخرةِ من العذابِ، أو يزيدَ ثوابُهم وترتفعَ درجاتُهم. فليقدّرْ نفسَه منهم مع إجابة دعوتِه وردِّهِ إلى الدنيا، فليصرفْ بقيّةَ عمرهِ فيما يشتهي أهلُ القبورِ العودَ لأجلِه.

الرابعُ: أنْ يتذكّرَ بعضَ ما ورد عليه في بعضِ أيّام عمره من المصائبِ العظيمةِ والأمراضِ الصعبةِ التي ظنّ هلاكَ نفسهِ بها، فليتصورْ أنّه هلكَ بها، ويغتنمَ الآنَ حياتَه ومالَه من النعمِ، فلْيشكرِ الله علىٰ ذلك، ولا يتألّمْ ولا يحزنْ من بعضِ ما يردُ عليه ممّا ينافي طبعَه.

الخامسُ: أنْ يشكرَ في كلّ مصيبةٍ وبليّةٍ من مصائب الدنيا من حيث إنّه لم تصبْه مصيبةٌ أكبرُ منها، وإنّه لم تصبْه مصيبةٌ في الدين؛ ولذلك قال عيسىٰ عليه السلام في دعائه: «اللهمّ لا تجعلْ مُصيبتي في ديني»[1]. ومن حيثُ إنّ كلّ مصيبةٍ إنّما هي عقوبةٌ لذنبٍ صدرَ منه، فإذا حلّتْ به هذه العقوبةُ حصلتْ له النجاةُ من عقوبة الآخرةِ، كما قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ العبدَ إذا أذنبَ ذنباً فأصابتْهُ شدّةٌ أو بلاءٌ في الدنيا، فالله أكرمُ من أنْ يُعذّبَه ثانياً»[2]. وقد ورد هذا المعنىٰ بطرقٍ متعدّدةٍ من أئمّتنا عليهم السلام أيضاً، فليشكرِ اللهَ علىٰ تعجيلِ عقوبتهِ وعدمِ تأخيرِها إلى الآخرةِ. ومن

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٢٢٧.

٢. راجع: الكافي، ج ٢، ص ٤٤٤، باب تعجيل عقوبة الذنب.

حيثُ إنّ هذهِ المصيبةَ كانت مكتوبةً آتيةً إليه ألبتّةَ، فقد أتَتْ وفُرِغَ منها. ومن حيث إنَّ ثوابَها أكثرُ منها وخيرٌ له، لما يأتي في بحث الصبر من عظم مثوباتِ الابتلاءِ بالمصائبِ في الدنيا. ومن حيثُ إنّها تنقصُ في القلبِ حبَّ الدنيا والركونَ إليها، وتشوّقُ إلى الآخرةِ وإلى لقاءِ الله سبحانه. إذ لا ريبَ في أنّ من آتاهُ النعمَ في الدنيا علىٰ وفقِ المرادِ، من غيرِ امتزاجٍ ببلاءٍ ومصيبةٍ، يورثُ طمأنينةَ القلبِ إلى الدنيا وأُنساً بها، حتّىٰ تصيرَ كالجنّةِ في حقّه، فيعظمُ بلاؤهُ عند الموتِ بسببِ مفارقتِهِ، وإذا كثرتْ عليه المصائبُ انزعجَ قلبُه عن الدنيا ولم يأنسْ بها، وصارتْ الدنيا سجناً عليه، وكانت نجاتُه منها كالخلاصِ من السجن. ولذلك قال رسولُ الله ﷺ: «الدنيا سجنُ المؤمنِ وجنّةُ الكافر»[١]. فمحنُ الدنيا ومصائبُها ورياضاتُها توجبُ انزعاجَ النفسِ عنها، والتفاتَها إلىٰ عالمها الأصلي، وتشوّقَها إلى الخروجِ عنها إليه، ورغبتَها إلىٰ لقاءِ الله وما أعدَّ في الدارِ الآخرةِ لأهلِها.

الأمر السادس: الصحّةُ خيرٌ من السقَم

لا تظنّنَّ ممّا قرعَ سمعَك من فضيلةِ البلاءِ وأدائه إلىٰ سعادةِ الأبدِ أنّه خيرٌ من العافيةِ في الدنيا، بل مع ذلك كلّه العافيةُ في الدنيا خيرٌ من البلاءِ والمصيبةِ فيها، فإيّاك أنْ تسألَ من الله البلايا والمصائبَ في الدنيا، فإنّ رسولَ الله ﷺ كان يستعيذُ في دعائهِ من بلاءِ الدنيا وبلاءِ الآخرةِ، وكان يقولُ هو والأنبياء والأوصياءُ عليهم السلام: «ربّنا آتِنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً»[٢]، وكانوا يستعيذونَ من شماتة الأعداءِ وسوءِ القضاء[٣]. وقال ﷺ: «سلوا الله العافيةَ، فما أُعطي عبدٌ أفضلَ من العافية إلّا اليقين»[٤]، وأشارَ باليقينِ إلىٰ عافيةِ القلبِ من الجهلِ والشكّ، وهو أعلىٰ وأشرفُ من عافيةِ البدنِ. وقال ﷺ في دعائه: «والعافيةُ أحبُّ إليّ»[٥].

---

١. المحجّة البيضاء، ج٧، ص ٢٢٩.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٢٣٥.
٣. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٢٣٥.
٤. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٢٣٥.
٥. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٢٣٦.

النوع الحادي والثلاثون: الْـجَـزَع

وهو إطلاقُ دواعي الهوىٰ من الاسترسال في رفع الصوت، وضربِ الخدودِ، وشقّ الجيوبِ، أو ضيقِ الصدرِ والتبرُّمِ والتضجُّرِ. وهو من نتائجِ ضعفِ النفسِ وصغرِها. ثمّ الجزعُ في المصائبِ من المهلكاتِ، لأنّه في الحقيقة إنكارٌ لقضاءِ الله، وإكراهٌ لحكمِه، وسخطٌ علىٰ فعلِه. ولذا قال رسولُ الله ﷺ: «الجزعُ عند البلاءِ تمامُ المحنةِ»[1]، وقال ﷺ: «إنّ عِظَمَ الجزاءِ مع عظمِ البلاءِ، وإنّ الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخطَ فله السخط»[2].

وبالجملة، العاقلُ يعلمُ أنّ الجزعَ في المصائبِ لا فائدةَ فيه، إذ ما قُدّرَ يكونُ، والجزعُ لا يردُّهُ. ولا ريبَ في أنّه يتركُ الجزعَ بعد مُضي مدّةٍ، فليتركْهُ أوّلاً حتّىٰ لا يضيعَ أجرُهُ.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٩٣، باب الصبر، ح ٤٦.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٢٥٣، باب شدّة ابتلاء المؤمن، ح ٨.

وصلٌ

ضدّ الجزع: الصبر

الصبرُ ثباتُ النفسِ وعدمُ اضطرابِها في الشدائدِ والمصائبِ، بأنْ تقاومِ معها، بحيث لا تُخرجُها عن سعةِ الصدرِ وما كانتْ عليه قبلَ ذلك من السرورِ والطمأنينةِ، فيحبسُ لسانَهُ عن الشكوىٰ، وأعضاءه عن الحركاتِ غيرِ المتعارفةِ. وهذا هو الصبرُ على المكروهِ، وضدّه الجزعُ. وله أقسامٌ أُخرُ لها أسماءٌ خاصّةٌ تُعَدُّ فضائلَ أُخَرَ: كالصبرِ في الحروب، وهو من أنواع الشجاعةِ، وضدّهُ الجبنُ. والصبرِ في كظم الغيظِ، وهو الحلمُ، وضدّهُ الغضبُ. والصبرِ علىٰ المشاقِّ، كالعبادةِ، وضدّهُ الفسقُ، أي الخروجُ عن العباداتِ الشرعيّة. والصبرِ علىٰ شهوةِ البطنِ والفرجِ من قبائحِ اللذّاتِ، وهي العفّةُ، وإليه أُشيرَ في قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[1]. وضدّهُ الشرَهُ. والصبرِ عن فضولِ العيش، وهو الزهدُ، وضدّهُ الحرصُ. والصبرِ في كتمان السرِ، وضدّهُ الإذاعةُ. والأوّلان، ـ كالصبرِ على المكروهِ ـ من فضائلِ قوّةِ الغضبِ. والثالث من نتائج المحبّةِ والخشيةِ. والبواقي من فضائلِ قوّةِ الشهوةِ. وبذلك يظهرُ: أنّ من عدّ الصبرَ مطلقاً من فضائلِ القوّةِ الشهويّةِ أو القوّةِ الغضبيّة إنّما أرادَ به بعضَ أقسامهِ.

ويظهرُ من ذلك: أنّ أكثرَ أخلاقِ الإيمان داخلٌ في الصبر. ولذلك لمّا سُئلَ رسولَ الله ﷺ

---

١. النازعات (٧٩) ٤٠ ـ ٤١.

عن الإيمان، قال: «هو الصبر»[١]، لأنّه أكثرُ أعماله وأشرفُها، كما قال: «الحجُّ عَرَفَةُ»[٢]. وقد عرّفَ مطلقُ الصبرِ بأنّهُ مقاومةُ النفسِ مع الهوىٰ، وبعبارةٍ أُخرىٰ: أنّه ثباتُ باعثِ الدين في مقابلةِ باعثِ الهوىٰ. وهاهنا أُمورٌ:

الأمر الأوّل: مراتبُ الصبرِ

الصبرُ على المكروهِ ومشاقّ العباداتِ وعن تركِ الشهواتِ، إنْ كانَ بيسرٍ وسهولةٍ فهو الصبرُ حقيقةً، وإنْ كان بتكلّفٍ وتعبٍ فهو التصبّرُ مجازاً. وإذا أدامَ التقوىٰ وقوي التصديقُ بما في العاقبةِ من الحسنىٰ، تيسّرَ الصبرُ ولم يكنْ له تعبٌ ومشقّةٌ، كما قال الله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[٣].

ومتى تيسّرَ الصبرُ وصارَ ملَكَةً راسخةً أورثَ مقامَ الرضى، وإذا أدامَ مقامَ الرضى أورثَ مقامَ المحبّةِ. وكما أنّ مقامَ المحبّةِ أعلىٰ من مقامِ الرضى، فكذلك مقامُ الرضى أعلىٰ من مقامِ الصبرِ؛ ولذلك قال رسولُ الله ﷺ: «اعبدِ اللهَ على الرضى، فإنْ لم تستطعْ ففي الصبرِ علىٰ ما تكرهُ خيرٌ كثيرٌ»[٤]. قال بعضُ العارفينَ:

أهلُ الصبرِ علىٰ ثلاثة مقامات:

الأوّلُ: تركُ الشكوىٰ، وهذه درجةُ التائبينَ؛

الثاني: الرضى بالمقدَّرِ، وهذه درجةُ الزاهدين؛

الثالث: المحبّةُ لما يصنعُ به مولاهُ، وهذه درجةُ الصدّيقين[٥].

وكأنّ هذا الانقسامَ مخصوصٌ بالصبرِ على المكروهِ من المصائبِ والمحنِ.

ثمّ باعثُ الصبرِ:

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٠٧.

٢. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٠٧.

٣. الليل (٩٢): ٥ ـ ٧.

٤. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٠٧.

٥. البداية والنهاية، ج ٨، ص ١٥١.

إمّا إظهارُ الثباتِ وطمأنينةُ القلبِ عند الناس؛ ليكونَ عندهم مرضيّاً، كما نُقِلَ عن معاوية: أنّه أظهرَ البشاشةَ، وتركَ الشكوىٰ في مرضِ موتِهِ، وقال:

وتَـجَلُّـدِي للشـامِتِينَ أُريهِـمُ		إنّي لرِيبِ الدَهرِ لا أتَـضَعْضَعُ[1]

وهذا صبرُ العوامّ، وهم الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرةِ غافلون.

أو توقُّعُ الثوابِ ونيلُ الدرجاتِ الرفيعةِ في دارِ الآخرةِ، وهذا صبرُ الزُهّادِ والمتّقينَ، وإليه الإشارةُ بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

أو الالتذاذُ والابتهاجُ بورودِ المكروهِ من الله سبحانه، إذ كلُّ ما يَرِدُ من المحبوبِ محبوبٌ، والمحبُّ يشتاقُ إلى التفاتِ محبوبِهِ، ويرتاحُ به، وإنْ كان ما يُؤذيه ابتلاءً وامتحاناً له، وهذا صبرُ العارفينَ، وإليه الإشارةُ بقوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[3]. وقد وردَ:

أنّ الإمامَ محمّد بن علي الباقر عليه السلام قال لجابر بن عبد الله الأنصاري ـ وقد اكتنفتْهُ عللٌ وأسقامٌ، وغلبهُ ضعفُ الهرم ـ: «كيف تجدُ حالَكَ؟» قال: أنا في حالِ الفقر أحبُّ إليّ من الغنىٰ، والمرضُ أحبُّ إليّ من الصحّةِ، والموتُ أحبُّ إليّ من الحياةِ. فقال الإمامُ عليه السلام: «أمّا نحنُ أهلَ البيتِ، فما يردُ علينا من الله من الفقرِ والغنى والمرضِ والصحّةِ والموتِ والحياةِ، فهو أحبُّ إلينا». فقام جابر، وقبّلَ بين عينيهِ، وقال: صدقَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله حيث قال لي: «يا جابر، ستدرك واحداً من أولادي اسمُهُ اسمي، يبقرُ العلومَ بقراً»[4].

الأمر الثاني: أقسام الصبر

---

١. البيت من الكامل، وهو لأبي ذؤيب الهذلي. أنظر المعجم المفصّل في شواهد اللغة العربيّة، ج ٤، ص ٣٠٥.
٢. الزمر (٣٩): ١٠.
٣. البقرة (٢): ١٥٥ ـ ١٥٧.
٤. مسكّن الفؤاد، ص ٨٢، بتفاوتٍ.

الصبرُ باعتبار حكمِهِ ينقسمُ إلى الأقسام الخمسة:

فالصبرُ عن الشهواتِ المحرّمةِ وعلىٰ مشاقِّ العباداتِ الواجبةِ فرضٌ وعلىٰ بعض المكارهِ وأداءِ المندوباتِ نفلٌ وعلى الأذيّة التي يحرمُ تحمُّلُها حرامٌ، كالصبرِ علىٰ قطعِ يدهِ، أو يدِ ولدِهِ، أو قصدِ حريمِهِ بشهوةٍ محظورةٍ، وعلى أذىً تنالُه بجهةٍ مكروهةٍ في الشرع. وبذلك يظهرُ أنّ كلَّ صبرٍ ليس محموداً، بل بعضُ أنواعه ممدوحٌ، وبعضُ أنواعه مذمومٌ، والشرعُ محكمٌ، فما حسّنَهُ حسنٌ، وما قبَّحهُ قبيحٌ.

الأمر الثالث: فضيلةُ الصبر

الصبرُ منزلٌ من منازلِ السالكينَ، ومقامٌ من مقاماتِ الموحّدينَ. وبه ينسلكُ العبدُ في سلكِ المقرّبين، ويصلُ إلىٰ جوارِ ربِّ العالمينِ. وقد أضافَ اللهُ أكثرَ الدرجاتِ والخيراتِ إليه، وذكرَهُ في نيفٍ وسبعينَ موضعاً من القرآن. ووصف اللهُ الصابرينَ بأوصافٍ، فقال عزّ مَنْ قائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[١]. فما من فضيلةٍ إلّا وأجرها بتقدير وحسابٍ إلّا الصبرَ، ولذا قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢]. ووعدَ الصابرين بأنّه معهم، فقال: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ﴾[٣]. وعلّق النصرةَ على الصبرِ، فقال: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[٤]. وجمع للصابرينَ الصلواتِ والرحمة والهدىٰ، فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[٥]. والأخبارُ المادحةُ له أكثرُ من أنْ تحصى. قال رسولُ الله ﷺ: «الصبرُ نصفُ الايمان»[٦].

وقال ﷺ: «الصبرُ كنزٌ من كنوزِ الجنّة»[٧]. وقال ﷺ: «الصبرُ من الايمانِ بمنزلةِ الرأسِ

---

١. السجدة (٣٢): ٢٤.

٢. الزمر (٣٩): ١٠.

٣. الأنفال (٨): ٤٦.

٤. آل عمران (٣): ١٢٥.

٥. البقرة (٢): ١٥٧.

٦. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٠٦.

٧. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٠٧.

من الجسدِ، ولا جسدَ لمن لا رأسَ له، ولا إيمان لمنْ لا صبرَ له»[١]، وسُئل صلى الله عليه وآله عن الإيمان، فقال: «الصبرُ والسماحةُ»[٢]. وقال صلى الله عليه وآله:

[١] ما من عبدٍ مؤمنٍ أُصيبَ بمصيبةٍ فقال ـ كما أمرَهُ الله: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللهمّ اجُرني في مُصيبتي وأعقبني خيراً منها» إلّا وفعل الله ذلك[٣].

[٢] قال اللهُ عزّ وجلّ: إذا وجّهتُ إلىٰ عبدٍ من عبيدي مصيبةً في بدنه أو مالِهِ أو ولدِهِ، ثمّ استقبلَ ذلك بصبرٍ جميلٍ، استحييْتُ منه أن أنصبَ له ميزاناً وأنشرَ له ديواناً[٤].

[٣] الصبرُ ثلاثةٌ: صبرٌ عند المصيبةِ، وصبرٌ على الطاعةِ، وصبرٌ عن المعصية. فمن صبرَ على المصيبةِ حتّىٰ يردَّها بحسن عزائها كتبَ اللهُ له ثلاثمائة درجةٍ، ما بين الدرجة إلى الدرجةِ كما بين السماءِ إلى الأرض، ومَنْ صبرَ على الطاعةِ كتبَ اللهُ له ستّمائة درجةٍ، مابين الدرجةِ إلى الدرجةِ كما بين تخومِ الأرضِ إلى العرشِ، ومَنْ صبرَ على المعصيةِ كتبَ اللهُ له تسعمائة درجةٍ، ما بينَ الدرجةِ إلى الدرجةِ كما بين تخومِ الأرضِ إلىٰ منتهى العرشِ[٥].

وقال الصادق عليه السلام:

إذا كان يومُ القيامة يقومُ عنقٌ من الناس، فيأتونَ بابَ الجنّة، فيضربونَهُ، فيقالُ لهم: مَنْ أنتم؟ فيقولون: نحنُ أهلُ الصبرِ. فيقالُ لهم: علىٰ ما صبرتُم؟ فيقولون: كُنّا نصبرُ علىٰ طاعةِ الله ونصبرُ عن معاصي الله. فيقولُ الله تعالىٰ: صدقوا، أدخلوهم الجنّةَ. وهو قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٦].[٧]

---

١. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٠٨.
٢. المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ١٠٧.
٣. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٧٢.
٤. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٧٢.
٥. الكافي، ج ٢، ص ٩١، باب الصبر، ح ١٥.
٦. الزمر (٣٩): ١٠.
٧. الكافي، ج ٢، ص ٧٥، باب الطاعة والتقوىٰ، ح ٤.

وقال عليه السلام: «مَنْ اُبتلي من المؤمنين ببلاءٍ فصبرَ عليه، كان لهُ مثلُ أجرِ ألفِ شهيد»[١].

الأمر الرابع: الصبرُ على السرّاء

كلُّ ما يلقى العبدُ في الدنيا وما يوافقُ هواهُ، أو لا يوافقهُ بل يكرهُهُ، وهو في كلّ منها محتاجٌ إلى الصبرِ، إذ ما يوافقُ هواهُ ـ كالصحّةِ الجسميّةِ، واتّساعِ الأسبابِ الدنيويّةِ، ونيلِ الجاهِ والمالِ، وكثرةِ الأولادِ والأتباعِ ـ لو لم يصبرْ عليه، ولم يضبطْ نفسَه عن الانهماكِ فيه والاغترارِ به، أدركه الطغيانُ والبطرُ: ﴿إِنَّ الْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[٢]. وقال بعض الأكابر: «البلاءُ يصبر عليه المؤمنُ، والعوافي لا يصبرُ عليها إلّا الصدّيق» وقال بعض العرفاء: «الصبر على العافية أشدُّ من الصبر على البلاء»[٣]. ومن هنا قال الله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٤] و ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾[٥].

ومعنى الصبرِ علىٰ متاعِ الدنيا: ألّا يركنَ إليه، ويعلمَ أنّهُ مستودعٌ عنده وعن قريبٍ يسترجعُ عنه، فلا ينهمكُ في التنعّمِ والتلذُّذِ، ولا يتفاخرُ به علىٰ فاقدهِ من إخوانه المؤمنينَ، ويرعىٰ حقوقَ الله في ماله بالإنفاقِ، وفي بدنهِ ببذلِ المعونةِ للخلقِ، وفي منصبه بإعانةِ المظلومينَ، وكذلك في سائرِ ما أنعمَ الله به عليه.

والسرُّ في كونِ الصبرِ عليها أشدَّ من الصبرِ على البلاءِ: أنّه ليس مجبوراً علىٰ ترك ملاذّ الدنيا، بل له القدرةُ والتمكّنُ علىٰ التمتُّعِ بها، بخلاف البلاءِ فإنّه مجبورٌ عليه، ولا يقدرُ علىٰ دفعهِ، فالصبرُ عليه أسهلُ؛ ولذا ترى أنّ الجائعَ إذا لم يقدرْ على الطعام أقدر على الصبرِ منه إذا قدرَ عليه.

وأمّا ما لا يوافقُ هواهُ وطبعه، فله ثلاثةُ أقسام:

الأوّل: ما يكونُ مقدوراً للعبد، كالطاعاتِ والمعاصي.

أمّا الطاعةُ فالصبرُ عليها شديدٌ؛ لأنّ النفس بطبعها تنفرُ عنها، وتشتهي التقهّرَ والربوبيّةَ،

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٩٢، باب الصبر، ح ١٧.
٢. العلق (٩٦): ٦ ـ ٧.
٣. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٦٩.
٤. المنافقون (٦٣): ٩.
٥. التغابن (٦٤): ١٤.

كما يأتي وجهُه، ومع ذلك يثقلُ عليها بعضُ العباداتِ باعتبار الكسلِ، وبعضُها باعتبار البخلِ، وبعضُها باعتبارِهما، كالحجّ والجهادِ، فلا تخلو طاعةٌ من اعتبار يشقّ على النفسِ أنْ تصبرَ عليه، ومع ذلك يحتاجُ المطيعُ فيها إلى الصبرِ في حالاتٍ ثلاثٍ تتضاعفُ لأجلها الصعوبةُ، إذ يحتاجُ إليها قبلَ العملِ في تصحيحِ النيّة والإخلاصِ، وتطهيرِها عن شوائبِ الرياءِ، وفي حالةِ العملِ لئلّا يغفلَ عن الله في أثنائه، ولا يخلّ بشيءٍ من وظائفِهِ وآدابِهِ، ويستمرّ على ذلكَ إلى الفراغ وبعد الفراغِ منه، لئلّا يتطرّقَ إليه العُجبُ، ولا يظهرَ رياءً وسمعةً. والنهيُ عن إبطالِ العملِ وعن إبطالِ الصدقاتِ بالمنّ والأذى أمرٌ بهذا القسم من الصبرِ.

وأمّا المعاصي، فلكونِ جميعها ممّا تشتهيها النفسُ. فصبرُها عليها شديدٌ، وعلى المألوفةِ المعتادةِ أشدّ؛ إذ العادةُ كالطبيعةِ الخامسةِ، ولذا ترى أنّ كلّ معصيةٍ شاعتْ وتكرّرتْ ثَقُلَ استنكارُها، فإنّ الاستبعادَ في مثل لبس الحريرِ أكثرُ من الاستبعادِ في إطلاقِ اللسانِ طولَ النهارِ في أعراضِ الناسِ، مع أنّ الغيبةَ أشدُّ من الزنا، كما نطقتْ به الأخبارُ. فإذا انضافتِ العادةُ إلى الشهوةِ، ظهر جندانِ من جنودِ الشيطانِ علىٰ جندِ الله، فيصعبُ تركُها.

ثمّ المعصيةُ إن كانت ممّا يسهلُ فعلُها، كان الصبرُ عنها أشدَّ، كمعاصي اللسانِ من الغيبةِ والكذبِ، ولو كانتْ مع ذلك مشتملةً علىٰ تمام ما تقتضيه جِبلّةُ النفسِ من الاستعلاءِ والربوبيّةِ، كالكلماتِ التي توجبُ نفيَ الغيرِ والقدحَ فيه، والثناءَ علىٰ ذاتها تصريحاً أو تعريضاً، كان الصبرُ عنها أشدَّ. إذ مثل ذلك ـ مع كونه ممّا تيسّر فعلُه وصارَ مألوفاً معتاداً ـ انضافت إليه شهوتانِ للنفس فيه: إحداهما نفي الكمالِ من غيرِها، وأُخراهما إثباتُه لذاتها. وميلُ النفسِ إلىٰ مثلِ تلك المعصيةِ في غايةِ الكمالِ، إذ به يتمّ ما تقتضيه جبلّتُها من التفوّقِ والعلوِّ، فصبرُها عنها في غايةِ الصعوبةِ.

وقد ظهر ممّا ذُكرَ أنّ أكثرَ ما شاعَ وذاعَ من المعاصي إنّما يصدرُ من اللسانِ، فينبغي لكلّ أحدٍ أن يجتهدَ في حفظِ لسانِهِ بتقديمِ التروّي علىٰ كلامٍ يُريدُ أنْ يتكلّمَ به، فإنْ لم يكنْ معصيةً تكلّمَ به، وإلّا تركَهُ. ولو لم يقدرْ علىٰ ذلك، وكان لسانُه خارجاً عن إطاعَتِهِ في المحاوراتِ، وجبتْ عليه العُزلةُ والانفرادُ، وتركُه التكلّمَ مع الناسِ، حتّىٰ تحصلَ له ملكةُ الاقتدارِ علىٰ

حفظِهِ. ثمّ صعوبةُ الصبرِ وسهولتُه لمّا كانتْ تختلفُ في آحادِ المعاصي باختلافِ داعيةِ تلك المعاصي قوّةً وضعفاً، فينبغي لكلّ طالب للسعادةِ أنْ يعلمَ أنّ داعيةَ نفسِهِ إلىٰ أيّ معصيةٍ أشدُّ، فيكونُ سعيُه في تركِها أكثرَ. ثمّ حركةُ الخواطرِ باختلاجِ الوساوسِ أيسرُ بكثيرٍ من حركةِ اللسانِ بقبائحِ الكلماتِ، فلا يمكنُ الصبرُ عنها أصلاً، إلّا بأن يغلبَ على القلبِ همٌّ آخرُ في الدين يستغرقُه، كمن أصبحَ وهمومُهُ همٌّ واحدٌ. وأكثرُ جولانِ الخاطرِ إنّما يكونُ في فائتٍ لا تدارُكَ له، أو في مستقبلٍ لابدّ وأنْ يحصلَ منه ماهو مقدورٌ. وكيف كان فهو تصوّرٌ باطلٌ، وتضييعُ وقتٍ، إذ آلةُ استكمالِ العبدِ قلبُه، فإذا غفلَ القلبُ في لحظةٍ من ذكرٍ يستفيدُ به أُنساً بالله، أو فكرٍ يستفيدُ به معرفةً بالله، ويستفيدُ بالمعرفةِ حبَّ الله، فهو مغبونٌ.

الثاني: ماليس حصولُه مقدوراً للعبد، ولكنّه يقدرُ علىٰ دفعه بالتشفّي، كما لو أُوذِيَ بفعلٍ أو قولٍ، أو جُنِيَ عليه في نفسه أو مالِهِ، فإنّ حصولَ الأذيّةِ والجنايةِ وإن لم يرتبطْ باختياره، إلّا أنّه يقدرُ على التشفّي من المؤذي أو الجاني بالانتقامِ منه. والصبرُ علىٰ ذلك بتركِ المكافأة، وهو قد يكونُ واجباً، وقد يكونُ فضيلةً، وهو أعلىٰ مراتبِ الصبرِ، ولأجلِ ذلك خاطبَ الله نبيّه ﷺ بقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[١] و ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[٢] و ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[٣]. و: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[٤] و ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّـٰبِرِينَ﴾[٥]. وقال رسول الله ﷺ: «صِلْ مَنْ قطعَكَ، وأعطِ مَنْ حرمَكَ، واعفُ عمّن ظلَمَكَ»[٦].

الثالث: ماليس مقدوراً للعبد مطلقاً، كالمصائبِ والنوائبِ، والصبرُ عليه شديدٌ في غايةِ الصعوبةِ، ولا يُنالُ إلّا ببضاعةِ الصدّيقينَ، والوصولُ إليه يتوقّفُ على اليقينِ التامّ. ولذا قال

---

١. الأحقاف (٤٦): ٣٥.
٢. المزمّل (٧٣): ١٠.
٣. الأحزاب (٣٣): ٤٨.
٤. آل عمران (٣): ١٨٦.
٥. النحل (١٦): ١٢٦.
٦. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٧١.

النبيّ ﷺ: «أسألُكَ من اليقينِ ما يهوّنُ عليّ مصائبَ الدنيا»[١].

الأمر الخامس: اختلافُ مراتبِ الصبرِ في الثوابِ

لمّا كان الصبرُ على العافية بمعنىٰ تركِ الشهواتِ المحرّمةِ وعدمِ الانهماكِ فيها، فهو راجعٌ إلى الصبرِ عن المعصيةِ. وعلىٰ هذا فأقسام الصبرِ ثلاثةٌ: الصبرُ على المصائبِ والنوائبِ، والصبرُ على الطاعةِ، والصبرُ عن المعصيةِ. وإنّ القولَ بكون أحدِهما أكثرَ ثواباً على الإطلاق غيرُ صحيح. فالصوابُ: التفصيلُ بأنّ كلّ صبرٍ من أيّ قسمٍ كان من الثلاثةِ إذا كانَ على النفسِ أشدَّ وأشقَّ فثوابُه أكثرُ ممّا كان أسهلَ وأيسرَ، كائناً ما كانَ، لما ثبتَ وتقرّرَ أنّ أفضل الأعمالِ أحمزُها[٢] وبه يحصلُ الجمعُ والتلاؤمُ بين الأخبار.

الأمر السادس: طريقُ تحصيلِ الصبرِ

الطريقُ إلىٰ تحصيلِ الصبرِ: تقويةُ باعثِ الدينِ، وتضعيفُ باعثِ الهوىٰ.

والأوّلُ: إنّما يكونُ بأمورٍ:

الأوّلُ: أنْ يُكثرَ فكرتَه فيما ورَد من فضلِ الصبرِ وحسنِ عواقبِهِ في الدنيا والآخرة، وأن يعلمَ أنّ ثوابَ الصبرِ على المصيبةِ أكثرُ ممّا فاتَ، وأنّه بسببِ ذلك مغبوطٌ بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقىٰ معه إلّا مدّةَ الحياةِ في الدنيا، وحصلَ له ما يبقىٰ بعدَ موتهِ أبدَ الدهرِ، فيجازى على المدّة القصيرةِ الفانيةِ بالمدّةِ الطويلةِ الخالدةِ، وعلى الغايةِ القريبةِ الزائلةِ بالغايةِ المديدةِ الباقيةِ. ومَنْ أسلم خسيساً في نفيس، فلا ينبغي أن يحزنَ بفواتِ الخسيسِ في الحال.

الثاني: أن يتذكّر قلّةَ قدرِ الشدّةِ الدنيويّةِ ووقتِها، واستخلاصَةُ عنها عن قريبٍ، مع بقاءِ الأجرِ على الصبرِ عليها.

الثالثُ: أن يعلمَ أنّ الجزعَ قبيحٌ مضرٌّ بالدين والدنيا، ولا يفيدُ ثمرةً إلّا حبطَ الثوابَ

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٧٢.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٩١، باب النيّة وشرائطها ومراتبها، ذيل الحديث ٢ وص ٢٣٧، باب الإخلاص، ذيل الحديث ٦.

وجَلبَ العقابَ، كما قال أميرَالمؤمنينعليه‌السلام:

إنْ صبرتَ جَرَتْ عليك المقاديرُ وأنتَ مأجورٌ، وإنْ جزعتَ جَرَتْ عليك المقاديرُ وأنتَ مأزورٌ[١].

الرابعُ: أن يعوِّدَ مصارعةَ هذا الباعثِ باعثِ الهوىٰ تدريجاً، حتّىٰ يُدرِكَ لذّةَ الظفرِ بها، فيتجرّأ عليها، ويَقوى مَتْنُه في مصارعتِها. فإنّ الاعتيادَ والممارسةَ للأعمالِ الشاقّةِ يؤكّد القوى التي تصدرُ منها تلكَ الأعمالُ. ولذا تزيدُ قوّةُ الممارسين للأعمالِ الشاقّةِ ـ كالحمّالينَ والفلّاحينَ ـ علىٰ قوّةِ التاركينَ لها. فمن عوّد نفسَه مخالفةَ الهوى غلبَها مهما شاءَ وأرادَ.

وأمّا الثاني: أعني تضعيفَ الهوىٰ، إنّما يكونُ بالمجاهدَةِ والرياضةِ، من الصومِ والجوعِ وقطعِ الأسبابِ المهيّجةِ للشهوةِ من النظرِ إلىٰ مظانّها وتخيّلها، وبالتسلية بالمباحِ من الجنسِ الذي يشتهيه بشرطِ ألّا يخرجَ عن القدرِ المشروعِ.

الأمر السابع: التلازمُ بين الصبرِ والشكرِ

اعلم أنّه اختُلِفَ في أفضليّةِ كلٍّ من الصبرِ والشكرِ على الآخرِ، فرجّحَ كلّاً منهما على الآخرِ طائفةٌ. والظاهرُ أنّه لا ترجيحَ لأحدِهما على الآخر، لأنّهما متلازمان لا ينفكّ أحدُهما عن الآخرِ. إذ الصبرُ على الطاعةِ وعلى المعصيةِ هو عينُ الشكرِ، لكونِ أداءِ الطاعةِ وتركِ المعصيةِ شكراً، كما مرّ في بابِ الشكرِ. والصبرُ على الشدائدِ والمصائبِ يستلزمُ الشكرَ، لما مرَّ من أنّ الشدائدَ والمصائبَ الدنيويّةَ تتضمّنُ نعماً، فالصبرُ علىٰ هذهِ الشدائدِ يستلزمُ الشكرَ علىٰ تلك النعمِ، ولأنْ الصبرَ على المصائبِ هو حبسُ النفسِ عن الجزعِ تعظيماً لله سبحانه وهذا هو الشكرُ بعينه، لأنّه تعظيمٌ لله يمنعُ عن العصيانِ، والشاكرُ يمنعُ نفسَه عن الكفرانِ مع ميلِ النفسِ إليه، وهذا هو عينُ الصبرِ عن المعصيةِ. وأيضاً توفيقُ الصبرِ والعصمةِ من الجزعِ نعمةٌ يُشكرُ عليها الصابرُ، فكلّ صبرٍ يستلزمُ الشكرَ، وبالعكس.

الأمر الثامن: القانونُ الكلّيّ في معرفةِ الفضائلِ ودرجاتُ الصبر والشكر

---

١. نهج البلاغة، ص ٥٢٧، الحكمة ٢٩١ وفيه: «جرى عليك القدر» بدل «جرتْ عليك المقادير» في الموضعين.

اعلمْ أنّ المعيارَ والقانونَ الكلّيّ في معرفةِ فضائلِ الأعمالِ والأحوالِ وترجيحِ بعضها علىٰ بعضٍ عند أربابِ القلوبِ: أنّ العملَ كلّما كان أكثرَ تأثيراً في إصلاحِ القلبِ وتصفيتِهِ وتطهيرِهِ عن شوائبِ الدنيا، وأشدَّ إعداداً له لمعرفةِ الله وانكشافِ جلالهِ في ذاتهِ وصفاتهِ وأفعالهِ، كانَ أفضلَ. وعلىٰ هذا القانون، لولا الاتّحادُ والعينيّةُ والتلازمُ بينهما، لكانَ اللازمُ أن يوازنَ بين كلّ درجةٍ درجةٍ من درجاتِ الصبرِ والشكرِ وترجيحِ أحدِهما، إذ لكلّ منهما درجاتٌ مختلفةٌ في تنويرِ القلبِ وتصفيتهِ، وسببُ الاختلاف أسبابٌ:

منها: الاختلافُ بين أقسام النعم وأقسامِ البلاء.

ومنها: اختلافُ مراتبِ المعرفةِ والفرحِ المأخوذين في الشكر، واختلافُ الطاعةِ التي تفعلُ في كلٍّ منهما صعوبةً وسهولةً. فربّما كان بعضُ درجاتِ الصبرِ أشدَّ تنويراً وأكثرَ إصلاحاً للقلب من بعض درجاتِ الشكرِ، وربّما كانَ الأمرُ بعكسِ ذلك في بعضٍ آخرَ من درجاتِهما. فإنّ الأعمالَ والأحوالَ المندرجةَ تحت كلٍّ منهما كثيرةٌ، وباختلافها ـ كثرةً وقلّةً ـ تختلفُ درجاتُهما. فمن الأُمورِ والأحوالِ التي تندرجُ تحتَ الشكرِ: حياءُ العبدِ من تتابُعِ نِعَمِ الله عليه، ومعرفتُه بتقصيرِهِ عن الشكر، واعتذارُه من قلّة الشكرِ، واعترافُه بأنّ النعمَ ابتداءً من الله تعالىٰ من غيرِ استحقاقهِ لها، وعلمُه بأنّ الشكرَ أيضاً نعمةٌ من نعمهِ ومواهبهِ، وحسنُ تواضُعِه بالنعمِ، والتذلّلُ، وقلّةُ اعتراضهِ، وحسنُ أدبه بين يدي المنعمِ وتلقّي النعمِ بحسنِ القبولِ، واستعظامُ صغيرِها، وشكرُ الوسائط، لقوله ﷺ: «مَنْ لم يشكر الناس لم يشكر الله»[1]. وقال السجاد عليه السلام: «أشكرُكم لله أشكرُكم للناس»[2]. وقال الصادق عليه السلام: «اشكرْ مَنْ أنعمَ عليك، وأنعِمْ علىٰ مَنْ شكرَكَ»[3]. ولا ريبَ في أنّه كلّما ازدادتْ هذه الأحوالُ في الشكرِ، وطالَ زمانُه، ازدادَ فضلُه.

---

١. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٤١.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٩٩، باب الشكر، ح ٣٠.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٩٤، باب الشكر، ح ٣.

الخاتمة

الطهارة

المقدّمة

فضل الطهارة ومراتبها

اعلم أنّ الطهارةَ والنظافةَ أهمُّ الأُمورِ للعباد؛ إذ الطهارةُ الظاهرةُ وسيلةٌ إلىٰ حصولِ الطهارةِ الباطنةِ، وما لم تحصلِ الأُولى لم تحصل الثانيةُ. ولذا ورد في مدحها ما وردَ: قال الله سبحانه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1]. وقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾[2]. وقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بُني الدينُ على النظافةِ»[3]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الطَهورُ نصفُ الايمان»[4]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مفتاحُ الصلاةِ الطَهورُ»[5]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم:

---

١. التوبة (٩): ١٠٨.

٢. المائدة (٥): ٦.

٣. المحجّة البيضاء، ج ١، ص ٢٨١.

٤. المحجّة البيضاء، ج ١، ص ٢٨١.

٥. إحياء علوم الدين، ج ١، ص ١٢٥.

«مَنْ اتّخذَ ثوباً فلينظفْه»[١]. وقال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «النظيفُ من الثيابِ يُذهبُ الهمَّ والحزنَ، وهو طَهورٌ للصلاةِ»[٢]. ثمّ للطهارةِ أربعُ مراتبَ:

الأُولىٰ: تطهيرُ الظاهرِ من الأحداثِ والأخباثِ والفضلاتِ.

الثانيةُ: تطهيرُ الجوارحِ من الجرائمِ والآثامِ والتبعاتِ.

الثالثةُ: تطهيرُ القلبِ من مساوي الأخلاقِ ورذائلِها.

الرابعةُ: تطهيرُ السرِّ عمّا سوى الله تعالىٰ، وهي تطهيرُ الأنبياء والصدّيقين. والطهارةُ في كلّ مرتبةٍ نصفُ العملِ الذي فيها، إذ الغايةُ القصوىٰ في عملِ السرِّ أنْ ينكشفَ له جلالُ الله وعظمتُه، وتحصلَ له المعرفةُ التامّةُ، والحبُّ والأُنسُ. ولا يمكنُ حصولُ ذلك مالم يرتحلْ عنه ما سوى اللهِ، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾[٣]؛ فإنّ اللهَ وغيره لا يجتمعان في قلبٍ واحدٍ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[٤].

فتطهيرُ السرّ عمّا سوى الله نصفُ عملِه، والنصفُ الآخرُ شروقُ نورِ الحقِّ فيه. والغايةُ القصوىٰ في عملِ القلبِ عمارتُه بالأخلاقِ المحمودةِ، والعقائدِ الحقّةِ المشروعةِ. ولا يتّصفُ بها مالم يُنظَّفْ عن نقائضِها، من الأخلاقِ المذمومةِ، والعقائدِ الفاسدةِ. فتطهيرُه عنها أحدُ الشطرينِ، والشطرُ الآخرُ تحليتُه بالفضائلِ والعقائدِ الحقّةِ.

وأمّا عملُ الجوارحِ، فالمقصودُ منه عمارتُها بالطاعاتِ. ولا يمكنُ ذلك مالم يُطَهَّرْ عن المعاصي والمناهي. فهذا التطهيرُ نصفُ عملها، ونصفُه الآخر عمارتُها بالطاعاتِ. وقسْ علىٰ ذلك الحالَ في المرتبةِ الأُولىٰ. وإلىٰ ذلك الإشارةُ بقول النبيّ صلى الله عليه وآله: «الطَهورُ نصفُ الإيمان»؛ فإنّ المرادَ: أنّ تطهيرَ الظاهرِ، والجوارحِ، والقلبِ، والسرِّ، من النجاساتِ والمعاصي ورذائلِ الأخلاقِ وما سوى الله، نصفُ الإيمان. ونصفهُ الآخرُ عمارتُها بالنظافةِ والطاعاتِ ومعالي الأخلاقِ، والاستغراقِ في شهودِ جمالِ الحقّ وجلالِه. ولا تظنّنَّ أنّ مرادَه صلى الله عليه وآله أنّ

---

١. مكارم الأخلاق، ج ٢، ص ٢٣٠، ح ٦٧٧؛ بحار الأنوار، ج ٧٦، ص٢٩٧، باب التجمّل، ح ١.

٢. الكافي، ج ٦، ص ٤٤٤، باب اللباس، ح ١٤.

٣. الأنعام (٦): ٩١.

٤. الأحزاب (٣٣): ٤.

مجرّدَ تطهيرِ الظاهرِ عن النجاساتِ بإفاضةِ الماءِ نصفُ الإيمانِ، مع تلوُّثِ الجوارحِ بأخباثِ المعاصي، وتنجُّسِ القلبِ بأقذارِ مساوئ الأخلاقِ، وتشوُّشِ السرِّ وتكدّرِهِ بما سوى الله.

فالمرادُ التطهيرُ في المراتبِ الأربعِ، التي هي من مقاماتِ الدين، وهي مرتبةٌ يتوقّفُ بعضُها علىٰ بعضٍ، ولا يمكنُ أن ينالَ العبدُ ما هو الفوقُ، مالم يتجاوزْ ما دونَه. فلا يصلُ إلىٰ طهارةِ السرّ ممّا سوى الله وعمارتِه بمعرفة الله وانكشافِ جلالِهِ وعظمتِهِ، مالم يفرغْ من طهارةِ القلبِ عن الأخلاقِ المذمومةِ، وتحليتِه بالملكاتِ المحمودةِ. ولا يصلُ إلىٰ ذلك مالم يفرغْ من طهارةِ الجوارحِ من المعاصي وعمارتِها بالطاعاتِ. ولا يصلُ إلىٰ ذلك ما لم يفرغْ من إزالةِ الخبثِ والحدثِ عن الظاهرِ، وعمارتُه بالنظافة والنزاهة.

المقصد الأوّل

الآداب الباطنة لطهارة الخبث

طهارةُ الظاهرِ، إمّا عن الخبثِ، أو عن الحدثِ، أو عن فضلاتِ البدنِ، وما يتعلّقُ بها من الأحكامِ الظاهرةِ الواجبةِ والمحرّمةِ والمندوبةِ والمكروهةِ، مستقصاة في كتب الفقه.

وأمّا الآدابُ الباطنةُ لطهارةِ الخبثِ وإزالتهِ عند التخلّي لقضاءِ الحاجة، أن يتذكّر عنده نقصَه وحاجتَه، وخُبثَ باطِنه، وخسّةَ حالِه، وما يشتملُ عليه من الأقذارِ، وكونَه حاملَ النجاساتِ. ويتذكّرَ باستراحةِ نفسهِ عند إخراجها، وسكونِ قلبه عن دَنَسِها، وفراغهِ للعباداتِ والمناجاةِ، وأنّ الأخلاقَ الذميمةَ التي في باطنها نجاساتٌ باطنةٌ، وأقذارٌ كامنةٌ؛ لتستريحَ نفسُه عند إخراجها، ويطمئنَّ قلبُه من إزالة دَنَسِها، وعند إخراجِها يصلحُ للوقوفِ علىٰ بساطِ الخدمةِ، ويتأهّلُ للقُرب والوصولِ إلىٰ حريم العزّةِ. فكما يسعىٰ في إخراج النجاساتِ الظاهرةِ لاستراحةِ البدنِ مدّةً قليلةً في الدنيا، فينبغي أن يجتهدَ أيضاً في إخراج الأقذارِ الباطنةِ، والنجاساتِ الداخلةِ الغائصة في الأعماقِ، المفسدة على الإطلاق؛ ليستريحَ الروحُ والبدنُ في الدنيا والآخرةِ أبدَ الآباد. قال الصادق عليه السلام:

إنّما سُمّي المستراحُ مستراحاً لاستراحةِ النفسِ من أثقالِ النجاساتِ، واستفراغِ الأقذارِ والكثيفات فيها. والمؤمنُ يعتبرُ عندها أنّ الخالصَ من حُطام الدنيا كذلك تصيرُ عاقبتُهُ، فيستريح بالعدولِ عنها وتركِها، ويفرّغ نَفسَه وقلبَهُ عن شُغلِها،

ويستنكفُ عن جمعِها وأخذِها استنكافَهُ عن النجاسةِ والغائطِ والقذرِ. ويتفكّر في نفسه المكرّمةِ في حالٍ كيفَ تصيرُ ذليلة في حالٍ، ويعلم أنَّ التمسّكَ بالقناعةِ والتقوىٰ يورثُ له راحة الدارين. فإنّ الراحة في هوانِ الدنيا، والفراغ من التمتّع بها، وفي إزالةِ النجاسةِ من الحرامِ والشبهةِ. فيغلقُ عن نفسهِ بابَ الكبرِ بعد معرفتهِ إيّاها، ويفرُّ من الذنوبِ، ويفتحُ بابَ التواضع والندمِ والحياءِ، ويجتهد في أداء أوامرهِ واجتنابِ نواهيه، طلباً لحُسنِ المآبِ، وطيبِ الزُلفىٰ، ويسجنُ نفسَهُ في سجنِ الخوفِ والصبرِ والكفِّ عن الشهواتِ، إلى أنْ يتّصلَ بأمانِ الله تعالىٰ في دارِ القرار، ويذوقَ طعمَ رضاه، فإنّ المعوّلَ علىٰ ذلك، وما عداه فلا شيءَ[1].

وينبغي أنْ يتأمّل في أنّ ما دفعَ عنهُ من الغائطِ والقذرِ هو ما كان يشتهيهِ، ويحرصُ في طلبهِ من لذائذِ الأطعمةِ، وكلّما كانت ألذّ كانت عفونتها أشدَّ. فما كانتْ عاقبتُهُ ذلك، فليحذرْ من أنْ يأخذَهُ من غيرِ حِلّهِ، فيُعذَّبَ أبدَ الآبادِ لأجلِهِ.

١. مصباح الشريعة، ص ٧١، الباب ٩؛ المحجّة البيضاء، ج ١، ص ٢٩٣؛ بحار الأنوار، ج ٨٠، ص ١٦٥، باب علّة الغائط، ح ٥.

المقصد الثاني

ما ينبغي للمؤمن في الطهارةِ

ينبغي لكلّ مؤمنٍ أنْ يستحضرَ عند اشتغالِهِ بالطهارةِ عن الحدثِ أنّ تكليفَه بها للدخولِ في العباداتِ والمناجاةِ مع خالقِ البريّاتِ إنّما هو لكونِ أعضائه التي أُمرَ بغسِلها مباشرةً للأُمورِ الدنيويّة، منهمكةً في الكدوراتِ الطبيعيّةِ، فخرجتْ عن أهليّةِ القيام بين يدي اللـه سبحانه والاشتغالِ بعبادته. فالأمرُ بغسلها؛ لتتطهّرَ عن هذه الكدوراتِ، فيتأَهَّل للمناجاةِ. ولا ريبَ في أنّ مجرّدَ غسلِها لا يطهّرُها عن الأدناسِ الدنيويّة والكدوراتِ الجسمانيّة، مالم يطهرْ قلبَهُ عن الأخلاقِ الذميمةِ، والعلائقِ الدينويّةِ، وما لم يعزمْ على الرجوعِ إلى الله، والانقطاعِ عن الدنيا وشهواتِها. فينبغي أن يكون قلبُه عند الطهارةِ مطهّراً عن ذمائمِ الصفاتِ وخبائثِ الشهواتِ، جازماً علىٰ فطامِ الأعضاءِ التي هي أتباعُه وخدّامُه عن شهواتِ الدنيا؛ لتسريَ نوريّتُهُ وطهارتُه إلىٰ تلكَ الأعضاءِ.

ثمّ أُمِرَ في الوضوء **أوّلاً**: بغسلِ الوجه، الذي هو مجمعُ أكثرِ الحواسّ الظاهرةِ، التي هي أعظمُ الأسبابِ الباعثةِ علىٰ مطالبِ الدنيا. ليتوجّهَ ويقبِلَ بوجهِ القلبِ على الله، وهو خالٍ من تلكَ الأدناسِ.

وثانياً: بغسل اليدينِ، لمباشرتِها أكثرَ الأُمورِ الدنيويّةِ والمشتهياتِ الطبيعيّةِ المانعةِ من الإقبالِ علىَ الآخرة.

وثالثاً: بمسحِ الرجلينِ، للتوصُّل بهما إلىٰ أكثرِ المطالبِ الدنيويّةِ، والمقاصدِ الطبيعيّةِ. فأُمرَ بتطهيرِ جميعها ليسوغَ له الدخولُ بها في العباداتِ والإقبالُ عليها.

وأُمر في الغسل بغسل جميع البشرةِ؛ لأنّ أدنىٰ حالات الإنسان وأشدَّها تعلّقاً بالملكاتِ الشهويّة حالةُ الوقاعِ، ولجميع بدنه مدخلٌ في تلك الحالة. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «تحت كلّ شعرةٍ جنابةٌ»[1]. فحيثُ كان جميعُ بدنه بعيداً عن المرتبة العليّة، منغمساً في اللذاتِ الدنيّة، كان غسلُه أجمعُ من أهمّ المطالبِ الشرعيّةِ؛ ليتأهّلَ لمقابلةِ الجهةِ الشريفةِ، والدخولِ في العبادةِ المنيفة.

وأُمرَ في التيمّمِ بمسحِ الأعضاء بالتُّراب، عند تعذُّرِ غسلها بالماء، وضعاً لتلك الأعضاءِ الرئيسة، وهضماً لها بملاقاتها أثرَ التربةِ الخسيسةِ.

ثمّ لمّا كان القلبُ هو الرئيسَ الأعظمَ لهذه الجوارحِ والأعضاء، والمستخدمَ لها في تلك الأُمورِ المبعدةِ عن جنابه تعالىٰ، وهو الموضِعُ لنظر الله سبحانه، كما قال ﷺ: «إنّ الله لا ينظرُ إلىٰ صورِكم، ولكنْ ينظرُ إلىٰ قلوبِكمُ»[2]، فله من ذلك الحظُّ الأوفرُ والنصيبُ الأكملُ. فيكونُ الاشتغالُ بتطهيرِهِ من الرذائلِ والتوجيهاتِ المانعةِ من دركِ الفضائلِ أولى من تطهيرِ الأعضاءِ الظاهرةِ عند اللبيبِ العاقلِ. وإذا لم يمكنْ تطهيرُه من الأخلاقِ الرذيلةِ، وتحليتُه بالأوصافِ الجميلةِ، لرسوخهِ علىٰ حبّ الدنيا الدنيّة، فليُقِمْه في مقام الهضمِ والإزراء، ويَسُقْه بسياطِ الذلّ والإغضاءِ، كما أنّه عند تعذُّرِ غسلِ الأعضاءِ بالماء يهضمُها ويذلُّلها بالوضعِ على التُّراب، عسى أنْ يرحمَ ربُّه تواضُعَهُ وانكسارَهُ، فيهبهُ نفحةً من نفحاتِ نورِهِ اللامعِ، فإنّه عند المنكسرةِ قلوبُهم، كما وردَ في الأثر[3]. فترقّ من هذه الإشارات ونحوِها إلىٰ ما يوجبُ لك الإقبالَ، ويتداركُ سالفَ الإهمالِ.

ثمّ ما ذكر منَ السرِّ في الطهارة، يمكنُ استنباطهُ ـ مع الزيادة ـ من كلامِ مولانا الصادق عليه السلام حيث قال:

---

١. المحجّة البيضاء، ج ١، ص ٣٠٦.
٢. إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٣٦٢.
٣. إشارة إلىٰ الحديث القدسي: «أنا عند المنكسِرةِ قلوبُهم...» المنقول في منية المريد، ص ١٢٣.

إذا أردت الطهارةَ والوضوءَ، فتقدَّمْ إلى الماءِ تقدُّمَكَ إلىٰ رحمةِ الله؛ فإنّ الله تعالىٰ قد جعلَ الماءَ مفتاحَ قربَتِهِ ومناجاتِهِ، ودليلاً إلىٰ بساطِ خدمتِهِ. وكما أنّ رحمةَ الله تطهِّرُ ذنوبَ العبادِ، كذلك النجاساتُ الظاهرةُ يطهِّرُها الماءُ لا غيرُه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَـٰحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً﴾[١].[٢]

ومن الأسرارِ الواردةِ في الطهارةِ وتخصيصِ بعض الأعضاءِ بالتطهيرِ في الوضوء، ما أشارَ إليه مولانا الرضا عليه السلام بقوله:

إنّما أُمرَ بالوضوء ليكونَ العبدُ طاهراً إذا قام بين يدي الجبّار عند مناجاتهِ إيّاهُ، مطيعاً له فيما أمره، نقيّاً من الأدناسِ والنجاسةِ، مع ما فيه من ذهابِ الكسلِ، وطردِ النُعاسِ، وتزكيةِ الفؤادِ للقيام بين يدي الجبّار. وإنّما وجبَ ذلك على الوجهِ واليدينِ والرأسِ والرجلينِ، لأنّ العبدَ إذا قام بين يدي الجبّارِ، فإنّما ينكشفُ من جوارحِه ويظهرُ ما يجبُ فيه الوضوءُ، وذلك أنّه بوجهه يسجدُ ويخضعُ، وبيده يسألُ ويرغبُ ويرهبُ ويَتبتَّلُ، وبرأسه يستقبلُ في ركوعِهِ وسجودِهِ، وبرجليه يقومُ ويقعدُ. وأُمرَ بالغسلِ من الجنابة دون الخلاءِ، لأنّ الجنابةَ من نفْسِ الإنسان، وهو شيءٌ يخرجُ من جميع جسدِهِ، والخلاءُ ليس هو من نفْسِ الإنسان، إنّما هو غذاءٌ يدخلُ من بابٍ ويخرجُ من بابٍ[٣].

تنبيهٌ: ينبغي لمن يدخلُ الحمّامَ، أنْ يتذكّرَ بحرارتهِ حرَّ النارِ، ويقدّرَ نفسَهُ محبوساً في البيت ساعةً، ويقيسَه إلىٰ جهنّم، ويستعيذَ بالله منها.

قال الصادق عليه السلام: «فإذا دخلتَ البيتَ الثالثَ، فقلْ: نعوذُ بالله من النارِ ونسألُه الجنّةَ.

١. الفرقان (٢٥): ٤٨.
٢. مستدرك الوسائل، ج ١، ص ٣٥٣، أبواب الوضوء، الباب ٤٧، ح ٣؛ مصباح الشريعة، ص ٧٥ ـ ٨٠، الباب ١٠.
٣. المحجّة البيضاء، ج ١، ص ٣٠٨، كتاب أسرار الطهارة، وأُنظر: بحار الأنوار، ج ٨٠، ص ٢٣٤، باب علل الوضوء، ح ٧.

وترددُها إلىٰ وقتِ خروجكَ من البيتِ الحارِّ»[1]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «نعم البيتُ الحمّامُ، يَذهَبُ بالدرنِ، وتُذكَرُ فيه النارُ»[2]. وفيه إشارةٌ إلىٰ أنّه ينبغي للعاقلِ ألّا يغفلَ عن ذكرِ الآخرةِ في لحظةٍ، فإنّها مقرُّهُ ومستقرُّهُ. فيكونُ له في كلّ ما يراه، من ماءٍ أو نارٍ أو غيرهما، عبرةً وموعظةً. فإنّ المرءَ ينظرُ في كلّ شيءٍ بحسب همّتهِ. فالبزّازُ إذا دخلَ داراً معمورةً مفروشةً ينظرُ إلى الفرشِ ويتأمّلُ في قيمتها. والحائكُ إذا دخلها ينظرُ إلى الثيابِ ويتأمّلُ في كيفيّة نسجِها، والنجّارُ إذا دخلَها ينظرُ إلىٰ أبوابها وشبابيكها ويتأمّلُ في كيفيّة نجرِها وتركيبِها، والبنّاءُ إذا دخلَها ينظرُ إلى الحيطانِ والسقفِ وكيفيّةِ بنائها وإحكامِها واستقامتِها.

فكذلك سالكُ طريقِ الآخرةِ لا ينظرُ إلىٰ شيءٍ إلّا وتكونُ له موعظةٌ وعبرةٌ من الآخرةِ، فإنْ نَظَرَ إلىٰ ظُلمةٍ تذكّر ظُلمةَ اللحدِ، وإنْ نَظَرَ إلىٰ نارٍ تذكّرَ نارَ جهنّمَ، وإنْ نظرَ إلىٰ حيّةٍ تذكّر أفاعي جهنّم، وإن سمعَ صوتاً هائلاً تذكّر نفخةَ الصُورِ، وإنْ نظرَ إلىٰ صورةٍ قبيحةٍ تذكّر صورةَ النكيرِين والزبانيةِ، وإنْ رأىٰ المحاسبةَ بين قومٍ تذكّر محاسبةَ الآخرةِ، وإنْ سمعَ كلمةَ ردٍّ أو قبولٍ تذكّر ما ينكشفُ له في آخر أمرِه بعد الحسابِ من الردّ والقبولِ، وإن رأىٰ شيئاً حسناً تذكّر نعيمَ الجنّةِ، إلىٰ غير ذلك.

* * *

وهذا آخر كتاب تحرير جامع السعادات، والحمد لله على إتمامه، وأسأل الله سبحانه وتعالى أنْ يَجْعَلَنا من العاملين به، ويَنْفَعَ به جميعَ عباده السالكين إليه.

وقد وقع الفراغ من جمعه وتأليفه في سَلْخ شهرِ ذى القعدة الحرام سنة ستٍّ وتسعين ومائة بعدَ الألف من الهجرة النبويّة، على مُهاجرها ألف ألف سلام وتحيّة.

وفرغنا بحمد الله سبحانه من تحريره وتهذيبه في سَلْخ ربيع الآخر سنة ١٤٢٣ من الهجرة النبويّة، على مُهاجرِها آلافُ السلامِ والتحيّةِ.

---

١. الفقيه، ج ١، ص ٣١٣، ح ٢٣٢.

٢. وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٠، أبواب آداب الحمّام، الباب ١، ح ٤.

مصادر التحقيق

١. **إتحاف السادة المتّقين بشرح إحياء علوم الدين.** للسيّد محمّد بن محمّد الحسيني الزبيدي، الشهير بمرتضى (١١٤٥ ـ ١٢٠٥). ١٠ مجلّدات، بيروت، دار الفكر.

٢. **الاحتجاج على أهل اللجاج.** لأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ق ٦). إعداد السيّد محمّد باقر الموسوي الخرسان. مجلّدان، النجف الأشرف، مطبعة النعمان، ١٣٨٦/١٩٦٦م.

٣. **إحياء علوم الدين.** لأبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥). الطبعة الثانية، ٤ مجلّدات + الملحق، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤/١٩٩٤م.

٤. **أمالي الصدوق.** لأبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي المعروف بالشيخ الصدوق (م ٣٨١). تقديم الشيخ حسين الأعلمي. الطبعة الخامسة، بيروت، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٠/١٩٨٠م.

٥. **أمالي الطوسي.** لأبي جعفر شيخ الطائفة محمّد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠). إعداد قسم الدراسات الإسلاميّة في موسّسة البعثة، الطبعة الأُولى، قم. دار الثقافة، ١٤١٤.

٦. **الأنوار النعمانيّة في معرفة النشأة الإنسانيّة.** للسيّد نعمة الله الجزائري (م ١١١٢). تحقيق العلّامة الشهيد السيّد محمّد عليّ القاضي الطباطبائي. الطبعة الأُولى، تبريز، مطبعة حقيقت، ١٣٧٨.

٧. **بحار الأنوار الجامعة لِدُرَرِ أخبار الأئمّة الأطهار**عليهم السلام. للعلّامة محمّد باقر بن محمّدتقي المجلسي (١٠٣٧ ـ ١١١٠). الطبعة الثالثة، ١١٠ مجلّدٍ (إلّا ٦ ملجّداتٍ،من المجلّد ٢٩ ـ ٣٤) + المدخل، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣/١٩٨٣م. [بالأُوفست عن طبعة إيران].

٨. **البداية والنهاية.** لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٠١ ـ ٧٧٤). إعداد علي شيري. الطبعة

الأُولى، ١٤ جزءاً، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨/١٤٠٨م.
٩. **التوحيد.** لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي المعروف بالشيخ الصدوق (م ٣٨١). تحقيق السيّد هاشم الحسيني الطهراني. قم، موسّسة النشر الإسلامي، ١٣٩٨.
١٠. **تهذيب الأحكام.** لأبي جعفر شيخ الطائفة محمّد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠). إعداد السيّد حسن الموسوي الخرسان. الطبعة الثالثة، ١٠ مجلّدات، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٦٤ش.
١١. **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق.** لأبي عليّ أحمد بن محمّد بن يعقوب الرازي (م ٤٢١). تقديم الشيخ حسن تميم. إصفهان، انتشارات المهدوي.
١٢. **الجامع لأحكام القرآن** (تفسير القُرطبي). لأبي عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القُرطبي (م ٦٧١). تحقيق أحمد عبد العليم البردوني. ٢٠ مجلّداً، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
١٣. **جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام.** للشيخ محمّد حسن بن باقر النجفي (م ١٢٦٦). تحقيق عدّة من الفضلاء. الطبعة السابعة، ٤٣ مجلّداً، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
١٤. **الخصال.** لأبي حعفر بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي المعروف بالشيخ الصدوق (م ٣٨١). تحقيق عليّ أكبر الغفّاري. الطبعة الأُولى، جزءان في مجلّد واحد، قم، مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤٠٣.
١٥. **الدرّ المنثور في التفسير المأثور.** لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١). الطبعة الأُولى، ٨ مجلّدات، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٣.
١٦. **رسائل الشهيد الثاني.** للشهيد الثاني زين الدين بن عليّ بن أحمد العاملي (٩١١ـ٩٦٥). تحقيق قسم إحياء التراث الإسلامي في مركز الأبحاث والدراسات الإسلاميّة بإشراف رضا المختاري. الطبعة الأُولى. مجلّدان، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٢١ـ١٤٢٢ / ١٣٧٩ ـ ١٣٨٠ش.
١٧. **سنن ابن ماجة.** لأبي عبد الله محمّد بن يزيد بن ماجة القزويني (٢٠٧/٢٠٩ ـ ٢٧٣/٢٧٥). تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي. مجلّدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٥/١٩٧٥م.
١٨. **سنن أبي داود.** لأبي داود سليمان بن الأشعث السِجِسْتاني (٢٠٢ ـ ٢٧٥). إعداد محمّد محيي الدين عبد الحميد. ٤ مجلّدات، دار إحياء السُنّة النبويّة.
١٩. **سنن الدارقطني.** لعليّ بن عمر الدارقطني (٣٠٦ ـ ٣٨٥). تحقيق السيّد عبد الله هاشم يماني المدني.

٤ أجزاء في مجلّدين، بيروت، دار المعرفة.

٢٠. **سنن الدارمي**. لأبي محمّد عبد الله بن بهرام الدارمي (١٨١ ـ ٢٥٥). تحقيق فوّاز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي. الطبعة الأُولى، مجلّدان، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧.

٢١. **السنن الكبرى** (سنن البيهقي). لأبي بكر أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقي (٣٨٤ـ٤٥٨). ١٠ مجلّدات + الفهرس، بيروت، دار المعرفة، [بالأُوفست عن طبعة حيدرآباد الدكن].

٢٢. **سنن النسائي**. لأبي عبد الرحمن أحمد بن عليّ بن شعيب النسائي (٢١٥ ـ ٣٠٣). ٨ أجزاء في ٤ مجلّدات، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٢٣. **شمائل النبيّ** ﷺ. لأبي عيسى محمّد بن عيسى بن سورة التِرمْذي (٢٠٩ ـ ٢٧٩). مع ترجمة محمود مهدوي دامغاني، الطبعة الأُولى، طهران، نشرني، ١٣٧٢ش .

٢٤. **شواهد التنزيل لقواعد التفضيل**. لعبيد الله بن عبد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني (ق ٥). إعداد الشيخ محمّد باقر المحمودي. الطبعة الأُولى، مجلّدان + الفهرس، طهران، مؤسّسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ١٤١١.

٢٥. **صحيح البخاري**. لأبي عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ ـ ٢٥٦). تحقيق مصطفى ديب البُغا. الطبعة الرابعة، ٦ مجلّدات + الفهرس، بيروت ودمشق، دار ابن كثير واليمامة، ١٤١٠ / ١٩٩٠م.

٢٦. **صحيح مسلم**. لأبي الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ ـ ٢٦١). تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الثانية، ٥ مجلّدات، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٨ [بالأُوفست عن طبعته السابقة].

٢٧. **الفقيه**. (كتاب من لا يحضره الفقيه). لأبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي المعروف بالشيخ الصدوق (م ٣٨١). تحقيق عليّ أكبر الغفّاري. الطبعة الثانية، ٤ مجلّدات، قم، مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٣٩٢.

٢٨. **الكافي**. لأبي جعفر ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (م ٣٢٩). تحقيق علي أكبر الغفّاري. الطبعة الرابعة، ٨ مجلّدات، بيروت. دار صعب ودار التعارف . ١٤٠١ [بالأُوفست عن طبعة دار الكتب الإسلاميّة بطهران].

٢٩. **كشف الخَفاء ومُزِيل الإلباس عمّا اشتَهَرَ من الأحاديث على ألسنة الناس**. لأبي الفداء إسماعيل بن محمّد الجَرّاحي العَجلوني الدِمَشْقي (١٠٨٧ ـ ١١٦٢) تحقيق أحمد القلاش. الطبعة الخامسة،

مجلّدان، بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٤٠٨.

٣٠. **كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال.** لعلاء الدين عليّ المتّقي بن حسام الدين الهندي (٨٨٨ ـ ٩٧٥). إعداد بكري حياني وصفوة السقا. الطبعة الخامسة، ١٦ مجلّداً، بيروت، موسّسة الرسالة، ١٤٠٥/١٩٨٥م.

٣١. **لسان العرب.** لجمال الدين محمّد بن مكرم بن منظور المصري (٦٣٠ ـ ٧١١). تحقيق عليّ شيري. الطبعة الأُولى، ١٨ مجلّداً + الفهرس، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨.

٣٢. **مجمع البيان لعلوم القرآن.** لأبي عليّ أمين الإسلام الفضل بن الحسن الطَبْرسي (حوالي ٤٧٠ ـ ٥٤٨). إعداد السيّد هاشم الرسولي المحلّاتي. ١٠ أجزاء في ٥ مجلّدات، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٣٣. **المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء.** لمحمّدبن المرتضى المولى محسن، الفيض الكاشاني (١٠٠٧ ـ ١٠٩١). تحقيق عليّ أكبر الغفّاري. الطبعة الثانية، ٨ أجزاء في ٤ مجلّدات، مؤسّسة النشر الإسلامي.

٣٤. **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل.** للحاج الميرزا حسين المحدّث النوري (١٢٥٤ ـ ١٣٢٠). إعداد مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث. الطبعة الأُولى، ١٨ مجلّداً، قم، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٧.

٣٥. **مسكّن الفؤاد عند فقد الأحبّة والأولاد.** للشهيد الثاني زين الدين بن علي بن أحمد العاملي (٩١١ ـ ٩٦٥). إعداد مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث. الطبعة الأُولى قم، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٧.

٣٦. **مسند أحمد.** لأبي عبد الله احمد بن حنبل الشيباني (١٦٤ ـ ٢٤١). ٦ مجلّدات، بيروت، دار الفكر.

٣٧. **مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة.** المنسوب إلى الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام (٨٠ ـ ١٤٨). تحقيق السيّد جلال الدين المحدّث الأُرموي. الطبعة الثانية، طهران، مكتبةالصدوق، ١٣٦٠ س.

٣٨. **المصنّف.** لأبي بكر عبد الرزّاق بن همّام الصنعاني (١٢٦ ـ ٢١١). تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. ١١ مجلّداً + الفهرس، بيروت، منشورات المجلس العلمي، ١٣٩٠ / ١٩٧٠ م.

٣٩. **المعجم الكبير.** لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ ـ ٣٦٠). تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي. الطبعة الثانية، ٢٥ مجلّداً، بيروت دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٤/١٩٨٤م.

٤٠. **المعجم المفصّل في شواهد اللغة العربيّة.** إعداد إميل بديع يعقوب الطبعة الأُولى، ١٤ مجلّداً، بيروت،

دار الكتب العلميّة، ١٤١٧/١٩٩٦م.

٤١. **المعجم الوسيط.** لعدّةٍ من الأُدباء من أعضاء مجمع اللغة العربيّة في مصر. مجلّدان، طهران، ناصر خسرو [بالأُوفست عن طبعة مصر].

٤٢. **مفاتيح الجنان.** للشيخ عباس بن محمّد رضا القمّي (حدود ١٢٩٤ ـ ١٣٥٩). طهران، مكتبة محمّد حسن العلمي، ١٣٥٦.

٤٣. **مكارم الأخلاق.** لرضيّ الدين أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي (ق ٦). تحقيق علاء آل جعفر. الطبعة الأُولى، مجلّدان، قم، مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤١٤.

٤٤. **منية المريد في أدب المفيد والمستفيد.** للشهيد الثاني زين الدين بن عليّ بن أحمد العاملي (٩١١ ـ ٩٦٥). تحقيق رضا المختاري. الطبعة الأُولى، قم، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩/١٣٦٨ش.

٤٥. **النهاية في غريب الحديث والأثر.** لأبي السعادات مجد الدين المبارك بن محمّد بن محمّد المعروف بابن الأثير الجزري (٥٤٤ ـ ٦٠٦). تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمّد الطناحي. الطبعة الرابعة، ٥ مجلّدات، قم، إسماعيليان، ١٣٦٣ ش، [بالأُوفست عن طبعة بيروت].

٤٦. **نهج البلاغة** (ما اختاره المؤلّف من كلام أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين). لأبي الحسن الشريف الرضيّ محمّد بن الحسين بن موسى الموسوي (٣٥٩ ـ ٤٠٦). تحقيق صبحي الصالح. قم، الهجرة، ١٣٩٥ [بالأُوفست عن طبعة بيروت، ١٣٨٧].

٤٧. **وسائل الشيعة** (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة). للشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي (١٠٣٣ ـ ١١٠٤). تحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث. الطبعة الأُولى، ٣٠ مجلّداً، قم، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٩ ـ ١٤١٢.